

طيبة

أو نشأة إمبراطورية



تأليف
كلير لالويت
ترجمة وتعليق
ماهر جويجاتي

985

المشروع القومي للترجمة

الفراعنة ..

طبية

أونشأة إمبراطورية

تأليف : كلير لالويست

ترجمة وتعليق : ماهر جويجاني



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد ٩٨٥

- طيبة أو نشأة إمبراطورية

- كلير لالويت

- ماهر جويجاتي

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

PHARAONS**

Claire Lalouette

Professeur à l'Université de Paris-Sorbonne

THÈBES

ou

LA NAISSANCE D'UN EMPIRE

Fayard

© Librairie Arthème Fayard, 1986.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٢٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel: 7352396 Fax: 7358084 E. Mail: asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتوى

15 - تقويه
17 - المقدمة
17 قرية طيبة
23 نشأة النظام الملكى
26 فى زمن الأهرامات الأولى
42 الثورة الإجتماعية
50 السياسة الجديدة
58 أمون وتأسيس الكرنك
65 أوزيريس فى أبيبوس
69 پتاح فى منف
71 الآداب والفنون

الفصل الأول: العالم فى زمن القرن الثامن عشر قبل الميلاد

89 ١- فى أفريقيا، الهيمنة المصرية: عرف وتقليد
89 النوبة والسودان
92 بلاد بونت
93 السهوب والصحارى الليبية، فى الغرب
94 ٢- بلاد البحر المتوسط، التجارة والسياسة
95 كنعان - أرض البنو
96 فينيقيا
99 مدن الرمال
100 جزر البحر المتوسط
101 جزر القوقلاس وبحر إيجه
103 سيناء

106	٢- إمبراطورية بابل
111	٤- الغزوات الهندوأوروبية في آسيا

الفصل الثاني: أجنب في مملكة مصر

117	١- الغزاة الهكسوس، ملك قصير العمر في وادي النيل
117	تقاعس السلطة الملكية المصرية
124	الهكسوس في مصر
132	٢- أمراء طيبة المحزون
132	طيبة الأبية المتمردة
141	طيبة المنتصرة
153	٣- أحمر وإعادة سلطة الفراعنة إلى سابق عهدا
153	طرد الهكسوس
156	جنود الإمبراطورية
159	أحمر ملكاً وإدارياً
164	السيدات الثلاث في البلاط الملكي
174	الكرك - أول الروائع المهيبة

الفصل الثالث: الفاتحين الأوائل أو نشأة الإمبراطورية

183	ضرورة الفتوحات وأساليبها
188	١- مع الجيش من السودان إلى الفرات
188	أمنحوتب الأول: هل كان عامل استقرار أم فاتحاً؟
191	تحوتمس الأول المحارب المنتصر
198	تحوتمس الثاني والحفاظ على الإمبراطورية
203	نحو أيديولوجية جديدة
205	٢- الأمراء والقادة العسكريون.. كبار مؤسسي الإمبراطورية
205	الوزراء ونواب الملك

209 أمراء الكاب
216 أبناء طيبة
224 ٣- المعابد والآلهة
231 ٤- المقابر والشعائر الجنائزية: وادى الملوك

الفصل الرابع: حتشيسوت، الملكة الغاصبة

239 ١- غموض وراثه العرش داخل الأسرة الحاكمة
240 الملك المصطفى
246 الولادة الإلهية والسياسة
250 أولاً: الحمل والولادة
255 ثانياً: القبول فى عالم الخالدين
262 ثالثاً: الملك الأرضى
270 الملكة والملك
275 ٢- صعود نجم كهنة آمون وفيمنة أصحاب الحظوة
275 حيوسنب
278 سن موت
283 بعض أعيان الدولة الآخرين
288 ٣- عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلافة: الحملات التجارية
289 الرحلة إلى بلاد بونت
290 المقدمات
294 الرحلة
299 العودة إلى طيبة
302 الحملة إلى محاجر أسوان
307 ٤- مبانٍ شامخة فى مصر والنوبة
307 الدير البحرى
311 الكرنك

312 فى مصر، بعيداً عن الكرنك
316 فى النوبة
317 مقبرتا حتشيسوت

الفصل الخامس: تحوتمس الثالث أو المجد الإمبراطورى

322 ١- الملحمة البطولية: حملات الفرعون السبع عشرة إلى آسيا
324 معركة الاستيلاء على مجنّو والزحف نحو الشمال
337 حدود نهر الفرات
337 على غرار جنود فانيال فى كابوا
337 الرهائن من الأسر الحاكمة
339 تدفق الثروات
339 عبود نهر الفرات
342 مطاردة الأنبال وقنصها
343 حراسة الإمبراطورية
344 الحملة الأخيرة
345 ملحمة أسطورية
347 ٢. مصر الإمبراطورية: الثراء والروحانية
347 من أجل تعريف للإمبراطورية
352 ضرائب الجزية والعظمة والوفرة
353 منتجات الزراعة وتربية الماشية
354 المواد النفيسة
356 المواد المصنعة
357 البخور
357 الخدم والنساء
358 أعياد النصر واعتراف الملك بجميل الآلهة
365 أيديولوجيا الإمبراطورية الأولى

372 الشئون الداخلية وكبار موظفى الإمبراطورية
375 الوزراء
375 أوسر
378 رخ مى رع
390 القادة العسكريون البواسل
390 أمن إم حب- صديق الصبا للملك
392 القواد العسكريون
394 العسكريين
396 كبار الكهنة وغيرهم من رجال الدين
403 مدراء طيبة
403 أمن إم حات، الكاتب
406 أنتف، الأمير والمؤيد العظيم
409 أمر - نجع، المهندس والمؤيد والحاجب
412 الأفارقة
415 ٤- الفن والخلود
416 معالم مصر الصرحية
428 معالم النوبة الصرحية
432 مسلات العالم
434 المقبرة الملكية

الفصل السادس: أمنحوتب الثانى نصير الإمبراطورية

440 ١- ملك قدير، قوى الشكيمة أو الأسطورة التى لا تقهر
446 ٢- حملات أسيا العسكرية
447 حملة العام السابع
450 حملة العام التاسع
453 ٣- أمجاد مصر وشرف منزلتها

453 الشكر والحمد وأول حلف سياسى
457 روعة المباني الصرحية
460 ٤- فى خدمة الآلهة والملك
474 ٥- باقة زهور أمون الأخيرة

الفصل السابع: سنوات السلم والسلام: ازدهار إمبراطورية التحامسة وأولى التهديدات

479 ١- فراعنة السلام
479 تحوتمس الرابع
479 حلم الظهيرة
481 الإبقاء على الإمبراطورية
485 أمنحوتب الثالث
486 ابن أمون - رع
488 الوجود فى النبوة
492 الأيديولوجية الإمبراطورية. التطورات الجديدة
494 ٢- الدبلوماسية الدولية
495 الأحلاف والاتحادات والمعاهدات
499 السلك الدبلوماسى
500 أولى عناصر القانون الدولى
502 ٣- بلاط طيبة
503 القصور والأعياد اليوبيلية
505 الملكات والزوجات
511 رجال البلاط
511 كبار المسئولين
516 المعماريون والنحاتون
522 المشرفون على الأملاك

528 الحقول وشؤون الغلال
533 رجال تحت السلاح
537 عالم فلكى فى خدمة أمون
538 ٤- المجتمع وشغل أوقات الفراغ
538 جمهور أصحاب المهن
542 الطبقة الوسطى
543 شغل أوقات الفراغ ورحلات الصيد الملكية
545 ٥- الإزدهار وكبرى الأبنية
545 وأخذ الكرنك يتوسع
556 معبد الأقصر: مكان مقدس جديد
561 طيبة: البر الغربى
564 مقاصير مصر العليا
564 فى النوبة وفى السودان وفيما وراء الجندل الثالث
568 ٦- السياسة والدين: ألهة هليوبوليس تستعيد رفعة شأنها
577 ٧- التهديدات تحاصر الإمبراطورية

الفصل الثامن: تشدد أمنحوتب الرابع المتعصب أو زمن الانحطاط الأول

585 ١- أمير فى زهرة شبابه
585 حتى العام الرابع: الجدة والاعتدال
588 قطيعة العام الرابع
589 ٢- التطور الدينى والثورة فى الفن
589 الورع وعدم التسامح
598 الأمير والفن
600 ٣- العمارة أو الحلم الصوفى
600 «أفق الشمس»
609 رفاق تل العمارة

611 خدام آتون
615 موظفو الدولة
619 ٤- السياسة في حالة ضعف خطير
628 ٥- العودة إلى طيبة، بعد الوفاة

الفصل التاسع: وهن الملوك وضعفهم

634 ١- توت عنخ آمون وعودة الآلهة
644 ٢- كنز وادي الملوك
657 ٣- ظلال التاريخ

الفصل العاشر: حور - إم - حب، المخلص. التمهيد لإمبراطورية الرعامسة

663 ١- تسلّم مقاليد السلطة
667 ٢- الإصلاحات الداخلية
672 ٣- حماية الإمبراطورية والحفاظ عليها
674 ٤- طيبة

677 الخاتمة
681 الهوامش
743 المراجع

الإهداء،

إلى الجنود البواسل
عماد جيوش الفراعنة،
الذين لم يذكرهم التاريخ،
فأغفلهم هذا الكتاب،
اليوم أهدى هذه الترجمة.

ماهر هويجاني

تنويه

عن بعض علامات الترقيم المستخدمة في الترجمة الفرنسية للنصوص المصرية القديمة والتزمنا بها في ترجمتنا العربية نقول:

«إنه من المتفق عليه بين علماء الآثار أن ما يُكتب بين معقوفين على النحو الآتي [...] يدلّ على جزء مكسور أو غير مقروء في النص المصري القديم، وأن ما يُكتب بين قوسين على النحو الآتي (...) هو إضافة ضرورية لتوضيح معنى النص المصري القديم...»(*).

المترجم

(*) د. باهور لبيب: تشريع حورمحب، ص ٢٨، هامش ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

Louis Speleers. Textes des Pyramides. Bruxelles. p. xvi.

المقدمة

قرية طيبة

كانت طيبة في الألف الثالث قبل الميلاد قرية من قرى مصر العليا، لم تُظهر بعد ما يمكن أن يميزها عن غيرها من البلدان، حتى إنها لم تكن عاصمة الإقليم الرابع من أقاليم مصر العليا^(*). وكان الموظف المعين من قبل السلطة المركزية لتحرير شئون الإقليم، يتخذ من هرمونتيس^(*) Hermonthis الواقعة إلى الجنوب من طيبة مقراً له. كانت هذه المدينة تعبد إلهاً شمسياً هو الإله الصقر موتو، وشأنه شأن الكثير من الآلهة الصقور التي كانت تُعبد في هذه الأزمنة الموزعة في القدم، اندمج هذا الطائر في الجرم المتألق المهيمن من موقعه في السماء مثله مثل الصقر عندما يحوم بأسطفاً جناحيه في أعالي الفضاء بحثاً عن فريسة. وإلى هذا الوجه الآخر للطائر - الوجه العدوانى الذى اعتاد اصطلياد فرائسه وقتلها، تُعزى السمة الثانية التى يتحلى بها الإله موتو؛ فكان إلهاً محارباً سوف يصبح في زمن لاحق وبعد مرور ألفى سنة، رفيق الفراغة الرعامسة ومرشدهم.

ومن ثم فقد كانت طيبة قرية يسكنها الفلاحون والمراكبة.

كان النيل في هذه المنطقة قد شق مساره وسط الجرف الصخرى لسلسلتى جبال الصحراء الغربية والصحراء الشرقية، وكانت تطلّ على البرّ الغربى الواجبة شديدة الانحدار لتلال كان يُطلق على قممها اسم القرن الغربى للجبل أو رأسه. أما

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «أيون موتو» أو «أيون منت»، ونشأ عنه الاسم القبطى «رمنت» ليصبح «أومنت»، فى الوقت الراهن. (المترجم)

الوديان القاحلة المجدية؛ فلم تكن قد تحولت حتى هذه اللحظة إلى مأوى للفراغة المتوفين. فحتى الآن لم يكن وادى الملوك قد ظهر إلى الوجود أو شيدت القصور الفخمة في البر الشرقى. ولا شك فضلاً عن ذلك أن الكرنك والأقصر كانا أرضاً خلاءً.

كانت حياة البشر تسير وفقاً لإيقاعات حياة النهر الذى يشمل مصر برعايته ويمدها بسبل العيش. وفجأة يرتفع فى شهر يوليو منسوب المياه فى نهر النيل من جراء هطول الأمطار فى منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى جالبة معها الطمي الثقيل الذى انتزعه النهر من هضاب الحبشة، ومن ثم يجرفه من جندل إلى آخر. ويعد أن ينتشر الطمي على شطآن النهر ويغطيها فإن الأرض السوداء - أى كيمت فى اللغة المصرية، وهو اسم مصر عند قدماء المصريين - سوف تمد الرمال الجدياء بعنصر الإخصاب الذى لا غنى عنه لقيام زراعة مزدهرة. وحتى شهر أكتوبر كان الفلاحون يعيشون وسط مشهد طبيعي تغمره المياه، تحت شمس ساطعة مبهرة فى انتظار انحسار مياه الفيضان، عندئذٍ يحل الموسم الذى يتفرغون فيه لأعمالهم: فيبدؤون بالعزق وتسوية المدر^(*) بالمعول ثم يحرثون التربة بمحراث بسيط تجره بقرتان مرقطتان باللونين الأبيض والأسود، وينتقلون بعد ذلك إلى أعمال البذر ودفن الحبوب فى التربة الخصبة بعد أن أصبح من السهل ثقلبيها، وذلك بفضل قطعان من الحمير أو الكباش فتطى التربة وطناً شديداً أو ربما بعد حرث الأرض مرة ثانية.

إن جلب المياه كان منذ أمد بعيد بل وربما منذ فجر التاريخ - أى قبل ٣٢٠٠ قبل الميلاد - تنظمه منطقة من القنوات تسهر السلطة المركزية على صيانتها صيانة فائقة؛ فحياة البلاد من أقصاها إلى أدناها رهن بحسن أدائها.

ورويداً رويداً، يتحقق آنذاك فى أديم الأرض السرّ الإلهى فتنبت الأرض زرعها، ويحلول شهر فبراير يظهر الثبّت الأخضر للقمح الجديد الذى يقوم المصريون بحصاده فى مطلع شهر مارس، وعندئذٍ تعمّ الصياح والأغاني والفرح والتلهيل بين جموع الناس احتفالاً بانبعاث الحياة من جديد.

(*) وهى الطين المتناسك، وواحدته مدرّة، المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

إن متابعة اللحظات الحاسمة فى الحياة الزراعية وطمر الحبوب فى أديم التربة ثم التجديد والإحياء، كانت الأصل الذى نشأت عنه كبرى الأساطير الإلهية فى الشرق الأدنى القديم: إن السرد الأسطورى لحياة أوزيريس أو بعل أو أنونيس - وهى آلهة ترتبط بدورات الحياة الزراعية - تعكس من خلال مختلف وقائعها، الإيقاعات الطبيعية لحياة النبات. إن أوزيريس الذى سيتولى أمراء طيبة تعزيز عبادته وتثبيتها سوف يصبح الإله الذى قاسى الكثير من الآلام، وقام من الأموات عندما بُعث حياً ليُقدّم للبشر نموذجاً قابلاً للتقليد والمحاكاة لحياة تتواصل على مدى الدهر. إن هذه الحكاية الأسطورية التى صاغها بلوتارخوس^(*) فى زمن متأخر، إنما نعرفها الآن من أقدم النصوص المصرية ولا سيما متون الأهرام^(**)، وسيظل تأثيرها الروحي قائماً حتى نهاية تاريخ مصر القديمة.

تذكر إحدى وقائع هذا السرد الأسطورى أن الإله ست، وهو رمز القوى الشريرة وقحل الصحارى وجديها، كان ينظر نظرة حقد وحسد إلى أخيه أوزيريس، أول ملك حكم الأرض فأنشاع فى ربوعها الأمن والبركة، فلجأ ست إلى الحيلة والخديعة حتى تمكن من أخيه على ما يعتقد وقطّعه إرباً إرباً وصلت إلى أربع عشرة قطعة، بعثرها على سطح الأرض كما تبذر الحبوب بعد الحرث. وبالمثل كان ينتظر بعل المصير نفسه بعد المنازعات التى احتدمت بينه وبين الثعبان موت الذى يعنى اسمه «الموت»؛ فقد تبعثر جسده الممزق على الأرض. وفى العاليتين، نجد أن الزوجة الودودة المتفانية، سواء إيزيس أو عشت، هى المرأة الواهبة الحياة التى نجحت على ما يعتقد بعد طول بحث فى العثور على أشلاء الجسد المدفونة، واستطاعت أن تُعيد تكوين جسد الزوج الإلهي، ومن ثم قامت إيزيس بمساعدة أنوبيس الإله - ابن أوى - بصفته الإله المعتمد لاصطحاب الموتى إلى العالم الآخر - قامت بابتكار المومياء الأولى. ولكن ألم يكن ابن أوى - فى الواقع - حيواناً يتردد على مشارف المقابر والجبانات ويقصدها مرة بعد مرة؟ ويعد أن صارت إيزيس بهذه المناسبة عصفورة، يعتقد أنها

(*) مؤرخ يوناني عاش فى القرن الأول الميلادى. (المترجم)

(**) ترجمت هذه النون إلى اللغة العربية: «متون الأهرام المصرية القديمة». ترجمة: حسن صابر،

المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢. (المترجم)

استطاعت بفضل الروح^(*) الصادرة بعد ذلك عن جناحيها الكبيرين أن تعيد الحياة إلى الجسد الجليل، وأن تثبتها فيه بفضل التعويذات السرية المعروفة التي تفوهت بها الزوجة الساحرة. وهكذا وبعد أن ولد ولادة متجددة، عاد إلى الحياة «الإله الأخضر والأسود في مياهه الفتية»: عملاً بالتماثل المطلق القائم بين قوى التجديد الحيوى وزخم حياة النبات.

إن طيبة التي نتحدث عنها هي طيبة الفلاحين بإيقاعاتها الثابتة التي لا تتبدل. كان مشهدها الطبيعي هو مشهد جميع القرى وجميع حقول الوادى الذى يتكوّن من مجرى مائى يمتد بطول أكثر من ألف كيلومتر من أسوان وإلى شواطئ البحر المتوسط. وعلى جانبي النهر ووفقاً لتناظر مطلق يذكّرنا بالصورة المنقولة بوريق شفاف يمكن مشاهدة القنوات التي تتقاطع على هيئة مربعات، فتسمح بتوزيع الطمى والماء توزيعاً صائباً. وهنا، وفوق الحواجز الطينية الصغيرة القليلة الارتفاع كانت تنمو المزروعات التي تعمل البشر وتحافظ على حياتهم: فصنع المصريون الخبز من القمح والجمعة من الشعير؛ فكان الخبز والجمعة أساس كل غذاء بالنسبة للمصري القديم، كما استخدموا الكتان في حياكة الثياب فكانت النقبة والنتورة dupe الطويلة والعباءة الشفافة ذات الثنايا حسب نوى العصر أو الطبقة الاجتماعية. وانتشرت زراعة الخضروات والبقول فى الحقول القريبة من مجارى المياه، ومنها الخيار والحمص والفلول والعدس والبصل التي ستلازم ذكرها العبرانيين^(**) فى برية سين بشبه جزيرة سيناء.

(*) الروح (بفتح الراء وتسكين الواو) هو نسيم الريح التي تثبت فى الجسد الروح (بضم الراء) أى النفس الحية. (المترجم)

(**) الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر العدد: ٥:١١. وللأممية أنكر نص الآية: «فلئلا (أى شعب بنى إسرائيل) نذكر السمك الذى كُنّا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم». ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أشير إلى سفر الخروج: ٢:١٦: «وقال بنو إسرائيل لئلا متنا بيد الرب فى أرض مصر حيث كُنّا نجلس عند قِدْرِ اللحم ونأكل من الطعام شبعنا...». فهل يظل البعض يتحدث عن سوء المعاملة التي عانى منها العبرانيون طوال فترة استضافتهم فى مصر إبان عصر الفراعنة، بعد أن شهد شاهد من بنى إسرائيل: (المترجم)

وبين الحقول المهيأة للزراعة على أحسن وجه والنهر، كانت تمتد منطقة من البرك والمستنقعات فأصبحت في آن واحد عامل تهديد للإنسان وجالبة الخير له؛ فهذا كانت تنمو غابات من نبات البردى. أجل إنها غابات حقيقية؛ لأن المناخ في هذه الأزمنة الموهلة في القدم كان أكثر رطوبة.

ومن ثم كان ارتفاع هذا النبات يصل إلى ستة أمتار. ورغم أن الرسام المصري الذي كان يبدع جداريات المصاطب التي تصطف على امتداد الممرات الواقعة حول أهرام الجيزة، رغم أنه كان يبالي في طول قامة الإنسان عند تصويره، فإن هذا النبات ينمو المفرط كان هو الأطول على الدوام. كما كانت هذه المنطقة عامل تهديد بكل تأكيد. فهذا كانت تعيش فونة^(*) من شتى الأنواع عدوانية وخطرة أحياناً كأفراس النهر والتماسيح. كان المصريون يصطادونها - بطبيعة الحال - باستخدام خفاف كبير رأسه من الظران. ولكن الإنسان الذي عاش في الأزمنة الأولى، وكان يعبد القوى الكونية، سعى إلى التصالح مع هذه القوى الضارة وخطب ودّها؛ وهكذا نشأت الإلهة تاورت ذات الخُطم المرعب والبدن الضخم المخيف والبطن البارز وحامية النُفْسَاء المفضلة عملاً بوجه الشبه بينهما، فضلاً عن الإله سوبك الكامن وسط الأدغال والآجام فيرهد فريسته بفمه المخيف ذي الأسنان الحادة، وهذا أيضاً كانت تعيش الثعابين في الخفاء، وهي من مخلوقات أديم الأرض والنباتات.

وفي هذه المناطق غير الواضحة المعالم الواقعة بين اليابسة والمياه كان المصريون يلتقون أيضاً بعدد كبير من الفرائس الصالحة للأكل كالأوز والطيور السمينة ومنها السُّمَانِي (أو السُّكُوِي) والزقزاق والحمام والهدد والرِّفْرَف، وكانت تعيش جميعها في خيميات نبات البردى. وكانوا يمارسون صيد السمك بشتى أنواعه وبكميات كبيرة، ويقومون بأعمال القنص، فيأسرون الثيران البرية الضخمة بواسطة

(*) لفظ بخيل يقابله في الفرنسية Faune وفي الإنجليزية Fauna، وقد أقره مجمع اللغة العربية المعجم الجغرافي. القاهرة، ١٩٧٤، ويعني أنواع الحيوان في مكان بعينه أو زمان بعينه. (الترجم)

الوهق^(*). كان المصريون يزاولون تربية البقریات التي شكلت إحدى ثروات مصر الطائفة، وكانت قطعانها تنتقل فی حرية تامة عبر المراعى فی حراسة رعاة نصف عرايا يسترون عورتهم بنقبة بسيطة صنعت من أوراق وقش الغاب.

وفى سعيه للحصول على الطعام تعلم الإنسان المصرى كيف يتغلب على المخاطر الناجمة عن المستنقعات التي تعج بالحياة.

وبعيداً عن الحقول وفى اتجاه الشرق والغرب تمتد الرمال الجدياء لصحارى المناطق الشرقية من الصحراء الكبرى التي تتكون باللون الوردى الزاهى تحت أشعة الشمس الساطعة. إنه المكان المفضل لصيد ضواری الوحوش والحيوانات المتوحشة: نذكر منها الأسود والفهود والظباء الأفريقية والماعز البرى.

كانت طيبة تزدهم بالمراكبية الذين يؤمنون وسائل الانتقال عبر نهر النيل على متن قوارب خفيفة فى بادئ الأمر صنعت من البردى ثم استخدمت مراكب أكثر تطوراً صنع بدننها من الخشب وذات أشرعة من الكتان على شكل مُعَيْن^(**). وفى هذه البلاد التي ترتبط فيها الحياة بأليات حركة نهر النيل الطريق الأفريقى الرئيسى حتى البحر المتوسط لعب المراكبية ومراكبهم على الدوام دوراً عظيماً، وأصبحت طيبة فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد أحد أكبر موانئ الشرق.

إن أمون الذى سيصبح فيما بعد الإله الكبير للإمبراطورية، هل كان أصلاً إله المراكبية وإله النسمة المواتية والرياح العليل؟ ولكن لا يوجد على ذلك فيما نعلم دليل واحد لا يمكن دحضه^(٣).

(*) حبل فى طرفه أنشودة يُطرح فى عنق الدابة وغيرها حتى تؤخذ، المعجم العربى الأساسى.
(المترجم)

(**) المُعَيْن: شكل رباعى له ضلعان متوازيان غير متساويين. (المترجم)

هكذا كانت تمرّ الأيام في قرية طيبة. ويمرور الزمن سوف تصبح هذه القرية أكبر عواصم العالم القديم؛ فغدت المركز العالمى لكبرى الإمبراطوريات التى كانت تغطى مساحة شاسعة تمتد من الجندل الرابع على النيل إلى نهر الفرات. إن الأحداث السياسية بالإضافة إلى حركة روحية ودينية كبيرة، قد تقصر هذه الأهمية المتعاطمة تدريجياً التى اكتسبتها مدينة الجنوب التى لا تزال إلى يومنا هذا من أروع المواقع فى العالم. فعلى امتداد الألفى سنة السابقة على ميلاد السيد المسيح شيد فيها الملوك المعابد والمقاصير للألثة تعبيراً عن ورعهم وتقواهم.

نشأة النظام الملكى

نشأت مملكة مصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد بفضل القوة الدافقة للوك عكفوا على توحيد البلاد، كان نعرهم أشهرهم أو أقل من طواهم النسيان. وتشهد صلاية كبيرة من الشست يحتفظ بها متحف القاهرة(*) على هذا الرباط الملكى القائم بين القسمين الكبيرين الطبيعيين لمصر: كانت مصر العليا يحاصرها إلى حدّ ما - منحدران صخريان يكونان سلسلة جبال الصحراء الشرقية وسلسلة جبال الصحراء الغربية، والمسافة بينهما وبين مجرى النهر لا تتجاوز أبداً العشرة كيلومترات. ويبلغ طول الوادى من الجندل الأول عند أسوان وحتى رأس الدلتا تسعمائة كيلومتر. أما الدلتا(**) فكانت تنتشر فيها أفرع النيل الستة على هيئة مروحة لتشكل مصر السفلى. كانت مصر العليا ومصر السفلى منطقتين طبيعتين يصل بينهما نهر النيل، وربما كانتا تشكلان مملكتين منفصلتين فى الألف الرابع قبل الميلاد. وهكذا نفى عام ٣٢٠٠ ق.م تقريباً شرع بعض الملوك يوحّدون مصر لخير البلاد. وتمت هذه الوحدة كما

(*) ويمكن لآثر المتحف المصرى أن يشاهدنا فى الرواق ٤٣ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(**) «دلتا» هو الحرف الرابع من الأبجدية اليونانية، ونعين بهذه التسمية لعالم الجغرافيا اليونانى إيراقستين (القرن الثالث ق.م) الذى ولد فى منطقة برقة الحالية وعاش فى الإسكندرية. (المترجم)

تساعدنا صلاية نعرمر على افتراضه برعاية وحماية الإله الصقر حورس الذي كانت مدينة هيراكنوبوليس Hierakonpolis فى الجنوب مركز عبادته. ويعتقد أنها كانت مسقط رأس نعرمر. وسيظل حورس الحامي المعتمد للملك مصر. ومنذ ذلك الزمن واليشنت يعطى هامة الملوك الأوائل. ولفظ يشنت هو التصحيف اليونانى للكلمة المصرية پاسخمتى أى «القوتين»، كما سيظل اليشنت التاج الرمزى لهذا النظام الملكى الذى ندين له بوحدة مصر: فيجمع بين التاج الأبيض للملكة الجنوبية الأولى وتاج الشمال الأحمر.

ومنذ ٢٢٠٠ وحتى ٢٧٧٨ ق.م تقريباً تعاقت على حكم مصر أسرتان ملكيتان. إن أسباب هذه التغييرات التى تحدث عندما تحمل عائلة ملكية محل أخرى غير معروفة، فيما نعلم. لقد نقل إلينا مانتون التقسيم إلى أسرات ملكية عندما كتب باللغة اليونانية فى عهد بطليموس الأول تاريخاً شاملاً لمصر، ولكنه ضاع للأسف الشديد وإن وصلتنا بعض عناصره بفضل من نقلوا عنه فيما بعد، ومنهم المؤرخ اليهودى يوسيفوس^(*) والمؤرخان المسيحيان يوليوس الأفريقى ولوسابيوس فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين. وهذا المصدر جدير بثقتنا لأن هذه التقسيمة نفسها وردت فى وثائق مصرية: ولا سيما الحجر الذى يعرف اصطلاحاً بحجر پالرمو^(**). وهو لوح كبير من الديوريت يحتفظ بأجزائه المتحف الوطنى لهذه المدينة.

وعلى امتداد خمسة قرون حكم ملوك مصر الأوائل من الأسرتين الأوليين من عاصمتهم ثنى الواقعة فى مصر العليا إلى الشمال من طيبة والمقامة على البر الغربى من نهر النيل. وفى هذا الواقع توجد أقدم جبانة ملكية معروفة، وتتكون من مقابر على هيئة مصاطب أى أن بناعها العلوى يتخذ شكل الأريكة فى حين أن بئراً رأسية تفترق بناعها السفلى وصولاً إلى حجرة الدفن. ولم يُعثر إلا على القليل من البقايا. فمن

(*) ولد فى أورشليم عام ٢٧م. وشهد خرابها على يد قيطس عام ٧٠م. توفى فى روما عام ١٠٠م تقريباً. وكان من مواطنى روما وكتب باليونانية. (المترجم)

(**) يوجد جزء منه فى متحف القاهرة: الطابق العلوى القاعة ٤٢. (المترجم)

الواضح أن هذه المقابر كانت مجرد مقابر تذكارية فالمقبرة الحقيقية موجودة في سقارة في الشمال قرب رأس الدلتا. ومن المحتمل أن نعرمر كان أول من وضع أساسات مدينة منف عند إلتقاء مصر العليا ومصر السفلى^(*). فالمدينة هي «ميزان الأرضين». إنها مدينة سياسية أقيمت بالكامل فوق أرض بكر؛ إذ لم يعثر على أى آثار لإقامة سابقة.

طور هؤلاء الملوك الأوائل عن وعى ونفاذ بصيرة اقتصاداً مركزياً - كان لا غنى عنه فى بلد تعتمد أسباب ازدهاره ورخائه على ضبط فيضان النيل والسيطرة عليه. فوضعوا الأسس الضرورية لإدارة فرعونية حكيمة وأرسوا مبادئ الحكم التى ستدار على أساسها شئون الوادى. فقاموا على هذا النحو بعمل جوهري سيظل صالِحاً يُؤتى أكله على امتداد ثلاثة آلاف سنة. كان زمام السلطة المركزية فى يدي الملك، يعاونه مندوبون يتولى شخصياً تعيينهم فى مختلف «البيوت» فكانوا أشبه بوزرائنا الحاليين، كما كان يعين حكام الأقاليم الذين يسهرون على الإرادة المحلية. وكان مجلس أعلى للحكومة وهو «مجلس العشرة»، يضم أهم هذه الشخصيات ويقف إلى جانب الملك. كان النظام الملكى الجديد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالآلهة التى تهميه وتحافظ عليه. فالملوك والآلهة تجمعهم أواصر حميمة لأن جواهرهم واحد. فالعاهل الملكى كان الحبر الأعظم لمختلف الكهنة؛ فيحق له وحده من الناحية النظرية أن يقيم الشعائر داخل حُجُب قدس الأقداس، وجهاً لوجه مع تمثال الإله، وإن كان من حقه فى واقع الأمر، أن يفوض سلطاته لكبار الكهنة. ومنذ هذه اللحظة تأسست أيضاً الشعائر الملكية الأساسية ولا سيما أعياد اليوبيل.

(*) يقول د. جمال حمدان: «موقع رأس الدلتا قد تذبذب كثيراً... كانت منف فى موقعه أيام الفراغة أى جنوب القاهرة الحالية بنحو ٢٥ كم. ثم انطرد التقدم شمالاً... فى القرن الخامس قبل الميلاد كان الموضع هو جزيرة الوراق الحالية... ووصل إلى بلدة شطوف فى القرن الخامس عشر الميلادى... عاد بعدها إلى الارتداد نحو الجنوب... واليوم فإن رأس الدلتا يقع قرب القناطر الخيرية على بعد ٢٥ كم إلى الشمال من القاهرة». الدكتور جمال حمدان: شخصية مصر، الجزء الأول. عالم الكتب - ١٩٨٠. ص ١٧٠ و ١٧٢. (المترجم)

فى ذلك العصر كانت مملكة مصر تضم وادى النيل والمناطق المجاورة له: سيناء شرقاً ووحدات الصحراء الغربية. وأرسلت البعثات التجارية إلى النوبة وأسيا وازدهرت التجارة مع بلدان حوض البحر المتوسط ولا سيما جزيرتى كريت وقبرص^(٤).

فى زمن الأهرامات الأولى

فى عام ٢٧٧٨ قبل الميلاد دشنت الأسرة الثالثة عهداً جديداً من الشموخ والإزدهار فى ربوع المملكة. واستقرت العاصمة نهائياً فى منف التى أصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً على قدر كبير من الأهمية تحت رعاية إلهها بتاح وحمايته.

وأمر جسر «العظيم» ببناء أول هرم فوق هضبة سفارة، وكان مدرجاً وعلى بعد بضعة كيلومترات من منف وعلى البر الغربى لنهر النيل. وهكذا فإن المصطبة الملكية كما عرفتها العهود السابقة قد ارتفعت درجة درجة إلى ستين متراً ارتفاعاً. وكانت تطل على الصحراء المستوية لتكشف عن شموخ ملك مصر وسؤده، فيغالب الزمن أبد الدهر. وإذا كان هذا المعلم المهيىب يثبت فى حقيقة الأمر البراعة التى اكتسبها النحاتون والمهندسون المصريون فى تسوية الأحجار والتحكم فى أوضاعها، إلا أنه يصبح أيضاً وفى المقام الأول، تجسيداً لفكر أخذ يتطور منذ عدة قرون. وهكذا تأكد وجود مقومات الشعائر الجنائزية وطقوسها: ففى المعبد القائم عند الواجهة الشمالية من الهرم سوف تؤدى الشعائر الجنائزية يومياً لإمداد الملك الراحل بكافة القرابين الضرورية. كما سيصبح فى وسع العامل الملكى الاحتفال فى المقاصير القائمة فى الشرق بالأعياد التى تجدد تتويجه ليستعيد بالتالى شباب قواه الحيوية ليضمن ممارسة حياته كملك إلى ما لا نهاية. العناصر المعمارية لهذه المجموعة الجنائزية الضخمة - وهى تقاد فى بعض الأحيان مبانى حقيقية - هدفها تأمين الدعم المادى لسحر فاعل وفعال أنيط به استمرار حياة العامل الملكى وبوامها فى العالم الآخر واتمام وظيفته المرموقة فى هذه الدنيا.

وفى حجرة الدفن الواقعة أسفل الهرم سوف يبقى الجسد المحنط بمنأى عن عوامل الفساد والتحلل: وهكذا فإن عناصر الكائن الحى اللامادية وعلى رأسها الـ «با»^(٥) ستتمكن من إعادة التجسد فيه. أما الـ «كا» فهو القوة المحركة للفرد، ويعيد إليه النشاط والحياة، على أن يتم إمداده بما يلزمه من طعام فى هيئة قرابين وتقدمات. ووفقاً للكلمات والتعاويذ الجديدة للحياة التى يتفوه بها الكهنة الجنائزيون عند إقامة شعائرتهم، سوف تعود الحياة إلى الغلاف الجسدى. فالكلمة^(٥) عند الشعوب السامية وعند الشعوب الإفريقية على حد سواء، له^(٥) قدرة خلاقة.

إن الحكيم إيمووتى الذى يعتبر فى المعتقد صاحب هذا الإنجاز المعمارى، قد طوّر إذن فى أن واحد، وعلى أكمل وجه، الشكل الخارجى لهذا الأثر الملكى الجنائزى ودلالاته الروحية.

كان سنقر مؤسس الأسرة الرابعة حول عام ٢٧٢٠ قبل الميلاد ملكاً نشطاً قوى الشكيلة، ولما كانت المملكة تشهد آنذاك عصر ازدهار عظيم ونمو اقتصادى وانتشار سياسى عى قدر كبير من الأهمية، أصبح من الضرورى استحداث وسائل فى الحكم أكثر عدداً وعلى قدر أكبر من التنوع: فأسس سنقر منصب ثامى، ويمكن أن نترجم هذه الكلمة بلفظ وزير بالرجوع إلى حقائق من الشرق الأدنى تعود إلى عهد السلاطين العثمانيين. كان الوزير «أننى وعينى» العامل الملكى، وموضع ثقة الملك الذى قام بتعيينه، والرجل الذى يدبر شئون كبرى وظائف المملكة: ولا سيما المرتبط منها بالعدالة والجيش والعناية بالأرض الزراعية وصيانة القنوات. وكان على علاقة دائمة بحكام الأقاليم، ويشرف على إدارة المملكة كسلطة مركزية باسم الملك.

ومعلوماتنا شحيحة جداً عن الملوك الذين خلفوا سنقر: خوفاً وخضوعاً

(*) الكلمة: Logos: le Verbe. «الكلمة» فى هذا السياق مؤنث لفظى ومذكر معنى. راجع إنجيل يوحنا ١: ١. (فى البدء كان الكلمة...) وهو ما يوضحه هامش هذه الآية: العهد الجديد. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. ١٩٦٩. (المترجم)

ومنكاورع. وإن كانت الكتب التعليمية المدرسية تقرد لهم مكانة متميزة، إلا أنه علينا من ناحية أخرى ألا نصدق الحكايات التافهة العديمة الأهمية التي رواها هيرودوت^(*) الذي ربما كان على قدر كبير من السذاجة فأعار سمعه ببساطة شديدة إلى كل ما كان يُروى من قصص في العصر المتأخر وبعد مرور ثلاثة آلاف سنة تقريباً^(١). ولكن علينا أن نقرّ بأن هؤلاء الثلاثة الذين سجلت ذاكرتنا أسماءهم منذ نعومة أظفارنا^(**) كانوا عظماء وأقوياء. وتشهد على ذلك أيضاً «عجائب الدنيا»، وكانت الأهرام إحداها وما زالت تقف شامخة بجوانبها الملساء فوق هضبة الجيزة شمال سقارة على البر الغربي من النيل: كانت الجبانات تُقام في الغالب على البر الغربي فتتجه ناحية الغرب حيث عالم الموتى والمنطقة التي تغرب عندها الشمس وتختفي مع كل مساء فتحاكي الموت وتتشبه به. كان غطاء الأهرام من الحجر الجيري الأبيض القادم من محاجر طرة المجاورة القائمة على البر الآخر من النهر. وكان مُرِيمها من الذهب. فالأبيض والذهب هما اللونان المثاليان للشمس. «فالبياض» هو أحد الأسماء الدالة على الضوء الوهاج للجرم السماوي. أما لحم الآلهة واهبة الحياة فهو من أرقى أنواع الإبريز. والهرم جانب من نور الشمس المتحجر وقد استقر على الأرض، كما أنه الدرب المفضل لارتقاء الملك المتوفى إلى السماء بجوار «أبيه» الشمس^(***). كان الهرم هو الحارس الأمين على جسد العاهل الملكي الذي كانت موميأؤه مسجاة في حوض التابوت المصنوع من الجرانيت في قلب البناء العلوي للهرم في حالة خوفه أو في البناء السفلي داخل حجرة الدفن تحت سطح الأرض. كان الهرم هو الصلة الدائمة التي تربط السماء بالأرض. وهكذا برزت وسادت أيديولوجية أخذت تتطور فيما بعد في العهود التالية. وظلت الأهرامات تنتشر فوق هضبتى الجيزة وسقارة وفي حقول ميلوم ودهشور جنوباً وأبورواش شمالاً، لتبقى خير شاهد على عصر بلغت فيه المملكة أوج ثرائها كما تشهد على حركة أيديولوجية عميقة.

(*) قام هيرودوت بزيارة مصر حوالي عام ٤٥٠ ق.م إبان الاحتلال الفارسي الأول. الأسرة السابعة والعشرون. (المترجم)

(**) المقصود بالطبع أطفال قرنسا. (المترجم)

(***) الشمس اسم مذكر في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

وليس من الصواب فى شىء أن نتحدث على غرار ما قاله بعض الكُتّاب الذين ينتمون إلى الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين - أن نتحدث عن الجموع الغفيرة من العبيد الذين يُضربون ضرباً بالسياط، ويعملون قسراً فى خدمة ملك طاغية! هذه الصورة لا تعكس الظروف التى كان يعمل فى ظلها بناء الأهرامات سواء على الصعيد المادى أو الصعيد الروحى؛ فلم تعرف مصر نظام العبيد. وكان علينا أن ننظر طويلاً حتى نرى أسرى الحرب فى عهد لاحقة يستخدمون كأيدى عاملة مستعبدة. إن العمال الذين كانوا يُسحبون بواسطة الحبال الزلاقات التى وضعت عليها كتل الحجر الجبرى المصقولة بكل عناية كانوا من العمال الأحرار، وقد وقع عليهم الاختيار للعمل لفترات محددة ويقدم لهم ولزويهم الطعام طوال مدة عملهم. كما كانوا أحياناً من الجنود. فمازلنا نقرأ على بعض كتل أحجار هرم خوفو الوحدات العسكرية التى كانوا ينتمون إليها. أما السياط فلا وجود لها إلا فى أفلام هوليوود حتى أصبحت من ضروريات هذا الإنتاج السينمائى الضخم. وأخيراً فإن هؤلاء الرجال يعملون من أجل تحقيق مصائر الملك الأبدية، فقد كان العمل الذى ينجزونه يحقق لهم فى الوقت نفسه مصيرهم الخاص. ويبدو كما لو أن الشعب المصرى قد انقاد على ما يعتقد فى أعقاب العامل الملكى إلى الفوز بحياة شاملة بعد الموت، حياة جماعية مجهولة أسماء أفرادها. ومن الضرورى على الدوام أن نعيد وضع الوقائع والأفكار فى السياق المادى والروحى لعصرها ولا يصح أبداً أن نهشرها فى إطار مفاهيم حديثة، سواء كانت سياسية أم غيرها. وفى هذه الأزمنة القديمة عندما كان الكون بأسره بطاقاته وقدراته كيانات مؤلهة وعندما كان الملوك آلهة، كان بناء هرم فى نظر العامل المصرى لا يختلف عن المافز الروحى الذى حرك حرفيى العصور الوسطى عندما قاموا بتشبيد كنيسة نوتردام Notre-Dame فى قلب باريس^(٥). إن مقصدنا من هذا الكتاب هو أن نتيج للقارئ أن يطلع على النصوص المصرية القديمة ذاتها حتى يتمكن من الحكم بنفسه على الحقيقة الواقعة للعصر محل دراستنا أو يحاول ذلك بقدر المستطاع.

(٥) والشيء نفسه ينسحب على جميع دور العبادة على سبيل المثال. (المترجم)

إننا نعرف الواقع الأيديولوجي المرتبط ببناء الأهرامات بفضل المدونات المنقوشة على جدران حجرات الدفن، بدءاً من عهد أوناس^(٥) - آخر ملوك الأسرة الخامسة - ثم استمرت على امتداد عهود ملوك الأسرة السادسة. وتشتمل هذه المتون على ترانيم وإشارات لاهوتية متنوعة وتعويذات الهدف منها تسهيل صعود الملك إلى السماء بمساعدة الطاقات الكونية ومعاونة الآلهة. وهكذا يندمج الملك في الجرم السماوي فيصير إلهاً مزدوجاً فائق القدرة. كما في وسعه أن يصبح نجماً أو يكرر مصير أوزيريس نفسه ليتاح له أن يُبعث حياً من جديد. إنه يستوعب كافة الصيرورات وتبقى في حوزته القدرات السحرية كلها بل ويتفوق على مجمع الآلهة:

● وصول الملك إلى السماء:

«وجد الملك أن الآلهة واقفة وقد تدثرت في ثيابها، ونعالها البيضاء في أقدامها. ثم ألقى بنعالها البيضاء على الأرض وتجرت من ثيابها. وتحدثت قائلة: «لن يعرف قلبنا السعادة أبداً إذا عاويت النزول»^(٦)

● المعامل الملكي في أعالي السماء:

«عظام الملك من نحاس^(٧)، وأعضاؤه هي النجوم غير الفانية^(٨)».

«إنه الملك، الكائن المقدس، الأول، صاحب المصدر الأبدي، إنه النجم الذي تنحني من أجله الآلهة ويرتعد التاسوع^(٩)»

● الملك ومصير أوزيريس:

تعال أيها الملك، فلا شيء ينقصك. لقد أتت والدتك^(١٠) فلا شيء ينقصك.

لقد أتت نوت، فلا شيء ينقصك. لقد أتت المجموعة الكبرى، فلا شيء ينقصك. لقد أتت حامية القلبين، فلا شيء ينقصك. إنها تجمعك. إنها تعيد تشكيلك. إنها تعيد وضع رأسك في مكانه. إنها تنظف عظامك. إنها تضم أعضائك. إنها تعيد قلبك إلى جسدك. ها أنت من جديد وسط أسلافك. وتصدر من الآن الأوامر إلى أخلافك. لأنك

(٥) وهرمه قائم إلى الجنوب الغربي من مجموعة هرم جسر المدرج في سقارة. (المترجم)

جعلت بيتك مزدهراً في معيتك. وتحمل أولادك من النواح^(١١)... إن طهارتك هي طهارة الآلهة التي تسير وهي تجهل المصير السيئ^(١٢).

● ملك المصائر كلها هو أيضاً ملك القدرات كلها:

«الملك يحكم الآلهة. ويقود القارب الإلهي. إنه يمسك بالسماء ويأساطينها^(١٣) وينجومها. وتأتي الآلهة إليه منحنية والنجوم في معيته من أجل مجده^(١٤)».

إنها رؤية رحية ودائنة لنظام ملكي مقدس. فعندما كان البشر ينكبون على العمل في بناء الأهرامات من أجل إله أرضي عظيم وخالد كانوا بالتالي يؤمنون حقهم في الحماية واستمرار حياتهم بعد الموت.

ويشهد هذا التبجيل الشمسي على وجود أول تجميع لمعتقدات محلية مشتتة على امتداد وادي النيل لصالح إله النور الذي تحول خلال الأسرات من الرابعة إلى السادسة إلى الرب الرسمي لجميع الآلهة والآب الجسدي للملوك. وهناك حكاية أسطورية تروي أن ثلاثة ملوك من الأسرة الخامسة قد ولدوا من صلب الإله رع الذي تجسد على ما يعتقد في جنين زوجة أحد الكهنة. إن هذا الموضوع الثابت عن اقتران إله بامرأة لإنجاب الملوك، موضوع قديم سوف يصبح أحياناً الأصل الذي أدى إلى هاجس يسعى إلى تبرير السلطة الملكية^(١٥). صحيح أن مختلف الآلهة ظلت محل تبجيل في معبدها المحلي فيعبد حورس على سبيل المثال في هيراكنبوليس^(١٦)

(*) (إنى استخدم كلمة صمود كمقابل للفظ pillar في الفرنسية أو pillar في الإنجليزية لكل دعامة مربعة، كما استخدم لفظ أسطون (أساطين) للدعائم ذات القطر المستدير كمقابل للفظ colonne في الفرنسية وcolumn في الإنجليزية. وهي الترجمة التي أخذ بها عالم المصريات الكبير الدكتور محمد أنور شكرى في كتابه الرائد: العمارة في مصر القديمة. هيئة الكتاب، ١٩٨٦. ص ٩٢-٩٤. (المترجم)

(**) (الاسم اليوناني لمدينة «نخن» المصرية القديمة والكم الأحمر قرب إلفو حالياً. (المترجم)

Hierakonpolis ومونتو في هرمونتيس Hermonthis وحتحور في نثرة^(*) ومين في كوپيتوس^(**) وأنوبيس في أسيوط^(***)، إلا أن أول إله «وطني» قد ظهر مرتبطاً بالشمس، ولكن بعيداً عن أى تزمّت أو تشدد، فعالية الجرم السماوى المعترف به، وفاعليته الخاصة كانت تتألف وتتعايش مع فاعليه الآلهة الأخرى في مدن مصر من أجل استمالة وكسب مجمل القوى التى تدبر شئون العالم والتصالح معها، وذلك على نحو أفضل.

يتخذ قرص الشمس أشكالاً متعددة ويعبد تحت أسماء مختلفة: إن رع هو التسمية التى شاع إطلاقها على الجرم السماوى. كما قد يكون أيضاً أتون، وهو اسم القرص ذاته الذى ييسط أشعته وفي نهاياتها أياض تمتد نحو البشر فى حركة معطاة وحامية. وقد ساد اعتقاد ينسب فى الغالب إلى أمهوتب الرابع وحده ابتكار هذه الصورة التى سبقت عهده فى واقع الأمر؛ إذ كانت موجودة قبل حوالى ألف وخمسمئة سنة فى متون الأهرام. كما قد يكون الجرم السماوى صقراً يدعى هورس، وكان أصلاً اسم الجنس لهذا الطائر أو يدعى مونتو^(١٥)، وربما كان فضلاً عن ذلك خپرى الجعران الذى يدفع أمامه كرة الزيل تماماً كما يرتقى قرص الشمس فى السماء. إن تماثل الأوضاع يترتب عليه هنا تماثل الأشكال.

وجاءت هياغة منظومات بسيطة انعكاساً لفكر مولع بالصور: فالشمس^(****) المشرقة هى خپرى، انطلاقاً من تلاعب لفظى قائم على تجانس صوتى مع جذر الفعل خپر الذى يعنى «جاء إلى الوجود»، تماماً كما تأتى الشمس من جديد إلى الوجود مع مطلع كل صباح. ويدعى الجرم السماوى رع، عندما يصبح فى كبد السماء، وفى أوج تألقه. أما فى المساء فيصير أتوم وهو الإله الشمسى الضارب فى القدم الذى يعبد فى

(*) وكان اسمها اليونانى «تنتيروس» Tentyris و«ثونت ثانتوت» هو اسمها المصرى القديم. (المترجم)

(**) الاسم اليونانى لمدينة «جيتقو» المصرية القديمة ولقط حالياً. (المترجم)

(***) و«ساوتى» هو الاسم المصرى القديم. (المترجم)

(****) لن يغيب عن بالنا أبداً أن لفظ «شمس» اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

هليوبوليس^(*) Heliopolis. ويرتبط اسم أتوم من خلال تلاعب لفظي قائم على تجانس صوتي مع الجذر إتم الذي يعنى «بلغ نهايته».

كما يمكن للجرم السماوى (=الشمس) أن يصبح «شور السماء» وفقاً لصورة أسطورية حسية: ففوة الحيوان الحيوية الفعالة تشبه قوة التجديد الدافعة التى تهبها الشمس مع مطلع كل نهار للطبيعة والبشر.

كما نشأت أساطير أخرى أوجدتها هذه الصور الأولية: فصفحة السماء المسطحة المستوية فى امتدادها سوف تتكون من ظهر امرأة أو بقرة، اسمها نوت أو هاتور. إنها تشكل انحناء فوق الأرض، بحيث تلامس اليدان أو القائمتان الأماميتان سطح الأرض جهة الغرب وتلامس القدمان أو القائمتان الخلفيتان سطح الأرض جهة الشرق. وهكذا يولد نجم الصباح حسب أحوال المخاض والولادة، إما فى هيئة طفل صغير أو عجل من ذهب. وعند الظهر وهو فى أوج قوته سوف يخصب أمه ليختفى فى فمها بحلول المساء. ويصفته «الأنطفة المتناكفة» للإله، والزوج والابن فى أن واحد، سوف تستمر فترة عمله الليلية لمدة اثنتى عشرة ساعة.

كما تشكلت صور أخرى تولدت من ملاحظة المشهد الطبيعى ملاحظة بسيطة: فسوف يجرى عبر السماء نيل آخر وعلى صفحة مياهه سوف يبحر الإله على متن قاربه، فيستهل رحلته من الشرق حتى يصل إلى الغرب. وبحلول المساء سوف يختفى فى العالم السفلى، تحت الأرض المحور المركزى للكون المخلوق. وهذا العالم الآخر القائم أسفل الأرض هو بمثابة صورة منقولة نقلاً أميناً عن السماء العلوية ولكنها معكوسة. فسوف يواصل الجرم السماوى رحلته النهرية على صفحة نهر النيل السفلى فيجلب معه النور والحياة للموتى الذين يتزاحمون عند شطآنه، ليبزغ بعد ذلك، من جديد جهة الشرق مستهلاً دورة أخرى.

جميع هذه التصورات لا تتناقض ولا تتعارض ولكنها إبداعات أسطورية متنوعة، تفتق عنها وعى دينى مرهف، يدرك ما تنطوى عليه المشاهد الخيالية من إمكانات حسية فى تفسير العالم.

(*) الاسم اليونانى لمدينة «إونو» المصرية القديمة وعين شمس والمطرية حالياً. (المترجم)

وفى مدينة هليوبوليس الواقعة إلى الشمال من العاصمة منف^(*) Memphis كان كهنة الشمس يعملون على إعلاء شأن إلههم. فصاغوا منظومة على قدر كبير من التطور فى محاولة من جانبهم تفسير نشأة الكون، فجمعوا تسعة آلهة فى تاسوع واحد خالق الكون. كان الخواء الأولى سائلاً بلا كائنات حية وظلاماً غاب عنه الزمن، إنه نون. وفيه وجدت قوة إلهية كامنة فى أعماق المياه: إنه أتوم أو أتوم-رع الذى خرج من نون فى أول الأيام بقوة إرادته الذاتية - فكان: النور وهو أول ما ظهر إلى الوجود. وبعد هذا الفجر الأولى، خلق أتوم عناصر العالم. فعن طريق الاستنماء أو البصق أوجد الزوجين الأولين: شو وتفنوت - إله الهواء وإلهة الرطوبة. كما أنهما أول مظهرين للزمن الأبدى، والبعد الأول الذى اكتسبه كون المستقبل. أما شو وتفنوت فقد أنجبا جب إله الأرض ونوت إلهة السماء. وهكذا وجد المكان والزمان. وفى سلسلة متواصلة من عمليات الإنجاب جاء الدور على جب ونوت لينظما العالم فولد من اقترانهما الزوجان أوزيريس^(**) - وهو مبدأ خير وأول ملوك الأرض الذى علم البشر فلاحه الأرض وزراعة الكروم وعلم الحرفيين حرفتهم - وولدت أخته وزوجته إيزيس^(***)، كما ولد الزوجان ست - الأجدب صاحب التأثير الضار مثل الصحارى ونفتيس^(****)، إن صياغة قصة هذا التاسوع تشهد أيضاً على التوجه السياسى لكهنة هليوبوليس الذين رأوا من المناسب بل ومن الحكمة، أن يتحالفوا مع أوزيريس، هذا الوافد الجديد والنموذج الجدير بتقليده ومحاكاته. وسوف يظل رع وأوزيريس صاحبي الدورتين الثابتتين اللتين لا تتبدلان - دورة الشمس وبورة النبات - سوف يظلان على امتداد التاريخ المصرى الضامنين العظمين لحياة متجددة على مرّ السنين والدهور، وإلى أبد الأبد.

وإن لم يتبق شيء من المعبد الذى شيده جسر من الحجر الجيرى الأبيض فى

(*) الاسم اليونانى لمدينة «من نقر» المصرية القديمة وميت وهيئة حالياً. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «أوزير». (المترجم)

(***) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «إيزيس». (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «نيت حوت». (المترجم)

منف من أجل الإله - الشمس، والذي تذكره النصوص اللاحقة فإن بعض أطلال معبد الشمس الذي شاده خعفرع على مقربة من «أبو الهول» استطاعت أن تقاوم الزمن. كان المعبد يضم مقصورتين، تتجه الأولى ناحية الشرق والثانية ناحية الغرب. إنهما الجهتان الرئيسيتان لرحلة الشمس اليومية.. وقد عثر في «أبو» غراب عند حافة الصحراء الغربية وعلى بعد عدة كيلومترات شمال غرب مدينة منف، عثر على بقايا أحد معابد الشمس التي شيدها ملوك الأسرة الخامسة^(*)؛ فمعبد نى أوسر رع ومعنى اسمه «تنسب القدرة إلى رع» هو أول مجموعة مقدسة وصلت إلينا. إنه معبد غير مسقوف فتغمره الضياء الإلهية. بينما نرى أن المعابد البدائية التي لا نعرفها إلا من خلال صورها التي تعود إلى عصور متأخرة، فضلاً عن المعابد الكلاسيكية، كما سنرى من سياق هذا الكتاب^(**)، كان قسمها المخصص لقدس الاقداس وملحقاته غارقاً عن قصد في دياجير ظلمة تستره وتحميه. يبدأ معبد نى أوسر رع عند الوادي بصُفّة ثلاثية ذات أساطين، إن طريقاً صاعداً لطيف الانحدار، طوله مائة متر وعلى جانبيه سور، يتخذ اتجاهها مائلاً مقارنة بمحور المعبد، لينتهى عند صفة ثانية هي جزء من الجانب الشرقي من السور الملف حول المعبد. أما المعبد فيتكون أساساً من مسلة - هي الأولى فيما نعلم - وما زالت عريضة إلى حد كبير ومشيدة من كتل حجرية مرصوفة وترتفع إلى علو خمسة وثلاثين متراً وقائمة فوق قاعدة في هيئة هرم ناقص وأمامها مائدة قرايين مخصصة لأداء الشعائر. والمسلة رمز شمسي تحاكي الـ«بن بن» وهو حجر هليوبوليس المقدس الذي أشرقت فوقه الشمس مع مطلع أول يوم من أيام الكون ويرتبط بالشعائر التي تقام من أجل النصب الصخري العمودي أو بيت إيل^(**) في اللغات السامية أي «بيت الله». كانت مجموعة «أبو» غراب المعمارية محاطة بسور طوله مئة وعشرة أمتار وعرضه ثمانون متراً. وعلى بعد ثلاثين متراً إلى الجنوب من هذا السور عثر على بقايا مركب كبير من الطوب - كان تحت تصرف الإله للقيام برحلته اليومية على صفحة «نيل- السماء» و«نيل العالم السفلي». وربما حفرت أحياناً تجاوبف عند سفح الأهرامات لتضم مركب، وكانت على مقربة من المعبد الجنائزي عند

(*) من أسرار الدولة القديمة وامتد حكمها من ٢٥١٠ إلى ٢٣٥٠ قبل الميلاد تقريباً. (المترجم)

(**) راجع سفر التكوين ١٤:٣٥ وأيضاً ٤٥:٣١. (المترجم)

الواجهة الشرقية للمبنى ففيه كانت تقام يومياً الشعائر التي تضمن استمرار الحياة في العالم الآخر. وهكذا كانت خمسة مراكب على مقربة من هرم خوفو: ثلاثة جهة الشرق واثنان جهة الجنوب. ومن الراجح أنها كانت مخصصة للملك المتوفى بعد أن صار رفيق الشمس في رحلتها صباح مساء على مدار الأيام. وهكذا وسواء بسبب الورع الشعبي الأكيد الذي كان يكتنه المصريون تجاه جرم السماء واهب الحياة، أم بسبب العمل النابه الفطن الذي قام به كهنة هليوبوليس، فإن هذه المدينة القريبة من منف عاصمة مصر السياسية صارت عاصمتها الدينية. أما مقر السلطات الدنيوية والروحية فكان في ذلك الزمن في مصر السفلى قرب الرأس الجنوبي لدلتا النيل.

كان لهذه الهيمنة الشمسية وهذا الالتئام الأول لجميع الآلهة المصرية تأثيره على عناصر الحياة السياسية. فقد أضاف الملك اعتباراً من خعفرع إلى قائمة ألقابه الرسمية التي تتحدد يوم تتويجه، اسماً خامساً هو لقب ابن رع. وأصبح الاسمان الأخيران في قائمة الألقاب هذه، أى اسم ملك مصر العليا ومصر السفلى وهو رابع هذه الأسماء واسم ابن رع يحاطان من الآن فصاعداً بخرطوش اشتق شكله من العلامة الهيروغليفية شن التي تعنى «يحيط به» أو «يطوق». وهكذا اندمج مدار الشمس ومساره، مع اتساع مجال سيطرة الملك، إندماجاً قائماً على رسم العلامة الهيروغليفية. إن الملك والإله يتمتعان بالسلطة نفسها على الكون، فالعاهل الملكى «سيد كل ما يحيط به القرص». وهكذا يتأكد مرة أخرى الاتحاد الجوهرى القائم بين الكيان الإلهى الأسمى والملك. وكأنعكاس محلى لهذا التصور كان حكام الأقاليم، فى الغالب وفى إطار أقاليمهم، كبار كهنة الإله المحلى. فالسلطة المحلية هى صورة منقولة نقلاً أميناً عن السلطة المركزية التي تخطط خلطاً تاماً بين ما هو دنيوى وما هو روحانى، ولا تميز بينهما.

وفى إطار هذا النظام الملكى المطلق، نجد أن السياسة والدين والإقتصاد والحياة الإجتماعية خاضعة لشخص الملك-الإله وهو بصفته الأساسية هذه، الوسيط الطبيعى والضرورى بين البشر والآلهة. ويظل تمثال «أبو» الهول فى الجيزة أفضل مثال يوضح هذه الأيديولوجية: فالرأس رأس خعفرع والجسد جسد أسد منحوت فى

صخر الحجر للصحراء ويبلغ طوله سبعين متراً وارتفاعه عشرين متراً. إن الوحش الضخم وهو الحارس الملكي الأمين للجبانة، يمد جسده القوي بين رمال الصحراء الصهباء والسماء. إن صروف الدهر واعتداءات البشر لم تفلح في طمس المهابة الفاتنة العظيمة لهذا الوجه الملكي.

عمّ الرخاء المملكة وتعاضل ثراؤها. وأرسل الكثير من البعثات التجارية إلى البلدان المجاورة فجلبت القمح والأبقار من النوبة والذهب من النوبة وسيناء وبلاد بونت^(١٧) والنحاس أيضاً والأحجار الكريمة كالدهنج (الملاخيت) والفيروز والزمرد من سيناء. كما أحضرت من بلاد بونت البخور الضروري لإقامة الشعائر. ومن لبنان جاءت أخشاب الأرز الضخمة لبناء أبواب المعابد وسفن أعالي البحار. أما الأبنوس والعاج وريش النعام فقد جاءت أساساً من النوبة.

وتطورت الإدارة المركزية. وأزبجت «البيوت» الأول يدير شئون مصر العليا والآخر شئون مصر السفلى. ولم يحتفظ بوحدة سوى «بيت المياه» الذي كان مسئولاً عن التنسيق بين الملاحظات التي تسجلها مختلف مقاييس النيل المنتشرة على امتداد نهر النيل لتنظيم الفيضان وزيادة مساحة الأراضي الصالحة للزراعة بقدر الإمكان. كما بقيت مصلحة المحفوظات موحدة. وتعاضلت أهمية طبقة الكتبة. كانوا من المتعلمين المثقفين فيضبطون الحسابات بعناية فائقة في الأملاك الملكية أو الخاصة، على السواء. فيقومون بإحصاء المحاصيل وتقدير عدد القطعان. ويفعلون الشيء نفسه في «البيت الأبيض» أي وزارة المالية ويساهمون مساهمة فعالة في حسن إدارة شئون الدولة. وأصبحت مزاوله مهنة الكاتب من المواضيع الأثيرة في مجال الفنون، فنذكر على سبيل المثال تمثال كاي في متحف اللوفر^(١٨). وفضلاً عن ذلك فقد أبرزت النصوص الأدبية الدور المتميز الذي اضطلع به هؤلاء الأشخاص في حياة البلاد.

(١٧) لايد من الإشارة في هذا الصدد إلى تمثال الكاتب المصري بمتحف القاهرة، الفائق الروعة بملامح وجهه المعبرة. النور الأرضي. القاعة ٤٢. (المترجم)

هكذا يتحدث خيتي المتواضع المنبت إلى ابنه عندما يصطحبه إلى المقر الملكي ليلتحق «بمدرسة الكتّاب» ليتعلم فيها ليصبح كاتباً:

«وكما ترى لا تخلو مهنة واحدة من رئيس، إلا مهنة الكاتب: فالكاتب رئيس نفسه. وإذا كنت ملماً بالكتّاب فكل شيء سيكون بالنسبة لك على ما يرام. لا ينبغي أن تضع نصب عينيك مهناً أخرى. انظر! فأنا من جانبي إنسان رقيق المنبت، ولكن إن يقال عن مثل هذا الرجل أنه فلاح. عندئذ عليك أن تنتبه جيداً. وكما ترى فما أفعله من أهلك عندما انحدر في النهر متجهاً إلى المقر الملكي، إنما أفعله حباً لك. إن يوماً واحداً تقضيه في المدرسة سيفيدك، لأن ما يتم فيها من عمل، يدوم دوام الجبال إلى أبد الآباد... وينظر إلى الكاتب بصفته إنساناً يُنصت. ومن يُنصت يصبح إنساناً في مقدوره أن يتصرف. سوف تنهض مع كلمات الترحيب وسوف تسير بخطى ثابتة وإن يضمن قلبك بشيء. سوف تكون في صحبة الرؤساء ويكون أصدقائك أشخاصاً من مكانتك نفسها. انظر، لقد وضعتك على طريق الإله. إن كوع الكاتب هو ثروته^(٥). وذلك منذ اليوم الذي ولد فيه. فعندما يصل إلى قاعة الجلسات في المحكمة، ينشط الناس من أجله. انظر، لا يوجد كاتب واحد يفتقر إلى الطعام أو خيرات القصر الملكي. إن المكان المخصص للكاتب يجعله على رأس المحكمة؛ لذلك أعبد الإله من أجل أبيك وأُمك اللذين وضعاك على درب الحياة^(١٨)».

عُهد إلى حكام الأقاليم بالإدارة المحلية. إنهم المنويون المفوضون من قبل الملك لإدارة الثمانية وثلاثين إقليماً التي كانت قائمة آنذاك. إنهم يشرفون على صيانة الترع والقنوات ويدبرون شئون الأراضي الملكية، وتقع على عاتقهم مسئولية جهاز الشرطة وتجنيد الشباب للإلتحاق بالجيش.

وهكذا نشأت كبرى العائلات. كانت سلتهم بالبلاط الملكي وثيقة في بادئ الأمر. وتشهد على ذلك صفوف المصاطب التي لا تنتهي وتضم المقابر الخاصة بكبار

(٥) نذكر في هذا الصدد المثل العربي: «لا يعرف كوعه من بوعه» للدلالة على الجهل المطبق، والبؤس هو العظم الذي يلي إبهام الرجل. (المترجم)

الموظفين اعتباراً من الأسرة الثالثة حول مرم الملك، وهى بمثابة إنعكاس متحجر لسلطة البلاط الملكى فى مفق. إنه مجتمع لم يعرف بعد سوى القليل من التراتب الهرمى الإجتماعى. فينقسم إلى طبقة حاكمة وجماهير غفيرة من الفلاحين، والكتبة والحرفيون وخدمهم هم الذين شرعوا يشكلون أولى الطبقات الوسطى. كما كانت القيم الأخلاقية تلعب دوراً عظيماً فى الحياة الإجتماعية. فقد وصلتنا التعاليم التى دونها الوزير پتاح حوتپ من أجل ابنه. عاش هذا الوزير فى عهد الملك إسيسى من الأسرة الخامسة، حول العام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. فالمبادئ المعلقة تعبّر عن الموقف الشخصى فى مواجهة الحياة وعن السلوك الفردى فى المجتمع، على حدّ سواء.

● جوهر ممارسة الحقيقة والعدالة:

«الحقيقة - العدالة»^(١٩)، عظيمة الشأن وتقوم ثروتها. إنها لم تتعرض أبداً للعواصف منذ زمن خالقها. كل من يخرج على نوااميسها يتعرض للعقاب. إنها طريق يمتد أمام الجاهل، فلن تسمح الخسة أبداً أن يرسو المرء فى أى ميناء، فى وسع الدناءة أن تستولى على الثروات. ولكن قوة الحقيقة - العدالة، فى كونها تغالب الأيام، ويستطيع المرء أن يقول عنها: «إنها الثروة التى أترثنى إياها أبى»^(٢٠).

● على المرء أن يكون كريماً:

«إذا حرثت، فليكن حقلك مزدهراً وليعطك الله بوفرة ولا تتباه كثيراً بذلك وعندئذ لا تطالب الفقير بشىء».

● أن يكون المرء رحيماً:

«إذا كنت رئيساً فاستمع فى هدوء إلى كلمات الشاكى. ولا تردّه طالما لم «ينظّف» جسده من كل ما كان يفكر أن يقوله لك. الإنسان التعس بطيب له أن يغسل قلبه أكثر من أن يرى ما جاء من أجله يتحقق»^(٢١). كم هو مفرح لكل شاكٍ أن يجد مميئاً يهتم به»^(٢٢).

(*) مازالت تدور الأمثلة الشعبية الآتية حول المعنى نفسه: «لاقبنى ولا تغدبنى» و«وش بشوش ولا جوهر بملو الكف» و«بلاش توكلفى فرخة سمينة وتبيتنى حزينة». (المترجم)

● أن يشغل المرء باله بالآخرين، وأن يكون ثابت الجأش:

«لا تشيع الرغبة بين الناس وإلا سيعاقبك الله بالمثل. إذا ظن إنسان أنه قد يعيش بهذا الأسلوب فسوف يُحرم قومه من الخبز. لا تسمح بأن يظهر الخوف من الناس. فمشيئة الله هي التي لا بد أن تظهر. وستعمل بحيث يعيشون في سلام. عندئذ سوف يحضرون ويعطونك من تلقاء أنفسهم^(٢٣)». «إذا كنت رجلاً قوياً، فاعمل على أن يحترمك الناس بسبب علمك وكلامك الرصين. لا تأمر (الآخرين) إلا لكي ترشد(هم). أن يكون (المرء) غنياً يعني الإنسياق للشر. لا تكن متعال حتى لا تحط من قدر (الآخرين). لا تكن صموتاً ولكن تجنب الإسائة (إلى الآخرين) أو الرد بكلمة حادة. اشح بوجهك وتعالى نفسك، إن لهيب مزاج أفرج قد «يعصف بالإنسان الطيب»^(٢٤)».

● التصدى لكل نزعة تجنح إلى الكبرياء:

«ليت قلبك لا يكون متغطرساً بسبب ما تعرفه. لا تملأ قلبك بحقيقة أنك عالم. ناقش الجاهل بالطريقة نفسها التي تناقش بها الإنسان صاحب المعارف. لأن المرء لا يبلغ أبداً حدود فن من الفنون. إن حرفياً، كائناتاً من كان، لا يتحلى أبداً بصفة الإمتياز. فالكلمة الصائبة قد تتوارى أكثر من زمردة. وقد يجدها المرء عند الخاديات المنحنيات على الرحي^(٢٥)».

● تأسيس عائلة تتجلب نزية صالحة:

«(إذ يعتبر الابن مسئولاً عن تأمين استمرار حياة الأب بعد وفاة هذا الأخير وغيابه عن عالم الدنيا وذلك بفضل إقامة الشعائر الجنائزية يومياً^(٢٥)):

«إذا كنت رجلاً رفيع المقام فأسس بيتاً، وأعزّ زوجتك في دارك كما ينبغي. واملأ بطنها واكسها على أحسن وجه. كما أن الأدهان علاج فعال لجسدها. ومن ثم اجعلها سعيدة ما دمت حياً. إنها حق خصب لمن يملكها. لا تحاكمها ولكن ابقها بعيدة عن القيادة، لأنها قد تثير العاصفة. «ربت» على قلبها بواسطة ما يحدث لك (من سعادة). وهكذا ستبقى في دارك^(٢٥)».

(*) وحول المعنى نفسه بدور المثل الآتي: «إلى خلف ما ماتش. (المترجم)

● احترام التراتب الهرمي الذي يحقق الترابط الاجتماعي:

«احنْ ظهرك أمام من هو أعلى منك، أمام رئيسك في القصر الملكي. هكذا سيُلوّم بيتك كما ستُلوّم ثرواك في أن واحد. وسوف تحصل على راتبك بنزاهة. فالساعد الذي يمتدّ لن يبقى مشلولاً (لن يمتدّ بلا جدوى بل سينال ما يريد). إنه أمر سيء أن يناهض المرء رئيساً؛ فالمرء يحيا طالما كان طليعاً^(٣٦)».

ولكن الإفادة التي أعلنها نفرسغم - رع المدعو شيشي، الكاهن الجنائزي الملحق بهرم الملك تيتي (الأسرة السادسة حول عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد) هي أكثر بساطة وإن كانت تكشف عن أريحية الرجل:

«لقد قلت الحقيقة ومارست العدل.

لقد أحسنت الحديث ورددت (الكلمات) تريدك موفّقاً.

لقد أرشدت العدالة حتى يحبني الناس حباً عظيماً.

لقد أنقذت الضعيف من يدي الأقوى منه، بقدر استطاعتي.

لقد أعطيت الجوعان خبزاً وملبساً للعريان.

لقد أتحت لمن ليس له قارب أن يبلغ الشاطئ.

لقد قدمت دفنة لمن ليس له ابن.

لقد اصطحبت في القارب من ليس له سفينة.

لقد كرّست أبي وكنت وديعاً مع أمي وريت أبنائهما.

هكذا يتكلم من يدعى شيشي^(٣٧)».

(*) يقول المثل الشعبي: العين ما تَعْلَش ع الحاجب والي يطاطي لها تقوت. (المترجم)

استعرضنا فيما سبق أفكاراً تدعو إلى البرّ والعدل. وقد ظهرت بوضوح مراراً وتكراراً فى الإفادات الأخلاقية المنقوشة بالمقابر، والتي تؤكد على السلوك القويم لكل امرئ طيلة حياته.

الثورة الاجتماعية

ولكن ظلت السلطة تستهوى البشر، على مرّ العصور. فسرعان ما تعرضت المؤسسة الفرعونية الأولى لتهديدات قوّمت الأسس التي نهضت عليها. فقد بدأ حكام الأقاليم ولا سيما حكام مصر العليا وهم الأبعد من حيث المسافة عن البلاط الملكى فى منف، بدؤوا يدبرون شئونهم بالتدريج بأساليب فيها قدر متعاطف من الاستقلال عن السلطة المركزية. ففى هذا البلد الذى تشكل فيه العائلة نواة المجتمع الأساسية، كان كل شخص يشغل منصب من المناصب يودّ أن يورث وظيفته لابنه، بل إن الحكيم حتاح هوتب ذاته قد ألقى على مسامح الملك إسيسى حديثاً مسهباً، كانت تفرض جملته الأخيرة، شكلاً من أشكال الضغط السحرى على قرار الملك:

«أيها العامل الملكى، يا سيدى، لقد بلغت الآن من العمر أُرذله. وانقضت الشيخوخة (على)، والتدهور يتجدد بلا هوادة بعد أن فرضت نفسه. والمرء يغفو طوال النهار. والعينان مريضتان والأذنّان صمّان. واختفت القوة لأن القلب متعب والفم صامت، لا ينبس بكلمة. وتوقف القلب عن التفكير^(٢٨). بل لم يعد يتذكر الأمس. والعظام تتألم بسبب طول مدة الحياة. وما كان مصدر سعادة صار الآن تعاسة واختفت جميع الأحاسيس... استأنثك إذن أن تصدر الأوامر بأن يتخذ خادمك لنفسه عصاً للشيخوخة^(٢٩) حتى استطيع أن أخبره بكلمات الذين كانوا ينصتون فى الزمن الماضى وينصائح الأجداد الذين أطاعوا الآلهة. عنئذ سيفعل الناس من أجلك الشيء ذاته. وتطرد الشرور بعيداً عن شعب مصر وسوف تعمل الضفتان من أجلك^(٣٠)».

هكذا تكونت أوليجاركية^(*) خطيرة. ففي بلدة الشيخ سعيد بمصر الوسطى الكائنة على بعد ٢٠٠ كم تقريباً شمال طيبة - بدأ أمراء إقليم الأرنب البري^(**) يورثون مناصبهم اعتباراً من الأسرة الخامسة وياتوا منذ الآن يبدفون في أقليمهم. وانتشرت هذه العادة الجديدة. ولعالجة هذه المعضلة وتداركها أسس ملوك الأسرة الخامسة منصب «حاكم الجنوب» فكانت مهمته تنسيق أعمال حكومة مصر العليا مع مراقبتها في الوقت نفسه. ولكن مع قرب نهاية الأسرة السادسة أصبح هذا الحاكم لا يتمتع سوى بقدر محدود من السلطات. وبالتدريج فُقرت المؤسسة الملكية من جراء أعمال النهب والإغتصاب التي أقدم عليها المدارة الإقليميون.

بل ظهر من حول الملك ابتداءً من الأسرة السادسة مجموعة من المقربين الذين نزعوا إلى الجمع بين عدد من الإمتيازات الملكية والمراتب الشرفية؛ مما زاد من انحسار فاعلية السلطة المركزية.

ظل الخطر كامناً غير فاعل في عهد ملك حازم ونشط مثل بيبي الأول. ولكن سنوات حكم بيبي الثاني المديدة دامت تسعين سنة. إن وهن الملك الطاعن في السن، بعد أن تجاوز سن المئة، سوف يقود البلاد إلى أزمة خطيرة في السلطة. وربما حدث أيضاً أن الفلاحين الذين تطلعوا أساساً إلى مزيد من المزايا في حقوق الملكية، قد عجلوا من قيام الثورة. ولكن يظل كل ذلك في الوقت الراهن محض افتراض إذ لم يقدم نص مصري واحد تقريراً واضحاً عن هذا الموضوع. ومع ذلك، فإن البدو «السائرين - على - الرمال» القادمين من بلاد كنعان^(***) قد نفذوا إلى داخل الدلتا.

(*) نظام سياسي تنحصر فيه السلطة في فئة محدودة من الأشخاص أو في طبقة ضيقة تتمتع بامتيازات خاصة. والمصطلح مشتق من الكلمة اليونانية «أوليجاركية». ومعناها نظام القلة. (المترجم)

(**) وهو الإقليم الخامس عشر من أقاليم الوجه القبلي واسمه «ون» في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

كانت ثورة اجتماعية حقيقية صاحبها غزو أسبوى. واستمر ذلك قرناً من الزمن من ٢٢٦٠ حتى ٢١٦٠ قبل الميلاد تقريباً. ولا نعرف على وجه التحديد أحداث هذه الفترة، ولكن عدداً من النصوص كانت صدقاً لهذه الإضطرابات:

«لم يعد كبراء البلد يشكلون حكومته. ما كان قد حدث في الزمن الماضي أصبح وكأنه لم ينجز أبداً. يتعين على رع أن يعيد الخلق من جديد. لقد هلكت البلاد من أقصاها إلى أدناها فلم يبق منها شيء. بل إن مصائرنا المرسومة لم يتبق منها مجرد سواد الأظفار^(٣٧). إن ما أصاب هذا البلد بلغ حداً خطيراً حتى أنه لا يوجد من ينتحب عليه أو من يتكلم أو من يبكي... لقد توارى قرص الشمس واحتجب ولم يعد يسطع حتى يمكن للشعب أن يرى... ونهر مصر ناضب فيعبره المرء دون بلل^(٣٨)... إن طيوراً جاءت من الخارج تفرخ في مستنقعات اللقنا. لقد عشت على مقربة من المصريين الذين تركوها تقترب بسبب الشقاء (الذي يعانون منه)^(٣٩)».

وينوح إيبو - ور وينتحب طويلاً وينظم نمماً شعرياً يحرك العواطف عن موضوع الثورة الاجتماعية المدمرة التي قلبت كل الموازين:

انظروا إذن، فالصحراء تنتشر في البلاد، والأقاليم تسلب وتُنهب والاسبيون القادمون من الخارج جازوا إلى مصر...

انظروا إذن، لقد اختفت البسمة، فلا أحد يبتسم، ومنذ الآن تعم الشكوى أرجاء البلاد وقد اختلطت بالنواح والانتحاب... انظروا إذن، فقلوب الحيوانات تبكي أيضاً وقطعان المواشي تننّ بسبب أحوال البلاد...

انظروا، إن الرجل الذي كان ثرياً (فيما مضى) ينام الآن ظمئاً. أما الذي كان يستجدي في الماضي رواسب الأقداح، أصبحت الجمعة تفيض الآن عن حاجته. انظروا، من كانوا يملكون في الماضي ثياباً كتانية يرتدون الآن الأسعال. ومن كان لا يستطيع أن ينسج لنفسه يمتلك الآن أرقى أنواع الكتان.

انظروا، من كان معوزاً وقيق الحال أصبح ثرياً والثرى أصبح فقيراً^(٤٠).

صاحبت الثورة الاجتماعية ثورة الوعي والضمائر. فبعد أن فقد الإنسان فجأة
المرتكزات التي يوفرها النظام الملكي والدين، انقطع إلى نفسه؛ فانتابه الشك، وأخذ
اليأس من الحياة يخفف من وحدته قائلاً:

«لن عساي أتحدث اليوم؟
فالإخوة أنفسهم أشرار
وأصدقاء اليوم أصبحوا لا يحبون.

لن عساي أتحدث اليوم؟
القلوب طماعة
وكل واحد يستولى على ممتلكات الغير.

لن عساي أتحدث اليوم؟
دمائة الخلق اضمحلت
وعادت السطوة للجميع.

لن عساي أتحدث اليوم؟
الناس يرضيهم الشر
والخير طرده أرضاً في كل مكان.

لن عساي أتحدث اليوم؟
فالإنسان الذي كان يُخرج (الأخر) عن طوره بسبب أفعاله السيئة
يشير الآن الضحك عند الجميع عندما تكون جريمته شنعاء.

لن عساي أتحدث اليوم؟
فالجميع ينهبون
وكل امرئ يسلب أخاه..

لن عساي أتحدث اليوم؟

لم يعد للأبرار وجود
والبلاد أصبحت تحت رحمة مرتكبي المنكرات..

لمن عساي أتحدث اليوم؟
إن البؤس يرهقني
وقد احتاج إلى صديق.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
لقد ضرب الشر البلاد
ولا نهاية له^(٣٦).

إنها قصيدة شعر تلتزم بالنموذج الشائع في اللغات السامية من إيقاعات
وسجع ولوازم المواضع، إنها نداء مؤثر لذات واعية تعيش في عزلة ووحدة.

وفي أعقاب هذه الأزمة المزدوجة، سوف تنشأ مشاعر أخرى: الشعور بوجود
الوطن باعتباره مجمل أراضٍ متلاصقة تشكل وحدة يمتلكها رجال يسكنون الوادي،
إنه وطن ينبغي حمايته منذ الآن من الغزوات الخارجية والفوضى الداخلية. ولأول مرة
بدأت تظهر في النصوص عبارات: «بلدنا» و«جيشنا». واعتبر المصريون أنفسهم
مسئولين عن هذا الوطن الذي أصبح وطنهم وصاروا الساهرين عليه. وفي الوقت
نفسه وبعد أن تخلص الإنسان من سلطان النزعة الجماعية للمجتمع الفرعوني الأول
صار مشغولاً بمصيره الشخصي: وهكذا ازدهرت المعتقدات الأوزيرية إلى حد كبير
لتتيح لكل فرد بلوغ عالم الصيرورة اللانهائية، ودخول عالم التحولات الحرة وأشكال
الكائنات الأبدية - الأدمية والحيوانية والنباتية. إنه عالم شاسع قائم على وحدة
الوجود^(٣٧) panthéisme يتحرر فيه الإنسان من القيود الدنيوية فيتحرك كما يحلو له

(*) تؤمن هذه العقيدة بوحدة الله والعالم. (الترجم)

بلا انقطاع وبلا نهاية. كان الشك حالة عابرة، واستعاد الإنسان إيمانه بالآلهة الخالدة مع استقرار المملكة وحقوقه الفردية الجديدة.

وبعد سنوات من الفوضى، تقاسمت خلالها الحكم نُظم متوازنة إبان الأسرتين السابعة والثامنة، يبدو أن عملية توحيد أولى قد تمت على أيدي أمراء هرقليوپوليس^(*) Hérakléopolis، وتقع هذه المدينة إلى الجنوب الغربي من منف عند مدخل الفيوم. إن هذه المنطقة التي ستلعب دوراً على قدر كبير من الأهمية إبان الأسرة الثانية عشرة، كانت آنذاك عبارة عن واحة شاسعة تتكون من منخفض عميق يقع عند الجانب الغربي من الوادي ويغذيه بالماء نراع يتفرع من النيل هو بحر يوسف الذي يخترق سلسلة جبال الصحراء الغربية عبر ممر ضيق ليصب في بحيرة ضخمة أطلق عليها المصريون اسم مر - ور وقد صحف الإغريق إلى مويريس Moeris ثم أسماها الساميون يا - يوم فتحول هذا الاسم إلى الفيوم في الوقت الراهن. أما البحيرة فقد أصبح اسمها الحالي: بحيرة قارون. وشكّل ملوك هرقليوپوليس الأسرتين التاسعة والعاشرية. وإذا كان سلطانهم يمتد بوضوح على مصر السفلى ومصر الوسطى إلا أنه لم يشمل على ما يبدو مصر العليا حيث كان أمراء طيبة يمارسون من جانبهم سياسة نشطة.

وعن طريق المصاهرة مع أمراء آخرين من الجنوب وفي أعقاب معارك طاحنة ضد أمراء هرقليوپوليس، نجح أناتفة^(**) طيبة حول عام ٢١٦٠ قبل الميلاد، في إعادة توحيد مصر العليا ومصر السفلى، وأسسوا الأسرة الحادية عشرة فكانت أولى أسرات مرحلة جديدة من الاستقرار الذي ساد المؤسسة الفرعونية. وصارت طيبة عاصمة المملكة. وهكذا استهلّت تاريخها المجيد بفضل الفطنة النابذة التي تحلى بها أمراؤها على الصعيد السياسي، ومن ناحية أخرى فسرعان ما غدت العاصمة الدينية الجديدة. وهكذا ستصبح طيبة على امتداد ألف سنة أقوى مدن الشرق وأعظمها شأنًا.

(*) الاسم اليوناني لمدينة نثى سموت المصرية القديمة وإهناسيا المعينة حالياً. (المترجم)

(**) مجموع الملوك اللقبين أنتف. (المترجم)

لقد تربع على عرش البلاد ثلاثة ملوك يحملون لقب أنتف، وامتد حكمهم حتى عام ٢٠٧٠ قبل الميلاد تقريباً. إن ابن أنتف الثالث سوف يخلف أباه تحت اسم موتو هوتي الأول. ثم جاء الدور على ابن هذا الأخير واسمه موتو هوتي الثاني ليعتلى سرير الملك، ولا شك أن موتو هوتي الثالث كان ابن إحدى محظيات الملك السابق. لقد استعاد هؤلاء الملوك الثلاثة الملقبون موتو هوتي اسم جدهم الأعلى والد أنتف الأول، ليتنسبوا على هذا النحو إلى الإله الذي كان يعبد في عاصمة الإقليم^(٣٧). علماً بأن اسم موتو هوتي يعني «عسى أن يكون الإله موتو راضياً». ويذهب البعض إلى أن الملوك الذين يحملون لقب موتو هوتي أربعة. وفي هذه الحالة قد يكون أول من لقب باسم موتو هوتي، هو والد أنتف الأول. وبالفعل فقد ذكر اسمه محاطاً بخرطوش في قائمة الملوك المنقوشة في الكرك. ولكن يبدو أن موتو هوتي هذا، على افتراض أنه كان بالفعل الجد الأول لهذه الأسرة، إلا أنه لم يحكم البلاد في واقع الأمر قبل ابنه أنتف الأول. بل كان يظن قبل عدة سنوات أن الملوك الذين يحملون اسم موتو هوتي في الأسرة الحادية عشرة كانوا خمسة. ولكن من الواضح في الحقيقة، أن أولهم قد بدّل على ما يعتقد قائمة ألقابه بينما كان متربعاً على العرش. إن قائمة الألقاب الملكية هذه، اللتين كان العلماء ينسبونهما إلى ملكين مختلفين هما في واقع الأمر ملك واحد، إن إعادة صياغة التاريخ القديم يتطلب من الباحث صبر أيوب وقدراً كبيراً من الفطنة.

وعكف هؤلاء الملوك على طرد الغزاة الآسيويين من الدلتا وإعادة إقتصاد البلاد إلى سابق عهده، بعد أن خربته سنوات الإضطرابات والمجاعات، كما عملوا على استعادة العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة.

بل يبدو أن خيتي الثالث من هرقلويوبوليس (الأسرة العاشرة) قد سبق له أن بذل الجهد الجهد لدمر بدو آسيا الغزاة. ففي تعاليمه إلى ابنه مري-كاسرع وكانت التعاليم المكتوبة من أجل الابن تقليداً أنبيأ موغل في القدم في مصر وسوف يستمر على مدى الأيام، فنجده يقول في هذه التعاليم:

«كان هؤلاء الأجانب كالجدار الموصد ففتحتهم... وعملت بحيث تكيل لهم مصر السفلى الضربات. وسطوت على ممتلكاتهم واستوليت على قطعانهم حتى نفر الآسيويون من مصر وكرموها. لا تشغل بالك إنَّ بهذا الأمر، لأن الآسيوي قد صار من الآن تمساحاً على شاطئ (مصر). ففي وسعه أن يسرق شخصاً واحداً ولكنه لا يستطيع أن يستولى على أرض عدد من المدن»^(٣٨).

واصل الأثانة والمئات^(٣٩) تحرير أرض مصر ودعّموه. وكان مونتو حوتب الأول قد أمر بتشييد معبد في الجبلين - على بعد ٢٨ كم جنوب طيبة- وزخرفه بمشاهد مرتبطة بغمار المعارك التي خاضها من أجل إعادة توحيد البلاد. وقد دُمّر المعبد ولكن مازال من السهل فهم دلالة نقوش بعض الكتل الحجرية التي أعيد استخدامها في العصر البطلمي كأساسات لمعبد آخر: فنشاهد الملك وهو يؤدي الحركة الشعائرية التي كانت في زمن سابق حركة نعرمر كما صورتها الصلاة المصنوعة من حجر النشست والتي يحتفظ بها متحف القاهرة - نشاهد إبادة الأسرى إبادة رمزية بضربهم بمقمعته البيضضاء وهي المقمعة الملكية برأس من الألبستر. وتحتفظ هذه الكتل الحجرية بصور أربعة نماذج من الأسرى: النوبيين والآسيويين والليبيين والمصريين، ويؤكد متن المشهد على قيام الملك بأعادة النظام إلى الجنوب والشمال والبلدان الأجنبية وأن الأقواس التسعة تحت قدميه. إن عبارة الأقواس التسعة التي اكتسب استخدامها قدرأ كبيراً من الأهمية في عصر الإمبراطورية تشير إلى مصر والأراضي الواقعة تحت سيطرتها. إن قائمة الأسماء التي تنطوى عليها هذه العبارة قد تغيرت على مرّ العصور^(٣٩).

كما استعاد ملوك الأسرة العادية عشرة سيطرتهم على النوبة التي كانت قد تخلّصت من الوصاية المصرية إبان أزمّة الإضطرابات، بينما تولت أسرات محلية وقبلية زمام السلطة. وأعادوا فتح طرق التجارة في اتجاه البحر الأحمر. واستغلوا ثروات واحات الصحراء الغربية: وقام مونتو حوتب الثاني بضم الواحات الخارجة.

(٣٨) (مجموع الملوك الملقيين مونتو حوتب). (المترجم)

السياسة الجديدة

حول عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد استولى الوزير أمن إم حات على السلطة ليؤسس الأسرة الثانية عشرة، أسرة آل أمن إم حات وآل سنوسرت. وقد أبقي أمن إم حات الأول عاصمة البلاد في طيبة أما خلفاؤه فقد وقع اختيارهم حتى عام ١٧٨٥ قبل الميلاد تقريباً، على مدينة اللشت في الفيوم ليتخذوا منها مقرهم الرسمي، لا سيما وأن هذه المدينة كانت لا تبعد كثيراً على نقطة إلتقاء المنطقتين الطبيعيتين اللتين تكونان المملكة. وشهدت مصر خلال هذين القرنين تجديد الحياة السياسية والحياة الدينية.

لقد ترك ملوك مصر منذ الآن تأثيراً مختلفاً في النفوس. ويكفى أن يقارن المرء الوجوه الملساء المزهوة بنظراتها التي تطل علينا من علو تماثيل خعفرع^(*) ومنكاورع^(**) على سبيل المثال بتماثيل ملوك الأسرة الثانية عشرة التي تشهد على الهموم التي تشغل بالهم وهو ما تعبر عنه ملامح الوجه بفمه ذى الصامفين^(***) الساقطين والجبيين أسفل العينين والتجاعيد الفائرة عند جانبي الأنف والوجنتين الهزيلتين. هكذا ندرك أن تغييراً قد حدث للأيدولوجية الملكية. إن الحاكم المطلق الفائق السلطة والسلطان كما عرفته العصور السابقة قد ظهرت عليه مسحة من الإنسانية. إن درس الأحداث كان قاسياً. وقد سبق أن قدّم خيتي الثالث في التعاليم التي أشرنا إليها من قبل، قدّم النصيح لابنه مري كارع وهي عبارة عن إرشادات جديدة أحياناً تدور حول تدبير شئون الدولة وسلوك المرء في تعامله مع الآخرين:

«أقم العدالة طوال مدة حياتك على الأرض. طمئن من يبكى. لا تطغ على الأرملة. لا تطرد إنساناً من ممتلكات أبيه. لا تتسبب في الإضرار بالعظماء في

(*) يتوسط هذا التمثال الرائع الجمال القاعة ٤٢ من الطابق الأرضي من المتحف المصري بالقاهرة. (المترجم)

(**) تماثيل «منكاورع» موجودة في اليهو ٤٧ من الطابق الأرضي من المتحف المصري بالقاهرة. (المترجم)

(***) الصامفان: جانباً القم في ملتقى الشفتين مما يلي الشدقين. المعجم الوسيط. (المترجم)

وظائفهم. تجنب أن توقع عقوبة بالباطل. لا تقض على من لا يفيدك في شيء. إذا عاقبت امرأً فلتكن عقوبته الضرب بالعصا أو السجن. هكذا يسود الاستقرار أرجاء البلاد. أما المتمرد فسوف تنكشف مأربه لأن الله يعرف الإنسان صاحب القلب الخسيس وينزل الله عقوبة الدم بالأفعال السيئة... لا تفضل ابن إنسان ثرى على ابن فقير. قرب إليك الإنسان حسب أفعاله لأن كل مهنة يقوم بها (صاحبها) هي من أجل رب القوة (أى الملك)... كن وديعاً مع من لا يمتلك شعيراً يمكنه أن يعطيك إياه، لأن البشر ضعفاء أمامك. كن راضياً بما فى حوزتك من خبز وجعة... انظره لابد أن يكون الملك رب السعادة. إذا كنت عادلاً يمكنك أن تنام بفضل قوتك. عندئذ اعمل بما تمليه عليك رغبتك وفقاً لما فعلته. هكذا لن يتواجد قط أعداء داخل حدودك.

من ينتسب إلى الضفتين (أى الملك) يمتلك المعرفة. إن ملكاً وهو سيد رجال البلاط لا يمكنه أن يكون جاهلاً. لقد كان حكيماً منذ أن خرج من بطن أمه، وقد أصطفاه الله فى حضرة مليون من البشر، إن الملك وظيفة جميلة وحسنة. إن شخصاً واحداً هو الذى يجعل إنساناً آخر فعلاً. إن كل امرئ يتصرف على هدى من سبقه، سوف يحافظ على عمله من سيخلفه.

اعمل من أجل الله وبالمثل فسوف يعمل من أجلك...

لقد أنعم بالكثير على البشر فهم قطع الله: فقد خلق الله السماء والأرض حسب رغبتهم، وطرده مخلوق الماء الشرير (التمساح) وخلق نسمة الحياة من أجل أنوفهم. إنهم صوّره المنبثقة من جسده. إنه يتالق فى السماء كما يرغبون ومن أجلهم خلق النبات والماشية والأسماك غذاء لهم... وخلق النور وفقاً لرغبتهم، ويبحر ليراهم. لقد شيد معبده من حولهم وعندما ينتحبون فإنه يسمعهم. لقد خلق من أجلهم زعماء منذ أن كانوا فى البيضضة، إنهم قادة أنيط بهم أن يكونوا سنداً لظهور الرجل الضعيف (٤٠)».

(*) حول هذا المعنى يدور المثل الشعبى: «إلى أه ضهر ما يتفريش على بطنه». والمراد بالظهر الرجل الحامى لغيره. أحمد تيمور باشا. الأمثال العامية. مركز الأفرام. ١٩٨٦. ص ٥٦. (المترجم)

أصبح الإنسان هدف الكون وغايته. ولآلهة والملوك سند له ويحافظون على حياته. فالملوك هم الوسطاء الرحماء الذين لا غنى عنهم فى هذا العالم الجديد.

وعلىنا أن نقارن أيضاً تأليه الملوك على نطاق واسع كما ورد وصفه فى متون الأهرام^(٤١) بهذه الكلمات القانطة التى تفوه بها أئمنحات الأول فى حديثه إلى ابنه سنوسرت الأول وقد وصلت إلينا من خلال نص آخر من التعاليم:

أنت الذى ظهرت بجلال كإله، انصت لما سأقوله لك، حتى تصبح ملك البلاد، وتدبر شئون الضفقتين وتحقق الخير بوفرة كبيرة. احترس من مرؤوسيك حتى لا تتعرض لحدث لم يخطر على بال أحد. لا تقترب منهم ولا تبقي بمفردك. لا تثق فى أخ. لا تصادق الآخرين. ولا تنشئ علاقات حميمة. فلا فائدة ترجى من ذلك - إذا خلدت إلى النوم، فليتبوأ قلبك ذاته حراستك. فالمرء لا يجد أصدقاء يوم الشدة^(٤٢). لقد أعطيت المحروم. لقد نشأت اليتيم. لقد سعت ليرتقى من كان لا يملك شيئاً بنفس مستوى من كان يملك. ولكن من كان ياكل من طعامى هو الذى كان يلومنى ومن مددت له يدى هو الذى كان يشير الرعب. ومن كان يرتدى أرقى أنواع كتانى هو الذى كان ينظر إلى، مثلاً كان يفعل من كان محروماً منه، ومن كانوا يتضمخون بطيب المر الخاص بى، كانوا ييصقون على موقفى العطوف^(٤٣).

على العاهل الملكى أن يصبح من الآن حامى الشعب الذى يتولى مسئوليته، وأن يتجنب تخويل سلطاته إلى بعض المقربين من نوى البأس، كما لابد أن يكون الملك إنساناً فاضلاً، فليتزعم بالعدل والتجرد والرافة عند معالجة الأمور. إنه يحكم البلاد مع ماعت- إلهة الحقيقة والعدالة- إنهما صفتان متكاملتان تحملان اسماً واحداً. إنها تؤمن نظام وتوازن المملكة والكون، كما أنها المرشد الهادى للعاهل الملكى.

وينشد الناس ترانيم الشكران والعرفان بالجميل من أجل الملك الجديد الذى

(*) ويقترب عدد من الأمثلة الشعبية من هذا المعنى: «طول ما أنت طيب تكثر أصحابك» وهإصباح الخير يا جارى إنت فى دارك وأنا فى دارى... إلخ. (الترجم)

يسهر على استتباب السلام فى ربوع البلاد وازدهارها . إنه نوع أدبى بدأ يظهر فى هذا الزمان، كما سيبدو أيضاً ويستمر:

تحية لك يا خع كلورع^(٤٣)، أيا حورس صاحب الأشكال الإلهية،

الذى يحمى البلاد ويوسع حدودها،

الذى يمدُّ البلدان القصية بفضل تاجه العظيم،

الذى يحتضن الأرضين ويعانقهما بساعديه،

الذى يُخضع البلدان الأجنبية بقوة يديه،

الذى يُهلك الجماعات الهمجية دون أن يحتاج إلى ضربهم بالعصا،

الذى فى وسعه أن يرمى السهام دون أن يشد وتر (القوس).

إن الرعب الذى يثيره فى النفوس ولا شىء سواه، هو الذى ضرب النوبيين فى أراضيهم.

إن الخوف منه ولا شىء سواه، هو الذى قتل الأسىويين.

إن المذبحة التى أقدم عليها سببت آفة ، القتل فى الجماعات الهمجية التى هاجمت حدوده.

إنه يشدُّ القوس مثل سفحت^(٤٤) ويُجهز على آلاف البشر من بين أولئك الذين لم يعرفوا بعد قوته.

إن لسان صاحب الجلالة يجمع النوبيين وخطبه تجعل الأسىويين يلونون بالفرار.

إنه الإنسان الشاب، الأوحد والإلهى، الذى يحارب دفاعاً عن حدوده، الذى لا يسمح لشعبه أن يصيبه الإرهاق، الذى يتيح للناس أن يناموا حتى مطلع النهار. وفى وسع مجنديه أن يخلدوا إلى النوم: لأن قلبه يوفر الحماية.

لقد رسّمت المراسيم حدود بلاده وجمعت كلماته شمل الضفتين^(٤٥).

وعند حدود الواقع والأسطورة، يوحي النص أن الوجود الملكي وحده، وهو وجود «إلهي»، يطرد العدو. إنه سلاح رهيب لكل من يؤمن بفاعلية الكلمة كوسيلة مساعدة ومعاونة فائقة القدرة في خدمة الفراعة الفاتحين^(٤٦). وكمقدمة لكبرى ملاحم التوسع الإمبراطوري، ظهرت منذ ذلك العصر بعض الملاحم القتالية، واستمر الخوف من الغزاة الأجانب.

ومن ثم فقد أصبح الشغل الشاغل لملوك مصر هو حماية أنفسهم، من أى غزو جديد. فأمر أمن إم حات الأول ببناء سلسلة من القلاع فى الشمال الشرقى، تمتد من پلوزيوم^(*) Pelusium وحتى هليوپوليس، وأطلق عليها اسم إنبو^(**) حقا أى «أسوار الأمير». وكانت نظاماً دفاعياً ناجحاً على ما يبدو. وفى هذه القلاع كانت تقيم حاميات عسكرية بصفة دائمة. لم تكن تضطلع بمهام وقائية فقط، بل كان مطلوب منها أيضاً الإبلاغ عن كل جديد. ومن هنا نشأت فكرة أنه من الضرورى بل من المحتم بعد الآن، إقامة سور دفاعى على جانبى مصر ولا سيما حول الدلتا، يتكون من بلدان خاضعة للهيمنة المصرية. وعملاً قريب سوف تتحول طرق التجارة الخارجية إلى دروب تسلكها جيوش مصر الفاتحة. إن اهتمام مصر بحماية أراضيها سوف يترتب عليه تأسيس الإمبراطورية بعيداً عن أى نزعة إمبريالية. لقد نشأت الأيديولوجية الإمبراطورية فى بادئ الأمر تلبية لحاجة مصر إلى الدفاع عن أرض الوطن. وسوف تقدم كنعان وموانئ فينيقيا الجزية لمصر^(٤٧). بل إن سنوسرت الثالث سوف يصل فى إحدى حملاته العسكرية إلى مدينة سيشم - نابلس حالياً.

وفى اتجاه الجنوب استعاد ملوك الأسرة الثانية عشرة سيطرتهم على الأراضى الإفريقية القائمة فيما وراء الجندل الأول وكان ينظر إليها على الدوام باعتبارها امتداداً طبيعياً لمملكة مصر. وقد ثبتتوا هذه السيطرة بل توسعوا فيها، حتى وصلت إلى الجندل الثالث، شمال السودان. وإلى الجنوب منه يبدو أن مركز مدينة كرمه

(*) تل الفرما حالياً وتقع فى أقصى شمال سيناء وغربها. (المترجم)

(**) كلمة إنب تعنى جدار أو سور والواو علامة الجمع. (المترجم)

الجنـدل الأول. وتحتفظ مدونة صخرية فى جزيرة سهيل باسم هذا العمل الضخم: «جميلة فى دروب خع كلورع». فكل إنجاز فى مصر سواء كان مبنياً أم تشكيمياً يحمل اسماً. إن كل شكل، سواء ابدعته يد إلهية أو آدمية، ينطوى بالفعل على عنصر حياة أو تأثير فاعل يجسده الاسم. كان طول القناة ٧٨ متراً و١١٠ أمتار عرضاً و٧,٨٠ أمتار عمقاً. وتم تقوية تحصينات الجنـدل الأول. ومنذ نهاية الحملة العسكرية الأولى التى قادها سنوسرت الثالث أقام لوحة حدودية عند بلدة سمعة أوضح فيها: «لا يحق لأى زنجى أن يعبر عن طريق النهر أو البر»... إلا بتصريح مستوفٍ لكل التعليمات بطبيعة الحال.

كان تواجداً عسكرياً ولكن أيضاً أيديولوجياً ودينياً، وهو ما سيحدث على الدوام ولا سيما فى زمن الإمبراطورية: إن تحالف الآلهة هو خير ضمان للوحدة السياسية بفضل توافق وعى البشر ووجدانهم. فتبجل الآلهة المصرية فى النوبة، بينما اندمج الإله النوبى دينون فى الصقر حورس وتوحد معه. إن العلاقة القائمة بين هذين الإلهين قديمة على كل حال، قدم ضم أراضى الجنوب إلى مصر: فنجد أن دينون قد انضم إلى مجمع الآلهة المصرية منذ متون الأهرام. وناحية الغرب كانت الواحات البحرية فى الصحراء الغربية تابعة إدارياً للوادي. وبالفعل فقد كانت الواحات البحرية ملتقى عدة دروب فيأتى بعضها من السودان فى حين تتجه الأخرى إلى مصر الوسطى. ومن ثم كانت نقطة استراتيجية، فقد تسمح لأبناء السودان المفطورين على التمرد أن يتصلوا بسهولة ويسر مع مثيرى الشعب المحتملين فى مصر ذاتها، وأن يهاجموا الجيش الملكى من الخلف. ويظهر الدليل الدامغ على هذا الخطر قرب نهاية الأسرة السابعة عشرة^(٤٩). وصارت عملية استثمار واحات الصحراء الغربية على قدم وساق: فزرعت فيها أشجار الكروم التى وفرت بسرعة محصولاً ذاعت شهرته، واهتم أبناء الواحة بتربية العمير.

وبفضل ما أوتى ملوك مصر من فطنة وذكاء بدا أن مصر محمية حماية منيعة على جميع حدودها بفضل «كوكبة» من الدول التابعة.

أما فى داخل البلاد فكان لا بد من إصلاح ما أفسدته عشرة عقود من الفوضى، والعمل من الآن على تجنب المشاكل التى قادت إليها. وظل الوزير الذى يعينه الملك محتفظاً بوظائفه نفسها. ومع ذلك، لم يعد معاونوه مجرد رؤساء بعثات يتولى هو شخصياً إيفادهم. وإنما أصبحوا «عظماء الجنوب الثلاثين»، وكان فى وسع العامل الملكى أن يكلفهم بمهام سياسية لكونهم محل ثقته. أما حكام الأقاليم بما عُرِف عنهم من رغبة فى الاستقلال فكانوا إذن إلى حد كبير وراء الفوضى التى عمت البلاد، ولذلك فقد أقدمت السلطة المركزية على إحكام السيطرة عليهم. ومن جديد خضع الأمراء المحليين للملك ليصبحوا موظفين ملكيين. ومنحت لهم امتيازات شخصية لا تشكل خطراً: فكان من حقهم على سبيل المثال أن يقدموا تقريراً سنوياً عن نشاطهم وفقاً للأسلوب الملكى. ولكن الملك كان يراقب عن كثب وراثه الوظائف، ليتفادى ظهورها من جديد. فعند وفاة حاكم الإقليم كانت السلطة المركزية تقوم بتعيين من يخلفه بل وقد تعدل مساحة وطبيعة المنطقة التى يشرف على شئونها. ولكن يبدو مع ذلك أن بعضهم قد ظل يشكل خطراً كامناً. فمن الواضح أن منصب حاكم الإقليم قد أُلغى فى بعض الأماكن، ليختفى كلية فى عهد سنوسرت الثالث. فبينما كان للجبانات الإقليمية أهميتها فى مطلع الأسرة ونذكر بالتحديد جبانات بنى حسن والبرمشا ومير فى مصر الوسطى، نلاحظ أنها قد هجرت بعد عهد سنوسرت الثالث ولم تعد مستخدمة. فقد اختفت تماماً مقابر حكام الأقاليم من وادى النيل. وهكذا تحولت نبالة الأقاليم إلى نبالة البلاط الملكى الذى أصبح المركز الإدارى للبلاد من أقصاها إلى أدناها.

وظهر مجتمعاً يتميز بتراتبية هرمية أكثر وضوحاً؛ فيضم فئة حاكمة تشمل الموظفين المباشرين للملك وهم رؤساء الجهاز الإدارى والجيش والكهنة؛ والجمع بين مختلف الصلاحيات كان من الأمور الشائعة. كانت هذه «الكواثر العليا» تحصل على مرتبات كبيرة وهدايا ملكية التى يعتقد أنهم حصلوا عليها «كإنعام من الملك» أو أنصبه تم اقتطاعها من موارد المعابد على سبيل المثال. ومنذ الآن تكونت طبقة وسطى تضم الكهنة والحرفيين، كانت مرتبطة بالفئة السابقة وتعمل فى خدمتها، ويقع على عاتقها أداء كل ما يتعلق بالحياة السياسية والدينية، كما تحيا فى بحبوحة من العيش.

أما الفلاحون فكانوا يخضعون إما لنظام العمل بالسخرة^(٩) في خدمة أحد المعابد أو الأملاك الملكية أو الخاصة أو كانوا أحراراً في حيازتهم قطعة أرض. هكذا أخذ المجتمع يشجع الانتقال التدريجي إلى الملكية (بكسر الميم). (راجع قصة الفلاح الفصيح).

لقد استعادت المملكة السلام الداخلي. كما ركّز الملوك نشاطهم على ازدهار البلاد. وبالفعل، فمن أهم منجزات ملوك الأسرة الثانية عشرة أنهم عرفوا كيف يستثمرون أراضي الفيوم^(١٠)، هذه الواحة الشاسعة القائمة إلى الجنوب الغربي من مدينة منف، بعد أن أسسوا عاصمتهم عند مدخلها في مدينة اللشت. واستحدث الملوك شبكة من القنوات لتنظيم توزيع المياه فأوجدوا بالتالي سهلاً خصباً مترامياً الأطراف. كان هويس شيد في اللاهون عند مدخل المضيق الذي استخدمه بحر يوسف للوصول إلى الواحة، يساعد على تنظيم وصول مياه النهر، في حين شيد خزان ضخيم لحماية الوادي من المخاطر التي قد يشكّلها تراكم المياه في موسم الفيضان. بدأ سنوسرت الثاني أعمال هذا المشروع بعد أن أقام عاصمته في اللاهون تعديداً لمتابع عن كتب تنفيذه.

أمون وتأسيس الكرنك

تأثرت الأيديولوجية الدينية بالنتائج التي ترتبت على الأحداث السياسية. فعند تولى أمراء طيبة مقاليد الحكم أخذ أمون الذي ظل حتى الآن إلهاً خامل الذكر يتحول إلى إله رسمي فشرع مقره المقدس في الكرنك يسير في مدارج الشهرة والنفوذ. لم يكن الكرنك القائم على الضفة اليمنى من نهر النيل موقعاً مجهولاً. فإلى الشمال كان الإله مونثو يعبد منذ أقدم الأسرات. ولكن ماذا عن الإله أمون؟ أكان إله المراكبية؟ إن أصوله ودلالته الأولى غير معروفة على وجه اليقين.

(*) لطول هامش المترجم عن «السخرة» ولأسباب فنية تم نقل هذا الهامش إلى آخر المقدمة. فيمكن الرجوع إليه. (المترجم)

ومن غير المستبعد أنه كان معروفاً منذ أقدم العصور. ويمكن الإستشهاد ببعض النصوص النادرة التي تدور حول هذا الموضوع. فنجد من جهة أن قائمة الملوك التي نقشت في «حجرة الأجداد»^(٥٠) التي أقامها تحوتمس الثالث في إطار معبد الـ «أخ منو»^(٥١) الذي شيده شرق معبد الكرنك الكبير، تذكر أسماء بعض الملوك: وثاني هذه الأسماء هو ستفرو، أول ملوك الأسرة الرابعة، لأن الاسم السابق وجد مهمشاً. ولن نجافي الحقيقة إذا افترضنا أنه كان من ملوك الأسرة الثالثة. وإذا كانت هذه القائمة التي لم تذكر سوى أسماء بعض الملوك قد نقشت في الكرنك، فربما كان القصد منها إعداد حمير بالملوك الذين أحاطوا آمون في مكانه المقدس بكل مظاهر التبجيل والتوقير^(٥٢). ومن ثم فمن حقنا أن نذهب إلى القول بأن أولى الشعائر المحلية قد أقيمت في الكرنك لعبادة هذا الإله منذ الأسرة الثالثة. ومن جهة أخرى، يبدو أن بعض الفقرات الواردة في متون الأهرام تذكر اسم آمون. وهذه النصوص المترابطة، هي فيما نعلم، الأقدم في الوقت الراهن. فقد قيل للملك في الفقرة ١٥٤٠^(٥٣): «يا بيهي، يا ابن جب، لقد جئت في الحقيقة على عرش آمون». ومن ثم فربما كان ينظر

(*) حجرة الأجداد: احتدم الصراع بين متحف بولهن ومثله في مصر عالم المصريات «ويتشارد ليهسبيوس» (١٨١٠-١٨٨٤) Richard Lepsius وعالم المصريات الفرنسي «پريس دافين» (١٨٠٧-١٨٧٩) Prisse d'Avennes على من يسبق الآخر في سرقة حجرة الأجداد. ونجح هذا الأخير رغم العطر الذي كانت تفرضه السلطات المصرية - في سرقة الحجرة في مايو ١٨٤٣. فخلال ثمانية عشر يوماً انتزعت الحجرة من جدران الكرنك وارتفاعها ٣٦٠ سم وعرضها ٢٤٧ سم وعمقها ٢٦٥ سم. وتم نشر الكتل الحجرية ثم وضعت في صناديق. ولم يتمكن «پريس دافين» من شحنها إلى فرنسا قبل مايو ١٨٤٤. كما لم تستقر في مكانها العالي بمتحف اللوفر إلا في عام ١٩٢٢ حيث يمكن مشاهدتها في الوقت الراهن.

G. Andreu et alii: L'Egypte ancienne au Louvre, Hachette, 1996, pp.114-115.

وما يمكن مشاهدته الآن في معبد الكرنك ليس سوى مستنسخ جصى أعد إعداداً رديئاً. (المترجم)

(**) وهي إحدى فقرات المقطع ٥٧٩. (المترجم)

إلى آمون منذ ذلك الوقت المبكر بصفته إلهاً ملكياً، ولكن إذا اتفقنا أن متون الأهرام^(*) تقدم لنا فكراً دينياً ظل يتطور قبل ذلك طوال قرون مديدة حتى وصل إلى هذه الصيغة الكاملة الأولى، فإن هذه الملاحظة تتيج أن نرعى لخيالنا العنان. ومن هذه المتون ذاتها ننقل نصاً آخر وإن كان تأويله محل خلاف على نطاق واسع. فقد وردت في الفقرة ٤٤٦^(**) إشارة إلى «نون ونوت، وآمون وأمونت التي تسمى الآلهة بواسطة ظلها». ويمرّز هذا النص إلى حد ما الفرضية القائلة^(***) بأن آمون كان على ما يعتقد إلهاً ينحدر أصلاً من هرموبوليس^(***) Hermopolis. وبالفعل كان كهنة هذه المدينة قد صاغوا قصة لاهوتية للخلق مفادها أن ثمانية آلهة يشكلون أربعة أزواج خرجت فوق تل من المحيط الأزل، وذهبوا إلى أن الآلهة قد خلقت بيضة انبثقت منها الشمس في أول يوم من أيام العالم. كانت هذه الأزواج الأربعة تضم عنصراً ذكراً وعنصراً أنثوياً هو زوج العنصر السابق. وقد أطلق عليها الأسماء الآتية: نون ونوت - الخواء السائل - وحمو وحموت - الأبدية الزمنية وأول مقياس للكون الآتى - وكيكو وكيكوت - الظلمات المهيمنة على العالم قبل خلقه - وآمون وأمونت - القوة الإلهية المتوارية في أعماق المياه. وتكمن صعوبة التأويل في أن الجذر لمن^(****) يعنى «الخفى». وبالتالي ربما لم يكن المقصود به هنا الإله آمون إنما المبدأ الإلهي الذي مازال كامناً متوارياً في المياه. زد على ذلك أن هذه التصنيفات اللاهوتية قد وصلتنا من خلال نصوص تعود إلى العصر المتأخر. ومن ثم فمن المشكوك فيه أن يكون آمون هو المقصود به في هذه الحالة بعينها.

أكان آمون منذ الأسرة الثالثة إلهاً محلياً فوق أرض الكرنك؟ إن أقدم أثر مؤكد

(*) ظهرت هذه النصوص الجنائزية لأول مرة داخل هرم أوناس (٢٢٨٠-٢٢٥٠ ق.م) آخر ملوك الأسرة الخامسة. (المترجم)

(**) وهي إحدى فقرات القطع ٣٠١. (المترجم)

(***) الاسم اليوناني لمدينة «خمنو» المصرية القديمة والأشموينين حالياً. (المترجم)

(****) النطق المصري القديم له «مون». وما زلنا نحتفظ بهذه الصيغة القديمة في أسماء بعض الملوك مثل «أمن حوت» أى «آمون راض». (المترجم)

عن إقامة معبد كُرس له في هذه الأماكن جاء من نص منقوش على لوحة سابقة على عهد أنتف الثاني، جادت بها منطقة القرنة في البر الغربي لمدينة طيبة. ويشير هذا النص إلى «معبد (الإله) آمون»، دون أى توضيح^(٤٤). إن النواة الأولى لمعبد الكرنك الكبير وقد أصابها تدمير بالغ تعود إلى عهد سنوسرت الأول. وكانت مشيدة بالكامل من الحجر الجيري، استخدمت بعد ذلك كتلها لتغذية أفران الجير، مع مطلع القرن الخامس الميلادي. وأبقى الدهر على عتبات أبواب من الجرانيت. الأمر الذي يهملنا على تصور وجود ثلاث قاعات متعاقبة تفضى إلى قدس الأقداس. ويوحى العثور على أجزاء صغيرة من أساطين متعددة الأضلاع بوجود رواق ذى أساطين. ومنذ الآن فصاعداً سيحمل معبد آمون بالكرنك اسم إبيت سوت - أى «المكان المختار» ليحتفظ به على امتداد التاريخ.

لا شك أن آمون كان في الأصل إلهاً للسماء. فقد لونت بشرته في الغالب باللون الأزرق، وعندما يصور في هيئة آدمية، فإن غطاء رأسه المعتاد هو عبارة عن قاعدة تاج تعلوها قادمة^(٤٥) مقر كبيرتان تعبيراً عن ارتباطه بالأسطورة الحورية^(٤٦) للآلهة السماوية. إنه إله الريح والنسيم. وسوف يظل محتفظاً بهذه الصفة المميزة لفترة طويلة. وفي عهد رمسيس الثالث بعد انقضاء ما يقرب من ألف سنة كان لا يزال النسمة التي تدعّم قرص الشمس: «فُيرفع القرص بفضل نسمة». إنه الريح المواتية من أجل الجميع: وفي صلاة إلى إله طيبة من عصر رمسيس الثالث أيضاً ورد فيها: «إن أعضاءك هي النسومات من أجل كل أنف^(٤٧)».

ولأسباب مختلفة انضمت إلى هذا الإله الأول شخصيات إلهية أخرى وعلى رأسها الإله رع. ويبدو أن اندماج آمون رع قد حدث منذ الأسرة السادسة. إن تمثالاً صغيراً فقد رأسه ويحتفظ بخرطوش بيبى الأول وكان ضمن مجموعة شستر Chester. ويصور الملك راعماً، كان يضم دعامة ظهر رأسية نقش عليها سطر رأسى من العلامات الهيروغليفية: «ملك مصر العليا ومصر السفلى: مري رع. ابن رع: بيبى».

(٤٤) (القائمة في إحدى الريشات في مقم الجناح. المعجم العربي الأساسى. (المترجم)

(٤٥) (نسبة إلى الإله حورس. (المترجم)

محبوب آمون-رع، رب طيبة^(٥٦)». وقبل وقت قصير وبينما كان فرانسوا دوماس François Daumas يقوم بأعمال الحفر والتنقيب في معبد لفترة عشر على تماثيل شعائرية قديمة، مقدمة من بيبي الأول ذاته إلى آلهة مصر العليا. ومن بينها كان تماثيل صغيراً مكرساً للإله آمون-رع القائم في طيبة^(٥٧). إن الشعائر المقامة من أجل هذا الإله المركب الذي ستتعاظم إلى حد كبير هالة التمجيد التي تحيط به، قد شهدت طفرة ملحوظة في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة بدءاً من أمنمحات^(٥٨). بل إن اسمه ذاته هو عبارة عن تمجيد لإله الكرنك، فمعناه «آمون هو الأول (أو في المقدمة)». ومن المؤكد أن أمراء المدينة أرادوا أن يُظَلِّمَ الإله المحلي ويعيشوا في كنفه وحمايته، وهو ما فعله نعرمر^(٥٩) في الأزمنة الماضية، وإن سعوا في الوقت ذاته إلى التراضى مع كهنة الإله رع الأقوياء في هليوبوليس. ومن هنا نشأ تركيب الإله آمون-رع الذي أسند إلى إلههم المفضل مظهرًا شمسيًا وكونيًا، كان لابد أن يستهويهم ويعزز في الوقت نفسه رؤاهم السياسية. وفي الواقع كان يُقصد بذلك، في هذا الزمن، التوصل إلى حل وسط بين إلهين. كان رع إلهًا مستقرًا، في حين كان يُرجى إعلاء شأن آمون. وكان تحقيق هذا الهدف مؤكدًا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن سنوسرت الأول - ابن أمنمحات الأول عندما أراد في العام الثالث من حكمه أن يكسب ودَ كهنة هليوبوليس، دعى إلى اجتماع مجلس في هذه المدينة ليعلن قراره بإقامة معبد الإله حور أختي - «حورس الأفق» - وهو من أسماء الصقر الشمسي. وتقول المدونة التكريسية:

«لقد أتى بي حور أختي إلى الدنيا لأنفذ ما ينبغي عمله من أجله وتحقيق ما أمر بعمله. لقد هيأت لي لكون الراعي^(٦٠) الصالح في هذه البلاد، لأنه يعرف من في وسعه أن يحافظ على النظام. ولذا، فقد منحني ما يشكل بغية إهتمامه الدائم: ما تنيره عينه^(٦١)، هو الذي صنع كل شيء وفقًا لمشيتته. لقد اختارني لأصبح سيد الأرضين، بينما كنت لا أزال طفلًا أغلف، لم يُفَتَّن^(٦٢)».

إن إلهًا في مصر، وكائنًا من كان، لا يقصى غيره من الآلهة، ولا يحل محلها، بل تجمعها شراكة حميمة وصولاً إلى فاعلية أكبر. وهكذا أصبح آمون-رع الإله الكبير

(*) (أو أمن إم حات) إذا فضلنا الترجمة الحرفية للعلامات المصرية القديمة. (المترجم)

السيد العلى للملكة. ومع ذلك فإن ترتيب الاسمين يعطى الأولوية لإله الكرك. إن التركيب الذهني يصاحبه تركيب تشكيلي تشهد عليه الصور المنحوتة على واجهات الأعمدة المربعة التي تحيط بالمقصورة المخصصة لاستراحة المركب المقدس. ويطلق عليها اصطلاحاً «المقصورة البيضاء» بسبب بياض الحجر الجيري الناصع، والتي شيدها سنوسرت الأول في الكرك. ويفضل همة المهندس المعماري الفرنسي هنري شيفرييه Henri Chevrier أعيد تركيبها^(*)؛ حيث إن الكتل التي كانت تتكون منها استخدمت في أساسات الصرح الثالث من قبل أمنحوتب الثالث في زمن الأسرة الثامنة عشرة. إن قرص الشمس بدائرتة الكاملة قائم فوق قاعدة تاج الإله وعند منبت جناحي طائر كبيرين.

إن الدليل على هذه السيادة التي تم إقرارها منذ عهد قريب تبرهن عليها أيضاً الصفة الجديدة التي ينعت بها آمون رع: فيطلق عليها على أعمدة هذه المقصورة ذاتها لقب «نسوت نثرو» أى «ملك الآلهة». وقد صحف الإغريق هذا اللقب إلى آمون واسونثير^(**) Amonrasenther. ومن ثم تم الإقرار بسيادته على مجمع الآلهة المصرية، إن سيادة ملكة السماوى والشمسى يسير جنباً إلى جنب مع سيادة ملك فرعون الدنياوى^(***).

كان الكباش أحد الحيوانات التي يتجسد فيها آمون رع فى الغالب على ما يظن، فقد كان حيواناً قوياً كثير الإنجاب، ففوة إخصابه شريكة قوة الشمس، منذ أقدم الأزمنة. إن هذه العملية الروحية نفسها هى التي حملت المصريين إلى النظر إلى الشمس^(***) باعتبارها ثوراً. إن الدلالة العميقة التي ترتبط بالآلهة تعود أصلاً فى بعض الأحوال إلى إيجاد علاقة بسيطة بين السمات الطبيعية لعناصر الكون التي تجمعها أوجه شبه ملحوظة. إن كبشاً شمسياً أخر ببعده الكونى هو حريشف- أى

(*) () وتوجد حالياً فى المتحف المفتوح القائم شمال القناى الأول من معبد الكرك. (المترجم)

(**) يقابله الاسم المصرى القديم «آمون رع نسوت نثرو». (المترجم)

(***) كلمة شمس اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

«الذى فوق بحيرته» وهى بحيرة مويريس Moeris. وكان حريشيف يعبد فى الفيوم بمدينة هرقليوبوليس Hérakléopolis. وقد علا نجمه وصعد فى مدارج المجد إبان الأسرتين التاسعة والعاشرة.

إن شخصية إلهية أخرى قد اندمجت فى شخصية آمون. ففى مدينة كويتوس Coptos إلى الشمال قليلاً من مدينة طيبة كان يُعبد الإله مين، وهو بعضو ذكر منتصب، ويرتدى رداءً محبوباً^(٦٦) ويرفع يده التى تحمل السوط كما يضع على رأسه قاعدة تاج تغلوها قامتاً صقر. إنه «رب البنات» و«الذى يخطف النساء». وعلى التماثيل البدائية لهذا الإله - التى عثر عليها فى هذا الموقع صورت القواقع والأفيال والجبال وكلها مواضع لا تنم عن طابع مصرى. ولكن كويتوس تقع عند مصب نهر وادى الحمامات الذى يصل النيل بالبحر الأحمر عند مينائى القصير ووادى جاسوس. وربما كان مين فى الأصل إله شطن البحر الأحمر والصحارى. إنه «سيد البلدان الأجنبية» و«رب اللازورد» الذى تجلبه القوافل من بلاد أفغانستان القصية. ومن المخصصات^(*) الإلهية الدالة على اسمه كما وردت فى متون الأهرام فى الفقرة ١٩٢٨^(**) المخصص المؤلف للصقر القائم فوق محطه ولكن رأس الطائر عُصبت بعصابة يتدلى طرفيها خلف الرأس وتشبه العصابة التى تربط شعر البدو فى الصحراء. اندمج آمون فى هذا الإله المجاور، وهو إله كثير الإنجاب وسيد البلدان الواقعة خارج مصر. وأصبح آمون-مين ذو العضو الذكر المنتصب، إله معبد الأقصر الواقع على بعد ٢٥٠٠ متر إلى الجنوب من معبد الكرنك. كما تظهر صورته على أعمدة المقصورة البيضاء التى تعتبر نقوشها مختصراً يوجز بتساويرها أهم عناصر مجمع الآلهة القائم آنذاك. فقد صور على هذا الأثر مختلف الآلهة والملك فى عناق، له بعده السحرى تأكيداً على الوحدة التى لا تنقسم للنظام الملكى المصرى والدين.

(*) المخصص déterminatif: علامة مفسرة ليس لها أى دلالة صوتية. ويضاف إلى الكلمة لتحديد مجال دلالتها. لمزيد من التفاصيل راجع: برناديت مونى. المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط البيروغليفى. الترجمة عن الفرنسية: ماهر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٩. ص ٦-٧ وص ٢٢-٢٩. (المترجم)

(**) وهى إحدى فقرات المقطع ٦٦٦. (المترجم)

إن مشاعر التقوى التي كان يكنها ملوك الأسرة الثانية عشرة نحو آمون ترتب عليها ظهور جماعة خاصة هامة من رجال الدين، لم تعزز وجودها وثيقة واحدة سابقة على هذا العهد، فتأسست هذه الجماعة منذ زمن أمنمحات الأول، وكانت تضم: أربعة خدام إلهين للإله آمون سيصبح أولهم كهنة الإله ومن أجله أمر سنوسرت الأول بتشيد منزل إلى الجنوب من البحيرة المقدسة. كما تضم أربعة آباء إلهين وحوالي عشرة كهنة وعب أو «الكهنة من أصحاب الأيدي الطاهرة» الذين يؤدون مع صبيحة كل يوم الطقوس الدينية المصاحبة لاستفاقة الإله ونهوضه داخل ثابوت^(٦٣). كانوا جميعهم شخصيات رفيعة الشأن: من الأمراء أو حاملي الأختام الملكية ورجال من الثقة يتمتعون بمكانة مرموقة ومن الحاصلين أيضاً على الألقاب الشرفية. ولم ينقض سوى زمن قصير حتى بات هؤلاء الكهنة يلعبون دوراً بارزاً في تاريخ مصر، بل وصل بهم الأمر إلى حد اغتصاب السلطة بعد مرور ألف سنة عندما أسسوا نظاماً ثيوقراطياً^(٦٤) في الحكم.

هكذا يكشف لنا آمون عن نفسه، بكافة أشكاله وفقاً لمقوماته الإلهية، مع فجر الفتوحات الإمبراطورية كما كان أيضاً في حدود مملكة الوادي وفي زمنها. وإذا ظلت أصول إله الكرنك غامضة ومبهمة إلا أنه سيصبح بدءاً من الأسرة الثانية عشرة، الإله الذي يحاط باكبر قدر من الإجلال والتمجيد مقارنة بسائر أرباب مجمع آلهة مصر.

أوزيريس في أبيدوس

كما حظيت شخصية إلهية أخرى بقدر كبير من التكريم في هذا العصر وظلت عبادته الشعبية واسعة الانتشار حتى نهاية تاريخ مصر الفرعوني. فقد كان أوزيريس إله الآلام، فمات ليبعث حياً من جديد ليعلّم البشر الطريق إلى الخلود. ولا شك أن أصول هذا الإله تعود إلى الدلتا، وكان الإله رع قد اضطر أن يتراضى معه في إطار

(٦٤) الثيوقراطية: نظام سياسى يستند إلى التفويض الإلهي، حيث يتولى السلطة رجال الدين أو علماء الدين. كما يجب على السلطة الدنيوية أن تخضع للسلطة الروحية. (المترجم)

تاسوع هليوپوليس^(٦٤). استقر أوزيريس فى أبيدوس^(٦٥) Abydos إلى الشمال من طيبة وأصبحت مدينته المكان الأثير لإقامة شعائره عبادته بعد أن حل فيها محل «الإله-ابن أوى» الذى ينطوى على مدلول جنائزى، وهو الإله ختتى-إيمتتيو أو «الأول على أهل الغرب». وأصبحت هذه العبارة صفة اقترنت بالإله أوزيريس القوى. إن زرع الإله القادم من شمال البلاد فى أحد مواقع مصر العليا، ربما كان له أيضاً فى ذلك العصر دلالة السياسية: ويبدو أن الأناقة كان لهم عظيم الفضل فى تحويل أبيدوس إلى مدينة أوزيريس المقدسة؛ فهي جبانة ملوك مصر الأوائل ولا تبعد كثيراً عن شتى العاصمة الأولى لمملكة مصر. وكان الملوك الجدد يعلنون انتسابهم إلى أمجاد الماضى ويتقربون من الأسرار الملكية الشرعية. وبسلوكهم هذا اعتمدوا على الحيوية الجديدة الكامنة فى معتقد له شعبية لا نظير لها.

لقد أمر سنوسرت الأول أن يصور فى معبده الجنائزى بالاشت، فى هيئة أوزيريس وهو يرتدى رداءً محبوبكاً، وتتقاطع يداؤه على صدره وممسكاً الصولجان والسوط^(٦٦). كان التمثال الكبير المصنوع من الحجر الجيرى يستند إلى أعمدة، إذ كان يستحيل على المصرى القديم أن يتصور الشكل الأدمى باعتباره دعامة. فلم تعرف مصر تماثيل الصبايا الحاملة^(٦٧) caryatide أو تماثيل الذكور الحاملة^(٦٨) atlante. فلما كان فى وسع كل شكل آدمى سواء كان نحتاً أو تصويراً أن تعود إليه الحياة بوسائل سحرية، كان من الضرورى ألا يعوق شىء رغبته فى التحرك عند اللزوم فى حرية تامة. إن الموضوع المعمارى الذى نشأ فى هذا الزمن ويصور التمثال الملكى فى هيئة أوزيرية أمام عمود سيصبح موضوعاً دائماً على مرّ الزمان.

ومن الآن سوف تشهد أبيدوس أعياداً مهيبه تقام تكريماً للإله. وإبان هذه الاحتفالات يتم محاكاة حياته وموته وقيامته، بعد أن عادت إليه الحياة، وكانت هذه

(*) الاسم اليونانى لمدينة أيجو المصرية القديمة ومنطقة الصراية المنخفضة حالياً قرب البليتا. (الترجم)

(**) المتحف المصرى بالقاهرة. القاعة ٢٢ من الطابق الأرضى. (الترجم)

(***) وهى تماثيل تقوم مقام الأعمدة لدى الإغريق. (الترجم)

الوقائع تعرض عرضاً تمثيلاً أمام الجماهير بواسطة الكهنة أو كبار الشخصيات وقد ارتدوا على ما يظن أقنعة تصور الوجوه الإلهية. لم تعرف مصر الفرعونية بالطبع المسارح بمدرجاتها^(*). ولكن سواد الشعب المتجمهر على شطآن النيل كان يشاهد طلعة الإله على متن قاربه فتعاقب أمامه المشاهد وتتابع. وفي العام التاسع عشر من عهد سنوسرت الثالث أوفد حامل الأختام الملكى إيخر نوفمبرت إلى أبيدوس لإخراج مشاهد «الأسرار» الإلهية وتمثيلها. ومن الراجح أنه كان يمثل دور حورس. وقد وصلنا اللوح التذكارى الذى أقامه فى الموقع وهو من مقتنيات متحف برلين فى الوقت الراهن.

«لعبت نور «فاتح - العروب» عندما يتقدم لينتقم لأبيه. وطربت الأعداء من القارب نشمت (قارب أوزيريس المقدس). وحررت المناوئين (للإله) أوزيريس، ثم لعبت دوراً كبيراً، وصاحبت خطى الإله وسمحت لقاربه بالإبحار، فى حين كان تهوت يوجه الملاحه توجيهها سليماً.... وعملت على أن يتقدم (أوزيريس) داخل القارب العظيم وأن يحمل هذا الأخير جماله. إنى أدخل السرور على قلب تلال الصحراء الغربية وأوجد الغبطة والتهليل فى تلال الصحراء الشرقية [كانت الجماهير تحتشد إذن عند حافة الأراضى المنزرعة] عندما رأت بهاء القارب نشمت بينما كنت أرسو عند أبيدوس بالقارب الذى يعمد أوزيريس رب المدينة إلى قصره. وتبعته الإله إلى بيته وهيأته للتطهر والحق بمعرشه^(١٥)».

جذبت هذه الأعياد جمهوراً واسعاً من الحجاج. والذين تعذر عليهم أداء الحج إلى أبيدوس وهم على قيد الحياة، من المفترض أن يؤدوه بعد وفاتهم، فينتقلون على هذا النحو إلى جوار الإله بعد أن بُعث إلى الحياة، وذلك طلباً لحمايته السحرية قبل أن يقوموا من جانبهم بالرحلة التى ستقودهم إلى العالم الآخر. وفى التوابيت التى تعود إلى الأسرة المادية عشرة عُثر على مراكب صغيرة من الخشب، الغرض منها مساعدة المتوفى على الوصول إلى أبيدوس. وإذا أمكن، كان يطلب المتوفى أن يدفن فى هذه المدينة. وإذا تعذر الأمر، كان يكتفى بإقامة لوح حجرى، نقش عليه مدونة

(*) ومن أمثلتها المسرح الرومانى بالإسكندرية. (المترجم)

تلتبس من الإله أن يكون في استقبال المتوفى في العالم الآخر. كانت هذه الألواح تقام حول «سَلَم» أوزيريس إلى جوار المقبرة التي كان يعتقد أن رأس الإله يرقد فيها. وهكذا فقد أحاط الموتى بالإله، كما أحاطوا بالملك وهم على قيد الحياة، فكانوا «كبراء أيبوس وعظمااء».

تطورت شروط الولوج إلى العالم الآخر الأوزيرى لتمتد من الآن لتشمل جميع البشر، ولم تعد تخص الملك وحده دون غيره. كان المتوفى مطالباً بأن يبرر سلوكه في هذه الدنيا أمام المحكمة المشكلة من أوزيريس ومساعديه الإلهيين الاثنين والأربعين. وسوف يُوزَن بين قلبه وعلامة الحقيقة - العدالة. وتصور هذه العلامة ريشة طائر نعام، كانت تستخدم في اللغة المصرية القديمة لكتابة هذا الاسم. وإذا تعادلت كفتا الميزان سوف يعلن الإنسان ماع خرو أى «صادق القول»، ليندمج في أوزيريس، فيتمتع بالتالي بمختلف أطوار صيرورته الأبدية. إن معرفة التعاويذ الفعالة سوف توضع تحت تصرفه لصالحه وفائدته من خلال أسفار يستخدمها كدليل ومرشد في العالم الآخر. إنها عبارة عن مصنفات رسمت نصوصها بالألوان على جوانب توابيت الأفراد المصنوعة من الخشب(*) والتي اشتقت تعبيراتها وتأثرت أيديولوجيتها بأمثالها في متون الأهرام. فبالى مختلف أطوار الصيرورة الأوزيرية تضاف مختلف أطوار الصيرورة الشمسية، في إنطلاقة عظيمة للحرية اللانهائية:

«أيا أوزيريس «الفالانى»^(٦٦)، لقد حضرت ويعد أن رُبط السَلَم من أجلك، صعدت إلى السماء إلى جوار رع، وسط الآلهة.

لقد انقشع ندى النهر، أيا أوزيريس «الفالانى» إنك تسير على قدميك، إنك لا تسير رأساً على عقب، إنك تصعد إلى باطن الأرض وليس نحو فكى الجدران. لقد هدمت الجدران من أجلك، الجدران التي كانت تحيط بقبرك والتي كان آلهة مدينتك قد شيدتها من أجلك.

(*) يمكن مشاهدة بعض نماذجها في المتحف المصرى بالقاهرة: الطابق الأول.
القاعة: ٣٧. (المترجم)

أنت طاهر، أنت طاهر تماماً كما يحيا روح. أنت طاهر، أنت طاهر، إن وجهك طاهر، إن ظهرك طاهر، إن مكانك طاهر، بفضل النطرون والبخور... كلمات قالها «فلان»: لقد حضرت، وبنفتح العالم الآخر السفلى، وأستطيع أن أتأمل أبى أوزيريس القصى. لأننى ابن لأبى الإلهى وحضرت لأحمى أوزيريس من ست (يندمج الإنسان فى حورس). ومن الآن فإن الدروب التى فى الأرض والدروب التى فى السماء والدروب التى فى العالم الآخر السفلى - تنفتح من أجلى. إنى أنفذ فى الأفق، إنى أعرف الطريق: لأننى متوفٍ ممجد^(٦).

هكذا حصل الإنسان من الآن على حقه فى الخلود كقرد.

پتاح فى منف

كما أن إلهاً آخر وهو پتاح ظل محتفظاً بأهميته فى عاصمته منف الضاربة فى القدم. ولا شك أن تدمير معبده كان وراء الندرة النسبية لصوره قبل الأسرة الثانية عشرة، ولكن وُجد مصوراً على قصعة تعود إلى الأسرة الأولى، عثر عليها فى طرخان على بعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة وتلتزم هيئته بالأسلوب الذى سيحتفظ به فيما بعد، التقليد المتواتر. فيظهر واقفاً حليق الرأس وقد تدثر برداء محبوبك والأشرطة تغطي ظهره وتبرز يداه من خلال ثوبه اللاصق ويمسك بصولجان «واس» وقد صور داخل مقصورة مفتوحة. كما تظهر هذه الصورة ذاتها على حجر بالرمو^(٥) ونشاهد «وجهه الجميل» أيضاً على أعمدة المقصورة البيضاء فى الكرنك، وتكتفى هذه الصورة بتوضيح حدود قامته المشوكة. كان إله الملكة على امتداد ستة قرون واحتفظت طوقسه الدينية بمكانتها المرموقة. فقد كان إذا صح التعبير، ثالث إله وطنى. فبصفته إلهاً خالقاً، فقد تصوّر العالم فى قلبه، ثم أعطاه أبعاداً مادية بفضل كلمات فمه، وفقاً لعملية تكوين ذات بعد نهنى محض. ولما كان إلهاً ملكاً فمن المعتقد

(٥) ويعود إلى الأسرة السادسة. (المترجم)

أنه أول من حكم العالم، إستناداً إلى الرواية الخرافية التي سجلها مانثون^(*)، ووصلتنا عن طريق يوسابيوس^(**) وسينكلوس^(***)، واعتماداً أيضاً على قائمة الأسرات الإلهية - وكانت أولى من حكمت مصر وقد وصلتنا عن طريق بردية يحتفظ بها في الوقت الراهن متحف تورينو، في إيطاليا. ويصفته إلهاً خالقاً؛ فهو راعي الصواغ والنحاتين وحاميهم. وكان كبير كهنة پتاح يحمل لقباً شديداً التفرد: «الكبير، رئيس جميع الحرفيين». ويصفته ملكاً فهو «مالك الحقيقة - العدالة». واعتباراً من الأسرة الثانية عشرة يوسف، أيضاً بأنه «سيد السماء»، عملاً بتصوير يُصنَّع على سماته بعداً أكثر عالمية. وفر «بنون التوابيت فإنه يحمي المتوفى في مقبرته كما يشارك في مصائره الجنائزية. وهكذا ظهر الشكل الإلهي الثلاثي الأطراف: پتاح - سوكر - أوزيريس. إن سوكر الذي يصور في هيئة صقر ممدد في رداء محبوبك هو إله الموتى ويعود إلى أزمته موهلة في القدم، ويعبد في جبانة مقف المسماة رو - سيتاو أي «مدخل المغارات» التي يصادفها المتوفى في العالم السفلي والملاذ الأخير للاموات الذين لم يبعثوا إلى الحياة من جديد. وفي هذا العالم كان من الضروري أيضاً التحالف مع إله أبيبوس القوى، وعلى تابوت جادت به بلدة البرشا^(****) صور پتاح - سوكر عند قيام قارب المتوفى لمصاحبة هذا الأخير في رحلته الليلية على صفحة النيل الأسفل، بغية إبعاد المخاطر التي يصادفها أثناء رحلة العبور. إن پتاح هو الإله الذي يسهر على التوازن العادل على سطح الأرض، كما أنه يقوم من الآن بحماية المصائر الأبدية للإنسان.

بل ومنذ مطلع الأسرة الثانية عشرة بدأت تظهر الخطوط العريضة للنزعة التليفية التي ستسود فيما بعد في عصر الرعامسة، وبعد انقضاء ثمانية قرون، مع

(*) الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وضاع مؤلفه عن تاريخ مصر. (المترجم)

(**) وقد عاش في القرن الرابع الميلادي. (المترجم)

(***) وهو الراهب جورجيوس المسمى سينكلوس. وقد وضع كتابه عن تاريخ العالم حوالى عام ٨٠٠م. (المترجم)

(****) بمحافظة المنيا وتسمى أحياناً دير البرشا. وتقع على الضفة الشرقية من النيل أمام ملوى تقريباً. (المترجم)

ظهور ثالث مقدس يجمع في كيان إلهي واحد نى وجوه ثلاثة تمثل أمون ودع
وإفتاح^(٦٨).

وإذا كانت ثلاثة كيانات إلهية، سواء كانت آلهة رسمية أو شعبية قد أخذ نجمها
يعلو على ما يبدو، داخل مجمع الآلهة، فقد استمرت العبادات المحلية تزدهر بطبيعة
الحال في بلداتها الأصلية. وظل الوعي الديني في مصر يمارس حرته عند اختيار
إلهه الأثير باختلاف الزمان والمكان. فكان تعدد الآلهة يوفر حماية سحرية أكثر
فاعلية.

الآداب والفنون

وأخيراً يشهد تطور الآداب والفنون، في حقيقة الأمر، على أن الحضارة
المصرية خلال ثاني عصور ازدهارها على امتداد تاريخها، كانت قد استعادت توازنها
وعظمتها الروحية وانهقد لها لواء السيطرة على الأساليب الفنية.

كان تطور الأدب واضحاً منذ نهاية الأسرة السادسة؛ ففي هذا العصر كان
المصريون قد تعلموا بالفعل كيفية معالجة نبات البردى الذي كان منتشرأً بغزارة
وفيرة على ضفاف نهر النيل ليصنعوا منه ركيزة جديدة وخفيفة للكتابة بعد أن كانت
علامتها تنقش على الحجر. فالتعامل مع ورق البردى والرسم عليه بواسطة فرشاة من
البوص بعد غمسها في المداد الأحمر أو الأسود، كان أسهل بكثير من الحفر بواسطة
سكين من الطران على الجرانيت أو الحجر الرملى أو الحجر الجيري. كما أن استخدام
هذه الركيزة الجديدة كان حدثاً سعيداً بالنسبة لنا: وبالفعل فقد كان في وسع الكتبة
المبتدئين في مدارس الحياة^(٦٩) أن يعيدوا من الآن نسخ أشهر النصوص الأدبية التي
أدرك المصريون قيمتها أكثر من غيرها أو لاقى نجاحاً شعبياً واسعاً، وإعادة نسخها
مراراً وتكراراً. وهكذا وصلتنا عدة نسخ من القصة نفسها أو من مسارد الحكم
نفسها، إلا أن كل نسخة من هذه النسخ تضم بطبيعة الحال عدداً من الثغرات، فورق
البردى مصنوع من مادة خفيفة ولكنها معرضة للتلف، ومن ثم فمن النادر أن تصلنا

فى حالة جيدة من الحفظ كما أن فرد لفائفها فى الوقت الراهن يسبب لنا مشاكل خطيرة. ولكن بفضل هذه النسخ المتعددة ولأن الثغرات ليست واحدة دائماً فى مختلف النسخ ففى وسعنا أحياناً أن نعيد صياغة النص بالكامل.

فى ذلك العصر كانت اللغة المصرية قد اكتسبت أقصى درجات التناسق والتناغم: فقد ازدادت مفردات اللغة واستقرت تركيباتها النحوية وتحددت قواعدها الأساسية.

إن سعة خيال المصريين وحسهم المرفف وولعهم بالكلمات والصور جعلت منهم قصاصين موهوبين. إن هذا الجنس الأدبى بكل معنى الكلمة قد شهد ازدهاراً منقطع النظير فى زمن الأسرتين العادية عشرة والثانية عشرة وسينتشر حتى نهاية تاريخ مصر القديمة. إنها حكايات شعبية وروايات تروى خوارق الأحداث وقصص مغامرات وحكايات أسطورية. ويشكل كل هذا الإنتاج الأدبى «مكتبة» ضخمة تتداخل فيها مصائر الآلهة والملوك والبشر.

إن قصة الفلاح الفصيح^(*) المعروفة من خلال أربع برديات هى من أقدم هذه النصوص. إنها حكاية فلاح من واحة الملح - وادى النطرون حالياً - كان يمتلك قطعة أرض صغيرة يقوم بزراعتها. ورحل ذات يوم مع حميره متجهاً إلى المدينة المجاورة لبيع محصول حقله وحصيلة رحلات صيده البرى. وفى الطريق هاجمه لص مسلح واستدرجه إلى مشجرة غير متكافئة واستولى على حميره وما فى حوزته من خيرات. وذهب هو-إن-أنپو^(**) - وهو اسم الفلاح - ليرفع شكواه إلى كبير الحجاب ونسئ. وإذ أعجب هذا الأخير بطلاقة لسانه، تحدث إلى الملك (خيمتى الثالث) عن هذا

(*) نشرت ترجمة عربية كاملة لهذه القصة. راجع: نصوص مقدسة ونصوص دينية من مصر القديمة. المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم: كلير لالويت. الترجمة العربية: ماهر جويجاني. دار الفكر. ١٩٩٦. من ص ٢٧٧-٢٨٩. كما قام المخرج العبقري شادى عبدالسلام بتحويل هذه القصة إلى فيلم قصير مدته ١٩ دقيقة. ويوزعه حالياً صندوق التنمية الثقافية على شريط فيديو. (المترجم)

(**) ومعناه «ليت «أنپو» (أنويس) يحميه». (المترجم)

الموضوع، ثم تركه يتقدم بتسع شكوى وجد الملك متعة كبيرة فى قراعتها مراراً وتكراراً ليروح عن نفسه، وبطبيعة الحال فسوف يتم إنصافه فى نهاية المطاف. إنها قصة هادفة، تريد إبراز قيمة الخطابات التسعة التى تشهد على أن المصرى كان شديد الولع بالكلمة والأحاديث التى لا تنتهى، وهى سمة فطرية يتحلى بها المصريون وسوف يحتفظون بها على امتداد تاريخهم^(*). إن هذا الإهتمام المتعظم باللفظ وإن على حساب المعنى يظهر بكل وضوح فى عبارات المديح والتقريظ النفعية التى يعلنها الفلاح الفصيح فى دفاعه عن قضيته:

«أيا كبير الحجاب، يا سيدى، يا أعظم العظماء، يا مرشد ما هو غير موجود وما هو موجود. إذا هبطت إلى بحيرة العدالة لا ريب أنك ستبهر فيها مع الريح المواتية. وإن يُقتلع شراعك وإن تتقدم ببطء، وإن تتحطم عوارض سوارى سفينتك وإن تجرفك المياه وإن تعاني من مشاق النهر وإن تشاهد وجوهاً مرعوبة. ومع ذلك سوف تتجه الأسماك إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة. فأنت أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ومُنذر لمن فقد أمه... أقم العدالة أيها الرجل الممنوح الذى يمتدحه الذين يُمدحون...»

كما يظهر هذا الإهتمام فيما يبيده الفلاح المظلوم على أمره من لوم وعتاب:

«أنظر أنت أشبه بمدينة بلا حاكم وفرقة بلا قائد وسفينة بلا ربان وجماعة من البشر بلا مرشد. أنظر أنت أشبه بشرطى يسرق وحاكم يسلب...»

كان المصرى يترجم ما يجيش فى صدره إلى صور حسية قد ينقلها عن لغة المراكبية. ونقدم على سبيل المثال صورة الأسى كما كان يُطلق له العنان:

«كان جسدى مألئاً وقلبى ثقيلاً، فخرج ذلك من جسدى بسبب ما كان عليه من أحوال. وانفرج فاهى للمديح، وكأن صدعاً أصاب سداً فتسربت منه المياه. عندئذ

(*) وحتى الوقت الراهن. (الترجم)

حركت العُقافة^(٥) وافرغت مائى وطربت كل ما كان فى جسدى وغسلت ثيابى القذرة.
والآن توقفت عن الكلام لأن همومى بكاملها أمام وجهك».

كما تعتبر هذه القصة موحية إلى حدٍ كبير بالنظر إلى أن كبرى النصوص الأدبية كانت معروفة على نطاق واسع من سواد الشعب. إنها تلهم بوضوح بعض مقاطع الشكاوى. وتلتقى فيها بقدر من تذكيرات الماضى المنقولة عن الأناشيد الملكية:

«يا كبير الحجاب أيا سيدى، أنت رع سيد السماء مع من يحيطون بك. أنت قوت البشر أجمعين، أنت المياه الهادرة، أنت إله النيل الذى يعيد الإخضرار إلى المروج ويخصب الحقول المحروثة».

وإذا كان الأدب التعليمى قد طبع هذه القصة الشعبية بطابعه، فإن حكمة نابغة مباشرة من الشعب قد أضافت إليه لمسة شديدة الإنسانية:

«من فى حوزته الأملاك عليه أن يكون حليماً. السرقة أمر طبيعى لمن لا يملك شيئاً» - «لأن أملاك الفقير هى كنسمة الحياة بالنسبة له. ومن يسلبها منه يطبق على أنفه»^(٧٠).

تعتبر مغامرات سنوهى^(٥٥) أقدم قصص المغامرات وأكثرها شعبية بلا أدنى شك فى نظر المصريين، إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المخطوطات التى وصلت إلينا سواء دونت على أوراق البردى أو الأومستراكا^(٥٥)، وتعود إلى الفترة الممتدة من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة العشرين. تبدأ القصة بوفاة الملك أمن إم هات الأول. فيسافر موفدو البلاط الملكى إلى ليبيا لإحضار ولى العهد سنوسرت الذى كان يخوض هناك معارك طاحنة، ولكن سنوهى الذى تصادف وجوده فى هذا المكان ظنّ أنه اكتشف مؤامرة لصالح ابن ملكى آخر. وفجأة وقع فى نفسه الخوف فلأذ بالفرار.

(*) () وقد طرّفه معقوف. (المترجم)

(**) () وليس «سنوهى» كما يكتب أحياناً. وأصله للمصرى القديم «سا نهت» أى «ابن الجميزة». (المترجم)

(***) اسم جمع ومفرده أوسرلكون ويعنى الخاف أو الشقف. (المترجم)

واجتاز الدلتا وعبر النيل ووصل إلى الجبل الأحمر على مقربة من هليوبوليس ثم اتجه شمالاً. وإذا أعياء الظمأ وهو في الصحراء، أنقذه البدو الرحل، وواصل سيره أيضاً في اتجاه الشمال حتى مدينة بيبلوس ثم اتجه إلى الريتو^(٧٨). وهناك استقبله أحد المشايخ ونزّجه ابنته البكر وهبه قطعة أرض ثم سلّمه قيادة جيشه. وذات يوم دعاه بطل المصارعة في الريتو إلى القتال، ونازله في معركة فريدة واستطاع أن يتصدى لهجمات الرجل القوي وتمكن في آخر المطاف من قتله بعد أن سدّد إليه سهماً من سهامه، وسط تهليل الآسيويين الذين تجمعوا منذ الفجر في مكان المعركة. وهكذا عاش سنوات طويلة وه أصبح «آسيوياً». وبعد أن شبّ أولاده وكبروا صاروا بنوهم زعماء قبائل.. حتى جاء اليوم الذي أخذ الحنين إلى وطنه مصر يعتمر قلب سنوهي بعد أن تقدمت به السن. عندئذ طالبه مرسوم صادر من سنوسرت الأول بالعودة إلى البلاط الملكي. وحلّ سنوهي بمصر والدنيا لا تكاد تسعه من الفرح. واستقبله فرعون والملكة والأولاد الملكيون استقبالاً حاراً مهيباً. وشرع يعدّ هرمه في أراضي الجديدة وانتظر أن توافيه المنية.

تُرى من كان سنوهي؟ لا شك أنه كان شخصية حقيقية في واقع الأمر، وأخذ القصاص يضيف ما يحلو له إلى حياة هذا الشخص. وماذا إذن عن هذا الهروب وهذه الإقامة الطويلة في بلد أجنبي؟ أكان سنوهي إنساناً ميالاً إلى الخوف أم مجرد شخص اختار المنفى طوعاً وبياراً؟ أم كان بالأحرى موفداً غير رسمي من قبل ملك مصر إلى البلدان الآسيوية فكان أشبه بالعميل السري. إنه افتراض على قدر من المعقولية في هذا العصر الذي بدأ الشرق الأدنى يتأثر بتقلبات سياسية خطيرة، وهو ما قد يفسره الإستقبال الودّي الذي حظى به سنوهي عند عودته. إن فقرة منازلته الرجل القوي في الريتو تذكرنا بتقديم دالود لمبارزة جوايات^(٧٩).

والقصة مكتوبة في لغة كلاسيكية أية في الجمال وصورها موحية إلى حد كبير.

(*) راجع سفر صموئيل الأول من العهد القديم من الكتاب المقدس: الإصحاح: ١٧. (المترجم)

أما الفريق فهي قصة أسطورية بحثة. إن مخطوطاً دون على ورق البردى، يعود إلى الأسرة الثانية عشرة يحتفظ بنصها الكامل.

كانت سفينة مصرية تشق عُباب البحر الأحمر عندما هبت عاصفة هوجاء فأغرقت السفينة بما عليها. وتمكّن شخص واحد أن يتعلق بقطعة خشب - ربما كانت جزءاً من سارية السفينة - واستطاع أن يصل بمفرده إلى شاطئ جزيرة نباتها وفير وغزير، إنها جزيرة الكا^(٧٢). ويعد أن نام لمدة ثلاثة أيام، وعندما استكشف موارد الجزيرة وأكل حتى شبع سمع فجأة هزيم رعد، في حين كان يتقدم نحوه ثعبان ضخم: «كان طوله ثلاثين ذراعاً - أى أكثر من ستة عشر متراً - وطول لحيته أكثر من ذراعين وجسده مصفح برقائق من الذهب وحاجباه من اللازورد الحقيقي». إن الذهب واللازورد من سمات الرمزية الشمسية والحية إحدى «شارات» الآلهة والملوك، ومن ثم حمله الحيوان الإلهي إلى جحره. وروى الفريق على مسامحه سلسلة مغامراته. وطمأنه الثعبان وأخبره بكلمات تنبئية قانلاً: سوف تصل سفينة بعد أربعة أشهر لتعود به. ثم قص عليه ما ألم به من نواذب: إن عائلته التي كانت تضم خمسة وسبعين ثعباناً قد احترقت من جراء نجم سقط من السماء. وأصبح الناجي الوحيد من هذه المحرقة. ووعده الرجل بإرسال هدايا نفيسة بمجرد عودته إلى مصر، وهو ما حدث على النحو الذي تكهن به الحيوان الإلهي.

وبطبيعة الحال يوفر لنا هذا النص أوجه شبه قاطعة مع غيره من النصوص اللاحقة. فلا يفوتنا أن نذكر ملحمة الأوديسة^(٧٠) وغرق أوليسيس ووصوله عند شعب الفياكيس^(٧١). كما لا بد أن نذكر أيضاً رحلات السندباد البحري، ولكن الدلالة الأسطورية لهذه القصة أكثر عمقاً. إن العبرة التي يمكن استخلاصها منها تقريباً

(٧٠) ملحمة يونانية تنسب إلى هوميروس وتروى مغامرات أوليسيس. (الترجم)

(٧١) شعب خرافي كان يسكن جزيرة كورفو اليونانية الحالية (كيركيرا) الواقعة شمال غرب اليونان. (الترجم)

أكثر على ما يبدو إلى ملحمة جلجاميش^(*) البطل السومري ثم البابلي. إن مواضيعها الرئيسية تقترب أيضاً من كبرى المواضيع الأسطورية الثابتة لفكر البحر المتوسط بصفة عامة ومن بعض المواضيع الإفريقية الثابتة. فعندنا، بادئ ذي بدء موضوع الجزيرة: إنها مكان بعيد عن البشر وموقع محمي يعيش فيه إله أو كائن متميز نجى بمفرده من كارثة دمرت كل شيء. إنها جزيرة الحكيم أوتانافيسين^(**) الناجي الوحيد من الطوفان مثل نوح^(***). ولما كانت الجزيرة «عنصراً إضافياً» إلهياً مؤقتاً فسوف تختفى بعد رحيل جلجاميش مثل جزيرة الكا أو جزيرة شيريا. أما موضوع نبات الحياة فهو الهدف الذي يسعى إليه جلجاميش عند أوتانافيسين. كما أن جزيرة الكا تزخر بالبخور وهو النبات «الذي يصفى صفوة إلهية» (وهو اسمه في اللغة المصرية القديمة). أما موضوع الثعبان فإنه يرمز عند القدماء والأفارقة على حد سواء، إلى الحياة الأبدية والخلود. فيبدو كما لو أن الحيوان يولد من جديد مع كل مرة ينسلخ جلده ويغيره. وفي باطن تربة الأرض يتغذى على عصارة النباتات التي يتجدد نموها على الدوام ومن ثم يتقاسم طبيعتها. ويظل ثعبان جزيرة الكا ملتزماً بهذا الدور لأن «البخور في حوزته». أما الشخص الذي يلتقي به جلجاميش فسوف يبتلع نبات الحياة.

إن قصة الفرقي المكتوبة في لغة كلاسيكية رصينة ورشيقة العبارة هي نص أدبي جدير بالإهتمام. وربما كانت في الأصل قصة منتشرة في أوساط بحارة شواطئ

(*) عن عرض وترجمة كاملة للمحمة جلجاميش راجع: د. نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء السادس: العراق وفارس، من ٢١٦-٢٦٤. ولا سيما الصفحات من ٢٤٧ إلى ٢٥٩ الخاصة بالطوفان. دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٧. وأيضاً د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم من ٤٧٥-٤٨٢، وهي مخصصة لعرض قصة جلجاميش والطوفان. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٤. (المترجم)

(**) من أبطال أسطورة جلجاميش. وكان الوحيد الذي نجا من الطوفان. وقد منحته الآلهة الخلود. كما أحاطه جلجاميش علماً بوجود النبات الذي يمنح الخلود. (المترجم)

(***) راجع قصة نوح كما وردت في العهد القديم من الكتاب المقدس: سفر التكوين: الإصحاحات: ٦ و٧ و٨. (المترجم)

البحر الأحمر الذين تربطهم علاقات وثيقة بأبناء بلاد ما بين النهرين القادمين في هيئة قوافل والتي نلتقى بمواضيعهم الثابتة في الآداب الكلاسيكية لحوض البحر المتوسط بالإضافة إلى بعض القصاصيين العرب المقيمين أيضاً عند شواطئ البحر الأحمر.

ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد تطورت روحانية مصر وانتشرت. كان موقع مصر يضعها عند ملتقى طرق أفريقيا وآسيا والبحر المتوسط، فصارت البوثة التي ينصهر فيها فكر العالم القديم. والشاهد على ذلك الإنتاج الأدبي الذي أبدعه هذا العصر.

يشهد تجديد الفن وأشكاله على الأهمية التي اكتسبتها منطقة طيبة؛ فقد خرج الأتاتفة(*) على تقاليد منف المتواترة وأقاموا جبانتهم على الشاطئ الغربي من نهر النيل على مقربة من الشيخ عبدالقربة وفي منطقة الطارف(**) تحديداً. وقد عثر في هذا الموقع على البقايا الشديدة التدمير لمقبرتي أنتف الأول وأنتف الثاني المحفورتين في صخر الجبل.

إن التصور الذي وجه تصميم مجموعة موتوحتب الثاني الجنازية في الدير البحري كان يوحى بالعظمة والشموخ، وأقيمت هذه المجموعة عند الطرف الجنوبي من الدارة الصخرية التي تشكل جرف الصحراء الغربية، وعند إحدى تفريعات الجبل الغربي الرئيسي(٧٣). لقد أملت طبيعة الموقع إلى حد ما شكل هذا المعلم الأثري، ومن المعبد الأدنى قرب الوادي يمتد طريق لمسافة كيلومتر واحد صاعداً في اتجاه الغرب يكتنفه جداران، إن هذا الطريق الفخم المحفور في الرمال الوردية يشكل مدخل المجموعة الجنازية. ويفضي إلى ساحة فسيحة زرعت بأشجار الجميز في صفوف منتظمة. لقد غرست الأشجار على جانبي طريق مساعد يتجه من الشرق إلى الغرب، ويتفق مع محور المعبد وينتهي عند شرفتين تلي إحداهما الأخرى وتعلوما. إن أربع

(*) وهم ملوك النصف الأول من الأسرة الحادية عشرة. (المترجم)

(**) وتقع إلى الشمال من بداية الطريق المؤدى إلى وادي الملوك. (المترجم)

شجرات تصطف على جانبي الطريق وتظل كل واحدة منها تمثلاً شامخاً من الحجر الرملى يصور الملك. ثم تتلى أربعة صفوف متتالية من الأشجار فى الاتجاه الشمالى الجنوبى. وتكتمل على هذا النحو العلاقة السحرية الأوزيرية التى يقيمها الملك مع قوى التجديد والإحياء فى عالم النبات. وعند الطرف الغربى من الساحة شيدت صفة تتكون من صفين من الأعمدة المربعة من الحجر الرملى تحمل الشرفة الأولى، وكانت تلتف حول كتلة الشرفة العليا التى أقيم فى وسطها هرم الملك. كان يحيط بهذه الشرفة من جوانبها الثلاثة الجنوبي والشرقى والشمالى معر يتكون من صفين من الأعمدة السداسية الأضلاع. وبالإضافة إلى هذه المجموعة المعمارية التى يعلوها الهرم أقيمت عناصر أخرى مبنية أو محفورة فى صخر الجبل. ومن ناحية أخرى ووسط فناء الأشجار الفسيح وإلى الشمال قليلاً من المحور الطولى، كانت حفرة عميقة تشير إلى مدخل معر طويل يخرق الأرض بزاوية مائلة ليصل على بعد مائة وخمسين متراً إلى حجرة دفن فسيحة إلى حد ما، تقع على وجه الدقة، على خط عمودى أسفل الهرم وتضم مقبرة مونتوهوتب الثانى التذكارية. كان كارتر Carter الذى باشر أعمال التنقيب فى الموقع عام ١٩٠١ قد عثر فى هذه الحجرة على تمثال جالس للملك مرتدياً ملابس أعياد اليوبيل بالإضافة إلى بعض عناصر المتاع الجنائزى. ومن ناحية أخرى، وإلى الغرب خلف الهرم أقيم فناء برواق بأعمدة وعند مستوى الشرفة الأولى التى يتصل بها، ومن هذا الفناء ينحدر معر طويل مخرقاً صخر الجبل ليصل إلى حجرة الدفن التى لم يعثر فيها سوى على التابوت الحجري للملك. كما أن الفناء نفسه كان يقوم مقام الردهة التى تقضى إلى بهو أساطين كان يشغل مؤخرة المعبد ناحية الغرب وقد اندمج فى تجويف طبيعى فى الجبل. إن مقصورة جنازية مقامة فى الجانب الغربى من هذا البهو كانت تظل كوة محفورة فى الصخر تضم تمثلاً للملك.

وإن ظلت هذه المجموعة المعمارية من حيث تصورها قريبة نسبياً من أسلوب الدفن الذى أخذ به ملوك الأسرات السابقة من حيث اندماج الهرم والمعبد فى مجموعة واحدة، إلا أنه فى وسعنا ملاحظة بعض إرهابات العناصر المعمارية التى ستسود إبان الأسرة الثامنة عشرة. فبدلاً من وجود حجرة الدفن داخل الهرم أو أسفله نلاحظ أنها نقلت فى طرف سرداب طويل حفر فى صخر الجبل. ولكن تقلصت ضخامة الهرم

إلى حدٍ كبير. وإن ظلت دلالاته الرمزية قائمة بما يتفق مع الأشكال الجديدة التي فرضتها طبيعة الموقع الجديد في طبيعة من ناحية والتطور المتنامي للرمزية الأوزيرية من ناحية أخرى.

إن المقبرة الملكية مركز جبانة شاسعة. فقد دُفن داخل أسوارها بعض الأميرات والمقرين من الملك. لقد تم الكشف عن ثمانية وعشرين قبراً. إن كبراء البلد وأعيانه قد أمروا بحفر مقابرهم الصخرية في الجانب الشمالي من دارة الجبل أو على المنحدرات الواقعة بين المعبد الجنائزي والجبل. وهو ما فعله على سبيل المثال الوزير إيبى وحامل الأختام خيتى، ولكن اختفى العديد من هذه المقابر من جراء أعمال التشييد التي نفذتها الملكة حتشيسوت. إن هذا المعلم الصرهي هو السلف الذي سبق المعبد الذي ستأمر الملكة الطموحة بتشييده شمال هذا المعبد بعد انقضاء خمسة قرون، وربما كان النموذج الذي سعت إلى محاكاته.

أما خلفاء المفتاحة وهم ملوك الأسرة الثانية عشرة فقد تخلوا عن جبانة طيبة بعد أن وقع اختيارهم على الفيوم لتقام فيها عاصمتهم وعادوا إلى الشكل الهرمي البحث المتلائم مع التقليد القديم المتواتر. وفي مدينة اللشت تحديداً عند حدود الفيوم الشمالية عثر على هرمين يشبه ترتيب مختلف عناصرهما الأهرامات التي شيدت في منف في الماضي. كان هرم أمنمحات الأول يقع في الشمال. أما هرم ابنه سنوسرت الأول ففي الجنوب. كان ارتفاع هذا الأخير ٦١ متراً وطول ضلعه ١٠٦ أمتار ويبلغ إنحناء واجهاته ٤٩ درجة. كان بنيانه الداخلى من الكتل الحجرية غير المستوية ومرتبطة في طبقات تمتد من المركز في اتجاه الزوايا ووسط الواجهات. والكسوة التي ما زالت مرئية في المدماك الأدنى كانت تتكون من حجر جيرى صقله العمال بعناية فائقة. إن الممر الهابط الذي يصل إلى حجرة الدفن المحفورة أسفل الهرم، يخترق الأرض بدءاً من المدماك الأول للواجهة الشمالية. كان الممر مغلف في بدايته بالحجر الجيري ثم بالجرانيت والهرم محاطاً بسورين: فيضم السور الكبير مدخلاً ضخماً يتوسط واجهته الشرقية أى قرب المعبد الجنائزي. ومن هذا المدخل يبدأ ممشى كبير يحفه جداران وصفان من التماثيل الملكية الأوزيرية^(٧٤). إن الأشكال الجديدة لعمارة مونتوحتب الثاني قد أثرت بكل تأكيد، على تنسيق عناصر هذه المجموعة.

وفى اللاهون عند مدخل بحر يوسف شيد سنوسرت الثانى هرمه. وقد عثر فى حجرة الدفن على تابوت من الجرانيت هو آية فى الجمال. وفى حجرات الدفن المتاخمة والخاصة بالأميرات، خرجت إلى النور مجموعة رائعة من الطلي من الذهب والفضة واللآزورد والفيروز والزمرد والعقيق الأحمر. إنه عمل رائع صاغته أنامل صانع ماهر.

وفى هواره فوق الهضبة المشرفة على الفيوم نظر الإغريق بإعجاب إلى هرم أمنمحات الثالث ولا سيما إلى معبده الجنائزى، بل وشبهوا المعبد باللايبرانت Labyrinth أو قصر التيه، دون أن يدركوا دلالة المعبد الجنائزى فى نظر المصرى القديم. ويستحيل علينا فى الوقت الراهن أن نتخيل مساحة هذا المبنى وتعقيداته، بعد أن أصابه دماراً بالفاً. واستناداً إلى الروايات الإغريقية المتواترة فمن المعتقد أنه كان يضم سوراً عظيماً واثنى عشر فناءً مسقوفاً وطابقين يضم كل طابق ألف وخمسمائة حجرة تشكل عدداً لانهائياً من المنعطفات والمخارج الزائفة(٩). فكان على حد قولهم، وفيما نعلم، واحداً من أهم المعابد الجنائزية وأكثرها تعقيداً وربما أطلق عليه اسم اللايبرانت فى وقت لاحق بسبب تماثل المخارج الصوتية غير المؤكدة لاسم التتويج الذى كان يحمله أمنمحات الثالث وهو نى-ساعت-رع ومعناه بالمصرية القديمة «الحقيقة - العدالة فى حوزة رع»- تماثلها مع الاسم اليونانى(١٠).

كانت هذه المقابر آخر المقابر الهرمية المصرية. أما البر الغربى لمدينة طيبة الذى سبق أن استخدمه ملوك الأسرة الحادية عشرة فسوف يتحول عما قريب إلى جبانة شاسعة للأباطرة الجدد وأعيان دولتهم وكبرائها. وهنا وإبان شهر أبريل من كل سنة ومع مطلع الشهر القمري الجديد سوف تقام من أجل الموتى الراحلين الإحتفالات بعيد الوادى.

كان نحّاتو طيبة شأنهم شأن المعمارين مبدعين نشطين. فمنذ إعادة توحيد البلاد على أيدي الأناتفة يبدو أن مدرسة جديدة فى فن النحت أخذت تتطور وتزدهر لتفرض أسلوباً مبتكراً أكثر صرامة وواقعية، جنباً إلى جنب مع أسلوب منق القديم

(*) وهو لاخاريس أميريس(٩). (المترجم)

ونزعته التقليدية المنمقة. وأول شاهد على هذا الإتجاه هو التمثال الملكى الكبير الذى عثر عليه كارتير فى البئر التى تقضى إلى مقبرة مونتوحو٢٢ الثانى التذكارية. إنه تمثال ضخيم من الحجر الجيرى يصور الملك ويبلغ ارتفاعه ١٨٢ سم ومن مقتنيات المتحف المصرى بالقاهرة فى الوقت الراهن^(*). وإذا أغفل النحات التفاصيل وأهملها، فقد كان يريد إظهار سلطان العاهل الملكى وسلطته من خلال تجسيم الأحجام بأسلوب يكاد يكون هندسياً. فيبرز الوجه قوة الشكيمة، والجسد عبارة عن كتلة متجانسة والجزع مستقيم والساقان غليظتان والقدمان عريضتان راسختان. يكشف هذا التمثال عن عزيمته وحيوية تلامسان الخشونة وفظاظة القلب. كما تشهد تماثيل عثر عليها فى الكرنك عن هذا الولع الجديد بكل ما هو ضخم وعماق. ونذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال، الصور الشخصية للملك سنوسرت الأول، ومنها التمثال الملون الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧٠ سم وهو من الحجر الجيرى، والأعمدة الأوزيرية التى يبلغ ارتفاعها ٣٧٥ سم وهى من الجرانيت، وصور سنوسرت الثالث ومنها التمثال العملاق الذى يبلغ ارتفاعه ٣١٥ سم وهو من الجرانيت الوردى ومن مقتنيات متحف القاهرة^(**) أو صور أمنمحات الثالث ومنها التمثال الذى يبلغ ارتفاعه مترين وهو من الجرانيت ومن مقتنيات متحف برلين. هكذا يبرز فجر عظمة وشموخ حضارة طيبة. إن ملامح الوجوه واقعية وقلقة ومهمومة، وقد صورت أحياناً فى مراحل عمرية مختلفة من حياة صاحبها. وفى مقابل هذا الأسلوب الطيبى بسماته الخاصة الشديدة التميز نلتقى على الطرف الآخر بأسلوب نهائى منف والشت بوجوههم البشوشة وفنهم الأكثر رقة والأقرب إلى الكمال المثالى والتقاليد المقررة. إن وجود هاتين المدرستين لخير شاهد على حيوية روح المبادرة الخلاقة التى تحلى بها الفنان المصرى، فضلاً عن اهتمامه بتجديد الأشكال ودلائها.

(*) فى النور الأرضى: الرواق ٣٦. (الترجم)

(**) فى صحن الطابق الأرضى الواقع أمام مدخل مبنى المتحف. (الترجم)

ربما ظهرت مدرسة ثالثة في تانيس(*) في القسم الشرقي من الدلتا. لم تكن مدرسة بكل معنى الكلمة، ولكن تشهد التماثيل التي عثر عليها في هذه المدينة على تأثيرات متنوعة. وإذا كان أسلوبها يلتزم إلى حد كبير بالتقاليد المقررة، إلا أننا نلاحظ وجود تأثيرات عناصر أجنبية ومواضيع أسيوية: فقد صور أمنمحات الثالث وهو يحمل قرابين مادية وقد توحد مع نهر النيل جالب الخير. ويشهد جزعه المكتنز على حيوية أسلوب الحرفيين. ومن حقنا أن نتساءل إذا كان هذا التمثال الذي عثر عليه في تانيس هو صناعة محلية أم جاء من الجنوب؟ وعلى كل حال فغطاء رأس الملك الفريد في بابه جدير بالملاحظة لأن جدائله تتقاطع حسب الذوق الآسيوي. كما جادت تانيس بتماثيل الملك أمنمحات الثالث في هيئة «أبو» الهول. ولم يحط الوجه الملكي كما جرت العادة بغطاء الرأس الملكي المصنوع من الكتان وتبدل منه على الكتفين قطعاً نسيج ذوا ثنايا، واسمه النيمس عند قدماء المصريين. بل حلّ محله شعر لينة الأسد وقد صور في بساطة شديدة كزخرف يزدان به الرأس. لأن ملامح الأسد بصفتها «حيواناً» ملكياً وإلهياً، كانت أهم بكثير من ملامح تماثيل «أبو» الهول الكلاسيكية - وفقاً للعادات الآسيوية.

واتسعت المملكة وتنوعت، وظهرت تأثيرات أجنبية. ومن الآن فصاعداً سوف تلعب مصر دورها عند ملتقى أفريقيا وآسيا. وتعاظمت قوة «مدينة الجنوب»(**) - طيبة - وعلا نجمها وأصبحت مهياً لتتبوأ مكانتها في التاريخ.

ولكن في هذه اللحظة بالذات ومن جراء التمركات الضخمة للشعوب الهندوأوروبية وما ترتب عليها من تقلبات سياسية في آسيا - سوف يطرح للمرة الثانية السؤال حول قضية المؤسسة الفرعونية بعد أن قوضتها غزوات شعوب الهكسوس. فعلى امتداد قرنين من الزمن سوف تنقسم مصر من جديد وينفرط عقد

(*) الاسم اليوناني لمدينة جهن المصرية القديمة وصان الحجر حالياً. (المترجم)

(**) نيوت رسيث في اللغة المصرية القديمة. وعن مختلف أسماء طيبة وألقابها. راجع: د. سيد

توفيق. أهم آثار الأقصر. النهضة العربية. ١٩٨٢. ص من: ١٥-١٩. (المترجم)

وحدثها، إلى أن جاء من مدينة طيبة أمراء آخرون فحرروها واستعانوا وحدثها، فمع استرداد البلاد قوتها وسلطتها في ظل الأسرة الثامنة عشرة عاد النظام الملكي إلى سابق عهده.

* * *

ينصب موضوع هذا الكتاب على دراسة هذه الأسرة الملكية. ونلاحظ غياب فكر عظيم وحداني ومهيمن، وهو ما سيوجد في وقت لاحق في عصر الرعامسة. ولكننا نلاحظ أن صياغة أيديولوجية جديدة أخذت تتشكل آنذاك لتنتشر وتطور من عهد إلى آخر، ليترك كل فرعون من الفرعاة بصمته الشخصية. وشهد هذا العصر فيضاً من الأشكال والأساليب والأفكار، شكلت بوتقة روحية سوف ينهل منها الرعامسة فيما بعد على نطاق واسع. ففي ذلك الزمان تحولت مملكة وادي النيل إلى إمبراطورية آسيوية وإفريقية مترامية الأطراف. هنا تكمن مصادر الفكر الإمبراطوري بحيويته الوثابة. وهنا نستطيع أن نفهم مختلف أوجه الروحانية المصرية.

وسعيًا وراء توضيح ما قلناه، سوف نحاول من خلال دفتي هذا الكتاب أن نقدم للقارئ قنراً كبيراً من النصوص المصرية المألوفة ولكن سوف نقدم فضلاً عن ذلك نصوصاً لم تُترجم من قبل أو لم تتل ما تستحقه من اهتمام. وإن نحاول أن نخضع هذه النصوص لهذه الأيديولوجية أو تلك ولكن سنعمل على ربطها بالفكر القديم نون تحيز وبلا أفكار مسبقة.

إن مهنة عالم المصريات تتطلب منه أن يكون مولعاً شغوفاً بما يقوم به، صبوراً في عمله، سيساعده ولعه على الإحاطة عن كتب بكنه حياة الرجال الذين عاشوا قبل خمسة آلاف سنة والتعاطف مع تقاليدهم وأفكارهم بأن يتوحد مع صميم الحياة في مصر الفرعونية ويندمج فيها. وإلى جانب ذلك فإنه مطالب بالتطلي بالصبر وتوخي الحيطة والحذر. فيتجنب الوثوق ثقة عمياء فيما يقوله هذا التؤول أو ذاك، لمجرد ذكره في كتاب ما، ربما يكون قد عفى عليه الزمن، أو فيما توصلت إليه أعمال تنقيب محليه نون مضاهاتها بغيرها الأحدث عهداً، وأن يراعى على الدوام تبني رؤية شاملة

للأحداث والأفكار. ولذلك فلا غنى عن معرفة اللغة. لقد ظل علم المصريات لفترة طويلة وما زال أحياناً نشاطاً ينكب عليه الهواة، فيقعوا بسرعة تحت تأثير قراءة مضللة لبعض الشروح والتعليقات أو بالاعتماد على المصادر اليونانية التي يصعب في الغالب الوثوق فيها ثقة عمياء. علينا أن نقرأ النصوص المصرية مراراً وتكراراً بصبر وأناة ونفهمها من خلال الواقع الحى لعصرها والنفاذ إلى صميم جوهرها، ومن ثم علينا بعد ذلك وفي مرحلة لاحقة فقط، ألا تلجأ سوى إلى مراجع مختارة، وهي مفيدة على كل حال لأنها حصيلة جهود أجيال من العلماء. ومن ثم فإذا خاض المرء في المناقشات إنطلاقاً من النظريات المطروحة دون معرفة باللغة، فكأنه يريد دراسة فرجيليوس^(*) Virgile وشيشرون^(**) Cicero، بينما يجهل اللغة اللاتينية. إن علم المصريات شأنه شأن كل علم حقيقى يستوجب أن يتطلى الباحث بصفات التجرد وعدم الإنحياز والقدرة على إصدار أحكام صائبة والمواظبة على تناول ما اعتقدنا أنه حقيقة مقررة لطرحه على بساط البحث.

ليتنا نستطيع توفير هذه الشروط حتى نقدم عن نشأة الإمبراطورية المصرية صورة حقيقية ومنصفة تعتمد على الوثائق المصرية، من معالم صرحية ونصوص، بعيداً عن أى مراوغة، مع الإلتزام بالنزاهة العلمية. هكذا نعيد إلى الحياة طيبة عصر الأباطرة.

(*) (فرجيليوس (٧١-١٩ ق.م) أعظم شعراء روما. (المترجم)

(**) (شيشرون (١٠٦-٤٣ ق.م) أكبر خطيب وكاتب ومفكر عرفته روما. (المترجم)

(***) السخرة is corvée. لا ينبغي أن يمزج القارئ من استخدام المؤلف تعبير السخرة؛ لأنه يتم الخلط في المعتاد بين السخرة وهي من مقومات العمل في النظم الإقطاعية - كما في مصر الفرعونية والعمل القائم على العبيد كما ستمرغه اليونان وروما القديمة، في أزمنة لاحقة، وهو نظام أكثر تخلفاً مقارنة بالنظام السائد في مصر الفرعونية، ولم تعرفه مصر الفرعونية كنظام اقتصادى اجتماعى هام، وإن طبق أحياناً في بعض الحالات الفردية والاستثنائية على أسرى الحرب. لقد أورد الكتاب المقدس في سفر الخروج، الإصحاح الأول الآية ١١- أن بنى إسرائيل قد عملوا بالسخرة - ولم يكونوا عبيداً - رغم كونهم من غير المصريين. ويمكن مراجعة هامش المترجم الوارد فيما سبق، عن معاملة العبرانيين في ظل هذا النظام. فعندما ضلوا السبيل في صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر ندموا أشد الندم على ترك مصر فقالوا: «كنا نجلس

(في مصر) عند قِدر اللحم وتُكَل من الطعام شبعنا (الخروج ١٦: ٢). وأيضاً: «إننا نذكر السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاًناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم» (سفر العدد ١١: ٥). فالصورة أبعد ما تكون عن السياط التي كانت تذهب لظهور العمال كما صورتها أفلام هوليوود!... وأود أن أضيف في هذا المقام ما تقوله أمينة الشفيق: «إن مصر الحديثة المركزية تأسست في جانب كبير منها على جهد وعرق عمال السفرة... وإليهم يعود الفضل في جانب كبير مما نراه الآن من ترع وقنوات ومصارف وسكك حديد وأرض خضراء... لقد استدعى مشروع محمد علي تسخير ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف فلاح لمدة أربعة شهور سنوياً (وهي فترة الفيضان-م) واستمرت السفرة طوال عهود عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق إلى أن ألغيت رسمياً في ١٩ ديسمبر ١٨٩٩» (راجع في هذا الصدد مقال أمينة الشفيق: «السفرة.. حالة مصرية. مجلة وجهات نظر. العدد ٢٢. أكتوبر ٢٠٠١ والمراجع التي تعتمد عليها). مع ملاحظة أن عدد سكان مصر في عهد محمد علي وقبله ويمده كان على النحو التالي: ثلاثة ملايين نسمة في أواخر القرن الثامن عشر و ٤٠ ٥١٤ ٢ عام ١٨٢٣ و ٤٤٠ ٤٧٦ ٤ عام ١٨٤٥ (عبدالرحمن الرافعي. عصر محمد علي. دار المعارف. ١٩٨٢ ص ٥٤٢). ويضم هذا العدد بالطبع الشيوخ والنساء والأطفال. كما نصت اتفاقية العمل الدولية رقم ٢٩ لسنة ١٩٢٠ ورقم ١٠٥ لسنة ١٩٥٧ على منع السفرة. (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. د. أحمد زكي بدوي. مكتبة لبنان ١٩٨٦. ص ١٦٥) أضيف إلى ذلك، أن قبائل بني إسرائيل بعد أن بدأت في اغتصاب أرض كنعان من أبنائها، حوالى القرن الثالث عشر، قبل الميلاد، كما هو وارد في سفر يشوع من العهد القديم، قد عرفت نظام السفرة، بعد أن أسست مملكتها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما ورد في سفر صموئيل الثاني، ٢٤: ٢٠ وسفر الملوك الأول، ٦: ٤. بل إن الملك سليمان ذاته «قد سَفَر ثلاثين ألف رجل من كل أرجاء إسرائيل»، سفر الملوك الأول، ٢٧: ٥. واستخدمهم في بناء معبده وقصره وعدد من المدن، ١٥: ٩. (المترجم)

الفصل الأول

العالم في زمن القرن الثامن عشر قبل الميلاد

١- فى أفريقيا

الهيمنة المصرية: عُرِف وتقليد موروث

ينبع النيل من قلب أفريقيا. ومنذ أقدم أزمنة تاريخهم المديد شرع المصريون يبحرون جنوباً مصعدين مجرى النيل أو يسировون عبر الدروب القائمة عند ضفاف النهر.

النوبة والسودان

استرعت الأصقاع الواقعة فيما وراء الجندل الأول انتباه المصريين. كان الوصول إليها أمراً يسيراً، ولا يصطدم الداخل إليها بأية مقاومة. كانت السلطة المحلية موزعة على عدد من القبائل، لا تجمعهم وحدة سياسية فعلية. كانت هذه المناطق تشتهر بثرواتها المتنوعة: القمح والأبقار والعاج والأبانوس والبخور وريش النعام. وفى وادى العلاقى، وهو وادٍ قفر فى الصحراء الشرقية يلتقى بالنيل عند بلدة عنيبة فيما بين الجندل الأول والجندل الثانى، كان يوجد حجر الكوارتز المحتوى على الذهب وقد استخرجه المصريون منذ وقت مبكر من تاريخهم. وتشهد المخربشات التى عثر عليها على سفوف الصحراء على قيام الحملات إلى هذا المكان منذ عهد الملك حت من الأسرة الأولى. وقد فتح جسر^(٥) المنطقة الممتدة من أسوان إلى تاخومبسو إلى الشمال من عنيبة، وهى المنطقة التى أطلق عليها الإغريق اسم دوبيكاخوينوس^(٥٥)

(*) من الأسرة الثالثة. (المترجم)

(**) يتكون هذا المصطلح من كلمتين يونانيتين: دوبيكا وتعنى: ١٢ وخوينوس: التصحيف اليونانى لكلمة إترى المصرية القديمة وهو مقياس طول يعادل عشرة كيلومترات ونصف: ومن ثم فإن هذا المصطلح يعنى المنطقة الواقعة جنوب أسوان الممتدة لمسافة ١٢٥ كم تقريباً. (المترجم)

Dodekashène. واستناداً إلى ما جاء في حجر بالرموشن سنقر ووالد خوفو حملة عسكرية على النوبة وعاد منها بغنائم لا حصر لها وسبعة آلاف أسير. وفي زمن الأسرة السادسة قام أمراء أسوان باستشكاف أعماق هذه الأصقاع وتوصلوا إلى «دروب جديدة» لاختراقها وعادوا منها تحديداً ببعض الأقزام، لأن البلاط الملكي في مصر كان مولعاً بهم. وقام ملوك الأسرة الثانية عشرة بتدعيم نفوذهم حتى جنوب الجندل الثالث، علماً بأن «الحدود» الرسمية كانت تقع إلى شمال قليلاً عند بلدة سمنة^(١).

ومنذ تلك الفترة كان من السهل التمييز بين منطقتين سوف تصبحان الإقليمين الرئيسيين في نظر الإدارة الإمبراطورية. ويطلق على الإقليم الأول اسم أوات وهو النوبة السفلى الواقعة فيما بين الجندل الأول والجندل الثاني. وكان أبناء هذا الإقليم يدعون نحسيو. وربما كانت هذه العبارة تشير في بداية الأمر إلى القبائل القريبة من النهر. أما اسم مهايو فكان يطلق أصلاً على رجال السهوب^(٢). ومنذ وقت مبكر، جُند المهايو في قوات الشرطة وتحولوا إلى قوات مساندة شديدة الولاء فزاد الطلب عليهم. ولكن يبدو أن كلمة نحسيو قد أصبحت تدل منذ الأسرة الثانية عشرة على مجمل سكان النوبة.

وكانت كوش هي المنطقة الجنوبية الأخرى الهامة. وظهر الاسم لأول مرة على لوح حجرى يعود إلى العام ١٨ من عهد سنوسرت الأول، عثر عليه في بوهن. وقد أثار تحديد موقع اسم المكان هذا، بعض المشاكل. فقد شاع استخدامه على نطاق واسع في العالم القديم. «وانتقل الاسم إلى اللغة الأكادية في زمن الأسرة الثامنة عشرة وحظي على شعبية واسعة في آسيا بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد عندما تحولت النوبة إلى قوة عظمى وضمت بلاد الفراعنة إلى ممتلكاتها وياتت تتدخل في شئون فلسطين. وكان الغزاة الآشوريون يعرفون بلاد كوش حق المعرفة. وقد فاقهم الأخمينيون^(٣) الذين اختاروا هذا الاسم للدلالة على الإقليم النوبى التابع لهم. وأخيراً

(*) أسرة ملكية فارسية أسست الإمبراطورية الفارسية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى فتوحات الإسكندر الأكبر. (المترجم)

فإن الكتاب المقدس الذى يذكر اسم كوش مراراً وتكراراً، قد انقذ اسم المكان هذا، من السقوط فى طى النسيان، لينقله إلى العصور الحديثة من خلال ترجمته إلى اليونانية واللاتينية^(*). وقد ترجمه شميليون Champollion بلفظ «أثيوبيا» متفقاً فى ذلك مع الترجمة السبعينية للكتاب المقدس^(٤). وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة أى حوالى عام ١٥٨٠ ق.م، يبدو أن كوش كانت تدل إما على الإقليم الإدارى المحصور بين الجندل الثانى والجندل الرابع والذى يلى إقليم وأوات أو كانت تدل بشكل عام على مجمل الممتلكات الإفريقية الواقعة جنوب مصر.

وفى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، علا نجم مدينة بوهن الواقعة على بعد خمسة كيلومترات جنوب مدينة وادى حلفا الحالية كما كانت مقر الحكومة المصرية. إن أعمال التنقيب التى باشرها إيمرى Emery عام ١٩٥٧ قد أثبتت بلا أدنى تحفظ أن محلات سكنية كانت موجودة فى هذا الموقع منذ الأسرات الأولى. وعُثر شمال المدينة على أوراق بردى وأختام جرار تحمل أسماء ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة^(٥). وشيدت القلعة منذ عصر سنوسرت الأول وكانت جزءاً من سلسلة التحصينات التى أقيمت فى ظل الأسرة الثانية عشرة، ولكن وجودها قرب التيارات السريعة للجندل الثانى جعلتها موقعاً إستراتيجياً على أكبر قدر من الأهمية. كانت بوهن مدينة مستطيلة الشكل محاطة بسور من الطوب سمكه خمسة أمتار ومن حولها خندق جاف عرضه سبعة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار ونصف. وسوف يقوم التحامسة^(٥٥) بتطوير المدينة والمعابد والعصور بشكل ملحوظ.

إن العمل الذى قام به ملوك الأسرة الثانية عشرة قد ربط هذه الأراضى الإفريقية الجنوبية بمملكة مصر بروابط وطيدة. فكان مهم الأساسى توفير الرخاء الإقتصادى والأمان لمصر ولم يكن هدفهم الغزو السياسى.

(*) وهى أول ترجمة إلى اليونانية، وقد تمت فى الإسكندرية فى القرن الثالث ق.م. (المترجم)

(**) الملوك الذين يحملون اسم تحوتمس. (المترجم)

بلاد پونت

كما أقامت مصر علاقات دائمة مع بلد إفريقي آخر. إنه بلد تنبت فيه أشجار البخور الذي كان ضرورياً لأداء الشعائر الدينية. كما كان المصريون يجلبون منه الزرافات والقردة الكلبية الرأس والعاج والأبنوس والإلكترول والأحجار الكريمة والأقزام أيضاً في بعض الأحوال. إنه بلد إفريقي بلا أدنى شك. وإذا كان تحديد موقع پونت قد أثار بعض المشاكل، إلا أنه يبدو في الوقت الراهن أن المقصود من بلاد پونت ليس الصومال الحالي، على وجه الدقة. ولكنها تغطي منطقة أكثر شمولاً تقع إلى الشرق من السودان جهة البحر الأحمر وإلى شمال أثيوبيا الحالية وغربها^(٥). وبالفعل كانت الرحلات تتم «بحراً أو برّاً» وهو ما يذكره مراراً وتكراراً النص الذي يروى وقائع الرحلة التي أرسلتها الملكة حتشپسوت إبان الأسرة الثامنة عشرة. تُرى كيف تمكّن المصريون من جمع معلوماتهم عن هذه البلاد القصية؟ ربما عن طريق تقارير بعض المستكشفين المسافرين بمحاذاة نهر النيل السوداني، بل وربما أيضاً من خلال الأقاويل التي تناقلها تجار القوافل الذين كانوا يتولون نقل منتجات هذه المناطق إلى موانئ البحر الأحمر.

إن أول رحلة رسمية كما سجلها حجر پالرمو تمت في عهد ساحورع من ملوك الأسرة الخامسة. كان السفر إلى پونت يتم في الغالب على متن سفن. فتبدأ الرحلة من كوينتوس الواقعة على نهر النيل إلى الشمال من طيبة وتحمل معها أخشاب شجر الأرز اللازم لبناء السفن بالإضافة إلى السلع المطلوبة مقايضتها وما يلزم الرحلة من طعام وماء. فتسير قافلة المسافرين عبر وادي الحمائم الذي يخترق الصحراء الشرقية، وصولاً إلى ميناء وادي جاسوس المطل على البحر الأحمر. كانت هذه الرحلة تستغرق أربعة أيام سيراً على الأقدام في صحراء قاحلة تفتقر إلى نقاط مياه إلى أن أمر مونتوحتب الثالث بحفر الآبار على امتداد هذا الدرب القفر. وفي وادي جاسوس يتم بناء السفن ثم يبحر الجميع في اتجاه الجنوب.

كانت پونت جزءاً من «بلاد الإله» لأنها كانت تنتج البخور وهو النبات الذي «يجعل (الكائن) إلهياً». وسوف تتفق «عجائب پونت» على طيبة في ظل الأسرة

الثامنة عشرة. إن العلاقات مع هذا البلد شبه الأسطوري في نظر المصريين، سوف تتواصل على امتداد تاريخ مصر الفرعونية.

السهوب والصحارى الليبية في الغرب

والى الغرب من مصر تمتد الدلتا عند شاطئ البحر الأبيض المتوسط في اتجاه ما يُطلق عليه حالياً ليبيا التي كانت تضم آنذاك في جوفها السهوب والصحارى، فكانت منطقة تشجع على القيام بالغزوات، ومنذ قديم الزمن احتلت هذه المنطقة قرب الشاطئ شعوب النحوص الذين يشبهون من الناحية العرقية سلالات أبناء وادي النيل. والشاهد على ذلك صلايات الشست التي نقشت منذ عصور ما قبل التاريخ، وقد جرت العادة على تصويرهم في هيئة رجال شعرهم طويل مسترسل ويحملون حمالة ويضعون جراب عورة مستطيلاً. كانت معيشتهم قائمة على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات الداجنة وقدر ضئيل من الرعي. أما قبائل التيمهو الرحل القاطنون في السهوب ذات النجليات فكانوا يتميزون بشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء.

ويبدو أنهم عاشوا قبائل متفرقة لم تجمعهم أية وحدة سياسية. ولما كانت إقتصادياتهم ضعيفة، يعيشون عيشة الكفاف، ظل ثراء مصر وورقاؤها يشكل لهم على الدوام إغراءً يصعب مقاومته فحاولوا التسرب تدريجياً إلى الدلتا. لقد شنت عليهم بعض الحملات العسكرية الملكية تميزت بالحزم والإقدام وقضت على تهديداتهم بسهولة ويسر. وفي هذا الصدد أيضاً يظل حجر پالرمو مصدرنا المعتمد فيخبرنا أن سنفرو قد عاد من إحدى هذه الحملات وهو يقتاد ١١٠٠٠ أسيراً و ١٣١٠٠ رأس ماشية. ولم يشكل «الليبيون» خطراً عظيماً إلا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إبان إحدى غزوات شعوب البحر في عهد الرعامسة^(١).

كانت سلسلة من الوحات تصطف من الشمال إلى الجنوب، على امتداد الصحراء لتشكل في آن واحد، محطات للقوافل فيما بين البحر المتوسط وقلب أفريقيا بالإضافة إلى نقاط إستراتيجية هامة. وتقع واحة سيوة في الشمال. وسوف تصبح

فيما بعد مكاناً فضاً فيه **چوبيتر**(*)-أمون مغاليق الوحي ليختار الإسكندر الأكبر ويتوجه ملكاً على مصر. أما وادي النطرون فقد كان أقرب إلى الوادي، ثم تصطف على التوالي في اتجاه الجنوب الواحات البحرية والفرافرة والداخلية والخارجية. ومنذ وقت مبكر قامت الإدارة المصرية بضم هذه الواحات. وفي ظل الأسرة الرابعة كانت واحة الفرافرة مقراً لحاكم مصري، وربما ينطبق الشيء نفسه على الواحات البحرية. وقد عثر في الواحات الداخلية على مصاطب تعود إلى الأسرة السادسة وعلى ألواح حجرية وغيرها من المعالم الأثرية. وفي هذه الواحات الأخيرة يواصل في الوقت الراهن باحثو المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة IFAO أعمال التنقيب. إن الكشوفات التي توصلوا إليها في بلدة بلاط بالواحات الداخلية وفي الواحات الخارجية أيضاً تثبت أن حكاماً مصريين كانوا يتولون منذ ذلك الزمن إدارة شئون هاتين الواحتين الأخيرتين بل وتم تحويلهما بالفعل إلى إقليمين مصريين.

كانت لهذه «الجزر» القائمة وسط الصحراء الغربية أهميتها السياسية الإستراتيجية فضلاً عن أهميتها الاقتصادية. فتمدّ مصر بموارد إضافية لا يستهان بها: فقد اشتهرت بزراعة الكروم بدءاً من الواحات البحرية حتى الواحات الخارجية، كما كان أبناؤها يقومون بتربية حمير صغيرة صهباء اللون، فكانت دواب لا غنى عنها في مختلف الأعمال ولتنقل السلع والبضائع. كانت الحكومة المركزية تولى هذه الأملاك إهتمامها فأمرت بحفر الآبار الضرورية لإعاشة أبنائها، وشيدت فيها المعابد من أجل آلهة مصر.

٢- بلاد البحر المتوسط.

التجارة والسياسة

في الشمال كان البحر المتوسط الذي يصب فيه نهر النيل، يشكل حدود مصر الشمالية الطبيعية. وإن لم تقف هذه الحدود أبداً في وجه الرغبة في التوسع التجاري

(*) وهو عند الرومان المقابل للإله زيوس عند اليونان. (مترجم)

أو قيام أبناء وادي النيل بما يحلو لهم من مغامرات. لقد أثبت المصريون منذ أقدم عصور تاريخهم المديد أنهم ملّاحون جسورون يتطّون بالجرأة والشجاعة. فشقوا قبل الفينيقيين عباب مياه «الشديدة الإخضرار»، فأبحروا على متن سفن تبلغ ستين متراً طولاً وشراعها من الكتان وبينها من خشب الأرز، يدفعها صقان من المجدفين، صف عند ميسرة السفينة وآخر عند ميمنتها. كان المصريون يطلقون اسم «الشديدة الإخضرار» سواء على البحر المتوسط أو البحر الأحمر. إن حركة المياه المتجددة على الدوام في هيئة أمواج متلاحقة، كانت تعيد إلى أذهان المصريين إيقاع بورة حياة النبات التي لا تكلّ أيضاً ولا تتوقف. كانوا يحرون بمحازاة الشواطئ مروراً بأرض كتعان متجهين إلى أكبر موانئ المشرق الآسيوي في فينيقيا، كما دعموا علاقاتهم بجزيرتي قبرص وكريت منذ وقت مبكر. وإذا عدنا أدراجنا ناحية الجنوب نجد أن سيناء كانت أرضاً ملحقة بمصر.

كتعان - أرض - البدو

وفيما وراء صحراء النقب وإلى الشمال الشرقي من مصر، كانت تمتد أراضي شاسعة تجوب أرجاءها القبائل الرحل: إنها بلاد كتعان. إن القبائل البدوية التي تنحدر من أصول سامية كانت تعيش هنا على سلب ونهب القوافل وقد أطلقت عليها النصوص المصرية القديمة اسم نيمو شعي أي «السائرين على الرمال» أو اسم هريو شعي أي «القائمين فوق الرمال». وإبان الأسرة الثامنة عشرة قام بدو آخرون هم الشاسو بإثارة القلاقل والإضطرابات في بلاد كتعان ضد مصر. ومنذ الأسرة الثالثة، كانت مصر مسئولة عن أمن الدروب في هذه المناطق بواسطة شرطة يرأسها موظف خاص هو محامل أخقام الآسيويين». كانت كتعان منطقة غير محددة من الناحية السياسية وتنتهي عند البحر المتوسط بشاطئ رملي، كما كانت تضم آنذاك موانئ ثانوية مثل غزة وعسقلان وحيفا.

إن هيمنة مصر على هذا البلد واضحة كل الوضوح منذ وقت مبكر، والمحافظة

على هذا الوضع كان يتطلب مراقبة عسكرية متواصلة. فمن شرق الدلتا ومن غربها على حدّ سواء، كان ثراء وادي النيل يشكل إغراءً ومطمعاً يحركان بطبيعة الحال البدو الرحل القاطنين في السهوب والصحارى.

فينيقيا

وإذا واصل المرء سيره فى اتجاه الشمال يصل إلى أكثر مناطق الشرق الأدنى القديم ثراءً وازدهاراً، وسرعان ما أصبحت محل أطماع القوى السياسية السائدة فى ذلك العصر. هذه المنطقة هى فينيقيا التى لم تكن دولة بل مجموعة «دول-مدن» على رأس كل واحدة منها أسرة حاكمة من الأمراء أو مجلس مدينة. كانت تمتد من قمة جبل الكرمل(*) جنوباً وحتى مدينة أوغاريت - رأس شعرا حالياً - وهى أكثر الموانئ تطرفاً ناحية الشمال. كان البحر المتوسط هو العنصر الوحيد الذى يجمع شمل هذه المنطقة ويوحد مدنها. فكان يحدها الشرقى وأكثر الأماكن مواتية للملاحة. كانت فينيقيا ذاتها تنقسم إلى قطاعات تفصلها تقوّمات لبنان الصخرية التى كانت تصل أحياناً حتى شاطئ البحر. وكان أهل البلاد يمارسون بعض أعمال الزراعة قرب مصب نهر الليطاني أو إلى الجنوب من هناك. إن أهم موردين كانوا يشكلان ثروة فينيقيا هما غابات أشجار الأرز الشاسعة التى كانت تغطى منحدرات جبل لبنان بالإضافة إلى مجموعة موانئها التى يحتضنها شاطئ مناسب لرسو السفن. فتمتد من الجنوب إلى الشمال مرافئ صور وصيدا وبيبلوس(**) وسيميرا وأرواد وأوغاريت. أما فى الشرق فكان من الصعوبة بمكان عبور الجبل الشامخ. ولكن الإتصالات كانت سهلة فى الجنوب مع مصر وفى الشمال مع وادى نهرى دجلة والفرات بعد عبور صحراء أعالي سوريا. كانت فينيقيا ملتقى الطرق التجارية على اتصال دائم مع العالم القريب أو البعيد، مما أكسبها مكانة متميزة.

(*) ويشرف هذا الجبل على مدينة حيفا. (المترجم)

(**) أطلق المصريون على هذه المدينة اسم «كن» فى حين أسماها الكنعانيون «جويله» أو

«جيبيل». (المترجم)

كانت العلاقات مع مصر قديمة قدم الزمن، كما كانت ثابتة ومستقرة. واكتسبت بيبولس مكانة خاصة. لقد باشر بيبير مونتيه Pierre Montet منذ عام ١٩٢١، أعمال التنقيب في موقع جبيل وهي بيبولس القديمة. فأخرج إلى النور بقايا معبد - كانت قد أشعلت فيه النار ثم تم تسويته بالأرض وغطى ببلاطات كبيرة. وعثر في أطلاله على قرابين جاءت من مصر وأسطوانات لختم لوحات يعود تاريخها إلى العصر الثيني^(٥). وتصور منذ هذه الفترة المبكرة إلهة بيبولس وقد ازدانت برموز مصرية. كما تم الكشف عن أواني تحمل خراطيش الملوك من كلو رع وأوناس وبيبي الثاني^(٦). كان السفر إلى فينقيا من الرحلات السهلة: سواء اختار المسافرون الطريق البري بمحاذاة الشاطئ أو اختاروا طريق البحر: فإبان شهرى مايو ويونيو عندما تهب الرياح الموسمية كانت رحلة المراكب الشراعية الضخمة تستغرق أربعة أيام لقطع مسافة الستائة وخمسين كيلومتراً التى تفصل دلتا النيل عن شاطئ فينقيا. وحسبما ورد فى حجر پالرمو أرسل سنفرى حول عام ٢٦٠٠ ق.م إلى بيبولس أسطولاً يتكون من أربعين سفينة بقيادة الأمير الملكى مر إيب لاحضار أشجار الأرز الباسقة، لأخشابها الضرورية لبناء سفن أعالى البحار وصناعة أبواب المعابد أيضاً.

يبدو أن المدينة قد اعترفت فى ظل الأسرة الخامسة بالسيادة المصرية. بل من المحتمل أن المصريين شيدوا هناك معبداً وزخرفوه. فقد صُوِّر فيه الملك أوناس بينما تحتضنه الآلهة بعلت «سيدة بيبولس» فى هيئة الإلهة حتحور. أما الإله الشمسى لمدينة بيبولس فقد أطلق عليه المصريون اسم «رع القائم على بحيرة فرعون». كما أن ملك بيبولس يدعى «ابن رع فى البلدان الأجنبية»^(٨). ومنذ ذلك الزمن، كانت البلدة الروحية تشكل سنداً للوحدة السياسية. إن أقدم وثيقة فى بيبولس كانت مدونة بعلامات هيروغليفية مستعارة من مصر. هل تزوج ساهورع ذاته أميرة من فينقيا؟ حقيقة يمكن

(*) أو العتيق ويغنى الأسرتين الأولى والثانية. (المترجم)

استنتاجها من نقشين نحتا في المعبد الجنائزى لهذا الملك في «أبو صير»^(*) وتصور على الجدارين الشمالى والجنوبى، مغادرة أسطول من أساطيل أعالي البحار وعودته. وكان وسط التكوين الجدارى تشغله، على ما يظن، صورة الملك. أما فى رحلة العودة، فيظهر بعض الفينقيين على متن السفن. ويمكن التعرف عليهم بفضل شعرهم الطويل المربوط بشريط ولحياتهم المدببة. كان فى صحبتهم نساء وأولاد وقد انضموا إلى طاقم السفن للترحيب بملك مصر والتهاف له. ومن المعتقد أن الأميرة التى جاءت من أقاصى الأرض إلى بلاط منف كانت موجودة على السفينة التى تتقدم الموكب ولكن صورتها مهشمة تهشيمًا بالغًا فى الوقت الراهن. ومع ذلك ما زلنا نقرأ العبارات الآتية: «إن نفرت - أى «الجميلة» - تأتى إلى هنا بجوار ساحورع، ابن رع»^(٩).

بعد أن وُضع حد للفوضى والإضطرابات التى أعقبت الأسرة السادسة، أعاد الملوك الجدد هيمنتهم على الموانئ الفينقية وعلى بيبلوس بطبيعة الحال. كانت هذه الحماية تمنح مصر مكانة الصدارة فى تجارة البحر المتوسط، وتضمن لهم التحكم فى طرق التجارة فى آسيا. ويعتقد أن ملوك الأسرة الثانية عشرة كانوا يسيطرون ويشرفون على ساحل البحر المتوسط حتى مدينة أوغاريت. ومن غير المستبعد من ناحية أخرى أن حكامًا تساندتهم الحاميات، قد وقع على عاتقهم تدعيم الوجود المصرى فى كبرى مراكز التجارة الدولية هذه.

كان المصريون يطلقون فى معظم الأحوال على فينقيا اسم چاهى. لقد احتدم النقاش حول هذه التسمية. ولكن بالرجوع إلى نص حوليات تحوتمس الثالث^(١٠)، يبدو بوضوح أن منطقة چاهى مطابقة لفينقيا، لأن الملك كان مسئولاً عن «السهر على سلامة الموانئ»^(١١). فكان ذلك أهم إسهاماته لتأمين ازدهار الإمبراطورية الوليدة.

(*) وهو الاسم الحالى للاسم المصرى القديم «هر أوزير» أى «بيت أوزيريس». وفى الوقت الراهن يطلق هذا الاسم على عدد من البلدات: أبو صير فى محافظة الجيزة وأبو صير الملقى عند مدخل الفيوم وأبو صير بنا قرب سمند وأبو صير غربى الإسكندرية... (المترجم)

مدن الرمال

تعود أهمية المنطقة الواقعة بين أرض كتعان وفينيقيا من ناحية، والعمق الصحراوي من ناحية أخرى، إلى وجود مدن قوية ومحصنة في الغالب، وهي أشبه بالوكالات الكبرى التي تتوقف عندها القوافل. فكانت محطات يتزود فيها المسافرون عبر الدروب. ولا شك أن التحامسة قد أقاموا إمبراطوريتهم على أساس فرض هيمنتهم الحازمة على المدن الفينيقية لتكون في يدهم، ولكنهم اعتمدوا أيضاً على مدن الرمال هذه، فكانت فائدتها الإستراتيجية عظيمة للشأن.

كانت العلاقات مع مجنّو تحديداً نشطة. فهذه المدينة تتميز بموقعها عند منافذ معابر جبل الكرمل شمال غرب فلسطين. وقد أوفد سنوسرت الثالث جهوتي هوتب إلى بلاط مجنّو بصفته سفيراً فوق العادة، كما لابد أن نعيد إلى الذاكرة الحملة العسكرية التي خرج على رأسها القائد خوسويك في عهد سنوسرت الثالث ليشن هجوماً على مدينة سيشم - وهي نابلس في الوقت الراهن^(١٢). وبعد فترة قصيرة سوف تضطلع مدن دمشق وحلب وتدمر بدورها في صياغة تاريخ مصر والشرق الأدنى.

إن لفظ ريتنو - اسم علم يرد في النصوص المصرية للدلالة على ما يعتقد، على جوف هذه المناطق التي لم تكن قد توحدت حتى الآن، وتضم مدناً منتشرة في الصحراء، يحكمها في الغالب الأمراء ويتوقف عندها المسافرون والتجار، فهي محطات ضرورية فيما بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط وبين الجزيرة العربية وآسيا الصغرى. كما أن مشايخ محليين كانوا يتولون السلطة في واحة انبثقت فجأة من بين رمال الصحراء. وسوف يستقبل أحدهم سنوهي الذي كان، كما سبق أن ألمحنا^(١٣)، موفداً غير رسمي لفرعون ويركز اهتمامه على عقد صداقات وتحالفات مع أمراء الصحراء هؤلاء. ولا يخامرنا أدنى شك في أن ضرباً من ضروب الدبلوماسية الشرقية والسرية - كإرهاص للدبلوماسية الإمبراطورية العظيمة - كانت قائمة، وإن لم تصلنا عنها شواهد أخرى. كما أن لفظ ريتنو قد ظهر لأول مرة في قصة سنوهي. ويميز البعض أحياناً بين ريتنو السفلى وريتنو العليا، وإن كنا لانعرف على وجه التحديد النطاق الجغرافي الذي تغطيه كلتا التسميتين.

جزر البحر المتوسط

يبدو أن بعض الصيادين كانوا يقيمون بشواطئ جزيرة قبرص منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وحول عام ٣٠٠٠ ق.م جاءت هجرة كاريية(*) لتعمر الجزيرة وتطبعها بالطابع الذي ستحتفظ به طوال العصر اليوناني الروماني القديم: كان اقتصاد الجزيرة قائماً من ناحية على الزراعة، كما ازدهر بسرعة نشاطاً تعدينياً حول أهم مراكز استخراج النحاس في ترويس في وسط الجزيرة. كانت قبرص مركزاً تجارياً كبيراً له علاقات ثابتة مع فينقيا، القريبة نوعاً ما، ومن المحطات المفضلة للتبادل التجاري مع مصر. ولكن من المعتقد وجود علاقات مباشرة.

وتطلق النصوص المصرية على جزيرة قبرص اسم الآسيا.

ومنذ العصر الثيني في مصر استخدمت كريت بعض العلامات الهيروغليفية كمواضيع زخرفية، ومنها المخصص الذي يلحق بالكلمتين الدالتين على الصحارى أو البلدان الأجنبية(**). كانت هذه البلدان تمتد فيما وراء المناطق القاحلة المحيطة بالوادي. كما استخدمت موضوع السهمين المتقاطعين رمز الإلهة نيت التي كانت مدينة سايس(***) بالدلتا مركزاً لعبادتها. وعُثر على أواني من كريت في سقارة وسط أطلال المعبد الجنائزي للملك أوسركاف أول ملوك الأسرة الخامسة. ومن ثم يمكن القول إن العلاقات بين كريت ومصر موزعة في القدم سواء كانت علاقات مباشرة (؟) أو تمت من خلال اتصال التجار والبحارة من أبناء مصر وكريت في الموانئ الفينيقية، بصفتها كبرى مراكز التبادل التجاري الدولي.

وحول عام ٢٠٠٠ ق.م وهو التاريخ الذي يتفق وبداية الأسرة الثانية عشرة

(*) نسبة إلى منطقة كارييا في آسيا الصغرى. (المترجم)

(**) مخصص الصحارى أو البلدان الأجنبية واردة في المراجع الآتية:

برناديت مونى. المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. ترجمة: ماهر جويجاتى.

دار الفكر. ١٩٩٩. ص ٢٧.

(المترجم) A. Gardiner. Egyptian Grammar. third edition. 1982 p.33, 488.

(***) الاسم اليوناني لمدينة «سلو» المصرية القديمة وهما الحجر حالياً. (المترجم)

المصرية عرفت كريت انطلاقة مفاجئة. وهو العصر الذي شهد تشييد القصور في مدن كنوسوس وفايستوس وماليا أساساً. ولكنها دمرت في القرن الثامن قبل الميلاد من جراء كارثة. أكانت زلزالاً أم حرباً (٩). وسوف يعاد بناؤها لتدخل كريت مرحلة جديدة من حضارتها وتسجل أوج ازدهارها.

كانت العلاقات مع مصر راسخة وهامة. وقيل فترة قصيرة من بداية الأسرة الثانية عشرة لوحظ أن البلدين كانا يستخدمان في أن واحد الأختام نفسها وهي في هيئة قرص صغير، قد يزيد أحياناً بمقبض صغير حلقى الشكل. والأختام مزخرفة بمواضيع مختلفة ذات أصول غير مصرية، من رسومات حلزونية أو مجذولة ومتشابكة... وخلال الأسرة الثانية عشرة المصرية استبدلت أحياناً بهذه الأختام أشكال صغيرة، تصور جعارين^(١٠). وقد لعبت هذه الأشكال فيما بعد دوراً متميزاً في المناسبات التي كان يراد تخليد ذكرها. وفي ظل الأسرة الثامنة عشرة كان تنويع الملك أو زواجه أو حدث هام في البلاط الملكي مناسبة لإصدار مجموعة من الجعارين لتذاع على نطاق واسع وتبلغ قصور الحكام الأجانب النبأ السعيد. وهكذا اتخذ بعض أبناء كريت من مصر مقاماً لهم واشتغلوا بالتجارة وصناعة الفخار. وكان زيت الزيتون على رأس قائمة ما يستورده هؤلاء الكفتيو، وهو الاسم الذي أطلقه المصريون عليهم. فكانت شجرة الزيتون مجهولة حتى الآن من المصريين.

وقد تخصص ميناء فايسستوس الواقع في جنوب الجزيرة في التجارة مع الدلتا.

جزر القوقلاديس^(١١) وبحر إيجه

ولا شك أن مصر قد ربطتها علاقات تجارية مع جزر بحر إيجه عن طريق الموانئ الفينيقية. ومنذ أولى الأسرات المصرية، يبدو أن جزيرتي ميلوس وساموس قد

(٩) مع تجنب الخطأ الشائع. والصواب أن الباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال سورة

البقرة. الآية ٦١. (المترجم)

(١٠) مجموعة من الجزر في بحر إيجه. اسمها مشتق من الكلمة اليونانية «قوكلوس» وتعني «دائرة».

تبلغ مساحاتها الكلية ٢٥٧٢ كم^٢ وعدد سكانها في الوقت الراهن حوالي

١٠٠٠٠٠ نسمة. (المترجم)

أمدنا مصر بالسبيج المعروف أيضاً بالزجاج البركاني الذي استخدمه المصريون منذ هذه الأزمنة. كما أن المقابر المصرية الموزعة في القدم كانت تحتوي أحياناً بعض الأواني الفخارية المصنوعة في جزر إيجيه.

كانت جزر القوقلاوس غنية إذن بالسبيج والظران والمرمر ويسكنها شعب من العاملين في صناعة التعدين ومن البحارة وقد أقاموا قبل أهل جزيرة كريت ذاتها، علاقات تجارية مع منطقة طرواس^(*) وجزيرة أويويا وعن طريقها بمنطقة فوكيس في شبه جزيرة اليونان. وحول عام ٢٥٨٠ ق.م تأثرت جزر بحر إيجيه تأثراً عظيماً بحضارة كريت^(١) أصبحت الإلهة الأم التي تعبد في ديلوس^(٢) الإلهة القومية لجزر القوقلاوس.

وفي مصر بل وفي القوية عُثر على أواني من طراز جزر بحر إيجيه. ونذكر تحديداً هذا الإناء الرائع الجمال الذي تم الكشف عنه في مقبرة في أبيدوس ويعود تاريخه إلى الأسرة الثالثة عشرة.

أما المصطلح المصري حاو- نبوت المستخدم منذ عهد خوفو بل ومنذ عصر ما قبل الأسرات على ما يعتقد، فما زال غموض معناه «لفزاً» محيراً. إن شروحه متعددة. والكلمة تعني: «أولئك الذين حول السلة». فمن الراجع أن كلمة نبوت تدل على جزر أو وهدات أو أحواض غرينية^(٣). بل إن الكلمة ذاتها ملتبسة المعنى، فقد تدل إما على منطقة جغرافية طبيعية أو على شعب. ويبدو على كل حال أن موقع الحاو- نبوت كان في الشمال. وساد الإعتقاد لفترة طويلة أن سكان جزر إيجيه هم المعنيون بهذه التسمية. وقد حاول جان فيركوتير Jean Vercoutter أن يبرهن على أن المصطلح يدل بالأحرى على إحدى المناطق الشمالية في آسيا^(٤). ومنذ زمن قريب قيل أن فينيقيا هي المقصودة^(٥). ويبدو في واقع الأمر أن تحديد موقع هذا المصطلح قد تغير

(*) تقع هذه المنطقة في الطرف الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، وكانت عاصمتها طروادة. (المترجم)

(**) من أهم جزر بحر إيجيه، وتقع في أقصى جنوبها. (المترجم)

(***) من أصغر جزر القوقلاوس. (المترجم)

باختلاف العصور، استناداً إلى حصافة الفرضية الى تقدم بها فيركوتير ومفادها أن
أى تفسير لا يلغى بالضرورة تفسيراً آخر، على امتداد ثلاثة آلاف سنة من التاريخ.

وشمال بحر إيجة وفي القسم الشمالى من شاطئ آسيا الصغرى كانت طروادة
قد أصبحت مدينة كبيرة منذ عصر الأسرة الخامسة على وجه التقريب. ويبرهن
وجودها على تعاظم أهمية الملاحة منذ ذلك الوقت بين البحر الأسود وبحر إيجة. كانت
تجارة عبور البضائع من الشرق إلى الغرب، السبب وراء تأسيس طروادة، وقد
تعاظمت ثروتها من جراء ما تحصل عليه من رسوم عبور وتوقف السفن فى مينائها.
وسوف تلعب دوراً عظيماً فى السياسة الدولية إبان عصر الملوك الرعامسة.

وإذا حولنا أنظارنا إلى غرب بحر إيجة عند شواطئ البحر المتوسط نجد شبه
الجزيرة اليونانية التى كانت لا تزال منطقة فقيرة ومتخلفة. وسوف تشهد أولى تباشير
تطورها إبان العصر المينوى^(*) تحت تأثير حضارة كريت، ولكن تاريخ اليونان كان لا
يزال حتى الآن فى مرحلة الطفولة.

سيناء

وإذا غادرنا غزة وكنعان وغيرنا اتجاهنا من الشمال إلى الجنوب وهلنا إلى
شبه جزيرة سيناء الصحراوية المرتفعة، وكانت منطقة شاسعة تابعة لمصر من جهة
الشرق وتشكل وحدة متصلة تقع إلى جنوب كنعان والريثو.

كانت سيناء آنذاك جزءاً لا يتجزأ من مملكة وادى النيل. فكان المصريون
يستخرجون منها أحجار الكوارتز الحاوية على الذهب فتغسل فى مكانها ثم ينقل
الذهب داخل أكياس مصنوعة من الجلد تحت رقابة عسكرية مشددة. كما كانت
مصدراً للنحاس الذى يستخدم تحديداً فى صناعة التماثيل أو فى عمارة المعابد، كما

(*) وهو أقدم عصور حضارة كريت. (الترجم)

كانت توفر لحصر الأحجار الكريمة من فيروز ودمنج وزمرد. وتركز العمل في منجمين رئيسيين: المغارة، وهو الاسم الذي أطلقه أمالي المنطقة على التلال التي حفرت في سفوحها محاجر الفيروز وليس على وادٍ، كما يقال أحياناً. وقد تم الكشف عن آثار لحلات إقامة مصرية على بعد ستة عشر متراً أسفل قمة التل، وهي عبارة عن منئى منزل مستطيل، شُيد معظمها من أحجار خشنة مرصوفة بلا ملاط ولا يتجاوز ارتفاعها المتر الواحد. كان مداخلها ضيقاً وتحميها الخنادق. كانوا يجلبون الماء من وادٍ قريب لا يبعد أكثر من كيلومترين. كانت المحاجر محفورة في جانب التل المنحدر على مسافة ٨٥ متراً فوق الوادي. وإلى الشرق قليلاً شمال المغارة يقع ثاني أهم مناجم سيناء وهو سراييط الخادم. إنه عبارة عن هضبة من الحجر الرملي الأحمر، تشكل قمة نتوء جبلي يبلغ ارتفاعه تسعمئة متر وتتشعب منه الوديان^(١٦).

ومنذ الأسرات الأولى والمصريون يترددون على سيناء. وتشهد المخربشات المحفورة على صخور مغارة على قيام حملة في عهد حمر. فاستحدثت آنذاك وظيفة «مدير كافة أشغال الملك» التابع لدائرة أشغال الملك. كان من كبار الموظفين وأحد أعضاء مجلس العشرة ولا تقع على عاتقه مهمة الأعمال الجارية في محاجر مصر فحسب، ولكن كان يناط به فضلاً عن ذلك، تنظيم الحملات المتجهة إلى سيناء، ويبدو أن سنفرو قد خطى بسياسة تواجد مصر في شبه جزيرة سيناء خطوات واسعة، وتحديداً في مجال الاستفادة من مناجم النحاس ومحاجر الفيروز في مغارة، وإبان الأسرة الخامسة زادت إلى حد كبير الحملات المتجهة إلى سيناء، وبدأ العمل يسير بصورة منتظمة: فحفرت مناجم بممرات ذات دعائم. ومع مطلع الأسرة الثانية عشرة، بدى أن مناجم مغارة قد بدأت تنضب. ومن ثم شرع الملوك يرسلون الحملات الضخمة إلى سراييط الخادم التي لم تكن قد استنفذت من قبل، على ما يبدو. كانت كل حملة تضم من سبعئة إلى ثمانيمئة رجل بقيادة ضباط الخزينة الملكية؛ لأن الفيروز كان ملكاً لخزينة فرعون. وكان العمال رجالاً أحراراً وقَعوا على عقود عمل. ومن الملاحظ أن بعض الآسيويين وكانوا غالباً من الريتقو ينضمون إلى هذه الفرق، ولكن بأعداد محدودة مقارنة بأعداد قاطعي الأحجار والتجارين وغيرهم من العمال المهرة. ومن الواضح أنهم كانوا لا يعملون في المناجم ولكنهم كانوا يختارون بصفقتهم «خبراء»

يعرفون هذه البلاد، فيمكن إذا لزم الأمر، أن يقوموا بدور الوسطاء عند الإتصال بالبدو الرحل في هذه المنطقة - وهم قبائل عدوانية يتوقون إلى الاستحواذ على ثروات جبال هذه الأصقاع.

كانت الدروب إلى سيناء كثيرة ومتنوعة. والمألوف منها في المعتاد كان يجمع بين الطريق البرى والطريق البحرى: فتبدأ الرحلة من كويتوس إلى الشمال قليلاً من مدينة طيبة وتسلق وادى الحمامات مع تسجيل اسم الرحلة عند عبورها، على صخور الصحراء الشرقية ثم تبحر في البحر الأحمر في اتجاه الشمال وصولاً إلى سيناء. أما الطريق البرى فكان يسير بمحاذاة الجانب الغربى ثم الشرقى من خليج السويس ليصل إلى الوديان والجبال الغربية من شبه جزيرة سيناء.

سار هذا الوجود البشرى في سيناء جنباً إلى جنب مع إدخال العقائد الدينية. فاقام ملوك الأسرة الثانية عشرة معبداً في سراييط الخادم وعمل على تشييده، كل من أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع تحديداً. كان تعبد يعبد في المغارة. ولما كان إلهاً قمرياً فربما اندمج في الإله القمر المحلى الذى يعبد البدو وهذا ما قد يفسر اللقب الذى أطلق عليه في هذه البقاع فهو «رب البدو». أما حتحور «سيدة البلدان الأجنبية» فكانت تعبد في سراييط الخادم. ولكنها لم تكن غائبة عن المغارة: فعلى إحدى صخور الموقع سورٌ جسر تتبعه حتحور في هيئة بقرة. ويمسك الملك بيديه الصولجان واس علامة الحياة. وأخيراً فقد انتشرت في هذين الموقعين الرئيسيين في سيناء عبادة ملكية من أجل سنفرو.

كانت الكتابة المصرية نموذجاً للكتابة المعروفة بالبروتوسينايتية أو السينايتية الأولى proto-sinaitique التى عُثر على آثارها الأساسية في سراييط الخادم اعتباراً من الأسرة الثانية عشرة: إنها كتابة في خط مستقيم^(*) قائمة على عدد محدود من العلامات تشير في معظمها إلى صور العلامات الهيروغليفية. ويعتقد أن هذه العلامات شكلت أولى الأبجديات بالنسبة للأسسيويين القاطنين في هذه المناطق وفي المقام الأول

(*) تتميز هذه الكتابة بمقاطعها الصوتية الأحادية القيمة، وتمتد على خط أفقى، وتحل محل صور العلامات الهيروغليفية. (المترجم)

الذين كانوا يرافقون الحملات المصرية. وتستجيب هذه اللغة السامية البدائية لمبدأ الأكروفونيا (acrophonia) (١٧).

أما عن المدونات المصرية الكثيرة التي حفرت على مر العصور على امتداد تاريخ الفراعنة على صخور جبال سيناء أو على الألواح التي أقيمت في هذه المنطقة، فإنها تشكل منهل لا ينضب لفهم هذا التاريخ ومعركة الملوك الذين نظموا هذه الحملات والرجال الذين قادوها، وهو ما يوفره لنا هذا النص المنحوت على لوح صخري:

العام ٤٥، من عهد صاحب الجلالة الإله الكامل نى - ماعت - رع (أممحات الثالث)، محبوب حتمور. إن الصديق الحميم للعامل الملكى، المنتمى إلى مودته الحانية، قائد الجموع الفقيرة في بلد الرجال الآخرين، العقل الفطن عندما يقدم تقريراً إلى سيده... لقد وصل بقدميه إلى حدود البلدان الأجنبية، مستكشفاً الوديان التي عميت مسالكها، وبلغ حدود المجهول، إنه يتاح ود، رئيس الخزائن الملكية، الصادق - القول، الذى أنجبه إيتو (١٨).

لم يذهب يتاح ود إلى بلد أجنبى ولكن إلى «بلد الرجال الآخرين»، الممتد حتى حدود البلدان الأجنبية. فسيناء أرض مصرية، والفارق الوحيد القائم بين الوادى وشبه الجزيرة هو البشر الذين يعيشون على أرض كل منهما؛ فقد ظل المصريون يشعرون بقدر من الإحتقار تجاه البدو الرحل الذين لا يسكنون في مكان واحد ولكن تمشى سيقانهم على أراضي مساراتهم (١٩).

٣- إمبراطورية بابل

وناحية الشرق، كانت بلاد ما بين النهرين تغطى حوضى نهري دجلة والفرات، وكانا ينبعان من منطقة مجاورة في جبال أرمينيا ويصبان في الخليج الفارسي (٢٠).

كانت بلاد ما بين النهرين منطقة شاسعة للمواصلات: فجبال عيلام تحف

(*) أو الخليج العربى كما نطلق عليه. (المترجم)

واديان النهرين من جهة الشرق، أما روافدهما فتقود الإنسان إلى هضاب إيران وبلاد السند، وتحداهما من جهة الشمال الشرقي جبال زاغروس وشقت روافد نهر دجلة طرقاً توصل إلى بحر قزوين. وإذا كان مقدر لبلاد ما بين النهرين أن تكون أرضاً زراعية كما هو الحال بالنسبة لمصر، فكان اقتصادها اقتصاداً نهرياً، تغمر أرضها الفياضانات من مارس وحتى سبتمبر، إلا أنها كانت في المقام الأول طريق عبور عظيم على الصعيد الدولي ودروباً ممتدة للهجرات يقطعها البدو الرحل والباحثون عن موئل مستقر. وفي البداية نشأت المدن عند مخارج الدروب في المناطق التي تلتقي عندها القوافل بالأنهار: مدينة آشور على نهر دجلة وماري على نهر الفرات. أما بابل فقد ظلت لفترة طويلة قرية بسيطة شأنها شأن طيبة على نهر النيل، وكان مقدر لعاصمتي الشرق العظيمتين أن يكون مصيرهما مماثلاً.

وفي أعالي ما بين النهرين، استقر في بلاد آشور شعب ربما انحدر من أصول قوقازية. وقد عثر في هذه المنطقة على بقايا تعود إلى أواخر العصر الحجري القديم. «فكان الملوك من سكان الخيام» يهيمنون آنذاك عبر سهوب نهر دجلة، والبدو الرحل يسطون على القوافل التي تسلك الدروب القديمة التي تربط القوقاز ببحر قزوين. وتشكلت في بلاد ما بين النهرين السفلى، في بداية الأمر أسرات محلية تولت حكم المدن-الدولة. ونذكر منها كيش في منطقة أكاد، وكان يقطنها الساميون ومدن أور وأوروك ولاجاش في بلاد سومر. إن أصول السومريين متنوعة وما زالت موضع جدال، ويادى ذى بدء (٩)، فمن المحتمل أن بعض البدو الساميين الذين كانت ترعى ماشيتهم في الهضاب الوسطى بشبه الجزيرة العربية قد استقروا في المستنقعات الجنوبية، ولكن سرعان ما ظهر السومريون الذي يعنى اسمهم «الروس السوداء»، وربما (٩) قدموا من الهضاب الإيرانية حيث كانوا جزءاً من جماعة بشرية انبثقت منها أيضاً شعوب وادي السند. ويمكن عقد مقارنة بينهما تشمل عدداً من النقاط. ولكن أخذت الإسهامات السامية تتعاظم فيما بعد. وبدأت تلوح في الأفق الصراعات حول السلطة في لاجاش، ولا سيما بين الملوك وكهنة الإله ننجيرسو. هكذا ظهرت الطموحات السياسية.

وحدث أول «تجمع» في القرن الرابع والعشرين ق.م، في زمن الأسرة السادسة

المصرية عندما وحدَ سرجون الأكادي بلاده وبلاد سومر. «لقد أحيطت طفولة سرجون بالأساطير تذكرنا إحدى فقراتها بقصة سيدنا موسى. لقد ولد من أب مجهول ومن أم كاهنة في قرية صغيرة على الفرات الأوسط. وأرادت أمه التخلص منه فتركته في سلة صغيرة وضعتها في مجرى النهر. والتقطه بستاني يعمل في بستان نخيل فأواه وأشرف على تربيته وعلمه مهنته، فكان في طفولته حامل الذكر. ولكن لم تنقُص فترة طويلة حتى بدأ نجمه يعلو. إن رعاية الإله عشتار له أدخلته إلى بلاط أور-زايابا ملك كيش فأصبح ساقيه، يقدم له الشراب. ثم ثار سرجون على سيده وأسس أجادا^(٢٠)». واغتصاب سرجون العرش يذكرنا من بعض النواحي بما فعله أمنمحات الأول وزير موتوحيوب الثالث^(٢١) الذي دعم وحدة مملكته الجديدة بعد أن ثار على سيده، إن مجموعة أساطير الشرق تشكل مجالاً فسيحاً لعلاقات التماثل الروحية.

واستطاع سرجون أن يفرض سومر ويحتلها بأكملها. وفي الشمال اضطرب أمراء عيلام إلى الاعتراف بسيادته. كانت عيلام غنية بمناجم الفضة والديوريت، وتتحكم في طرق القوافل التي تبدأ من مدينة سوس لتنتهي في بلاد الهند. وزحف سرجون شمالاً بمحاذاة نهر الفرات إلى أن وصل إلى مدينة ماري فعاث فيها فساداً، ثم سار بمحاذاة نهر دجلة حتى مدينة آشور. بل واصل تقدمه حتى شمال سوريا وربما حتى جبال طوروس. وبعد هذا «الانفجار» المفاجئ، لم تعد سلطة سرجون تسيطر في الحقيقة على كل هذه المساحة. فأصبح في واقع الأمر ملك سومر وأكّاد، وأول من وحدَ بلاد ما بين النهرين. وأسس نظاماً ملكياً في عاصمة أجادا التي لا نعرف موقعها على وجه التحديد، وإن أقيمت على ما يرجح في مكان ما حول مدينة كيش. لقد عزز السلطة الملكية في مواجهة سلطة الكهنة وجمع الجزية التي يقدمها الأمراء المحليون. وعندئذٍ قادت سومر بلاد أكّاد إلى ممارسة التجارة، وتشبعت الحياة السياسية والاجتماعية بالقانون السومري.

وبعد حوالي قرن من الزمن، انقضت على البلاد شعوب جوتي، وهم من سكان جبال الشمال وانهموا مؤقتاً سنوات الإزدهار التي عرفتھا الملكة الوليدة، فاجتاحوا المناطق الريفية وافسدها وانطلقت طموحات المدن إلى الإستقلال الذاتي من عقالها. دام هذا الوضع قرناً واحداً. فاستطاعت الحضارة السومرية أن تستوعب شعوب

جوتى بالتدريج واستردت مدن الجنوب نشاطها التجارى لتستعيد ثراها. فى هذه الفترة كانت مصر أيضاً تعيش سنوات من الفوضى. ففى العالم القديم المتحضر بغربه وشرقه، تلتقى بالزخم نفسه الذى يحرك التطور والازدهار ويفترات الصعود والهبوط ذاتها. وفى لاجاش تشهد أعمال الملك جوبيا تحديداً على استعادة سومر لأمجادها التليدة. فعندما شرع يشيد معبداً للإله ننجيرسو جلب من جبال أمانوس ومن المناطق السورية المجاورة أشجار الأرز والنقس والأحجار. ومن سواحل عُمان ومن وادى نهر السند، جاء الذهب والديوريت والعقيق الأحمر ومختلف الأشجار، ربما كان الأبنوس من بينها. وقدمت عيلام الأيدى العاملة بأعداد كبيرة. كل ذلك يقف شاهداً، فى أن واحد، على مدى ثراء الدولة التى تستطيع استيراد كل هذه المنتجات النادرة والغالية، وقدرتها على تأمين وسائل النقل^(٢٢).

حول عام ٢١٠٠ وقبل قيام أمراء طيبة بتوحيد مملكة مصر، أسس أور - نامون من الأسرة الثالثة لمدينة أور، إمبراطورية كبيرة. ومن الآن خضعت المدينة لحكومة مركزية. وبالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين تحديداً كانت الإمبراطورية تضم مناطق فيما وراء نهر دجلة وحتى عيلام، بل من المعتقد أنها شملت مدينة سوس. هكذا بلغت سومر أوج قوتها. وإذا كان اللقب الملكى الجديد هو من الناحية الرسمية «ملك سومر وأكاد» إلا أن أور - نامون قد ركّز جلّ نشاطه فى إعمار سومر. فرمّم المعابد المهتمة وشق القنوات لتطوير الزراعة والتجارة وأصدر منظومة قوانين لتنظيم العلاقات الإقتصادية والإجتماعية بهدف إشاعة العدالة والتوازن فى المجتمع «حتى لا يُسَلَم الرجل الذى يمتلك شاقلا^(*) واحداً لمن يمتلك سبيكة ذهب^(٢٣)».

وفى عهد خلفاء أور - نامون تفتت الإمبراطورية شيئاً فشيئاً. وتحولت آشور عن خضوعها لحكومة سومر وطورت نشاطها التجارى حتى وصل إلى كبد وقيا^(**). ومن الآن أصبحت مقاليد السلطة فى أيدي أسرة جديدة عيلامية^(***) سيطرت على المناطق الواقعة شرق نهر دجلة. واستولى ملك مدينة لارسا فى سومر، على أور ليصبح «ملك

(*) عملة نقدية محدودة القيمة. (المترجم)

(**) فى آسيا الصغرى. (المترجم)

(***) نسبة إلى عيلام. (المترجم)

سومر وأكاد». وأصبحت تجارة الثروات التي تعبر الخليج الفارسي^(*) وتشمل الأحجار والمعادن النفيسة والعاج والنحاس، تتدفق من الآن على لارسا، وحصل عدد من المدن على استقلالها.

في هذه الأونة وفي القرن الثامن عشر ق م تحديداً، نجد أن بابل وهي من المدن المطلّة على نهر الفرات، قد شرعت تنافس مدينة مارى في السيطرة على كبرى الطرق التي تربط الخليج الفارسي بالبحر المتوسط. وكان هامورابي المتربع على عرشها صاحب نكاء واضح ونفاذ بصيرة فذة وإدراك حاد في اغتنام الفرص السياسية حتى شبيهه البعض بالملك لويس الحادى عشر^(**)، في فرنسا⁽²⁴⁾، فأعاد تجميع مناطق ما بين النهرين وأسّس إمبراطورية شاسعة تغالب الأيام. وخاض بجدارة «حرب الأنهار»، فاستطاع تحالف مدن الفرات أن يلحق الهزيمة بتحالف مدن نهر دجلة. وتوحدت من جديد سومر وأكاد ودمرت مدينة مارى التي كانت تنافس بابل في السيطرة على طرق التجارة. وأخضع هامورابي بلاد آشور. كما أدت أسباب اقتصادية إلى استعادة بابل هيمنتها. وبالفعل فإن استمرار زحف الرمال على دلتا النهرين بلا هوادة قرب الخليج الفارسي، على الرغم من تنفيذ بعض الأعمال كشق القنوات، حول إذن التجارة الدولية بعيداً عن منطقة ما بين النهرين السفلى، بحثاً عن طرق أخرى. واستطاع هامورابي أن يجعل مدينته تتفوق على غيرها من المدن. وفي أعقاب الفتوحات العسكرية، أعيد تنظيم الإمبراطورية الجديدة تنظيمًا صارماً. وسوف تفرض قوانين هامورابي قواعدها على سائر بلدان الشرق الأدنى الآسيوى. بل إن مصر سوف تسترشد بمبادئها الرئيسية عندما أُرست منذ عهد تهوتمس الرابع أسس الأعراف والعادات التي وجهت دبلوماسيتها الدولية الوليدة⁽²⁵⁾.

ولكن التوازن الذي عرفته إمبراطورية بابل ومملكة مصر اهتز وتقوض من

(*) أى الخليج العربى. (المترجم)

(**) حكم فرنسا من ١٤٦١ إلى ١٤٨٣ ميلادية. بفضل سياسته الحاذقة استطاع أن يقضى على معارضة تحالفات الإقطاعيين فكان من أهم صنّاع وحدة فرنسا فدعم السلطة الملكية وطور اقتصاد فرنسا. (المترجم)

جاء الإغارات الهندوأوروبية الكبيرة. ومن أحشاء هذه التحركات التي نزحت معها أقوام مهاجرة سوف يولد عما قريب عالم جديد.

هل قامت علاقات مباشرة بين مصر وبلاد ما بين النهرين؟ الأمر محتمل ولكن لم يقدّم الدليل عليه. ويبدو أن هذه العلاقات كانت قائمة، على كل حال، منذ أقدم العصور؛ لأننا نلتقي بمواضيع تصويرية من بلاد ما بين النهرين، وسومرية تحديداً، على بعض القطع الأثرية التي تعود إلى عصر ما قبل الأسرات في مصر. فمن مقتنيات متحف اللوفر في باريس سكن عثر عليه في جبل العركي بمصر العليا. لقد نقش على مقبضه وهو من العاج موضوع جلعامش: إن رجلاً يرتدى القلنسوة السومرية المخروطية يمسك بثبات أسدين بذراعيه الممدودتين. كما أن صورة الحيوانات ذات الأعناق المتشابكة التي نشاهدها على صلايات الشست التي تعود، إلى عصر ما قبل التاريخ في وادي النيل وصورة الحيوانات الواقفة في تماثيل تام على جانبي شجرة، نشاهدها أيضاً في بلاد ما بين النهرين.

هل قامت علاقات مباشرة عن طريق البحر الأحمر أو الصحاري؟ أم كانت علاقات غير مباشرة من خلال إلتقاء التجار في بيلوس أو في - مدن - الرمال؟ أم كانت ما تبقى من آثار حضارة موزة في القدم لا نعرف عنها شيئاً، شملت مجمل هذه المناطق الشاسعة؟ من الصعوبة بمكان في الوقت الراهن أن نتقدم بإجابة شافية، ولكن وجود شواهد على قدم هذه العلاقات أمر محير.

١- الغزوات الهندوأوروبية في آسيا

منذ مطلع القرن العشرين ق.م تقريباً وحتى القرن الثامن عشر، تحركت شعوب أرية كانت تقيم في المناطق الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الأسود، وأخذت تزحف في اتجاه الجنوب. هكذا هبطت شيئاً فشيئاً، من الشمال موجات متلاحقة من

الجماعات البشرية.

ويبدو أن إيران قد اجتاحتها في بادئ الأمر أولى الجماعات البشرية الآرية وهم الميديون والفرس الذين سيلعبون فيما بعد دوراً عظيماً في التاريخ.

كما عبرت أقوام أخرى المضائق واستقرت في الأناضول، واتخذت اسم الحيثيين الذي كان يطلق على السكان الأصليين، فقد أقام الوافدون الجدد بين ظهرانيهم، لقد عان النظام الملكي الحيثي الجديد الكثير من صروف الدهر، قبل أن يتمكن من فرض نفسه كإحدى القوى العظمى في العالم الشرقي، والمنافس المباشر لمصر. وسوف يتحقق ذلك في وقت لاحق في زمن الرعامسة.

كما جاء غزاة آخرون عابرين مباشرة من شطآن بحر قزوين في المنطقة الجبلية لمنابع نهري دجلة والفرات واستقروا في بلاد الميثاني ليؤسسوا بسرعة فائقة نظاماً ملكياً قوياً، يضم مختلف الممالك الحورية والسامية القائمة في المنطقة. وسوف تبرز بصفتها منافساً تجارياً وسياسياً لمصر. كان الحوريون يقيمون في هذه البلاد منذ عدة قرون، وفي القرن التاسع عشر ق.م كانوا قد أسسوا بالفعل إمارة فيما وراء جبال طوروس. ويبدو أن الشعوب الفارسية قد دفعتهم شيئاً فشيئاً إلى طرفي الأراضي الميثانية ويسطت سلطانتها على هذه الشعوب الأقدم منها.

وصمدت الإمبراطورية البابلية وقاومت ببسالة، ولكن في عهد سمسون - إلونا خليفة هامورابي وابنه، هبط فرسان كاشيون من جبال زاجروس. وأمكن التصدي لهم في بداية الأمر، ولكنهم استطاعوا أن يتسللوا فيما بعد إلى السهل ليصبحوا عمالاً زراعيين، كانوا منظمين في هيئة جماعات مسلحة فعاشوا أيضاً على السلب والنهب، وعندئذ تمردت من جديد المدن المتطلعة إلى الإستقلال. كانت بلاد ما بين النهرين تسكنها شعوب تعود إلى أصول متنوعة ولم تعرف الوحدة الجغرافية التي تميزت بها مصر. لقد ظهر ملوك أشاعوا الرخاء والإزدهار في المنطقة ولكن الظروف العرقية والطبيعية لم تكن تتلاءم مع نشأة الشعور الوطني، كما كان الحال في وادي النيل. ومزقت الخلافات «بلاد البحر» المطلة على الخليج الفارسي. أما الكاشيون، وبعد انقضاء فترة، تمكنوا خلالها من التسلل إلى داخل البلاد بالطرق السلمية إلى حد ما،

فقد استعادوا أمجاد إمبراطورية حامورابى القائمة حول بابل وأسسوا أسرة حاكمة جديدة.

ومن الآن، شهد الشرق الأدنى الآسيوى قيام دول كبرى. ويعد أن أنجزت مقومات التأسيس والتنظيم التى استغرقت فترات متفاوتة، بدأت تهدد هيمنة مصر التجارية والسياسية فى البحر المتوسط والبلدان القائمة حول الأنهار. ولكن فى هذه الفترة بالذات كانت مصر تمر بمرحلة جديدة، شهدت أقول نجمها لتتوارى بعيداً فى الظل.

وبالفعل فإن الشعوب السامية التى طردتها تحركات الهجرة الزاحفة، حاولت أن تستقر إلى الجنوب قليلاً وحتى بلاد كنعان، وقد لحقت بهم جماعات أرية. وفى القرن الثامن عشر ق.م ومع تزايد أعدادها، انتهى بها الأمر إلى الدخول فى دلتا النيل، وتطلق عليها النصوص المصرية اسم حكاو خاسوت أى «أمراء البلدان الأجنبية»، أما الإغريق فقد ترجموا هذا الاسم بمصطلح هكسوس.

الفصل الثاني

أجانب في ملكة مصر

١- الغزاة الهكسوس.

ملك قصير العمر فى وادى النيل

تقاعس السلطة الملكية المصرية

مع نهاية الأسرة الثانية عشرة وبوفاة أمنمحات الرابع حول عام ١٧٨٥ ق.م عانت مصر من أزمة فى وراثة العرش: فلم يترك الملك وريثاً راشداً فخلفتها على ما يبدو، ملكة اسمها سويك - نفرو أى «جمال الإله سويك». كانت العاصمة لا تزال فى الفيوم وكان يُعبد فيها على وجه التحديد سويك، الإله - التمساح للأصقاع التى تنتشر فيها البحيرات والمستنقعات. ولا شك أن الملكة كانت ابنة أمنمحات الثالث ومن ثم أخت أمنمحات الرابع أو أخته غير الشقيقة. دام حكم سويك - نفرو حوالى أربع سنوات. وقد ذكر اسمها فى قوائم ملوك الكرنك وسقارة وفى بردية تورينو. وفى مقياس النيل القائم عند الجندل الثانى فى النوبة سجل مستوى ارتفاع الفيضان فى تاريخ يعود إلى العام الثالث من حكمها. وعلى جزء من أسطون يحتفظ به متحف القاهرة وعلى لوح حجرى عثر عليه فى هواره بالفيوم يذكر اسم الملكة إلى جانب أمنمحات الثالث. وافترض البعض احتمال أن تكون قد شاركته الحكم^(١)، وإن كنا نفتقر، من جهة أخرى، إلى أى برهان يؤكد ذلك. ويذكرنا مصيرها بالملكة نيتوكريس^(٢) التى أنهت الأسرة السادسة فى ظروف مماثلة.

إن الانتقال من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثالثة عشرة يظل فى نظرنا فى الوقت الراهن، سنوات بلا تاريخ. ويبدو أول ملك ثبت وجوده وهو أمنمحات - سويك هوتهب الذى لا نعرف شيئاً تقريباً عن أصوله، قد حاول الإرتباط بأسلافه ويشهد على ذلك الاسم الذى اختاره لنفسه. ومن غير المستبعد أيضاً أنه اتخذ الملكة سويك - نفرو زوجة له ليضفى الشرعية على تربيته على العرش. كما يبدو أن هذا الملك قد حكم مصر من أقصاها إلى أنهارها، طوال أربع سنوات تقريباً، وإن لم نجد اسمه على أى

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى نت - إقرت. (الترجم)

وثيقة جادت بها الدلتا. وشيّد بعض المقاصير في معبد المدامود إلى الشمال من طيبة وفي الدير البحرى. كما يذكر اسمه على مقياس النيل عند الجندل الثانى.

ثم خلفه سى عنخ تاولى - سخم كارع الذى يعنى اسمه «هذا الذى يُحى الأرضين - قوى هو كا رع». ولكن وحدة مصر كانت قد انفرط عقدها فى عهده. فلم تعد السلطة الملكية تشرف على النوبة. بل ربما حكم كلاً من مصر العليا ومصر السفلى نظامان ملكيان منفصلان.

أما المرحلة التالية فهى من أكثر مراحل تاريخ مصر غموضاً. وإذا أخذنا بما تكشف عنه النصوص والبدونات، يبدو أن ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة كانوا كثيرين، ولكن من المؤكد أن مصر قد عرفت فى هذه الفترة أسرات متوازية. لقد تولى بعض الملوك الحكم فى منف أو إيت - تاولى، قرب اللشت، وهى المدينة التى شيدها ملوك الأسرة الثانية عشرة فى الفيوم^(١). ويبدو أن ملوكاً آخرين قد اختاروا تانيس مقراً لهم ونذكر منهم سمنخ كا رع - مر مشع وهذه الكلمة الأخيرة تعنى «القائد العسكرى». ولا شك أنه كان من العسكرين واستولى على السلطة فى الشمال. وقد وجدت مجموعة ألقابه منقوشة على تمثالين عثر عليهما فى تانيس ثم استولى عليهما فيما بعد أبوبى من ملوك الهكسوس. ومعنى ذلك أنه سبق حكم الملوك الغزاة، ولما كان من المستبعد أن يكون الهكسوس قد نقلوا هذين التمثالين من طيبة إلى الدلتا، فالأقرب إلى الصواب أن المدعو مر مشع كان من ملوك أسرة حاكمة فى الشمال.

وفى المقابل، نفى عهد تحوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة نُقشت على جدران حجرة صغيرة فى معبد الكرنك أسماء الملوك المنتسبين إلى الأسرة الثالثة عشرة وحكموا طيبة ومصر العليا. ولم تنبس هذه القائمة بكلمة عن أمراء الشمال.

ولا تقدم لنا قوائم الملوك الأخرى أية معلومات. أما نص بردية تورينو الذى نون بلا شك فى مصر العليا فى عهد رمسيس الثانى، فإنه يضم سلسلة من أسماء الملوك مع توضيح عدد سنوات حكم كل منهم وكأنها متعاقبة وبدون الإشارة إلى ملوك الذين عاصروا بعضهم لبعض. أما ماتتون واستناداً إلى من نقلوا عنه، إذ ضاع مؤلفه، فقد كتب يقول: «تضم الأسرة الثالثة عشرة ستين ملكاً انحدروا أصلاً من ديهيسبوليس^(٢)

Diospolis وحكموا البلاد لفترة أربعمئة وثلاث وخمسين سنة^(٤). ومن الواضح أن عدد السنوات مبالغ فيه إلى حد كبير ويبدو أنه لم يراعَ تزامن بعض سنوات الحكم المحلية.

وعن الأسرة الرابعة عشرة يقول مانقون: «كانت الأسرة الرابعة عشرة تضم ستة وسبعين ملكاً انحدروا من خويس^(٥) Xoïs^(٥) واستمر حكمهم مئة وأربعة وثمانين سنة^(٦)». أما بردية تورينو فإن نصها شديد الغموض بالنسبة لنا. ويبدو أن الأسرة الرابعة عشرة هذه، قد تسلمت مقاليد الحكم في خويس بينما كانت الأسرة الثالثة عشرة تحكم باقى البلاد. وربما حدث ذلك فى أعقاب تمرد محلى فى مستنقعات الدلتا، دون أن نعرف أسبابه أو الأحداث التى صاحبتة. فزاد الطين بلة، والتعقيد تعقيداً، حتى بات من الصعوبة بمكان تحليل واقع هذه الأسرات الفرعية والمتوازية.

ومع ذلك يمكن تمييز بعض اللحظات الهامة. نذكر على سبيل المثال عهد الملك سخم رع- سى وأج تلو- سويك حوتب ويعنى اسمه: «رع شديد البنس- هذا الذى يعيد الإخضرار إلى القطرين- ليكن سويك راضياً». ويفضل هذا الاسم يُستظلّ الملك بحماية اثنين من كبرى الآلهة التى خصتهما الأسرة الثانية عشرة بعبادة خاصة: رع وسويك. وكأنه يعلن عن أصوله المنحدرة من الشمال أو عن رغبة فى الارتباط بملوك شرعيين، والفرضية الثانية هى الأقرب إلى الصواب، إذا لاحظنا أن والده كان يدعى مونتو حوتب أى «ليكن مونتو راضياً» وهو اسم طيبى^(٧) بكل وضوح. ومن جهة أخرى فقد ذكر هذا الملك سويك حوتب فى إحدى مقابر الكاب^(٨) بمصر العليا كما شيد معبداً فى المدامود شمال طيبة. ولكن تم الكشف أيضاً عن اسمه فى اللشت بالفيوم. وإن نعيد كثيراً عن الحقيقة إذا ذهبنا إلى القول بأن مصر قد استمادت وحدتها لفترة قصيرة فى ظل حكمه. ويبدو أنذاك أن أسرة من الملوك الذين يحملون اسم سويك- هوتب قد حاولت أن تؤسس حكمها للبلاد بعد أن حققت وحدة أرض مصر

(*) (سفا. حالياً. (الترجم)

(**) (نسبة إلى مدينة طيبة. (الترجم)

(***) (شمال إنفو. (الترجم)

وسياستها. وخلف سخم رع - سى واج تالوى، أخواه وكان خع سخم رع - نفر حوتپ أحدهما. فعندما باشر پيتر مونتيه Pierre Montet أعمال التنقيب فى بيبيلوس^(٧) كشف عن نقش يصور على ما يبدو أمير المدينة إلى جانب أحد ملوك مصر. صور الأول جالساً وقد تدنر برداء طويل ويمتد أمامه المتن الآتى: «إن أمير بيبيلوس إنتن^(٨) الذى سوف تتجدد حياته والذى أنجبه الأمير رين، صادق القول». لقد أنعم على هذا الأسىوى بلقب حاتى-ع (حرفياً: «الذى فى المقدمة بفضل ساعده» وهو اللقب الذى لا يحمله سوى كبراء مصر ومن بينهم حكام الأقاليم). كما منح صيرورات أبدية من النمط الأوزيرى. ويصاحب المتن ابتهالاً من أجل رع - حور - أختى. وكان يوجد أمام إنتن شخص آخر وإن اختفى فى الوقت الراهن، ولكن يمكن استجلاء علامات الاسم المحاط بخرطوش بكل وضوح وصولاً إلى أن صاحبه، هو خع سخم رع - نفر حوتپ، إن ما سبق يبرهن على أن هذه النزية من الملوك قد بلغت درجة من القوة مكنتها من إعادة العلاقات التجارية والسياسية مع بيبيلوس كما أكدت هيمنتها على المدينة الفينيقية وأوجدت فى الوقت نفسه وحدة أيديولوجية وثيقة. وربما كان المدعو إنتن هو الأمير يانتين- هامو الذى عثر على اسمه فى محفوظات مدينة مارى.

إن تمثالاً للملك خع نفر رع - سوبك حوتپ شقيق خع سخم رع - نفر حوتپ عثر عليه فى جزيرة أروجو جنوب الجندل الثالث، فى السودان. ومن غير المعقول أن نذهب إلى القول بأن سلطان آل سوبك حوتپ قد وصل بعيداً إلى هذا الحد، جهة الجنوب، ولكن الأقرب إلى الصواب أن يكون هذا التمثال قد نقل إلى هذا الموقع إبان الأسيرة الخامسة والعشرين الكوشية فى زمن لاحق، بعد مرور ألف سنة تقريباً. فلا غرابة أن «تسافر» القطع الأثرية وتنتقل من مكان إلى آخر. فلابد من تناول كل كشف أثرى بالفحص والتدقيق، وأن يُقِيمَ حق التقييم علماء اللغة والمؤرخون. إن علم المصريين، شأنه شأن سائر علوم العصور القديمة، لابد أن يتوخى الإعتدال والإتزان عند إصدار أحكامه وأن تكون بوحى من العقل. إنه يعتمد على إعادة صياغة وقائع

(٨) هذا الاسم هو بلا شك المصيفة المصرية للاسم السامى يوناتان. (المؤلفة)

وأفكار موهلة في القدم، قد تطرأ تعديلات على تاريخها أو يضاف إليها الجديد، بين عشية وضحاها، مع كل كشف جديد.

ويعد هذه النهضة التي شهدت إزدهار البلاد، يبدو أن عدداً من الأسرات الحاكمة المحلية قد تقاسمت السلطة في أعقاب انقراط عقد وحدة الأرضين من جديد. فبعض ملوك الجنوب ذاته الذين نقشت أسماؤهم على معالم أثرية في الجبلين وفي أسيوط لم تذكرهم بردية تورينو، ربما كانوا على رأس أسرات تحكم مدناً تابعة إلى حد ما لمدينة طيبة.

وقبل فترة قصيرة من اجتياح الهكسوس للبلاد عرفت مصر ملكين ربما كانا معاصرين ولكن لم يصل ما نعلمه عنهما إلى حد الجهل المطبق. ففي شمال شرق الدلتا كان يحكم نحسي الذي يعنى اسمه «النوبي». كان الجنوب بلا شك موطنه الأصلي؟ وقد كرس تمثالاً للإله ست في مدينة أواريس التي كان من المنتظر أن تصبح عاصمة الغزاة - إن لم تكن قد أصبحت هكذا، كما اتخذوا من ست إلهاً راعياً وحامياً. هل كان سلوكاً نفعياً من أجل التحالف مع الحكام الجدد؟ أم كان نتيجة ورعاً شخصياً؟ فربما أميط اللثام في المستقبل عن وثائق أخرى تحيطنا علماً بحقيقة شخصية هذا الملك الغريب الأطوار. أما ينيومس فكان ملكاً على الجنوب وتذكره بردية تورينو، ولكن يبدو أن الآثار تؤكد على وجود ملكين يحملان اسم ينيومس: الأول ولقبه جد هوتي رع ونعرفه بفضل لوحين حجريين عثر عليهما في إدفو. أما الآخر ولقبه جد نفر رع فنعرفه بفضل لوح حجري عثر عليه في الجبلين، نرى هل نحن بالفعل بصدد ملكين أو ملك واحد تغير اسمه الدال على لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى؟ وأياً كان الأمر، فمن المحتمل أن الغزاة قد انتشروا في البلاد في عهده، على حد قول المؤرخ اليهودي يوسيفوس^(*) الذي نقل روايته عن كتابات مانقون في غمار مناظراته وهو يرد على أبيون. «لقد حكم البلاد في الماضي ملك يدعى توتيمانيوس (من الواضح أن هذا الاسم هو الصيغة اليونانية للاسم المصري ينيومس). وحدث في زمنه، لا

(*) عاش هذا المؤرخ معظم حياته في روما في القرن الأول الميلادي وكتب باليونانية. (المترجم)

أعرف كيف، أن الله كان غير راضٍ علينا. عندئذ وصل فجأة من جهة الشرق قوم أخسأء المنبت وصلت بهم الجسارة إلى حد اجتياح بلادنا. وكانوا على قدر من القوة مكنتهم من إخضاعها دون أن يطلقوا سهماً واحداً. وبعد أن قبضوا على أمرائنا، أضرموا النار بوحشية في مدننا ودمروا معابد الآلهة فصارت أثراً بعد عين. وأذاقوا السكان الأمرين وألوان المعاملات الهمجية، فقتلوا البعض واسترقوا زوجات وأولاد البعض الآخر. ثم انتخبوا من بينهم ملكاً، اسمه ساليتس وقد اتخذ من منف مقراً له وفرض الجزية على مصر العليا ومصر السفلى وخلف وراءه العاميات في أهم المواقع. واهتم بصفة خاصة بالأقاليم الشرقية فحصنها، تحسباً لاحتمال قيام الآشوريين بغزو المملكة^(٨)..

يجمع هذا النص بين المشاعر التي اعترت مصريي العصر الفرعوني والتي عانى منها مصريو العصر البطلمي وهو العصر الذي عاصر مانقون بدايته. فقد ظل أبناء وادي النيل تتسلط عليهم مشاهد السلب والنهب والعنف التي ارتكبت قبل ذلك بأربعمئة سنة في القرن السابع ق.م، على أيدي الآشوريين وما عرف عنهم من قسوة وشراسة، وبالمثل سوف نلاحظ أن المصريين الذين عاشوا بعد القرن الثامن عشر ق.م سوف تظل حافظتهم مطبوعة بذكرى بشعة عن غزو الهكسوس. ومن الواضح بطبيعة الحال أن الآشوريين كانوا في ذلك العصر تحت سيطرة أمبراطور بابل، ومن ثم كانوا لا يشكلون أدنى خطر قد يهدد مملكة مصر. فينبغي إذن التحلي بالفتنة والتبصر عند استخدام المصادر اليونانية ومن ذهب مذهبهم من أخلافهم.

وفي تلك الأزمنة التي عمّت فيها الإنقسامات استمر العمل على ما يبدو في المؤسسات التقليدية على الصعيد المحلي، وفي مطلع الأسرة الثالثة عشرة على الأقل. لقد احتفظت إحدى البرديات وهي بردية بولاق رقم ١٨ بميزانية البلاط الملكي في الجنوب، دون أن تعلمنا الوثيقة شيئاً عن الملك المقصود. لقد أعدّ هذه البردية كاتب من مدينة طيبة يدعى نفرحوتب، كان يسجل ميزانية الملك يوماً فيوماً. وكانت المصاريف تشمل القوائم المدنية التي تخص العائلة المالكة ومرتبات كبار الموظفين والهبات التي ينعم بها الملك على رعاياه ولا سيما بمناسبة الأعياد. وبالطبع كانت الموارد تتكون من

الضرائب وهى الموارد العادية (لخو بالمصرية القديمة أى «ما يتم تحصيله») والموارد غير العادية (إينو بالمصرية القديمة أى «ما يتم إحضاره» وهى عبارة تدل أيضاً على الجزية). كان الكاتب يميز بعناية فائقة بين جملة الضرائب المنتظر جبايتها وما تم تحصيله فى واقع الأمر، فيحتفظ على الدوام بحصر للمتأخرات الواجب سدادها.

وقد وضع نصب عينيه تسجيل تفاصيل المصروفات: وعلى رأس أكبر المنتفعين من إنعامات الملك: الملكة وأخوات الملك، ويبدو أنهم كُنَّ يشغلن مناصب إدارية فى الدولة. الأمر الذى ربما مهد لبروز دور المرأة فيما بعد فى إدارة دفة الحكم مع بداية الأسرة الثامنة عشرة. إن قائمة الموظفين طويلة ومتنوعة، فيحصل كبراء البلد على مرتبات: لا سيما الوزير وحاملو الأختام الثلاثة الذين يشغلون على التوالي وظائف القائد العام والمشرف العام على الحقول وكاتب المحفوظات الملكية. ومع ذلك لم يطل النسيان أصحاب الوظائف القليلة الشأن كالموسيقيين والمنشدين والعمال والحرفيين الذين يعملون فى خدمة الملك فيحصلون على قوتهم هم وعائلاتهم. أما المصاريف غير العادية فكانت تخص أعياد الإله مونثو الذى استمرت عبادته فى الدامود، فقد أولاه ملوك الجنوب هؤلاء، على ما يبدو بأكبر قدر من الإهتمام، شأنهم شأن ملوك الأسرة الحادية عشرة.

ولكن لم يسقط آمون فى طى النسيان، إن جزءاً من لوح من الحجر الجيرى، عثر عليه فى الكرنك ومن مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن، يرصد كل ما أغدق به الملك خع نفر رع- سوبك حوتب من خيرات، على معبد إله الكرنك.

إن بعض الكشوف الأثرية التى تعود إلى الصدفة البهتة قد أماطت اللثام عن بعض شخصيات كبار الموظفين، كنا لا نعلم عنهم شيئاً: نذكر منهم على سبيل المثال الوزيرين عنخو وإيمرو الذين عاشا فى زمن الأسرة الثالثة عشرة. فأصبحنا نعرفهم من خلال عدد كبير من التماثيل والألواح الحجرية فضلاً عن البرديات التى تذكر اسميهما. ولكن ما زال من الصعوبة أن نذكر بصددهما مزيد من المعلومات: فربما عرف هذا العصر عدداً من الوزراء الذين يحملون اسم إيمرو. هل كانوا ثلاثة؟

ويصعب التمييز بينهم. والشئ ذاته يقال عن عنخو: فهكذا كان يدعى الوزير الذى كان يعمل فى خدمته الكاتب الهمام نفرحوتپ. وربما عاصر عهد أمنمحات- سوبك حوتپ؟ أو عاش فى زمن سى واج تلوئ- سوبك حوتپ الذى لم يذكر اسمه سوى فى بردية بولاق^(٩). وعلى كل حال فقد ورث الوزير - أو أحد الوزراء - عنخو منصب والده، وبالفعل تدعى والدته «زوجة الوزير» على أحد تماثيل ابنها. فهل كان هذا الوزير هو إيمرو كما افترض البعض؟ وهكذا ينهض البرهان على احتمال نشأة مخصصات عائلية.

إنه تاريخ صاغته الظلال أو عدم اليقين وطبعه تعاظم وهن السلطة وتخاذلها.

الهكسوس فى مصر

إن الغزوات الآرية القادمة من الشمال دفعت أمامها الآسيويين الذين تسللوا شيئاً فشيئاً فى دلتا النيل إبان الأسرتين الثالثة عشر والرابع عشرة المصريتين. ولم يتمكن الملوك من وقف هذا التيار الخطير أو لم يعرفوا. وفى نهاية هذه المرحلة على حد قول مانقون وفى عهد نيد ومس، وبعد أن كانت هذه الحركة متدرجة فى بادئ الأمر، إلا أنها تحولت إلى غزو حقيقى اجتاحت البلاد.

ويبرهن علم أسماء الأعلام *onomastique* أن الغزاة كانوا من الشعوب السامية، وكنعانيين وأموريين أساساً. ومن المؤكد أنهم لم يكونوا من الهوريين كما زُعم فى بعض الأحوال. فأسماء الأعلام ليست هورية ولا هندوأوروبية.

ومن بين هذه القبائل ربما انضمت إليها ذرية سيدنا إبراهيم، ويعرف الجميع تفاصيل رحلته الطويلة: فقد بدأها من أور فى سومر واتجه إلى حران، شرق الفرات وإلى الشمال الشرقى من حلب التى كانت مركزاً هاماً من مراكز عبادة القمر فى بلاد ما بين النهرين، ثم اتجه إلى مصر. ثم عاد أنواجه إلى أرض كنعان؛ حيث مكثت ذريته بعض الوقت قبل أن تعود إلى مصر فى ركاب الهكسوس بعد أن جذبتهم ثروات

وادي النيل. وهو ما يتفق مع التتابع الزمني الذي في متناولنا وهو سفر الخروج^(١٠)(*) الذي يخبرنا بأن العبرانيين طردوا من مصر بعد أن أقاموا فيها لمدة ٤٣٠ سنة. وإذا كان هروب العبرانيين من مصر قد حدث بالفعل في عهد رمسيس الثاني^(١١) الذي حكم مصر اعتباراً من ١٢٩٠ ق.م يصبح هذا التتابع الزمني أقرب إلى الصواب لأسباب كثيرة، تحملنا على هذا الاعتقاد^(*).

أما عن تحديد تاريخ أول مكان أقام فيه الهكسوس لأول مرة على أرض مصر فيمكن أن نفترض تاريخاً هو أقرب إلى الحقيقة: فربما حدث ذلك في العام ١٧٢٠ ق.م تقريباً استناداً إلى وثيقة شديدة الأهمية ونطلق عليها اصطلاحاً اسم لوح العام ٤٠٠ وقد أقيم في مدينة تانيس في عهد رمسيس الثاني، وعثر عليها مارييت Mariette في هذا الموقع عام ١٨٦٣. ثم غطّ اللوح الرمال من جديد بعد أن تم نسخ مضمونه لحسن الحظ. وأعاد الكشف عنه بيير مونتيه Pierre Montet إبان أعمال التنقيب التي باشرها في تانيس. ويوضح النص أن ملكي المستقبل رمسيس الأول وسيتي الأول قد احتفلا إحتفالاً يوبيلياً بمناسبة مرور أربعمئة سنة على إقامة عبادة الإله ست في تانيس. ومن غير المستبعد أن هذه الواقعة تعود إلى عهد حور إم محب بينما كان كل من رمسيس

(*) (وهو ثاني أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. ويضم العهد القديم حسب تصنيف الكنيسة الكاثوليكية ٤٦ سفرًا، كما أنه ثاني أسفار التوراة، ومعناها بالعبرية الشريعة، وهي أحد أجزاء العهد القديم الأربعة (التوراة والتاريخ والحكمة والأنبياء). أما العهد الجديد فيضم ٢٧ سفرًا، على رأسها الاناجيل الأربعة. (المترجم)

(**) (تقول رواية سفر الخروج أن فرعون خرج على رأس جيش جرار لطاردة بني إسرائيل ولكنهم غرقوا جميعاً في البحر (الإصحاح ١٤ من سفر الخروج). أما رمسيس الثاني فقد وافته المنية وهو في السابعة والتسعين من عمره تقريباً. كما أظهر فحص موميائه بوجود أهراس التهاب المفاصل الفقارية فيبست وغلظت ومن المؤكد أن هذا المرض قد جعل شيخوخة الفرعون غير مريحة (راجع روجيه ليشنتبرج وفرانسواز دونان: المومياوات المصرية. الجزء الثاني. ترجمة ماهر جويجاتي. ص ٣٩. دار الفكر. ١٩٩٩). فهل يعقل بعد ذلك أن يكون رمسيس الثاني قد خرج على رأس جيشه لطاردة بني إسرائيل ويفرق في البحر بعد أن بلغ من العمر أرذله وأصبحت مجرد حركته عملية مؤلمة؟ (المترجم)

وابنه سيتي لا يزالان يخدمان كضابطين فى الجيش المصرى. أجل إن عبادة ست كانت قائمة فى شرق الدلتا، منذ أولى الأسرات، ولكن مع وصول الهكسوس أدمجوا هذا الإله فى الإله سوتخ الآسيوى، وأسبقوا عليه صفات جديدة، منها التاج المخروطى والقرنين، وهى جزء من غطاء رأس بعض الآلهة الآسيوية الأخرى، نذكر منها على سبيل المثال الإلهين ريشيب و تيشوب. وبالفعل فإن صورة ست كما نقشت فى الجزء المقوس فى أعلى لوح العام ٤٠٠، تلتزم بهذا الشكل الجديد الذى تلتقى به أيضاً على أحد جدارين الهكسوس. ولما كان هور إم محب قد حكم مصر من ١٣٣٠ إلى ١٣٢٠ تقريباً ق.م؛ فمن حقنا أن نذهب إلى القول بأن الآسيويين قد تسللوا لأول مرة إلى مصر اعتباراً من ١٧٣٠ ق.م.

استقر الهكسوس فى المدينة التى أطلق عليها أواميس وبالمصرية القديمة هوت وعوت أى «قصر المقاطعة» من الناحية الإدارية، إنها باختصار عاصمة.

وعن هذا الموضوع يقول مانتون:

«لقد وجد (أى ساليثس زعيم الهكسوس) فى إقليم بلدة سقرويت(*) مدينة ذات موقع مناسب، شرقى الفرع البوياسى للنهر، وكان يطلق عليها أواميس وفقاً لتقليد لاهوتى قديم متواتر. فأعاد بناءها وحصنها بأسوار متينة. وفضلاً عن ذلك فقد شغلها بأعداد ضخمة من الجنود لحراستها وسلمهم تسليحاً ثقيلاً وكانوا حوالى ٢٤٠٠٠ فرداً. وكان يأتى إلى هذه المدينة صيفاً سواء ليكمل قمحهم ويدفع رواتبهم أو تدريبهم تدريباً راقياً من خلال المناورات التى بثت الرعب فى نفوس الأجانب... كان يطلق على هذا الشعب اسم «هكسوس» ومعناه «الملوك الرعاة» لأن هيك تعنى فى اللغة المقدسة «ملك» وسوس تعنى فى اللغة الدارجة «رعاة». إن اقتران هذين الاسمين يعطينا هكسوس»(١٢).

إن الأصل الاشتقاقى لكلمة «هكسوس» كما أورده مانتون خاطئ. فإذا كانت كلمة حقاً تعنى بالفعل «رئيس» فإن العنصر الثانى من هذا الاسم لا يتفق وكلمة

(*) الواقعة فى شمال شرق الدلتا. سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الرابع. الهيئة العامة للكتاب. ١٩٩٣. ص ٦٥. (المترجم)

شاسو الدالة على بدو أرض كنعان و شمال سيناء ولكنها تتفق وكلمة خاسوت أى «البلدان الأجنبية». إن لقب حقا خاسوت يظهر منذ الأسرة الثانية عشرة للدلالة على زعماء القبائل ومشايخ الصحراء الآسيوية.

ومن المحتمل أن مدينة أوّاريس قد شيدت فوق موقع الختاعة - قنتير قرب تانيس. إن أهمية هذا الموقع كانت معروفة منذ الأسرة الثانية عشرة: كان مركزاً إستراتيجياً يتحكم فى الطرق المؤدية إلى أسيا وملتقى التجارة. هكذا يبدو أن الآسيويين قد تحكموا فى بداية الأمر فى شمال شرق مصر ثم الدلتا.

إن تحديد مكان المواقع القديمة يشكل أحياناً قضية عويصة: فقد اعتبر البعض أن أوّاريس وتانيس شىء واحد^(١٣). كما تم الخلط بين پر رعمسيس - عاصمة رعمسيس الثانى والختاعة - قنتير^(١٤) وأوّاريس، منذ عهد قريب^(١٥).

وإذ ظل الغزاة محتفظين بعاداتهم السامية فقد تبنا أيضاً أعراف المصريين. فكتبوا أسماءهم بالعلامات الهيروغليفية بل واتخذوا أحياناً أسماءً مصرية، ودونوها على الجعارين وأحاطوها بخراطوش مسبوق بأحد عناصر مجموعة الألقاب الملكية وهو «بن رع»، فى حين كانوا زعماء قبائل، فنأدوا على هذا النحو، أن يندمجوا فى الأمجاد التليدة للوك الزمن الفابر. وإلى هؤلاء الزعماء الخاملى الذكر، ينسب عدد كبير من الجعارين التى عُثر عليها فى مصر، وكانت مزدانة على الطريقة الآسيوية بزخارف على هيئة وردة أو نجمة أو عناصر هندسية حلزونية أو متشابكة. ومن بين هذه الأسماء يسترعى بعضها اهتمامنا ونذكر منها على سبيل المثال اسمى يعقب - هر و هات - هر ويتكونان من اسمين من أسماء الآلهة الكنعانية، ليوفرا دليلاً آخر على الأصول السامية لهؤلاء الغزاة.

ودامت إقامتهم فى هذا المكان لفترة ربع قرن حتى مطلع القرن السابع عشر ق.م. عندئذ تشكل الهكسوس كدولة تهيمن على الدلتا: وقيادة زعيمهم ساليثس شرعوا آنذاك فى غزو مصر. ولا يبدو أنهم واجهوا مقاومة كبيرة. فكما لاحظنا كانت مصر منقسمة تحكمها عدة أسر محلية، فكان من الصعوبة بمكان رسم استراتيجية شاملة. زد على ذلك، أن الهكسوس كانوا يمتلكون على ما يبدو سلاحاً

حربياً جديداً عظيم الفاعلية وهو المركبة الحربية التي تجرها الجياد. فاستطاع التفوق التكتيكي للفراة أن يقضى بسهولة على جميع أشكال المقاومة المتفرقة.

إن الوثائق التي تحت أيدينا في الوقت الراهن، لا تساعدنا إلا في أضيق الحدود، على معرفة أسرار الهكسوس هذه. ويرددة تورينو وهي قائمة الملوك الوحيدة التي تذكر الهكسوس مليئة بالفجوات. إن يوسيفوس ويوسابيوس الإفريقي اللذين نقلوا عن مانتون لا يتفقان دائماً على أسماء الملوك أو تتابع عهودهم. كما يمكن استخدام مصدر مصري آخر وإن كان محدوداً للأسف. نقصد بذلك قائمة كبار كهنة منف التي وضعت عام ٧٠٠ ق.م وتذكر أسماء الملوك الذين أقام هؤلاء الكهنة الشعائر في عهدهم. ولكنها لم تدون سوى أسماء ثلاثة من ملوك الهكسوس الذين لم يذكر إلا آخرهم، وهو أبوي، في المصادر الأخرى.

وبمقارنة هذه المصادر يمكن أن نتفق دون أن نجافي الحقيقة، بوجود أسرتين من ملوك الهكسوس^(١٦). ويجمع جمهور العلماء على صحة هذا الافتراض. ويُظن أن الأسرة الأولى وهي الأسرة الخامسة عشرة في مصر ضمت ستة ملوك وأن سنوات حكمهم قد دامت مئة وثمانية سنوات وذلك بالاستناد أساساً إلى بردية تورينو. لقد ضاعت جميع الأسماء ما عدا اسم آخر الملوك وهو: خع موي. أما مانتون فيذكر أسماء ساليقس وبفون وأپختان وأبوي ويأناس وأسييس أو كيرتوس. وعلى الوثائق المعاصرة قد يكون أبوي هو عا أوسر رع - أبوي في حين يطلق على يأناس اسم سي أوسر رع - خيآن. أما الملك أسييس فقد تحقق أن اسمه هو الملك شيشي الذي يرد اسمه على عدد كبير من الجعارين.

إن الأماكن التي جاءت منها أصلاً قطع الآثار التي تحمل أسماء هؤلاء الملوك لا تترك أدنى شك حول مدى امتداد سلطانهم. فقد حكموا مصر من أقصاها إلى أدناها وحتى النوبة السفلى وشاركوا أيضاً في حركة التجارة مع مدينة كرماء في السودان، والتي استمرت دون انقطاع. وإذا بدا أن المصريين لم يتغاضوا عن وجود هؤلاء الأجانب في بلادهم، فنلاحظ في المقابل أن قدرأ من التلاحم قد تحقق على الصعيد الروحاني. فمن المؤكد أن هؤلاء الآسيويين، وكثرتهم الكاثرة من البدو الرحل،

قد حاولوا بعد أن استقروا في أكثر بلدان الشرق ازدهاراً، أن يتكيفوا مع «النموذج» المصري المبهر. فالعديد من ملوك الهكسوس يحملون أسماء مركبة من اسم الإله رع على الطريقة المصرية. إن الملك أبهيي أو الملوك الذين يحملون هذا الاسم، كانوا يلقبون: «أوسر رع أي» عظيمة هي قوة رع»- «وب خيش رع أي» رع هو رب القدرة»- وعاقن رع أي «عظيمة هي بسالة رع». كما أن أبهيي هو أيضاً على الطريقة المصرية: «ابن جسد رع» و«الصورة الحية (للإله) رع على الأرض». هذه النعوت التي تكشف بعضها عن نزعة حربية لم يعهد لها إله هليوبوليس حتى الآن، وُجدت مدونة على صلاية حصل عليها الكاتب إتيو هدية من سيده الملك أبهيي^(١٧). وهي شهادة على أن الأجانب كانوا يعبدون الإله رع مثلما عبدوا سوتخ و بعل. فلا غرابة إذن، أن تكون الوحدة الأيديولوجية قد تحققت من حول الإله الشمسي. وكما لاحظنا^(١٨) من قبل كان أمير بيبولوس في زمن سنفر^(١٩)، يحمل لقب «ابن رع للبلدان الأجنبية». فالجرم السماوي واهب الحياة، كان يُعبد في شتى أنحاء الشرق وإن تنوعت أسماؤه، وفي عهد التحامسة والرعامسة، سجد أن عبادة الشمس هي التي ستولى أيضاً تدعيم الأوامر التي تربط مختلف بقاع إمبراطورية مصر على الصعيد الروحاني. كما لا ينبغي أن نفرض الطرف عما قدمه الهكسوس من إسهام أيديولوجي إلى مصر. إن الآلهة الآسيوية سوتخ و بعل وعشتروت التي ستقوم بدور كبير في الفكر الإمبراطوري الجديد في عصر الرعامسة^(٢٠)، بدأت آنذاك في الدخول إلى مجمع الآلهة المصري ومعهما الإله- القمر الذي كان يعبد بدو آسيا الرجل: والشاهد على ذلك أسماء الأعلام المستخدمة في مطلع الأسرة الثامنة عشرة^(٢١)، إن العالم القديم لم يعرف «الحب» الروحانية. إن الإكثار من الآلهة يعنى تعاضد الفاعلية السحرية التي توفرها الحماية الإلهية. فلم يكن العالم قد عرف آنذاك التعصب وعدم التسامح.

ولكن سرعان ما ظهرت مقاومة سياسية تناهض وجود الأجنبي في المملكة. وبالفعل فيبدو أن الهكسوس قد اختاروا أسيوين لشغل أهم المناصب في الجهاز الإداري للبلاد. ونذكر على سبيل المثال حامل الاختام هو الذي يتفق اسمه مع الجذر

(*) من الأسرة الرابعة. (المترجم)

السامى الذى يعنى «الشريف الكريم الأصل». وقد تولى هذا الشخص سلطاته قرب نهاية الأسرة الخامسة عشرة وامنت لتشمّل مصر، من أديانها إلى أقصاها، وبلاد النوبة وأرض كنعان^(٢١). وربما ساهمت وقائع، من هذا القبيل، فى إيقاظ الشعور الوطنى لدى المصريين.

بعد هؤلاء الملوك الأوائل الذين أطلق عليهم أحياناً اسم «كبار الهكسوس»^(٢٢) ظهرت مجموعة ثانية من الملوك ربما شكلت الأسرة السادسة عشرة فى مصر. ولا نعرف سوى القلة القليلة عن هؤلاء «الهكسوس للمغورين» الذين حكموا مصر على ما يظن اعتباراً من ١٦٢٠ أو ١٦١٠ ق.م. وتذكر بردية تورينو تسعة ملوك ولكن الفجوات تتخلل معظم أسمائهم. ومن المؤكد أن مساحة سلطتهم قد تقلصت ولم تعد تشمل البلاد بأكملها، وهو ما تؤكده الاكتشافات الأثرية: فلم نجد أسماء ملوك الهكسوس على آثار النوبة فضلاً عن القسم الجنوبي من مصر العليا. فقد استعادت النوبة استقلالها. ويبدو أن الرغبة فى تحرير البلاد قد بدأت تشغل بال المصريين. ولا شك أن أبناء وادى النيل كانوا قد اتخذوا أيضاً من المركبة الحربية سلاحاً جديداً يخوضون به معاركهم.

والى هذا العصر تعود قطعة أثرية محيرة، ربما كانت تعبيراً عن التوتر القائم بين المصريين والآسيويين، المقصود تمثال صغير لأبو الهول يكشف رأسه الملكى عن خصائص آسيوية. إنه يسحق أحد المصريين بمخالبه^(٢٣). لقد عثر على هذا التمثال الصغير فى إحدى مقابر أبيدوس يعود تاريخها إلى زمن كانت السلطة الأجنبية ما زالت تمتد حتى شمال طيبة، وإن كان التمرد قد أصبح تهديداً واقعاً.

إن شخصية بعض هؤلاء الملوك الأجانب تلمح عن ملامحها. ونذكر تحديداً الملك خيآن المدعى يناس عند مانتون. كانت سنوات حكمه طويلة إلى حد كبير، فدامت أربعين سنة بلا شك، فى فترة شهدت أوج حكم الأجانب فى مملكة مصر. فقد عثر على آثار تحمل اسمه فى مصر وأتحاء الشرق الأدنى، من كسفة جادت بها الجبلين، شمال طيبة وتمثال مشوه من الجرانيت جاء أصلاً من يوليستيس فى الدلتا وغطاء زلعة من الألبستر عثر عليه فى أساسات قصر كتوسوس بجزيرة كريت وجعران وختم

فى أرض كنعان وأسد من الجرانيت فى بغداد. ومن بين مجموعة ألقابه يعبر اسمه الحورى عن طموحاته السياسية، إنه «هذا الذى يحيط بالأرض». فهل استطاع كما يقال أحياناً^(٢٤) أن يؤسس إمبراطورية شاسعة امتدت على ما يبدو من مصر العليا وحتى جزيرة كريت شمالاً وبغداد شرقاً، وتضم مصر وجزر بحر إيجه لتصل إلى نهر الفرات؟ هل كان الأول فى قائمة كبار الغزاة الذين فتحوا الشرق؟ ويمكن أن نترك العنان لخيالنا لتتصور ذلك ولكن هذه الفرضية الجذابة والمغرية لا تنهض على أساس راسخ. فمن الممكن أن نذهب أيضاً إلى القول بأن مختلف القطع الأثرية المذكورة قد نقلت بعيداً عن موطنها الأصلي فى أعقاب هزيمة الآسيويين وانسحابهم خارج مصر. ربما كان قولنا هذا هو الأقرب إلى الصواب.

كما أن معلوماتنا عن الملك أوهي متوفرة إلى حد ما. ومع ذلك فما زال يكتنفه الغموض: هل عرف التاريخ ملكاً واحداً يحمل هذا الاسم وتعددت ألقابه بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى، وتنوعت من عا أوسر رع إلى نب خبش رع وأخيراً عا قفن رع، وهى الأسماء التى سبق ذكرها. أم كانت أسماء ألقب بها ثلاثة ملوك مختلفين؟ وأياً كان الأمر فقد امتد حكم عا أوسر رع لسنوات طويلة: وبالفعل فإن العام الثالث والثلاثين من عهده مذكور على بردية ريند Rhind الرياضية. كما وصلنا عدد من الشواهد التى تخمن هذا الملك، وظل تأثيره قائماً أيضاً لفترة ما إلى الشمال من طيبة، فقد عثر هناك على ساكف باب نقش عليه اسمه مرتين على جانبى قرص الشمس المجنحة، وهى صورة مصرية تقليدية تدمج الصقر فى الجرم السماوى، وتعود أصولها إلى مدينة إدفو. كما أن إناءً من الألبستر يحمل اسم ابنته هريت تم حفظه فى طيبة على ما يبدو، إلى أن وضع فى مقبرة أمنموتب الأول، من الأسرة الثامنة عشرة، حيث عثر عليه. وذهب البعض إلى احتمال أن تكون المدعوة هريت قد تزوجت من أحد أمراء طيبة. هل كانت من أسلاف فراعنة الأسرة الثامنة عشرة؟^(٢٥)

ولكن هذه «المغامرة» كانت حدثاً عابراً. وبالفعل فإن أوهي الأوحى أو ثالث من حملوا هذا الاسم، وأياً كان الأمر، فإن الملقب عا قفن رع سرعان ما إصطلم بمقاومة أمراء طيبة الذين استطاعوا تحرير مصر وأتاحوا لها أن تستعيد للمرة الثانية عظمتها القومية وتواصل مسيرة تاريخها المجيد.

٢- أمراء طيبة المحتررون

طيبة الأبية المتمردة

حول عام ١٦٥٠ ق.م وإبان حكم الملوك الهكسوس الأوائل، يبدو أن نسل زعماء طيبة التابعين للأسرة الثالثة عشرة، قد حل محل محلهم نسل آخر من أمراء مدينة الجنوب ليشكلوا الأسرة السابعة عشرة على حد قول يوسايبوس الإفريقى. وفى هذا الصدد، تذكر بردية تورينو خمسة عشر إسمًا لملوك تربعوا على عرش طيبة. ومن بينهم تسعة أسماء مذكورة فى قائمة الملوك التى نقشها تحوتمس الثالث فى الكرنك فى المكان المعروف بحجرة الأجداد. كما نعرف عشرة منهم من مدونات الآثار التى عثر عليها فى طيبة ومصر العليا.

إن أهم كشف أثري يساعدنا على معرفة هذه الأسرة السابعة عشرة هو الكشف عن مقابر ملوكها. وتقع الجبانة الرئيسية على البر الغربى من نهر النيل فى طيبة عند سفح تل دراع أبو النجا وفى السهل الواقع أمامه، ويحدها من الجنوب الطريق الصاعد المتجه إلى معبد مونتوحتب فى الدير البحرى وادى الملوك من جهة الشمال^(٣). وتقع هذه الجبانة تحديداً، قبالة معبد الكرنك على البر الشرقى.

إن بردية أبوت Abbott وتعود إلى الأسرة العشرين ومن عهد رهمسيس التاسع، توفر لنا أيضاً معلومات على قدر كبير من الأهمية. إنها عرض لنتائج التحقيقات التى جرت بأمر من وزير طيبة فى أعقاب إنتهاك حرمة مقابر وادى الملوك. ويبدو أن جبانة ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين ذكرت أسمائهم لم يمّسها أحد بسوء، ما عدا مقبرة سخم رع- شد تلوى- سويك إم ساف. ومن ثم يقدم لنا النص قائمة شبه كاملة بأسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة والتى تؤكد فى بعض جوانبها صحة التتابع الزمني لبردية تورينو.

سعت مملكة طيبة الصغيرة جامدة، ورغم صروف الدهر ونوائبه، أن تحافظ على الثقافة والأعراف التى توارثتها التقاليد المصرية العظيمة، لتصبح عن قصد وعمد، حصناً يزمو فى شموخ وأتفة بوطنيته. لم تعد مصر تتلقى خشب لبنان ولا حجر طرة

الجيرى الأملس ولا ذهب النوية ولا أبنوس وعاج السودان. لقد بات من المستحيل تنظيم الحملات إلى محاجر أسوان أو إلى وادي الصوامع، ولكن الروح المصرية ظلت محتفظة بكيانها. وظلت أمهرام نواع أبو النجا محتفظة بشكلها المقدس، وإن كان أقل ارتفاعاً، ومشيدة من الطوب، والتواييت مصنوعة من خشب الجميز المحلى وأكثر تواضعاً من تواييت الأسرة الثانية عشرة التي كانت من الحجر أو من خشب الأرز. إن الأسلوب الفنى لمدينة طيبة الذى نشأ فى ذلك العصر يتميز بلامحه الشديدة الواقعية. وظل الكتبة فى مدارس الحياة يعيدون نسخ، بلا كلل أو ملل، النصوص الأدبية بصرفها الشواهد الحية على أقدم الثقافات، وقد وصلتنا العديد من هذه المستنسخات. إن طيبة الأبية المتردة تصمد وتقاوم وتحافظ على التراث الوطنى.

إن ترتيب ملوك الأسرة السابعة عشرة ما زال مطروحاً على بساط البحث فى بعض جوانبه^(٢٧). وفى هذا المقام سوف نقتفى بالعالمين ستوك Stock وإدواردز Edwards، فنعتمد أساساً على بردية تورينو بعد أن قام إيبششر Ibscher تحديداً بترميمها. وربما كان رع حوتب أى «ليكن رع راضياً» هو أول أمراء هذه الأسرة، وقد شرع ينفذ بعض الأعمال الورعة فى موقعى كويتوس و أبيتوس المجاورين. إن نص مرسوم صادر فى كويتوس بهذه المناسبة، قد احتفظ به لوح حجرى عثر عليه مهشماً إلى عدة أجزاء، فى الموقع ذاته وكان مدفوناً على عمق كبير فى أساسات معبد بطلمس. إن القسم المقوس فى أعلى اللوح وهو من الحجر الجيري قد اختفى تماماً. وما زال النص مدفوناً على امتداد أحد عشر سطراً أفقياً، وإن عانى من العديد من الفجوات التى يمكن تعويضها كلما كان المعنى المقصود مرتبطاً بأفكار أو صيغ تقليدية معروفة.

[العام....] من عهد صاحب الجلالة الحورس: «صاحب - الحياة - الطويلة -

الأمم».

السيتان: «صاحب - السنوات - المزدهرة».

الحورس الذهبى: «هذا الذى يخضر من جديد»...

ابن رع: «رع حوتب، له الحياة»^(٢٨).

[صدر أمر من قبل] صاحب الجلالة إلى النبلاء وإلى حاشيته...:

«لقد التقى جلالتي بئبي (الإله مين) القائم على رأس الآلهة جمعاء. إن المدخل (إلى معبده) وبيوابعه كانت قد تهدمت». عندئذ [أثوا] على صاحب الجلالة وقالوا: «أيها العامل الملكي، أيا سيدنا، قليأمر كا وُك بما ينبغي أن يحدث، لأن الإله هو قائم في فمك ولا، الإله سيبا ساكن [في قلبك]»^(٢٩). إن يتاح - سوكر [قد خلقك] والآلهة شگتلك. إنك نعتل الآن من أجلها لتشيّد معابدها... لقد وُحِدَت الجنوب والشمال، وقلبك... إلى عرش هورس الأحياء... إنك تتولى إدارة شئون [كل ما يحيط به] قرص،... إنك الملاذ المناسب للشعب، وملوى البشر أجمعين. إنك لا تنام أثناء الليل، «مر أثناء النهار، ساعياً من أجل كل مفيد لهذا البلد»^(٣٠). لقد أقامك رع بصفته صورته^(٣١)...».

بقية المدونة مجرد شذرات محدودة ومن ثم يصعب ترجمتها ترجمة مترابطة.

إن هذا النص من حيث دلالاته العميقة يلتزم بالخط الأيديولوجي للنظام الملكي كما عرفته الأسرة الثانية عشرة^(٣٢). ومن الواضح إذن، أن رع هو تَب بصفته أول ملوك الأسرة السابعة عشرة كان يقيم في طيبة، إما مباشرة قبل أن يستولى الهكسوس على مجمل البلاد بعد أن كانوا يسيطرون على مصر السفلى فقط أو عندما تحولت طيبة إلى المعتقل الآمن لحماية الفكر المصرى والحفاظ عليه بعد أن أصبح العدو الغازي يتحكم في البلاد.

يبين أن رع هو تَب كان ملكاً سعيداً؛ فقد ظلت ذكراه حية في طيبة حتى بعد مرور خمسة قرون، على حد زعم حكاية أشباح ووصلتنا من خلال أربع أوستراكا هي في الوقت الراهن من مقتنيات كل من تورينو وفينيا و فلورنسا ومتحف اللوفر في باريس. تروى القصة حكاية خونسو إِم حَب كبير كهنة آمون - رع والذي يعني اسمه «الإله خونسو في عيد». فريما ولد يوم الإحتفال بعيد هذا الإله الذي كان يعتبر الإله الابن في ثالث طيبة القائم حول آمون-رع. لقد عاش خونسو إِم حَب في زمن الأسرة العشرين. وتتفق بداية النص مع اللحظة الذي شرع هذا الأخير في البحث عن مكان يقيم فيه مقبرته عند تل دراع أبو النجا الذي كان آنذاك شديد الإزدحام من كثرة

المقابر المنتشرة فيه. ويعد أن أرسل بعثة لاستطلاع المكان المجاور لقبرة الملك رع حوتپ، مرّ خونسو إم حب شخصياً بتجربة فريدة في بابها، فوجد نفسه في مقبرة مجاورة للموقع الذي وقع عليه الاختيار. وبينما كان بمفرده في الظلام الدامس ظهرت له روح. وفي هذه اللحظة كان يحدث نفسه قائلاً:

«لن أرى مستقبلاً نور القرص. لن استنشق نسيمات الشمال. وستظل العتمة أمام وجهي على مر الأيام...» وعندئذ (تجلت) روح نورانية وقالت له «فيما يخصني وعندما كنت لا أزال حياً على سطح الأرض كنت خازن رع حوتپ ملك مصر العليا... كما كنت ضابطاً في سلاح مشاته. ثم سرت أمام البشر وفي أعقاب الآلهة و«رقدت» (أي توفيت) في العام الرابع عشر من عهد من حوتپ رع ملك مصر العليا^(٣٣)». ومن ناحية أخرى يصعب قراءة كلمة رع.

وحول هذين الاسمين الملكتين تدور المناقشات وتؤثر على المكان الذي يخص الملك رع حوتپ. وينحسب البعض إلى القول بأن الاسم الأول ناتج عن خطأ ارتكبه الكاتب الذي كان عليه أن يدون نب حيت رع وهو لقب مونتو حوتپ من الأسرة العادية عشرة، بصفته ملك مصر العليا و مصر السفلى. وليس من السهل دائماً اتهام الكاتب بالإهمال. ولا سيما وأن اللقبين الذين يسبقان الخرطوشين يشيران تحديداً إلى نسوت فقط، أي «ملك مصر العليا»، ويرى ويتلوك Winlock^(٣٤) احتمال وجود خطأ في كتابة اسم من حوتپ (رع): إذ كان على الكاتب أن يدون من خپر رع لقب تهورتمس الثالث بصفته ملك مصر العليا و مصر السفلى. ومعنى ذلك افتراض أن العمر قد امتد بهذه الروح النورانية لسنوات عديدة عاشتها في هذه الدنيا. لا سيما وأن حكم تهورتمس الثالث قد بدأ من الناحية الرسمية عام ١٥٠٤ ق م تقريباً. ويؤسس ويتلوك رأيه على العمر المثالي لحياة الإنسان المصري وهو مائة وعشرة سنوات. وقد نذهب بصدد هذا الاسم الثاني، أنه يخص رابع ملوك الأسرة السابعة عشرة المذكور في بردية تورينو وهو سى عنخ إن رع مونتو حوتپ. إن هذا الاحتمال يقرب إلى الصواب، في أن واحد، كل من طريقة كتابة الاسم في نص أوستراكون فلورنسا - وإن كانت ناقصة - ومدة حياة هذا الخازن، فضلاً عن توافقه مع القوائم التي تضع رع حوتپ على رأس الأسرة السابعة عشرة.

ومن المرجح أن ابنه «المولود من الزوجة الملكية العظيمة» قد خلفه. ولكن ضاع اسمه للأسف. ومن هذا الزواج الأميرى ربما ولد سخم رع (أى «رع شديد البأس») وپ ماعت (أى «هذا الذى يفتح أبواب الحقيقة- العدالة») إنتف أو أنتف القديم أو أيضاً أنتف الخامس بالنسبة لنا، حيث أن الألفظة الثلاثة الأوائل قد حكموا طيبة فى ظل الأسرة الحادية عشرة^(٢٠). أما رابع الألفظة فقد حكم فى ظل الأسرة الثالثة عشرة. وقد حكم أنتف الخامس حوالى ثلاث سنوات قبل أن يخلفه أخوه الأصغر، إنه سخم رع هروهر ماعت (أى «هذا الذى يفرح بالحقيقة- العدالة»)^(٢١) أنتف (السادس) ويبدو أنه لم يتربع من جانبه على العرش سوى بضعة أشهر. كانت مقبرة أنتف لا تزال سالمة على حالها فى زمن الأسرة العشرين كما يؤكد التقرير المدون على بردية أبوت Abbott. أما الآن فلم يصلنا سوى هُرم من الحجر الجيرى - هو من مقتنيات المتحف البريطانى - وصندوق أنية كانوبية وتابوت وصلا إلى متحف اللوفر فى أن واحد، مع تابوت أنتف الصغير. واجتازت «رحلة» التابوتين مغامرات متلاحقة. فقد شاهدهما الرحالة ويلكنسون Wilkinson عام ١٨٤٩ فى منزل تاجر آثار يونانى يدعى تريانتوفيلوس Triantophilos. وعلى حدّ قوله فقد عثرا معاً قبل عدة سنوات فى براع أبو النجا عند منتصف الطريق المؤدى إلى سفح التل. ويقول عالم المصريات بروكش Brugsch أنهما كانا عام ١٨٥٤ فى غرفة مهملات عند القنصل اليونانى. وفى هذه السنة ذاتها، شاهدهما مارييت A.Mariette فاشتراهما فى الحال ونقلهما إلى متحف اللوفر خلال شهر ديسمبر من السنة المذكورة.

كان تابوت أنتف القديم «هبة من أخيه الملك أنتف محبوب أوزيريس، إلى أجد /الآباد»، استناداً إلى المدونة التى يحملها. وكان البنو الذين يُعتقد أنهم فتحوا التابوت قبل عرضه عند التاجر اليونانى قد عثروا بداخله على مخطوط ذاع صيته الآن وطبّق الأفاق: إنه بردية پريس دافين Prisse d'Avennes التى نسفت عليها حكم الوزير پتاح هوتپ من الأسرة الخامسة وهى من كنوز مجموعات الآثار فى باريس. وكان الماركيز پريس دافين شخصياً قد اشتراها عام ١٨٤٥، بعد فترة قصيرة إذن من «الكشف» عن التابوت.

(*) هذه الجملة ترجمة: هروهر ماعت. (المترجم)

كما أن ملكاً آخر هو سويك إم ساف الذى جاء ترتيبه فى بردية تورينو كرابع ملوك الأسرة السابعة عشرة يذكره البعض أحياناً قبل الأثنتة. لقد استمر عهده ست عشرة سنة. ونعرف هذا العامل الملكى من خلال بعض المعالم الأثرية كعدد من التماثيل عثر على أحدها فى أسوان فى المعبد المقام من أجل حقا إِب من حكام الأقاليم فى عهد بيبى الثانى والذى تم تأليهه بعد وفاته بفترة قصيرة. وهناك أيضاً لوح حجرى نونت عليه هبات لصالح معبد موتو فى الدامود. ويؤكد بعض المخربشات فى وادى الحمامات والمؤرخة بالعام السابع من عهده، على ما قام به من أعمال فى المحاجر وبالتالي فإنها تشهد على أن مملكة طيبة كانت تتمتع بقدر من الحرية. وهو خير برهان على أن عهده يعود إلى فترة متأخرة من الأسرة السابعة عشرة مع بداية أفول نجم الهكسوس وتراجع هيمنتهم.

وقرب نهاية الأسرة السابعة عشرة ظهر أنتف آخر، الملقب نب خپر رع (أى «رع هورب الصيرورة»). إنه سابع ملك يحمل اسم أنتف. وكان على رأس أمراء سلالة طيبة الذين تحلوا بقوة الشكيمة والبسالة والإقدام، فحملوا على عاتقهم مهمة تحرير أرض مصر. وإلى عهد هذا الملك المدعو أنتف يعود مرسوم عثر عليه فى كويتوس. إنه أمر ملكى صادر إلى أمير المدينة. ومعنى ذلك أن مصر العليا أو ما يعادل ثمانية أقاليم على الأقل من أسوان جنوباً وحتى أبيدوس شمالاً كانت تابعة للأسرة الحاكمة فى طيبة وإن وجدت سلطات حاكمة فى كل مدينة. وهكذا شرعت طيبة فى تجميع الأقاليم الجنوبية. وقد نُقش المرسوم على الجانب الجنوبي من الباب الشرقى للمعبد. والنص فضلاً عن النقوش الملحقه به، هو من مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن:

اليوم الخامس والعشرون، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الثالث، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى - الذى تزمو به طيبة - نب خپر رع وابن رع: أنتف^(*)، له الحياة مثل رع إلى أبد الآباد.

(*) من الغريب أن لقب «ابن رع» مدون مع لقب «ملك مصر العليا ومصر السفلى» داخل خرطوش واحد. (المؤلفة)

مرسوم ملكى إلى مين إم حات (أى «الإله - مين- هو- الأول») حامل الأختام وأمير كويتوس وإلى كن إن (أى «صورة- من- أجلتنا»^(٢٩)) الابن الملكى وحاكم كويتوس وإلى منغ مين (أى «الإله- مين- خير») حامل الأختام وإلى كاتب معبد نفرحوتب- العظيم، وإلى جيش كويتوس بأسره وكهنة المعبد.

انظروا، لقد جاءكم هذا المرسوم لتحاطوا علماً بأن جالأتى قد أوفد الكاتب سا إمن («ابن- آمون») حامل الأختام الإلهى فى خدمة آمون و أوسر آمون (أى «آمون عظيم- البأس») للقيام بالتحقيق فى معبد الإله مين. وبالفعل فقد جاء كهنة من المعبد لدى جالأتى ليخبرونى أن حدثاً مؤسفاً قد وقع فى المكان المقدس بمعنى استقبال الأعداء^(٣٠) من قبل تيتى بن مين هوتب (أى «ليكن الإله مين راضياً») ملعوناً اسمه، فليطرح إذن أرضاً فى معبد أبى الإله مين، فليطرد من وظيفته الكهنوتية، هو وابن ابنه ووريث وريثه. فليطرح أرضاً واتصاير أقاته وأطعمته المقدسة^(٣١)، مع تجاهل اسمه فى المعبد من الآن فصاعداً، مع التصرف بالمثل مع كل شخص يشبهه، (كل شخص) عاص وعبد الله. ونأمر بإتلاف كل ما كتبه فى معبد الإله مين وفى مكاتب الإدارة وعلى كل لفافة بردى.

أما عن أى ملك أو أى حاكم قوى يرأف به،، فلن يستطيع أبداً أن يتسلم التاج الأبيض وإن يضع أبداً التاج الأحمر على رأسه، وإن يتربع على عرش هورس الأحياء. والسيدتان لن توازراه كما تفعلان مع من تمبانه. كل حاكم أو كل أمير سيقترب من السيد له الحياة والصحة والقوة^(٣٢) ليلتمس العفو عنه، فليقدم ذويه وممتلكاته وحقوقه قرباناً لأبى الإله مين فى كويتوس. كما لا تسمحوا لكائن من كان، من المحيطين به أو لأقربائه أو لأبيه أو لأمه أن يشغلوا منصبه. اعملوا بحيث يتولى هذه الوظيفة حامل الأختام ورئيس الإستقبال مين إم حات. واتعظ له الأقات والأطعمة المقدسة. وليُسجل ذلك من أجله بوضوح كتابة فى معبد أبى الإله مين فى كويتوس، ومن أجل ابن ابنه ووريث وريثه^(٣٣).

(*) كان أمراء طيبة يطلقون أيضاً على أنفسهم هذا اللقب الملكى. (المؤلفة)

هكذا كان أمراء مدينة الجنوب يحكمون حكماً فردياً واضحاً ويحملون مجموعة الألقاب الملكية التقليدية ويسندون المناصب والوظائف إلى أصحابها في مدن مصر العليا.

إن نشاط أنتف السابع وأعماله تشهد عليها النقوش المنحوتة في معابد كويتوس وأبيدوس والكاب والألواح الحجرية التي جاد بها معبدا الكرنك وإدفو. كان ملكاً ببناءً ومحارباً. إن نقشاً جاء من كويتوس يصور الملك وهو يؤدي حركة طقسية تقليدية، شاهراً المقمعة البيضاء فوق مجموعة من الأعداء، في حضرة الإله مين. وعلى قاعدة تمثال عثر عليه في الكرنك نُحت خرطوشا الملك فوق صور لأسرى نوبيين وأسيويين مكبلين: إنها صورة تقليدية تتم عن عظمة مصر وسؤدها واتساع السلطة الملكية ومن إرماصات عصر الإمبراطورية. ويبدو أن حماساً قتالياً قد بدأ يلوح في الأفق، فقد عُنِ نحت (أى «الباسل الجسور») أحد أبناء الملك، «قائداً للجيش». وسوف يدفن أنتف السابع وإلى جانبه قوسين وسهام ستة وضعت بجوار تابوته.

وتم تأمين نزية زعماء طيبة. كان أنتف السابع قد تزوج الملكة سويك إن سا إف، إنه اسم غريب بالنسبة لامرأة لأنه يعنى فى اللغة المصرية «سويك هو حمايته». وهكذا فإن الضمير فى صيغة المذكر! ولكن ربما كانت تحمل اسماً آخر: ها عنخ إس (أى «واها! ليتها تحيا»). كانت إدفو موطنها الأصلي كما دفنت فيها. فتأكدت الوحدة بين أميرى طيبة و إدفو كتحالف راسخ. وكان مثل هذا التحالف قد ساهم قبل خمسة قرون فى إحياء النظام الملكى المصرى. وكشف العلماء فى موقع إدفو على عدد من المعالم الأثرية تحمل اسمها، ومنها ألواح حجرية وأسورتان وقلادة ذهبية. وتُدعى على الألواح الحجرية «أخت الملك وابنة الملك وحفيدة الملك»، وهى إشارة إلى أصولها المحلية. أما فى طيبة فهى «الزوجة الملكية العظيمة». ولما كانت قد عاشت قبيل الأسرة الثامنة عشرة التى نهضت بمصر من كبوتها فقد احتفظت عنها المدينة(*) بذكرى طيبة. وعلى لوح حجرى من مطلع الأسرة الثامنة عشرة عثر عليه فى طيبة، نجد أنها تُعبد جنباً إلى جنب مع الملكة عح حوتب والدة الملك أحمس محرر مصر.

(*) إشارة إلى طيبة فقد كان لفظ تيهوت من أسمائها ويعنى المعينة. (المترجم)

يبدو أن نموذج الأسرة الحادية عشرة كان نصب عيني هؤلاء الملوك الأتاتفة الذين حملوا الاسم نفسه الذي لقب به الملوك الذين أعادوا إلى مصر وحدتها في زمن مضى. ومن ثم لا يستبعد كما يقال أحياناً، أن جدران حجرة دفن أنتف السابع التي لا تحتفظ في الوقت الراهن سوى ببقايا بسيطة لألوان، فصارت أثراً بعد عين، لا يستبعد إذن أن يكون الفنان القديم قد نقش على هذه الجدران نصاً أدبياً كان المصريون مولعين به ويسجل شهادته عن أزمنة مضطربة ونطلق عليه إصطلاحاً نشيد الضارب على القيثارة. ويعتقد أن تاريخ كتابة هذا النص يعود إلى الأسرة الحادية عشرة ولم يعمل ملوك الأسرة السابعة عشرة سوى إعادة نسخه، ويصعب علينا أن نصدر حكماً قاطعاً، إذ لم يصلنا النص الأصلي لهذا النشيد ولا نعرفه إلا من خلال نسخة نُقشت في مقبرة پا إتن إم حب من الأسرة الثامنة عشرة وهي من مقتنيات متحف لينن في الوقت الراهن.

نشيد موجود في مقبرة أنتف، صادق القول، والقائم أمام الضارب على القيثارة... إن مصيراً سعيداً قد انتهى الآن. ويمضي جيل ويحل محله أناس آخرون، منذ زمن الأجداد الأوائل. ومن كانوا آلهة في الماضي يرقعون في أمراتهم، وبالمثل الأموات المجدون، ولكن مقار إقامة الذين شيوا المقابر زالت من الوجود، ترى ماذا حدث إذن؟

لقد أصغيت إلى أحاديث إيمموتب وچنف حور^(٢٨مكدا) التي يتفوه الناس أجمعون بكلماتها، ولكن أين هو الآن المكان الذي يقيمان فيه؟ لقد تصدعت جدرانها بل إن موقعه قد زال واندثر وكنتم لم يوجدوا أبداً.

لا يعود أحد من المكان الذي يقيمان فيه ليخبرنا ماذا ألمّ بهما، ليحدثنا عما ينقصهما، لتهدأ قلوبنا، حتى يحين وقت انتقالنا أيضاً إلى حيث ذهباً. تصرف إذا بحيث يمتلئ قلبك فرحاً وسروراً وينسى الآن أنك ستصبح ذات يوم روحاً نورانية. جارى رغباتك على مدار أيام حياتك. ضع المرء على رأسك وارتن أرقى أنواع الكتان وأنعمها وامسح نفسك بالروائح الحقيقية التي تخص الإله^(٢٩). أكثر من أفراحك ولا تسمح للأتراح أن تتسلل إلى قلبك. جارى رغباتك واللذات التي تتوق إليها. افعل ما

تريد وأنت على سطح الأرض، لا تكدر قلبك إلى أن يحين اليوم الذي ينتحب فيه القوم عليك وينوحون. ولكن الإله - صاحب - القلب - الهلاني (أوزيريس) لا يسمع العويل. وصيحات أيام الحداد لا تخلص المرء من العالم الآخر^(٤٠).

هذه النبذة لإنسان منهك خابت آماله وتبخرت أحلامه، هذه المجاهرة ذات النزعة الإبيقورية^(*) - قبل ألفى سنة على زمن الفيلسوف اليوناني - تبدو أقرب إلى المشاعر التي عبرت عن مكنونها في عصر الفوضى السابق^(٤١). ولكن من الواضح أن أناة الأسرة السابعة عشرة - إن لم يكونوا المؤلفين الفعليين لهذا النص - إلا أنهم استعادوا عن طيب خاطر نموذج سميهم من الملوك الذين سبقوهم، ليؤكدوا على هذا النحو على شيء من الإستمرارية الأدبية. ومن جهة أخرى، فإن الأعراف التقليدية القاضية بانشاد الأغاني بمصاحبة القيثارة في المقابر أثناء المائت الجنائزية، تعود إلى أزمنة موغلة في القدم. وقد استمرت حتى العصر اليوناني الكلاسيكي وهو ما يؤكد هيرولوت (Il, 78-Chant de Linos)، لتظهر في وقت لاحق في القصائد الهومييرية (Odysée, I, 53- Chant de l'aède Phemios) وفي العصر الهلنستي أيضاً (Athénée, XIV, 620b sq.) والعصر الروماني.

وأمام مقبرة أنتف السابع في ذراع أبو النجا تنتحب مسلتان صغيرتان من الحجر الرملي وكأئنهما ترمي إلى الاستخفاف بالقول المنشد. إن إكليلاً من الفضة يحتفظ به متحف ليدن ما زال يذكرنا بالمصير الملكي الذي كان ينتظر مدينته طيبة، فستصبح بعد فترة وجيزة - المدينة المنصورة.

طيبة المنتصرة

أما عن خليفة أنتف السابع فتذكر بعض قوائم الملوك ملكاً يدعى سى نخت رع (أي «هذا الذي جعله رع قوى البأس») ومع ذلك لم نجد له أثراً على أي معلّم مُشيد. إنه مذكور في قائمة الكرنك المنقوشة على أحد جدران الحجرة المعروفة اصطلاحاً

(*) نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور ٣٤١-٢٧٠ ق.م. (المترجم)

بحجرة الأجداد وجاء ترتيبه بعد أنتف السابع وقبل سقنن تاعا. كما يذكر أيضاً في مجموعة أخرى لأسماء الأجداد الملكيين الأوائل، تحتفظ بها مائدة قرايين من الأسرة التاسعة عشرة ومن مقتنيات متحف مرسيليا في الوقت الراهن. كما ورد اسم هذا الملك في مقبرة خع بخت في دير المدينة، جنباً إلى جنب، أيضاً مع اسم سقنن رع تاعا. وكان على الأرجح زوج الملكة تتي شيرى التى سنتطرق إليها فيما بعد ووالد سقنن رع^(٤٢).

أما سقنن رع تاعا (أى «هذا الذى جعله رع بأسلاً، وهو العظيم») فقد خلف أباه على رأس مملكة الجنوب وتزوج أخته عح حوتب (أى «ليكن القمر راضياً») وسينجب منها ستة أولاد. وسيتولى اثنان من أبنائه وهما كامس وأحمس تحرير أرض مصر بشكل نهائى وإعادة وحدتها.

ولا شك أن هذا الكفاح قد بدأه سقنن رع تاعا، بينما كان ملك يُدعى أبهى يحكم فى أواريس ولكن سلطته الحقيقية كانت قاصرة على الدلتا، ولا تتجاوز مصر الوسطى. وقد وصلتنا رواية أسطورية، كُتبت فى عهد مرنپتاح من الأسرة التاسعة عشرة، على بردية فى بردية سالبيه الأولى^{١٣٧} Seller وكان كاتب تحت التدريب يُدعى بنتاؤور قد نسخها على الأوراق الثلاث الأولى من لفافة البردى. هذا النص الذى لا نمتلك منه فى الوقت الراهن سوى هذه النسخة يعانى للأسف من عدد من الثغرات.

حدث ذلك عندما أصابت الفواجع أرض مصر، فلم يعد فيها آنذاك سيد موهوب الحياة والقوة والإزدهار، ففي ذلك الزمان، لم يعد فيها ملك^(٤٣). أما الملك سقنن رع فكان أمير مدينة الجنوب. كان البؤس يخيم على مدينة الآسيويين، عندما كان أبهى فى أواريس. كانت البلاد بأسرها^(٤٤) تقدم له منتجاتها قرباناً. وبالمثل فعل الشمال المحمل بكل ما لذ وطاب من إنتاج الدلتا. لقد جعل الملك أبهى من (الإله) سوتخ سيده. وما عدا سوتخ، كان لا يقدم الخدمة لأى إله من آلهة البلاد. فشيد (من أجله) معبدٌ بجوار قصره الملكى فكانت صنمته رائعة تغالب الأيام. ومع مطلع كل نهار كان ينهض فى مجده ليقدم إلى سوتخ قرايينه اليومية. وكان الكبراء يحضرون أكاليل الزهور، كما جرت العادة فى معبد رع - حور أختى.

وأراد الملك أبوهي أن يبلغ الملك مسقن رع، أمير مدينة الجنوب رسالة إستفزازية. وبعد انقضاء عدة أيام، استدعى الملك أبوهي [كبار موظفي^(٤٥)] [قصر]... [وأبلغهم أنه يريد] إبلاغ [رسالة إلى أمير مدينة الجنوب ويرفق بها] تقرير [خاص] بالنهر [ولكنه كان لا يعرف كيفية تحريره^(٤٦)]. عندئذ تحدث إليه الكتبة والعلماء [..بالإضافة إلى كبار] الموظفين وقالوا له: «أيها العامل الملكي، [أيا سيدنا نريدك أن تترك (٤)] [بركة أفراس النهر] القائمة شرق مدينة الجنوب [لأنها تحرمنا من [النوم نهاراً] وليلاً] فالأصوات التي تصدرها تصمم أذان أبناء مدينتنا». وأجابهم الملك أبوهي قائلاً: «[إن أمير] مدينة الجنوب... [إن آمون] معه حامياً. إنه لا يستند إلى أي من الآلهة القائمة في البلاد بأسرها، ماعدا آمون-رع، ملك الآلهة». وبعد انقضاء عدد من الأيام، قام الملك أبوهي بإبلاغ أمير مدينة الجنوب برسالة ضمنها ما قال له الكتبة وأهل العلم والعرفة (من أتباعه). ووصل موفد الملك أبوهي عند الأمير ومثل بين يديه. عندئذ قال (الأمير) لموفد الملك أبوهي: «لماذا أوفدت إلى مدينة الجنوب؟ لماذا ارتحلت لتصل إلي؟» فأجابه الموفد قائلاً: «الملك أبوهي هو الذي أرسلني إليه لأبلغك ما يلي: «تصرف بحيث يتم إبعاد (حرفياً: طرد) بركة أفراس النهر القائمة شرق المدينة لأنها تخلق منامى نهاراً وليلاً. إن ما تصدره من أصوات يصمم بالفعل أذني». وكانت دهشة أمير مدينة الجنوب كبيرة لفترة طويلة حتى أنه لم يصل إلى الرد المناسب وإلى الرسالة التي سيبلغها إلى موفد الملك أبوهي. وأخيراً قال له: «أحقاً لقد وصل إلى مسامع سيدك الحديث [..عن البركة القائمة] شرق مدينة الجنوب؟» [فقال الموفد: امعن النظر] في الموضوع الذي أوفدني بسببه. [وأمر الأمير] بحسن معاملة موفد الملك أبوهي وأن يقدم له [كل ما لذ وطاب] من لحوم وغطائر [..ثم قال له: «عد أدراجك إلى الملك أبوهي] وسوف أفعل كل ما ستقوم بإبلاغه. سوف تقول له... (ثغرة في غير محلها)» عندئذ هم موفد الملك أبوهي وسلك طريق العودة إلى مقر إقامة سيده.

واستدعى أمير مدينة الجنوب كبار البلاط الملكي وجمع أهم رؤساء حاشيته، وكرر على مسامعهم الرسالة الشفهية التي كان أبوهي قد وجهها إليه. والتزم جميعهم الصمت (حرفياً: بغم واحد) لفترة طويلة، دون أن يصلوا إلى رد، موفق من عدمه. وأرسل الملك أبوهي^(٤٦)...

وعند هذا الحد تنتهي للأسف الشديد النسخة التي دونها الكاتب بنتاؤور.

ولأول وهلة قد يثير هذا النص الدهشة. ولكن إنطلاقاً من البرهان الذي توصل إليه ماسپيرو Maspero وليفيغر Lefebvre^(٤٧)، فإنه يرتبط بلا شك بتقليد قديم، يقضى بأن يتبادل الملوك أحياناً مسائل مطلوب حلّها مقابل دفع غرامة إذا لم يتوصل أحد الأطراف إلى الحل الصحيح. ونعرف السؤال الشهير الذي طرحه نفتنبو من الأسرة الثلاثين على إيزوبوس Esope فقال له: «عندى في مصر إناث أفراس تحمل عند سماع صهيل ذكور الأفراس الواقعة أمام مدينة بابل. ترى بما تجيب؟».

ولا يخامرنا أدنى شك أن إجابة سقن رع التي ضاعت كانت في مثل رجاحة عقل اليوناني ابن فريجيا^(٤٨) Phrygie، فكانت أيضاً من أساليب البرهنة على تفوق أمون رع على سوتخ. كما يكشف هذا النص عن الوضع السياسي إبان هذه الفترة. فنجد من جهة أن أمون رع كان يظهر منذ ذلك الزمان بصفته الإله الكبير. ومن جهة أخرى، فإن «بركة أفراس النهر» تتلوى على معنى مزدوج، أحدهما أسطوري والآخر سياسي. فلا شك أن أبناء طيبة كانوا يمارسون شعيرة قديمة يقومون بموجبها بتسديد الخطاطيف في أجساد أفراس النهر في بركة بالمدينة. فكانت الغاية من هذه الشعيرة حماية النظام الملكي المصري، إذ كان ينظر إلى هذا الحيوان باعتباره «مستودعاً» للعناصر الضارة المؤذية. ولكن كان الأمر في نظر الهكسوس من المحرمات التي تتلوى على تنيس المقصات. فالههم سوتخ المندمج في الإله ست كان في وسعه التجسد في فرس النهر أحد حيواناته المقدسة.

ومن المحتمل أن هذه الرسالة التي قد يقدم لنا كشف جديد نسخة أخرى كاملة وهو ما نرجوه ونتطلع إليه - من المحتمل أنها كانت بمثابة الإعلان عن بدء العمليات الحربية بين طيبة و أواريوس. وعلى كل حال فإن مومياء سقن رع تاعا^(٤٩) التي عثر عليها في خبيئة النير البحري داخل تابوتها الأدمي الشكل، تحتفظ بجراح عميقة في

(*) موطن إيزوبوس. (المترجم)

(**) ويمكن مشاهدتها في قاعة المومياوات بالمتحف المصري: الطابق العلوي، الحجرة ٥٦. (المترجم)

الرأس، ربما كانت من آثار إشتباكات عنيفة مع الآسيويين الأجانب المقيمين على التراب الوطنى.

أما سقن رع تاعا فقد خلفه ابنه كامس (أى «الثور أنجبه»). وهكذا سوف تبدأ حرب التحرير.

وصلنا عدد من الوثائق التى تقدم شهادتها عن هذا الحدث. وبالفعل فقد عهد كامس إلى نيشى رئيس الخَزَنَةِ بإقامة لوحين حجرين فى الكرنك تخليداً لذكرى انتصاره، والأحداث التى مهدت له. وقد عثر المهندس الفرنسى هنرى شيفرييه Henri Chevrier فى العامين ١٩٣٢ و١٩٣٥، على أجزاء من اللوح الحجرى الأول فى أساسات الجناح الجنوبي من المصح الثالث من معبد آمون - رع. ويرى النص بدايات الحملة ضد الهكسوس. كما دوت نسخة من هذا النص بالخط الهيروجليق على لوحة صغيرة تعرف اصطلاحاً بلوحة كارنارفون رقم واحد Carnarvon n°1 عثر عليها اللورد كارنارفون عام ١٩٠٨ أثناء أعمال التنقيب التى كان يباشرها فى موقع دراع أبو النجا. وفى زمن أحدث، وعام ١٩٥٤ تحديداً، عثر شيفرييه أيضاً على اللوح الحجرى الثانى عند مدخل بهو الأساطين الكبير فى الكرنك. إن نص هذا اللوح هو «بقية» النص السابق ويرى نهاية حملة كامس. ويعتقد أن الأثرين قد نحتا فى وقت واحد. فالعلامات الهيروغليفية محفورة فى كل منهما باللون الأزرق كما أن أسلوبهما وعبارتهما، تجمعها أوجه شبه أكيدة^(١٨).

لوح الكرنك الحجرى الأول ولوحة كارنارفون الصغيرة

العام الثالث من عهد الحورس: «هذا الذى يتجلى فى مجده على عرشه».

السيقان: «هذا الذى يجدد العمائر».

الحورس النهبى: «الذى يُسعد القطرين».

ملك مصر العليا ومصر السفلى: «لتخضر صيرورة رع».

[ابن روع]: «كامس، له الحياة، محبوب آمون - روع، رب عروش القطرين، مثل روع للزمن اللانهائى والزمن الأبدى».

كامس، الملك القوى القائم فى طيبة، الملك الخير المعطاء، إن روع ذاته قد نصبه ملكاً، ومن أجله حقاً، أعاد الإخضرار إلى النصر.

المجلس المرمي الأول

تحدث صاحب الجلالة فى قصره إلى مجلس كبار حاشيته قائلاً: «إن قوتى سوف تظهر نفسها. إن أميراً يقيم فى أواريس وآخر فى بلاد كوش، فآسيويًا وزنجياً يشاركانى مقعدى. كل واحد منهما يمتلك قسمًا من مصر^(٤٩) فيتقاسمان معى البلاد... انظروا إن (أهوى) فى هرموبوليس. ولا يستطيع كائن من كان، أن يستريح مسترخياً بسبب استعباد الآسيويين له. أما أنا فسوف أخوض المعارك ضده وأسحق جسده، فما أتوق إليه هو تخليص مصر والقضاء على الآسيويين».

هنا تحدث كبار مجلسه قائلين: «انظر لقد تقدم (؟) الآسيويون حتى القوصية^(٥٠) وأخرج جميعهم ألسنتهم^(٥١)؟). أما نحن، فنعيش فى سلام (حرفياً: «نحن نعيش حياة رطبة»^(٥٢)) وشئون مصر هى مسئوليتنا. إلفتين قوية، وقلب البلاد ملكنا حتى القوصية. إن أكثر حقوقهم خصوصية تُحرث من أجلا. إن ماشيتنا ترعى فى مستنقعات البردى. والعلس يلقى به إلى خنازيرنا ولا يستولى أحد على قطعاننا... إن (أهوى) يمتلك بلاد الآسيويين ونحن نمتلك مصر. ولكن كائنًا من كان، سوف يأتى ويقترب منا وينشط ضدنا، عندئذ سوف نلجأ إلى العمل ضده».

هذا الحديث الحذر الهيب الذى جمع على لسان واحد رجال البلاط، لم يكن من المنتظر أن يلقى أذاناً صاغية من كامس الثابت الجنان الواسع الذراع الشاكي السلاح.

(*) تعبيراً عن الاحتقار، كما تفعل أو تقول الآن. (المترجم)

ونفر قلب صاحب الجلالة من هذا الحديث البغيض: «أما عن نصائحكم....
[فسوف أقاتل] الآسيويين وهكذا يعود الإزدهار... [وتستقبلني بالهتاف] البلاد
بأسرها، أنا الأمير المنتصر في طيبة، أنا كأمس حامى مصر وصانئها.

معركة نفروسي^(٥٢)

عندئذ أبحرت في النهر كرجل قوى للقضاء على الآسيويين، تنفيذاً لأوامر
أمون، الإله صاحب المشورات الصائبة. إن جيشى الباسل أمامى مثل وهج اللهب.
ورماة السهام من فرقة المجاهد^(٥٣) فى أعلى الأسوار^(٥٤) ليسدوا السهام إلى
الآسيويين، وطردهم من أماكن إقامتهم. إن الشرق والغرب يجلبان الزيت عجم^(٥٥)، ويتم
امداد الجيش بما يحتاجه من طعام فى كل مكان. وأرسلت رماة السهام الأشداء من
فرقة المجاهد، فى حين توقفت لحظة، فى محاولة لابعاد تيتى بن بيبى إلى داخل المدينة
(لا شك أنه كان حليفاً مصرياً للهكسوس متعاوناً مع العدو). ولم أمكّنه من الفرار.
ودهرت أيضاً الآسيويين الذين زحفوا فى اتجاه مصر (ولا شك أن النجدات قد
وصلت من أواريس)... عندئذ قضيت الليل على متن سفينتى، سعيد القلب.

وعندما ابيضت الأرض - (عند الفجر) - انقضضت عليه كما ينقض الصقر،
وعندما حلت ساعة تناول طعام إفطار الصباح، صرعت ودمرت سوره ونبتعت أتباعه،
ودفعت زوجته إلى النزول إلى شاطئ النهر. وجنود جيشى كانوا أشبه بالأسد التى
تحمل صيدها، بينما كانوا يسوقون الخدم والماشية ويحملون اللبن والزيت عجم
والعسل ويتقاسمون الغنائم، سعداء القلب. وهكذا استسلمت مدينة نفروسي....

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: محمد عبد الحميد شيمى: العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة،
ترجمة: ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع المركز الفرنسى للثقافة والتعاون.
٢٠٠٥، ص: ١٩٦-١٩٧. (المترجم)

هكذا انتهت أولى حملات كامس بإحراز النصر على مدينة نفروسي ومنطقتها التي كانت تمتد إليها سلطة الهكسوس. إنه أول تقهقر تكبده الآسيويون. كان أمون الكرنك يقود منذ ذلك الزمن الهجوم المضاد.

ويكشف هذا النص عن صور واستعارات جديدة ذات أبعاد حربية: ومنها الملك - الصقر والجنود - الأسد والجيش - اللهب الحارق. كل ذلك في إطار تألف عظيم لقوى الكون من حول شخص الملك. إن أيديولوجية جديدة ترى النور إنطلاقاً من طيبة وسوف تتطور على مدار الأسرة الثامنة عشرة ولا سيما في عهد الملوك الرعامسة^(٥٤).

لوح الكرنك^(٥٥) الثاني^(٥٥)

جاءت عواقب هزيمة نفروسي قاصمة لظهر أبوهي الذي فرّ على ما يبدو إلى عاصمته أواريس.

التقرير الوارد من مدينتك غير سار. لقد ابتعدت الآن - (لقد هربت) - إلى جانب جيشك. إن خطابك غث، عندما تجعلني أميراً بينما تريد أن تكون زعيماً ملكياً، مدعياً امتلاك ما اقتصبت، الأمر الذي سيؤدى إلى الإطاحة بك. سوف يشهد ظهرك هزيمتك، لأن جيشي من خلفك، ونساء أواريس لن يحملن أبداً، وشهواتهن لن تنتشر في أبدانهن، عند سماع صيحة حرب جلاقتي.

كامس يبحر في النيل حتى أواريس

لقد رسوت عند بر - جد - كن^(٥٦). سعيد القلب، لأننى جعلت أبوهي يعيش لهظة يائسة، وهو أمير ريقنوا^(٥٧). بسامديه الواهنتين، فيتخيل في قلبه أنه يقوم بأفعال باسلة، لا وجود لها إلا في نظره. ووصلت إلى إينيت - نت - خنت^(٥٨). وابتحرت حتى

(*) من مقتنيات متحف الأقصر. (المترجم)

المدينة لسؤال أهلها. وجمعت بعد ذلك السفن الواحدة خلف الأخرى، وقياداً (إحداها) على كوثل (السفينة السابقة). كان جنودى الأكثر بسالة يطيرون فوق النهر كما الصقر. وسفينتى الذهبية أمامهم، ومثل الصقر كنت فى مقدمتهم.

وتصرفت بحيث تتقدم سفينة الحماية حتى تخوم الصحراء ومن خلفه كانت سفن الأسطول (حرفياً: المزدهرة) تشبه النسور التى تشق مستنقعات أواريس. بل وكنت أشاهد النساء فى أعلى قصره يتفحصن الشواطئ من خلال المزاغل. كانت أجسادهن ثابتة لا تتحرك لأنهن كن يروئننى، بينما ينظرن بأرنبة أنفهن من أعلى أسوارهن^(٥٩)، مثل الفئران الصغيرة فى جحورها. وكُن يقُلن: «إنه هجوم».

أولى معارك أواريس

انظر، لقد حضرت مع حسن الطالع، وبقيّة (البلاد) معى. إن عملى له الدوام. وكما أن أمون الصنديد مزدهر فى الحقيقة^(٦٠) فلن أتركك هناك وأسمع لك أن تطأ حقولنا بقدميك إلا وأنا معك. لقد خار قلبك ووهن، أيها الآسيوى الفخسيس! انظر سوف أشرب نبيذ مزارع كرومك الذى سيعصره من أجلى الآسيويون الذين أسرتهم. سوف أدك مقر إقامتك دكاً (حرفياً: سوف أحرثه) وأقطع أشجارك وأضع يدي^(٦١) على نساك لأنقلهن على متن سفنى واستولى على مركباتك.

وإذا كان النصر حقيقة لا يخامرها أدنى شك، بالنظر إلى ضخامة الغنائم التى تم الإستيلاء عليها ولينتم حصرها بالتفصيل فيما بعد، إلا أنه لم يرد أى توضيح يبين طبيعة هذا النصر.

الغنائم

إن أترك مجرد لوح خشبى واحد لمئات السفن المصنوعة من خشب الأرز الناضر، وتحتوى كل ما كانوا يمتلكونه من ذهب ولازورد وفضة وقيروز وبلطات برونزية لا حصر لها، زد على ذلك الزيت والبخور والحيوب والعسل والخشب النفيس،

فضلاً عن كل منتجات الرقيق الطبية. لقد استوليت على كل شيء ولم أترك مكاناً إلا وتركة خاوية.

أيها الأسويى، لقد قُضِيَ عليك (من الآن)، ووهن قلبك، أيها الأسويى الخسيس كنت تقول: «أنا سيد، فلا وجود لنظيرى حتى هرموبوليس وحتى پر-حتحور»^(١١)، (ولا ممن كانوا يأتون بالجزية) إلى أواريس بين نهريها^(١٢). لقد تركتهم فى كُرب. فلم يعد هناك الآن أحد. لقد دمرت مدنهم، لقد أضربت النار فى مقار إقامتهم التى صارت تلالاً حمراء للزمن اللانهائى، بسبب الأضرار التى ألحقتها بمصر بعد أن وضعت نفسها فى خدمة الأسويين عندما اغتصبوا سيبتهم مصر.

تقدم بقية النص تفاصيل جلية الفائدة عن الأحداث التى تلت أول معركة مظفرة خاضها كامس ضد الهكسوس. عندئذ سعى أبويى إلى عقد تحالف مع ملك كوش الذى كانت سلطاته تشمل آنذاك النوبة بأسرها بل ويبدو أنها كانت تمتد حتى إلفنتين عند حدود الأرض المصرية ذاتها التى وقعت بالتالى بين فكي كماشة «الأسويى والزنجى». كان فى وسع الملكين أن يتصلا بسهولة إلى حد ما، إذا سلكا الدروب التى تبدأ من مصر الوسطى لتنتهى عند واحات الصحراء الغربية ولا سيما الواحات البحرية، ثم الإتجاه جنوباً عبر دروب أخرى فى الرمال وصولاً إلى كوش. لقد استنجد أبويى بملك كوش وهو ما يشهد عليه النص المذكور فيما يلى. فلوقد إليه رسولاً يحمل رسالة، نجح كامس فى الاستيلاء عليها قبل أن تصل إلى مقصدها. وبالنسبة لنا فمن العناصر الهامة التى وردت فى هذه الرسالة الإشارة الواضحة إلى حملة عسكرية سابقة كان قد خاضها كامس فى الجنوب، الأمر الذى يتفق كل الاتفاق مع خط سياسة ملوك الإمبراطورية ألا وهو تأمين الحدود الجنوبية قبل الهجوم على الشمال. ولم تصلنا أى شواهد عن هذه الحملة سوى مخريشتين محفورتين على صخور النهر قرب توشكا، إلى الشمال قليلاً من الجندل الثانى وتذكران اسم كامس. وهكذا تحدد هذه المدونة المقتضبة، أقصى ما وصل إليه تقدم أمير طيبة، فى غمار حملته ضد الجنوب، وكان شرطاً لا مفاص منه قبل الهجوم المباشر على ملك الهكسوس.

أيوبي وملك كوش

ووضعت يدي على رسالته المكتوبة، إلى الجنوب من الواحة، على الطريق المؤدى إلى كوش. واكتشفت هذه الكلمات التي كتبها أمير أواريس:

«(من) عا أوسر رع، ابن رع أيوبي - أرسل تحياتي إلى ابني^(٦٣) أمير كوش. كيف حدث أن نصبت نفسك أميراً دون أن تحيطني علماً بذلك؟ هل علمت ما فعلته مصر بي؟ إن الأمير المقيم فيها، كامس - القوي، له الحياة، قد شن عدواناً شرساً على أراضى - رغم أنني لم أهاجمه - تماماً كما فعل معك. لقد اختار القطران^(٦٤) لتدميرهما، قمارى وقطرك، وعاث فيهما تخريباً. تعال إذن، أبحر في اتجاه الشمال ولا تخشى شيئاً، لأنه هنا معى في الوقت الراهن ولا أحد ينتظر في مصر (المقصود إذن هجوم مباغت) وإن سمح له على كل حال أن يبتعد طالما لم تصل. «بعد ذلك سوف نتقاسم مدن مصر. ومنطقة خنت - إن نفر^(٦٥) ستتلهل فرحاً وسعادة».

انتصار كامس التكتيكي

(أنا) واج خپر رع^(٦٥)، القوي، له الحياة، المتحكم في الأحداث:

لقد أخضعت لسلطتي الصحارى وقيدام الأراضى^(٦٦) والأنهار أيضاً. طريق الهزيمة لم أعرفه، لأننى لم أعمل جيشى أبداً. ولم يعرض وجه رجل الشمال (أيوبي) عنى ولكنه كان يخافنى في الواقع بينما كنت أبحر في النهر وقبل أن تستعر الحرب بيننا. وقبل أن ألحق به، أحسّ بأنفاسى الملهبة فأرسل (رسولاً) إلى بلاد كوش طلباً للحماية. ولكننى استوقفته ولم أسمح له بالوصول إلى مقصده. بل أمرت بالإمساك به ليعود أدراجه، وانزله جهة الشرق عند أطفيع^(٦٧).

عندئذ نفذت قوتى إلى قلبه وارتعد قلبه عندما أبلغه رسوله ما فعلته على أرض إقليم الكاب الذى كان لا يزال جزءاً من ممتلكاته. وبعد ذلك أرسلت فرقة من البواسل كانت عندئذ بعيدة جداً، وقامت باجتياح الواحات البحرية فيما كنت متواجداً في

(*) لقب كامس. (المترجم)

ساكا^(٦٨)، لتفادي أى هجوم يشنه العدو على مؤخرة قواتى. ثم أبحرت هابطاً فى النهر وقلبى قوى وسعيد، وقتلت كل متمرّد صادفته فى طريقى.

العودة المظفرة

ما أسعد الإبحار فى اتجاه الجنوب بالنسبة للأمير الذى يتقدمه جنود جيشه. لم يتكبّد أية خسارة، لم يستفسر أحد عن رفيقه، وقلوبهم لم تكن محزونة. كان يبحر على مهل فى اتجاه إقليم المدينة فى فترة فصل الفيضان. كان كل وجه وضاً وتفيض البلاد بالخيرات وشطآن النهر ترقص^(٦٩) و طيبة فى عيد. النساء والرجال كانوا يتقدمون لمشاهدتى وكل زوجة تعانق رفيقها، وما من وجه تذرف عينيه الدمع. كنت أحرق البخور من أجل آمون داخل قدس الأقداس، فى المكان الذى يقال عنه «تقبّل كل ما لذّ وطاب». لأن ساعده كان قد أعطى حسام قدرته لابنه الملك، له الدوام: واج خير رع، ابن رع: كامس - القوى، له الحياة والثبات والقوة، فقلبه مسرور مع كانه، مثل رع، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى.

إحياء ذكرى النصر

فأصدر صاحب الجلالة أمره إلى نيشى الشجاع، الشريف والأمير والمسئول عن الشئون السرية فى القصر الملكى ورئيس البلاد بأسرها وخازن ملك مصر السفلى^(٧٠)، وقائد القطرين وأول رجال البلاط ورئيس الخزنة (أمره قائلاً): «أطالبك أن تسجّل على لوح حجرى كل ما أنجزه جلالتي ببسالة وأن يقام فى الكرنك و طيبة للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى». وقال (نيشى) فى حضرة صاحب الجلالة: «سأفعل طبقاً لما أمرتنى به». وأثنى عليه الملك إكراماً له.

هكذا وبعد انقضاء ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة فإن ماثر كامس الذى عقد العزم على تحرير البلاد من سطوة الأجنبي لتستعيد مصر هيبتها وشرف منزلتها - ما زالت هذه الماثر - حية تغالب الأيام.

كما كان ملكاً نافذ البصيرة ثاقب الفكر. فلما أراد أن يؤكد انتصاره على الجنوب أصبح كامس على ما يبدو أول من نصب «ابنًا ملكيًا» لمناطق الجنوب واختار تيتي لهذه المهمة. والشاهد على ذلك مخريشتا قوشكا. هكذا استعادت مصر سيادتها على النوبة.

إننا لا نعرف شيئاً عن الأحداث التي تشير إلى نهاية عهد كامس. ولكن من المرجح أن المنية قد باغته، فأمره قبل الإنتهاء من إعداد مقبرته التي كانت لا تزال سالمة في عهد رعمسيس التاسع، استناداً إلى ما ورد في بردية أبوت^١ Abbott. ولكن في تاريخ لاحق، وللحفاظ على الجسد من انتهاك حرمة، نقل التابوت من المقبرة ليوارى في الأنقاض المجاورة. وقد تم الكشف عنه عام ١٨٥٧ ولم يفتصبه أحد، ولكنه كان في حالة سيئة من الحفظ. وعثر بجوار جسد الملك على بعض المصوغات والمتعلقات الشخصية. وتحمل قطعة على اسم أحمس أخى كامس وخليفته والذي وقعت على عاتقه مهمة دفنه. وتحمل الملك الجديد مسئولية مواصلة تحرير مصر وإعادة النظام الملكى الفرعونى إلى سابق عهده. لقد أصبحنا الآن قرب العام ١٥٨٠ ق.م.

٣- أحمس

وإعادة سلطة الفراعنة إلى سابق عهدها

طرد الهكسوس

النصوص التي تروى حملات أحمس ضد الهكسوس قليلة. والمصدر الرئيسى هو السيرة الذاتية لأحد ضباطه واسمه أحمس بن أبلنا وقد نقش على جدران مقبرته الصخرية فى الكاب جنوب طيبة^(*). الجزء الأول ويضم واحد وثلاثين سطراً دون على الجدار الأيمن من ردهة المدخل ودون الجزء الثانى وهو عبارة عن ثمانية أسطر على الجدار القائم مباشرة على يسار المدخل.

(*) وشمال إيفو على وجه التحديد. (المترجم)

يقول قائد البحارة أحمر بن أبانا، الصادق القول: إنى أحتكم أنتم أيا جميع البشر. سوف أحيطكم علماً بالإنعامات التي كانت من نصيبى. فبحضور البلاد بأسرها كوفئت بالذهب سبع مرات^(٧٨)، فضلاً عن الخدم والخادما^(٧٩). كما مُنحت قطع أرض تفوق الحصر. فسمعة الرجل تعتمد على ما قام به من أفعال، وإن تزول أبداً فى هذا البلد.

كما قال ما يلى: لقد ترعرعت فى مدينة الكاب. كان والدى قائداً (فى جيش) سقن رع صادق - القول، ملك مصر العليا ومصر السفلى. كان اسمه بابا بن رعنت. وأخذت مكانه قائداً على متن السفينة (المسماة) «الثور المحارب»، فى زمن رب القطرين نب. پحتى - رع^(٨٠). صادق القول. كنت لا أزال حدثاً ولم اتخذ لنفسى زوجة وما زلت أنام بثياب الصبا.

وبعد أن أسست منزلاً، وألحقت بأسطول الشمال نظراً لشجاعتى، كنت أرافق العامل الملكى على اليابسة، وألزمه فى نزفاته على متن مركبته. وضرب الحصار على مدينة أواريس^(٨١).

لم ينبس أحمر بن أبانا بكلمة واحدة عن تقدم الجيش من طيبة فى اتجاه الشمال أو عن مساره أو الخطة التى نفذها أحمر. ولكن حدث مؤخراً أن لفت عالم المصرىات البلجيكي كلود فاندرستويين Claude Vandersteyen انتباهنا إلى الملاحظات المدونة على ظهر بردية ريנד Rhind الرياضية، التى تعود نسختها إلى العام الثالث والثلاثين من عهد أبوبى^(٨٢). إن هذه الملاحظات سجلها بلا شك الكاتب الناسخ لحظة وقوع أحداث معاصرة مهمة تعود إلى العام الحادى عشر من عهد ملك، لم يذكر اسمه، هذه الملاحظات موزعة على ثلاثة أعمدة:

العمود الأول - الشهر الثانى من فصل الجفاف من العام الحادى عشر، الدخول إلى هليوبوليس.

العمود الثانى - (١) اليوم الثالث والعشرون من الشهر الأول من فصل الفيضان، الهجوم...

(٢) ما فى جنوب سيه

(٣) الثانى (....) يوم، وصل إلى مسامنا

(٤) الدخول إلى سيه

العمود الثالث - (١) (اليوم) الثالث من الشهر الأول من فصل الفيضان العام
الحادى عشر مواد ست.

(٢) صدر صوت عن جلالة هذا الإله (لقد نوى الرعد)

(٣) مواد إيزيس. لقد أمطرت السماء.

لا شك أن هذه العمليات قد جرت من نهاية شهر أبريل وحتى نهاية شهر يوليو.

وإذا كان من المرجح جداً أن العام الحادى عشر المقصود يعود إلى عهد
أحمس^(٧٦)، تصبح الفرضية السديدة التى ساقها فانديرسليين Vandersleyen
على النحو الآتى: «إن سرعة التقدم البرى التى تشير إليها السيرة الذاتية للقائد
أحمس بن أبانا لا يقصد بها تهديداً سوى فتح هليوبوليس وسيله» - ثارو بالمصرية
القديمة والقنطرة حالياً، «إن باغت الملك العدو بالإستيلاء على سيله فقد استطاع أن
يفصل أواريس عن مؤخرتها الآسيوية. وعندما بلغ خبر الإستيلاء على سيله على
مسمع الكاتب، لم يكن الأمر سوى خطوة إلى الأمام فى سلسلة العمليات الهادفة إلى
محاصرة أواريس، وإن كانت الأكثر جسارة بالنظر إلى بعدها عن قواعد القوات
المصرية، وربما الأكثر إلحاحاً أيضاً لأنها كانت تقطع على الفور الطريق إلى المنطقة
المطلوب محاصرتها. إن الاستراتيجية المطبقة فى هذا المجال واضحة كل الوضوح
فورود اسم سيله مباشرة بعد اسم هليوبوليس يؤكد عدم الإستيلاء على أى تجمع
سكانى هام فيما بين المدينتين، سواء كانت منف أو أواريس؛ فقد استطاع الملك أن
يسلك طريق وادى الطميلات حتى بحيرة التمساح لينحرف هنا فجأة فى اتجاه
الشمال».

إن المسافة التى تفصل هليوبوليس عن سيله تصل إلى حوالى ١٥٠ كم،
استطاع أحمس أن يقطعها هكذا مخترقاً الصحراء، ليتربط على هول المفاجأ أبلغ
تأثير. إن بعض العلامات المبشرة كالرعد والأمطار قد مهتت لكبرى الأحداث المرتقبة.
إنه الأسلوب الذى تختاره دائماً الآلهة لإبلاغ البشر.

ولا شك أن حصار أواريس التى تحصن الهكسوس بداخلها قد استمر لفترة
طويلة، دون أن نستطيع تحديدها على وجه الدقة. ويتحدث أحمس بن أبانا فى سيرته

الذاتية عن العديد من الإشتباكات مع العدو على اليابسة وعلى صفحة مياه الترع والقنوات المحيطة بالمدينة. بل اضطر بعد الإشتباك الثالث أن يقاتل إلى «الجنوب» ليتصدى على ما يظن لهجوم على مؤخرة الجيش الملكي وجناحيه.

ضُرب الحصار على مدينة أوّريس. وأُتيحت لى الفرصة لأبرهن على بسالتي على الأرض فى حضرة صاحب الجلالة. ثم رُقيت على السفينة «تلك التى تتألق فى منقب» وعندئذ دارت المعركة على صفحة الماء فى القناة پا - جد - كو عند أوّريس. وحصلت على غنائم. وعُدت بيد^(٧٧) وأُبلغ الحاجب الملكى بهذه الواقعة ونلت ذهب البسالة. ثم دارت المعركة من جديد فى هذا المكان وحصلت أيضاً على بعض الغنائم. فُعدت بيد ومنعت من جديد ذهب البسالة.

بعد ذلك، كان علينا أن نقاتل فى مصر إلى الجنوب من هذه المدينة. ومن هناك، عدت بأسير رجل. ونزلت إلى الماء. انظروا لقد جئت به وكأنه مغمم ربحته على الطريق إلى المدينة^(٧٨). وعبرت الماء بينما كنت أحمله وتم ابلاغ الحاجب الملكى بما حدث. عندئذ كوفئت مرة أخرى بالذهب.

ثم تم الاستيلاء على أوّريس. وأحضرت معى أسرى: رجالاً وثلاث نساء. فكان المجموع أربعة رؤوس. وقدمهم إلى صاحب الجلالة خدماً.

هكذا كان الهكسوس قد طردوا من مصر.

جنود الإمبراطورية

وإذ تحلى أحمس بالفطنة والحكمة فقد طارد الأسىويين المهزومين حتى مدينة شاروهين فى أرض كنعان. ولا شك أنها بلدة تل القرعة الحالية إلى الجنوب من غزة وعلى خط عرض بئر سبع تقريباً.

يقول أحمس بن أبانا:

وضُرب الحصار على شاروهين لمدة ثلاث سنوات. وفى نهاية المطاف استولى

عليها صاحب الجلالة. ومن هناك أيضاً عدت بالمقاتل: امرأتين ويد. ومنحت من جديد ذهب البسالة في حين أعطيت الأسرى خدماً.

وزحف الجيش الملكي في اتجاه الشمال لتأمين حدود مصر الشمالية الشرقية تأميناً قاطعاً واستعادة بلا شك هيمنتها القديمة على الموانئ الفينيقية. وفي السيرة الذاتية لأحد ضباط أحمر الآخرين وهو أحمر - بن - نخيت، وكانت الكاب موطنه الأصلي أيضاً يقال ما يلي:

لقد تبعت نب - پحتي - رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. ومن أجله أسرت في بلاد جاهي (٧٩) رجلاً ويداً (٨٠).

لقد ذهب أحمر إلى فينقيا ولكن لا يسعنا أن نؤكد أيضاً أنه وصل إلى نهر الفرات (٩) الحد الشمالي المثالي للقاتل المصريين.

ومن الآن فصاعداً سيلجأ الفراعنة مرغمين، إذا صح القول، إلى «الخروج» من الأطر السياسية القديمة المحصورة في الوادي. فن تنطلق الحملات العسكرية من الآن لأغراض إقتصادية فقط ولكنها ستضع الآن نصب عينها تأمين حماية مصر، بفضل إحاطتها بحزام من البلدان الخاضعة لهيمنتها وما يشبه الدول العازلة والحاجزة التي سوف تقوم بحمايتها من الغزوات الأجنبية التي كانت خربتها في الماضي القريب. وسوف يضطر فلاحو ضفاف نهر النيل أن يصبحوا جنوداً، وستتحول المملكة إلى إمبراطورية شاسعة.

كان كامس قد استمداد هيمنة مصر على الأراضي الإفريقية في الجنوب. ولكن اندلاع الثورات اضطرت أحمر في أعقاب حملاته السورية - حول العام الخامس عشر من عهده - أن يصعد النهر في اتجاه النوبة والسودان. ويروي هذه الأحداث أحمر بن أبانا رفيق السلاح الوفى:

بعد أن أباد جلالته بنو آسيا، صعد النهر في اتجاه خنت - إن - نفر، للقضاء على النوبيين. وقتل عدداً كبيراً منهم (أما أنا) فقد حملت معي من هنا مغنماً: رجلين على قيد الحياة وثلاث أباد. ومن جديد منحت الذهب مكافأة لي وسلمت لي امرأتين. عندئذ هبط صاحب الجلالة النهر متجهاً ناحية الشمال، وكان قلبه سعيداً، عن قدرة وقوة، لأنه فتح بلاد الجنوب وبلاد الشمال.

عندئذ اتجه آتا إلى الجنوب (من مصر). وهكذا كان مصيره يقترب من نهايته. فأمسكت به آلهة مصر العليا. والتقى به صاحب الجلالة عند تفت - تاغا - مو(؟) واقتاده أسيراً، في حين تحول سائر شعبه إلى غنيمة. أما من جهتي، فقد أحضرت معي جنديين أسيرين أخفتهما من سفينة آتا. ومنحت خمسة رؤوس فضلاً عن قطع أرض في مدينتي، تعادل خمس أورورات(٥)، وعمل جميع البحارة بالمثل.

كما جاء عبو خمسيس اسمه تيتي - عن. كان قد جمع من حوله رجالاً قلوبهم شريرة. فقتله صاحب الجلالة وصارت قواته كأنها لم توجد قط. ومنحت ثلاثة رؤوس وهقولاً في مدينتي، مساحتها خمس أورورات.

كان العدو الأول هو آتا ولا ندرى إن كان هو اسم شخص أو لقب؟ ولكنه كان أجنبياً وربما نوبياً استناداً إلى علم أسماء الأعلام. أما الثاني وهو تيتي - عن (تيتي جميل) الذي يدل اسمه أنه مصري، فربما كان زعيماً أجنبياً متمصراً أراد إعادة إحتلال المنطقة المفقودة جنوب الجندل الأول أو كان بالأحرى مصرياً دبر مؤامرة ضد أحمس.

وأياً كان الأمر، فقد استعاد أحمس سيطرته على الأراضى الجنوبية وإن لم يتجاوز بلا شك مدينة بوهن. فرمّم تحصينات المدينة وأعادها إلى سابق عهدها، فأصبحت بوهن عاصمة حقيقية لهذه المنطقة يدبر شئونها حاكم. وقام أحمس بتعيين تورع في هذا المنصب الذي سيتحول في عهد أمنحوتب الأول - خليفة أحمس - إلى منصب «الابن الملكي ورئيس بلدان الجنوب». إن هذه الوظيفة الرفيعة وهى باختصار منصب «نائب - الملك» كان يشغلها آنذاك جهوتي الذي خلف تيتي. (راجع مخربشات توشكا السابق ذكرها).

(*) المقابل اليوناني للاسم المصري القديم سثات الذي يعادل ٢٧٢٥ متراً مربعاً أو أكثر من نصف فدان بقليل. (المترجم)

أحمس، ملكاً وإدارياً

يعتبر أحمس مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

وفي مصر ذاتها كان الأمر يحتاج إلى عمل ضخم لإعادة توحيدها وتنظيمها.

كان لابد من مواجهة السلطات المحلية لحكام الأقاليم بعد أن تحولوا إلى أسرات حاكمة حقيقية والعمل على إبعادهم من الآن، في الإطار الأكثر رحابة لسلطة مركزية واحدة. وتحقيقاً لهذا الهدف يبدو أن أحمس قد استبدل بعض خدامه الأوفياء بعدد من حكام الأقاليم المشكوك في ولائهم^(*) أو ثبت في مناصبهم من مدو له يد العين، ولكن عن هذا الموضوع لم يصلنا سوى غيض من فيض.

يمكن أن نتصور أن أحمس عندما عقد العزم على إعادة الازدهار إلى الاقتصاد المصري شرع تحديداً في تطهير القنوات والترع القائمة، وشق الجديد منها، وهو تصور لا يجافي الحقيقة. ولا شك أنه ليس مجرد صدفة، أن المقابر الثلاث التي تم الكشف عنها في جبانة طيبة وأصحابها من موظفي أحمس، كانت اثنتان منها «المشرفين على مخازن الغلال» حري و نخت. كما نشطت التجارة نشاطاً ملحوظاً. ومن جديد وصلت إلى مصر المواد النفيسة القادمة من البلدان الأجنبية. وفي العام ٢٢ من عهده، ويفضل جهود الخازن نفر پرت وبحضور الملك والملكة أحمس - نفرتاري، أعيد فتح محاجر المعصرة قرب طرة، وقبالة منف:

أعيد استخراج الحجر الجيري الجميل من أجل معابده (أي معابد أحمس) لملايين السنين، ومن أجل معبد يتاح في منف والمعبد الجميل في الكرنك - معبد آمون - وكل ما شيده صاحب الجلالة^(٨١).

والشاهد على هذا النشاط، اللوحان الصخريان اللذان عثر عليهما في المحاجر ذاتها، كما أمر أحمس بلا شك بفتح محجر جديد للأبستر في موقع بهيرة على البر الشرقي من نهر النيل إلى الجنوب من أسيوط. وبالفعل فقد وجد اسم أحمس - نفرتاري مذكوراً فيه.

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، والصواب أن الباء تدخل على المتروك. (الترجم)

ونلتمس هذا الإنتعاش الإقتصادي، على نحو خاص، في كبرى المشاريع الإنشائية التي نفذها أحمس سواء في بوهن أو الكرنك أو هرموتيس أو أبيدوس أو منف. وفي الكرنك شيدَ معبد على مقربة من معبد آمون-رع. كانت جدرانها من الحجر والأساطين والسقف والأرضية من خشب الأرز. وفي القسم الجنوبي من الجبانة بأبيدوس أقيمت مبانٍ شُيّدت أساساً من الطوب، ومنها ضريحان تذكاريان أحدهما من أجله، أما الآخر فمن أجل جدته تيتي-شيري والدة الأمير سقن-رع تاعا والتي كانت لا تزال على قيد الحياة.

وفي عام ١٩١٣ أخرج عالم المصريات الفرنسي ليجران Legrain إلى النور، لوحاً كبيراً من الحجر الجيري^(٨٧) يحمل اسم أحمس، تم الكشف عنه قرب المصرح الثامن في الكرنك الذي شيده تحوتمس الثالث وكان أمنحوتب الرابع قد دفنه في هذا المكان. يتكون النص من ٣٢ سطراً وهو عبارة عن نشيد عظيم من أجل الملك الجديد، إنه قصيدة طويلة غنائية الأسلوب، نُظمت للإشادة بالازدهار الذي عمّ البلاد، مع عودة النظام الملكي، إنه أنشودة حقيقية تتغنى بالتحديد.

الحورس : صاحب الصيغرات المهيبة.

السيدتان : صاحب^(٨) النهضة الجبيلة.

الحورس الذهبي: الذي يربط الأرضين.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب-پحتي-رع (أي: رع هو رب القوة).

ابن رع: محبوبه، أحمس، الهى إلى أبد الأبد.

إنه ابن آمون-رع، فهو من جسده ومحبوبه ووريثه، فقد وهبه عرشه.

الإله الكامل في الحقيقة، القوى الساعد، الذي لا يعرف الكذب. إن ما يفعله مهيئاً على غرار رع.

إنه ابن جب ووريثه المنتصر في بهجة وسرور.

(٨) الإشارة هنا إلى الملك. (المترجم)

إنه من نرية رع الذى خلقه.

الحامى، فالإله ينسب كل ما على سطح الأرض، إلى الملك النورانى، رب الفرح،
فما برح يعطى الأنفاس لأنوف النساء، ويهب الحياة بلا انقطاع، ويقيم الحقيقة والعدل
للأمد الطويل.

ملك الملوك فى سائر البلدان، العامل الملكى الذى ربط الشاطئين، وأتى بالعُجب
العجاب. قديرة هى تجلياته بالقوة. إنها تدفع كل من يجلّون الآلهة المفعمة بالحياة
والقوة، إلى الإحناء.

إنه الأول فى السماء والثانى على الأرض، فبهاؤه يخلق النور. إنه محبوب
أمون. إن منصبه مضمون للأمد الطويل مثل منصب الإله - صاحب - الوجه - الجميل
(أى: پتاح)، إنه رب السنين، وشبيه رع فى جلالة، والذى يسمح له الإله بأن يعرف
معبده.

إنه عيد جميع الآلهة، وملك الجنوب فى به، وأمير الشمال فى البلاد المحبوب^(٨٢)،
وعمود المساء ودفة [الأرض]، فيُسَيَّرُ شئون كل ما يحيط به القرص، لقد استقر التاج
الأبيض والتاج الأحمر فى ثبات على رأسه، إن نصيبى هورس وست خاضعان
لسلطانه.

لقد تجلّى متألّفاً وجميلاً منذ طفولته، وكانت كل ساعة من ساعاته رائعة، إلى
أن نال التاج العظيم، رافعاً الريشتين عالياً، فى حين أن قدرة الصلبن (تلو) وجهه،
مثل قدرة هورس بعد أن تولى زعامة الأرضين.

أيها العامل الملكى الذى استمال التجليات فى مجدها فى خُميس^(٨٣)، يا رب
عمليات الشروق المتناقّة، أيا هورس إن العب الذى من وحيك، يغالب الأيام. فالإله
يسعى أهل الجنوب وأهل الشمال وأهل الشرق وأهل الغرب. إنه سيد رابط الجأش.
ثابتة هى أرضاه، بعد أن تسلم ميراثه من الذى انجبه، (تسلّم) القطرين. والشعوب
التي أجبرها على الهروب أعطيت له، من قبل والده المعظم.

لقد أخذ الدخميمات، بقبضة يده وأمسك الدرخيت، فى حين يمتدحه الدپعت»

مهللين^(٨٥). وكل امرئ يقول: إنه سيدنا. ويقول المحلو- نبيوت: نحن من أتباعه. وتقول الأراضى: نحن ملك له.

إنه الملك الذى سلمه رع السلطة وعظمه آمون. إنهما يعطيانه دفعة واحدة، الشيطان والأراضى التى يسطع عليها رع. ويتقدم الأجانب معاً مذعورين ليظلوا واقفين أمام ساحة عدالته. إن سيفه المسنون فى خفت- إن- نفر، وصيحته - صيحة الحرب فى بلاد الفينقيين، إن الخوف الذى يثيره صاحب الجلالة هو فى هذه البلاد أشبه بالذى ينشره الإله معن، سنة وصوله، عندئذ يحضرون هدايا جميلة محملين بالجزية التى تقدم للملك.

وعندما يظهر [...] فهو كالقمر وسط النجوم. ساعده جميل عندما يتقدم، وخطاه سعيدة وقدماه ثابتتان ونعلاه سريعان فى حركتهما. إنه الشكل المقدس الذى يحطّ عليه رع. إن آمون هو حمايته، ووالده المعظم الذى ما برح يحبه، بينما يرسم له دروبه.

الشاطنات يقولان: وأهّا! ليتنا نراه! الشعب بأسره مفعم بالحب الذى يحرّكه فى النفوس، والعيون منبهرة عند مشاهدة هذا العامل الملكى، والقلوب تُسرّع نغموه. ونشاهده على غرار رع عندما يشرق، أشبه بتوهج القرص، مثل خيبرى عندما يظهر متألقاً للناظر إليه. إن أشعته فى الوجوه مثل أشعة أتوم فى شرق السماء. والنعائم ترقص فى الوديان، هكذا تفعل عندما يسطع الإله النورانى فى كبد النهار وجميع الأفاعى اتقدت ناراً.

إنه الملك المتفرد الذى تعبد سوتيس^(٨٦) وتبجله سيشات^(٨٧). إن هيبه تحوت إلى جواره، (تحوت) الذى يمدد بالمعرفة. إنه يرشد الكتبة إلى الحسابات الصائبة، إنه الساحر العظيم، إنه مالك الحب أكثر من أى ملك (آخر)، إنه محبوب حورس ورع. إنه

(٥) نجمة الشّورى اليمانية وسيبخت عند المصريين القدماء. وهى أيضاً إلهة. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابييل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. ص ١٨٢-١٨٤. (الترجم)

يتصرف بحيث تتفانى من أجله القلوب المفعمة بالتهليل والتهنئات، فى حين تظل رغبات الثناء والمدح فى الأبدان.

اسمعوا أيا يعت وحضيمت ورخت، أيا جميع أهل (مصر). اتبعوا هذا الملك فى مساعيه، ضموا مجده إلى جوار غيره من البشر. تطهروا من أجل اسمه، كونوا أطهاراً من أجل حياته. انظروا، إنه إله فى هذه البلاد، حيّوه مثل رع، اعبدوه مثل القمر، إنه ملك مصر العليا ومصر السفلى: نپ - پحتى - رع، الحى إلى أبد الآباد، الذى ربط كافة البلدان الأجنبية.

الثناء أيضاً على سيدة البلاد التى تتسبب على شواطئ حاور نپوت، إن اسمها مرفوع فوق كل بلد من البلدان الأجنبية وتحدد مصير الجماهير. إنها الزوجة الملكية وأخت العامل الملكى وابنة الملك والوالدة الملكية المعظمة. إنها تمتلك المعرفة وتربط مصر وتحيط الجنود برعايتها وحمايتها، إنها تدفع الفارين أمامها إلى الإلتفات وراهم إنها تطوق البيوت(?) وتعيد الهدوء إلى مصر العليا وتحرر من تمرى عليها - إنها الزوجة الملكية مع حوتپ، لها الحياة!

كما أمر صاحب الجلالة بصنع ما يخلد ذكرى والده آمون - رع، ومنها: قلاند كبيرة من الذهب وسلاسل من اللآلئ الحقيقية وأختام من الذهب وأباريق من الذهب وزلع وأنية من الفضة ومذابح من الذهب وموائد قرابين من الذهب والفضة وقلاند مينات يختلط فيها الذهب والفضة بالآلئ واللآلئ والفيريز وإناء من الذهب للـ «كا» بقاعدة من الفضة وإناء من الفضة المموهة بالذهب، بقاعدة من الفضة، من أجل الـ «كا»، وطبق من الفضة وزلع من الجرانيت مملوءة بالأدمان وأطباق كبيرة من الفضة والذهب، مقابضها من الفضة وقيثارة من الأبنوس المكفّت بالذهب والفضة وتمثال من الفضة لأبو الهول وقاعدة تمثال (?) من الذهب. كما أمر جلالتي ببناء مركب ضخم ليشق مياه النهر ويكون اسمه «قوى - هو - قيدام - آمون». سوف يصنع من خشب الأرز، من أفضل أنواع لبنان، حتى تتم رحلته الأولى فى مطلع السنة... وسوف تقام السوارى أيضاً من خشب الأرز، وكذلك المقصورة والأرضية^(٨٧)...

وإذا كان هذا المقطع الأخير، على وجه التحديد، يؤكد أن مصر قد عرفت من الآن اقتصاداً مزدهراً، وإذا كان الملك قد أصبح من جديد العاهل الأوحى في ربوع الوادى وابن الآلهة وحامى الشعب، وإذا كان عالماً ومحبوياً ومهيّباً، شأنه شأن من سبقوه، فسوف تتعاظم هذه الصفات مع اعتلاء الرعامسة العرش، إلا أن عنصرين جديدين يبرزان هنا، ويسترعيان الإنتباه: تقصد بذلك إشراك الملكة فى إنتصار الملك والثراء الحديث العهد الذى حظى به آمون الكرنك.

السيدات الثلاث فى البلاط الملكى

كنّ ثلاثاً، ثلاث سيدات مرموقات وينتظر إحداهن مصيراً إلهياً، وعلى رأسهن تيتى - شيرى والدة سقن رع تاها وجدة الفرعون أحمس. ومن بعدها ابنتها عح - حوتب وأخت سقن رع تاها وزوجته ووالدة أحمس. وأخيراً أحمس - نفرتارى ابنة السابقة وأخت أحمس وزوجته.

وتأسيساً على ما سبق نلاحظ حقيقتين: فنجد من جهة أن أعداداً كبيرة من الأسماء سواء كانت مؤنثة أو مذكرة يدخل فى تركيبها اسم القمر. ونلاحظ من جهة أخرى، الأهمية المتعاظمة للنساء فى البلاط الملكى ومشاركتهن فى الإحتفالات الرسمية.

فتدخل كلمة «قمر» - عح - فى تركيب اسم أحمس^(*) أى «القمر ولّده» أو «ولّد القمر». فربما ولد الطفل يوم أحد الأعياد القمرية. وذلك بالإضافة إلى اسم عح حوتب أى «ليكن القمر راضياً» واسم أحمس - نفرتارى وهو اسم مركب يعنى «أحمس - جميلته». والأسماء التى تضم المقطع إعح - مع ملاحظة أنه ينطق عح عندما يقع فى أول الكلمة - كثيرة فى عائلة سقن رع - تاها. إنها الصياغة نفسها التى جاءت منها أسماء تحوتمس^(**) أى «تحوت ولّده» أو «ولّد تحوت». فقد كان تحوت فى مصر



(*) () التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم عح مس. (المترجم)

(**) () التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم حوتى مس. (المترجم)

«إلهًا - قمرًا» من الطراز الأول. هل نحن أمام برهان على وجود طقس عائلي؟ أو كان من الضروري دمج هذه الظاهرة في حركة روحية أكثر شمولاً؟


ففي العالم الآسيوي كانت الشعائر التي تقام من أجل «الإله - القمر» منتشرة على نطاق واسع منذ أزمنة موهلة في القدم. ففي بلاد سومر ساد تصور عن قصة خلق الكون، مفاده أنه قد ولد من البحر الأولي، في بادئ الأمر، جبل كوني يتكون من السماء (=أن) والأرض (=كي) اللذين أنجبا الإله الهواء - إليل - الذي فتقهما وفصل بينهما. ويقترب هذا النظر الذهني من مثيله في هليوبوليس. وانجب إليل القمر نانا الذي أصبح والد الشمس لوتو. ومن ثم فقد كان وجود القمر في عالم سومر، وهو إله مذكر، سابقاً على الشمس. ومع اختلافات محلية، يظل هذا النموذج شديد الشب في عالم بابل. وفي بلاد آشور كان يطلق على «الإله - القمر» اسم سين. وقد احتفظ تقويمها بذكرى الأعياد والمؤسسات البدائية التي تعود إلى زمن كان الملوك ما زالوا يسكنون الخيام: ونذكر على وجه التحديد «الشهر سين». كان «الإله - القمر» محل تبجيل وإجلال عظيمين من جانب البدو. وقد سبق أن ذكرنا^(٨٨) أن سيناء التي كانت أرضاً عاشت فيها القبائل حياة ترحال، استقر فيها بسرعة الإله المصري تحوت، فأنمجه بدو الصحراء، على ما يظن، في الإله - القمر المحلي الذي كانوا يعبدونه. وفي منطقة بلاد ما بين النهرين أيضاً كانت مدينة حرّان شرق الفرات وشمال شرق حلب إحدى أكبر المراكز الآسيوية المكرسة لعبادة القمر. وكانت من بين المدن التي توقف عندها النبي إبراهيم عند رحيله إلى مصر^(٨٩). وفي الأناضول أيضاً كان يُعبد القمر أرما. وكان الحوريون يعبدون كوكب الليل كوشوش^(٩٠).

ومن جراء كبرى عمليات تداخل الشعوب الناجمة عن الغزوات الهندوأوروبية في آسيا، ربما اختلعت الأفكار الدينية، وإن كانت متقاربة أصلاً كما لاحظنا. ومع أولى الفتوحات التي حققها أمراء مدينة الجنوب، عانوا بالأسرى الذين عملوا خدماً وبدأوا يفلحون حقول مصر. ومن الراجح أن هذه العبادات قد أثرت في الفكر المصري، فأمدت عبادة الكوكب مع والإله تحوت بحيوية جديدة تشهد عليها أسماء الأعلام المصرية.

وفى هذا الصدد تشدّد اهتمامنا جزئية بسيطة تتعلق برسم العلامات الهيروغليفية، وهو ما لاحظته فانديرسليين (Vandersleyen)^(٩١)؛ فبينما تُرسم العلامة الهيروغليفية الدالة على القمر فى المعتاد على النحو الآتى ، يلاحظ أن الشكل الذى اتخذته هذه العلامة منذ نهاية الدولة الوسطى  تذكّرنا برسومات بلاد ما بين النهرين. إن الاختفاء المفاجئ لهذه الطريقة فى رسم هذه العلامة فى عهد أحمس، سار جنباً إلى جنب مع طرد الهكسوس بصفة نهائية. ويعبر عن رغبة أكيدة فى الإقلاع عن العادات والأعراف الآسيوية. ولكن ظلت مع ذلك الأسماء القمرية شائعة. أما عن دور النساء فى بلاط أحمس فهو ظاهرة لافتة للنظر.

كانت الجدة تيتى - شيرى التى عاصرت فى طيبة كافة أحداث حروب التحرير منذ ولادة سقن - رع ثاعا، لا تزال على قيد الحياة بعد طرد الهكسوس. وبالفعل فإن جزءاً من لوح حجرى محفوظ فى لندن^(٩٢) (University College) يسوق الدليل على ذلك. وللأسف فإن الجزء الأسفل من اللوح مهشم. فلم يبق سوى الطرف العلوى من شخصين. فأمام الإله موتو الذى يكشف عن وجوده المتن الذى يشير إلى «موتو رب طيبة» كان يقف أحمس ومن خلفه «الأم الملكية تيتى - شيرى». وتقول المدونة:

اليوم السابع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الجفاف [من العام؟]، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب پحتى رع، ابن رع: أحمس، لقد شيد مبنىً ليرمم جزءاً من معبد والده موتو رب طيبة وثور هرموتيس.

ومن ثم وبعد تتويج أحمس، شاركت تيتى - شيرى فى الإحتفال الرسمى الذى أقيم بمناسبة ترميم معبد موتو فى طيبة. فكانت لا تزال إذن «السيدة» الأولى فى البلاط الملكى. وقد ضاع تحديد السنة. ولكن إذا كانت ملاحظة فانديرسليين التى سبق أن أشرنا إليها صحيحة، فلا بد أن يعود تاريخ هذا اللوح الحجرى إلى السنوات الأولى من عهد الملك. لأن العلامة الهيروغليفية الدالة على القمر داخل الفرطوش كانت لا تزال تحتفظ بالشكل .

وشأنه شأن ملوك مصر على وجه العموم كان أحمس يكن لأسلافه إحتراماً ورعاً. إن نص لوح حجرى يعود تاريخه إلى هذا العامل الملكى وكشف عنه سير

فليندرز بيتري Sir Flinders Petrie فى أبيدوس فى مقصورة تيتى - شيرى الجنائزية ينقل لنا «حديثاً» دار بين العامل الملكى وزوجته، بشأن جدتهما والأوقاف الجنائزية الخاصة بها:

فى يوم من الأيام، كان صاحب الجلالة جالساً فى قاعة المقابلات الرسمية، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى: تب - پحتى - رع. وابن رع: أحمس، له الحياة. كانت السيدة النبيلة، لها الثناء كل الثناء، صاحبة السحر المهيبة، ابنة الملك، وأخت الملك والزوجة الإلهية^(٩٣) والزوجة الملكية العظيمة، أحمس - نفرتارى، (ليتها تحيا!)، كانت جالسة إلى جوار صاحب الجلالة. وتحدث الملك إلى رفيقته، بحثاً عما قد يفيد الموتى العظماء: كرش الماء وتقديم القرابين على المذبح والعمل على استعادة موائد القرابين وإخضارها، عند مطلع كل فصل من فصول السنة والعيد الشهري لاكتمال القمر بدرًا وعيد طلعة الكاهن سم^(٩٤) وعيد القرابين الليلية فى اليوم الخامس من كل شهر وعيد اليوم السادس والعيد حاك والعيد واج وعيد تحوت، واليوم الأول من كل فصل من الفصول فى السماء والأرض^(٩٥).

فأجابته أخته قائلة: «لما استرجاع كل ذلك إلى الذاكرة؟ ماذا تقصد بهذا الحديث؟ ماذا ألم بقلبك؟»

فقال لها الملك: «لقد تذكرت والدة والدتى ووالدة أبى، الزوجة الملكية العظيمة، تيتى - شيرى، المصادقة القول. أجل فما زالت مقبرتها ومقصورتها قائمتين على أرض طيبة وأرض أبيدوس. لقد قلت لك ما قلته لأن جلاتى يرغب أن يقيم من أجلها مرمًا ومعبدًا فى الأرض المقدسة (الجبانة)، مبةً فخمة من جلاتى. سوف تُحفر بحيرته وتفرس أشجاره وتحدد قرابينه وتُلحق مئنة من الموظفين بالمعبد، وتخصص له الحقول والقطعان، فضلاً عن الكهنة الجنائزيين والكهنة المرتلين الذين سيؤدون عملهم، فكل واحد منهم يعرف واجبه».

تفوه صاحب الجلالة بهذه الكلمات، فى حين كان ذلك فى طور التشييد. لقد فعل كل ذلك لأنه كان يحبها حباً عظيماً. ولم يحدث أبداً أن صنع ملوك الزمن الماضى من أجل أمهاتهم ما يشبه ذلك.

ثم بسط صاحب الجلالة ساعده ومدّ يده^(٩٦) وصنع (كُتَب) أيضاً من أجلها صيغة تقديم القرايين: «قريان يقدمه الملك إلى جب والتاسوع الإلهى والتاسوع الصغير... إلى أنوبيس المشرف على المقصورة الإلهية (حتى يعطى) آلاف أرغفة الخبز (وأباريق) الجمّة والثيران والطيور والأبقار... من أجل كا... [تيتى - شيرى]^(٩٧)».

إن تيتى - شيرى التى أغدق عليها حفيدها الملك والآلهة كل هذه الخيرات، كان ينتظرها مصير سعيد بعد وفاتها. وحتى تظل على قيد الحياة كانت تمتلك مقبرة تذكارية فى أبيبوس ومعبدًا فى طيبة. وربما كانت مقبرة أبيبوس التذكارية قد لحق بها بعض الدمار. وبالنظر إلى سنّ تيتى - شيرى فمن المعتقد أنه كان قد شيّد قبل فترة طويلة. ولذلك فقد خصها أحسن بعض المباني الأخرى فى طيبة. ومن غير المستبعد أيضاً أن بعض الأملاك قد خصّصت لها فى منف^(٩٨).

كانت ملكة عظيمة ووالدة نزية مجيدة ويحتفظ لها المتحف البريطانى فى الوقت الراهن بتمثال صغير، سوف تظلّ ملامح وجهه الشابة الرقيقة تغالب الأيام، إلى أبد الأباد.

وبوفاة تيتى - شيرى، احتلت ابنتها عح حوتب والدة أحسن، مكان الصدارة فى البلاط الملكى وكان دورها السياسى بكل تأكيد بالغ الأهمية، كما يشهد عليه نص اللوح الحجرى الكبير فى الكرنك الذى سبق ترجمته. بل من غير المستبعد أنها قامت بدور الوصية على العرش أثناء الفترات الطويلة والمتكررة التى غاب فيها أحسن، وهو يحارب بعيداً فيما وراء الحدود.

إن الوثائق الخاصة بها التى وصلتنا قليلة جداً. ومع ذلك فإن لوحاً حجرياً جاء من إدفو، ومن مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن، يشهد على إقامة طقوس جنازية فى معبد المدينة من أجل عدد من الملكات، ومن بينهم عح حوتب. وكان يشرف على هذه الطقوس كاهن وعب^(٩٩) مرتبط بالعايلة المالكة وسوف يخلفه ابنه فى هذا المنصب. وفى القسم المقوس فى أعلى اللوح يؤدى الرجل الطقوس الدينى أمام ملكتين:

زوجة آمون الإلهية، الزوجة الملكية العظيمة، عح حوتب، صديقة القول. والزوجة الملكية، والأخت الملكية، سويك إم ساف^(١٠٠)، صديقة القول.

أما النص المنقوش على اللوح الحجري فيقول:

قربان يقدمه الملك إلى حورس الإنفوى^(١٠١) وإلى أوزيريس وإيزيس ليقدما
القرايين التي تنبعث مع كل صوت^(١٠٢): الخبز والجعة والثيران والطيور، وكل ما لذّ
وطاب وجميل وطاهر، من أجل كا والدة الملك والزوجة الملكية العظيمة عح - حوتپ،
صادقة القول، وأيضاً من أجل ابنها نب - پحتي - رع، صادق القول.

لقد قال: «قمت بترميم مقبرة الإبنة الملكية سويك - إم - ساف، بعد أن وجدتھا
مدمرة». كما يقول هذا الكاهن وهب: «أنتم أيها الذين ستعبرون أمام هذا اللوح
الحجري، إنى أتحدث إليكم إنى أتصرف بحيث تدركون إلى أى مدى وصلت الخطوة
التي خضعتنى بها الزوجة الملكية العظيمة عح - حوتپ. فقد عينتنى لأوفر لها القرايين
والعقنتى بخدمة تمثال جلالتها ومنحتنى جانباً من أطعمتها: منه رغيف خبز بيت
والخبز پرسن وإبريقى جعة وقطع متنوعة من لحم البقر. لقد رُقيت إلى منصب رفيع،
بعد أن كنت أشغل منصباً أدنى. كما أغدقت علىّ بآنعامات أخرى، فمنحتنى أملاك
مختلفة فى إدفو حتى أتمكن فى المقابل أن أقدم القرايين لجلالتها^(١٠٣).

إن «الإرتقاء الإجتماعى» الذى عرفه هذا الرجل وهو خادم الملكات الأمين،
سيستمر فى حياة أحمس - نفرقارى. وجدير بالملاحظة أن هيئة كبيرة من الموظفين
المرتبطين ارتباطاً خاصاً بالزوجات الملكيات قد بدأت تتشكل^(١٠٤). إنه شاهد آخر
يضاف إلى غيره من الشواهد، على الأهمية الجديدة التى تمتعت بها النساء فى
البلاط الملكى بمدينة طيبة.

وبوفاة عح - حوتپ ومع تبوأ الملكة أحمس - نفرقارى - زوجة أحمس - مكانة
رفيعة منحتها نفوذاً بالغ التأثير، صار هذا الواقع من البديهيات الواضحة كل
الوضوح. ورزقت الملكة الجديدة من زواجها بأحمس بأربعة أبناء وابنة واحدة هى
الأميرة سات - آمون (أى ابنة - آمون). ومن المرجح أن الابن البكر أحمس - عنخ الذى
صوّر على كتلة حجرية من الكرنك^(١٠٥) ولا نعرف عنه شيئاً خلاف ذلك - قد توفى

(*) نسبة إلى إدفو ومعبدھا. (المترجم)

وهو فى ريعان الشباب. أما الابن الثانى أمنحوتب (أى: ليكن آمون راضياً) فسوف يتربع على العرش عند وفاة والده.

وتحمل أحمس - نفرتارى ألقاباً سياسية. إنها «تلك التى تتولى أمر سائر الأرضين» و«تلك التى تقف على رأس مصر العليا ومصر السفلى». ومن واقع نص لوح أبيبوس الحجرى الذى سبق عرضه نلاحظ أنها كانت تشارك زوجها قراراته. وفى جزيرة صاى الواقعة فى السودان فيما بين الجندل الثانى والجندل الثالث من نهر النيل، عُثر على معالم أثرية تحمل اسم أحمس - نفرتارى وهى عبارة عن كتل من الحجر الرملى وتمثال. ولكن العذر واجب عند تناول هذا النوع من الشواهد: لأنه لا يمكن القول تأسيساً على ذلك، أنها قامت بدور ما فى بلدان الجنوب. فمن المحتمل أن تكون هذه القطع الأثرية قد نقلت إلى هذا الموقع فى وقت لاحق.

كما أنعم عليها أيضاً بلقب دينى على قدر كبير من الأهمية فكانت «الخادمة الثانية للإله آمون». وفى إطار التراتب الهرمى الكهنوتى كان هذا المنصب يندرج مباشرة بعد كبير الكهنة القائم على الشعائر. وفى عام ١٩٢٥، استخرج هنرى شيفرييه Henri Chevrier كتلة من الحجر الجيرى من حشوة الصرح الثالث لمعبد آمون - رع^(١٠٠). وقد نقشت على هذه الكتلة صورة الملك أحمس فى صحبة زوجته وابنه أحمس - عنخ، وهو يقدم للإله خبزاً أبيض. كانت تؤطر المشهد خمسة أعمدة من نص نُحتت على يمين الكتلة الحجرية وسطرين أفقيين فى قسمها الأدنى. وإذا واصل شيفرييه أعماله عثر فيما بعد على بلاطة أخرى من الحجر الجيرى، تضم باقى هذا النص موزعاً على ثمانية عشر عموداً رأسياً. والمذونة وهى مهشمة للأسف، تقدم وصفاً للإحتفالات التى أقيمت عند تنصيب الملكة أحمس - نفرتارى فى وظيفتها الدينية المرموقة والوهبة التى أوقفها الملك لصالحها فى هذه المناسبة:

اليوم السابع، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان^(١٠١) [من العام؟] من عهد صاحب الجلالة ملك مصر السفلى ومصر العليا: نب - پحتى - رع، ابن رع: أحمس قَلْبِيْ لِلزمن اللانهائى والزمن الأبدى!

(*) أخت بالمصرية القبية. (المترجم)

فى حضرة [قضاة] ربوع المدينة وكهنة معبد آمون يتم إنجاز ما أعلن عنه فى جلالة القصر الملكى... [بإنعام] منصب الخاتمة الثانية للإله آمون، على الزوجة الإلهية والزوجة الملكية [أحمس - نفررتارى]... كأملأكلها، ابن عن ابن، ووريث عن وريث... قائمة بأملأكلها: ذهب: ١٦٠ شنع (١٠٦) - فضة: ٢٥٠ - برونز ٦٧ (?) وكل واحد منها يعادل ٦ شنع. وأعطيتها إياها نصيب أربعة. الجملة حوالى ٢٠٠. الثياب: من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ شنع. وأعطيتها إياها نصيب مئتين. وطُرح لتغطية الشعر: ٨٠ إلى ٢١٠ شنع. وما يعادل نصيب ١٥٠. أوعية الأدهان: ١٢ إلى ٧٨ (شنع) ما يعادل نصيب ٥٠. المجموع الكلى: حوالى ١٠١٠ شنع. كما منحتها خادماً وخاتمة و ٤٠٠ مكيال قمح وخمس قطع أرض زراعية بالإضافة إلى الـ ١٠١٠ شنع هذه. كل ذلك بينما كانت تحصل مقابل منصبها على ٦٠٠ شنع.

وفى ختام الوثيقة (التي تشهد على تسلمها) هذا المنصب، قالت:

«إننى راضية عما صُرف لى». وتمّ التصرف وفقاً لذلك. بحيث لا يأتى أحد ليقوم بتبديل (هذا القرار) وأقسمتُ أمام الرب (آمون). عندئذ توجهَ إليها كبار قضاة المدينة وكهنة معبد آمون لتسجيل إسناد المنصب إلى الزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة أحمس - نفررتارى، ليتها تحيا! ثم ألبست ثوب وظيفتها. وهو واحد من بين مئتين منحها إياها صاحب الجلالة، فى حين كانت فقيرة ومعدمة. كما أمر جلالتي بأن يُشيد لها مسكن. ولتجنب أى التماس محتمل قد تتقدم به ألقى أخوها لخدمتها، وهكذا استبعدت أى مناقشة.

عندئذ عبّدت الإله لصالح صاحب الجلالة، أمام كبار البلاط الملكى قائلة: «لقد ألبسنى عندما كنت معدمة وأتاح لى أن أكون ثرية بينما كنت فقيرة».

وبعد ختم حجة الملكية فى حضرة الملك شخصياً، وضعت إلى جوار الصورة الراحية الهامية للإله آمون، يوم عيده إبان شهر كيهك فى الأقمصر (?) فى حضرة العامل الملكى والزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة، ليتها تحيا!...

عندئذ تحدثت جلالة هذا الإله قائلاً: «أنا حاميتها وكفيلها. وإن يحدث أبداً أن يُطعن فى سلامة هذا المنصب، أى ملك من ملوك الأجيال القادمة، ولكنه سيكون حقاً

مسلمًا به للزوجة الإلهية أحمس - نفررتارى، ابن عن ابن، للزمن الأبدى وللزمن
اللانهاى باعتبارها تشغل وظيفة الزوجة الإلهية. ولا يحق لأحد سوايا أن يناقش
الأمر. ولا أحد غيره فى مقوره أن يجادل فيه (١٠٧).

هذا النص فريد فى بابه. إنه يحدد بوضوح طبيعة مختلف الإجراءات الرسمية
التي تعزز تسلم أحمس - نفررتارى منصبها الكهنوتى المرموق: الدخول الموقوف عليها
وقبول الملكة الشروط المادية لتقبول هذا المنصب وتسجيلها بصفة رسمية من قبل كبار
الشخصيات العلمانية والدينية فى طيبة وشغل هذه الوظيفة التي كان ينظر إليها
باعتبارها أشبه «بطريق جديد». فيقال علناً أن الملكة - وإن كانت ابنة وزوجة الملك -
«فقيرة ومعدمة». لقد تخلت إذا صح التعبير عما كان يسترها لترتدى الثوب المقدس
الذى يبدو أشبه بالوجه الخارجى لشخصية جديدة. إن أمون هو مصدر ثرائها وثروتها
عن طريق الملك. لقد نذرت نفسها من الآن للإثنين، الأمر الذى يتضح أيضاً من لقبها
كزوجة.

كل ذلك يختلف كل الاختلاف مع إحتفالات تنصيب كبير كهنة أمون، على سبيل
المثال (١٠٨). ويخيل لنا أن المقصود هو مجرد منصب شرفى يُورث، والهدف منه إلقاء
الضوء على شخص الملكة وذريتها وإثرائهم.

وظلت فى عهد ابنها أمنهوتب الأول محتفظة بدورها البارز فى البلاط الملكى.
ولما كانت ملكة مرموقة، فتنسب إلى عائلة أمراء طيبة الذين هربوا البلاد من الوجود
الأجنبى، فقد أقيمت من أجلها بعد وفاتها شعائر رسمية. والشاهد على ذلك نقوش
معابد طيبة فى الكرك والكرك والشيخ عبد القرنة والرامسيوم. ولكن لابد من الإشارة على
وجه التحديد إلى الودع الشعبى الذى ارتبط بشخصها، كما تشهد عليه صور
لا حصر لها للملكة المزهلة: لقد تم الكشف عن ألواح حجرية، يصل عددها فى الوقت
الراهن إلى أكثر من مئة، فى أهم المراكز التي أقيمت فيها من أجلها الشعائر؛ ففي
منطقة طيبة نذكر الكرك والقسم الشمالى من جبانة دير المدينة بالبر الغربى فضلاً
عن منطقة أبيدوس أو على مقربة من هرقليوبوليس. وتظهر صورة أحمس - نفررتارى

فى رسومات بضع وخمسين مقبره من مقابر الأشراف فى طيبة. إن مجموعة ضخمة من التماثيل والتماثيل الصغيرة تشهد على حيوية الشعائر التى أقيمت من أجلها على امتداد خمسة قرون وحتى الأسرة الحادية والعشرين. وفى معظم الأحوال نجد أن هذه التماثيل سوداء اللون ومن الخشب المطلى بالقار؛ فالأسود هو لون الكلب البرى الضخم، المسمى خطأً ابن أوى، والذى كان يحوم فى المساء حول الجبانات وأصبح أصل ملامح شخصية أنوبيس^(١٠٩). والأسود هو مادة القار المستخدم لحماية الجسد فى ترتيبات طقس التحنيط، فكان وثيق الصلة بفكر الموت واستعادة الحياة وتجديدها. ولا شك أن هذه المضاهاة المطلوبة مع كبرى آلهة الخلود تبرر انتشار استخدام اللون الأسود فى التماثيل الصغيرة التى تصور أحمس - نفرتارى.

إن الشعائر التى كانت تقام من أجلها قد ربطتها بكبرى آلهة مصر. كانت والدة أمنهوتب الأول الذى آله هو أيضاً، ويصفتها هذه، تعتبر مساوية لإلهة - أم، فكانت حامية وحارسة. وكان معبدها الجنائزى فى الشيخ عبدالقرنة المركز الرئيسى لإقامة شعائرها. وخصصت لها مجموعة من الكهنة تضم كبير كهنة «خدّام الإله»^(١١٠) وكاهناً جنائزياً. كان موظفون علمانيون يتولون إدارة أملاك معبدها، التى تشمل الحقول والماشية والمخازن والورش وشونة حبوب. كان هؤلاء «الموظفون» يضطلعون بعملهم هذا، إلى جانب وظيفتهم فى خدمة آلهة أخرى ومنها آمون الكرنك على سبيل المثال.

وعند وفاتها، حنّط جثمان الملك ليسجى فى مقبرتها المحفورة فى صخر دراع أبو النجا إلى الشمال الغربى من معبد القرنة. وفى أعقاب أعمال النهب والسلب التى حدثت فى أواخر عصر الرعامسة، نقل التابوت والمتاع الجنائزى إلى المقبرة رقم ٣٢٠ فى الدير البحرى^(١١١) التى استخدمت كخبينة لعدد كبير من رفات ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لحمايتها من الاعتداء عليها. وعُثر فى هذه الخبينة على الجسد المحنط للملكة الإلهية وعلى تابوتها وأنيبتها الكانوبية^(١١٢) فضلاً

(*) حم نثر فى الفرد، أى كاهن هادى. (الترجم)

(**) ومى مقبرة الأميرة إن حعبي. (الترجم)

عن تابوت «مرضعتها» راى وجسدها، فقد أرانت ألا تفارقها أبداً. ويؤكد علماء الآثار «أن مومياء الملكة بعد تخليصها من الأشرطة التى كانت تنثرها قد كشفت عن مومياء امرأة طاعنة فى السن بيضاء البشرة. ولكن الجسد تحلّل عندما تعرّض للهواء. وكان طول المومياء ١٦٦سم. هكذا هلك الغلاف البدنى «للزوجة الإلهية» التى تعتبر واحدة من أعظم ثلاث ملكات فى بلاط طيبة قرب عام ١٥٨٠ ق م^(١١١).

الكرنك – أول الروائع المهيبة

ما زال النطاق الشاسع الذى يشغله معبد الكرنك فى الوقت الراهن، وهو المنطقة المقدسة الأكبر على مستوى العالم، ما زال يوحى للمتريدين عليه بعظمة طيبة التقليدية. لقد غابلت المعابد الأيام لتشهد رغم ما أصابها من دمار، على الإيمان العميق الذى كان يحفز ملوك مصر وشعبها، فقد أصبح آمون «الأوحد، المتفرد»^(١١٢)، ملك الآلهة الفائق القدرة.

وفى عام ٦٠ ق م وقبيل الغزو الرومانى لمصر بفترة قصيرة استرجع نيونورس الصقلى^(*) ما كتبه من قبله هيكتيوس الأبييرى الذى عاش على ضفاف نهر النيل وعرف طيبة وأثارها، استرجع ما قاله هذا الأخير ليكتب هذه السطور: «لم يرد إلى أى مدينة على سطح الأرض هذا القدر من القرايين من ذهب وفضة وعاج. كانت تفصّ بعدد كبير من التماثيل العملاقة والمسلات من الحجر الأحادى الكتلة، إن المباني الأربعة التى شيدت فيها يأخذ جمالها وعظمتها بالأكباب» وعن معبد الكرنك قال: «إن أحدها وهو الأقدم يبلغ محيطه ثلاثة عشر إستاكيا^(**) وارتفاعه خمساً وأربعين ذراعاً^(***)، وسمك الأسوار أربعاً وعشرين قدماً^(****)، وفصلاً عن هذه الأبهة

(*) مذرغ يونانى. القرن الأول ق م. كتب تاريخ العالم منذ بدء الخليقة. (المترجم)

(**) مقياس طول فى بلاد اليونان القديمة يعادل ١٨٠ متراً تقريباً. (المترجم)

(***) كانت الذراع تعادل نصف متر تقريباً. (المترجم)

(****) كانت القدم تعادل ٢٢ سم تقريباً. (المترجم)

والفخامة نذكر وفرة القرايين النفيسة التى تكرر للإله فلا تبعث على الإعجاب بفضل روعتها فحسب، بل أيضاً بسبب إتقان صنعتها. لقد ظلت المبانى قائمة حتى الأونة الأخيرة. ولكن سلب الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة فى عهد قمبيز^(٩) الذى أضرم النار فى معابد مصر^(١١٣). بل سبق أن قدم اللوح الحجرى الكبير فى الكرنك وصفاً للثروات التى وهبها أحمنس^(١١٤) إلى آمون-رع من حلى مقدسة ومتاع ضرورى لإقامة الشعائر التى صنعت من مواد نفيسة. هكذا بدأت كنوز معبد الكرنك تتجمع.

والبقعة التى كانت فى الماضى مجرد قرية فلاحين ومراكبية أصبحت مدينة شامخة رفيعة الشأن. فكانت مسقط رأس الأمراء الذين حرروا أرض الكنانة مرتين من الفوضى والغزاة. ولما كانت طيبة مهد الملوك الأقوى فى التاريخ، فمن الطبيعى أن تصبح أيضاً أصل الدنيا^(١١٥): فتصوّر كهنة آمون-رع أن هنا فى المدينة المقدسة، انبثقت ذات يوم أكمة مقدسة خارج المياه الأولية ومن حلقة الخواء الأجذب. عندئذ، عاشت طيبة أول أيام الكون واستطاع آمون النورانى أن يرسى دعائم العالم ويقيمها عليها. هذا هو آمون.

فأحد أشكاله فى السماء وجسده يقيم فى جبل الموتى وتمثاله فى طيبة، ولكن آمون «واحد»، إنه يظل متوارياً عن الأعين، خافياً حتى على الآلهة الأخرى ذاتها... ومع ذلك، فإنه قريب من مخلوقاته بقلبه ويمسكته ويسهر على مصيرهم. فتقول الأرامل: أنت زوجى، ويقول الأطفال: أنت أبونا وأمتنا. والغنى سعيد ببهائك والفقير يعبد وجهك^(١١٥).

وفى نظر المؤمنين به، كان آمون الإله المتعدد الأشكال القوى الرؤوف. إنه الإله الأوحد المتفرد وإن كان من الصعب إغفال الفاعلية السحرية التى تتحلى بها الآلهة الأخرى، كل فى «حقل إختصاصه» المحدد. اتسمت الروحانية فى العصور القديمة بطابع التسامح وربما بالتشدد فيه. كانت مولعة على وجه الخصوص بإقامة الشعائر وترديد التعويذات بغرض الحماية والوقاية. كان البشر يسمعون إلى الموصول على

(*) إبان الاحتلال الفارسى الأول (الأسرة السابعة والعشرين). (المترجم)

(**) أو أم الدنيا كما نقول فى الوقت الراهن عن مصر. (المترجم)

العون الإلهي بمختلف أشكاله. ولكن هذا المجمع الإلهي الضخم، بما يوفّره من دعم ومساندة وفاعلية، كانت تهيمن عليه جلالة آمون مدينة طيبة، إنه آمون الكرنك الذى ظل الملك الجليل، سواء اتخذ هيئة إنسان أو كبش، إنه آمون - رع الذى ما زالت صورته المنحوتة أو المرسومة تلاحق المسافرين أثناء تجوالهم فى طيبة. إن آمون، الإله الشمسى لبهاء الشرق ورويقه، كان ينتظره مصير باهر فى المنطقة الممتدة من شاطئ البحر المتوسط وحتى البلدان الواقعة فيما وراء نهر نجلة والبحر الأسود وحتى وسط إفريقيا. وما زال وجوده الإلهي قائماً فى الكرنك.

الكرنك مدينة مقدسة شاسعة، أشبه بزخرف على هيئة مشبكات تتداخل فيها أبراج الصروح والبوابات الشامخة والمسلات المنتصبة وأبهاء الأساطين والدهاليز السرية ومقاصير قدس الأقداس المظلمة، كلها عناصر تشهد على ورع جماهير شعب، على امتداد ما يقارب الألفى سنة.

وعلى بعد ٢٠٠ متر من شاطئ النهر تمتد الأملاك المقدسة بطول ١٦٠٠ متر. وفى الوسط أقيم سور - يحدد مسكن آمون - رع، يبلغ ٦٠٠ متر طولاً و ٥٠٠ متر عرضاً. وفى الشمال يلتف سور أصفر بكثير، حول معبد موقتو. أما فى الجنوب فقد شُيّد «قصر» الإلهة مَوت زوجة آمون و«الأم الإلهية» التى قد تتحول إذا لزم الأمر إلى أسدة(*) مرعبة ومحاربة. ومن هذا «القصر» يمتد طريق تحفه على الجانبين تماثيل أبوالهول ليصل إلى سور معبد آمون.

لم يكن المعبد فى نظر المصرى القديم مكاناً للصلاة والغشوع والخلوة مع النفس، بل مكاناً مفضلاً تغمره القوى السحرية. إنه «بيت» الإله الذى كان يقيم فيه، ولابد بالتالى من حمايته من العناصر المعمارية التى قد تنال منه حتى يمكن صون نظام الكون والحفاظ عليه، وهما المهمة التى يتكفل بها الآلهة والملوك. كما أنه مكان للرموز والتناسق والتناغم بين عالم الآلهة وعالم الأحياء. هكذا بدأ تشييد معبد كلاسيكى عند شاطئ النيل، ومرفأ القارب الإلهي. ثم بدأ طريق يمتد من الغرب فى

(*) مؤنث أسد. المعجم الوسيط. (المترجم)

اتجاه الشرق تحفه على الجانبين تماثيل أبو الهول برأس كبش: كان في وسع الإله أن ينفذ إلى داخل البدن المنحوت في الحجر الرملي أو الجرانيت، ليشكل على هذا النحو حرساً أمام «بيته» حماية له وفرض وجوده المقدس على المؤمنين. كان بُرجا الصرح العاليان يتخذان شكل شبه المنحرف ويكتنفان المنخل الضيق. كان شكلهما يشير إلى هيئة جَبَلِيّ الأفق، فمن وسطهما تبرز الشمس عند الفجر. وهكذا يدخل الإله إلى معبده كما تدخل الشمس إلى أعالي السماء. يلي ذلك فناء تكتنفه الصُّفَات أحياناً وصمم لاستقبال عامة الشعب الذي كان في وسعه أن يشاهد من هذا المكان، المواكب الاحتفالية بمناسبة الأعياد الدينية. وكان لا يسمح بعد ذلك بدخول بهو الأساطين إلا للكهنة فقط وبعض المحظوظين. كان هذا البهو أشبه بغابة شاسعة من الأساطين ذات التيجان المتنوعة: فكانت بردية الشكل أو لوتسية أو نخيلية، فتعكس على هذا النحو وفرة النباتات التي تكسو أرض مصر. أما السقف فكان في أغلب الأحوال باللون الأزرق ومرصع بنجوم صفراء. لأن النحاس هو المعدن الذي صنعت منه النجوم، كما أن الذهب يشكل بدن الشمس. إنها محاكاة نضرة زاهية الألوان للمشهد الطبيعي. وبينما كان السقف يميل إلى الانخفاض تدريجياً، كان المراء «يصعد» (*) فيما بعد في اتجاه قدس الأقداس الذي يضم ناووساً من الحجر الصلد، ومن الجرانيت في أغلب الأحوال، لتوضع فيه الصورة الإلهية. كان الناووس يرمز إلى التل الأولى المنبثق من المحيط الأزلي، فمن فوقه استهلّ الخالق عمله. في هذا المكان كان يتم اللقاء السامي بين أمون - رع والملك الذي كان لزاماً عليه كل يوم أن يقيم الشعائر الخاصة بإيقاظ الإله ونهوضه وزينته وتناوله وجبات الطعام ويلحظة نومه مع حلول المساء^(١١٦). كان كبير كهنة الشعائر و«الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة» (وهب) يمثلون محل العامل الملكي في إقامة الطقوس الدينية. كانت الطهارة فريضة واجبة. فعندما يبارح آخر الكهنة المكان مع حلول المساء، يصل الأمر إلى ضرورة إزالة الآثار ذاتها التي تتركها خطواته في الرمال أمام الناووس، حتى لا تدنس أية نجاسة صورة الإله. وإذا تم الحفاظ على الإله على هذا النحو، فإنه يضمن تماسك العالم وحماية مصر.

(*) مع انخفاض سقف المعبد، كانت أرضيته ترتفع تدريجياً. (المترجم)

وفى نظر من شاهد الكرنك يبدو أن تتبع هذا المسار المبذنى من الأمور الصعبة. فكل ملك من ملوك مصر، على امتداد أكثر من ألف سنة، أخذ على عاتقه إضافة مبناه الخاص إلى المعبد الكبير - معبد آمون - رع - تعبيراً عن ورعه وتقواه. هكذا تعددت المباني وأقيمت جنباً إلى جنب أو تداخلت وتشابكت. وقبل الرعامسة شيد ملوك الأسرة الثامنة عشرة معبد الكرنك. ومن خلال استعراضنا لتاريخ هذه الأسرة سوف نقدم تحليلاً لأعمالهم وثرواتهم.

وعن المباني التي شادها أحمرس الذى كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة، مثلاً يحتنون به بصفته محارباً وبناءً، فإن غيضاً من فيض عناصرها، ما زال قائماً. ومن بين ما كشف عنه موريس بيبه Maurice Pilet فى أساسات الصرح الثالث، عثر على كتل من ألبستر حقيق، كانت أصلاً جزءاً من مقصورة استراحة القارب المقدس التي شادها العاهل الملكى من أجل آمون.

وشرح أحمرس بطور سلك الكهنة فى طيبة فاستحدث إذا صح القول منصب كبير الكهنة وأسبغ على كل حال، على هذا الحبر العظيم منزلة رفيعة جديدة. كان المصريون يطلقون على هذا الكاهن لقب: «الخادم الأول للإله آمون». وفى إطار تراتب هرمى على قدر كبير من التنظيم كان هؤلاء «الخدام» أربعة. لقد فهم الإغريق هذا المصطلح على غير معناه ولذلك فقد ترجموه بكلمة «نبي» prophète. ولا شك أنهم فسروا اللقب الخاص بكبير كهنة هليوبوليس وهو كبير «الرائين» تفسيراً خاطئاً. كانت كلمة «يرى» لا تخرج فى هذا السياق عن دلالتها المادية، فتعنى إطالة النظر فى النجم السماوى وتبتعد تماماً عن القدرة على رؤية ما وراء الواقع وما هو ممكن، ورؤية المستقبل والتنبؤ به.

وقد وصلنا اسمان من هؤلاء الكهنة الكبار الذين عينهم أحمرس: الأول هو جهوتى الذى كان بالإضافة إلى ذلك «رئيس حاملى الختم الملكى». والآخر هو مين - مونتو الذى كان أيضاً «الأب الإلهى لآمون». وهكذا ظهر هذا اللقب لأول مرة، ليصبح فيما بعد لقب غيره من «خدام الإله». فقد كان «الآباء الإلهيون» يشكلون ما يشبه تراتباً هرمياً موازياً، فكان فى وسع حامل لقب «الأب الإلهى» أن يصبح الخادم

التالى للإله بل أول هؤلاء الخدام. كما كان مين - موقتو «حامل الختم الملكى». فلم تعرف مصر خطأ فاصلاً واضحاً بين السلطتين الدينية والدنيوية. ولأن ماهية الملك كانت إلهية فى جوهرها، كان من السهل على الكهنة أن يجمعوا بين المناصب الكهنوتية والملكية. وسوف تصبح هذه الظاهرة، فيما بعد مصدر النفوذ الواسع الذى اكتسبه كبار الكهنة، لينتهى بهم الأمر إلى تهديد النظام الملكى.

الفصل الثالث

الفاخون الأوائل

أد

نشأة الإمبراطورية

في أقل من خمسين سنة، سوف تعود مصر لتصبح من جديد، القوة الأولى في عالم الشرق.

ضرورة الفتوحات وأساليبها

إبان الحروب التي خاضها أحمر من أجل إعادة توحيد مصر وحمايتها، كانت الدول الجديدة التي رأت النور في آسيا، في أعقاب الغزوات الآرية قد أسست أنظمة ملكية قوية، ترتب على وجودها تحول عميق الأثر على التوازن الدولي الذي ظل سائداً حتى الآن.

وفي مطلع الأسرة الثامنة عشرة، كانت دولة الميتاني في وديان أعالي نهري دجلة والفرات هي الأقوى بين سائر الدول. وإنطلاقاً من عاصمتهم واش شوجاني استطاع ملوك الميتاني أن يسيطروا سلطانهم شرقاً على بلاد آشور المستقلة والمناطق الواقعة شرق نهر دجلة وفي الشمال على المنطقة التي ستعرف في وقت لاحق تحت اسم أرمينيا وإلى الغرب على أعالي سوريا. أما في آسيا الصغرى فقد ظل النظام الملكي الحيثي لا يقوم سوى بدور ثانوي. وسوف يصل إلى أوج سلطته في زمن الأسرة التاسعة عشرة المصرية والملوك الرعامسة. أما بابل التي كانت تعيش في ظل الملوك الكاسيين، فقد استعادت دورها كعاصمة إقتصادية كبرى وتبنت آنذاك سياسية تهدئة سلمية مركزة جل اهتمامها على ما يبدو، على تأمين طرقها التجارية.

ولكن في هذا العالم الجديد الذي أخذ يتشكل شيئاً فشيئاً، سوف تقوم دول صغيرة أيضاً بدور له شأنه بفضل موقعها ذاته. وبالفعل فإن فينقيا التي ظلت مصر تفرض هيمنتها عليها، منذ أكثر من ألف سنة، أصبحت الآن النافذة الحيوية المطلّة على البحر المتوسط لكل من الميتاني إلى الشرق منها والخثي إلى الشمال. وبالمثل

فإن أرساوا - وربما يقابلها حالياً موقع قيليقية(*) - وكيزوواتنا الواقعة إلى الشرق قليلاً في اتجاه جوف جبال طوروس والتين تفصلان خاقي عن البحر، سوف تمزقهما دسائس لا حصر لها. إن نفوذ الخاقي ومصر في الدول الثانوية بل وهيمنتها عليها، كان محل صراع بين الدولتين الكبيرتين، فتسعى الأولى بطبيعة الحال إلى التحالف معها في حين كان من مصلحة مصر الحيلولة دون تحقيق هذا التقارب، كما حيكت مثل هذه الدسائس حول نهاريتا^(١)، إلى الغرب من نهر الفرات وحول نوحاسا إلى الجنوب قليلاً والذين كانا يقفان حائلاً أمام المنافذ البحرية المباشرة للميتاني، وأخيراً فإن الأموري وهي مملكة الأموريين التي تأسست إلى الغرب من حلب، كان مقدر لها أن تلعب في المستقبل دوراً إستراتيجياً هاماً، أشبه بالدولة الحاجزة لصد الطموحات المتنافسة.

إن النزاعات والدسائس والصراعات حول مناطق النفوذ، أصبحت لأول مرة من سمات السياسة الدولية الجديدة وعملت على تغيير موقف مصر التقليدي المسالم، لتركز جل اهتمامها على أمنها وأمن منافذها التجارية. ومحل الإمارات التي سادت في الماضي وظلت متفرقة حتى الآن، ظهرت إلى الوجود ممالك قوية لتدهض فكرة أن الهيمنة التقليدية التي تمتعت بها مصر على الشرق الأدنى قضية مسلّمة. وقاد هذا الواقع الجديد مصر إلى سياسة الفتوحات، سواء كانت وقائية أو دفاعية، لتنتهي إلى تأسيس إمبراطورية شاسعة.

كان لابد من الآن، أن تمتلك مصر أداة قوة لا غنى عنها: بمعنى جيش شاكي السلاح ومنظم تنظيمياً جيداً يضم قوات برية وبحرية. كان ثمره الصراع ضد الهكسوس، درساً فعّالاً، ترتب عليه إدخال تغييرات خطيرة لا سيما على صعيد التسليح وفنون الحرب.

كان لابد أن يتمول الجيش، أكثر من أي وقت مضى، إلى عنصر له صفة الثبات والدوام ليصبح قوة رئيسية وإضافية تعزز السلطة الفرعونية. لقد عرفت مصر عسكريين محترفين جعلوا من الجندية مهنتهم وهو ما لاحظناه عند قراءة سيرة حياة

(*) قيليقية: جنوب شرق الأناضول. (المترجم)

أحمس بن أبانا. كان الملك يمنحهم الأراضي والمكافآت السخية والخدم، لا سيما من بين الذين وقعوا في الأسر في أرض المعركة. كانت ترقيات هؤلاء الجنود تتوقف على شجاعته في ساحة الوغى وإقرار الملك بتميزهم وتفوقهم، وكان يكافئ ضباطه المخلصين على ما قدموه من خدمات نزيهة لسنوات طويلة، فيمكن أن يقدم لهم معاشاً مناسباً. كان العسكريون المحترقون يشككون في زمن السلم حاميات الحصون والقلاع ويسهرون على حراسة الحدود ومصبات نهر النيل، بل ويذهبون إلى حد صيانة الأمن في المناطق النوبية والسودانية. كان هذا الجيش من المحترفين تعززه قوات المجندين الجدد، وفيما مضى، كان ملوك الأسرة الثانية عشرة «يجنّدون» الجنود فيختارون فرداً من بين كل مئة تقريباً. وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة، تم تعميم التجنيد بالقرعة. ويبدو أن الخدمة العسكرية الإجبارية بالقرعة كانت تنطبق على مجمل أفراد العائلة وليس على كل فرد على حدة. وقد أنيط بالسلطة المركزية تحديد عدد المجندين الذين تقدمهم كل عائلة. فقد يتغير هذا العدد وفقاً لأهمية العملة العسكرية، ويبدو أن بعض الإعفاءات كانت تمنح على أساس معايير لا نعرفها على وجه التحديد وربما كانت تحايب العائلات الكثيرة للأفراد^(*). وبالإضافة إلى الجيش الدائم والمجندين بالقرعة كانت قوات المرتزقة تتكون في الغالب من «أفضل عناصر الأسرى الذين أسرهم صاحب الجلالة في أرض المعركة». ومن بين هذه الفرق الأجنبية كان أهمها وأكثرها مهارة وخبرة رماة السهام النوبيين الذين كانوا مرهوبين الجانب. واعتباراً من المنحوتات الثالث ظهر الشمران - وموطنهم الأصلي ساردس في آسيا الصغرى - ليشكلوا نخبة المرتزقة في الجيش المصري.

بل إن تشكيل الجيش ذاته بدأ يتطور ويتنوع. وظلّ سلاح المشاة الوحدة التكتيكية الرئيسية. وكانت كل سرية تتكون من مئتي فرد يقودها حامل الراية. ولكن ظهر سلاح جديد: ألا وهو سلاح المركبات. كانت المركبة تتكون من صندوق خفيف من

(*) *) لاحتياج مصر إلى زيادة عدد سكانها. ألا يمكننا في العصر الحديث أن نطبق عكس هذا المبدأ للحد من زيادة السكان فيتم إعفاء أبناء العائلات قليلة الأولاد، (٢ أو ٣)، وإن كان جميعهم من الذكور. (المترجم)

الخشب مغطى أحياناً بالجلد أو المعدن ويجرها جوادان وتحمل على متنها رجلين هما قائد المركبة والمحارب. والملك فقط هو الذى كان يقف بمفرده على متن المركبة. وبفضل تحريك خصره الذى التفت من حوله عنان الفرس، حركات يارعة كان يقود المركبة، بينما انشغلت يده فى التعامل مع القوس، فيمطر الأعداء بوابل من سهامه. كان الفرس صغيراً ومرهفاً ودقيق البدن. ومن الراجح أن جبال وسط آسيا إلى الشرق من بحر قزوين كانت موطنه الأصلي. لم تعرف مصر أبداً سلاح الفرسان. إذ كان الأمر يتطلب تنظيم عملية تربية الخيول وترويضها على نطاق واسع وهما من الصعوبة بمكان، ويتجاوزان قدرة البلاد على توفيرهما. كانت الإسطبلات الملكية مليئة بالحياد التى تم أسرها فى ساحات القتال أو التى كانت فى عداد الجزية الواردة إلى البلاد أو «المستوردة» من بلاد نهر العاصى أساساً. وكان سلاح المركبات من أفضل ما يضمه الجيش المصرى وعلى رأس قواته المسلحة. وكان ضباطه يتلقون ذات التعليم الموسوعى الذى يحصل عليه الكتبة.

مع ظهور سلاح المركبات تعدلت الخطط العسكرية. وفى أرض المعركة، ومع بدء الهجوم كانت المركبات المصطفة فى انتظام تنقض على العدو. وفى أعقابها والحفاظ على ما أحرزته من تقدم يزحف المشاة لتعزيز هذه المكاسب، أما فى حالة فشل هذه الهجمة الأولى، تصبح مهمة المشاة محاولة صدّ تقدم العدو. عندئذ تستعد المركبات للقيام بانقضاض ثانٍ. وأخيراً وبعد إحراز النصر يقع على عاتق المركبات أيضاً مطاردة العدو لتحويل هزيمته إلى انكسار شوكرته واندحار قواته. وتصور النقوش والرسومات الجدارية الفرسين اللذين يجران مركبة فرعون وقد رفعاً قوائمهما الأمامية عالياً لتشكل خطاً مائلاً وسط اللوحة، يبرز عظمة تكوين الإنتصار وشموخه. وأسفل بطن الدابتين حشر الأعداء المهزومين حشراً وهم يهربون وكنتهم وحوش أثناء رحلات الصيد فى الصحراء. كان الملك الواقف على متن المركبة المشدود القوس صورةً مهيبة للنصر المظفر.

كما تطور التسليح. فبعد أن كان رماة السهام يستخدمون قوساً طويلاً ثم مركباً بعد عصر الهكسوس، أصبحوا يستخدمون سهاماً بسن معدنى. والسيوف

بمقبضها الطويل والمزدانة أحياناً بنقوش ذهبية أصبح نصلها مصقولاً على الجانبين، كما كان طرفها مستديرًا. وهكذا فعند استخدامها بيد واحدة أو بكلتا اليدين كان الهدف منها دائماً تجريح الجسد أكثر من النفاذ إلى أعماقه. وعرف المصريون سلاحاً آخر أشبه بسيف نصله منحني، أطلقوا عليه اسم خيش، كما استخدموا أحياناً بلطة كانت رأسها من النحاس في بداية الأمر ثم أصبحت من البرونز^(٣) وبمقبض من الخشب. كما كانت الحراپ الطويلة المديبة والخناجر القصيرة الحادة والمقامع الكثيرة الرأس، في عداد قائمة الأسلحة الدفاعية.

أما الترس المصنوع من الخشب المكسو بالجلد فكان يحمي جسد الجنود. وفي كثير من الأحوال كان قائد المركبة الحربية يتحكم في العنان بإحدى يديه، في حين يمسك بيده الأخرى ترساً خفيفاً لحماية المحارب. أما الدروع المصنوعة من البرونز فكانت لا تزال بالغة الندرة. كما كان استخدام الخوذات محدوداً ما عدا بالنسبة للمرتزقة الشرانبة، إذ لم يكن التسليح واحداً بالنسبة لكل من الجيش المصري وفرقه الأجنبية. فقد سمح لهم الفراغة أن يحتفظوا بتجهيزاتهم الحربية الأصلية. فوسائل الإجهاز على العدو كانت متنوعة إذن، الأمر الذي كان يشكل له على الدوام عنصر مفاجئة.

ومن الآن فصاعداً سوف تقوم القوات البحرية بدور عظيم الأهمية ولا سيما في عملية نقل الفرق العسكرية. فسوف تدور رعى كبرى المعارك البحرية في وقت لاحق في عصر الرعامسة. كما جرى تجنيد أفراد القوات البحرية عن طريق القرعة ويبدو أنهم كانوا يُختارون أساساً من بين سكان الدلتا. وعلى متن كبرى السفن الملكية الشراعية كان المجدفون البواسل يقودون الجيش المظفر وفي أعقابها يأتى سلاح الإمداد والتموين على متن سفن اصطبلات. ومن سوريا إلى السودان سوف تبهر سفن الشحن لنقل أموال الإمبراطورية. إنها سفن ضخمة تبلغ ستين متراً طويلاً. وقد صُنعت من خشب البلاد أو من خشب الصنوبريات الوارد من لبنان. كانت القاعدة البحرية الرئيسية موجودة آنذاك في منف التي كان يطلق على مينائها اسم پرو نفر أى «الخروج السعيد» أو «رحلة سعيدة!». فحتى الآن لم يكن في مصر موانئ تطلّ

على البحر. كان تحوتمس الثالث أول من أدرك أهمية جزيرة فلوروس^(*) إلى الغرب من مدينة الإسكندرية الحالية وشرع يشيد ميناءً كبيراً سوف يتولى الرعامسة تطويره فيما بعد.

كان الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة. ففي ميادين القتال كان التحامسة لا يكتفون فقط بوضع الخطط الحربية في صحبة ضباط أركان حربهم بل كانوا أيضاً على رأس جنودهم عند الهجوم على العدو. فكانوا «المسؤولين» العظام أصحاب الانتصارات المجيدة.

كانت الإدارة العسكرية تشكل دائرة خاصة من دوائر السلطة، تحت إمرة الوزير، فكان دوره مماثلاً لوزير الحربية في العصر الحديث، ويجتمع بصفة منتظمة بقواد الجيش الذين يعرضون عليه التقارير الخاصة بأحوال الفرق العسكرية والمصون ونقاط الحدود وينقل إليهم الأوامر التي يتعين عليهم تنفيذها. ولكنه يهيئ الملك علماً بكل ذلك، بصفته القائد الأعلى.

١- مع الجيش من السودان إلى الفرات

أمنحوتب الأول: هل كان عامل استقرار أم فاجأ؟

تولى أمنحوتب الأول وهو ابن أحمس والملكة أحمس - نفرتاري زمام الحكم حول عام ١٥٥٧ ق.م. وفي وسعنا أن نحدد تاريخ تربيته على عرش البلاد بشيء من الدقة. وبالفعل واستناداً إلى نص مدون على ظهر بردية إيبيرز Ebers نعرف أن العام التاسع من عهده شهد شروقاً إحترافياً للنجم سوتيس^(٣). وتحدث هذه الظاهرة بعد أن يظل النجم سوتيس (الشعرة اليمانية) غير مرئي لمدة سبعين يوماً وهي فترة

(*) قبل الإسكندر الأكبر. (المترجم)

إقترانه بالشمس لتصبح رؤيته ممكنة بعد ذلك، قبيل شروق الشمس. ويفضل الحسابات الفلكية أمكن تحديد تاريخ هذه الظاهرة.

امتدَّ حكم أمنحوتب الأول ليصل إلى إحدى وعشرين سنة على أقل تقدير. وفي مقبرة ضابط من أبناء طيبة يدعى أمن إِم حات يعلن أنه ظل في خدمة العاهل الملكي طوال هذه الفترة. ومن جهة أخرى صُوِّر العاهل الملكي على أحد أبواب الكرنك «وهو يحتفل بئول أعياده اليوبيلية^(٤)». وتظهر صورة مماثلة على باب من أبواب معبد الملك الجنائزي في القرنة. ولما كان الإحتفال بئول يوبيل يقام من حيث المبدأ في العام الثلاثين من عهد الملك^(٥)، وإن لم يوجد ما يجبر الملك أن يتقيد بهذه المدة، فمن المعتقد أن مدة حكم أمنحوتب البلاد تتراوح بين إحدى وعشرين وثلاثين سنة. وحدد مانقون عشرين سنة فقط، ومجموعة ألقاب الملك الرسمية على النحو الآتي:

حورس : الثور الذي يربط الأراضي،

السيدتان: عظيم هو الرب الذي يثيره (الملك)،

حورس الذهبي: هذا الذي تدوم سنواته،

ملك مصر العليا ومصر السفلى: جسر كا رع (أي: «مقدس هو كا (الإله) رع»).

ابن رع : أمنحوتب، (أي: «ليكن آمون راضياً»).

كان لابد من الحفاظ على فتوحات أحمس المجيدة وتميزها. وفي أعقاب والده، واصل أمنحوتب الأول المروب في أراضي الجنوب.

ويتحدث الموظف الأمين أحمس بن أبانا قائلاً:

قمت بقيادة سفينة جسر كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى، بينما كان يصعد النهر متجهاً إلى بلاد كوش لتوسيع حدود مصر. وضرب صاحب الجلالة هذا النوبي^(٦) الخسيس وسط جيشه ذاته واقتيد مكبلاً بالأصفاد. (ومن الجيش) لم يتبق شيئاً والذين وآوا الأدبار حُصدوا حصداً وطرحوا على جانبيهم وكانهم لم يوجدوا قط... ثم ذهبنا لإحضار الشعب وقطعان العدو المهزوم. وجئت بأسير وأمديته إلى

صاحب الجلالة. وبعد ذلك، وفي خلال يومين اصطحبت الملك من البئر العليا (الجنـدل الثاني) إلى مصر. وكوفئت بالذهب وأحضرت خادمتين غنيمَةً، فضلاً عما قدمته إلى صاحب الجلالة. ومُنحت لقب «محارب الأمير»^(٥).

أن يكون أمنحوتب الأول قد وصل إلى جنوب الجنـدل الثاني في السودان، يؤكده النص المحفور في مقبرة أحد النبلاء ويدعى أحـمس- بن نخبت وهو ضابط آخر من أبناء مدينة الكاب:

لقد اصطحبت جسر كا رع ملك مصر العليا ومصر السفلى. ومن أجله ألقيت القبض في بلاد كوش على أسير حى. ومن جديد حاربت من أجل جسر كا رع ملك مصر العليا ومصر السفلى ومن أجله استوليت إلى الشمال من إيمان- كحك^(٦)، على ثلاث أيام^(٧).

ربما كانت كاروى، إلى الشمال من الجنـدل الثالث، هي أبعد نقطة وصل إليها الزحف المصرى. واستناداً إلى معلم أثرى يعود إلى بن- قا- ورت الملقب «الكاهن وعب الذى يدخل إلى جوار آمون»، فإن «جسر كا رع رب الأرضين أمنحوتب (قد وصل) إلى كاروى»^(٨).

لم نعث حتى الآن على إفادة واضحة عن قيام أمنحوتب الأول بحملة عسكرية إلى آسيا. ولكن في مئونة تعود إلى العام الثانى من عهد خليفته تحوتمس الأول يعلن هذا الأخير أن إمبراطوريته تمتد من طُمبُس في السودان، إلى الشمال قليلاً من الجنـدل الثالث، وحتى نهر الفرات. وربما كان من الصعب تحديد تاريخ هذا التقدم الكبير للمصريين في آسيا بالسنة الأولى من عهد تحوتمس الأول، لاسبما إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم وجود وثيقة واحدة تشير إلى قيام هذا الملك بحملة عسكرية أسيوية. والأقرب إلى الصواب أن نذهب إلى القول بأن أمنحوتب الأول نظراً لطول عهده قد واصل في اتجاه الشمال التقدم الذى بدأه والده.

وأياً كان الأمر، فإن نشاطه في سيناء جدير بالذكر، على كل حال. وتشهد على ذلك المدونات المنحوتة في معبد حتحور بسراييط الخافم وبعض مخازن القرايين التى تحمل اسمه^(٩).

ولا ندرى شيئاً عن ظروف وفاته، إن إنيى من أشراف طيبة وأحد خلصائه
والذى ظل فى خدمة التحامسة الثلاثة الأوائل، أمر بأن ينقش فى مقبرته فى الشيخ
عبد القرنة^(١٠) النص الآتى:

قضى صاحب الجلالة زمن حياته فى سعادة السنين والرضا . ثم بعد أن ارتفع
إلى السماء، اتحد مع قرص الشمس وامتزج بمن كان قد انبثق منه^(١١).

وبالنسبة لعامل ملكى، يا له من إختلاط تقليدى بالشمس^(١٢) وصولاً إلى ذروة
التبجيل والتأليه.

خوتيس الأول الحارب المنتصر

عند وفاة أمنحوتب الأول حول عام ١٥٢٠ ق.م ثارت مشكلة الخلافة، فمن إقترا
الملك بأخته عح خوتب الثانية، أنجب أبناء ماتوا وهم فى مقتبل العمر، كما رزق بابنة
واحدة على الأقل فى الأميرة أحمس. ويبدو أن الملك قد رزق من سن سنسب إحدى
محظياته، بابن يدعى خوتيس الذى كان لا يزال على قيد الحياة عند وفاة والده الذى
ربما اختاره ليخلفه، بل من المحتمل أنه شارك أباه الحكم. تستند هذه الفرضية فى
الوقت الراهن إلى وجود نقش يصور أمنحوتب الأول وخوتيس الأول معاً جنباً إلى
جنب، وقد جانت به مقصورة الألبستر التى شادها الملك فى الكرنك^(١٣). ولإضفاء
الشرعية على تربيته على عرش البلاد، ربما تزوج الأميرة أحمس التى كانت تنتمى إلى
سلالة الأسرة المالكة الحاكمة، لأنها ابنة الزوجة الملكية العظيمة. وتذهب فرضية
أخرى، إلى أن هذه الأميرة أحمس التى أصبحت ملكة، ربما كانت الأخت الصغرى
للملك أمنحوتب الأول، ومن ثم فقد كانت ابنة الملك أحمس وأحمس نفرتارى^(١٤). ولكن
تفتقر هذه الفرضية إلى وثائق مقنعة. إن الفرضية الأولى حول تتابع خلافة العرش هى

(*) (وهى المقبرة رقم ٨١ من مقابر أشراف طيبة. (المترجم)

(**) نعيد إلى الأذهان أن كلمة شمس من النوع المذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

التي تلقى في المعتاد القبول على أوسع نطاق. وهو ما يؤكد على ما يبدو، نص لوح حجرى نقش عليه المرسوم الملكى الذى وجهه الملك الجديد إلى تورا نائب الملك فى النوبة. هذه الوثيقة التى تم الكشف عنها فى وادى حلفا هى من مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن. كما ورد هذا النص نفسه مع إختلافات بسيطة فى الصياغة، على الجزء المتبقى من لوح حجرى آخر عثر عليه فى كوبان فى الصحراء الشرقية فى النوبة، على مقربة من مناجم الذهب فى وادى العلالهى، ومن مقتنيات متحف برلين حالياً.

مرسوم من الملك إلى تورا الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب. انظر، لقد سلم إليك هذا المرسوم الملكى، لابلأغك بأن جلالتي قد ظهر ظهوراً مجيداً بصفتك ملك مصر العليا ومصر السفلى على عرش حورس الأحياء. وإن يوجد أبداً مثله. وهكذا تعددت قائمة القابى:

الحورس: الثور القوى، المحبوب من الحق والعدالة.

السيدتان: هذا الذى يشع مثل شعلة الصلّة الفائق القوة.

حورس الذهبى: صاحب السنوات السعيدة، الذى يعيد الحياة إلى القلوب.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عاخيركا رع، (أى: «عظيمة هى صيرورة كارع»)

ابن رع: تحوتمس، ليت يحيا للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى!

افعل بحيث تقدم القرابين لآلهة الجنوب والفتن وتقام التسيّحات الشعائرية من أجل حياة وازدهار وصحة عاخيركا رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى.

كما أطلب منك أن تتصرف بحيث يؤدى القَسَم باسم جلالتي، أنا الذى وأدته سن سنپ، والدة الملك^(١٣)، لتكون فى صحة طيبة!

كما أن الهدف من هذه الرسالة إحاطتك علماً بأن القصر الملكى سالماً ومزدهراً.

اليوم الحادى والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الأول، يوم حفل التتويج^(١٤).

وفى القسم المقوس من أعلى اللوح الحجرى، صُوِّرَ تحوتمس الأول وهو يئدى الشعائر الدينية إلى كيانين إلهيين، فى صحبة ملكتين: وهما زوجته أحمس ونفرتارى - ولا شك أنها أحمس نفرتارى حماته المحتملة التى كانت على ما يظن لا تزال على قيد الحياة. فكان وجودها مؤشراً وضماناً على استمرارية الأسرة المالكة الحاكمة. إنها السند الذى يعول عليه للرء الصعوبات التى ربما كانت تشوب سلاسة وراثة العرش.

ومن أجل مصر شرع تحوتمس الأول يغزو إمبراطورية مقرامية الأطراف سوف تضمن لها الازدهار والثروات الطائلة. كما ستحميها من ناحية أخرى من كل هجوم مباشر تشنه عليها قوى أجنبية.

وفى العام الثانى من عهده أمر بنقش نشيد للنصر على منحور طُميس فى السودان، كله تفاخر واعتزاز. وبعد قائمة الألقاب الملكية التى تؤكد على سلطانه وسيادته يقول نص المدونة:

إنه يظهر ظهوراً مجيداً بصفته كبير القطرين ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس، إذ كانت مصر العليا ومصر السفلى، نصيبى الربين حورس وست، والآن لقد اتحدت الأرضين. إنه يجلس على عرش جب^(١٥) ويضع على رأسه البشت المتألق. وهكذا تسلم صاحب الجلالة ميراثه. واستراح حورس على عرشه ليوسع حدود طيبة وممتلكات «هذه - التى - أمام سيدها» (طيبة) حتى يعمل من أجلها العالونبوت والبر (حرفياً: «المقيمون على الرمال»)، وهم سكان الصحارى، الملمونون من الله، ورجال الجنوب يهبطون سائرين مع تيار النهر ورجال الشمال يصعدونه، وقد اجتمعت البلدان الأجنبية قاطبة، وجاءت حاملة الجزية من أجل عاخيركارع الإله الكامل، (إله) المرة الأولى، ليحى إلى أبد الأبد!

قوى هو حورس، رب القطرين. الببو يقدمون له الشكر والحمد، فى حين تسجد قبائلهم أمامه. وأبناء البلد يرقصون من أجل صاحب الجلالة وينحنون أمام صله.

لقد أجهز على زعيم النوبيين، والزنجى الذى أخذه بقبضة يده، خائر القوى، لا يبدى أية مقاومة. لقد وُجِدَ (عند حدوده) حدود جيرانه. لم يبق شخص واحد على قيد الحياة من بين الرجال - من- أصحاب- الشعر- المجعد الذين تمرّبوا على حمايته، لم يبق منهم كائن من كان. لقد طُرح النوبيون أرضاً بعد أن أجهز عليهم وألقى بهم على جنبهم، مبعثرين على أراضيهم. وتفوح فى وبيانهم الرائحة الكريهة للجثث. إن طلاء فمهم أشبه بتدفق وابل من المطر^(١٦). والطيور الجارحة فوقهم بأعداد كبيرة بسبب ضعفهم. إنها تعمل (إلى أوكارها) ما أخذته بمخالبها، بينما يندفع التمساح نحو من يحاول الفرار. ويتوارى من الحورس صاحب الساعد القوى، كل من رزح تحت وطأة مآثره، هو الأوحى المتفرد، ابن أمون الذى أنجب الإله الخفى الاسم، سليل ثور التاسوع، والصورة المجيدة للجسد الإلهى الذى يُتم تسابيح بلو^(١٧) هليوبوليس الشعائرية^(١٨).

وشيد سادة القصر قلعة حصينة من أجل جيشه. لا يوجد قط رجل واحد من بين الأقواس النسمة مجتمعة، يتجاسر على الزحف نحوه لأنه أشبه بفهد شرس يهيم حول قطعان فى مراعيها، ومجد صاحب الجلالة يصيهم بالعمى.

لقد وصل إلى حدود الأرض كلها، وعبر أطرافها بفضل ساعده القوى الساعى إلى المعركة. ومن الآن لن يجد من يتجاسر على منازلته. لقد اجتاز ودياناً كانت مجهولة من أسلافه، فلم يراها أبداً من كانوا يرتدون (التاج) پشتت. وتمتد حدوده الجنوبية إلى جنوب هذه البلاد وحدوده الشمالية حتى هذه المياه الشهيرة الشاردة التى يهبط نياز مجراها ناحية الجنوب^(١٨). لم يحدث أبداً من قبل شيء مماثل، لغيره من الملوك.

أما الآن فقد انضم اسمه إلى مدار السماء ولامس أطراف الأرض، ويُقسّم الجميع باسمه فى كل بلد من البلدان، بسبب عظمة مجد صاحب الجلالة، ولم تلتق بشيء مماثل فى محفوظات أسلافه منذ (زمن) خدام حورس^(١٩). إنه يعطى النسمة لن يتبعه وقرايينه تُقدّم لن يسير على سراطه. أجل، إن صاحب الجلالة هو حورس

(*) الواو علامة الجمع. (المترجم)

الذى استأثر بملك (بضم الميم) ملايين السنين، إن جزر الدائرة الكبرى فى خدمته والأرض قاطبة تحت نعليه.

إنه ابن رع المنتمى إلى جسده، إنه محبوبه تحوتمس، فليحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى. إنه محبوب آمون - رع، ملك الآلهة والده اليهى الذى خلق الكمال، إنه محبوب تاسوع الكرنك الإلهى، قله الحياة والثبات والإزدهار، إنه السعيد على عرش حورس، بينما يقود الأحياء أجمعين، مثل رع، إلى أبد الأباد^(٢٠).

يتلخّص هذا النص «الإمبراطورى» الأول بالصورة الزاهية والحماسة المتقدمة والصيغ المفخمة والواقعية المفرطة أحياناً. ومن الآن، فإن الإمبراطورية سواء فى قسمها الأسبوى أو الإفريقى، باتت تغطى مناطق شاسعة، وكانت مدينة طيبة الساهرة، عاصمة الشرق الجديدة وقلبها النابض. كان آمون - رع أباً الملك الذى ولد من صلبه، يرشد العامل الملكى ويحمى فتوحاته.

ويعمرزها تحوتمس الأول بإقامة لوح حدودى حجرى عند شاطئ نهر الفرات، كان لا يزال قائماً فى مكانه فى عهد تحوتمس الثالث الذى شاهده، بعد مرور زهاء خمسين سنة.

ولا نعرف سوى معلومات غير دقيقة عن تفاصيل العمليات العسكرية الطائفة التى كانت ضرورية.

وبادئ ذى بدء اضطر تحوتمس الأول أن يصعد نهر النيل ومعه جيشه، ويحدثنا أحمس - بن - نخبت عن مآثره قائلاً:

وتبعت عا خيبر كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ومن أجله قبضت على أسيرين فى بلاد كوش، عدا الذين جئت بهم أيضاً من كوش ولم أحسب حساباً لهم^(٢١).

ويأتى أحمس بن أبانا على ذكر تمردين محتملين متتاليين فى الجنوب القصى:

كنت اصحاب عا خير كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى على متن سفينته، بينما كان يصعد النهر في اتجاه خفت - إن - نفر اقمع تمرد (حدث) في البلدان الأجنبية وبحر إغارة قادمة من جهة الصحراء^(٢٢). وأقدمت في حضرته على عمل بطولى وسط مياه وعرة كانت تُحرق بالسفينة في ممر من الجندل بالغ الخطورة (الفقرة مهمشة). ومن المرجح أن الملك قد أحبط علماً بوقوع تمرد جديد لايبعد كثيراً عن موقعه). عندئذ خرج صاحب الجلالة عن طوره وكئنه فهد. وسند سهمه الأول ليظل مستقرًا في صدر هذا العدو الخسيس. [وهرب المتمردون] وقد خارت قواهم بسبب لهب صله. وفي لحظة، وقعت هناك مذبحة رهيبة واقتيد جميع السكان أسرى. عندئذ هبط صاحب الجلالة في اتجاه الشمال، بعد أن أصبحت كل البلدان الأجنبية في قبضته، بينما كان نوبى خسيس يتدلى عند قياد السفينة الملكية ورأسه إلى أسفل. ونزلنا إلى الشاطئ عند الكرك^(٢٣)، لتكريس العدو للإله آمون - رع وتقديم القرابين للإله النصر.

بعد انقضاء ثمانية أشهر على هذه الحملة، اضطر تحوتمس الأول في العام الثالث من عهده أن يعود إلى خوض المعارك ضد كوش. وتشهد على ذلك المدونات الصخرية الثلاث التي أمر نائب الملك توراً بحفرها في جزيرة سهيل وفي أسوان. ويعود تاريخ الثلاث إلى «اليوم الثاني والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام الثالث، من عهد الملك» - أى عند بداية شهر إبريل.

• في جزيرة سهيل:

أمر صاحب الجلالة بإزالة العوائق من هذه القناة (التي كان سنوسرت الثالث قد شقها عبر صخور الجندل الأول^(٢٤)) بعد أن وجد أن الأحجار قد تراكمت فيها، بحيث استحال على أية سفينة أن تعبرها. ثم هبط في مجرى النهر سعيد القلب بعد أن أجهز على أعدائه. إنه الابن الملكى توراً^(٢٥).

• في أسوان:

عاد صاحب الجلالة من بلاد كوش بعد أن قضى على أعدائه^(٢٦).

واضطر تحوتمس الأول أن يتوغل في أعماق أفريقية. وبالفعل فإن منونة للعامل الملكي سيتولى حفيده تحوتمس الثالث تجديدها، قد حفرت على الصخرة المعروفة اصطلاحاً بهجر المروة، قبالة بلدتي الكنيسة وكركس، فيما بين الجندل الرابع والجندل الخامس. تعتبر هذه المنونة الأثر الأبعد، جهة الجنوب، الذي تم تسجيله على أرض الواقع. إن الشذرات المتبقية من النص تذكرنا بنص ألواح الحدود الحجرية من عصر سنوسرت الثالث^(٢٧).

أما معلوماتنا عن انتصارات الملك في أسيا فهي شحيحة. فمن خلال سيرة حياة كل من أحمس بن أبانا وأحمس - بن - نخبت وهما من خلاء الملك، نعرف أنهما شاركا أيضاً في الحملات العظيمة التي قادت إلى هذه الفتوحات ونعرف احتدام المعارك التي دارت في بلاد نهارينا الملاصقة للشاطئ الأيمن من نهر الفرات.

● أحمس بن أبانا:

وبعد ذلك (حملات السودان)، رحلنا إلى الريتنو للترويج عن النفس^(٢٨) عبر البلدان الأجنبية. ووصل صاحب الجلال إلى نهارينا، وما إن التقى بهذا العدو الخسيس^(٢٩)، حتى دارت رحى المعركة، ف وقعت مذبة كبرى، وكان من الصعوبة بمكان إحصاء عدد الأسرى الذين أتى بهم من انتصاراته. ومع ذلك، كنت على رأس الجيش، واستطاع صاحب الجلالة ملاحظة مدى بسالتي. وأسرت مركبة حربية وجيادها وعُدت بها وقدمتها إلى الملك. ومن جديد كوفئت بالذهب^(٣٠).

● أحمس - بن - نخبت:

ومن جديد حاربت من أجل الملك ما ظهر كارع. وفي بلاد نهارينا أسرت أيضاً من أجل الملك ٢١ يداً وفرساً واحداً ومركبة حربية. كما اصطهبت الملك وعُدت من بلاد شاسو بأعداد غفيرة من الأسرى لم أستطع حصرهم^(٣١).

تكشف هذه الروايات عن قدر من العنف وحدث عدد من الإشتباكات المسلحة. ويبدو إذن أن تحوتمس الأول قد وصل إلى شواطئ نهر الفرات. ومن المؤسف حقاً ألا تذكر أسماء الأعداء الذين تصدّى لهم آنذاك هل كان الأموريون والميتانيون قد ظهروا

منذ ذلك الوقت على مسرح الأحداث؟ ثم ويعد أن عاد متجهاً ناحية الجنوب خاض المعارك في الريتو وفي كنعان.

كما نعرف واقعة غنية الأفيال التي سجلتها المدونة التي أمرت حتشپسوت ابنة تحوتمس الأول بنحتها في معبدها الجنائزى بالدير البحرى لتخلد إلى أبد الآباد الأمجاد الحربية لوالدها العظيم:

إن بسالة الملك عا خپر كلوع قد أعادته من إنتصاراته فى بلاد الجنوب وبلاد الشمال، بعدد من الأفيال، كان صاحب الجلالة شخصياً قد اصطادها فى بلاد نهارينا، بينما كان عائداً على متن مركبته بعد أن قضى على الريتو العليا. كان صاحب الجلالة قد وصل إلى بلاد نهي عندما التقى بهذه الحيوانات. لم يكن شيء مماثل قد حدث لأى من أسلافه. عندئذ عاد ومعه أفيال هذا البلد وأعطاهام لمعبد أبيه آمون رب عروش الأرضين، بعد رجوعه مقتدراً قوياً منتصراً، وأجهازه على أعدائه^(٣١).

هكذا أسس تحوتمس الأول إمبراطورية مصر، فخرج على رأس جيشه ليسلك طرق آسيا وإفريقيا ودرورها. ولكن هذه الهيمنة المصرية التي شملت مناطق مترامية الأطراف سرعان ما أيقظت طموحات منافسه، فلم تمر عدة عقود حتى حاولت الميثاني أن تنصدي لهذا التوسع ولكن ذهبت جهودها سدى.

حكم تحوتمس الأول مصر لفترة عشر سنوات تقريباً. ثم «استراح الملك فى سلام، وارتفع إلى السماء» بعد أن أتم سنواته، سعيد القلب^(٣٢).

تحوتمس الثانى والحفاظ على الإمبراطورية

عند وفاة تحوتمس الأول حول عام ١٥٢٠ ق.م، ثارت من جديد قضية وراثة العرش. ويعتقد أن ثمرة اقتران العامل الملكى بالملكة أحمس كانت ولادة خمسة أبناء^(٣٣)، نعرف اثنين منهم حق المعرفة: أولهما هو الابن البكر، الأمير أمن مس، القائد العام للجيش المصرى، وكان لا يزال على قيد الحياة فى العام الرابع من عهد

أبيه^(٣٤). أما الثاني وهو واج مس فتظل أصوله من الأمور المشكوك فيها. وأياً كان الأمر، يبدو أن هؤلاء الأمراء قد وافقهم المنية قبل وفاة أبيهم الذي رزق أيضاً، على ما يظن من إحدى المحظيات^(٣٥)، وهى على كل حال امرأة ذات أصول ملكية، تدعى **موت نفرت** (أى «موت الجميلة»)، رزق منها ابناً اسمه **تحتمس** سوف يصبح الملك تحتمس الثاني.

أن تنتسب **موت نفرت** إلى الأسرة الحاكمة واضح كل الوضوح، وإن كنا نجهل اسم والدها على وجه الدقة، وربما كان **أمنحوتب الأول**^(٣٦)، وفى هذه الحالة قد تصبح أخت الملكة **أحمس**. ونشاهدها إلى جانب **تحتمس الثاني** على تمثال للعاهل الملكى قائم أمام الصرح الثامن فى معبد الكرنك، فتظهر هنا بصفتها «ابنة الملك وأخت الملك». إنها محبوبته: **موت نفرت**. وقد وُضع هذا الاسم الأخير داخل خرطوش^(٣٧). كما عثر على تمثال آخر يصور **موت نفرت** فى المعبد الجنائزى للأمير واج مس، على البر الغربى لمدينة طيبة. ويعلن المتن أن «ها خهر إن رع (اسم تتويج)» (**تحتمس الثاني**) الإله الكامل ورب الأرضين، أمر بإقامة هذا المعلم الأثرى من أجل **والفته موت نفرت زوجة الملك والدة الملك**^(٣٨).

ولقد عيم حقه الشرعى فى التربع على العرش تزوج الأمير **تحتمس** من أخته غير الشقيقة المولودة من اقتران الملك بالأميرة **أحمس**، وهى الأميرة **حتشپسوت** التى يعنى اسمها «الأولى على السيدات النبيلات». ومن الآن أصبحت هذه الأميرة تحمل ألقاب الملكات العظيمات فى بلاط طيبة: «ابنة الملك وأخت الملك والزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة»^(٣٩).

ويبدو أن **تحتمس الثاني** كان فى شرح الشباب عند ارتقائه العرش: «كان صقراً لا يزال فى عشه... ومنذ ذلك الحين كان ملك السوء»^(٤٠) وحاكم العمراء^(٤١)^(٣٩) وانتصر على الشاطئين واستنثر بهما^(٤٢).

ويبدو أن سنوات حكمه كانت قصيرة نسبياً وفى حدود عشر سنوات. ومن المحتمل أن العاهل الملكى قد وافقه المنية متأثراً بمرض عضال بلا شك، وهو فى

(*) أو اسم نسويته - ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الثلاثين من عمره تقريباً وأن نشاطه العسكرى الشخصى كان محدوداً جداً فى واقع الأمر حتى وإن اضطر الجيش المصرى أن يتحرك منذ السنة الأولى من عهده لسحق تمرد وقع فى السودان.

نعرف هذه الأحداث بفضل مبنونة أمر الملك المنتصر بنحتها فى الصخر فى الطريق المؤدى من أسوان إلى جزيرة فيلا:

فى اليوم الثامن، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان، من العام الأول،
الشرق المتألق على عرش هورس الأحياء لصاحب الجلالة:

هورس: الثور القدير، صاحب القوة الباسلة.

السيدتان: صاحب الملك (بضم الميم) الإلهى،

هورس الذهبى: صاحب الصيورات المسيطرة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع (أى: «عظيمة هى صيرورة رع»).

أبن رع: تحوتمس، صاحب الإشراقات الكاملة.

إن أباه رع هو حمايته السحرية، مثله مثل أمون، رب عروش الأرضين، فمن أجله يقضيان على أعدائه.

كان صاحب الجلالة فى قصره. قديراً كان مجده والرعب الذى يثيره يعم ربوع الأرض. هيبتة كانت قائمة على ضفاف العالونيموت، وحصتا هورس وست كانتا تحت سيطرته، والأقواس القسمة تحت نعليه. والأسيريون المحملون بالجزية يأتون إليه بينما حُرم النوبيون من النسمة. وتصل حدوده الجنوبية إلى بداية الأرض وحدوده الشمالية إلى تخوم المستنقعات^(٤١).

(وبعد مرور ثلاثة قرون سوف يعود ميعتى الأول إلى استخدام المصطلحات نفسها عند وصف الإمبراطورية المصرية^(٤٢)).

لقد أصبحت آسيا من ممتلكات صاحب الجلالة ولا يُردّ موفده أبداً على امتداد البلاد الفينقية.

جاء من يُخبر الملك هذا النبأ: «لقد عمّ التمرد بلاد كوش الخسيصة، ومن يخضعون لرب القطرين، شرعوا يتمردون ليهزموه. بل إن أبناء مصر (المستوطنين) قد قادوا قطعانهم بالفعل إلى داخل أسوار هذه القلعة التي بناها والدك، إبان حملاته المنتصرة - (والدك) عاخير كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا للزمن اللانهائي! - ويتعجبون لطرد البلدان المتمردة ونوبيي خنت - إن- نفر. وبالفعل، فإن زعيماً من شمال بلاد كوش الخسيصة قد انضم إلى التمرد وفي الوقت نفسه كان معهم اثنان من النوبيين وأولاد زعيم من بلاد كوش الخسيصة هذه، الذين سبق أن أُجبروا على الفرار أمام صاحب الجلالة يوم المذبحة (التي أقدم عليها) الإله الكامل. كان هذا البلد قد انقسم إذن إلى خمس مناطق وكان كل واحد يسهر على سلامة نصيبه».

(يمكن التأكد من وجود هذه التحالفات التي كان يعقدها زعماء القبائل في أزمنة سابقة، من واقع النصوص التي تسرد تفاصيل العملات الأفريقية إبان الأسرة السادسة، ومنها العملة التي خرج حرخوف على رأسها^(١٢٣)).

عندئذ وبعد أن استمع صاحب الجلالة إلى ذلك، ثارت ثائرتة كالفهد. وقال: «حقاً وكما أنني أحب رع وأمتدح أبي آمون سيد الآلهة ورب عروش القطرين، أقسم بأنني لن أترك أحداً من ذكورهم حياً وسوف أحنى ظهورهم».

وأرسل صاحب الجلالة إلى النوبة جيشاً جرّاراً، في غمار حملة النصر هذه، للقضاء على كل الذين كانوا قد تمرّبوا عليه وكشفوا عن عصيانهم على رب القطرين. وحمل جيش صاحب الجلالة إلى كوش الخسيصة، وكان بقيادة مجد الملك، بينما كانت سورة غضبه العربي تجهز على من يتقدمون نحوه. عندئذ أباد الجيش هؤلاء الأجانب، ولم يترك أحداً من الذكور حياً عملاً، بأوامر صاحب الجلالة. ومع ذلك فقد أُستثنى صبي من أولاد زعيم كوش الخسيصة واقتيد أسيراً مع حاشيته إلى حيث يقيم الملك. كان مكانهم تحت قدمي الإله الكامل، إذ كان صاحب الجلالة قد تجلّى مشرقاً على

عرشه، بينما كان يُساق الأسرى الذين أتى بهم جيشه. وعاد هذا البلد ليصبح من أملاك العاهل الملكي، كما كان في الزمن الغابر.

كانت صياح الشعب تتعالى فرحاً والجيش يتהלّل من نشوة السعادة. كانوا يحيون رب القطرين ويعلمون على الملأ عظمة هذا الإله الخير من خلال أفعاله الإلهية. حدث ذلك بسبب هيبة صاحب الجلالة، زد على ذلك، بمقدار ما كان أبوه آمون يحبه، أكثر من أي ملك آخر عاش من قبل، منذ أقدم أزمنة الأرض.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع.

ابن رع: تحوتمس، صاحب الإشراقات الكاملة^(٤٤).

يبدو أنها كانت المرة الأولى التي لا يشارك فيها الملك بشخصه في حملة عسكرية. وقيل أن تحوتمس الثاني كان رقيق الصحة ولهذا السبب على ما يعتقد وافته المنية في سن مبكرة^(٤٥).

وفي عهده نشأت عادة جديدة مفادها أن تستقبل طيبة واحداً أو أكثر من أبناء الزعماء الأجانب لتنشئتهم تنشئة مصرية، حتى إذا عادوا إلى أوطانهم، ساعدوا عند الضرورة في الحفاظ على ترابط الإمبراطورية وتماسكها. وفيما بعد، وبعد إنقضاء مئات السنين سوف يلجأ الفاتحون الرومان أيضاً إلى هذا الأسلوب ذاته.

وعن حملة عسكرية محتملة إلى آسيا، لم تصلنا الإشارة إليها إلا من خلال سيرة حياة أحمس-بن- نخبت وإن شابها الغموض:

لقد اصططحت عا خپر إن رع ملك مصر العليا ومصر السفلى. وعدت ومعى أعداد غفيرة من أسرى الشاسو أحياء. ولم أحصيهم^(٤٦).

من المحتمل أن بعض القبائل في كتمان أو في الريفثوق قد تمردت، ربما بتحريض من الميتاني الذي سيفعل الشيء نفسه فيما بعد. وعرف تحوتمس الثاني كيف يحافظ على الإمبراطورية.

ثم «ارتفع إلى السماء واتحد مع الآلهة»^(٤٧)، وهو لا يزال في ريعان الشباب.

نحو أيديولوجية جديدة

جميع هذه النصوص التي تقدم سرداً للحملات العسكرية التي تم تنظيمها عند مطلع الأسرة الثامنة عشرة، مع قدر من التفاصيل، ويختلف سياقها من نص إلى آخر، تكشف بوضوح عن وجود أيديولوجية جديدة أخذت معالمها تتشكل شيئاً فشيئاً.

لقد بدأ المصريون يدركون ضرورة قيام الإمبراطورية التي أراد ملوكهم أن تمتد لتصل إلى حدود الأرض. وبعد عدة قرون سوف يتطلع الرعامسة أيضاً إلى تحقيق الهدف نفسه. كما عرفت مصر نشاطاً عسكرياً محموداً نشأ من الخوف من حدوث غزوات أجنبية أخرى، فقد ترك الهكسوس ذكرى مؤلمة لا تنسى. ففيما وراء الأراضي التي وفرتها الطبيعة لتأسيس «الوحدة» المصرية، تركز اهتمام مصر أيضاً على البلدان البعيدة عنها إلى حد ما، لجعلها مناطق آمنة.

وأصبح الملك الأداة المتميزة لكل نصر. إنه المهيمن و«المستحوذ» بفضل نار صله، على وجه التحديد، وطبيعته النارية، فهو الابن المنبثق من جسد آمون-رع. وسوف تصوغ هذه الأفكار أحد أعظم الموضوعات في عصر الرعامسة: موضوع الملك الذي في وسعه أن يندمج في قوى الكون الحيوانية والكوسمية^(*) ويتسلح بالتالي بقدراتها الطبيعية والسحرية. كما أن النصر هو نتيجة التقارب القائم بين الملك والآلهة والمشاركة التي تجمع بينهما: ومن هذه الآلهة نذكر رع، وعلى نحو خاص، آمون الذي سيتعاظم دوره بصفته إله المعارك الحربية. فسوف يمدّ يده ليسلم فرعون بلطة الحرب، ويقف إلى جواره في وسط المعركة.

بدأت هذه الأيديولوجية تلوح في الأفق منذ أولى الفتوحات البعيدة. وقد تأكدت إبان الأسرة الثامنة عشرة لتصل إلى أوج ازدهارها في عهد ملوك الرعامسة. وفيما بعد سيلجأ إليها ملوك العصر المتأخر نحو الأصول الأجنبية، ليستخدموا هذه الأدبيات الملحمية العظيمة، في أغراض سحرية، بعد أن تحولت في نظرهم إلى «مستودع»

(*) نسبة إلى كوسموس COSMOS أي العالم في نظام الحكم المرتب. وبخاصة ما يتصل بتركيبه الفلكي. مجمع اللغة العربية. المعجم الفلسفي. القاهرة ١٩٨٢. ص ١٥٢. (الترجم)

للتعويضات الفعالة، فيمكن أن نلاحظ بينها أوجه شبه شكلية. ولكن من الأهمية بمكان ألا يغيب عن بالنا أن النصوص الإمبراطورية التي تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة وحتى الأسرة العشرين، لم تألف بواسطة صيغ منقولة عن نصوص سابقة، بل تعبر، في أغلب الأحوال، عن مشاعر متنوعة ومتعددة، في شكل فيض من الكلمات المتكاثفة، وهذا لا يمنع أحياناً أن تقدم وصفاً موفقاً.

وتشهد قائمة الألقاب الملكية عن هذا التحول الدائم للفكر. فينظر إلى أمنحتب الأول بصفته «هذا الذي يربط الأراضى». وسوف يرد هذا اللقب في كثير من الأحوال ضمن قائمة ألقاب الرعامسة. واعتباراً من تحوتمس الأول نجد أن الاسم الحورى للملك يلحق به مباشرة صفة «الثور القوى» - التي صار وجودها فيما بعد، من الأعراف الثابتة.

ومع نص طمبُس المشهور^(١٨) ظهرت «لغة» جديدة، كما تشهد عليه أربع مدونات صغيرة مقتضبة منحوتة في هذا الموقع ذاته:

● الحورس، الثور القوى، المحبوب من الحقيقة - العدالة، الإله الكامل، هاخبر إن رع،
الذى أجهز على بلاد كوش،
محبوب أمون - رع.

● الحورس، الثور القوى، المحبوب من الحقيقة - العدالة، ملك مصر العليا ومصر
السفلى، رب القطرين، هاخبر إن رع،
الأمير الذى دمر الزنوج،
محبوب أمون، رب عروش القطرين.

● السيدتان: هذا الذى يشع مثل لهب الصل، الإله الكامل ورب القطرين،
هاخبر إن رع،
الذى استولى على الأرض،
محبوب مونتو، رب طيبة.

- **حورس الذهبى:** صاحب السنوات السعيدة الذى يعيد الحياة إلى القلوب،
ابن رع الذى ينتمى إلى جسده، تحوتمس، صاحب الإشراقات الشمسية.
سيد النوبة فى ربوع البلاد وفى كل مكان من أماكنها،
محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين^(٤٩).

هكذا، فعلى الصخور المشرفة على النهر، ومن جندل إلى آخر، وحتى الجندل الرابع، تكدت هيمنة مصر وملوكها وآلهة طيبة على أراضي أفريقيا القصية. كانت هذه المدونات أكثر من مجرد إشارات تدل على تبعية هذه البقاع لمصر. فلما كانت الكلمة فى الفكر القديم، عنصر خلاق موهوب الحياة، فقد كانت أيضاً أداة سحرية لردع حركات التمرد المحتملة وإقناع القائمين بها بالعدول عن سلوكهم، كما كان لها فاعلية السلاح ذاته وناجعة مثله. كان خيتى الثالث ملك هرقليوپوليس يتحدث إلى ابنه مري كارع قائلاً: «الكلمات أقوى من أية معركة حربية»^(٥٠).

وإذ اقتضى تحوتمس الأول بكل من أحبس وأمنحوتب الأول فقد خلق الإمبراطورية على الصعيدين المادى والروحى.

٢- الأمراء والقادة العسكريون:

كبار مؤسسى الإمبراطورية

الوزراء ونواب الملك

الوزير إيمحوتب وهو ثانى من حمل هذا الاسم، شغل منصبه فى عهد تحوتمس الأول. كان من خلصاء الملك، كما كان المربى المشرف على تنشئة الأمير واج مس والأولاد الملكيين، إن جزءاً من مدونة، جاد به المعبد الجنازى للأمير يذكر ما يلى:

أما عن عمدة المدينة، الوزير إيمحوتب (أى «هذا- الذى- يتقدم- فى سلام») فقد عيّن مربيًا لتنشئة الأولاد الملكيين لك مصر العليا ومصر السفلى: عاخذ إن رع، بالنظر إلى مدى الخطوة التى كان يتمتع بها عند العامل الملكى^(٥١).

المعلومات هزيلة. ولكنها أكثر تحديدًا بالنسبة للأفارقة.

فمنذ الآن يتضح بجلء أحد المبادئ الأساسية لسياسة الإمبراطورية كما سيطورها تحوتمس الثالث^(٥٢): ألا وهو بكل بساطة تأمين بقاء الحاميات العسكرية فى آسيا ولكن التأكيد على إقامة إدارة مصرية راسخة فى إفريقيا.

فقبل أن ينشئ أمنحوتب الأول منصب نائب الملك، ومنذ عهد أحمس كان شخص مكلفًا سنويًا بجباية الجزية من منطقة ووات ثم إرسالها إلى طيبة. والمقصود بذلك حور- مين أمير مدينة الكاب إلى الجنوب من طيبة والذى يحتفظ له فى الوقت الراهن متحف مدينة فيرونسا بلوح حجرى. يقول نص اللوح:

لقد قال: أتممت سنوات عديدة بصفتى أمير مدينة الكاب مقدمًا منتجاتها إلى رب الأرضين. وكنت موضع مديح، فلم يجد أحد خطأ واحدًا قد ينسب إلى. وبلغت سن الشيخوخة وأنا فى بلاد ووات بعد أن ثلت ثقة (حرفيًا: ملأت قلب) سيدى. كنت أهبط النهر سنويًا مصلاً بمنتجات هذا البلد من أجل الملك، ولم أتوقف عن القيام بهذه الرحلة المظفرة، بون أن يؤخذ على مؤخذ واحد^(٥٣).

إن وظيفة «الابن الملكى، رئيس بلاد الجنوب»- وهى التسمية الرسمية الأولى لمنصب نائب الملك- لم تظهر على وجه اليقين إلا فى العام السابع من عهد أمنحوتب الأول على مغريشة فى سمعة^(٥٤) وتحمل اسم أحمس المدعو تورا^(٥٥). وفى العام الثامن من عهد الملك نفسه، استند هذا الأخير إلى تورا مهمة بناء معبد فى جزيرة أوروئارتى^(٥٦). إن مغريشة صخرية أخرى تعرفه على النحو الآتى:

(*) جنوب الجندل الثانى. (الترجم)

(**) قرب سمعة. (الترجم)

العام الثامن، من عهد ملك مصر العليا ومصر السفلى **چسركارع**^(٥٤). الشريف والأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى، الصديق الأوحى، وموضع ثقة الملك فى بلاد الجنوب، الذى فوّضه رب القطرين لممارسة سلطاته، إنه الابن الملكى تور^(٥٥).

كما رأينا أن تحوتمس الأول قد أبقاه فى منصبه^(٥٦) فأبلغه نص الرسوم الذى أعلن ارتفاعه عرش البلاد، لإذاعته على الملأ.

ومن ثم يمكن القول أن نائب الملك هو منفذ قرارات سلطات طيبة فى الممتلكات الجنوبية.

ونعرف عائلة تور^(٥٧) معرفة مثيرة للإهتمام من خلال المونة المنحوتة على تمثال مكعب لهذا الشخص وهو من مقتنيات المتحف البريطانى (رقم 888. من حجر الكوارتزيت. ارتفاعه ٥٢سم). ونجهل الجهة التى جاء منها، وربما كانت الدير البحرى^(٥٨). نحقت النصوص على الرءاء الذى تدثر فيه الرجل الجالس القرفصاء وتلامس ركبته ذقنه. وقد ظهر هذا الموضوع الثابت، فى تشكيل تماثيل الأسرة الثانية عشرة. نقرأ على ظهر التمثال: الكاتب الملكى وكبير الكهنة المرتلين.... تيتى بن أحمس- پا ثنى، كاتب القرابين الإلهية المقدمة إلى آمون، وابن أحمس- ساتيت، الإبن الملكى ورئيس بلاد الجنوب^(٥٩).

وتأسيساً على ذلك، فربما كان أول نائب ملك معروف هو فى الحقيقة أحمس - ساتيت والد تور^(٦٠)، الذى لا نعرف عنه شيئاً خلاف ذلك.

وتأكدت صحة سلسلة النسب هذه، من مدونات منحوتة على تمثال آخر يعود إلى تور^(٦١)، كشف عنه نافيل Neville فى أطلال المعبد الجنائزى للملك مونتوهوتپ بالدير البحرى. كما استأثرت هذه العائلة أيضاً منذ تور^(٦٢) بمنصب آخر على قدر كبير من الأهمية، ألا وهو منصب «كاتب القرابين الإلهية المقدمة إلى آمون».

وهكذا نشأت حول العائلة الملكية عائلات قوية، كان فى وسعها بفضل الإنعامات الملكية أن تتوارث هذه المناصب العليا، أباً عن جد.

(٥٤) من ألقاب أمنحتپ الأول. (المترجم)

كان سن هو الذى خلف قورا ليظل فى وظيفته حتى عهد تحوتمس الثانى.
والشاهد على هذه الحقيقة مدونة نحتت على باب معبد سمته:

● فعلى المصراع الأيسر يوصف سن على النحو الآتى:

الأثير الذى ينقسم إلى بطانة الملك، عمدة مدينة الجنوب، المشرف العام على
مخزن الغلال المزبوج للإله آمون، الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب. لقد كُلف بالإشراف
على بلاد المچاى بأسرها، بالنظر إلى ما له من تأثير عظيم على قلب ملك القطرين.

● وعلى المصراع الأيمن يقدم سن فروض التبجيل والتكريم للإله خنوم وللعاقل
الملكى على النحو الآتى:

التهليل للإله خنوم والسجود أمام من يضرب^(٥٨)... (٩) حتى إرتفاع السماء
وحتى عرض الأرض وحتى أغوار الشديدة الإخضرار- من قبل سن الابن الملكى
وحاكم بلاد الجنوب الذى يقول: «المديح والثناء لك، كما تقول لك إلهة الأفق، فليعبدك
أمير النجوم فليثن عليك تاسوع الشمال العظيم، على مدار النهار وللزمن الأبدى
وللزمن اللانهائى»^(٥٩).

كما استمر سن فى منصبه فى عهدى حتشپسوت وتحوتمس الثالث.

لا شك أن أمنحوتب الأول، رغبة منه فى مراقبة الإضطرابات التى يثيرها أهل
واحات الصحراء الغربية، قد عين حاكماً على غرب الوادى. فمن مقتنيات متحف
اللوفر Le Louvre لوح حجرى للمدعو إيت-نفر، أمير الواحة. وبعد صيغ القرابين
التقليدية، يؤكد هذا اللوح على أن هذا الرجل كان من الذين نالوا حظوة عند العاقل
الملكى:

قربان يقدمه الملك إلى أوزيريس، رب بوزيريس، وإله العظيم سيد أبيدوس-
حتى يعطى القرابين التى تخرج مع الصوت (أى أن النطق باسمها يظهرها إلى
الوجود): الخبز والجعة والثيران والطيور والأدهان والثياب الكتانية وكل ما هو طيب
وطاهر، يعتمد عليه أى إله فى معاشه، وكل ما جادت به السماء وكل ما خلقته الأرض
وكل ما جلبه النيل من مغارته، وكل ما يُطعم فضلاً عن واقع استنشاق نسمة ريح

الشمال العليلة وشرب الماء عند شاطئ النهر- (حتى يعطيها) إلى كا أمير الواحة،
الصديق الحميم للعاهل الملكي ومحبيه، بالإضافة إلى زوجته المحبوبة يى. إنه أثر
أعدّه أخوه الكاتب حور- إم- أخت، ليت حياته تتجدد^(٦٠)!

وللأسف نجهل على وجه التحديد طبيعة وظيفته.

أمرء الكاب

عند موقع الكاب على مسافة ٨٨ كم جنوب طيبة، تم الكشف عن جبانة تبعد
كيلومتريْن عن نهر النيل. لقد حُفرت المقابر في الصخور الواقعة على جانب السهل،
ونُقرت نُقراً في المنحدر الجنوبي لتل صغير. وهنا عثر على «بَيْتِ الأبدية» لرجلين كانا
من أشجع رفاق ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فأنبليا بلاءً حسناً في المعارك التي
خاضها، نقصد أحمس بن أبانا وأحمس بن نخبت^(٦١). ويفترض أن أولهما ظل
يخوض المعارك حتى بلغ سن السبعين تقريباً، بدءاً من عهد أحمس وحتى نهاية عهد
تحتمس الأول. فُخِمْت سيرة حياته بقوله:

لقد أصبحت طاعناً في السن وبلغت من العمر أرذله. ولكن تظل حظوتى كما
في السابق... وسوف أرقد في المقبرة التي جهزتها بنفسى^(٦٢).

حقاً لقد احتفظ الزمن بذكراه، ولا يطلق راحته في «بيت الأبدية» سوى تطفل
السيّاح الفضوليين.

ولا كان أحمس بن نخبت مزهواً بلا شك بما قدّمه من خدمات جسورة
ومخلصة فقد دُوِّن في مقبرته بدافع من الكبرياء، حصراً بالقائمة الطويلة للملوك الذين
ساعدهم في فتوحاتهم وفي تأسيس الإمبراطورية، فضلاً عن الإنعامات التي أُغدقوها
عليه:

(*) يضم هذا الموقع مقابر أخرى نذكر منها مقبرتي ياحرى وبنى من الأسرة الثامنة عشرة
ومقبرة سبتاو من عصر الرعامسة. (الترجم)

لازمت الآلهة، ملوك مصر العليا ومصر السفلى. وكبرت وأنا بجوارهم، وكنت
فى أعقابهم فى البلدان الأجنبية جنوباً وشمالاً، وفى كل مكان ذهبوا إليه.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب پحتى رع (أحمس)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: چسر كا رع (أمنحوتب الأول)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر كا رع (تحوتمس الأول)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع (تحوتمس الثانى)

وصولاً إلى هذا الإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع
(تحوتمس الثالث)، له الحياة إلى أبد الآباد^(٦٢).

ومنحنى الملك چسر كا رع سوارين وقلاتين وحلقة للعضد وسيفاً وعصابة
رأس ومروحة مرصعة وجميعها ممونة بالذهب.

ومنحنى الملك عا خپر كا رع أربعة أساور وأربع قلاند وحلقة للعضد وست
ذبابات^(٦٣) وثلاثة أسود وبلطتين وجميعها ممونة بالذهب.

ومنحنى الملك عا خپر إن رع أربعة أساور وست قلاند وثلاث حلقات للعضد
وبلطتين من الفضة وجميعها ممونة بالذهب^(٦٤).

(تتزايد أعداد المكافآت وتتعاظم قيمتها)

هكذا بلغت شيخوخة سعيدة، منتسباً طوال حياتى إلى بطانة الملك وثلت
إنعامات أصحاب الجلالة. وكنت مفعماً بحب القصر الملكى لذاتى.

وتجددت هذه الإنعامات من جانب الزوجة الملكية العظيمة ماعت كا رع
(هتشپسوت). وأشرفت على تربية إبنتها البكر، الابنة الملكية ماعت - نفرو - رع، عندما
كانت لا تزال طفلة رضية^(٦٥).

إن هذا الجندى العظيم^(٦٦) الذى ظل - بعد أن أصبح شيخاً عجوزاً - يحتلى
برعاية بلاط طيبة الذى تفانى فى خدمته على أرض كافة ساحات القتال فى آسيا

(*) قلادة كانت تمنح للصكريين تقديراً لشجاعتهم فى المعارك الحربية. ويحتفظ المتحف المصرى
بالقاهرة بنموذج رائع الجمال الطابق العلوى، القاعة رقم ٤. (الترجم)

وإفريقيّا، وقع عليه الإختيار قرب نهاية حياته ليكون مربّى الأميرة ثمرة زواج حتشيسوت من تحوتمس الثانى، كدليل على آخر مظاهر التقدير التى حظى بها مقابل إخلاصه الصادق لسنوات طويلة. كان الملوك يعرفون كيف يكرّمون أتباعهم المخلصين. إن پاخرى حفيد أحمس بن أبانا، وهو ابن بنته، كان عمدة مدينتى الكاب وإسنا، فضلاً عن كاتب الخزينة الملكية، وله مقبرة فى الكاب تقع إلى اليمين قليلاً من مقبرة جدّه. وقد ترك لنا شواهد مثيرة للإهتمام. إنه نمن ملويل يضم تحديداً صلوات جنازية وتأمّلات حول العالم الآخر ومحاولة تبرير سلوكه طوال حياته على سطح الأرض.

صلاة من أجل خدمة القرايين

قربان يقدمه الملك إلى آمون، رب عروش القطرين، عاقل الزمن الأبدى وسيد الزمن اللانهاى، الملك صاحب الريشتين الكبيرتين^(٦٦)، الأوحى المتفرد، الأزلى، كبير الأزمنة العتيقة [الذى خلق البشر] والآلهة، إنه الشطة الحية المنبثقة من نون، الذى يهب البشر النور،

- (وأيضاً قربان يُقدّم) إلى نخبت، بيضاء الكاب، سيدة السماء التى تقف على رأس القطرين،

- وإلى أوزيريس، أول أهل الغرب، رب ثنى وكبير أبيدوس،

- وإلى حتحور سيدة الصحراء، ذات القلب القوى من بين سائر الآلهة،

- وإلى حتاح-سوكر، رب شتايت^(٦٧)،

- وإلى أنوبيس، سيد رو ستو^(٦٨)،

- وإلى التاسوع الكبير وإلى التاسوع الصغير،

حتى تُعطى، ما يقارب الألف من أرغفة الخبز ومن أوانى الجعة ومن الثيران ومن الطيور. وما يقارب الألف من القرايين المادية وألف هدية تتجدد على النوم، وكل ما ينبت على ظهر الأرض، وألف من كل ما هو جميل وطيب وطاهر، مما يقَدّم قرباناً لرب الزمن الأبدى.

وحتى تُعطى القدرة على تناول أرغفة الخبز التى تتراكم أمامه، واللبن الوارد من مائدة قرايينه.

وحتى تُعطى (إمكانية) شرب الأمواه المتدفقة من إلفنتين^(٦٩)...

(كل ذلك) بمناسبة عيد الشهر وعيد اليوم السادس وعيد منتصف الشهر وعيد الطلعة الكبيرة وعيد شروق سوتيس والعيد واج وعيد تحوت وعيد الميلاد الأول وعيد ميلاد إيزيس وعيد خروج مين وعيد خروج الكامن سم، وإبان وجبة طعام المساء وإبان فيضان النهر وإبان أعياد السماء فى أيامها، وعلى مدار كل يوم من الأيام^(٧٠). لقد ألبست ثوباً طاهراً من أرقى أنواع الكتان، من الكتان نفسه المستخدم لزينة الجسد الإلهى. لقد مُسحت بزيت صافٍ وسوف تشرب على مقربة من مائدة القرايين وتتقاسم خيراتها، فأنت عين الأعيان الذى يتقدم أصحاب الخطوة،

- من أجل كا أمير الكاب وعمدتها، الكاتب پاخرى (أى: «الرئيس»)، الصادق القول، كاتم أسرار سيده، فى كل خير.

تأملات حول العالم الآخر

سوف تدخل وسوف تخرج سعيد القلب، مشمولاً برعاية سيد الآلهة. عندما يحل كبر السن، سوف تنال دفنة جميلة بعد الشيخوخة. سوف تدرك مكانك فى التابوت (حرفياً: «مالك- الحياة») وتُشَد بالأرض فى صحراء الغرب، وتتموّل إلى با^(٧١) حتى، يتناول بكل تأكيد الخبز والماء ونسمات الهواء. سوف تنجز تحولاتك إلى طائر العنقاء أو الطائر الخطاف أو إلى صقر أو بلشون، حسب رغبتك. سوف تبحر مجدّفاً نون أن يصدق أحد وتعبر الأمواه الدافقة لتعود إليك الحياة من جديد. وإن يُطرد باؤك من جسدك، ففى صحبة الأموات المتالفين (النجوم؟) سوف يصبح^(٧٢) من الآن إلهياً. إن أشهر البالو^(٧٣) سيتمحدثون معك. وتصبح صورتك وسطهم^(٧٤) حتى تتلقى ما تجود به الأرض. سوف تتناول الماء وتستشوق النسمة العلية وترتوى بقدر

(*) هكذا فى صيغة الغائب. (المترجم)

(**) جمع با. (المترجم)

رغبة قلبك، وتعود إليك عيناك لترى وأنتاك لتسمع الكلمات. ويتكلم فمك وتسير ساقيك وتتحرك من أجليك يدك وساعدك. ويصبح لحمك مكتنزاً وعضلاتك ملساء. سوف تسعد بكل جسديك، وتُحصى أعضائك: إنها موجودة بالكامل في صحة تامة وفي أحسن حال ولن يطولها مكروه. وإرادتك تكون معك، في حقيقة الأمر، لأن قلبك كما كان في الماضي سيكون لك إلى الأبد. عندئذ سوف تصعد إلى السماء وتفتح... وترفع إليك الإبتهالات على مر الأيام، عند مائدة قرابين ونحن نفر (أي: «هذا- الذي- يظل- كاملاً- على- الدوام» = فوزيريس). وتتناول الخبز المقدس أمامه، إنها القرابين الخاصة برب الأرض المقدسة (أي: الجبانة).

- من أجل كما أمير الكاب وعمدتها وأمير إسنا وعمدتها، من أجل من يشرف على إحصاء الغلال من إسنا وحتى الكاب. القادر اليقظ الذي بلا أخطاء، إنه الكاتب باهرى، الصادق القول.

سوف تأكل الخبز إلى جوار الله، على مقربة من سلم رب القاسوع. سوف تنفصل عنه، على مقربة من مقر إقامته وسط أفراد المحكمة العليا. عندئذ سوف تتجول بينهم وتصبح صديق خدام هورس، وتصعد وتهبط دون أن يصدك أحد، وإن تُطرد من باب النوات^(٧٣). فمن أجليك سوف تُبلج أبواب الأفق بلجاً، وتُفتح مزاليجها وتدخل قاعة الماعتين^(٧٤) الكبرى^(٧٥)، ويتولى استجوابك الإله المقيم فيها. عندئذ تستطيع التوقف في العالم الآخر والسير بغطى واسعة في مدينة الإله هعبي (الثيل). ويسعد قلبك بينما تقوم بأعمال الحرث في حقول البوح^(٧٥). ويوفر لك عملك إعاشتك، وتحصل على حصاد وفير.

وفي المعدية، تُبث الحبب المناسب، فتتمكن من الإبحار كما يتوق إليه قلبك، بلا هوادة. ومع كل فجر جديد سوف تغادر لتذهب بعيداً، لتعود أنراجك في المساء. ومن أجليك سوف توقد شعلة الليل، إلى أن يحين وقت سطوع نور الشمس، من جديد على صدرك. وسيقال لك: مرحباً! مرحباً! في بيتك هذا، بيت الأحياء. وسوف ترنو إلى

(*) مثلى ماعت. (الترجم)

رع في أفق السماء، وتشاهد آمون عندما يشرق، وتظل يقطاً سعيداً، طوال النهار. ومن أجلك سوف تُطرد جميع الشرور من الأرض. وتعتبر الزمن اللانهائي في فرح، بفضل مديح الإله الذي في داخلك^(*) (الضمير). وسوف يظل قلبك معك ولن يهجرِكَ. ويبقى طعامك في مكانه.

- من أجل كا الكاتب باحري.

حياة بارة

وقال: «أنا من الأعيان والعظيم الفائدة لسيدى، أنا رأس مُحكك، لا أعرف الإعمال. لقد سرت على الدرب الذي سعيت إليه، لأننى أعلم مال الحياة. لقد قيّد الحدود في السجلات و«السلطان» في جميع شئون الملك. فجميع ممتلكات القصر الملكي كانت على غرار ممتلكات هعبي، بينما يواصل جريانه في اتجاه الشديدة الإخضرار^(**). كانت لغتي قاطعة للحفاظ على أوضاع (ممتلكات) سيدى الملك. وكنت أخشى ما أخشاه، ارتكاب أى قصور. لم أدع الصمم عند الوفاء بما يستوجب الدفع، لم استول ولو على جزء ضئيل من المصروفات. كان قلبى ذاته هو الذى يرشدنى إلى طريق خلاص الملك والمقربين منه. كان قلمي المصنوع من البوص، قد حولنى إلى رجل معروف على نطاق واسع ويضمن نجاحى فى المحكمة... وأتاحت لى طبيعتى السديدة أن أرتقى... فإذا وُضعت على الميزان، سوف أخرج كاملاً دون نقصان ومزدهراً. وفى غدواتى وروحاتى يظل قلبى مائلاً. لم أكذب أبداً على الآخرين. وأعلم أن إلهاً يقيم فى الإنسان وأعرفه^(**) وأعلم كيف أميز هذا عن ذاك. لقد أنجزت الأمور وفقاً لما صدر من أوامر. لم أطرح أسئلة إلا فيما يخص المسائل التى يُطلب عنها تقرير. لم أتفوه بكلمات رائجة فى أوساط العوام. لم أرو شيئاً على مسامع سواد الناس. أنا نموذج لكرم القلب. أنا إنسان محل كل تقدير، حظى بكل المن، منذ أن خرج من بطن أمه.

(*) من حقنا أن نقارن هذه العبارة بقول أبى المغيث الحلاج بعد مرور حوالى ٢٥ قرناً.

رأيت ربى بعين قلبى فقلت من أنت قال أنت.

ديوان الحلاج. دار معد ودار النعير. دمشق. ١٩٩٩ ص ٢٨. (الترجم)

(**) راجع أيضاً بيت الحلاج السابق ذكره. (الترجم)

أنا باهرى عمدة الكاب، صادق القول، الذى أنجبه مريى الابن الملكى الكاتب إترورى،
صادق القول، وولده سيدة البيت كام، صادقة القول».

نداء إلى الأحياء

وقال: «انصتوا إذن، أنتم يا من تعرفون الحياة. إنى أتحدث إليكم بون مواراة،
أيها الأحياء الذين ما زلتم على قيد الحياة، أنتم يا أيها الأمراء والرجال القائمين على
سطح الأرض، أيا خدام الإله، أيها الكهنة ذوو الأيدي الطاهرة، والتابعون لهم، أنتم
أيها الكتبة الذين يمسكون لوحة الكتابة والعارفين بالكلمات الإلهية، أنتم جميعاً، أيها
المتنازون مع نويكم، الذين يظهرون تميزهم عندما تمتدحون أعمالكم، إن رع رب
الزمان الأبدى سوف يمتدحك وسوف تفعل الشئ ذاته نخب، بيضاء الكاب، وكل
(كيان إلهي) فعّال في مجال وظيفته. سوف «تستعيون لونكم الأخضر» من أجل
أولادكم حسبما تقولون: «قريان يقدمه الملك» وفقاً لما هو مكتوب (هنا) و«قريان يخرج
مع الصوت» وفقاً لأقوال الأقدمين، والذي يصدر من فم الله. إن من يمدّ يده سوف
يعمل بما يتفق مع ماعته، منجزاً ما ينبغي أن يكون ومطابقاً للنواميس، ويصبح
شاهداً على ذلك أمام هذا اللوح العجبرى. ومن ثم سوف تصبح آلاف أرغفة الخبز
والآلاف أوعية الجمعة ومئات الآلاف من كل ما لذ وطاب، قرايين طاهرة من أجل
الأوزيريس عمدة الكاب وعمدة إسنا وكاتم أسرار مسئول الخزانة إبان الترحال
جنوباً، إنه كاتب الحسابات المتميز باهرى، صادق القول.

إنى أقول لكم وأتصرف بحيث تدركون أننى قصدت فيما قلته خطاباً لا يجنح
إلى المبالغة ولا ينطوى على تبسيط مجحف أو لبس، ولا يترتب عليه الدخول في
مشاحنات مع الآخر، وعندما يُنطق به لا يسبب إخراجاً للمعوز. إنه حديث ممتع يروّج
عن النفس، ولا يملّ القلب من سماعه. إن نسمة الفم لا يبتلعها المرء ولا تهرب ولا
يترتب عليها إعياء. إذا تصرفتم على هذا النحو، سوف يكون الأمر طيباً في نظركم
وتكتشفون... وتُمتدحون. عندما كنت على سطح أرض الأحياء، لم أرتكب ثمة خطأ
ضد الإله. ولذا فقد أصبحت روحاً نورانية، يتوفر لها كل شئ، وحولت مكانى في
الجبانة إلى مكان ممتع، فأمتلك كل ما احتاج إليه ولن أكفّ عن الاستجابة^(٧٧). إن

المتوفى والد لمن يعمل من أجله ولا ينسى من صب له قليلاً من الماء. ومن المناسب لكم أن تنصتوا (إلى هذا الحديث) (٧٨).

يكشف هذا النص عن مختلف جوانب «الآلية» السحرية التي تضمن البقاء على قيد الحياة بعد الوفاة. إنه أشبه بترنيمة لإقامة العدالة في الأرض ولحرية الحركة في العالم الآخر، من أجل وجود أبدي يفالِب الزمان. إن حرية التحول إلى مختلف الأشكال وحرية السير والتنقل والدخول إلى كافة الأماكن السماوية أو الأرضية في أرجاء الكون، قد شكّل على الدوام المقومات الجوهرية التي كان المصري القديم يتطلع إلى تحقيقها من خلال التجديد الأبدي. كما ينطوي النص على نداء محرك للمشاعر موجه إلى الذين ما زالوا على قيد الحياة ويمرّون أمام هذه المدونة لتلاوة سيفة الخلاص التي ستتيح للتقدمات أن تتكس على مائدة قرايين المتوفى، تكديساً سحرياً بفضل القدرة الخلاقة للكلمة^(*) عند النطق به. إن الوجود في مصر وسيلة لبلوغ الأبدية المادية. وهنا نجد أن شخصية أمون عظيمة القدر، إنه الملك الأول والنور البدئي. إن الفكر الديني الذي ظل يتطور منذ آلاف السنين أخذ يزداد رسوخاً ويزداد شمولاً حول الشخصية المقدسة لسيد الكرنك.

أبناء طيبة

تعتبر مقابر الأفراد بالبر الغربي لمدينة طيبة، في نظرنا، سفرأ ضخمأ يروى تاريخ البشر فضلاً عن تاريخهم السياسي والديني. ولما كان فكر كهراء طيبة وعظماؤها مشغولاً بأمر تبرير استقامة وجودهم وأهميته، حتى تقدم لهم خدمة القرايين في الدنيا ويصدر حكم أوزيريس لصالحهم في العالم الآخر، فما زالت تطل علينا شخصيتهم من خلال الوصف الذي تقدمه صورهم المنحوتة أو الرسوم على جدران مقابرهم والنصوص المدونة عليها.

(*) مؤنث لفظي ومذكر معنوي، كما في إنجيل يوحنا (١:١): في البدء كان الكلمة. (المترجم)

إن موائد القرابين في الشيخ عبد القونة وبراع أبو النجا، الخاصة بالأفراد الذين خدموا أوائل فراعنة الإمبراطورية المصرية لم تعد تَمُوتُ الآن بالأطعمة وتشتت أمتعتهم الجنائزية بل وموميائاتهم أيضاً في أقاصى العمورة وأدناها، ويأتى السائحون في أفواج متعاقبة ليعكروا صفو «بيتهم» الأخير. ولكن تظل ذكراهم حية ويُنطق اسمهم كما كانوا يوتون. إنها ومضة حياة أخيرة وربما كانت وثبة الوجود القصوى لإحياء العناصر اللامادية لكيان أصحاب النفوذ في طبقة الذين عاشوا قبلنا في سالف الزمان، منذ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة مضت.

إن إينيني كبير المشرفين على مواقع العمل في الكرنك والمدفون في المقبرة رقم ٨١ بالشيخ عبد القونة، ظل يخدم ملوكه في إخلاص وأمانة بدءاً من أمنحوتب الأول وحتى تحوتمس الثالث. لقد جمع بين أعلى المناصب الدينية والروحية، إستناداً إلى مجموعة وظائف تقليدية شائعة، فكان:

الشريف والأمير ومدير كافة الأعمال في الكرنك.

ويمتد سلطانه إلى بيت الفضة المزدوج.

وختمه موجود على بيت الذهب المزدوج.

إنه من يختم كافة العقود في معبد آمون.

إنه الأمير والمشرف العام على شونة غلال آمون المزدوجة^(٧٩).

كما كان أيضاً:

مدير الأعمال في الجبانة الملكية،

والمشرف العام على كافة طقوس الخدمة الدينية في معبد آمون^(٨٠).

كان من كبار المشرفين على الأموال الملكية وكبير المهندسين، سواء عند تشييد معبد آمون أو مقبرة العامل الملكي، كما كان كبير إداريي الكرنك وأملك إلهه.

وإذا بدأنا بعهد أمنحوتب الأول، نجد أنه كان مشرفاً نشطاً على مواقع العمل:

كنت أتفقد ما صنعه صاحب الجلالة... من البرونز ومن نحاس أسيا والقلائد منات^(٨١) والأواني والقلائد العريضة. كنت أدير كافة الأعمال بينما كانت سائر

الوظائف تحت إشرافى. كنت أمر بإقامة [الاحتفالات^(٨٧)].... بمناسبة أعياد مطلع
الفصول أيضاً، من أجل أبى آمون، رب عروش القطرين. كانت هذه الأمور من
مسئولياتى، ويتم تفقدتها من أجلى، فقد كنت مخطئها^(٨٨)...

وفيما بعد أثره تحوتمس الأول تقديرًا لمهاراته:

وملأ قلبه منى. عندئذ صرت أميراً والمشرّف العام على شونة الفلال المزبوجة.
وصارت حقول القرابين الإلهية تحت إدارتى وسلطانى. وكل الأعمال المتميزة تجمعت
لتصبح من إختصاصى. وتفقدت كبرى المنشآت التى كان ينفذها (الملك) فى
الكرك^(٨٩)... كانت مهنة أحبها (حرفياً: من أجل قلبى)، وكان تصرفى تصرف
شخص يعرف. ولم يصدر إلى أبداً أمراً من إنسان يكبرنى سناً. سوف أمتدح لعلمى،
بعد انقضاء سنوات وسنوات، من قبل من سيحاولون محاكاة ما حققت، عندما كنت
الرئيس... كنت فم السماء لكل عمل من أعمال التشييد. كانت أفضالى مستقرة فى
القصر استقراراً راسخاً، وكذلك الحب الذى يكنّه نحوى رجال البلاط. وأمدنى صاحب
الجلالة بالخدم وكانت شونة الفلال الملكية مصدر قوتى، على مرّ الأيام^(٩٠).

كما كان مكلفاً أيضاً عند عودة الحملات العسكرية التى ينظمها العامل الملكى،
باستقبال الأسرى والجزية التى ستزيد، سنة بعد سنة، من ثروة معبد الكرك. وفوق
هجرة لأسير زنجى أحضره تحوتمس من الجنوب ويقدمه إلى آمون يوضح المتن:

مشاهدة الزنوج القائمين على رأس الأسرى من أجل قرابين آمون الإلهية، فى
أعقاب سقوط كوش الخسيصة - وفى ذات الوقت (مشاهدة) جزية كافة البلدان
الأجنبية التى وهبها صاحب الجلالة لمعبد آمون بصفتها مورداً سنوياً^(٩١).

إنه من «يشاهد» كافة كنوز الآلهة، وربما كان من يتولى توزيع الثروات على
مختلف معابد مصر. إن جدولاً منحوتاً فى مقبرته يوضح كمية مكاييل البخور المقدمة
إلى كل معبد من المعابد، ولا ندرى فى أية مناسبة، فيؤكد بذلك على مناقبه كمحاسب،
فضلاً عن الأهمية المتعاظمة لمعبد الكرك:

معبد آمون: ٤٤٠

معبد موت: ٨ ١/٤

معبد خونسو: $\frac{1}{4}$ ٨

معبد بتاح: $\frac{1}{4}$ ٨

... ؟

حريم الجنوب^(٨٧): $\frac{1}{4}$ ٨

معبد أحمس - نفرتارى الجنائزى^(٨٨): $\frac{1}{4}$ ١٤ .

وتواصلت مسيرة حياته المهنية فى عهد تحوتمس الثانى:

كنت أملاً قلب الملك فى كل مكان. يا لعظمة ما فعله من أجلى، إنه يفوق ما فعله أسلافه أهمية. ومن ثم أصبحت شيخوختى شيخوخة شخص رفيع الشأن، لأنى مكثت على امتداد الأيام أحظى بإنعامات صاحب الجلالة. كنت أكلُ (من الطعام) الذى تجود به مائدة الملك: من خبز قرابين العامل الملكى وأيضاً من الجعة واللحوم السمينة والخضروات والفواكه بأنواعها والعسل والطوى والنبيد والزيت. هكذا ضمنت كل احتياجاتى بأكبر قدر من الوفرة فى الحياة، حسبما قاله صاحب الجلالة شخصياً، بسبب الحب الذى كان يكنه لى^(٨٩).

تقومد العلاقة الحميمة عندما يُقدّم طعام فاخر مكافأةً على الخدمات العميدة والمخالصة! فى الأزمنة الخوالى استمال الملك سنفرو الساحر جدى إلى بلاطه وكان قد بلغ من العمر مئة وعشر سنوات، فوعده بتقديم أطعمة دسمة ووفيرة^(٩٠)، فمصر بلد تطوّقه الصحارى، فما أن يشهد نهراً فيضاً منخفصاً حتى تنتشر المجاعة وتعم.

كان إينفى نبيلاً مرموقاً يحب أيضاً حياة الحقول وأن يخلد إلى الراحة فى حديقته المزروعة أشجاراً وزهوراً. أحب المصريون على الدوام ما تزخر به الحدائق من نباتات وفيرة وما تضيفه ظلالها من جو عليل وتدخله رؤية الزهور على النفس من راحة وسعادة واسترخاء، وظلّوا مولعين بها للتباين الشديد بينها وجذب الصحارى القاحلة المحيطة.

عندئذ «رحل إينفى ليعاين حقوله وماشيته الموجودة فى الدلتا^(٩١)».

وصور على جدران مقبرته وهو يتجول فى حديقته أو جالساً تحت عريش فى صحنه زوجته «ست البيت»^(*) عج حوتب»، كتعبير واضح عن حبه للطبيعة.

إنه يعبر بحيرته القائمة فى الغرب، ويتناول بعض المربطات تحت أشجار الجميز، ويشاهد أشجاره الباسقة الجميلة، بينما غمرت مدائن آمون، هذا الإله المعظم، رب عروش القطرين^(١٢).

ثم يقدم إلى نريته متباهياً متفاخراً قائمة بتفاصيل مزرعته: ٢٣ نوعاً من مختلف الأشجار منها ٧٢ شجرة جميز و٢١ شجرة برساء و٧٠ شجرة نخيل بلح و١٢٠ شجرة دوم وه أشجار تين و١٢ كرمه معرشة وه أشجار فواكه و١٦ شجرة أرغفة^(١٣) وه أشجار عناب و٢ أشجار نخيل بلح مذكر و١٠ أشجار إثل... وغيرها، - ومجموعها ٥٦ - ولم نتوصل إلى التحقق من أنواعها حتى الآن، يا لها من أملاك رائعة مخصصة لمصاحبها فى رقدته الأبدية.

إن السلطة التى كان يتمتع بها إينينى وانشغاله بأن يحيا حياة عادلة وهادئة، وهى المثل الأعلى الذى كان يتطلع إليه كل مصرى فى هذه الدنيا، قد تركا أثراً عميقاً فى وجوده. إنه يستخلص من تجارب حياته درساً ما زال يحرك مشاعرنا:

إنى أتحدث إليكم أيها الرجال، انصتوا إليّ وافعلوا الخير الذى فعلته أنا شخصياً، وتصرفوا على النمو ذاته. لقد قضيت زمن حياتى فى سلام، دون حدوث مكروه. لقد مرت أيامى والسرور فى قلبى. لم يتعبانى أبداً شعور بالعداوة، لم أشهر أبداً بأسداً، لم أرتكب الشر أبداً، لم أسلك سلوكاً مؤذياً. كنت أقوى الجميع، ولم تصدر أبداً من جانبي غلطة أو هفوة. كنت رجلاً صاحب قلب نافع لسيده فلا يعرف الكلل، كنت رجلاً ينصت إلى ما يقوله رئيسه. لم أكن أعارض الكبراء القائمين فى القصر الملكى. كما انجزت ما كان يرجوه إله مدينتى، وأخلو من أحاديث التجديف فى حق الأمور الإلهية. فمن قضى سنوات حياته وهو رجل يمتدحه الجميع سيظل باؤه حياً بجوار سيد الكون ويبقى حسن السمعة فى فم الناس. وتتسب ذكراه وفاعليته إلى

(*) مازلنا نطلق أحياناً هذا اللقب على الزوجة. (المترجم)

الزمن اللانهائى. الكاتب إينفى، الصانع القول، الرجل المبجل، الأمير، المشرف العام على شونة غلال آمون المزوجة^(٩٣).

إنه رجل عدل وسلام، ينأى بنفسه بعيداً عن دسائس القصر، رجل ما زال الكرنك يحتفظ ببصمته ويخلد ذكراه إلى الأبد^(٩٤).

كما تظهر صورة أخرى لأحد رجال البلاط، الملازمين للسيدات العظيمات فى بلاط طيبة. ويكاد يكون من أصحاب المظوفة فى حريم الملكة عح هوتب (الثانية)، زوجة أمنهوتب الأول^(٩٥) الذى عاش كارس فى عهده. كان حاجب الملكة، والمسئول أيضاً عن المالية إلى جوار العامل الملكى. وعلى لوح حجرى جاء من دراع أبوالنجا، يقدم وصفاً لصدق وفاء خدماته «الحميمة» وما ناله من الملكة من إنعامات مكافئة له: وتحديداً إقامة مقبرته فى أبيدوس بجوار مقبرة أوزيريس التذكارية^(٩٦). هل كان رجل دسائس أم رجل بلاط؟ من الصعب إعطاء جواب شافٍ بعد انقضاء كل هذه السنوات. ويظل النص الآتى يغالب الأيام:

اليوم الأول، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام العاشر، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: حسر كا رع، ابن رع: أمنهوتب، المنتسب إلى جسده ومحبوب أوزيريس، له الحياة.

أمر صابر من الأم الملكية إلى الحاجب كارس، النبيل والأمير وخازن ملك مصر السفلى والصدق الأوجد والمشرف العام على بيتى الذهب والمشرف العام على بيتى الفضة والمشرف العام على أملاك الأم الملكية عح هوتب، فلتحى. لقد أمرت الأم الملكية أن تشيد من أجلك مقبرة على مقربة من سلم الإله العظيم رب أبيدوس^(٩٧)، مع الإبقاء على كافة مناصبك فضلاً عن الإنعامات التى حظيت بها. سوف توضع تماثيلك فى المعبد ضمن حاشية الإله العظيم. وسوف تخصص لها قرابين طاهرة^(٩٨)، ويصبح خبزها عظيم النفع ويتحدد عدده كتابةً... وفيما بعد، سوف تكرر من أجلك قرابين

(*) المعروفة بالأوزيريون. (المترجم)

جنازنية، وهو ما تفضله الزوجة الملكية من أجل من تحبه. من أجل الحاجب كارس، النبيل والأمير وخازن ملك مصر السفلى والمشرف العام على الأملاك.

إنه الأوحد المتفرد، إنه رجل ثقة يتحد مع جسد الإلهة سخمت ويصاحب سيده في كافة ما تتخذه من إجراءات. إنه كاتم أسرار من تتولى أمر الشعب، إنه ابنها الروحي الحقيقي، ومن تدور معه أحاديث سرية ويعرف مقاصد سيده ويبلغ القصر الملكي بجميع الأمور ويجد الطول ويقطع من وطأة المشاكل. وتنهض سيده عند سماع صوته. إنه القريب من الحقيقة - العدالة، ومن يعرف ما يخص القلب ومن يعود حديثه بالنفع على سيده. عظيم هو الخوف الذي يشيعه في بيت الأم الملكية. إنه رجل له وزنه فيما يقوم من أعمال ولكلماته تأثيرها الخير. إنه صاحب الوجود الغامض السرى عند تصريف أمور القصر، والرجل ذو الفم المختوم فيما يسمعه من أحاديث، ورجل البلاط «حلال العقد»^(*)، والمشرف العام على الأملاك - إنه كارس القائد القوى اليقظ في خدمة الأم الملكية، لا فرق عنده بين الليل والنهار، إنه الحاجب كارس^(**).

إنه رجل غامض. ويبدو أن تأثيره كان عظيماً وإن كنا نجهل أصوله.

إن رئيس النحاتين جهوتي وموطنه الأصلي هيراكنبوليس إلى الجنوب من طيبة وكان كبير الحرفيين في عهد تحوتمس الأول، أمر بنحت إعلان مبادئ أخلاقية وتقرير عن أنشطته المؤلف على لوح حجرى في مقبرته. إننا أمام شكل آخر من أشكال هذا الجهاد الأكبر الذى تخوضه الكلمات ضد الموت الذى ينتهياً له جهوتي في صفاء وهدهد، بكل ما أوتى من نشاط:

رئيس النحاتين الذى أثنى عليه إله منذ طفولته المبكرة والذى رقاها الملك. إنه يقظ فيما ينجزه من أعمال. كان رجلاً بصير القلب^(*). عند القيام بأعماله جالبة الخير. وينطق باسمه نظراً إلى طابعه (البشوش). لم يرتكب خطأ واحداً في حق سيده. ولم تخرج من فمه أبداً كلمة سوء. إن قلبه عادل وسط كبار السادة.

(*) هكذا في الأصل، كما نقول في أحاديثنا، في الوقت الراهن. (المترجم)

(**) عكس أعمى القلب. (المترجم)

لقد أنجزت كل ما يرجوه البشر وما تمتدحه الآلهة، على الدوام. وهكذا فليتها
تُمكن داري، دار الأبدية، أن تظل راسخة وتزدهر سمعتي في فم سواد الناس، بعد
انقضاء السنوات ويعد أن يوقنوا من بقاء انجزاتي. لقد صَنَعْتُ لنفسى مكاناً للمتعة،
إنه هذا المسكن في الجبانة. لقد عمل الرجال من أجلى كما كانوا يبتغون. ولم يوجد
قط وجه حزين طوال فترة العمل. كنت أخرج من بيتي مبحراً في اتجاه الحقول التي
ألت إلى عن طريق الميراث. ويمهراثى الذي يجره عجلان، أحرث الأراضى الواقعة
على مقربة من مقبرتي في الجبانة وأزرعها بنفسى. إن إلهى هو الذى خصنى بها،
لأننى أنجزت ما كان كآؤه لا يتوقف عن مدحه والثناء عليه. وأعطانى الشاهد على ذلك
بجوار الجبانة التى ما زالت عامرة مزدهرة وعلى الدوام.

كما كنت أهنئ بإنعامات سيد القطرين. لقد أتيح لى أن أكون فى قلب البشر،
إذ كان الحب الذى يَكُنُّه الناس لذاتى، على مقربة من إلهى. لقد صنع ما صنع، نظراً
إلى امتياز طباعى وفائدة نصائحي، وإن يجد كائن من كان، خطأ واحداً ارتكبته ضد
البشر ولم أسرق أملاك أحد.

ثم يصل إلى فكرة تلاحقه وتشغل باله، وهى النداء إلى الأحياء الذين يدعوهم
إلى التعهد بالحفاظ على حياة جهوتي بأن يقوموا بتلاوة صيغة القرايين فلا يتركوا
قواه الحيوية تضمحل وتفنى.

أيا جميع الكهنة نوى الأيدى الطاهرة، أيا جميع الكهنة المرتلين، أيا جميع
الكتبة، أيا جميع البشر، يا أيها الأحياء الذين ما زلتهم على سطح الأرض، سوف
تعبرون أمام هذه المقبرة، سوف تمتدحكم آلهة مدنكم على مر الزمان ما دتم فى
الدنيا، سوف تعيدون «الاخضرار» إلى وظائفكم لصالح أبنائكم بقدر ما ستقولون،
عندما تتوقفون أمام هذا اللوح المجرى: قريان يقدمه الملك من أجل كا الأوزيريس
جهوتي، الصادق القول، أمام الإله العظيم، إنه الرجل المبجل رئيس النحاتين، تفوهوا
إنن باسمى وسوف يكون ذلك مفيداً لكم. لقد وسَّعت الطريق المؤدى إلى موائد
قرايينى بمقدار ٢١ فراعاً^(٩٩).

يُظهر هذا النص بوضوح أن المقبرة كانت مكان عيد ومتعة أبدية، يستغرق

تجهيزها جانباً كبيراً من حياة المرء، إنها المكان السحري لاستعادة حياة الرجال وتجديدها، شريطة أن يعلنهم الذين ما زالوا يعيشون على سطح الأرض.

كما شغل چوتى نفسه باهتمامات ذهنية. إن مدونة فى مقبرته تحدد، بعد ديباجة المقدمة المكشوفة، أن العطايا المطلوبة تخص القلب والروح:

قربان يقدمه الملك إلى حورس ميراكنتوايس... حتى تُعطى الفطنة والذكاء،
والمدبغ والعب والحكمة وكل ما هو من صميم كا رئيس النحاتين چوتى، الصادق
القول^(١٠٠).

٣- المعابد والآلهة

مع الفتوحات تطورت معابد الآلهة وازداد ثراؤها. فقد عاد الجيش المنتصر من إفريقيا وأسيا ومعه غنائم لا حصر لها وأيدى عاملة سهلة من أسرى الحرب، وتعاظمت أعداد المباني والمنشآت. وإذا أراد فراعنة العصر الإمبراطورى الإعتراف بجميل الآلهة وعلى رأسها الإله آمون وشكرها على تسديد خطاهم، صاروا من كبار بناء «القصور الإلهية».

وفى الكرنك على وجه الخصوص اتسعت المنطقة المقدسة المخصصة للإله آمون - رع.

إن أمنحوتب الأول، بمساعدة مدير أعماله الإنشائية إينينى، وبالإضافة إلى مقصورة الألبستر التى سبق ذكرها^(١٠١) والمخصصة لاستراحة المركب المقدس، شيد باباً كبيراً من الحجر الجيرى جنوب معبد آمون، وقد عثر على جزء منه فى أساسات معبد تحوتمس الثالث الواقع بين المسرحين السابع والثامن على محور الكرنك الشمالى الجنوبى. يقول النص التكريسى:

لقد شيد أثرًا من أجل أبيه آمون، فقام باباً كبيراً يبلغ ارتفاعه عشرين ذراعاً
(٤٠، ١٠ أمتار)، إلى جوار بابى المعبد، وهو من الحجر الجيرى الأبيض الجميل الوارد
من طرة. هكذا يفعل أمنحوتب بن رع^(١٠٢).

وفى عهد تحوتمس الأول تطور الكرنك إلى حد كبير وزادت مساحته فى اتجاه المحور الغربى الشرقى، وأمام المعبد الأصلى الذى بناه ملوك الأسرة الثانية عشرة. وشيّد إينينى سوراً جديداً يلتف حول مجموعة العناصر المقدسة للإله آمون التى كانت قائمة آنذاك. وعلى اثنين من جوانبه أقام فناءً داخلياً تكتنفه الصفات، يتكون من أعمدة من الحجر الرملى متعددة الأضلاع ذات ستة عشر وجهاً. وأقيمت تماثيل أوزيرية عملاقة تمثل الملك. كما شيّد صرحان جديدان كمدخل وهما الخامس والرابع حالياً. كان لا يوجد حتى الآن سوى صرح واحد هو السادس فى الوقت الراهن. وفى الواقع فإننا نرقم الصروح طبقاً للمحور الغربى الشرقى، بادئين من نهر النيل، أى أننا نبدأ من الأحدث. وهكذا أصبح الصرح الرابع يشكل مدخل المعبد. كان طوله ١٢ متراً وعرضه ٤ أمتار. إن أبراج الصرحين مهدمة فى الوقت الراهن إلى حد كبير ويفترض أنها كانت قائمة فوق قاعدة من الحجر الرملى ومكسوة بحجر جبرى ناعم من طرة. وقد بُنيت عند واجهاتها سوارٍ عالية ترفرف فى أعلاها الرايات لتشير من بعيد إلى وجود المعبد المقدس، كما أقيمت أمامها المسلات. وخلف الصرح الخامس شيّد بهو أساطين يتكوّن من خمسة أساطين من خشب الأرز.

ويوفر لنا إينينى فى سيرة حياته بعض التفاصيل حول هذه الأعمال:

تفقدت المباني الشامخة التى أقامها (الملك) فى الكرنك، وشيّت قاعة عظيمة ذات أساطين، كما شيّد بجوارها صروحاً ضخمة من الحجر الجبرى الأبيض الجميل الوارد من طرة، كما أقيمت السوراء المقدسة بجوار الباب المزدوج الضخم للمعبد وكانت سوارٍ من خشب الأرز ومن أفضل ما انتجته لبنان، وطرفها العلوى من الذهب الخالص... كما تفقدت الباب الكبير أثناء تشييده (واسمه) «قوية» -هى- هيبة- آمون». إن مصراعه الرئيسى من نحاس أسيا. وظلّ الله عليه (أى على الباب) وكان مشغولاً بالذهب. كما تفقدت مسلتى المعبد السامقتين أثناء إقامتهما وهما من الجرانيت، وقد أقيمتا أمام الباب المزدوج الضخم للمعبد. كما تفقدت المركب المقدس أثناء تسوية خشبه وصنعه وكان يبلغ ١٢٠ نراعاً طولاً و٤٠ نراعاً عرضاً، وقد خصّص لنقل هاتين المسلتين. فوصلتا سالمين إلى أرض الكرنك^(١٠٣).

هاتان المسلتان وهما من الجرانيت الوردى وطرفهما المدب مغطى بالذهب الخالص، أقيمتا أمام الصرح الرابع وكان يشكل آنذاك مدخل المعبد، وذلك بمناسبة العيد اليوبيلى للملك، وهو ما تؤكدُه المدونات التى يمكن قراءتها على الواجهتين الغربية والجنوبية من هذا الأثر:

● الواجهة الغربية: لقد صنع أثراً من أجل أبيه آمون القائم على رأس القطرين. لقد أقام مسلتين باسقتين بجوار بابى المعبد وكان هُرمَاهما من الذهب الخالص.

● الواجهة الجنوبية: إن سيد الآلهة قد قدس من أجله العيد اليوبيلى على الشجرة إيشد(١٠٤).

ومن حقنا أن نتساءل عن الوسائل التقنية التى كان يستخدمها المصريون لنقل هذه المسلات الضخمة المنحوتة من كتلة حجر واحدة. سوف نروى فى هذا المقام أقوال هنرى شيفرييه Henri Chevrier الذى ظل لفترة طويلة مدير الأعمال فى معبد الكرنك، وكما نقلها إلينا كلود ترونيكر C.Traunecker و جان-كلود جولفان J.C.Golvin(١٠٥): «فى عصرنا، حيث تتحول كل صغيرة وكبيرة إلى أرقام حسابية وتتحوّل إلى معادلات أو رسومات بيانية أو يبتلعها الحاسوب الإلكتروني، من الجدير ملاحظة أن المصريين كانوا يجهلون كل هذه الأدوات المساعدة، ورغم ذلك استطاعوا أن يصنعوا المعجائب... واسمحوا لى فى هذا الصدد أن أروى طرفة أؤكد أنا شخصياً على صدقها. فى عام ١٩٣٣، كنت قد شرعت آنذاك فى إقامة صقالة حول الأسطون الأيسر من الباب الشمالى للفناء الكبير. فتوقفت فى الأقصر لجنة من المهندسين المتجهين إلى أسوان لكهربة الخزان، وكان الوحيد الموجود آنذاك(١٠٥). وجاءوا لزيارة الكرنك وكما تعودت أن أفعله مع الكثير أصبحت مرشدهم السياحى. وعندما شاهدوا ما أقوم به من عمل سألنى أحدهم: «ماذا تفعل هنا؟» فنجبته قائلاً: «كما ترى فإن هذا الأسطون مائل وأريد تصحيح وضعه». ونظر كل واحد منهم إلى الآخر ثم سأل أحدهم: «من أى مدرسة تخرجت؟» فقلت: «من الفنون الجميلة». وكان من الواضح أنهم لم يقتنعوا أنني

(*) شجرة مقدسة. (الترجم)

(**) أى قبل بناء السد العالى. (الترجم)

اخترت الحل السليم. هذا ما حدث. وعند عوبتهم من أسوان بعد انقضاء عشرة أيام جاؤا لمقابلتي: كانت الصقالة قد رفعت والأسطون مستقيم، بعد أن اتخذ وضعاً عمودياً واستعاد توازنه. فقال أحدهم: «ولكن ماذا فعلت لتصل إلى هذه النتيجة؟ إذ لا يمكن حساب ذلك». فإذا كان من المستحيل حساب ذلك، فلا يمكن إبتكاره! ولم أجد أن الإجابة ضرورية. ولكن سرت معهم لمسافة قصيرة حتى وصلنا إلى مسلة الملكة(*) وقلت لهم وأنا أشير إلى هذا الأثر الشامخ: «الإرتفاع: ٨٠، ٢٠ متراً والوزن ٨٠٠ طن. ماذا فعل سن موت الذي لم يكن خريج مدرسة الفنون الجميلة؟» إن مهندسينا يتجاهلون بل ويهملون قيمة التجريب. فبالتجربة التي اعتمدت عليها استطعت أن أقوم وضع هذا الأسطون ومقابله الأيمن. وهكذا انجزت العديد من الأعمال الأخرى.... كان المصريون لا يعرفون سوى وسيلة واحدة لمضاعفة القوى، وهي الرافعة. كانوا يجهلون الرُحوية(**) cabestan البسيطة والبكرات واستخداماتها المتعددة، في هيئة مجموعة بكرات صغيرة... أما الأسلوب الذي كان مستخدماً في مصر على نطاق واسع فهو المزلقة المصنوعة من طمي النيل، فتشكل مسطحاً مانلاً ميلاً طفيفاً الفرض منه نقل الأثقال. كان الحجر الأحادي الكتلة يوضع فوق زلاقة متينة مصنوعة من الخشب، ثم تبلل التربة الواقعة مباشرة أمام الزلاقة حتى تنساب بسهولة أكبر فوق التربة المبللة. «إن مُعامل إحتكاك الطمي، الرصراص إلى حد كبير، بسطحه المبلل يعادل صفرًا تقريباً». ويضيف شيفرييه بأسلوب يميل إلى الغيب: «ربما استخدم من جانبي لفة لم يألّفها علماء الآثار، فأتطلب منهم المعذرة. ولكن لا بد أن أقر أنني فوجئت إلى حد ما عندما قرأت أن المصريين عندما كانوا يروون التربة أمام الزلاقات، كان هدفهم تجنب زيادة سخونة الخشب».

هكذا فإن المهندسين المعماريين في العصر الحديث المولعين بعلم المصريات، يستعيدون أساليب الأزمنة الغابرة، وإن كان أسلوباً تجريبياً، إلا أنه فعال وناجع إلى

(*) وهي مسلة الملكة حتشپسوت القائمة بين الصرحين الرابع والخامس. (المترجم)

(**) (لفظ اقده مجمع اللغة العربية بالقاهرة ويغنى في الميكانيكا: آلة لرفع الأثقال أو جرّها تشبه الملفاف، ولكن أسطوانتها رأسية. المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة. ١٩٦٠. (المترجم)

حدّ كبير. ويكفى أن نشاهد مثال الكرنك. ولا تشكل الآلات بالضرورة تقدماً، ومع ذلك فلا تعتبر بالقطع علاجاً عالمياً للقضايا التقنية التي تصادف البشر. والدليل على ذلك الدرس الذي يقدمه لنا المصريون.

إن الكرنك بعد أن تعاطمت مساحته وازدان بالذهب، ظهر كبير كهنة جديد هو **پا رن نفر** ليخلف **مئن** - مونتو ويقيم الطقوس الدينية. كانت مكانته لا تزال متواضعة نسبياً، ولكن زمن كبار الأحرار بات قاب قوسين.

كما أصبحت **أينبوس**، وهي مكان **أوزيريس** المقدس، موقعاً لكبرى أعمال التشييد. إن النص المنحوت على لوح من الحجر الرملى الذى عثر عليه فى **أينبوس** ذاتها، ومن مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يعطينا فكرة دقيقة إلى حدّ ما، عن ضخامة الأعمال التى انجزها **تعوتمس الأول** ومدى وفرة الثروات الإلهية. ويظل الملوك والآلهة متحدين فى تبادل الخدمات تبادلاً مقدساً، ليجلب الخير لكل منهما.

القسم العلوى من الأثر مهشم تهشيماً بالغاً. ويفترض أن **تعوتمس الأول** قد خصص مطلع النص ليستعرض أمام الكهنة المجتمعين الأعمال التى كان يُزمع تنفيذها فى معبد **أوزيريس**. ويبدأ نصنا برد الكهنة:

..كم هو ممتع فى قلب البشر! كم هو جميل فى نظر الآلهة! إنك تشيد أثراً من أجل **أوزيريس**، وتجلب البهاء إلى أول أهل الغرب، إلى الإله العظيم، (إله) المرة الأولى الذى حول أتوم عرشه إلى عرش مرموق وعظمه ومجده أمام أولاده. فمن أجله عمل الملوك منذ تأسيس هذا البلد. فمن أجله وأنت، لقد أنجبك فى استقامة قلبه لاتمام ما خلقه فى هذا البلد وترميم مقاصير الآلهة وجعل معابدها تغالب الأيام. فإليك يعود الذهب، والفضة ملكك **من أجل** فتح الإله جب ما بداخله^(١٠٦)، وقدم لك تاتن^(١٠٧) ثرواته. إن البلاد الأجنبية بأسرها تعمل من أجلك وتجميع الأراضى المصرية تحت

إشرافك، والأحجار الكريمة من مختلف الأنواع تُرَصَّع قصورك. ومن هم ضمن حاشيتك لا يحتاجون شيئاً. واقض بما لا بد أن يحدث. ومَرَّ بما ينبغي عمله. فما يتوق إليه كاؤك، سوف يحدث.

عندئذ يُصدر صاحب الجلالة أمره إلى الخازن (قائلاً): «باشِر الأعمال، بحيث تأتي... بأنكى خُدَّام المعبد أجمعين ونخبة كهنة الساعة من الذين على دراية بفن الإدارة، على أن يكون علمهم حكمة وإبراًكاً ورشيداً، ولا يخالفون الأوامر الصادرة إليهم. شيد مبنى من أجل أبى أوزيريس وأسس مقامه للزمن الأبدى، واجعل الأشياء الأكثر استغلالاً جالبة للخير. ولكن تصرف بحيث يستحيل رؤية جسده أو مشاهدته أو التعرف عليه. وابن أيضاً من أجله مركباً يُحمل على الاكتاف، وهو من الفضة والذهب واللآزورد والنحاس الأسود ومن سائر أنواع الأحجار الكريمة».

لقد سبق أن وهبت أعداداً كبيرة من موائد القرابين والمصلصات والقلائد منات والمباخر والكؤوس. هكذا لن استرد القرابين التى اقدمها له، كما أنها لن تتوقف أبداً. ومن أجله أيضاً صنعت مركبة المقدس نشمت، من خشب الأرز، ومن أفضل ما انتجته لبنان، إن قيدامه وكوثه من الذهب الخالص. إنه يُدخل الفرح والسرور على الأمواه (ذاتها) عندما يبحر الإله على مته إيان عيد بلدة بيكر^(١٠٨).

كما أمر جلالتي بأن تشكل له تماثيل للمجمع الإلهى العظيم القائم فى أبيبوس. وهكذا سُمِّى كل إله من آلهته باسمه:

خنوم، رب حرور^(١٠٩)، الأبيد وسى.

خنوم، رب الجندل، الأبيد وسى.

تعوت، أكثر الآلهة قدرة والقائم على رأس حسيرت^(١١٠).

حورس القائم على رأس ليتوريس^(١١١).

حورس المنتقم لأبيه.

وآپ - وآوات الجنوب.

(*) التصحيح اليونانى لمدينة قم المصرية وأوسيم حالياً. (المترجم)

وآپ۔ واوات الشمال^(١١١)۔

كانت أجسادها الرائعة تكتنفها الأسرار. (وموضوعة) على حوامل من الذهب الخالص. كانت صنعتها أفضل من تلك التي وجدت من قبل وأروع من التي توجد في السماء. كانت أكثر استغلاً من الوضع القائم في اللوات. كانت جديرة بمزيد من الإحترام مقارنة بالآلهة (الأولية) الساكنة في نون.

صنع جلالتي كل ذلك من أجل والدي أوزيريس، من شدة حبي له، وأكثر من سائر الآلهة. ومن ثم، سيبقى اسمي، ويدوم عملي، في منزل أبي أوزيريس، أول أهل الغرب، ورب أبييوس، للزمن الأبدي وللزمن النهائي.

استمعوا إليّ إذن، أيها الآباء الإلهيون لهذا المعبد، أيها الكهنة نوو الأيدي الطاهرة، أيها الكهنة المرتلون... وأنتم يا جميع كهنة الساعة^(١١٢) في هذا المكان المقدس، قدموا القرابين من أجل مقبرتي، مؤنوا مائدة قرابيني، اعملوا على تخليد العمل العظيم الذي قام به صاحب الجلالة، انطقوا اسمي، استمعيدوا في ذاكرتكم مجموعة ألقابى، مجّدوا صورتي، ويجّلوا تمثال جلالتي وضعوا اسمي في فم خدامكم وذكرائى بجوار أولاد أولادكم- لأننى ملك قدير بسبب ما فعله، إنه أكثر الجميع بسالة، وسوف يتذكر الجميع اسمي في «مقابل» ما حققه في هذا البلد، أكثر بكثير مما تعرفونه، هذه الأقول لا تنطوى على إفك أو مفالة.

لقد شيدت المباني من أجل الآلهة، وجعلت معابدها رائعة، من أجل المستقبل، وشكّلت معابدها على أحسن وجه، لقد رمت منها ما كان مهدماً، لقد تفوقت على كل ما صنع من قبلى. وتصرفت بحيث يعرف الكهنة نوو الأيدي الطاهرة واجباتهم والمطلوب منهم. وأرشدت الجاهل إلى ما كان لا يعرفه. لقد حققت أكثر بكثير مما فعله الملوك الآخرون الذين سبقونى. إن آلهة زمنى قد غمرها السرور ومعابدها تهلل فرحاً.

لقد رسمت حدود البلد المحبوب لتصل إلى حدود ما تحيط به الشمس. لقد زدت الرازحين تحت وطأة الخوف قوة، لأننى طرقت الشر بعيداً عنهم. لقد جعلت مصر الأولى و(أبناء) الأرض قاطبة خدامها.

لا تؤذوا فقط المسيح والثناء للإله آمون^(١١٣).

يكشف هذا النص بكل وضوح عن كبرياء الفاتحين الأوائل وشموخ الإمبراطورية التي كان تحوتمس الأول مؤسسها ومدشن شكل جديد من أشكال الفكر السياسي، سوف يصل إلى أوجه فيما بعد في عصر الرعامسة.

كما أقيمت غيرها من «قصور الآلهة» في ربوع البلاد تمجيداً للآلهة المحلية، بعيداً عن الموقعين الكبيرين في الكرنك وأيندوس. وفي مدينة هابو على البر الغربي لمدينة طيبة بدأ أمنهوتب الأول تشييد معبد، واصل العمل فيه تحوتمس الأول، ثم قام تحوتمس الثاني بتوسيعه على نطاق كبير. إنه مبنى تحيط به الأعمدة وقدس الأقداس في هيئة «سيلا»^(١١٤) cella. كان الرواق يتكون من جدار منخفض، يسمح لضوء الشمس بالدخول من خلال فتحات عريضة. وسيتولى الملوك الكوشيون والبطالسة استكمال وتوسيع ما بدأه ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل. إن السور الأصلي سوف يضمه السور الكبير للمعبد الجنائزي للملك رمسيس الثالث^(١١٥).

٤- المقابر والشعائر الجنائزية:

وادي الملوك

عند إعداد مقبرته دشّن أمنهوتب الأول موقع جبل طيبة. وفي عام ١٨٨١ تم الكشف عن مومياء أمنهوتب الأول في «خبئة» الدير البحري. كان طولها ١٦٥ سم. كما دثرت بالكامل بنسيج برتقالي اللون، مثبت بقطع عابية من النسيج، وكان قناعه الجنائزي من الخشب والورق المقوى الملون. كانت المومياء مغطاة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بأكاليل من الزهور الزرقاء والصفراء والحمراء. وقد تعرّف عليها عالم

(*) وهي الهيئة التي يتخذها قس الأقداس عند الإغريق والرومان. (الترجم)

(**) الذي يطلق عليه اصطلاحاً في الوقت الراهن معبد مدينة هابو. (الترجم)

النباتات شفينفورث Schweinfurth واسماؤها العلمية هي *Sesbania aegyptiaca* (*) و *Accacia nilotica* (**) و *Carmanthus tinctorius* (***) و *Delphinium orientale* . يا لها من أبهة نباتية فخمة تعبيراً عن تجديد الحياة بألوان السماء والشمس ودماء الحياة. وقد عثر على زنبور عمره ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة في التابوت المصنوع من خشب الأرز. لقد جذبت رائحة الزهور وظل محبوساً بعد إطباق غطاء التابوت الثقيل ليطن دون شك لفترة طويلة قبل أن يصبح آخر رفاق العامل الملكي في أبعده.

وفي عام ١٨٩٦ و ١٨٩٨ كشف سبيجلبرج Spiegelberg ونيوبيري Newberry عن معلمين أثريين متجاورين في منطقة براع أبو النجا. أحدهما وهو الشمالي يخص الملكة أحمس - نفرتاري أما الآخر وهو الجنوبي فكان المعبد الجنائزي لابنها أمنحوتب الأول، والذي شيده إيفنيو النشط المثابر باستخدام مواد نفيسة: «لقد أقيمت الأبواب من النحاس المصنوع من قطعة واحدة وكانت تماثيله من الذهب الخالص» (١١٤). من المحتمل أن الملك قد اختار أيضاً النير البحري، في مكان يقع تحديداً عند الشرفة الوسطى من معبد حتشپسوت ليقوم قبراً تذكاريّاً أو بدأ في إقامة قبره قبل أن يعدل عن هذا المشروع (١١٥).

وبالفعل فإن مقبرة الملك الحقيقية قد حفرت في صخر الجبل الغربي وفي براع أبو النجا أيضاً. وقد كشف عنها الورد كارنافون Carnavon عام ١٩١٤. ومنذ ذلك الوقت، كان تخطيطها هو التخطيط الكلاسيكي ذاته الذي التزمت به المقابر الملكية في الأسرة الثامنة عشرة: فبدأ من المدخل الذي تخفيه صخرة ضخمة يمتد دهليز طويل هابط مخترقاً صخر الجبل. وعند منتصف المسافة تكتنفه من على الجانبين حجرة وكوة، وينتهي بباب يطل على بئر شديدة العمق يصل إلى تسعة أمتار ويضيق عرض الدهليز تدريجياً كلما سرنا هابطين، لينتهي بقاعة أولى طولها ثلاثة عشر متراً ونصف تغضي إلى حجرتين لصرف أنظار اللصوص على ما يظن وتضليلهم، وكانت هذه الظاهرة موجودة في أهرام الأسرة الرابعة. كانت صخرة ضخمة تسد الباب

(*) وهي زهرة السببان. (المترجم)

(**) وهي زهرة السنط. (المترجم)

(***) وهي زهرة القرطم. (المترجم)

الموجود بين قاع البئر والقاعة الأولى. ويعد ذلك تنتقل إلى قاعة ثانية طولها سبعة أمتار ونصف تقوينا مباشرة إلى حجرة الدفن المستطيلة الشكل ذات الأبعاد الشاسعة، إذ يبلغ طولها ٢٠,٢٠ متراً. أما السقف فتحمله أربعة أعمدة مربعة. إن مجمل هذا المسار انطلاقاً من مستوى الأرض عند مدخل المقبرة، كان يتطلب من المرء أن يسير على مهل على امتداد اثنين وستين متراً تقريباً^(١١٦). كانت هذه المقبرة المنقورة في الصخر لا تزال سالمة في عهد رعمسيس التاسع، أي بعد مرور خمسة قرون، وهو ما تؤكد بهدية أبوت Abbott، ولكن تم الاعتداء عليها فيما بعد ونهبها وسلبها.

واعتباراً من تحوتمس الأول تبدل التنسيق العام للمجموعة الجنائزية، فبعد أن كانت المعابد الجنائزية والمقابر متجاورة في المجموعة الهرمية، انفصلت عن بعضها وفقاً للموقع الجديد المستخدم. فمن الآن فصاعداً سوف تشيد المعابد عند الحدود الفاصلة بين الأرض الزراعية والصحراء الغربية. وسوف يكون تصميمها عبارة عن «قصور» للآلهة والملوك الذين تقام لهم معاً الشعائر الدينية. وتطلق عليها النصوص المصرية اسم قصور ملايين السنين. إن رسمها التخطيطي ورموزها مشابهة لمثيلاتها في المعابد الإلهية: كان صرح المدخل يتقدم فناءً كبيراً تكتنفه أحياناً الصفات ويليه بهو أساطين واحد أو أكثر وعدة حجرات ملحقة ثم قدس الأقداس. كانت طقوس الخدمة اليومية متماثلة. أما المقبرة الملكية الصخرية فهي منفصلة عن المعبد وكانت تنقر في سفح الجبل الغربي الذي يصل إليه المرء عبر وادٍ جفت مياهه ووسط مشهد طبيعي من الجبال الصخرية والصحارى القاحلة. وربما وقع الاختيار على هذا الموقع لأنه مكان منعزل وموحش. وأطلق عليه العرب اسم بيسان الملوك وأسميناه نحن الغربيون وأدى الملوك. وبعد تحوتمس الأول سوف يدفن فيه ثمانية وخمسون من ملوك الإمبراطورية وهم جميع الفاتحين العظام الذين صنعوا مجد مصر وضمنوا ثراها وازدهارها.

كان تحوتمس الأول ملكاً مبدعاً في مختلف المجالات. هل كان إيفني وراء اختيار هذا الموقع المنعزل؟ وعلى كل حال فقد كان هنا أيضاً مدير أعمال الملك وأشغاله وكاتم أسرارته.

لقد تفقدت أعمال الحفر (التي تتم من أجل) المقبرة الصخرية لصاحب الجلالة. لم يكن فى وسع أحد أن يرى، ولم يكن فى وسع أحد أن يسمع. كنت أسمى إلى عمل كل ما قد يكون مفيداً، إذ كان رأسى يقطأ ومتنبهاً^(١١٧).

ولكن كل هذه الثروات الى تحتفظ بها هذه المقابر الفسيحة، لم يكن من المنتظر ألا تشد إليها أطماع البشر وجشعهم.

نشأت آنذاك عبادة خاصة فى جبانة طيبة وتحديداً فى قرية العمال الجديدة بدير المدينة: وهى عبادة أمنهوتب الأول الذى كان كما عرفنا أول من افتتح موقع طيبة على البر الغربى وأسس كما هو واضح النقابة الطائفية لعمال الجبانة الملكية التى يطلق عليها اصطلاحاً «خدأكم مكان الحق». ومن المحتمل أن هذا هو السبب الذى حمل العمال من قلاعى الأحجار وقاطعيها ومن نحائين ونجارين ورسامين - حملهم على النظر إلى أمنهوتب الأول بصفته إله المنطقة وقديسهم «الحامى الراعى». كانت هذه العبادات متنوعة، وأصبحت عدة تماثيل للملك محل تجيل وإجلال، وربما كانت قد نقلت من معبد الكرنك إلى البر الآخر: كانت التماثيل تُعرف بأسماء مثل «أمنهوتب البلاط» و«أمنهوتب الحقيقة» و«أمنهوتب البحر على سطح الماء». وكلها صور قد تكون جاءت من أحد أفنية الكرنك أو إحدى حدائقه وكانت من أخفها وزناً بحيث تستطيع بالفعل أن تبهر على صفحة نهر النيل أيام الأعياد. كما نجد أيضاً «أمنهوتب رب المدينة» - وربما كانت دير المدينة هى المقصودة. وقد ورد هذا الاسم مراراً وتكراراً على الأوستراكا^(*) التى عثر عليها فى قرية العمال. ومن الراجح أيضاً إقامة معبد مخصص للملك أمنهوتب الأول، بصفته راعياً وحامياً مبعلاً ولكن بصفته المستشار الناصح أيضاً. كان يستشار فى هذا المكان فى كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة اليومية. كان العمال يلجؤون إليه لحل نزاعاتهم البسيطة وخصوماتهم. وكان أمنهوتب الأول مشاركاً فى ممارسات العرافة^(١١٨). كان فى استطاعته أن يرشد إلى السارق فى حالات السرقة، إما بتحريك تمثاله أو بأن يتحدث أحد الكهنة باسمه، ومن ثم يمكن أن نقرأ الآتى على سطح أوستراكون القاهرة رقم ٢٥٢٤٢:

(*) جمع أوستراكون. (المترجم)

فى اليوم العشرين، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٢٩، قام العامل خع إم واست بأبلاغ أمنحوتب، بما يلى قائلاً: «تعال إالى، يا سيدى وقيم من أجلى الأعمال التى أنجزتها، من أجل العامل قتا بن روتى، أقصد بذلك جانباً من تابوت، كان خشبه ملكاً لى». وطناً الإله رأسه وقال مؤكداً: «هذا يعادل ١٥، وسرير من خشب: ١٢، وأربعة قوائم سرير: ٣ حقات^(١١٩)، ومروحة: ٢ حقات... غار^(١٢٠) من العلس: ٣ حقات.. المجموع ٣١ بيتاً ونصف^(١٢١) من النحاس^(١٢٢)».

وبالعودة إلى ظهر الأوستراكون، يفهم أن قتا كان قد دفع إلى خع إم واست ٢٤ بيتاً من النحاس، مقابل بعض الأعمال، ولكن اعتبر هذا الأخير أن هذا المبلغ غير كافٍ، فالتمس تدخل أمنحوتب الأول الذى قدر مبلغ ٣١ دين ونصف.

كان من إختصاص المحاكم العمالية أن تصدر أحكاماً فى الشئون المحلية البسيطة. ولكن كان من الممكن فى جميع الأحوال الأخذ بالحكم الصادر من أمنحوتب الأول. وطبقاً للأيدىولوجية الملكية فى مصر، وإذا كان الملك هو «الراعى الصالح» الذى يرفع شعبه ويحميه، كانت روابط حميمة تجمع العامل الملكى ورعاياه من البشر حتى أدق تفاصيل مشاغلهم الحياتية.

كانت الأعياد الشعبية تصاحب هذه الطقوس الدينية التى تقام من أجل الصورة الملكية. فيشهد الودى مواكب إحتفالية ضخمة تظهر أثنائها صورة العامل الملكى وسط جموع الشعب التى تهلل فرحاً. كان حاملو الصورة المقدسة وكهنة الشعائر الدينية هم عمال دير المدينة الذين يتخفون عندئذ ألقاب الكهنة العظام ليصبحوا لفترة هذا العيد «كهنة من أصحاب الأيدى الطاهرة» و«خدّام الإله». كان البشر أمام الآلهة، سواء بسواء، لا فرق بينهم.

وقد عثر على وقائع الترتيبات الشعائرية الخاصة بعبادة أمنحوتب الأول، على عدد من البرديات، نذكر منها بردية شيستر بيتى Chester Beatty رقم ٩، من مقتنيات المتحف البريطانى، وهى نسخة حررت فى عصر رعمسيس الثانى. كما أن نصين مماثلين يعودان إلى العصر ذاته، يحتفظ بهما فى الوقت الراهن متحف القاهرة ومتحف تورينو. وفضلاً عن ذلك فإن بعض النقوش التى نحتت فى عهد سيتى الأول

على الجدار الشرقى من بهو الأساطين فى معبد آمون الكبير، تقدم وصفاً لهذه الشعائر الملكية التى غالبت الأيام. وفى مدينة هابو أيضاً وتحديداً فى معبد رعمسيس الثالث الجنائزى، سُجِّلت على الجدار الشمالى من الفناء الأول إشارة إلى هذه العبادة. وترتبط الفقرات الرئيسية بالترتيبات الخاصة بالقرايين وخدمتها (١٣٣).

وبعد عودة النظام الملكى إلى سابق عهده وتأسيس الإمبراطورية، شهدت مصر إزدهاراً جديداً. ومع تربيع امرأة على عرش البلاد كانت هذه الإنجازات أن تتعرض للضياع. ولكن تحوتمس الثالث، وهو من أبرز التهامسة وأكثرهم تالقاً، كان يتحلى بسمات بطولية كقائد عسكري ويفكر ثاقب كإدارى فطن، فاستطاع أن يستعيد عظمة الإمبراطورية ويدعمها.

الفصل الرابع

حتشپسوت، الملكة الغاصبة

١- غموض وراثة العرش داخل الأسرة الحاكمة

عند وفاة تحوتمس الثانى حول عام ١٥٠٤ ق.م، ثارت بحدة قضية وراثة العرش داخل الأسرة الحاكمة.

كانت الزوجة الملكية العظيمة حتشپسوت قد رُزقت من اقترانها بالعاهل الملكى الراحل بابنتين: الأولى هى الأميرة نفور رع أى «جمال رع». وعندما كانت لا تزال فى سن الطفولة، وكما سبق أن ذكرنا، تولى المعلم المربى أحمس - بن - نخبت تنشئتها، لينتمتع، على هذا النحو، فى نهاية حياته المهيبة بمنصب مرموق. ثم خلفه فى هذه الوظيفة، الأثير سنن موت^(١). أما الأميرة الثانية التى أنجبها الزوجان الملكيان فهى مريت رع - حتشپسوت أى «محبوبة رع، حتشپسوت» المسماة حتشپسوت الثانية. ومع ذلك فقد أنجب تحوتمس الثانى ابناً من الخادمة أست أى إيزيس، وأطلق عليه اسم تحوتمس الذى سيصبح فيما بعد، تحوتمس الثالث. ومن الواضح أنه سوف يتزوج الأميرة الشرعية مريت رع - حتشپسوت التى لن تقوم بدور ملحوظ فى التاريخ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ هذا الزواج. إن الخطوط العريضة لتعاقب وراثة العرش معروفة، ولكن لما كان الأمير لا يزال حديث السن، فقد اصطدم بطموحات زوجة أبيه.

إننا ندرك بوضوح إلتباس الموقف عند قراءة النص الوارد فى سياق حياة إينينى:

وحل مكانه ابنه، بصفته ملك القطرين. وحكم مقرباً على عرش هذا الذى أنجبته. وأخته الزوجة الإلهية «حتشپسوت» كانت تدير شئون البلاد، وخضعت الأرضان لسلطانها. وعمل الجميع من أجلها وحنن مصر رأسها من أجلها، من أجل بذرة الإله النورانية. إنها قلّس^(٢) قياد مصر العليا ووتد رسو أبناء الجنوب وقلّس كوئل مصر

(*) حبل غليظ من حبال السفن. (المترجم)

السفلى وسيدة الأوامر^(٢). خيرة هي مقاصدها والشاطآن راضيان عندما تتحدث^(٣).

أغلب الظن أن حتشپسوت قد تولت وصاية العرش عندما كان الأمير تحوتمس لا يزال حدثاً في سن الطفولة، الأمر الذي يفسر أنها قامت بتصريف شئون البلاد، ولكن وصاية العرش سوف تتحول إلى مبرر في خدمة طموحاتها الأخرى.

الملك المصطفى

عند تحليل النصوص الرسمية، يبدو من الواضح أن الأمير تحوتمس قد ظلّ لصفر سنه ملكاً بالاسم حتى العام الخامس (أو السادس؟)، بل ربما كانت حتشپسوت قد شاركت من قبل تحوتمس الثاني الحكم. وبالفعل فإن مدونة منقوشة على الصرح السابع من معبد آمون - رع في الكرنك، تضع هذه الكلمات على لسان تحوتمس الثالث:

لقد تصرف أبى آمون - رع - هوأختى بحيث أتجلى متألّقاً على عرش هورس الأحياء، فأدخلتُ فى حضرته إلى المعبد وأخبرت أنذاك بنبؤة مفادها أننى سوف اتسلّم حكم القطرين (واستحوذ) على عروش جب وعلى منصب خبرى، إلى جانب أبى، الإله الكامل عا خهر إن رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، له الحياة إلى أبد الأبد^(٤).

وفى زمن لاحق، وفى العام ٤٦ من عهده، أمر تحوتمس الثالث بنقش نص فى معبد الكرنك على الواجهة الخارجية من الجدار الجنوبي من حجرة قائمة جنوب قدس الأقداس. يوضح هذا النص ظروف اختياره من قبل آمون. ويبدو أن وقائع هذا المشهد قد حدثت فى حضرة تحوتمس الثانى:

أنا ابنه (ابن آمون). لقد أمر بأن أبقى على عرشه بينما كنت لا أزال صغيراً فى عشه. لقد أنجبني من بذرة شهوته.... كنت صديقاً فى معبد مدينته، بينما لم أكن قد فتحت لى المغاليتى حتى الآن بصفتى «خادم الإله»، بل كنت منذ ذلك الزمن قد

اتخذت شكل وهيئة «عمود- أمه»^(٥)، وأشبه الصبى حورس فى خميس. وذات يوم، بينما كنت واقفاً فى القسم الشمالى من القاعة الخضراء...^(٦) كان أمون قد جعل السماء فى عيد بسبب جماله، فقال عجائب طائلة، فى حين كانت أشعته فى عيون البشر بصفقتها تجلياً (للإله) حور أختى^(٧). كان الشعب يصدق عليه المديح والتهليل... عندئذ أمر جلالته بأن يحرق البخور من أجله، بينما كانت تقدم له فى الوقت ذاته قرابين طائلة من أبقار وعجول وصغار حيوانات الصحراء... كان (أمون) يقطع المسافة عند جانبي القاعة الخضراء، وكانت قلوب الذين أمامه^(٨) لا تفهم معنى تصرفه، فى حين كان يبحث عن جلالتي فى كل مكان. وفجأة تعرّف علىّ، وتوقّف... فسجدت أمامه وانبطحت أرضاً وانحنى ساعداًى فى حضرتي. فاقامنى بعد ذلك أمام جلالته، بينما كنت واقفاً فى مكان الرب^(٩). عندئذ حقق من أجلى العجائب... ففتح من أجلى أبواب السماء العليا، وأزاح من أجلى مصراعى الأفق. وارتفعت نحو السماء مثل صقر إلهي، وتأملت هيئته الخفية القائمة فى المنطقة العليا وعبدت جلالته^(١٠)... وشاهدت صيروتات إله الأفق على دروبه السرية فى السماء. لقد أقامنى رع ذاته. وارتقيت فى المداخل الرفيعة بفضل التيجان التى على رأسه وصلّ المتفرد مثبت على جبينه... وهبت كل تالفة وشيّبت على حكمة الآلهة وأخذت منها كفايتي وكاننى حورس الذى نشأ وترعرع فى بيت أبيه أمون- رع. وأخيراً منحت بالكامل كل الامتيازات الإلهية.

وثبتت تيجانى وانتظمت قائمة ألقابى.

وبادئ ذى بدء، وضّع الصقر فوق السرخ^(١١)، وجعلنى شديد البأس كالثور القوى، وتصرف أخيراً بحيث أتجلّى فى طيبة بصفتي اسمى:

حورس: الثور القوى الذى يتجلّى فى طيبة.

وجعلنى أرفع السيفتين: وأعاد ملكى الذى يفالب الزمن مثل ملك رع فى السماء بصفتي اسمى:

السيفتان: ذلك الذى ييوم ملكه مثل ملك رع فى السماء.

ثم شكنتى كصقر ذهبى ومنحنى قوته ويسالته وكُرسنى على عرشى عن طريق
تيجانى بصفتى اسمى:

حورس الذهبى: صاحب القوة، شديد اليأس والتجليات المقدسة.

وجعلنى بعد ذلك أشرق كملك مصر العليا ومصر السفلى وثبت صيوراتى مثل
صيورات رع، بصفتى اسمى:

ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين، من خپر رع (أى: «فلتبق
هيورة رع»).

أنا ابنه، المنبثق منه، والصورة التى تشكلت على هيئة الذى يترأس
حسيريت^(١٦)، كما أنه يوحد كافة صيوراتى، بصفتى اسمى:

ابن رع: تھوتمس المتحد من حيث صيورته - ليتة يحيا للزمن اللانهائى
وللزمن الأبدى...

وتصرف بحيث تأتى البلدان الأجنبية بأسرها منحنية بسبب مجد صاحب
الجلالة، فالخوف الذى أثيره استقر فى قلب الأقواس التسعة والأراضى المصرية
وضعت تحت نعلى. ويسلمنى النصر فى يديّ حتى أوسع حدود مصر...

لقد صنع أبى آمون كل ذلك بسبب عظمة الحب الكبير الذى أكنه نحوه. إنه
يبتهج بسببى أكثر مما فعل من أجل أى ملك آخر عاش فى البلاد من قبل، منذ أن
«وُبطت»، فأنا ابنه ومحبوبه. هذا ما يرجوه كاؤه الذى سيتحقق^(١٧).

هذا النص موشى بالإشارات إلى أصول تھوتمس الثالث الإلهية، وعلاقته
الحميمة بالإله آمون - رع الذى قام هو نفسه بتحديد عناصر قائمة ألقاب الملكية. إن
العامل الملكى الشاب قد اختارته الآلهة واصطفاه والده الملك المتربع على العرش.

إن إعلان التتويج بصفة رسمية والذى نقش نصه على الصرح السابع من
صروح الكرنك قد حدث فى القصر الملكى بمشاركة كبار رجال مصر وأشرافها:

فى اليوم الرابع، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام الأول (أى فى مطلع الربيع)، حدث أنذاك التجلى المتألق للابن الملكى... تحوتمس، ليته يحيا للزمن النهائى وللزمن الأبدى، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى...

قال جلاتى (لرجال البلاط المجتمعين لحضور الاحتفال): «اعلموا إذن ما يلى: إن قلب جلاتى يتجه إلى الخير والفاعلية... كابن خير يحقق من أجل من أنجبه أفعالاً مفيدة... إن مشيئة جلاتى هى أن يفعل عملاً حسناً لصالح من خلق كمالى»...

هنا أجاب رجال البلاط وأشراقها على صاحب الجلالة قائلين: «أنت حامى سيد الآلهة... كم هو رائع أن تودّ تجميل معبد أبيك آمون-رع، ملك الآلهة، من خلال تشييد مباني جديدة ومعالم صرحية تنوم إلى الأبد، أنت وريثه. اعمل إذن، اعمل إذن، واصل عملك، وأنت حى ومتجدد وشاب على النوام، مثل رع على مرّ الأيام^(١٤)».

وكما جرت العادة فإن نبأ تربع ملك جديد على عرش البلاد^(١٥) كان يذاع فى التوا واللحظة، فى الأراضى النوبية والسودانية. كما تشهد مدونات منهوتة فى العام الثانى فى معبد سمعة بالسودان على مدى إهتمام الملك الشاب، فور تسلمه السلطة، بهذه البقاع القصية من أراضى الإمبراطورية. وقد أضيفت إلى قائمة ألقابه «المحلية» وإلى اسم هورس الذهبى تحديداً، صفة «المحبوب من الإله يميون القائم على رأس النوبة»^(١٦).

وتتولى الآلهة المصرية «تقديم» المعامل الملكى إلى آلهة الجنوب، حتى تمنحه السلطة على مناطقها:

كلمات قالها يميون موفى إلى يميون القائم على رأس النوبة، الإله العظيم، رب السماء: «ليت ابنك ومحبوبك من خيبر رع يركن إلى الراحة فى معبدك ويرث عرشك. ليته يكون ملك مصر العليا ومصر السفلى، فى هذا البلد دون أن يحتاج أبداً إلى التجديد. ليتك تضع مجده، وتشكل هيئته فى قلوب النوبيين والماتسيو، مكافأة له على قيامه بتشيد هذا المبنى الجميل من أجلك ليغالب الأيام».

كلمات قالها يميون القائم على رأس النوبة: «أيا بُنى الذى ينتسب إلى جسدى، أيا محبوبى تحوتمس. إنى أثبت من أجلك مقامك كملك، أنت الشبيه (بالاله) هورس

الجالس على العرش. إنك توحد القطرين، بالنظر إلى أنك حي إلى أبد الآباد. لقد رفعتك قدرتك، لقد رفعتك قطنتك، لقد رفعت لتصبح سيد الپشت^(١٧). إن قرنيه على رأسك، وينبثقان أمامك، إن ريشته تلتقيان فوق شعر رأسك. إن الخوف منك استقر في البلاد الساهرة والهلح الذي تشبه قائم في أجساد الجهلة. إن اسمك يتقدم اسم الآلهة، ليترك تعمل بصفتك حياً مثل رع^(١٨)»

إن الآلهة والملوك «رفاق» أساسيون. لقد قام تحوتمس الثالث بتشييد معبد في سمعة كرسه للإله دينون، وفي الوقت نفسه أمر بترميم المعبد الذي سبق أن أقامه سنوسرت الثالث:

لقد شيد الإله الكامل من خيبروع مبنًى، هو معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل من أجل أبيه دينون، القائم على رأس النوبة. ومن أجل خع كاو رع^(١٩)، ملك مصر العليا ومصر السفلى. وبالفعل كان جلالتي قد وجد المعبد المشيد من الطوب قد أصابه دمار شديد. ومن ثم فقد تصرف بصفتي ابناً يمتلي قلبه حباً لأبيه، بعد أن أسند إليه الشاطآن، وبعد أن رفُع ليصبح الحورس، سيد هذا البلد. لقد وضع الله في قلبي (الرغبة) في إقامة مبنًى من أجله. لقد تصرفت بحيث يكون السيد، تماماً كما سمح لي أن أكون سيداً. لقد جعلت معبده واسخاً متيناً للزمن الأبدي، بقدر ما هو عظيم، وأعظم من أي إله آخر^(٢٠).

(كان دينون في هذه الأماكن هو الولي الراعي والحامي لها).

تؤكد جميع هذه النصوص على القدر الملكي الذي كان ينتظر الملك الشاب الذي يبدو أنه استهل عهده محاملاً في نظرتنا، بأفضل ما يكون من رعاية وحماية.

وفي العام الثالث من عهده، قام بإجراء تعيينات لكبار الكهنة. وقد دُون نب وادي كبير كهنة أوزيريس الجديد في أبيدوس النص الآتي على لوح حجري:

حدث ذلك في العام الثالث، عندما أنعم على سيدي من خيبروع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، برعايته بسبب ما فعلته من أجله. فتم ترقيتي إلى منصب كبير

(*) من ألقاب سنوسرت الثالث. (المترجم)

كهنة أوزيريس، واستعداد جميع وظائف هذا المعبد إخضارها، تحت سلطة جلالة الملك (٢٠).

وشغل هذه الوظيفة حتى العام السادس.

وفي العام الخامس، اختار تحوتمس الثالث الوزير أوسر - آمون الذي يدعى أحياناً أوسر. ويحدد هذا التاريخ نص بردية هي من مقتنيات متحف تورينو في الوقت الراهن:

اليوم الأول، من الشهر الأول، من فصل الفيضان، من العام الخامس، من عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خيبر رع، ابن رع: تحوتمس. في هذا اليوم، مثل الكاتب والخازن الملكي أوسر - آمون التابع لمعبد آمون - مثل بين يدي صاحب الجلالة. عندئذ قال الملك: «إن قلبي يميل إلى حد كبير، نحو اختيار أوسر - آمون وزيراً. إنه رجل غني بالسنوات منذ ميلاده. إن ثلاثين من سنواته (كُرست؟) للفرعون السيد الطيب. إنها لفترة طويلة» (٢٠ مكدا).

وإذ ما-زلنا في العام الخامس، فإن الجزء العلوي من لوح حجرى عثر عليه في سيناء بسرابيط الخادم، يظهر الملك الشاب بمفرده وهو يقدم قرباناً للإلهة حتحور (٢١).

ويلاحظ بعد العام الخامس، أن تحوتمس الثالث لن يظهر في إطار تتابع وقائع الإحتفالات الرسمية أو يُصور مع حتشيسوت، ولكنه في الصف الثاني في أغلب الأحوال. ومن الراجح أن طموح زوجة أب الملك، قد حملها فيما بين العامين الخامس والسادس، على تحويل وصاية العرش إلى ملكية مفتتحة. ولكن ما زال من الصعوبة بمكان في إطار مجموعة الوثائق المتوفرة في الوقت الراهن، أن نتعرف على وجه الدقة على طبيعة المؤامرات أو الدسائس التي مهدت لهذا الوضع.

الولادة الإلهية والسياسة

فى العام السابع جرت الإحتفالات الرسمية التى شهدت تنويع حتشپسوت.
وتحددت قائمة ألقابها:

- حورس (أو حورس الأثنى): ذات الكأآت القوية.
- السيبتان: التى تستعيد سنواتها إخضرارها.
- حورس الذهبى: ذات التجليات الإلهية.
- ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كارع («الحقيقة - العدالة، هى كا الإله رع»).
- ابنة^(**) رع: خمنت- إيمن- حتشپسوت (تلك التى تتحدّ مع آمون، إنها أكثر السيدات نبلاً وشرفاً).

ولإضفاء الشرعية على تربعها على العرش، لجأت حتشپسوت إلى تبريرات سياسية وأسطورية.

كانت تريد اقناع الآخرين بأن أباما تحوتمس الأول قد ميزها وفضلها منذ زمن طويل وأشركها فى شئون الدولة. وإذا كانت تستنجد بأبيها تحوتمس الأول وفضلته على زوجها تحوتمس الثانى، فسبب ذلك على ما يظن، هو أن أباما كان ملكاً لامعاً ومهيباً، ولكن يمكن أن نضيف إلى ما سبق أن الملك المتربع على العرش كان فى حقيقة الأمر، وفى ظروف نجهلها، قد وقع اختياره بالفعل بصفة رسمية على الأمير الشاب تحوتمس ليخلفه على كرسيّ الملك. وهو ما قد يبرهن عليه بعض النصوص التى سبق ذكرها. وتأكيداً لمزاعمها أمرت الملكة بنحت مدونة على الواجهة الشمالية من الصرح الثامن القائم جنوب معبد آمون-رع بالكرك. إن نقشاً يصور الملك تحوتمس

(*) مكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) مكذا فى المؤنث. (المترجم)

الأول، واقفًا أمامثالوث طيبة: آمون وموت وخونسو. ويلقى العامل الملكي خطابًا من أجل آمون:

إننى قادم إلى جوارك، أيا سيد الآلهة. إننى أسجد أمام جلالتك، لأشرك على إعطائك السوداء والحمراء إلى ابنتى ماعت كما رع ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى، ليتها تحيا إلى الأبد! تمامًا كما فعلت من أجلى... إننى سعيد لأنك استجبت لدعائى. وفى المرة الأولى التى فعلت شيئًا من أجل جلاتى، منحتنى ملكك فى حضرة القطرين، وأشدت بكالى عندما كنت لا أزال صبيًا... وخضعت السوداء والحمراء لسلطانى. أنا راضٍ عن الإنتصارات التى منحتنى إياها، وكل بلد من البلدان الأجنبية التى سبق أن تمردت، هى من الآن تحت نعلى، هذه البلدان التى طوّقتها تلك التى على الجبين (أى الصل) فيأتى أبناؤها الآن محملين بالجزية. لقد قوّيت هيبتى فى أجسادهم بينما تعبر صيحاتى - صيحات الحرب - بلدانهم، فقرتعد أطرافهم. لقد استحوذت عليهم منتصرًا، عملاً بأوامرك، وصاروا خدامًا إلى جوارك. وزعماء البلدان الأجنبية بأسرها يُطاطنون رؤوسهم. إنهم يخضعون من الآن للجزية، ويعملون لصالح معبدك... ومن أجلك نفّذت كل توجيهاك، وقلبك فرح بسبب كل ما فعلت. لقد أسندت إلى ملكى، أنت، يا سيد الزمن الأبدى وأقمته أمام التاسوع....

إن قلب جلاتى مشغول الآن بها... لقد فعلت ما لا يكفّ كاؤك عن الإشتياق إليه. لقد أصدرت الأوامر وفقًا لتوجيهاتك. وكم كانت كل أفعالى موفقة... ومن أجلى، جدّد انعماتك، من أجل ابنتى ذات الكمامات المقتدرة، ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى، (ابنتى) التى أحببتها والتى اتحدت بك، إنها أثيرة الآلهة. فليستعد هذا البلد الذى فى قبضتها إخضاره وامنحها سعادة سنوات ملك مديدة... كم هو جميل وطيب ما سبق أن صنعتته من أجلى، ليتك تسمعنى إذن وتنصت إلى النداء (الذى أعلنه) للمرة الأولى، فضلًا عن الأدعية التى أرفعها من أجل محبوبتى^(٢٢).

هكذا يمكن أن يقال أن عهد حتشپسوت كان قائمًا على خدمات متبادلة بين الإله (آمون) والملك (تحوتمس الأول). فمقابل سلوك الملك الذى سارع على الدوام إلى تلبية الأوامر الإلهية كان ينبغي على آمون أن يستجيب لمطلبه.

(*) هكذا فى الذكر. (المترجم)

إن عدداً من الوثائق ومنها جعران يحتفظ به متحف اللوفر يُظهر اسمى تحوتمس الأول وحتشپسوت، جنباً إلى جنب^(٣٣). ولكن ربما يعود إلى تاريخ لاحق لاستنثار الملكة بالحكم.

هل نحن أمام ملك وملكة قام أبوهما باختيار أحدهما ليخلفه؟ وفضلاً عن «معركة» الإلهين الأبوين، تضاف إليها معركة أصداء هاتف الوحي الإلهي.

لقد نُحِتَت مشاهد تتويج حتشپسوت على الكتل الحجرية للمقصورة المعروفة اصطلاحاً بالمقصورة الحمراء التي شيدها الملكة لتكون استراحة لمركب آمون، فيما بين العامين ١٦ و١٧، من عهدهما والتي أُعيد استخدام عناصرها عند إقامة مبانٍ أخرى. فبعد أن أعلن الإله آمون الذي صُوِّرَ على رأس موكب إحتفالي طويل، ما يكشف عنه الوحي الإلهي لصالح حتشپسوت، نشاهد هذه الأخيرة خارجة من «إشراقات قصرها» مرتدية ملابس «زوجة الإله» لتنضم إلى الموكب الذي سيتوقف في معبد الكرنك، في عدد من الأماكن، في حين يستمر الإله في إعلان أقوال الوحي الإلهي، كشواهد متعددة على نهار «رائع مثير للإعجاب». ومع عودة حتشپسوت إلى قصرها تتربع على العرش الكبير. وعلى جبين الملكة تستقر الإلهة-الصلوات وارت حكاو أي «ذات المفاتن السحرية العظيمة». وبعد أن خلعت الملكة ملابسها بصفتها «زوجة الإله» ترتدي «زينة رع». وتتسلَّم توجيهات آمون وتشكره على اعتلائها عرش الملكة^(٣٤).

ما تقدم يعتبر التفسير الأسطوري الأول للسلطة التي استحوذت عليها ابنة تحوتمس الأول. ولكن تحوتمس الثالث أيضاً ينطلق من اختيار شخصي افصح عنه الإله.

وللبرهنة على شرعية حتشپسوت في الملك، يوجد تبرير أسطوري ثانٍ. إنه نص مسهب تصاحبه الصور. وقد نقش على جدران معبد الملكة الجنائزي في الدير البحري وعلى الرواق الغربي من الشرفة الثانية. تبدأ النقوش عند الطرف الجنوبي من الصُفَّة وينتهي عند طرفها الشمالي. وإذا تسعى الكلمات والصور من خلال إزواجية فاعليتها السحرية إلى إضفاء الواقعية على مسردها، فإنها تروي ولادة حتشپسوت بعد أن جامع آمون-رع الملكة أحمس، عندما اتخذ ملامح والدها.

لا يُقصد بذلك كما يقال أحياناً أنه نص «دعائى»- لأن هذه الكلمة لها دلالة ملتبسة فى عصرنا، ولكن المقصود أسطورة حقيقية تعود إلى أصول موغلة فى القدم، وإن اتخذت هنا شكلاً رسمياً بفضل بعض الكهنة المخلصين للكتهم، على ما يظن. إن موضوع الولادة الإلهية الذى يؤكد على الأصول الجسدية الإلهية للملك، سبق صياغته فى شكل حكاية شعبية^(٢٥)، بمناسبة ميلاد ملوك الأسرة الخامسة الثلاثة الأوائل، بصفتهم أبناء رع وامرأة أحد الكهنة. إنه موضوع شائع فى الفكر القديم، ظل مزدهراً فى مصر لفترة طويلة. وبعد مرور ألف سنة على هذه الأحداث وبعد أن كانت الولادة الإلهية قد صاحبت ميلاد ملوك آخرين، سوف يقدم كتاب كاليستانوس المنحول عرضاً يوضح فيه كيف أن نختانبو آخر ملوك مصر قد لجأ إلى بلاط پلا^(*) و كان ساھراً عظيماً قد أخبر الملكة أولامپياس^(**) من خلال رؤيا رأتها فى نومها، أنها ستحمل بابن من معاشرة الإله آمون لها. ومن المعتقد أن نختنبو ذاته قد قام بدور الإله، ومن اقترانهما وأد الإسكندر، ومن ثم استطاع أن يبرر تربيته على عرش الفراعنة، أسوة بما فعله البعض الآخر من قبله. ربما كانت هذه الحكاية الخرافية تستند إلى قصة روج لها الملوك المقدونيون فى مصر، واستلهموها من تقاليد وطنية متواترة، سياسية وأدبية، موغلة فى القدم.

أصبح نص النير البحرى موضوع عدد من الدراسات. ونذكر على سبيل المثال، دراسة عالم المصريات الألمانى هلموت برونر^(٢٦) Hellmut Brunner الذى اعتقد منذ عهد قريب، أنه تعرف على ستة عشر مشهداً متتالياً، جاءت من ثلاثة مصادر: رواية أسطورية وخطابات الآلهة وشنرات من طقوس دينية. أما فرانسوا دوما F.Daumas فيتحدث عن متتالية مسرحية، وهو على حق فيما ذهب إليه^(٢٧).

يبدو أن النصوص والصور، تعبّر عن ثلاثة مواضيع كبرى: ١) الفصل والولادة- ٢) القبول فى عالم الخالدين- ٣) الملك الأرضى. ويعتقد إن كل موضوع من هذه المواضيع، أو كل فصل من هذه الفصول، ينقسم بدوره إلى عدد من المشاهد، بل وفى

(*) مدينة يونانية قديمة وعاصمة مقونيا. (المترجم)

(**) والدة الإسكندر الأكبر. (المترجم)

وسعنا أن نتساءل - ولا سيما أن النص ذاته والصور نفسها قد صُوِّرت في معبد الأقصر لصالح أمنهوتي الثالث، ثم جزئياً من أجل وعمسيس الثاني، في المعبد المكرس لوالدته الواقع شمال الرامسيوم - في وسعنا إذن أن نتساءل إذا كنا لا نتعامل هنا مع «كراسة مسرحية» تضع على خشبة المسرح الآلهة والملوك، جنباً إلى جنب، إنه أشبه بالمسرح العيني الذي عرفته القرون الوسطى في الغرب والذي كانت تقدم عروضه بهدف معنوي من أجل الملوك، وهذا ما يمكن أن نفترضه على الأقل.

أولاً: الحمل والولادة

١ - المشورة الإلهية

يُبلِّغ آمون الآلهة بانجاب ملك جديد سوف يولد كثمرة لجماع إلهي:

هكذا تحدّث آمون إلى الآلهة بشأن ميراث رب القطرين. لقد اشتهيت رفيقة ومحبوبة الملك (تحتمس الأول)، الملكة أحمس والدة ماجت كارع ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى.... سوف أكون حامس جسدها (في فجوة سابقة في النص، ربما وردت إشارة إلى «ثمرة» هذا الإقتران ألا وهي هتشبسوت). كنت منذ ذلك الوقت قد وهبتها كافة الأراضي المصرية وكافة الأراضي الأجنبية، وسوف تتولّى قيادة الأحياء أجمعين... من أجلها وحثت الأرضين في سلام... سوف تشيّد معابدكم^(٢٨)، وتجمّل مقاصير قدس أقداسكم فخمة... وتعمل من أجل دوام قرابينكم وحتى يعود الإخضرار إلى موائد قرابينكم، وفي زمنها سوف تأمر بتساقط الأنداء من السماء. أما أنتم فستعملون على تدفق أنهار نيل عظيمة^(**) إليها، وتبسطون خلفها حمايتكم السحرية من حياة وقوة.

ووافقت الآلهة^(٢٩). إنه التمهيد أو العرض العام «للمسرحية» التي سيرد فيما بعد وصف لمشاهدها، من خلال استرجاع الماضي.

(*) مكذا في المذكر. (المترجم)

(**) أي مياه الفيضان الوفيرة. (المترجم)

٢- آمون وتحوت أو السيد وكاتم أسرارهم

(خطاب آمون مشوه إلى حد كبير)

كلمات قالها تحوت:

«هذه المرأة التي تحدثت عنها والتي تُدعى أحمس، جميلة بل وأجمل من سائر نساء هذا البلد بأسره. إنها زوجة العامل الملكي عا خبير كا رع(*)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليتة يحيا إلى الأبد(٢٠)».

يقوم تحوت باصطحاب آمون إلى جوار الملكة أحمس بعد أن اتخذ هيئة الملك تحوتمس الأول.

٣- الاقتران

يوضح نقش الصورة الإله والملكة جالسين وجها لوجه وقد تداخلت سيقانهما.

أمون، هذا الإله النبيل، سيد عروش القطرين قد تحول ليتخذ هيئة صاحب الجلالة عا خبير كا رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى زوج الملكة. ووجد هذه الأخيرة بينما كانت تستريح في بهاء قصرها. واستيقظت على رائحة الإله وابتنسعت في حضرة صاحب الجلالة. وفي الحال اقترب منها وهو يتحرق شوقاً وحمل إليه شهوته، وتصرف بحيث ترى هيئته كإله. وبعد أن دنا منها وبينما كان مسروراً لرؤية جمالها، إذا بحب آمون ينفذ إلى جسدها. وغمرتها رائحة الإله، التي جاءت جميع شذاه من بلاد بونت... وفعل معها جلالة آمون كل ما كان يشتهي. كما تصرفت هي بحيث يُسرّ بفضلها وعانقته.

كلمات قالتها أحمس الزوجة الملكية والأم الملكية في حضرة جلالة آمون، هذا

الإله النبيل، سيد عروش القطرين:

(*) لقب تحوتمس الأول. (المترجم)

«أيا سيدي كم هي عظيمة قوتك، إنه أمر عزيز الشأن أن يُرى صدرك بعد أن
اقتربت بجلالتى فى روعتك، بينما تنتشر أنداؤك فى مختلف أعضائى».

وبعد ذلك صنع جلالة هذا الإله معها - من جديد - كل ما كان يشتهيهِ. كلمات
قالها آمون سيد عروش القطرين للملكة:

«حقاً، إن خمفت- إيمى-حتشيسوت، هو الاسم الذى ستحملة هذه الفتاة التى
وضعتها فى جسدك (وفقاً) لهذه الكلمات التى تفوهت بها. سوف تقولى هذه الوظيفة
الملكية الجالبة للخير فى هذا البلد بأسره. بسالتى وقدراتى لها وقوتى لها وتاجى
الكبير ملكاً لها، فتتسبد على القطرين وتقود الأحياء أجمعين... وصولاً إلى ما يحيط
بالسما... وسوف أتلقى عليها. وتتحد الأرضان من أجلها، وفى كافة أسماها، على
عرش حورس الأحياء. سوف أؤمن حمايتها السحرية من خلفها، كل يوم، وبالتزامن
مع الإله القائم فى قرصه (أى: «رع»)(٣١)».

٤- الإله خنوم، الصانع الرسمى الذى يشكّل جسد الطفل الإلهى

يطلب آمون من الإله الفخارى فى جزيرة إلفنتين أن يشكّل على دولا به جسد
«الابنة المحبوبة التى أنجبها».

خنوم :

«سوف أشكّل ابنتك هذه، مامت كلوع. فعليها تتوقف الحياة والإزدهار
والصحة والقرايين والأطعمة والمتعة والحب وكل ما لذ وطاب. سوف تكون هيئتها أروع
من هيئة الآلهة بفضل منصبها المرموق بصفتها ملك(ة) مصر العليا ومصر السفلى».

بينما كان خنوم يعمل على دولا به، كان يتحدث إلى الطفل الذى أخذ جسده
يتشكل شيئاً فشيئاً. «ترتطم» الكلمات بالفلاف الجسدى الذى ما زال مبهماً، شأنها
شأن أعداد من المقاتن السحرية، فتختلط باللحم الذى يظهر إلى الوجود وقد أبدعته

(*) هكذا فى الذكر. (المترجم)

الأنامل الباردة للإله الصانع العظيم. والحقائق التي تعبر عنها سوف «يضمها ويدركها» إذن، جسد الطفل الإله ذاته. ولا يقتصر الأمر على مجرد أحاديث بل إننا أمام سحر خالق للحياة، إنه من صنع فخّارىّ جليل فى سموه، فيمزج الصلصال البسيط بروائع الكلمة وأعاجيبها:

إنى أشكك أنتِ المنبتقة من جسد هذا الإله، رب الكرك. لقد أتيت إليك لأخلقكِ أجمل من سائر الآلهة. إنى أعطيك كل الحياة وكل القوة وكل الثبات وكل فرح القلب، الآتية منى. إنى أعطيك كل الازدهار والأراضى المصرية، فى أن واحد. إنى أعطيك كل البلدان الأجنبية والشعب بأسره. إنى أعطيك كل قربان وكل طعام. إنى أعطيك أن تظهرى فى مجد عرش حورس، مثلكِ مثل رع. إنى أمنحك البقاء على رأس كمامات الأحياء أجمعين بعد ظهوركِ متأنقة بصفتك ملك^(٢٠) مصر العليا ومصر السفلى - كما أمر به أبوك أمون - رع الذى ما برح يحبك على الدوام^(٢١).

٥- البشارة من قبل الإله تحوت

[كلمات قالها تحوت رب الكلمات الإلهية]... إلى السيدة النبيلة، ابنة جب ووريثة أوزيريس، القائمة على رأس القطرين، وإلى مصر العليا ومصر السفلى، وإلى الأم الملكية أحمس:

«إن أمون رب عروش القطرين، فرح بمنصبك المرموق بصفتك السيدة النبيلة، ذات الجاذبية الأسرة والعظوة المرموقة والتي تشرف على الملذات، إنها غاية فى الرقة، والمحبوبة إلى أبعد الحدود. إنها ترى حورس وتتأمل ست^(٢٢). إنها محبوبة الكيش (أى: «أمون») وتسعده... وتتحد بالإله حورس، فهى محبوبته التى يقال عنها، أن كل شيء يحدث من أجلها^(٢٣)».

(*) مكنا فى الذكر. (الترجم)

الإله خنوم والإلهة حقات يرافقان الملكة إلى حجرة الولادة. وأمامهم تأسوع من الآلهة يتكون من ثلاثة صفوف يضم كل صف منها ثلاثة آلهة. ويؤكد الرقم تسعة على التعددية وأهمية العون الإلهي. ويصطحب آمون هذا التأسوع. وأمام إله الكرنك ربما كانت توجد مدونة من ثلاثة عشر سطراً تشرح وقائع عملية الوضع ولكنها مهشمة في الوقت الراهن للأسف تهشيماً بالغا.

أما الصورة التالية فتظهر الملكة جالسة على عرشها وهي تحتضن الطفل الحديث الولادة. وأمامها تقدم أربع آلهة - قابلات علامة الحياة إلى ابنة الإله. وخلفها أربع آلهة أخرى: ومن بينها هاتور إيزيس ونفتيس وهما معاونتان ضروريتان لكافة أشكال الولادة وإعادة الولادة. وعلى اليمين تجلس مسخنة التي تشرف على عملية الوضع عملاً بتقليد قديم متواتر.

كلمات تقولها مسخنة:

«لقد نُصِبَ الطفل بصفتك ملك^(٥) مصر العليا ومصر السفلى، سوف أؤمن على الدوام من خلفك حمايتك السحرية، على غرار رع. إنى أمنحك الحياة والقوة أكثر من أى كائن آخر. إنى أسند إليك الحياة والإزدهار والصحة - والفاعلية والشهرة والسعادة - والأطعمة والقوابين وكل ما هو طيب وجميل. لبتك تظهرين متألقة بصفتك ملك^(٥) مصر العليا ومصر السفلى، إبان أعداد كبيرة من احتفالات اليوبيل - أنت الحية^(٥٥) الثابتة فى دوامها، القوية فتظل لذة القلب مع كائنك، فى هذين القطرين اللذين تتسيد^(٥٥٥) عليهما على عرش حورس للزمن اللانهائى^(٥٥٥)».

هكذا نجد أن الصفات الجسمانية والصفات المعنوية والروحية، وهى المصادر المتجددة للطاقة الحيوية، قد اكتسبتها الملكة منذ ولادتها.

(*) هكذا فى الذكر. (الترجم)

(**) مؤنث حى. (الترجم)

(***) هكذا فى الذكر. (الترجم)

ومن اللافت للنظر أن خمسة من المعلونين الرئيسيين الحاضرين هذه الولادة وهم خنوم، وحقات ومسخت، وإيزيس ونفتيس كانوا من القائمين بأشوار رئيسية في وقائع ولادة ملوك الأسرة الخامسة الأوائل استناداً إلى رواية الحكاية الخرافية القديمة. وتعود فكرة الولادة الإلهية إلى تقاليد مصرية موهلة في القدم قامت حتشپسوت بتطويرها وصيغها بطابع رسمي لتستمر ويكتب لها الدوام. بعد ذلك.

ثالثاً: القبول في عالم الخالدين

١ - تقديم الطفل إلى أمون

يتقدم هذا الإله الجليل لرؤية ابنته ومحبيته، ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كارع، ليتها^(**) تحيا، وذلك بعد أن ولدت فكان قلبه سعيداً، إلى أبعد الحدود. ومدّت حتحور ساعدها إلى صاحبة الجلالة (إذ كانت الإلهة - الأم تتولى رعاية المولود الجديد) واحتضنت بقوة، الطفل الصغير (حرفياً: «فرغ البطة»).

أمون إلى حتحور:

«إنك تقدمين إلى ابنتي ذات السنوات العديدة، ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى الذي يقف على رأس الأحياء أجمعين، رب الزمن الأبدى وكافة الشهور. إنى أهبه كل حياة وكل قوة وكل صحة، من أجل حمايته السحرية».

أمون إلى الطفل:

«التحبة لك يا ابنتي التي من جسدي، أيا ماعت كارع، الشكل المتألق المنبثق مني. سوف تكونين^(**) ملكاً^(*) وتستأثرين بالقطرين على عرش هورس مثل رع». عندئذ عانقها وضماها بين ساعديه واهتم بشئونها لأنه يحبها، أكثر من أى شيء آخر.

(*) مكذا في المذكر. (المترجم)

(**) مكذا في المؤنث. (المترجم)

أمون إلى حتحور:

«لقد أعطيتها كل حياة وكل قوة وكل صحة نابغة مني».

أمون إلى الطفل:

«أملأ ومرحباً، أملأ ومرحباً، في سلام، أيا ابنتي التي تنتمي إلى جسدي، أيا محبوبتي ماعت كلوع. سوف تكونين^(*) ملكاً^(**) وتستأثرين بالتاج على عرش حورس الأحياء، للزمن اللانهائي».

حتحور إلى الطفل:

لقد جعلك أبوك تشرقين متألقة على عرش حورس. إنني أمنحك إذن إلى جوارى كل حياة وكل قوة. إنني أمنحك كل ثبات. إنني أمنحك كل صحة. إنني أمنحك كل لذة القلب. كما أمنحك أيضاً الأراضي المصرية قاطبة والأراضي الأجنبية قاطبة، حتى يكون قلبك مسروراً، بينما تدبرين شئون الأحياء بأسرهم، متجلية على عرش حورس مثل رع للزمن الانهائي^(٣٦).

٢- الرضاعة الإلهية

وتقوم حتحورتان^(***) برأس بقرة برعاية المولود. واشتتان أخريان تتوليان إرضاعه هو وكائه. وعلى يمين النقش نشاهد اثني عشر كا سبق إرضاعها ويتم تسليمها للإله - النيل. هكذا فإن العناصر الخصبة للكون والسماء في هيئة حتحور زوجة الشمس^(****) ووالدته^(*****) والنهر الفدق - تروى ظمأ العبي الصفير وتمد

(*) (*) هكذا في الذكر. (المترجم)

(**) (**) هكذا في المؤنث. (المترجم)

(***) (***) منى حتحور. (المترجم)

(****) (****) مذكر في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(*****) (*****) التزمنا بالذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

مصادر طاقته بالغذاء. وإذا أطلع المولود الجديد بالسائل الإلهي ذي القيمة الروحية، فسوف تكون حياته شباباً أبدياً نشطة وخالدة^(٢٧). الأمر الذي سيحدث مع هيراكليس^(٢٨) الذي سترضعه هيرا^(٢٩) عندما تم تأليهه.

أمر أمون بإطعام صاحبة^(٣٠) الجلالة في آن واحد مع كائناتها، بكل حياة وبكل قوة، وبكل ثبات وبكل ازدهار وبكل سعادة، وأن تتحقق لها ملايين السنين على عرش هورس جميع الأحياء، للزمن اللانهائي.

(إن ترديد هذه العبارات مراراً وتكراراً ترديداً ضرورياً، بما لها من قيمة سحرية، يؤكد بلا كلل أو ملل على صفات الملكة ومناقبتها بفضل قوة الكلمات، فتخلقها على هذا النحو خلقاً).

جوقة الآلهة المرضعة:

«لقد حضرنا لنمارس حمايتنا السحرية فنعطى الحياة والثبات والقوة من خلفها، فضلاً عن حماية كائنها مثل روح، للزمن اللانهائي».

الحتحورتان اللتان ترضعانها:

سوف ننشئك بمصفتك ملك مصر العليا ومصر السفلى، لها^(٣١) الحياة والنوام والقوة، ليكون قلبك سعيداً على عرش هورس، لتكوني على رأس الأحياء أجمعين وتديرين شؤون القطرين في سرور وتستأثرين بتاجي الجنوب والشمال، أنت القائمة على عرش أتوم - طبقاً لما أمر به سيد الآلهة^(٣٢).

(*) من أبطال الميثولوجيا اليونانية ويطلق عليه اللاتين اسم هرقل. (المترجم)

(**) في الميثولوجيا اليونانية إلهة الزواج والأمومة. (المترجم)

(***) هكذا في المؤنث. (المؤلفة)

٣- تجديد المصائر

يبدأ بالإتحاد مع عالم الآلهة. وتتقدم بعض الآلهة الأخرى لتجدد الوعود السابق قطعها والتمنيات بملك يغالب الأيام ويمتد إلى أركان العالم. إنها الآلهة تحوت وأمون للمرة الثانية وأنوبيس وخنوم والإله - النيل.

٤- يشب الطفل ويتزعزع في حماية حتحور والآلهة

أ - صورة حتحور وهي لاتزال ترضع الطفل ويتعبد لها تحوتمس الثالث (١).

كلمات تقولها حتحور البقرة الذائعة الصيت القادمة على رأس الآلهة جمعاء - إلى ماعت كارع، ملك (*) مصر العليا ومصر السفلى، سيد القطرين:

«يا ابنتي، يا محبوبتي، يا ماعت كارع، أنا أمك التي خلقت جمالك، لقد أقمته على عرش حورس (وك) ملك الجنوب والشمال. إنني أمنحك السنوات التي تعود إلى الزمن الأبدى».

ب- البقرة المقدسة التي يسير العجل أيبس في أعقابها تلعق يد الطفل الذي شب وترزعزع.

عنوان المشهد:

معانقة الجسد الإلهي ولعقه والإتحاد بالملك، حياة وقوة.

هكذا يتم الإعلان عن المسير الإلهي والملكى للصبي وهو ما يؤكد أيضاً بمزيد من الوضوح الحديث الذي أفاضت به حتحور، سيدة مقدسة، سيدة السماء وملكة الآلهة المقيمة في معبد الدمر البحري:

(*) هكذا في المذكر. (الترجم)

«يا ابنتى المحبوبة ماعت كارع، لقد حضرت سعيدة بما تكّنين نحوى من حب. أنا راضية عن هذا المبني المقدم منك، عن مكان الراحة الكاملة هذا، الذى شيدته من أجلى.

(المقصود المقصورة التى كرس لها فى النهر البحرى والتى شيدت فى عهد حتشپسوت. إنه تزامن بين رواية فى الحاضر وواقعة سوف تحدث، فى المستقبل. إن حتحور تُطعم حتشپسوت وتشرف على تنشئتها. وعندما تصبح هذه الأخيرة ملكة سوف تأمر بإقامة مقصورة لهذه الإلهة. وهكذا يتداخل الزمانان: الماضى والحاضر).

«إنى قادمة من به، إنى ذاهبة إلى به، إنى أتجول فى المستنقعات القائمة فى تخوم دروب هورس وأتوقف فى خميس^(٣٩) لتأمين حماية حورس. إن عطرى هو عطر شعب بونت وشذاك سيكون أزكى من شذا الآلهة. أيا ابنتى ماعت كارع التى تنتمى إلى جسدى، أيتها «العورس المؤنثة» الذهبية، أنا والدتك ذات اللبن العذب، إنى أرفع جلالتك من ثدى حتى يصبح هذا اللبن الذى ينفذ فيك حياة وقوة. إنى أعانك، إنى ألق جسدك بلسانى الرقيق الخارج من فمى. ليك تولدين وتتجدين على مر الأيام، على يدى أبيب أمون الذى وضع تحت نعليك الأراضى قاطبة».

ومن الآن، أصبح مصير حتشپسوت هو مصير الآلهة ذاته. إنها أحد أوجه «مريبتها» حتحور والداها أمون. كما أن أيبس يوجه كلامه إلى الطفل-الإله ويقدم له مساهمته:

كلمات يقولها أيبس الثور الجميل الذى يسافد إنائه:

«لقد حضرت لحماية ابنتى المحبوبة... ماعت كارع ملك^(٤٠) مصر العليا ومصر السفلى، فلتقدم لها قطعان أكثر المستنقعات بعداً، فلتكثر من أجلها المواشى، هى التى أنجبت من أجل حسات (اسم بقرة مقدسة)».

ج - إذا كان حتحور وأيبس يشكلان هنا قرينين، فإن مشهداً آخر هو بمثابة

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

«مقابله». إذ يضع حتحور وأنوبيس معاً. وتنطق حتحور بكلمات مشابهة لما قالتها في المشهد السابق. في حين يساهم أنوبيس، مثله مثل الآلهة الأخرى في تربية الصبية:

«أيا ابنتي ماعت كارع إنني قادمة إلى جوارك. إنني أعظّمك في منصبك المرموق بصفتك ملك^(*) محصر العليا ومحصر السفلى. إنني اضع حب الآخرين لك، في قلب كل الناس... ليت قلبك يكون سعيداً مع كلّك على عرش حورس الأحياء أجمعين، للزمن اللانهائي^(١٠)».

إن أيبس هو رمز سخاء الحياة الخصبة الخلاقة.

إن أنوبيس هو رمز الحياة المحمية حماية سحرية، إلى أبد الأباد.

إن حتحور تتجدد إلى الأبد، مثل السماء والشمس.

إننا في عالم من التوافقات الروحية التي تسعى إلى الفعاليات الناجعة على أكمل وجه، فتضمن الخلود للآلة المستقبل التي أنجبته الآلهة وأطعمتها ونشأتها.

٥- التطهر من قبل آمون و رع حور أختي

يصب الإلهان الماء المقدس على الطفل.

«كوني طاهرة، أنت وكاؤك، ومقدسة في عظمتك كمالك^(*) محصر العليا ومحصر السفلى، أيتها المفعمة بالحياة».

● آمون: كلمات تقال أربع مرات (ويُنطق بها على الأرجح بالاستدارة على التوالي نحو الجهات الرئيسية الأربع، وفقاً للطقس الديني الشمسي في المقام الأول).

«كوني طاهرة، كوني طاهرة، أيا ماعت كارع المنتمية إلى جسدي. إنني امنحك الإحتفال بملايين الأعياد اليوبيلية، بأعداد لا حصر لها، بصفتك ملك^(*) الأرضين ورب^(*) الأحياء».

(*) هكذا في الذكر. (الترجم)

• رع - حور أختي: كلمات تُقال أربع مرات:

«كوني طاهرة، كوني طاهرة، أيا ماعت كلوع، يا محبوبتي. إنني أعطيك الإستئثار بالقطرين بصفتك ملك^(٩) مصر العليا ومصر السفلى وأعطيك الإشراقات المتألقة على عرش حورس وقيادة الأحياء أجمعين، كما أمر به والدك آمون - رع الذي ما برح يحبك^(١٠)».

هكذا فإن الإلهين الشمسيين يُبلغان الكون في جهاته الرئيسية الأربع، بطهارة الطفل المقدسة وتولي الملك في المستقبل.

٦. آمون يتولى تقديم حتشپسوت إلى كافة آلهة مصر

آمون جالس على عرشه يحتضن الطفل وأمامه تقف ستة آلهة: تمثل ثلاثة منها، «جميع آلهة الجنوب» والثلاثة الأخرى «جميع آلهة الشمال». كان الرقم ثلاثة يدل في مصر القديمة على الجمع، وإن كان يشير أيضاً إلى التعددية اللانهائية.

يتقدم آمون لشهادتها واحتضانها. ثم يتصرف بحيث يتأملها جميع آلهة مصر العليا ومصر السفلى. كلمات يقولها آمون - رع سيد السماء وملك الآلهة:

«شاهدوا ابنتي خنمت - إن - حتشپسوت، ليبتها تحيا، أحببها، ظللوا عليها!»

كلمات قالتها جماعة الآلهة إلى آمون:

هذه الفتاة خنمت - إمن - حتشپسوت وهي لك، ليبتها تحيا! سنظللها في الحياة وفي السلام. أجل إنها ابنتك، إنها صورتك التي انجبتها ووفرت لها كل شيء. لقد وهبتها بسلامتك وقدرتك وقوتك وسلطانك السحرية وتاجك العظيم. إنها من ذرية جسدك. الأراضي المصرية تابعة لها والبلدان الأجنبية ملك لها، فضلاً عن كل ما تشمله سيده السماء (حتحور) وتغطيه وما تحيط به الشديدة الإخضرار. لقد خلقتها

(*) هكذا في المنكر. (المترجم)

على صورتك، أنت العارف بالزمن الذى لا حدود له. لقد وهبتها نصيب حورس حياةً وسنوات ست قوة... سوف نمنحها كل حياة وكل قوة ونوفرهما لها، وكل صحة وكل سعادة القلب اللتين تقدمهما، وكل أنواع القرابين والأطعمة التى نعطيها. سوف تبقى مع كائنها على رأس كائنات الأحياء، بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى على عرش حورس مثل رع للزمن اللانهائى^(٤٧).

إن العلاقة الحميمة التى ربطت ابنة «ملك الآلهة» بالهة مصر، هى بمثابة المقدمة الضرورية التى مهدت لتتويجها الأسطورى. ومع خروجها من دائرة الخالدين أصبحت تدبر بالحق الإلهى شؤون البشر.

ثالثاً: الملك الأرضى

١- الهالة الإلهية. الرحلة وتسلم السلطة السياسية

الفتاة الجميلة حتشپسوت بقدها الممشوق، تصاحب أباهما فى رحلة على صفحة نهر النيل، بينما تستقبلها الآلهة فرحة مهللة.

أرادت صاحبة^(٤٨) الجلالة أن ترى كل شىء بنفسها. وبإحدى ذى بد، تحدثت إلى الشعب الذى استمع إليها وخرّ ساجداً بسبب هيبتها. وبالفعل فقد أصبحت جلالتها ممشوقة القوام وجميلة المظهر، وأكثر من أى شىء آخر. كانت وقارتها إلهية، وهيئتها هيئة إله^(٤٩)، وإله^(٥٠) فى كافة تصرفاتها، ونورانية مثل إله^(٥١). هكذا فكما كبرت صاحبة الجلالة كانت تتحول إلى صبية جميلة وناضرة وإلى واحة فى أفضل أحوالها. وتقدم مظاهر التبجيل لهيئتها الإلهية لسعادة من خلقها. كان ساعدها قوياً ومنذ ذلك الحين كان فى إمكانها إقامة الشعائر.

رحلت صاحبة الجلالة إلى مصر السفلى (فنحن فى طيبة) فى صحبة والدها عاخبركارع. ملك مصر العليا ومصر السفلى، لبيته يحيا إلى الأبد! عندئذ جاءت

(*) مكدا فى الموث. (المترجم)

(**) مكدا فى الذكر. (المترجم)

والدتها حتحور التى على رأس طيبة، وواجت مدينة لب، وأمون رب عروش القطرين،
وأثوم سيد هليوبوليس، وموتو سيد طيبة، وخنوم سيد المياه الرطبة، وكافة الآلهة
المقيمة فى طيبة وكافة آلهة مصر العليا ومصر السفلى.

(وعلى امتداد المسار النهري للمركب الملكى، يتم إخراج تماثيل الآلهة لاستقبال
تحوتمس الأول وابنته).

كانت (الآلهة) تُجزل لها المديح وتجوب الدروب الجميلة من أجلها. وعند قدومها
تحضر معها كل حياة وكل قوة وتبسط من خلفها حمايتها السحرية. فيأتى أحدها تلو
الأخر، وهكذا تقضى خلفها سحابة كل يوم. وكانت (الآلهة) تقول:

«مرحباً! مرحباً! أيا ابنة أمون! فبعد تفقد عناصر حكومتك فى ربوع البلاد، ها
أنت تعيدى إرساء أسسها الجهرية، وترممين كل ما كان قد تهدم وتشيدى البنايات
الصرحية فى المعابد وتزودين بالأطعمة، موائد قرايين من أنجبك.
(هنا أيضاً تتداخل الأزمنة فى هذه الرواية الأسطورية).

إنك تجوين الأراضى المصرية وتوقعين فى الأشراك البلدان الأجنبية، بأعدادها
التى لا حصر لها. إنك المنتصرة وسط الثمنى. وتضربين النوبيين بساعد قوى،
بواسطة مقمعتك البيضاء وتبيدين قادة الجيوش وتأسرين زعماء بلد ريتنو، بعد أن
أنهكوا من جراء المذبحة التى اثخنها والدك. وقوائم الجزية التى جلبتها تعدّ بملايين
البشر، إنها غنيمة بسالتك. وتوجهين الآلاف منهم للعمل بمعابد المدن. إنك تكرسين
قرباناً عظيماً فى الكرنك، فى سكم أمون، ملك الآلهة ورب عروش القطرين.

ومكافأة لك، تمنحك الآلهة السنوات، وتمنحك حياة وقوة، إنها تتمدحك، لأن
قلبك وهب الحكمة للبيضة التى شككتها. وترسم الحدود بعيداً جداً، بقدر عرض
السماء وحتى تخوم الظلمات التى تتحد مع الليل. وتمتلئ الأرضين بولاد أولادك، لأن
كمية بذرتك وفيرة. وبإعك فى قلب شعبك، سوف يعمل عملاً خلاقاً، أنت يا ابنة
ثور - أمه التى ما برحت تحبها الآلهة^(٤٣).

٢- التتويج الأسطوري

١ . تمثل الملكة الشابة فى صحبة حتمحور بين يدى أتوم وخنوم وغيرهما من الآلهة التى سوف تسلمها التيجان كرموز ملكها الأرضى، فضلاً عن المواهب التقليدية.

● (كلمات يقولها) أتوم رب الأرضين، الهليوبوليتانى القائم على رأس التاسوع، رب المعبد: «إنى أعطيك سنوات حورس والزمن الأبدى ونصيب حورس وست، حياة وقوة. سوف تدبرين شئون الأراضى المصرية، فى حين تعمل البلدان الأجنبية وتكونين حية^(*) مثل رع».

● (كلمات يقولها) خنوم رب السماء:

«إنى أعطيك كل حياة وكل قوة وكل ثبات وكل صحة، نابعة منى. إنى أعطيك ميراث جب ووظيفة أتوم. إنى أعطيك سنوات الربين (حورس وست) فى متعة القلب. إنى أمنحك إدارة الأراضى المصرية القاطبة وكل البلدان الأجنبية».

إن كياناً إلهياً يُدَوِّن هذه المواهب.

عندئذ حضرت نخبت وواحت وقد أمسكتا فى يديهما بالتاجين. وتقولان: «إننا نضع من أجلها التاجين على رأسها، حتى تمتلك الأرضين بفضلهما...» عندئذ ترفعهما الملكة وتظل سعادتها على عرش حورس للزمن اللانهائى. وتضعهما أمامها وتستأثر بالتاجين: الأبيض والأحمر، وتتحد بهما.

عندئذ تُدَوِّن أسماء العاملة الملكية، من قبل الإله تحوت وقرينته الإلهة سيشات.

ب- وتتكرر مثل هذه الإحتفالية فى حضرة آمون. وتقف الملكة أمام آمون الجالس على عرش، وقد ارتدت الزى الملكى وتضع العيشنت على رأسها. وصورت خلف الملكة بلو مدن مصر الرئيسية أو ربما أرواح الملوك الموتى والمؤلهين^(١١) الذين يربطون الملكة الشابة بسلالة الأسرة الحاكمة. كما يُدَوِّن تحوت وسيشات للمرة الثانية قائمة الألقاب الملكية.

(*) مونت حى. (المترجم)

إنهما مشهدان توأمان يتصدرهما من ناحية الإلهان الكبيران الخالقان فى الشمال وفى الجنوب وهما أتوم وخنوم والإلهتان الحاميتان للنظام الملكى المصرى، ومن ناحية أخرى يقف على رأسهما آمون الطيبى(*)، سيد مجمع الآلهة. هكذا تعترف آلهة عواصم أقاليم مصر بالنظام الملكى الجديد.

٣- التتويج الديوى

إننا الآن على ما يعتقد فى القصر الملكى. ولكن من غير المستبعد أن وقائع المشهد تدور فى الحقيقة فى الدير البحرى، وهو ما قد يدل عليه بعض العبارات. فتُظهر الصورة تحوتمس الأول جالساً على عرشه على يسار المشهد واضعاً يده على كتف ابنته حتشپسوت وساعدها الأيمن، فى حين أنها ترتدى نقبة الرجال. وعلى اليمين نشاهد ثلاثة صفوف من رجال البلاط.

ويراها جلالة أبيها، هذا الحورس. كم هو إلهى هذا الذى خلقها، وعلى قدر كبير من البسالة. إن ذهنها ثاقب وتاجها عالٍ. إنها تزن أقوالها وفقاً للحقيقة والعدالة. إن مركزها الملكى رفيع من جراء ما يفعله كأوها. والأحياء قائمون فى فجوة ساعديها... وقال لها جلالت:

«تعالى أيتها النورانية التى ضمنتها (فى الماضى)، حتى تتمكنى من رؤية حكومتك فى القصر وأفعال كائناتك المرموقة، وحتى تتمكنى من تسلّم منصبك الملكى، أنت الذائعة الصيت بقدراتك السحرية، القوية بفضل بسالتك، أنت المتسيّدة على القطرين، سوف تمسكين بالرجال ذوى القلب الخسيس (أعداء حتشپسوت؟) وتظهرين متألقة فى قصرك ورأسك يزينه البشنت الذى سيستقر على هذا النحو فوق رأس وريثة حورس التى أنجبته. أنت ابنة التاج الأبيض ومحبوبة وأجته. سوف تُمنحين التيجان من قبل من يقف على رأس العروش الإلهية».

وتصرف جلالتى الآن، بحيث يدخل نبلاء الملك وكبراء الدولة والأصدقاء ورجال

(*) نسبة إلى مدينة طيبة. (الترجم)

البلاط وزعماء الرخيت، ليبلغهم أمراً يتعلق بإقامة جلالة ابنته هورس، أمامه فى قصره. عندئذ جلس الملك شخصياً فى قاعة الإستقبال الرسمية المخصصة «للكهنة الجنائزين»^(٤٥) (قد تعزز هذه العبارة رأى القائل بأن وقائع هذا المشهد تحدث فى الدير البحرى؟). وبينما خر جميع الحاضرين سَجْداً «فى القصر»^(٤٦)، قال لهم صاحب الجلالة:

«إن ابنتى هذه، خفمت- إمن- حتشيسوت، ليتها تحيا! إنى أقيمها مكانى على عرشى، فسوف تقرِّع بكل تأكيد على أريكة الأعاجيب هذه. سوف تُصدر أوامرها إلى الشعب فى أرجاء القصر الملكى وسوف تقودكم، وتنصتون إلى أقوالها وتتخون مع أوامرها. من يعبدها سوف يحيا، ولكن من يقول عنها أقوالاً مسيئة مجدفاً ضد صاحبة الجلالة»^(٤٧)، سوف يموت. أما كل من يطيعها «بقلب واحد» باسم جلالتها، عندئذ وبصفة مؤكدة، سوف يذهب فى الحال إلى الحجرة المخصصة لخصماء الملك»^(٤٨) المقربين، مثلما كان يُستقبل فيها، من سبق أن عمل من أجلى. لأنك إلهية بالطبع، يا ابنة الإله، فمن أجلها تقاتل الآلهة فى واقع الأمر. إنها تبسط قوتها السحرية من خلفها على مر الأيام، وفقاً للأمر الصادر عن أبيها، سيد الآلهة».

سمع نبلاء وكبراء الدولة وزعماء الرخيت هذا الأمر الذى يرمى إلى الإرتقاء إلى مكانة مرموقة، بابنته ماعت كارع، ملك»^(٤٩) مصر العليا ومصر السفلى، ليت»^(٥٠) يحيا إلى أبد الأباد! عندئذ خرّوا ساجدين عند قدميها، إذ «سقطت» الكلمة الملكية هكذا، وسطهم. ثم عبدوا الآلهة جمعاء، من أجل ماعت كارع، ملك»^(٥١) مصر العليا ومصر السفلى، ليت»^(٥٢) يحيا إلى أبد الأباد! وخرجوا أخيراً، بكلمات سعيدة وكانوا يرقصون ويصلّون، وجميع الرخيت القاطنين فى المقر الملكى سمعوا ذلك. كما جاؤوا بالكلمات السعيدة ذاتها، رافعين أذعية، بلا حدود. وانفتحت جميع قاعات المقر الملكى عند النطق باسمها. وجميع الجنود يهللون ويرقصون من شدة الإبتهاج ويمتلئون على الملأ اسم صاحبة الجلالة الملكة، وإن كانت لا تزال فتاة صغيرة. ولكن الإله العظيم كان يحرك

(*) فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى الذكر. (المترجم)

قلوبهم نحو ابنته ماعت كلرع، ليتم تحيا إلى أبد الأباد! هكذا عرفوا أن آمون هو والد هذه الطفلة الإلهية وسامعوا بكل تأكيد في إظهار مجدها على أكمل وجه، وكل إنسان، كائنًا من كان، يحبها في قلبه بلا انقطاع ويعبدها على مر الأيام، سوف يبقى متعلقًا ومزدهرًا إلى أبعد الحدود. ولكن كل إنسان، كائنًا من كان، سيتفوه بالسوء ضد اسم صاحبة الجلالة، سيفنيه الله في الحال، والآلهة التي تؤمن حمايتها السحرية على مر الأيام، سوف تتصرف على النحو ذاته.

كان جلالة أبيها قد استمع إلى كل ذلك. (ومن ثم استقبلت) جماهير الشعب في توافق تام اسم ابنته بصفتها الاسم الملكي (الجديد). أجل إن صاحبة الجلالة(*) كانت لا تزال صبية، ولكن قلب الملك كان يعيل إليها، إلى أبعد الحدود.

عندئذ أمر صاحب الجلالة باحضار الكهنة المرتلين من أجل إعلان أسمائها(*) العظيمة التي تحكم في استئثارها بمنصبها الملكي بصفتها ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، وأن تدون في الوقت نفسه، على جميع المباني وعلى جميع أختام تلك التي توحد الأرضين والتي تُتم الرقص - حول - الجدار^(١٦). وجميع الآلهة التابعة لاتحاد الأرضين (مصر) قد تزيّنت. كان الملك يعرف أنه من المناسب الإحتفال بهذا التتويج في رأس السنة، قبل السنوات المسالة لتلك التي ستقوم بالاحتفال بملايين أعياد اليوبيل المهيبة التي لا تعد ولا تحصى. عندئذ، أعلنت أسمائها (على الملأ)، بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى. وتصرّف الإله بحيث يُستدعى في قلوبهم جميع الأسماء التي سبق له أن حددها شخصيًا. (يلي ذلك سرد لقائمة الألقاب^(١٧)).

ورغم أن الصور بالغة التشوّه، فإن ما بقي منها يدفعنا مع ذلك، إلى الظن أن الملكة كانت تؤم بنفسها مختلف الاحتفالات الطقسية التي سبق الإشارة إليها.

(*) هكذا في المُنث. (المترجم)

(**) هكذا في المذكر. (المترجم)

٤- الحفل الختامى لتكريس تتويج الملك

وبعد ذلك يقوم الكاهن يون مَوتفا^(٤٨) باصطحاب حتشيسوت إلى الهر - ور^(٤٩) حيث تقام للمرة الثانية شعائر التطهر. ويصب عليها الكاهن الماء وعلامات الحياة من إبريق على هيئة صليب بعروة. وإله ها-البُحيرة الذى كان يُعبد فى الفيوم وغرب الدلتا- يكرر العملية:

إنى أطهرُك بهذا الماء المفعم بالحياة والقوة، وسيد كل ثبات وكل صحة (وكل) فرح. ليتك تحتفلين بأعياد يوبيلية عظيمة لا حصر لها، مثل رع، للزمن اللانهائى^(٤٩).

هذا الماء هو خليط امتزج فيه السائل بالكلمات.

عندئذ يصطحبها حورس الإدفوى لتتويجها مرة أخرى وأخيرة، مدعماً سيادتها وسلطانها بشكل قاطع للمرة الثالثة.

إن حورس وست وهما «الراعيان الحاميان» للنظام الملكى منذ القدم، يقومان آنذاك بتسليمها التاجين على دفعتين.

● ليت منصبك الرفيع بصفتك ملك^(٥٠) مصر العليا يظل ثابتاً، فتتجلين متألقة^(٥٠) على عرش حورس وتقومين بقيادة الأحياء أجمعين مثل رع، للزمن اللانهائى^(٥٠).

تظهر حتشيسوت أمام قصرها مرتديةً تاج الجنوب الأبيض تتقدمها خمسة بيارق.

● ليت منصبك الرفيع بصفتك ملك^(٥٠) مصر السفلى يظل ثابتاً، فتتجلين متألقة^(٥٠) على عرش حورس^(٥١).

ظهور جديد للملكة، يشبه الظهور السابق، ولكنها تضع على رأسها هذه المرة التاج الأحمر.

(*) (أى «عمود» أمه» من أسماء حورس. (المؤلفة)

(**) (هكذا فى المذكر. (المترجم)

(***) (هكذا فى المؤنث. (المترجم)

إن حتشيسوت في نظر الآلهة والملك والبشر وفي حضرتهم، هي ملكة مصر.

يا لها من دراما طقسية مهيبة. إنه اخراج مسرحي ضخم جرى صياغته بطبيعة الحال بعد أن استأثرت الملكة الطموحة بالسلطة في ظروف مازلنا، في الحقيقة، نجهل كل أبعادها. ولا يعتبر هذا العمل كما يقال في كثير من الأحيان «دعاية رخيصة». إن هذا الفكر يكشف عن فكر حي، بالإضافة إلى أن تنسيق وقائعه ومشاهده وترباطها، تعود في مجملها إلى تراث روحي عرفته مصر منذ أقدم العصور. والشئ المؤكد أن حتشيسوت قد أحاطت نفسها بأصدقاء أقوياء أوفياء توصلوا إلى صياغة مجموعة شعائر دينية مستوحاة من تقاليد دينية وأدبية، هدفها تبرير إقدام الملكة على إغتصاب عرش مصر.

هذا النص الذي وُضع خصيصاً من أجل حتشيسوت، وفي ظروف محددة سيصبح نموذجاً سوف يعود ملوك العهود اللاحقة إلى «نسخه من جديد».

ومن غير المستبعد، وإن كنا نفتقر إلى دليل قاطع، أن الإقرار بألوهية الملوك ألوهيةً جسدية وتكريس تتويجهم كانا، على هذا النحو، موضوع لتساویر مهيبة يتم تمثيلها تمثيلاً إيمائياً. ويعتبر النص الذي عرضنا له أول مثال حقيقي. إن نشاط الملكة لا يعتبر سياسياً بقدر ما هو دينياً. إنه يقدم إسهاماً عظيم الأهمية للأسطورة الملكية بمختلف مقوماتها. ولكن منذ الآن بات يلوح في الأفق خطر بالغ الأثر. فهل سيستطيع كهنة آمون أن يتحكموا في اختيار وريث العرش، اعتماداً على كشف مغاليق الوهي وعلى الأسرار الدينية؟

تظهر مع حتشيسوت صورة متجددة للعامل الملكي المصري، صارت مصدر نظرية في الملك، ستظل في جانب منها، النظرية السائدة عند الرعامسة، بعد أن شهدت تطورات ملحوظة، على أيدي ملوك الأسرة الثامنة عشرة الآخرين.

فيتمتع الملك منذ ولادته وإصرار، بصفات جسمانية ومعنوية: ومنها الجمال. إذ نقرأ في مدونة في سبيوس أرتميدوس^(٥٦) *Speos Artémidos* جنوب بنى حسن بمصر الوسطى العبارة التالية: «أنت جميلة وجميلة الجميلات»^(٥٧). كما توصف بالقوة

(*) إسطنبول عترة حالياً. (المترجم)

والعظمة والمجد والصحة والبهجة. إن الملك هو سيد الزمان والمكان إلى مالانهاية. إن حتشپسوت بصفتها ملكة الكون هي «سيدة كل ما تحيط به العين العليا»^(٥٢) أى الشمس، وفقاً للصورة القديمة للسماء - الصقر الذى كانت عيناه تمثلان الأزهران أى الشمس والقمر. وطبقة مركز هذا الكون^(٥٣). ففي سياق مدونة سبتيوس أرتيميوس نفسها، تقول حتشپسوت: «لم أعطِ ظهري لمعينة سيد العالم ولكن وآيت وجهى شطرها»^(٥٤). ومن هذه المدونة أيضاً ننقل هذه الصورة عن نظام ملكي يغالب الأيام ويقاوم الزمن:

راسخة هي قائمة ألقابى، مثل الجبال. وعندما يسطم قرص الشمس، فإن أشعته تلامسها. إن هورسى عالٍ فوق السرخ للزمن اللانهاية^(٥٥).

وتؤكد النصوص بشكل أكثر وضوحاً على العلاقة المتزايدة بل والجسدية، على الاتحاد اللصيق القائم بين الآلهة والملوك. إن حتشپسوت هي «بذرة النور»، إنها «أعضاء الإله». ونسجل من مدونة سبتيوس أرتيميوس هذه الجملة التى قد تعبر عن سؤرة العاطفة المشقية: إن ابتلاع أندائه هو خبزي. إني أحيى من أعضائه، فأنا وهو واحد^(٥٦).

الملكة والملك

ترى ماذا حدث للملك الشاب تحوتمس الثالث بعد العام السابع؟ وما هي الدسائس الخطيرة التى دفعت من سيصبح الإمبراطور العظيم إلى الرضوخ مؤقتاً وقبوله القيام بدور ثانوى؟ لا نعلم شيئاً. ولكنه حاضر في المشاهد الدينية والسياسية وغيرها.

وكما رأينا^(٥٧) فى النير البحرى، فإن صورة حتمور وهى ترضع حتشپسوت يعبدانها تحوتمس الثالث. وبطبيعة الحال فقد كانت لفته من جانب أتباع الملكة تنم عن سياسة حكيمة.

وفى نقش يحتفظ به متحف القاهرة، صورَ مركب آمون المقدس فى إطار مركب إحتفالى. وعند بداية رحلته، نرى تحوتمس الثالث يؤدى شعيرة إطلاق البخور. أما فى

(*) فى نظر اليهود، أورشليم القدس، هى مركز الكون! (المترجم)

المحطة الثالثة، فإن حتشيسوت هي التي تقدم القرى. وعند ابجار المركب على صفحة النهر فإن تحوتمس الثالث هو الذي يقوده بالمجداف، في حين تقف حتشيسوت أمام الناووس الذي يضم التمثال الإلهي^(٥٨).

وفي بعض الأحوال تحتفظ معابد النوبة بدليل وجود الملكة والملك. ففي بوهن^(٥٩) بون نصان تكريسيان:

● النص الأول داخل الباب الأول:

لقد شيد هذا المبنى من أجل أبيه حورس، رب بوهن، إنه معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل.

● والثاني على أحد أبواب القاعة الثانية:

لقد شيدت هذا المبنى من أجل أبيها حورس، رب بوهن، إنه معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل^(٦٠).

هل كانتا مدونتين تكريسييتين متعاقبتين؟ من الممكن. ولكن توجد مشاهد يظهران فيها معاً، جنباً إلى جنب.

ففي معبد سمعة^(٦١) حيث كان يعبد أيضاً الملك سنوسرت الثالث، تقف الإلهة ساتيس - إلهة الفنتين - والإله ميبون النوبي، أمام الملكين الذين يرتبط كلامهما في سياق المدونة بسلالة الأسرة الحاكمة:

● حديث موجه إلى ساتيس:

إن ابنتك ومحبتك [ماحت كارع] ورثتك المفعمة بالخير وزوجة الإله والزوجة الملكية العظيمة المنبثقة منك، قد أطعمتها من لبنك. إنها ابنتك المنتسبة إلى جسدك. لقد شيدت من أجلك مبنًى، تعبيراً عن شكرها لك.

(*) جنوب الجندل الثاني. (المترجم)

● كلمات قالها فيدون القائم على رأس النوبة:

يا بنى، يا محبوبى من خير رع كم هو جميل هذا المبنى الكامل الذى شيدته
من أجل ابنى المحبوب، ملك مصر العليا ومصر السفلى خع كا ورع^(٩). ومن الآن
سيبقى اسمه مزدهراً، للزمن الأبدى^(١٠).

ولتلقى فى معبد قمته بالتواؤم ذاته بين الآلهة والعاملين الملكيين:

● يتحدث خنوم إلى حتشپسوت:

يا ابنتى، يا محبوبتى... فى الثناء والمديح لهذا المعبد الجميل الذى يقاوم
الزمن، وشيدته من أجلى.

● تتهور تتحدث إلى تحوتمس الثالث:

مرحباً، مرحباً، فى سلام... ملك مصر العليا ومصر السفلى من خير رع. إن
قلبى سعيد عندما أتأمل كمالك، كم هو راض والدك خنوم بسبب هذا المبنى^(١١).

كما يلتقى «الهنوان» الملكيان بمناسبة العيد اليوبيلى. وهكذا فعلى أحد أعمدة
الشرفة الثانية بالدير البحرى...

● ... صورت حتشپسوت أمام آمون:

الإحتفال الأول بالعيد - سد لينها تؤدى منه أعداداً لا حصر لها!

● كما صور تحوتمس الثالث أمام رب الكرنك:

الإحتفال الأول بالعيد - سد. لينه يؤدى منه أعداداً لا حصر لها! ^(١٢)

وفى الدير البحرى أيضاً يقف أنوبيس أمام الملكين ويتحدث إلى حتشپسوت
قائلاً:

إنى أجدد من أجلك الإحتفال بالأعياد - سد بعظمتها وأعدادها الكثيرة.

(٩) سنوسرت الثالث. (المؤلفة)

فى حين تتحدث حتحور إلى تحوتمس الثالث قائلة:

إنى أجد من أجلك الأعياد- سد(٦٤).

ونصل إلى هذه الصيغة الغريبة للعبارات المنقوشة على تمثال «الابن الملكى»(٥)، قائد حاملى الأقواس: إينينى. وربما كانت هذه العبارات تستعيد الموقف الملتبس حتى فى أذهان الأشخاص الذين عاشوا إبان هذا العصر:

أداء المديح والثناء من أجل ماعت كارع، الإلهة الكاملة وسيدة القطرين، بالتزامن مع تبجيل الإله الكامل من خهر كارع، سيد إقامة الشعائر... حتى يقدم القرايين التى تخرج (إلى الوجود) عند النطق بها... (٦٥)

إن ألقاب الملك الأساسية المصاحبة لصفة «الإله الكامل» التقليدية موزعة توزيعاً حصيفاً ودقيقاً على الملكين وقد اتحداً معاً من خلال الإجلال والإحترام ذاتهما.

إن نحسى المنحدر من أصول نوبية، كما هو واضح من اسمه، والمشرف العام على الخزانة قد أمر بنقش أسماء الملكة والملك على ساكف باب مدخل مقبرته التذكارية فى جبل السلسلة.

ويبدو أن تحوتمس الثالث قد خرج فى العام ١٦، على رأس حملة عسكرية إلى وادى المغارة فى شبه جزيرة سيناء. إن اللوح الحجرى الذى يخلد ذكراها والذى أقامه خرواف أحد قواده يعبر عن «الخرج» ذاته. ففى الجزء المقوس فى أعلى اللوح نشاهد حتشيسوت وتحوتمس الثالث وهما يقدمان قرباناً إلى الإله سوبدو والإلهة حتحور. ويوضح المتن ما يلى:

العام ١٦، من عهد جلالة ماعت كارع ملك(٥٥) مصر العليا ومصر السفلى محبوب(٥٥) الإله سوبدو، رب الشرق.

الإله الكامل من خهر رع، محبوب حتحور، سيدة الفيروز.

(٥) (إنه مجرد لقب شرفى. (المؤلفة)

(٥٥) هكذا فى الذكر. (الترجم)

وتؤكد المدونة ذاتها على الآتى:

كان الملك على رأس جيشه ليلاً بقدومه وبيان خفية ويملاً قلب الحورس القائم
فى القصر بأن يجلب لصاحب الجلالة.... [باقى النص مهشم] (٦٦).

إن تعوتمس الثالث الذى ظلت صفته الملكية مؤكدة، جنباً إلى جنب، مع الوضع
ذاته للملكة، ربما ظل يقوم آنذاك بدور قائد الجيش؟ ولا شك أنه كان عاجزاً فى هذه
الفترة وظل ينتظر لحظة تسلمه مقاليد السلطة. فهل كان الجيش مجالاً مناسباً له،
ليساعده على استعادة عرش أجداده فيما بعد؟ وكما سيتأكد لنا سيصبح قائداً
صنيداً وأكثر القواد بسالة وإقداماً فى التاريخ. ومن المحتمل أن رجال الجيش كانوا
من المؤيدين المخلصين له.

ولكن زمرة عريضة كانت تلتف حول حتشپسوت وتضم رجال البلاط الذين
أسندت إليهم كبرى مناصب الدولة وكان وجودهم يفسر العجز المؤقت للملك الشاب.

كما أن إلتباساً آخر يضيف فى نظرنا، عدم اليقين على هذا العصر، وينبع من
«الطبيعة» ذاتها للملكة. أكانت ملكاً أم ملكة؟ فكما لاحظنا، كانت النصوص تشير
إليها تارة، فى صيغة المذكر أو فى صيغة المؤنث، تارة أخرى. كما يكشف فن صناعة
تماثيلها عن «عدم اليقين» ذاته، عند تشكيل ملامحها الجسمانية: وجه نحيف وجسد
شبابى يرتدى نقبة ملكية أو فستان بهمالتين كما شاع استخدامه عند النساء،
ويصدر قوى العضلات أو بشيين مستديرتين، وعلى الرأس التيجان التقليدية أو غطاء
رأس حتحورى، بخصلات مقصبة كما فى تمثال أبو الهول فى أحد متاحف روما (٦٧).
أما تمثال نيويورك لأبو الهول (٦٨) فإنه يبرز أنوثته رغم كل شئ: إن لبدة الأسد
الكثيفة وأذنى الحيوان العريضتان تطفئ على الوجه الرقيق بقسماته اللطيفة للمرأة
التي حاولت التنكر لطبيعتها، فأرادت أن تكون ملكاً لتحقيق طموحاتها على أكمل وجه.

٢- صعود نجم كهنة آمون وهيمنة أصحاب الحظوة

شكل عهد حتشپسوت تهديداً للإستقرار الداخلى للدولة. وبالفعل، فقد تقاعست الملكة بلا شك، عن الإهتمام بالمصالح العليا للحكومة المصرية وصار شغلها الشاغل تدعيم حكمها، بأن أحاطت نفسها بمجموعة من الخالصاء الأوفياء وعهدت إليهم بأعلى المناصب.

حپوسنب

هكذا فقد كان حپوسنب فى آن واحد، وزيراً وكبير كهنة آمون-رع، الأمر الذى لم يحدث أبداً من قبل. فكان أشبه فى العصر الحديث برئيس وزراء يشغل فى الوقت نفسه نفسه منصب بابا روما. وكافأت حتشپسوت كهنة آمون الذين ساندوها وشدوا من أزرها، فخصمتهم بأرفع المناصب الواسعة السلطات، وهو وضع ظل يرتاب منه على الدوام أسلافها فتجنبوه. فكان أول «تنازل» بالغ الفطورة، سوف يترتب عليه فيما بعد متاعب ومشاكل جمة للملوك الذين خلفوها.

كان حپوسنب ينتمى إلى عائلة من الكهنة. كان أبوه حپو «كاهنا طاهر اليدين والكاهن المرتل الثالث فى خدمة آمون»^(٦٩). كانت هذه الرتبة تحتل وضعاً وسطاً فى السلم الهرمى لكهنة الكرنك. كما كان أخوه أيضاً مرتبطاً بمبعد آمون، وكان لهذه العائلة مكانتها فى البلاط الملكى: فوالدته كانت «مرضعة ملكية». وكان يقع الإختيار على المرضعات الملكيات، من بين زوجات الضباط وكبار الموظفين الذين تربطهم، تأسيساً على ذلك، علاقة حميمة بالعامل الملكى، لأن قرابة الرضاعة كان لها القدر نفسه من الإحترام مقارنة بقرابة الدم. وللحصول على هذا اللقب، لم يكن من الضرورى بلا شك أن تستمر الرضاعة لفترة من الزمن، بل كان يكفى أن تقرّب المرأة ثديها من الطفل الملك للحظات محدودة^(٧٠). كما كانت زوجة حپوسنب مخلصه للإله

والملكة. وعُثر في القناء الأول من المعبد الجنائزي للملكة بالدير البحري على أوستراكون صغير من الحجر الجيري، نُوتت عليه قائمة قرابين جلبتها أمنحوتب زوجة حپوسنب إلى معبد آمون راعى هذا المكان، ولا سيما خمسة أنية بخور من أجل إحراقه. ويبدو أنها كانت تقدمه شخصية من العائلة، خلافاً للقرابين التى أحضرها كبير الكهنة ذاته^(٧٨).

كانت اختصاصاته تمتد لتشمل مجمل أملاك آمون. وعلى تمثال حپوسنب، وهو من مقتنيات متحف اللوفر، يمكن أن نقرأ:

لقد شغلت منصبى بصفتى كبير الرؤساء فى الكرنك فى معابد آمون، وفى كل الأراضى التابعة (للإله) آمون، لأن الذهب كان على ختمى^(٧٩).

وبالإضافة إلى هذا المنصب المرموق شغل أيضاً منصب «مدير جميع كهنة^(٨٠) الجنوب والشمال». ولأول مرة نجد أن منصب كبير كهنة آمون يخوله حق الرئاسة على سائر العبادات.

إن النص الجنائزى الخاص «بتقربته» المدون على أحد تماثيله الموجود حالياً فى متحف مدينة بولونيا بإيطاليا، يقف شاهداً على علو كعب هذا الشخص من الناحية السياسية:

النبيل الأمير الذى يقترب من الجسد الإلهى، صاحب النعم الثابتة، عظيم هو الحب الذى يبعثه فى النفوس. إنه يرتقى بالقصر الملكى ذاته، إنه العالم الذى يفض مغاليق أسرار التاسوع الإلهى... رئيس أسرار الصلّين، ومدير أعلى المناصب، كبير كهنة آمون، إنه حپوسنب، فيقول^(٨١):

«كنت من الأعيان وأقيم العدل فى الأرض كما يفعل إلهى. لقد حضرت الآن إلى مدينة الزمن الأبدى، إلى إقليم الزمن اللانهاى، لقد انجزت ما كان يرجوه البشر

(*) أى «خدام الإله». (المؤلفة)

(**) من الملاحظ أن وظيفة الوزير لم تذكر إلا على تمثال اللوفر. هل معنى ذلك أنه لم يشغلها إلا بصفة مؤقتة؟ (المؤلفة)

وما كان يمتدحه جميع الآلهة. لقد اصطحبت الحورس، سيد القصر واطعت كل الأوامر التي أصدرها إلى. لم أقصر في أى عمل انجزته، من أجل رب القطرين. لم ارتكب من جانبي أى خطأ فى القصر ولم يوجه إلى رجال البلاط أى لوم ولم يؤخذ على أى إهمال فى تصرفاتى فى معابد المدن. ولا يوجد أى عمل سرى أفضيته للخارج. لقد ارتقيت مستقيداً من الأفضال والمنن التى يتمتع بها خالصاء الملك، وأرقد الآن فى الغرب الجميل. إن بائى فى السماء وجسدى فى القبر. لقد أتحدث بالإله الذى أخلصت له على النوام^(٧٣).

شارك هيوسنب فى كل أحداث عصره الهامة: من كبرى الإنشاءات إلى الرحلات والأسفار. إن النص المنقوش على تمثال اللوفر يقدم حصراً بالعديد من الأعمال الضخمة التى كان يسهر على متابعتها وتفقدتها، من بوابات ومقاصير الناوس ومركب آمون ومسروح. إنها سلسلة طويلة من الأعمال وهناك جملة استرضائية تذيّل كل انجاز من انجازاته وكثرتها، لازمة تتكرر بلا انقطاع:

صُنِعَ لصاحبة^(٧٤) الجلالة ماعت كارع، ملك^(٧٥) مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين ليتها تحيا^(٧٦)، فى حين كنت مدير الأعمال بفضلها^(٧٧).

وكان يطيب له أن يصور نفسه فى قاعة مقبرته الرئيسية وهو يشرف على قطع أشجار البخور فى بلاد بونت: فنشاهد هيوسنب واقفاً بين الصحراء الوردية والبحر، مرتدياً نقبة طويلة، مستنداً إلى عصا كبيرة، وينظر إلى الرجلين اللذين لم يتبق سواهما وهما يقتلعان أحد الأشجار النفيسة التى ستنتقل إلى مصر^(٧٨)، هكذا سجل أعظم حدث شهده عهد حتشپسوت!

وشأنه شأن عظماء عصره شُيّد هيوسنب لنفسه مقبرة تذكارية^(٧٩) - هى المقصورة رقم ١ حالياً - وسط تلال جبل السلسلة على البر الأيسر من نهر النيل على بعد ١٢٠ كم جنوب الأقصر و ٦٠ كم شمال أسوان. كما كان الموقع يضم محاجر عظيمة

(*) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى الذكر. (المترجم)

الأمية للحجر الرملى الناعم. وكانت مقبرته في الشيخ عبدالقرفة فسيحة إلى حد ما. إن أساطين متصلة تحدد المدخل عن يمينه ويساره. وكان ممر طويل يقضى إلى قاعة مزدانة بالرسومات وإن كانت مشوهة تشويهاً بالغاً في الوقت الراهن، وما زالت تحتفظ بقواعد أربعة أساطين مستديرة. وكانت بئر تؤدي إلى حجرة الدفن.

سن موت...

كان سن موت من أكثر رجال البلاط المقربين إلى حتشپسوت.

إنه: الصديق الأوحد والمشرف العام للزوجة الإلهية والمشرف العام على المقر الملكي والمشرف العام على كافة الأعمال الملكية، ويمتد سلطانه إلى كل وظيفة إلهية، والمشرف العام على شونة آمون المزدوجة والمشرف العام على حقول آمون والمشرف العام على قطعان آمون والمشرف العام على حدائق آمون وخادم المركب أوسرعات للإله آمون ومدير خدم مونقو في هرمونكتيس وخادم ماعت^(٧٧). هكذا كان من نصيبه ألقاب البلاط الملكي ومناصب الكهنة المتعددة ويدين بكل شيء، إلى إنعامات الملوك.

كان والداه رع مس وحات نفر وشهرتها تيوتيو، رقيقى الحال، وإن كانت والدته تمتلك بعض الأراضي. وعلى حد قول بعض علماء المصريات^(٧٨) ربما كان سن موت جندياً في مستهل حياته. وتستند هذه الفرضية إلى نص أحد التماثيل الذي يطلق عليه وصف...

...المقاتل الباسل بفعل ساعده، المصاحب للملك في البلدان الأجنبية جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً... فظل يُمنح نهب الحظوة على الدوام^(٧٩).

من المحتمل إذن أنه رافق في بداية الأمر تحوتمس الأول في حروبه الأجنبية. ومن ثم فقد تشبه مسيرة حياته المهنية في بعض جوانبها حياة أحد الرجال البواسل الآخرين، نقصد أحمس-بن-نخبت^(٨٠). وبالفعل فقد كان سن موت أيضاً مثل هذا الأخير، المعلم الربى لأميرة ملكية هي نفرو رع الملوادة من اقتران تحوتمس الثاني بحتشپسوت. لقد ارتبط بالبلاط الملكي منذ عهد تحوتمس الثاني. وربما دفعه طموحه

منذ وقت مبكر، ليصبح أحد أفراد الجماعة الملتفة حول الملكة الشابة وسرعان ما نجح في الفوز بتقديرها. والشاهد على ذلك، على وجه التحديد، التماثيل العديدة التي تصوره، وكلها هبات ملكية. وقد أقيم أحدها في معبد الإلهة مَوت بالكرنك...

...حتى يظل في معبد مَوت، سيدة إيشرو^(٨١). ويتلقى القرابين التي تتراكم أمام هذه الإلهة العظيمة^(٨٢).

إن مصدر الوجبات الغذائية المخصصة للعظيم سن مَوت في العالم الآخر، سيصبح المصدر نفسه الذي تأتي منه وجبات الإلهة زوجة آمون.

ومن عهد إلى آخر، سيظل مرتبطاً بأصحاب السلطان، في وقت من الأوقات، ويصوره تمثال - مكعب يحتفظ به متحف برلين وهو يمسك بربيبته الطفلة نفرورع. ويقول النص بلا مدلورة:

أنا من الكبراء والأعيان، المحبوب من سيده والذي يلم بأعاجيب سيدة القطرين، لقد أعلی^(٩) من شأني أمام القطرين. لقد رقّاني إلى «الفم الأعلى» في منزله، بل وفي ربوع البلاد قاطبة. كنت أعمل وأنا أترأس أسمى الأفراد وأبرزهم. كنت أعظم مديري الأعمال. كنت في هذه البلاد تحت إمرته، إلى أن تعين لحظة رُسوه (وفاته). والآن فأنا على قيد الحياة، إلى جوار سيدة القطرين ماعت كارع ملك^(١٠) مصر العليا ومصر السفلى، ليبتها تحيا إلى أبد الأبد^(٨٣)

وبالفعل فبقيادة سن موت السيدة، أنجزت كبرى أعمال هتشپسوت، فكان على وجه التحديد، المهندس المعماري الذي شيد معبدها الجنائزي بالدير البحري. وقدم هو شخصياً وصفاً لأنشطته المتنوعة في سياق النص المنقوش على تمثال الكرنك:

صدرت الأوامر إلى المشرف العام سن موت بإدارة كافة أعمال الملك في الكرنك وفي هرموتيس وفي معبد آمون (الذي يطلق عليه) «رائعة الروائع» (أي معبد الدير

(*) ترمثس الثاني. (المؤلفة)

(**) هكذا في المذكر. (المترجم)

البحرى) وفى معبد موت فى إيشرو وفى حريم آمون الجنوبى (أى معبد الأقصر)،
إرضاءً لجلالة هذا الإله العظيم، جاعلاً منشآت سيد القطرين مباركة وخيرة.

(كما صدرت إليه الأوامر) بتعظيم الأعمال... وجعلها مباركة وخيرة، دون أن
يظل وجهه أصمّ، طبقاً لأوامر القصر الملكى. كما صدرت إليه الأوامر بأن يكرّس
نفسه لذلك، لفرط ما كان له من تأثير على قلب (تحتومس الثانى؟ أم الملكة؟) وتحقق
ذلك، على أكمل وجه، تنفيذاً للأوامر الصادرة، وكان ذلك مفيداً فيما أنجز، وفقاً لرغبة
صاحب الجلالة حول هذا الموضوع. أنا مخلص وعادل ولا مثيل لى ونو قلب شديد
البأس. (أنا أعمل) بلا انقطاع فى المعالم الإنشائية لسيد الآلهة، أنا سن موت، خازن
ملك مصر العليا ومصر السفلى، وخادم الإله آمون^(٨٩).

أكان متكبراً مزهواً بنفسه؟ ربما، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار هذه
القصيدة القصيرة التى نظمت تمجيداً له، وهى جزء من هذا النقش ذاته:

إنه يقول:

أنا أعظم العظماء فى هذا البلد بأسره، أنا الذى يُنحت إلى ما ينبغى
الإنصات إليه، أنا المتفرد الأوحى من بين سائر المتفردين - والمشرف العام فى خدمة
آمون، أنا سن موت.

أنا، فى الحقيقة، صديق الملك الحميم، أنا الذى ينجز كل ما يمتدحه سيده، على
مدار الأيام - والمشرف العام على قطعان آمون، أنا سن موت.

أنا من يكتشف الحقيقة ولا يظهر بمظهر المتحيز ويسعد بكلماته رب الأرضين،
أنا فم نحن - وخادم الإلهة ماعت، أنا سن موت.

أنا من يُصدر الأوامر... فى مخزن قرايين آمون كل عشرة أيام - والمشرف
العام على شونة آمون المزبوجة، أنا سن موت.

أنا من يؤم أعياد الآلهة على مدار الأيام، من أجل حياة وازدهار وصحة السيد
الملكى - والمشرف العام على حقول آمون، أنا سن موت.

أنا أقوى الأقوياء، على رأس العظماء، فأدير كل الأعمال الإنشائية من أجل
القصر الملكي وأشرف على كافة أعمال الحرفيين - ورئيس خدم موتو في هرمونتييس،
أنا سن موت.

أنا من تعرض عليه شئون القطرين ورئيس الجنوب، بينما الشمال تحت ختمى،
فمساهمات منتجات البلدان الأجنبية تحت سلطانى.

أنا من يعرف الجميع، ما اتخذته من إجراءات فى القصر الملكى، أنا كاتم
أسراره الحق، أنا محبوبه، والمشرف العام على حدائق آمون^(٨٥)، أنا سن موت.

وتشهد مدونة صخرية قرب أسوان أنه كُفّ أيضاً بقطع مسلتين كبيرتين وربما
كانتا المسلتين اللتين اقيمتا من أجل آمون فى معبد الكرنك^(٩) أو اللتين اقيمتا على
الأرجح فى إلفنتين:

أنجز هذا العمل من أجل الزوجة الإلهية: التى تدبر شئون ربوع القطرين، من
قبل حامل ختم ملك مصر السفلى، الصديق المفعم بالحب، والمشرف العام العظيم، أنا
سن موت وأنا النبيل والأمير وكاتم الأسرار المقرب من الزوجة الإلهية، ومن يسعد
بكلماته سيدة القطرين، وخازن ملك مصر السفلى والمشرف العام العظيم فى خدمة
الأميرة الملكية نفرو رع، لقد جئت لإقامة المسلتين الكبيرتين للملايين السنين، أنا سن
موت....

حدث ذلك من أجل مجد صاحبة^(١٠) الجلالة^(٨٦).

كان طموحاً بلا شك، ومتكبراً بكل تأكيد، ولكنه وفى مخلص للكتة التى جمعته
بها أوجه اتفاق كثيرة. تلك هى الصورة التى يمكن أن نرسمها للشريف النبيل
سن موت. كما كان لشخصيته ملامح أخرى.

أقام سن موت لنفسه مقبرة تذكارية فى جيل السلسلة، هى المقصورة رقم ١٦.
وتتكون أساساً من حجرة تبلغ ٢٤٧سم عمقاً و ٢٤٥سم عرضاً و ١٩٨سم ارتفاعاً.

(*) هكذا فى المونث. (المترجم)

وتضم كوة بها تمثال لصاحب المقبرة. ويحتفظ السقف بآثار ألوان تُشكل زخرفاً هندسياً على هيئة دوائر حلزونية، خضراء فى وسطها ومحيطها باللون الأحمر، وأشرطة أفقية خضراء أو عديمة اللون بالتناوب ولكنها محاطة باللون الأصفر^(٨٧). تلك هى ألوان الكون والحياة الأساسية. كما رسمت على الجدران مشاهد دينية تصور سن موت وهو يتعبد للآلهة.

حفرت أولى مقبرتيه فى الشيخ عبد القوتة وتحمل رقم ٧١. ومن المعتقد أن العمل فيها قد بدأ فى العام السابع^(٨٨). وشُيّدت الأخرى وهى الثانية فى وقت لاحق، كإنعام تفضلت بها صاحبة الجلالة، وكانت فى الدير البحرى ذاته وتحمل الرقم ٣٥٣، وحفرت أسفل معبد الملكة وتوجد حجرة الدفن فى الجزء المقدس من هذا الأثر العظيم. ويفضى ممر هابط إلى حجرة تتميز على نحو خاص بسقفها الفلكى الذى يصور الديكان^(٩٠) Decan والكوكبات constellations: نذكر منها الجوزاء والشعرى اليمانية والمشتري وزحل والذئب الكبير ونجم القطب الشمالى ودوائر شهور السنة الإثنى عشر. ويظهر الاسم العبرى للملكة وهو «ذات الكامات القوية»^(٩١) وسط الكوكبات لأن صورة حتشيسوت موجودة فى كل مكان. كما أن صورة سن موت موجودة فى معبد الدير البحرى ذاته، ف خلف أبواب مقاصير أنوبيس أو حتحور أو تحوتمس الثالث، على حدّ سواء، يمكن رؤية صورة الأثير القوى صاحب الخطوة، راکعاً وقد أدار يديه فى وضع التعبد فى اتجاه قدس الأقداس «لتقديم الدائع إلى ماعت كارع».

إن شكل تابوت سن موت يشبه تابوت الملكة الثانى. إنه شاهد محرك للمشاعر يعبر عن مودة حقيقية. وقد عثر عليه عالم المصرىات الأمريكى ويتلوك Winlock

(*) من كلمة Decanus اللاتينية وهى من مشتقات Deka أى عشرة. والديكان هو الجنى المهيمن على كل عشر درجات من دائرة البروج السماوية. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى-٢٠٠١. ص ١٥١. (المترجم)

(**) «أوسرت كلو»، بالمصرية القديمة. (المترجم)

مهشماً، إلى أكثر من ثلاثة آلاف جزء، ولكنه استطاع ترميمه وإعادةه إلى شكله الأصلي. فكانت لعبة كبيرة احتاجت منه تحمل ما لا يطاق من صبر وجلد.

وأخر المطاف دفن سن موت في مقبرته في القرة. هل كان قد فقد حظوته؟ أم من جانب الملكة؟ أو بتحريض من حزب تحوتمس الثالث؟ وما زال تاريخ اختفائه وظروفه الدقيقة سرّاً دفيناً. ومن المرجح أنه توفي قبل الملكة. وشوّهت تماثيله وحُطمت، شأنها شأن تماثيل حتشپسوت، وقام بهذا العمل تحوتمس الثالث بعد أن أصبح العامل الملكي الوحيد وانفرد بالسلطة.

بعض أعيان الدولة الآخرين..

كان حپوسنب و سن موت اللذان يتحكمان في كافة المناصب الكهنوتية والدنيوية الكبرى، من أهل الحول والطول ومن أصحاب السلطة والنفوذ في عهد الملكة. وينظر إليهما بصفتهم من المقربين إليها ومن نوى الخطوة.

ولكن هناك آخرين من الذين انحازوا إلى حزب الملكة وتمسكوا لأكثر من عقد من الزمن، لحزب تحوتمس الثالث.

ونذكر وزيراً آخر نال بعض الأهمية في عهد حتشپسوت: إنه أحمس وشهرته عامشو، وربما كان سابقاً على حپوسنب أو حاكماً في جنوب البلاد؟ وإليه تنتسب سلالة حقيقية من الوزراء. إن ابنه أوسو كان وزيراً منذ العام الخامس^(٨٩) وسوف يصبح حفيده رخ مي رع وزيراً في عهد تحوتمس الثالث. ولا نعرف أحمس سوى معرفة محدودة، إذ لم تصلنا عنه سوى وثائق قليلة نسبياً. ففي مقبرة في الشيخ عبد القرنه نقرأ هذا النص الأخلاقي، بجملة وصيفه الملقوفة أحياناً:

لم يضرب أباه. لم يدخل التعاسة على أمه. لقد حقق كل ما برح الملك يمتدحه على مرّ الأيام. كان الكذب مكروهاً له. لم يقترفه أبداً. لم يأكل مما تمقته الآلهة، ومن ثم سوف يتناول إلى جانبهم من الطعام الذي يقدم على مائدة رع، كل يوم وللزمن اللانهائي وللزمن الأبدى... إنه أحمس المقتدر والنبيل والأمير وشهرته عامشو الذي يحقق تحوله إلى با حي. إنه المشرف العام على المدينة والوزير الذي يعزز الحقيقة

والعدالة ويطرد الشرور، إنه العظيم في مقامه الرفيع. ومن ثم سوف يرى من جديد بيته إبان زمن حياته. ويضمن الحماية السحرية لأولاده على مرّ الأيام، للزمن اللانهائي وللزمن الأبدي^(٩٠).

ويخفى علينا «ترتيب» هؤلاء الوزراء. ومن المعتقد أن تحوُّمَس الثالث قد صعد إلى هذا المنصب في العام الخامس أحد العاملين الممتازين في خدمة الملك وهو أوسر أمون وشهرته أوسر. هل عُزل عندما تسلمت حتشپسوت مقاليد السلطة؟ من المحتمل. وربما شغل هذا المنصب هبوسب لفترة قصيرة أو أحسن وشهرته عامش، بيد أن هذا الأخير كان والد أوسر. هل حدثت نزاعات عائلية؟ أم مصالح وراثية عرش متعارضة؟ سوف نفهم بوضوح هذا العهد «المزيج» واغتصاب حتشپسوت للحكم عندما ستصبح تحت تصرفنا وثائق جديدة. إن إعادة صياغة تاريخ مصر هي أيضاً لعبة كبيرة تحتاج إلى صبر ورجاحة عقل.

كما كان جهوتي وفتياً لحتشپسوت مخلصاً لها وخازنها الأكبر، وخلف إينيني في هذا المنصب. فقد قام بإمداد كبرى المنشآت في النهر البحري والكرنك على حد سواء، بما تحتاجه من معادن. وعند عودة رحلة بونت^(٩١) كان هو الذي يزن المنتجات المحلية أو يكيلها. إن نصيَّ اللوحين الحجريين اللذين عُثِرَ على أولهما في فناء مقبرته بدراع أبو النجا وحالياً في متحف نورثهامبتون Northampton والآخر عند الجدار الشمالي من الحجرة الأولى - يشهدان بإسهاب على أنشطته:

كل أعاجيب البلدان الأجنبية وكل ضرائب جزيبتها وأفضل منتجات بلاد بونت الرائعة، تقدم بأسرها إلى أمون، رب الكرنك من أجل حياة وازدهار وصحة صاحب الجلالة، وحتى يمتلئ بيت هذا الإله العظيم الذي وهبها القطرين. هذا الإله كان يعلم أنه^(*) يقدمها له.

أنا الذي كنت أعدّ حصراً بكل ذلك، تعبيراً عن مدى تأثيري على قلب صاحب

(*) الضمير في المذكر رغم أنه يشير إلى حتشپسوت. (المترجم)

الجلالة. كانت حظوتى وطيدة لديه^(٥)... منذ أن ميزنى من بين أفراد حاشيته. كان يعرف أننى مخلص وفى نحوه، عارفاً أننى أنجز، ما يقال. كان قمى لا ينبس بكلمة حول شئون بيته. وصعّنى إلى منصب مدير قصره، لأنه كان على علم بذكائى فيما أفعل. أنا الذى كنت أختتم الخزينة. إن مختلف أنواع الأحجار الكريمة كانت فى معبد آمون بالكرك الذى كان مكسّاً حتى السقف بشرائب الجزية. أبداً لم يحدث شيء مماثل، منذ زمن الأجداد.

وأمر صاحب الجلالة أن يصنع... بالذهب الخالص، ويأخذ ما يأتى من الصمغى، داخل قاعة الأعياد الكبرى. وحُدّت المقادير بالكيل حقات^(٦)، من أجل آمون فى حضرة البلاد قاطبة. المجموع الكلى: ٨٨ حقات من الذهب الخالص أو ما يعادل ٨٥١٢ بين ونصف (حوالى ٨٠٠ كجم) لحياة وازدهار وصحة ماعت كارع ملك^(٧) مصر العليا ومصر السفلى، ليت^(٨) يحيا إلى أبد الأبد^(٩).

يلقى هذا النص الضوء على خطرين مرتبطين بعهد المفتشية التى أرادت أن تكون فرعوناً، نقصد بذلك إبراز أصحاب الخطوة المتميزين والثروات التى حصل عليها آمون ومعبده.

وفى معبد موت أقامت حتشپسوت أيضاً نمثالا يحمل اسم سن إم إهع وتصفه مدونات مقبرته رقم ١٢٧ فى الشيخ عبدالقرنة بألقاب «الكاتب الملكى وحامل ختم ملك مصر السفلى والمشرف العام على الخزينة وكاتب الحسابات». كان كبير المشرفين على صندوق مالية الحكومة ومن ألقابه: «المشرف العام على مكان النبذ والمشرف العام على النباتات الناضرة والمشرف العام على الريشة والصدف». وكان يشغل وظائف مماثلة فى الأملاك الإلهية بطيبة: «المشرف العام على أملاك موتو فى هرمونتيس وكاتب حسابات مواشى آمون». إن الصفات التى يُنعت بها تبرز الإمتيازات التى كان يتمتع بها إلى جوار الملكة. إنه «عينا وأذا ملك مصر السفلى وكاتم أسرار الملك فى كل وظيفة والمعلم الحكيم والعظيم حياً^(١٠)».

(*) هكنا فى الذكر. (المترجم)

إن مدونات مقبرته جديرة بالملاحظة إلى حد كبير. فيتم تعريف آمون في
ديباجة أحد النصوص على النحو الآتي:

رب الحقيقة والعدالة، ملك الآلهة جمعاء، أعظم العظماء، أبو الآباء، سيد
الملايين، فلا مثيل له، الأوحد المتفرد، الذى خلق ما يكون وشكل ما يوجد، الذى ربط
أعضاء البشر، الذى يلهب الحياة المنبثقة من نون ويفتح كل العيون^(٩٥).

ومن جهة أخرى فقد نسخ سن إم إمح فى مقبرته النص الذى دونه باحرى فى
مقبرته^(٩٦). فهل جمعتهم روابط عائلية؟ أو كانا على علم بنص وجد سن إم إمح متعة
فى إعادة نسخه؟

ومقارنة بالنص السابق، فإن قراءة المدونة المنقوشة على تمثال من الحجر
الرملى ومن مقتنيات متحف نيويورك فى الوقت الراهن، تكشف بوضوح طبيعة الفكر
الدينى المصرى، هذا التمثال يعود إلى ساقى كا و، أمير ثنى ورئيس خدام الإله فى
الإقليم الثينى.

فليتكرم الملك بمنح قربان إلى أونوريس^(٩٧) (إله الإقليم المحلى)، أعظم الآلهة
وملك السماء، حاكم القطرين وسيد الكون فى كل مقر من مقارّه، الإله العظيم الذى
جاء إلى الوجود بذات نفسه، الأقدم الأصلى الذى خلق الأقدمين الأصليين. لقد كان
يتمتع بالقوة والذكاء، منذ أن انبثق من نون، هو الذى يعطى تالفه للبشر والذى يضى
نوره القاسم، الذى يحيى لرويته^(٩٨).

الإيمان واحد ولكن الآلهة وأسماءها وأشكالها مختلفة. إن الارتباط العميم
بأحد الآلهة سواء كان آمون أو أونوريس، يحمل المؤمن على سلوك الدروب الروحية
ذاتها: فكل إله هو الأعظم والأوحد المتفرد والأقدم والأصل. ولكن هذه الرؤية لا تعنى
أى امتياز لهذا الإله على حساب غيره من الآلهة. إن مجمع الآلهة المصرية هو
مستودع ضخم للقوى الفائقة للطبيعة التى تتراص عناصرها الخيرة المباركة، جنباً
إلى جنب، وتترأب لسعادة البشر. إن فكر أمنهوتب الرابع الذى شاع الإشادة
بروائع إبداعاته، من جراء إغفال فترة الإختمار الروحية الطويلة التى تشهد عليها

(٩٥) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم إن-حرت. (الترجم)

النصوص التي سبقته - إن هذا الفكر لم يأت من فراغ، إنما ينطلق كما سنرى من التقاليد المصرية المتواترة وأكثرها عمقاً. ولكن الملك الشاب المتصوف ظلّ على امتداد أربعة عشر عاماً، يضيف إليها التعصب وعدم التسامح.

كان كل إنسان يعبد في مدينته الإله الذي وقع عليه اختياره. ولكن أمون - رع، «ملك الآلهة»، يظل إله الملوك المقيمين في طيبة.

إن وجود «حزب» بناهر تحوتمس الثالث شيء ملحوظ، وإن كان من الصعوبة بمكان تأكيد، مع ذلك. وبالفعل نجد أن بعض الشخصيات في سياق المسارد التي تروى مراحل حياتهم الوظيفية يتجاهلون الملكة، قصداً وعمداً.

فقد سبق أن لاحظنا^(٩٨) أن نب واهي قد عيّن في منصب كبير كهنة أوزيريس في أبيدوس من قبل تحوتمس الثالث في العام الثالث. ويبدأ النص بإعلان، يهدف إلى التأكيد على ما يبدو، على تسلّم العامل الملكي الشاب مقاليد الحكم:

وَهَبَ مَعَ إِنْعَامَاتِ الْمَلِكِ مِنْ خَيْرِ رَع، مَلِكِ مَحْصَرِ الْعُلْيَا وَمَحْصَرِ السُّفْلَى، إِلَى نَبِ وَاهِي كَبِيرِ كَهْنَةِ أوزيريس^(٩٩).

وعندما أخذ هذا الأخير يقدم حصراً بقائمة ترقياته، يذكر الملك مرة أخرى، ولكنه لم ينس بكلمة عن الملكة.

هذه المشاعر أكثر وضوحاً في مدونة لوح حجرى عثر عليه في مقبرة نب أمون بدراع أبو النجا:

إِنْ سَيِّدِي عَا خَيْرِ إِنْ رَع^(١٠٠)، مَلِكِ مَحْصَرِ الْعُلْيَا وَمَحْصَرِ السُّفْلَى، قَدْ جَدَّدَ مِنْ أَجْلِي إِنْعَامَاتِهِ، فَنَحْصِبُنِي مُشْرِقاً عَاماً فِي إِدَارَةِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ.

إِنْ سَيِّدِي مِنْ خَيْرِ رَع، مَلِكِ مَحْصَرِ الْعُلْيَا وَمَحْصَرِ السُّفْلَى، قَدْ حَدَّدَ مِنْ أَجْلِي إِنْعَامَاتِهِ. فَرَقَانِي لِأَصْبِحَ الْأَوَّلَ، وَعَيَّنَنِي مُشْرِقاً عَاماً عَلَى أَمْلاكِ الزَّوْجَةِ الْمَلِكِيَّةِ نَبْتُو (إحدى زوجات تحوتمس الثالث).

(*) من ألقاب تحوتمس الثاني. (المترجم)

إن سيدي من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى قد جدّد من أجلى إنعاماته، فنصّبني مشرقاً عاماً على كافة سفن الملك. لأننى لم أقترف أفعالاً سيئة. ويستحيل على المرء أن يجد خطأ ينسب إليّ، كما لم أصبح رفيقاً لمجرم. ومن ثم فقد ارتقيت إلى مرتبة إيماخو^(١٠٠)، فى حين احتفظت بالحظوة التى تجعلنى صديق الملك الحميم^(١٠١).

إن حياة وظيفية بدأت فى عهد تحوتمس الثانى وتعاظمت فى ظل تحوتمس الثالث تتجاهل تماماً حتشيسوت.

ولا شك أن هذه الأخيرة كان لها معارضون متشددون، عقدوا العزم على أن يظل ابن تحوتمس الثانى محتفظاً، بمفرده بالسلطة.

وإذ أرادت الملكة بلا شك أن تضى رونقاً وأبهة على عهدها، فقد نظمت حملات تجارية ضخمة وأقامت العديد من المعالم الإنشائية فى مصر والفوية، على حدّ سواء.

٣- عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلابيّة:

الحملات التجارية

كان من الصعب على الملكة أن تخرج على رأس حملات عسكرية. ومع ذلك فقد تترك بعض المدونات شكاً يراود الباحث. ولكن الفرعون إنطلاقاً من تقليد متواتر، هو الظاهر المنتصر. ومن المحتمل أن حتشيسوت إذ أرادت أن تتباهى بالكقاب تمجدها وإن لم تكتسبها، استأثرت لصالحها بقائمة مصطلحات أسلافها. وهذا ما يفسّر سيطرتها على أسيا كما وردت فى نص الولادة الإلهية^(١٠٢).

وقبل فترة قصيرة كشف عالم المصريات المصرى لبيب حبشى^(١٠٣)(*) فى جزيرة سهيل على مخريشة يقول نصها:

(*) يحمل أحد شوارع الأقصر اسم هذا العالم الجليل ويقع بجوار فندق إيتاپ، ويصل شارع معبد الكرنك بكورنيش النيل. (المترجم)

إن تى، النبيل، حامل ختم ملك مصر السفلى، الصديق الأوجد، المشرف العام على الخزينة، المسئول عن ضرائب الجزية، إنه يتحدث قائلاً: «لقد اصطحبت [ماعت] كارع، الإله^(٥) الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى ليته يحيا. رأيت بينما كان يصرع النوبيين فى حين تم اقتياد زعمائهم أسرى ليمثلوا بين يديه. رأيت يدمر بلاد النوبة بينما كنت فى معية جلالتى».

ولكن قيام حتشپسوت بحملة عسكرية إلى النوبة يظل أمراً مشكوكاً فيه. فلا ريب أن شواهد أخرى كان يفترض العثور عليها وهو ما لم يحدث. ومن جهة أخرى فإن بداية الخرطوش الملكى فى هذا النص مشوهة والعلامات المتبقية قد تسمح لنا بقراءة أخرى هى من خپر رع. هذه الفرضية الأخيرة هى الأقرب إلى الصواب، بالنظر إلى أن تحوتمس الثالث قد اضطر عند تولّى حكم البلاد بمفرده، أن يعود إلى فتح أراضي الإمبراطورية التى كانت التهديدات تحاصرها من كل جانب، بسبب خمول الملكة على الصعيد العسكرى، كما هو واضح كل الوضوح. فمن بين المقربين منها لا يُذكر سوى عدد قليل من العسكريين. ولا شك أن الجيش قد ظل إلى جانب الملك الشاب.

الرحلة إلى بلاد بونت

إنها أهم الحملات التجارية التى قامت بها الملكة. إن رواية وقائعها يروها نص مسهب ومصوّر بالنقوش المنحوتة على الجانب الجنوبي من الرواق الثانى بالدير البحرى. إنها مجموعة مقابلة لمجموعة الولادة الإلهية المنحوتة على الجانب الشمالى من الرواق نفسه.

قامت هذه الحملة فى العام التاسع، وكانت بقيادة حامل الختم نحصى.

(٥) هكذا فى المذكر وفى بقية النص أيضاً. (المترجم)

المقدمات

يُصور النقش الملكة واقفة أمام آمون الجالس على عرش. وخلف الملكة صُورَ
مركب الإله المقدس محمولاً على أكتاف الكهنة ويتولى تحوتمس الثالث إطلاق البخور
في اتجاهه.

• الملصق:

الحورس : ذات الكائنات القديرة.

السيتان : ذات السنوات التي تستعيد إخصرارها.

الحورس الذهبي : ذات التجليات الإلهية.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كا رع.

صورة آمون المقدسة، فقد رغب أن تجلس على
عرشه.

من أجلها أعاد الإخصرار ليراث القطرين وملك
مصر العليا ومصر السفلى.

لقد منحها كل ما يحيط به قرص الشمس، وما
يحتضنه جب ونوت.

فمن الآن لا أعداء لها في بلدان الجنوب، ولا
غرماء لها في بلدان الشمال.

السماء والبلدان الأجنبية التي خلقها الله، تعمل
جميعها من أجلها.

إنها تتقدم نحوها بقلب منعموز وزعماؤهم
يطأطئون رؤوسهم، ويحملون على ظهورهم
ضرائب الجزية.

ويقدمون لها أولادهم حتى تُعطى لهم نسمة
الحياة، بفضل عظمة أمجاد أبيها آمون الذى
وضع جميع البلدان تحت نطهيا^(١٠٤).

• آمون يفضّ مغاليق الوهى ووعود الإله:

الملك^(١٠٥) ذاته، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، صاحب الجلالة
المنتمى للقصر الملكى، اقترب من سَلَم سيد الآلهة. سَمِعَ أمر صادر عن العرش
العظيم، إنه هاتف من الله ذاته، يوحى بالبحث عن دروب تفضى إلى بونوت وشق
الطرق المؤدية إلى مراهق البخور. ويستدعى الأمر أن ينقل الجيش على صفحة الماء
وبراً، من أجل جلب أعاجيب بلد الإله لتقديمها إلى هذا الإله الذى شكّل جمالها^(١٠٦).
وتصرف الجميع وفقاً لما أمر به جلالة هذا الإله المعظم ووفقاً أيضاً لرغبة صاحبة^(١٠٧)
الجلالة، فى هذا الصدد.

كلمات قالها آمون، رب عروش القطرين:

«مرحباً، مرحباً، فى سلام أيا ابنتى الوديفة التى فى قلبى، أيا ماعت كارع
ملك مصر العليا ومصر السفلى الذى شيد المالم الصرحية الجميلة وطهر مقر
التاسوع العظيم وملأ معبدى بذكرى حبها.

أنت الملك، أنت^(١٠٨) التى استأثرت بالقطرين، أنت غنمت إمن حتشيسوت،
فقرابينك عظيمة، وطاهرة هى أطعمتك، إنك تسخلين الرضى إلى قلبى، فى كل لحظة.
لذلك فأنا أعطيك كل حياة وقوة إلى جانبى، وكل ثبات إلى جانبى، وكل صحة إلى

(*) هكذا فى المنكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المونث. (المؤلفة)

جانبي، وكل سعادة إلى جانبي. كما أعطيك كل الأراضي المصرية وكل الأراضي الأجنبية، حتى يفرح قلبك بفضلها. لقد خصصتها لك منذ زمن بعيد.

كما أعطيك هونت بأكملها حتى حدود الأراضي الإلهية، أعطيك أرض الله التي لم تطأها الأقدام حتى الآن، ومرافق البخور التي يجهل وجودها شعب مصر. كانت تصل إلى مسامعه أحاديث كثيرة عنها، نقلًا من فم إلى فم، واستنادًا إلى أقوال رجال الزمن الماضي. وبالفعل، فقد سبق أن جلبت الأعاجيب من هذا البلد إلى جوار أبائك ملوك مصر السفلى ولكن واحدة تلو الأخرى، وذلك منذ زمن الأجداد، وإلى ملوك مصر العليا أيضًا، إلى أولئك الذين عاشوا في الماضي ولكن مقابل عدد كبير من الهدايا. ولن يصل أحد أبدًا إلى هذه الأراضي باستثناء موفديك. وبالفعل سوف أتصرف بحيث يتجه جيشك إليها، سوف أوجهه على صفحة الماء وبرًا، ومن أجلها سوف افتتح الطرق بل والسرية منها. سوف «أحرث» مرافق البخور، هذا الإقليم المقدس من البلد الإلهي. حقًا إنه مكان للمتعة واللذات. لقد أوجدته من أجلى، لإنعاش قلبي وترطيبه، بالتزامن مع قلب والدته حتحور، سيدة تاج هونت الكبير، سيدة السماء، الساحرة العظيمة التي تقف على رأس الآلهة جمعاء.

سوف يستولون (أي جنود الجيش المصري) على البخور كما يرغبون، ويحملون سفنهم بأشجار البخور الناضرة وبمختلف المنتجات الطيبة لهذا البلد، إلى أن ترضى قلوبهم. لقد فتنت أبناء هونت الذين كانوا يجهلون شعب مصر، لقد استملت ملتحى^(١٠٥) البلد الإلهي نحو حبك. سوف يرفعون إليك الهتافات والتهاليل وكأنك إله، بقدر ما كان مجدك عظيمًا، في ربوع البلاد. أما أنا فأعرفهم لأننى سيدهم، إنهم يعرفون أننى آمون-رع المنجب الذى قامت ابنته بربط «الجزء» (ربما تشير هذه الكلمة إلى حاو-نبوت؟)، ابنته ماعت كلرع، ملك مصر العليا ومصر السفلى.

لقد فعلت ذلك لأننى والدك الذى أشاع الفزع منك وسط الأقواس التسعة. سوف يتقدمون فى سلام نحو الكرنك، حاملين معهم أعاجيب عظيمة، وكل الأشياء الجميلة والطيبة من البلد الإلهي والتي ستقوم جلالتك بإرسال من يحضرها: إنها أكوام من البخور وأشجار ثابتة محملة بالبخور الناضر وسوف يختلطون فى بهو

الأعياد، حتى يراها جميع الآلهة. سوف تتولى صاحبة الجلالة شخصياً الإشراف على نموها في الحديقة التي تحف بمعبدى، حتى يفرح قلبى بفضلها.

سوف يصبح ذلك (مصدر) شهرتى وسط الآلهة وسوف يصبح ذلك (مصدر) شهرتك وسط الأحياء للزمن اللانهائى. السماء والأرض ستفيضان بخوراً والعطور سوف تحل فى بيتك الكبير. سوف تقدمينها لى طاهرة وصافية لتُستخرج منها (الأدهان) المخصصة للأعضاء الإلهية، كى يُقدّم البخور وكى تُعدّ الأدهان وكى يُحتفى بتمثالى بالقلائد. وبينما أقوم برشّ الماء الطهور من أجلك، سوف يهال قلبى فرحاً عند رؤيتك^(١٠٦).

● مرسوم ملكى:

حتشسوت متربعة على العرش توجه كلامها إلى رجال البلاط. يقف أمامها ثلاثة من كبراء الدولة ولكن صورهم مشوهة تشويهاً بالغاً. يذكر النص اسم اثنين منهم: نحسى و سن موت.

العام التاسع - عندئذ تتمعد جلسة فى قاعة الإستقبالات ويظهر الملك وسط إشارات قصره المقدسة متربعاً على العرش العظيم المصنوع من الذهب الخالص، واضعاً التاج أقف^(١٠٧) على رأسه. يُسمح للكبراء والأصدقاء بالدخول للاستماع إلى مشروع المرسوم.

مرسوم ملكى صادر إلى عظماء الكبراء والآباء الإلهيين وأصدقاء الملك: «سوف أتألق فى وجوهكم للزمن الأبدى، كما تمناء أبى. وعلى كل حال، ظلت (رغبة) العمل العظيمة فى قلبى. سوف أفعل كل ما يُمجّد من انجبنى، عملاً بما تنبأ به، من أجله سوف أكرّس قرابين كان يجهلها فى الزمن الماضى، أبائى المبجلين. سوف أعمل عملاً رائعاً من أجل سيد الزمن الأبدى. سوف أفعل أكثر مما أنجز من قبل. سوف أفعل بحيث يمكن أن يقال فى الأزمنة القادمة: كم هو كامل كل ما حدث بسببها!» وذلك من فرط ما كان اهتمامى به مباركاً وخيراً وكان قلبى مهتماً كل الإهتمام بما أمر به.

أنا نوره الوضاء... لقد نفذت إلى داخل الإله العظيم، لقد أنارتى، لقد اختارنى

لأنه يعرف امتيازى. سوف أقول لكم شيئاً هاماً فتنصتون إليه ليصبح سطوعى من أجلكم على أرض الحياة: «اقتفوا أثر أفعالى». أنا الإله الأمر بما هو أت إلى الوجود، لا أتفوه أبداً بما هو مُضر، أنا محبوبته. إن كائى هو الذى يُخرج كل شىء إلى الوجود، حسب رغبته، تمسكوا بما أمرت به، لأن طول عمركم فى الحياة، فى فمى، انصتوا إذن، سوف يكون كل ذلك مباركاً وخيراً بالنسبة لكم فى الزمن القادم، ومفيداً فى المستقبل.

انظروا، لقد أمرت جلالتي أن تكرس قرايين لمن خلقتى وأن تزداد كمية الأدهان من أجل الأعضاء الإلهية، الأدهان التى أمرت بإعدادها له. وأن تكون كمياتها أكبر مما كانت عليه، فى الزمن الماضى، بفضل أرقى أنواع شحم البقر النقى وأن يتم إمداد احتياجاته من القرايين، على أكمل وجه.

ومن ثم أمرت جلالتي بإرسال (حملة) إلى مرفأى البخور وأن تفتح لها أفضل الطرق وتتعرف على ما يجاورها من أماكن وتستكشف دروبها وفقاً لأوامر أبى آمون... سوف تقطع الأشجار من البلد الإلهى ليعاد زرعها... فى حديقة ملك الآلهة. سوف يتم جلبها إلى هنا محملة بالبخور فى حقيقة الأمر ليتم فى الحال عصر الأدهان التى طلبتها، لأعضاء الجسد الإلهى (١٠٨).

ينطوى الحديث فى بعض مقاطعه على تهديد ضمنى، فيؤكد على نحو خاص على الخيرات والبركات التى توزعها الملكة على كل من يذعن لما تقوله. كما أنه خطاب من أجل تعظيم المجد الأوحد للإله آمون. هذا النص الذى يتخذ شكل المرسوم، يكشف بوضوح عن الإتجاهين اللذين اتسم بهما هذا المهد.

الرحلة

• ركوب السفن:

صوّرت خمس سفن من سفن أعالي البحار: ما زالت اثنتان منها راسيتين. أما أشرة الثلاث الأخرى فمفتوحة للريح. يمكن مشاهدة مقصورة القيادة بمسطحيتها.

أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة. القيدام والكوثل مرتفعان. السفينة بلا سطح ولها سارية واحدة وعدة أشعة والدفة تتكون من مجدافين عريضين تحركهما من الخلف قطعة خشب معقوفة إلى الداخل^(١٠٩).

تضم الحملة مائتين وعشرة رجال: أى ثلاثين مجدقاً لكل سفينة، وطاقم مكون من واحد وعشرين فرداً، يرافقهم ثمانية جنود وضابط. ومنذ البداية تبدو هذه الرحلة مسالة إلى أبعد حد. وقد نقل معها تمثال ضخم من الجرانيت الوردى يُصوّر آمون والملك لإقامته عند شواطئ بونت:

لقد صنعتُ تمثالاً من أجل أبيها آمون - رع، رب عروش القطرين، إنه صورة شامخة (تمثل) ماعت كارع وآمون - رع، رب مهاي وأمير بونت (البلد) المحبوب، لقد شكنتها صاحبة الجلالة بمقتضى ما يعلو قلبها، لتقام في البلد الإلهي. هكذا تقترن صورة هذا الإله بصورة ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. لقد شكنتا من كتلة واحدة من الجرانيت الصلب. والتاسوع الكبير القائم في بلاد بونت سوف يضمن من خلفهما حمايتهما السحرية، سوف تزدبران وتبقيان في مكانهما للزمن اللانهائي وللزمن الأبدى، أمام مرافئ بخور بونت، المكان المقدس لسعادة القلب^(١١٠).

عندئذ تنطلق الرحلة:

وأبحر جيش صاحبة الجلالة على صفحة الشديدة الإخضرار (المقصود بها هنا: البحر الأحمر) وسلك الطريق الجميل الذي يفضى إلى البلد الإلهي ورسى في بونت في سلام، وفقاً لكلمات آمون سيد الآلهة وربّ عروش القطرين الذي يقف على رأس الكرك - ليعود منها بكافة أعاجيب المنطقة بأسرها، ذلك بقدر ما كان (آمون) يحب ابنته ماعت كارع، أكثر من الملوك الذين عاشوا في الزمن السابق. وإن يحدث ذلك لغيرهم من ملوك مصر السفلى الذين سيبتون إلى الوجود في هذا البلد، على امتداد الزمن اللانهائي.

● الوصول والاستقبال

رست السفن عند شاطئ بونت، وما زالت قيادتها متجهة ناحية الجنوب. المشهد الطبيعي مشهد إفريقي نموذجي: فيضم أشجار نخيل البلح والجميز ونخيل الدوم وجوز الهند والبخور، إلى جانب أكواخ مخروطية الشكل، محمولة على مجموعة أوتاد. ويصعد المرء إليها على سلم. أما الفونة فتضم بعض القردة وأحد الطيور.

تجرى وقائع الإستقبال فيما بعد وفي مكان لا يبعد كثيراً عن الشاطئ الذي يشير إلى وجوده المجاور لشريط من الماء. وعلى اليسار يقف قائد الحملة نحسي الذي يتكأ على عصا طويلة، ويتقدم الضابط والجنود المسلّحين بالبلط والحراب والتروس، وعلى مائدة منخفضة وضعت الأشياء المعدة للمقايضة: قلادة ذهبية ولآلي وأساور وسيف. ومن جهة اليمين يأتي الزعيم پارهو، فيتقدم ناحية المصريين وتتبعه زوجته إيتي، بأردافها الممتلئة شحماً، لأنها كانت تعاني من بدانة مفرطة مَرَضِيَّة ومصابة بداء انحناء العمود الفقري إلى الأمام. هل المقصود صورة كاريكاتورية أم سمة من السمات العرقية لدى قبائل الهوتانتوت أو البوشمان أو الأقزام؟ وسار من خلفهما ابناهما وابنتهما. هكذا تواجدت القبيلة بأكملها. ويقود الحمار الذي يحمل الملكة ثلاثة من أبناء البلد.

ويقدم النص شرحاً لما سبق:

وصل الموفد الملكي في صحبة الفرقة التي كانت في معيته إلى البلد الإلهي والتقى بكبراء بونت. كان محملاً بأشياء جميلة وطيبة مقدمة من القصر الملكي، من أجل حتحور، سيدة بونت - ذلك لحياة وازدهار وصحة صاحب الجلالة.

عندئذ جاء كبراء بلاد بونت منحنيين مطأطئين رؤوسهم، لاستقبال هذه الفرقة الملكية. وعذبوا أمون - رع، فهو الأول الأقدم في الأرضين، الذي يطأ بقدميه البلدان الأجنبية. كانوا يقولون متوسلين السلام: «لماذا وصلتكم إلى هذا البلد الذي يجله شعب مصر؟ هل هبطتم عبر دروب السماء أم سافرتم عن طريق البحر والبر؟ كم هي خضراء أرض البلد الإلهي وطأه رع بقدميه، من أجلكم. أما ملك البلد المحبوب، ألا يوجد طريق يؤدي إلى جلالتة حتى نحيا بفضل النسمات التي يهبها»^(١١١).

• التجارة والمساومات

على يمين المشهد نُصبت خيمة الموفد الملكي. وتكدست أمامه منتجات بونت. وعلى اليسار، صف طويل من أبناء بونت يُحضرون أشياء أخرى مماثلة. وعلى رأسهم نشاهد أيضاً الزعيم پاراحو وزوجته الضخمة الجثة.

أعدت خيمة الموفد الملكي وفرقته، في مرفأ البخور في بونت على شواطئ الشديدة الإخضرار ليستقبلوا كبار هذا البلد. عندئذ يُقدّم لهم الخبز والجمعة والنبيد واللحوم والفواكه وكل شيء وارد من البلد المحبوب، وفقاً للأوامر الصادرة من القصر الملكي. (وبدوره) تقدم زعيم بونت حاملاً هداياه عند شواطئ الشديدة الإخضرار، أمام الموفد الملكي^(١١٢).

وبعد ذلك لا تسمح المدونة المشوقة سوى بقراءة كلمتي: «ذهب» و«بخور»، وهما من منتجات إفريقيا التقليدية. أما الباقي فكان عبارة عن مقايضة ومساومات.

• تحميل الشحنة وركوب السفن

وانهمك المصريون في أعمالهم. فبعد إقتلاع أشجار البخور حُمِلت بمدرّها^(*) ووضعت في سلال عريضة مثبتة بحبال في أوتاد من خشب تُحمل على أكتاف ستة رجال، ثلاثة في المقدمة وثلاثة في المؤخرة. وتنتمي هذه الأشجار إلى الأنواع التي تعرف علمياً على النحو الآتي:

(بوسفيل ثوريفيرا) *Boswellia thurifera* -

(بوسفيل كارتييري) *Boswellia cartieri* -

(بوسفيل پاپيجيرا) *Boswellia papygera* -

(كوميفورا بيدومكولاتا)^(١١٣) *Commiphora pedunculata* -

(*) طين لزج متماسك. المعجم العربي الأساسي. (المترجم)

وكما هو فى المعتاد فى المشاهد المصرية، تتجز الأعمال فى جو من المرح
والبهجة، فىصيح أحد الرفاق مخاطباً زميل له:

«انتبه لتقديمك، يا زميلى! لأن الحمولة ثقيلة جداً»

أو:

«كل شىء سيسير على ما يرام بالنسبة لنا، إن أشجار بخور البلد الإلهى
سوف تصل إلى معبد آمون، سوف تستقر هناك، حيث ستقوم ماعت كارع بغرسها
لتثبت فى حديقتها، قرب معبدها، كما أمر به والدها»^(١١٤).

والحمولة على قدر كبير من الأهمية

كانت السفن محملة بمقادير ضخمة من أعاجيب بلاد بونت البالفة الوزن: كافة
الفلاصات العطرية الزكية الرائحة، من بلاد الإله، وأكداس من البخور وأشجار بخور
ما زالت تحتفظ بنضارتها، والأبنوس والعاج الأصيل والذهب الأخضر من بلاد هامو
واللادن والقرفة والمر والبخور ومسحوق تجميل أسود والقردة والنسانيس والكلاب
وكمية كبيرة من جلود نمور الجنوب، فضلاً عن أناس بلولادهم. ولم يحدث أبداً من
قبل أن نقلت أشياء مماثلة (على أيام)، أى ملك من الملوك الذين ظهروا على وجه
الأرض، منذ قديم الزمان^(١١٥).

كما هوَرت فى النقوش أبقار وزرافة وفهد، وفضلاً عن ذلك فقد أحضر أمير
بونت كمية من المر وجاء أحد أبنائه بقصعة تحتوى تبرأ.

أما تمثال آمون والملكة المقام على الشاطئ فسيظل شاهداً على عظمة مصر
وقوة إله طيبة:

هكذا أتبع لهذا البلد أن يرى صاحبة الجلالة وأباها، أمير بونت على مدار كل
يوم من الأيام، بقدر ما كان مجده مهيباً وخيراً وعزيراً، وأكثر من مجد سائر الآلهة
الأخرى ويقدر ما كان حبه لابنته ماعت كارع عظيماً^(١١٦).

العودة إلى طيبة

عاد جيش رب القطرين فى سلام، ونزل إلى الشاطئ عند الكرك فى فرح وسرور. كان كبراء بونت فى معيته وقد احضروا معهم ما لم يجلبه أبداً إلى مصر من قبل، ملوك مصر السفلى الآخرون (-احضروا) أعاجيب بلادهم - بقدر المجد المهيّب الذى كان يتمتع به آمون- رع، هذا الإله المعظم، رب عروش القطرين.

● الملكة على رأس المستقبلين

يتقدم حاملو الجزية فى صفوف طويلة قادمين من بونت وبلدان إفريقيا. زعماء بونت يحيون ماعت كارع ويسجدون أمام «ذات الكاءات القوية». .. ونوبيو خنت- إن- نفر وسائر البلدان الواقعة إلى جنوب مصر يأتون منحنين، خافضى الرأس وهم يحملون الجزية حتى المكان الذى تقيم فيه صاحبة الجلالة... إن جميع البلدان فى خدمتها...

ويقول زعماء بونت وهم يتوسلون منها السلام: «تحية لك، أيا ملك البلد المحبوب، أيتها الشمس^(*) التى تنير مثل القرص (أتون)، أيا سيدتنا وسيدة بونت، أيا ابنة آمون، ملك الآلهة. لقد انضم اسمك إلى المدار السماوى ومجد ماعت كارع جاب عبر الدائرة الكبرى (المحيط الذى يحيط بالعالم)».

كما يقول زعماء نيبايو^(١١٧) وزعماء إيريوم^(١١٨) إلى صاحبة الجلالة، متوسلين منها السلام: «تحية لك»^(١١٩).

حدثت هذه الوقائع وسط تهليل جماهير الشعب فرحاً وابتهاجاً. أكانت فى الحقيقة عيداً من أعياد الإمبراطورية؟ أم إنفعالاً حماسياً مقصوداً، اقتنضته صور الملكة والنص المرافق؟

(*) فى المونث رغم أنها اسم مذكر فى المصرية القديمة. (المؤلفة والمترجم)

• القرايين المقدمة إلى آمون

سوف تضاف المنتجات القيمة الواردة من پونت والنوبة والسودان إلى كنوز إله الكرنك وثروته، فتعظمها بفضل من تعلن أنها ابنته الملكية.

الملك ذاته، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، يكرس أعاجيب پونت وثروات البلد الإلهي وقد اختلطت بجزية بلدان الجنوب وأعاجيب منتجات كوش الخسيسية وإسهامات البلد النوبي، من أجل آمون رب عروش القطرين الذي يقف على رأس الكرنك...

٢١ شجرة بخور ناضرة، أعجوبة پونت من أجل آمون.

وتحت الأشجار تتكدس غيرها من القرايين:

نمب - (فى هيئة العديد من الحلقات)

مسحوق تجميل أسود - (فى أكياس صغيرة)

عصى رماية أبناء پونت

أبنوس (فى هيئة جنوع)

أكداس ضخمة من البخور النضر.

ومن النوبة والسودان ورد:

نمب خالص (فى هيئة حلقات أو فى قصعات).

جلود نمور بكميات كبيرة.

نمر حى، تم أسره من أجل صاحبة الجلالة.

٢٢٠٠ رأس ماشية (١٢٠).

كما تم إحضار ريش النعام وبيضها وأقواس وخشب نفيس ولا سيما الأبنوس، بالإضافة إلى زرافة.

إن حتشيسوت «تدفع» مقابل تربيعها على العرش، فتوزع على كهنة طيبة ثروات الإمبراطورية الإفريقية.

إنه مشهدٌ نضر أسر وجذاب. فوسط الشمس والأترية يزن الآلهة والبشر جزية الجنوب ويكيّونها. وتؤم الملكة الإحتفالات أمام آمون الجالس على عرش. إن موازين ضخمة وهي موازين تحوت البالغة الدقة تتكس عليها حلقات الذهب. ويراقب عملية الوزن الإلهان هورس وديون (النوبي) وتتولى الإلهة سيشات تكوين النتائج بكل دقة. ويسجل المقادير چحوتي الصانغ ورئيس الخزينة^(١٣١) الذي يرفع تقريره إلى الملكة. ويفعل الإله تحوت الشيء نفسه مع آمون.

● حتشيسوت الإلهية

وإذ بدى أن الملكة تشارك في هذه العمليات، ستقوم بأداء فعلٍ سرّي هوفى، من الأفعال المألوفة في الشعائر الإلهية والذي يعتبر في نظر جماهير الشعب المجتمعة للإحتفال بالعيد، عملاً يحدد بشكل قاطع ألوهية الملكة.

إن الملك شخصياً، إن ماعت كارج، ملك مصر العليا ومصر السفلى، يمسك بمكيال من الذهب الخالص ويمد ساعده في اتجاه قمة كوم. إننا نشاهد هنا أول الأفعال الميمونة: كُئِل البخور الطازج المخصص للإله آمون، رب عروش القطرين وسيد السماء، فضلاً عن أفضل منتجات شتى «المحاصيل» الرائعة الواردة من بلاد هونت.

عندئذ بدأت صاحبة الجلالة ذاتها، (تمسح) بيديها كل جسدها بأفضل أنواع البخور. ويصبح عطرها أشبه بالشمع الإلهي؛ إذ اختلطت رانحتها برائحة هونت، ثم (تظهر) بشرتها كما لو كانت مكفنة بالذهب الخالص، متألقة كالنجوم، داخل بهو الأعياد، في حضرة جميع أهل البلاد. عندئذ يُقدم جميع أفراد الشعب على أداء شميرة التهليل والإبتهاج ويحيون في الوقت نفسه رب الآلهة. ويشيدون بالعظيمة ماعت كارج، وصفاتها الإلهية، بسبب ما حدث لها من أعاجيب رائعة^(١٣٢).

بعد المساهمات العظيمة التي صيبت في خزانة الكرنك وما أضيف إليها من

ثروات طائلة نصل إلى ذروة «المشهد» الذي أمكن صياغته صياغة بارعة. أهى مجرد حيلة لبق؟ دون أدنى شك. لقد لاحظ فيكتور لورييه Victor Loret^(١٣) أن كتاب الموتى يؤكد على ضرورة رسم الصور بألوان مخلوطة بماء مذاب فيه صمغ البخور. إن هذا المحلول السائل القابض يعطى لوناً دافئاً. وتصبح البشرة لامعة عند مسحها بهذا المحلول. هكذا تبدو حتشپسوت فى نظر الشعب موهوبة، فى آن واحد، بعطر أبيها الإله آمون ويشرته المتألفة. إنه تأكيد على النتائج المترتبة على الولادة الإلهية.

كانت الخطة بارعة. فقد عرفت حتشپسوت كيف تستفيد بهنق وذكاء، من ميل البشر إلى السذاجة وسرعة التصديق. كان كهنة آمون والملكة الطموحة «شركاء فى الخداع»، فالتقت مصالحهم وارتبطت. ولكن أين مصلحة مصر من كل ذلك؟^(١٤)

أما تهوتمس الثالث فأين هو؟ إن تصاوير الديبر البحرى لم تهمله. ففى إطار ما يعتقد أنه سيصبح موكباً إحتفالياً رسمياً، نراه مرتدياً التاج الأزرق ويرافق مركب آمون ويطلق البخور فى اتجاهه وتسير حتشپسوت فى أعقابه، وتضع الپشت على رأسها وتمسك بيدها العصا الكبيرة، رمز القيادة الأمرة.

ومن المرجح أن رحلة بونت هذه، كانت روتينية، شبيهة برحلات أخرى تم تنظيمها من قبل. ولكن كهنة وحرفيين طيبة عملوا على تعظيم هذه الرحلة تمهيداً، وتمجيدها من خلال رواية حماسية، قصد تخليدها من خلال نقوش أية فى الجمال ونص مسهب، تمجيداً للملكة الساعية إلى الشرعية.

الحملة إلى محاجر أسوان

كانت المسافة التى قطعتها هذه الحملة أقل بكثير من سابقتها وإن تم إبرازها أيضاً والتأكيد على قيمتها.

(*) ألا يقوم هذا الحكم على مفارقة تاريخية؟ (المترجم)

ففى العام ١٥، وهو عام الإحتفال بيوبيلها، قامت حتشپسوت بإرسال سن موت- إلا إذا كان خليفته أمنحوتب - على رأس عدد من السفن بحثًا عن كتلة واحدة من الجرانيت فى محاجر جزيرة سهيل قرب أسوان لاستخدامها فى تشكيل مسلتين. وثُرى هذه الأحداث على الجدار الغربى من الصَّفَّة الأولى من معبد اللير البحرى.

فقد ألهمت ذات يوم وهى مستكنة فى القصر بتفاصيل العملية:

كنت قد خلدت إلى الراحة فى القصر وتذكرت من خلقنى. عندئذ أمرنى قلبى بأن أقيم من أجله مسلتين من الذهب الخالص قد يتداخل هُرميها (١٠) مع السماء (وقد تقامان) فى القاعة الجلية ذات الأساطين، بين الصرحين الكبيرين (الذين شيدهما) الملك، الثور القوى، ها خپر كارع (تحتوس الأول)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الحورس الصادق القول. عندئذ قادنى قلبى، ودفعنى إلى التفكير فى كلمات البشر الذين سيشاهدون معلمى الإنشائى بعد مرور سنوات وسنوات، ويتحدثون عما صنعته، فإياكم والتحدث قائلين:

«لا أدرى، لا أدرى حقًا، لما صنَّع ذلك، ليشكِّل حتى أقصى إرتفاعه تلاً من الذهب وكأنه شيء جاء على نحو طبيعى إلى الوجود».

إنى أقسم

وكما أن رع يُعزنى،

وكما أن أبى آمون يمتدحنى،

وكما أن أنفى يعود إليه الشباب فى الحياة والقوة،

وكما أننى أرتدى التاج الأبيض واتجلى متألقة بالتاج الأحمر،

وكما أن حورس وست وحدا حصتيهما من أجلى،

وكما أننى أدبر شئون البلاد مثل ابن إيزيس وقوية مثل ابن نوت (ست)،

وكما أن رع يغرب فى قارب المساء ويستقر فى قارب النهار استقراراً يقاوم

الزمن ويتحد بوالدتيه (١١) فى القارب الإلهى،

(*) هُرم المسلة هو قمتها المديبة. (الترجم)

(**) هكذا! مثلى والدة. (الترجم)

وكما أن السماء راسخة وثابت هو كل ما خلقته.

وكما أنتنى سابقى للزمن اللانهائى مثل نجم لا يفتنى، وأرقد فى الحياة مثل أتوم.

وكما أن هاتين المسلتين الشامختين اللتين صنعتهما جلاتى من الذهب الخالص، من أجل أبى آمون، حتى يظل اسمى مظلداً وراسخاً فى هذا المعبد للزمن الأبدى والزمن اللانهائى، فإن (هاتين المسلتين الشامختين) هما من كتلة واحدة من الجرانيت الصلب، دون رباط أو وصلة.

لقد أمرت جلاتى بالقيام بهذا العمل فى اليوم الأول، من الشهر الثانى، من فصل الإنبات، من العام الخامس عشر. (ليستمر العمل) حتى اليوم الأول، من الشهر الرابع، من فصل الجفاف، من العام السادس عشر، أو ما يعادل سبعة أشهر، منذ بدء (العمل) فى المهاجر (١٣٣مكدا).

إن نصاً آخر يعزو هذا الأمر إلى تحوتمس الأول:

إن أباك عاخير كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى هو الذى أصدر أوامره بإقامة هاتين المسلتين وسوف تقوم جلاتك بتجديد هذا المعلم المصرى (١٣٤).

تم نقل المسلتين من أسوان إلى الكرنك، فى بداية الأمر، من المهاجر وحتى شاطئ النيل فوق زحافات من خشب. ثم وضعنا على متن صندل طويل وربطنا بحبال متينة، عندئذ تحرك الصندل هابطاً نهر النيل تسحبه ثلاثون سفينة موزعة على ثلاثة صفوف، يضم كل صف منها عشر سفن. وربطت السفن بحبال مثبتة فى القلاع، إن تسعمئة وثلاثين مجدفاً وملاحاً بمعدل ثلاثين مجدفاً لكل سفينة - كانوا يعملون بفضل سواعدهم المفتولة على سير هذا الموكب الطويل. وعند شاطئ طيبة كان البشارة والمجنودون ينتظرون على رصيف المرفأ، وصول الحمولة الثقيلة لإنزالها إلى البر، وبالتزامن مع هذه الواقعة، كانت تقدم القرايين إلى الآلهة احتفالاً بوصول المسلتين، وذلك فى حضرة الكهنة وكبراء البلاط. كان الجميع يهللون تحية للملكة ولتحوتمس الثالث فى المقام الثانى.

وأمرت الملكة بإقامة المسلتين داخل قاعة الأساطين(*) التي شيدها تحوتمس الأول، فيما بين الصرح الرابع والصرح الخامس. إنه مكان غير مألوف لإقامة المسلات التي تنتصب في المعتاد، أمام صرح المعبد في حين أن المقصود من هذه القاعة أن تكون قاعة الإحتفال بتنصيب الملك أو بعيدة اليوبيلى. ومن جانب الملكة، ربما كان ذلك عبارة عن شهادة جديدة عن اهتمامها من جهة، بربط أعمالها الإنشائية بأعمال أبيها وهو ما أكدّه من قبل على ما يبدو، النص الذي سبق الإشارة إليه، كما أرادت من جهة أخرى، أن تؤكد على صفتها كملكة في قاعة مخصصة لإحتفالات التتويج. ولإدخال المسلتين في هذه القاعة الضيقة كان لابد في البداية من إحداث ثغرة في الجدار، وهدم أربعة أساطين في الشمال وأسطونين في الجنوب وفتح السقف ثم العمل على عبور المسلتين الصرح الرابع البالغ ثلاثة عشر متراً طولاً وأربعة أمتار عرضاً. إن هذا العمل الشديّد الصعوبة هو مفخرة يستحق عليها مهندسو طيبة المعماريون كل التقدير.

كان إرتفاع المسلة الشمالية التي ما زالت في مكانها ثلاثين متراً تقريباً. أما المسلة الجنوبية فهي محطمة، وتوجد بقاياها عند مدخل المعبد وقرب البحيرة المقدسة، وجزء آخر منها تحول إلى رحاية طاحونة، عثر عليه في أبو تيج بمحافظة أسيوط.

تؤكد المدونات أننا أمام معلمين صرحيين أقيما تمجيداً للملكة، وفقاً لأسلوب ينشد غزارة الصور والصفات تأكيداً على التطور الملحوظ الذي عرفته الأيديولوجية الملكية وهو ما سبق أن لاحظناه:

...ابنة أمون- رع القائمة في قلبه، المتفردة في نظره،

التي جاءت إلى الدنيا بجواره،

الصورة المتألقة لسيد الكون،

(*) وهي خلاف بهو الأساطين الذائعة الصيت الذي يقع في الوقت الراهن بين الصرح الثانى والصرح الثالث. (المترجم)

التي خلقت بلو(*) هليوبوليس كمالها،

التي استتُورت بالقطرين، على غرار الإله الذي خلق ذاته، بذاته وأتى بها إلى
الوجود لترتدى تيجانه،

التي جاء وجودها مثل وجود خپري(١٢٥)،

ذات الإشراقات الوضاعة مثل إشراقات إله الأفق،

إنها البيضة الطاهرة، والبذرة المتألقة التي غُثَّتْها الساحرتان العظيمتان والتي
أظهرها آمون ذاته على عرشه، في هليوبوليس الجنوب، واختارها لتسهر على مصر
وتحمي النبلاء والشعب.

إنها العورس المنتقم لأبيه،

إنها محبوبة ثور - أمه الذي أنجبه رع ليخلق من أجله «بذرة» نورانية على
الأرض ويؤمن ازدهار البشر.

إنها صورته الحية، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى(١٢٦).

• من أجل هيبة آمون

لقد أقامت معلماً صريحاً من أجل أنبيها آمون، رب عروش القطرين، الذي يقف
على رأس الكركك، فمن أجله شُيِّدت مسلتين شامختين من جرانيت الجنوب الصلد،
كان قسمهما العلوي من الذهب الخالص، ومن أفضل أنواع الصحارى، فيشاهدتهما
المرء من شاطئ النهر. إن أشعثتهما تفر القطرين، في حين يسطع بينهما القرص
(أتون) كما يتجلى من شرق السماء(١٢٧).

من أجل ذلك منحت الذهب الخالص بلا حدود. لقد كَيْلَتْه بمكيال، كما يُكَيْلُ
القمح، وأعلن جلالتي كميته برأى الأرضين المتحدتين. والآن يعرف ذلك، الجامل
والحكيم، على حدّ سواء(١٢٨).

(*) جمع با. والواو علامة الجمع. (المترجم)

• من أجل سيادة الكرنك وهيمته

أنا أعلم أن الكرنك هو أفق السماء وأكمة المرة الأولى والعين المقدسة لسيد الكون ومقر قلبه، فيحمل جماله وهو «غلاف» أولئك القائمين في معيته^(١٣٩).

في غبش القاعة تفرض المسلتان نقوشهما الملونة ولعان الذهب الذي يكفت قاعدتيهما، في حين ييزغ من الظلمة الهريمان المصنوعان من الذهب الخالص و«يختلطان بالسماء». إنها ترجمة في هيئة معلم صرحي للأيديولوجية المرتبطة بشكل المسلة: إنه الحجر المتميز المنبثق من ظلمات الخواء، ففوقه سطعت الشمس في اليوم الأول من أيام العالم.

٤- مبانٍ شامخة في مصر والنوبة

إن العديد من المباني الأخرى، تخلد عهد هتشيسوت على أرض مصر وفي الأراضي الإفريقية. إنها عبارة عن مباني جديدة أو معابد قديمة، تهدمت وأعيد ترميمها بفضل رعاية الملكة واهتمامها وجهد سن موت ومثابرتة. فقد عقدت العزم على أن تظل في خدمة الآلهة.

الدير البحري

عندما يمضي المرء مبتعداً عن نهر النيل الهادئ، ويتقدم غرباً عبر رمال الدير البحري الوردية، من الصعب عليه عند مشاهدة عظمة وشموخ «معبد ملايين السنين» الخاص بالملكة، ألا تهتز مشاعره. إن صعود الشرفات الثلاث والأحاديير عند سفح جبل الصحراء الغربية، صعوداً وثيداً، وتماثل الصُّفَات وتناظرها، ورشاقة الأساطين، بالإضافة إلى التوازن الرائع للكتل الشامخة وما تضيفه على هذه المجموعة من انطباع غريب بالركة والسلاسة، وبياض الحجر الجيري الساطع تحت أشعة الشمس، نجد أن هذه العناصر مجتمعة تجعل من وجود الملكة ذات البشرة الذهبية وجوداً فعلياً، حقاً إن هذا المعبد هو جسر جُسرٍ أى «أروع الروائع». لقد عرف سن

موت كيف يصوغ مجموعة معمارية تتألف خطوطها وأحجامها وألوانها طبقاً لنسب توافقية تصل إلى حدّ الكمال: إن الخط الرأسى الصاعد الممتد عبر الأحادير والشرفات المتدرجة، يقابله الخط الأفقى العريض للصفات فيُحدث توازناً رائعاً، بينما يُشكل الحجر الجيرى الأبيض ببريقه الذهبى وحدة متناغمة، لا يكاد يخلّ بها سوى بابين من الجرانيت الوردى.

لقد حُفر نصف المعبد فقط، ومنه قدس الأقداس، فى صخر الجبل.

لم يكن سن موت مبدعاً بالكامل فى كل ما صمّمه. فإلى الجنوب قليلاً كان مونتقوتى الأول^(١٢٠) قد شيد معبده الجنائزى وكان تخطيطه قريب الشبه بمعبد الدير البحرى إلى حد كبير، من حيث مراعاته الموقع الطبيعى ببراعة ومهارة.

وعند الحد الفاصل بين الأرض المنزرعة والصحراء كان سن موت، قد شيد فى الأصل معبد الإستقبال الذى كشف عنه كارتر Carter وكارنارفون Carnarvon عام ١٩١٠، ولكنه كان مهدماً إلى حدّ كبير.

من هنا كان يبدأ طريق صاعد يسير فى الإتجاه شرق-غرب، نحو معبد حتشيسوت. كانت تحفّه تماثيل أبو الهول ويفضى إلى فناء فسيح بعد أن يكون على ما يعتقد قد اجتاز صرحاً. وفى الأصل كان هذا الفناء محاطاً بأسوار تحطمت فى الوقت الراهن. وكان يضم حوضين على شكل حرف T تنمو فيهما نباتات البردى والزهور وتحيط بهما الحدائق. وحاولت حتشيسوت أن تُؤقلم فيه أشجار البخور التى جلبتها من بلاد بونت.

يتكون المبنى الشامخ ذاته من ثلاث شرفات متدرجة ترتبط فيما بينها بواسطة أحدهور صاعد يخرق محور المعبد.

كانت الشرفة الأولى أو الفناء الأدنى تكتنفه، أسوار منخفضة وعريضة تنتهى عند الغرب بصُفّة مزدوجة ذات صفّى أساطين وتستند إلى الجدار الذى يحمل الشرفة الثانية وينقطع امتدادها عند الوسط لعبور الأحدهور الصاعد. كان كل جناح من جناحي الصُفّة يضم صفّى أساطين يتكون الأول من أحد عشر عموداً واجهته الأمامية مسطحة وواجهته الخلفية مستكبرة ومقنّاة. ويضم الصف الثانى أحد عشر أسطواناً،

يتكون كل أسطون من ستة عشر ضلعاً، أطلق عليها شيموايون الأساطين البروتودورية Protodoriques، إذ كانت في نظره قريبة الشبه من الأساطين الكلاسيكية اليونانية. ترى هل كان سن موت مصدر إلهام المهندسين اليونانيين؟ وعند كل طرف من طرفي الصفة كان ينتصب تمثال أوزيرى عملاق للملكة. ولم يتبق في مكانه، في الوقت الراهن، سوى التمثال الشمالي. إن نقوشاً موزعة على عدد من الصفوف تزخرف الجدار الخلفي من الصفة: فصورّت في الجنوب عملية إقامة المسلتين القادمتين من أسوان، أما في الشمال، فصوّرت مشاهد الصيد البري والصيد النهري، كما صورت الملكة في هيئة أسد منتصر على أعدائها، عملاً بالأيقونوغرافيا الشعرانية التقليدية.

كما كانت تكتنف الشرفة الثانية، من جهة الغرب، صفة مزدوجة ينقطع امتدادها عند الوسط لعبور أحدها، وتتقدم الجدار الذي يحمل الشرفة الثالثة. تتكون هذه الصفة من صفين من اثنين وعشرين عموداً مربعاً. كان يحف الشرفة من الناحية الشمالية صفة أخرى غير مكتملة تضم خمسة عشر أسطوناً من الطراز البروتودوري ذي الستة عشر ضلعاً وتفضى إلى أربع كوات غير مزخرفة. ينتهي امتداد الصفة الغربية ناحية الشمال وناحية الجنوب، بأعمدة مقصورتين محفورتين في صخر الجبل ويسقف مقبب، مقصورة الشمال مكرسة للإله أنوبيس وتتكون من بهو أساطين والسقف باللون الأزرق المرصع بالنجوم الصفراء ويرفعه اثنا عشر أسطوناً من الطراز البروتودوري، وعلى الجدران تصور النقوش حمشيسوت وتهوتمس الثالث، وهما يقدمان القرايين للآلهة. وبعد هذه القاعة تتعاقب ثلاثة مقاهير، أما مقصورة الجنوب فمكرسة للإلهة حتحور، وهي محفورة في الصخر وتضم بهو أساطين بروتودورية وتيجان حتحورية للمقصورة الأولى التي تتقدم سلسلة من الحجرات المحفورة في صخر الجبل. وقد حفرت كل واحدة منها عند مستوى أعلى من الأخرى وتتصل فيما بينها بواسطة درجات، فعلى جدار المؤخرة من الصفة الغربية نقشّت جهة الشمال مشاهد ونصوص الولادة الإلهية. أما رحلة بهوت فقد نقشّت في الجهة الجنوبية.

وتتكون صفة الشرفة العليا من ستة وعشرين عموداً أوزيرياً للملكة. إن باباً من الجرانيت يفضى إلى الفناء الداخلي الذي يبلغ أربعين متراً عرضاً وستة وعشرين متراً عمقاً. وربما كان يشكل في الأصل بهو أساطين يضم مئة وثمانية أساطين ذات

سنة عشر ضلعاً لكل أسطون. وتقوم في الوقت الراهن(*) بعثة مصرية بولندية بإعادة تشكيل صفوف الأساطين. ويعتبر هذا البهو تنويجاً حقيقياً للشرفة الثالثة وتكتنفها من جهة الشمال مقصورة شمسية غير مسقوفة. أما من ناحية الجنوب فتوجد مقصورة جنازية مقبأة مكرسة للملكة ولوالدها تحتمس الأول. وجدارها الخلفي، وهو الجدار الغربي، يزدان بباب وهمي. ويعتقد أن هذه المقصورة كانت تستخدم في إقامة الشعائر الجنازية الملكية.

ووفقاً لمجموعة علاقات أيديولوجية تتوافق نسبها بحصافة وتتوازن توازناً يعادل العلاقات القائمة بين مختلف العناصر المعمارية، يتشابك موضوعا الحياة والموت ويتداخلان، باعتبار أن الوفاة ليست سوى لحظة يمكن قهرها وتجاوزها تجاوزاً سحرياً. وعلى جانبي الشرفة الثانية نجد أن الإله الجنازي أنوبيس المشارك النشط في بعث المتوفى وعودته إلى الحياة، كان محل توقير وتكريم في الجهة الشمالية. أما حتمور الإله السماوية والمرضة واهبة الحياة، فكانت تعبد في الجهة الجنوبية. وعلى جانبي الشرفة الثالثة كانت تقام الشعائر الشمسية من أجل الإله حور أختي في الجهة الشمالية، أما في الجهة الجنوبية فتقام الشعائر الجنازية من أجل الملوك. إن الانسجام القائم بين مختلف المواضيع على قدر كبير من التطور. إن عناصر معبد الدير البحري من حيث موقعها واتجاهها، تتوفر فيها أبعاد منظومة نجمت عن تبادل الأفكار وإعمال الذهن، سواء من حيث التوازن القائم بين كتله أو التوافقات الروحانية السامية.

تتداخل مع ما سبق، كبرى الرموز المصرية المرتبطة بالحياة المتجددة على النوام: وهي الحدائق والزهور والأشجار في الشرفة الأولى، والأسود التي تحمي الطريق الصاعد إلى مدخل الشرفة الأولى، والثعابين التي تلتف على نفسها، على امتداد حاجزى الطريق الصاعد إلى الشرفة العليا. كل هذه العناصر هي رموز واستدعاء سحري للحياة. فقد كان المصريون مولعين ولعاً شديداً بالنظام والإعتدال والتوازن والسحر، معاً وفي آن واحد.

(*) صدر الأصل الفرنسي من هذا الكتاب عام ١٩٨٦. (المترجم)

ومن وسط الجدار الغربى، من معبد ملايين السنين هذا، نصل إلى القسم المخصص لقدس الأقداس الذى ندخل إليه عبر باب ثانٍ من الجرانيت الوردى. كان يتكوّن من ثلاث حجرات متلاحقة على التوالى، تضم على جانبيها عدداً من الكوات لحفظ كل ما هو ضرورى لإقامة الشعائر.

كانت تقام الطقوس الدينية فى البير البحرى من أجل الملكة وأبيها تحوتمس الأول وإله آمون - رع ومن أجل أنوبيس وحتحور وحور أختى، فى المقاصير الملحقة.

وتعبّر الآلهة عن الإعتراف بالجميل:

كلمات قالها آمون - رع، رب عروش القطرين الواقف على رأس «أروع

الروائع»:

«مرحباً، مرحباً فى سلام، أيا ابنتى التى من صلبى، يا محبوبتى ماعت كارع، فى هذا المعبد الطاهر، المزدهر ببركاته وخيراته الذى شيدته فى المكان النورانى، (مكان) المرة الأولى. إن قلبى سعيد، إلى أبعد الحدود. وأتجلى متألّفاً عندما أشاهد جمالك، بينما تمسكين الجداف، وتقدمين الماء الرطب، أنت يا صاحبة اليدين الطاهرتين... الإبنة المباركة الخيرة لأبيها، وريثة من أنجبها. ليتك تمتلكين هذا الميراث لملايين السنين!... إن اسمى هو الذى يتقدم اسم التاسوع الإلهى، إن اسمك هو الذى سيقدم اسم الأحياء، مثل رع للزمن اللانهائى^(١٣١)».

الكرنك

أما فى الكرنك فقد أمرت حتشپسوت بإقامة مقصورة لاستراحة مركب آمون عندما كان يشارك من خلال تمثاله فى المواكب الإحتفالية. ونطلق عليها إصطلاحاً المقصورة الحمراء^(١٣٢)، بالنظر إلى لون الحجر الذى شُيدت منه، وهو حجر الكوارتزيت الوردى، الذى يميل لونه أحياناً إلى الأحمر الطوبى ويُجلب من منطقة الجبل الأحمر شرق مصر الجديدة. وقد استطاع هنرى شيفرييه Henri Chevrier أن يجمّع أجزاء هذا البناء الصرحى، لأن خلفاء حتشپسوت قد أعادوا استخدام أحجارها فى منشأتهم ونذكر منهم فى المقام الأول أمنحوتب الثالث الذى استخدمها

فى أساسات الصرح الثالث. وتم الكشف عن كتله الأولى والتعرف عليها، من قبل ليجران Legrain فى الرابع من يناير ١٨٩٩، عند الزاوية الشمالية الشرقية من هذا الصرح. وعثر على كتل أخرى موزعة داخل مباني لاحقة فى الكرنك، كالمر الذى يربط الصرح الثالث بالصرح الرابع ومعبد پتاح وغير ذلك...

ربما كان هذا الأثر الجميل قائماً فى الأصل أمام مقصورة قدس الأقداس الرئيسية أو أمام مسلتى تحوتمس الأول^(١٣٣). وقد نقش على مشاهد طقسية تنصدها حتشپسوت: منها مشاهد إعتلاء الملكة العرش وتتويجها، كما لاحظنا من قبل^(١٣٤)، ومشاهد تقديم القرابين والتعبد وشعائر تأسيس المعبد ومواكب الأعياد الإحتفالية. كما صور تحوتمس الثالث أحياناً، وإن كان يحتل المكانة الثانية^(*).

وعلى المحور الشمالى الجنوبى من المعبد الكبير، أمرت الملكة ببناء الصرح الثامن من الحجر الرملى. ومن المحتمل من جانب آخر، أن تشييد هذا الصرح كان قد بدأ فى عهد تحوتمس الثانى، إذ أقيم تماثلان عملاقان لهذا الملك عند واجهته الجنوبية.

فى مصر، بعيداً عن الكرنك

وبعيداً عن الكرنك، وفى مصر تحديداً، أمرت حتشپسوت فيما بين العامين الخامس والسادس، بإقامة مقصورة من الحجر الرملى ومسلتين فى جزيرة إلفنتين، كُرسَتْ جميعها لثالوث المحلى: خنوم وساتيس وأنوكيس.

وفى هرموبوليس، حيث كان يعبد الإله تحوت والالهة الثمانية الآخرون من شعابين وضفادع التى خلقت العالم، أمرت ببناء معبد من الحجر الجيرى الأبيض وأعدت تنظيم شعائر العبادة:

(*) يمكن مشاهدة هذه المقصورة فى الوقت الراهن فى المتحف المفتوح بمعبد الكرنك بعد أن تم تجميع ما عثر عليه من أحجارها وإعادة بنائها فى فترة التسعينات من القرن الماضى، بمعرفة المركز الفرنسى المصرى بالكرنك، تحت إشراف المهندس الفرنسى لاروشيه Laroche. (الترجم)

تحوت العظيم سليل رع... لقد صنعت من أجله مذبحاً من الفضة والذهب، فضلاً عن صناديق لحفظ الأقمشة وشتى أنواع الأدوات، من أجل محل إقامته. (إن الكاهن) الذى يدخل وجهاً لوجه (مع الإله) والذى يقود التاسوع الإلهى بأكمله فى موكب إحتفالى كان يجهل مهمته. كان المكان يفتقر إلى الشخص الكفء. كانت رؤوس الآباء الإلهيين خاوية... عندئذ شيدت معبده الكبير من الحجر الأبيض الوارد من طرة وكانت أبوابه من البستر حثوب والمصاريع من النحاس والنقوش من الذهب الخالص، ورائعة (كانت صور) صاحب الريشتين العاليتين. وجعلت جلالة هذا الإله يشرق متألّفاً فى أعياده فى هيئة نهب كاو^(٥). وأقامت من جديد الإحتفال بعيد تحوت^(١٢٥).

وصلنا هذا النص من المدونة الكبيرة التى أمرت حثشبسوت بنحتها فوق باب مدخل المعبد المحفور فى الصخر التى أشرفت على إقامته إكراماً للإلهة پاخت^(٥٥) على مقربة من بنى حسن فى مصر الوسطى. أطلق الإغريق على هذا المعبد الكهف اسم سپوس أرتميدوس Speos Artemidos، وعرفه العرب تحت اسم إسطبيل عنتر. أما المصريون فقد أسموه «البيت الإلهى فى الوادى». لقد أقيم فى العام العاشر، بالنظر إلى ورود إشارات إلى حملة بونت.

إن جزءاً كبيراً من الصفة التى تتكون من صفين من الأعمدة المربعة مدمر. وما زال ممر ضيق طوله ثلاثة أمتار يفضى إلى القسم الخاص بقدس الأقداس. وفى مؤخرته كوة كانت تضم على ما يعتقد التمثال الإلهى:

كانت پاخت العظيمة تحوم فى الوديان عند الشرق. إن الطرق التى عصفت بها الأمطار قد تعطلت. وتوقف التطهر بالماء. عندئذ أعمدتُ بناء معبدها من جديد بأن حفرته (فى صخر الجبل)... من أجلها ومن أجل تاسوعها. كانت مصاريع (الأبواب)

(*) شعبان يمنّ بالنعم ويوجد بالخيرات. معنى اسمه «ذاك الذى يمدّ الحكامات بالمؤمن». لمزيد من التفاصيل، راجع: إيزابيل فوانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. ص ٢٩٢-٢٩٣. (المترجم)

(**) إلهة أسدة أو قطة واهبة الأمطار الغزيرة. (المؤلفة)

من السنط ومكفتة بالنحاس و... كان من الذهب الخالص. ومن جديد استعاد الكهنة نور الأبدى الطاهرة وظائفهم (١٣٦).

وعلى امتداد وادي النيل واصلت الملكة أعمال ترميم المباني الشامخة التي خربها الهكسوس، تحديداً:

أقيمت مذابح النار وتعاطمت مساحات المقاصير وهي المقار المحببة إلى جميع الآلهة، (واستعاد) كل إله المعبد الذي كان مُغرماً به، فيستريح كؤُوه على عروشه... لقد أقيمت حجرة سرية داخل (كل) معبد، بعيداً عن المكان الذي تطأه الأقدام. لقد سُكِّل جسد كل إله من الذهب الخالص الوارد من بلاد عامو، وتم تأمين إقامة أعياده منذ افتتاح (المعبد)، وفي الفصل المحدد لها، مع الإلتزام بالقاعدة التي وضعتها. لقد أعدت العمل بالتقاليد والأعراف التي سبق تحديدها منذ الأزمنة السحيقة. إن فكرى الإلهي يستشرف المستقبل وقلبي الملكي يبشر بالزمن الأبدى (١٣٧).

اسمعوا إذن، أنتم جميعاً، يا أيها الأشراف ويا عامة الناس، مهما كانت أعدادكم. لقد أنجزت كل ذلك بدافع من قلبي... فما كان خرباً صار مزدهراً. وقومت ما كان قد تقوّض، منذ زمن إقامة الأسىويين في قلب الدلتا، في أواريس، بينما كان البدو بين ظهرائهم يدمرون ما كان قد شُيِّد. أرادوا أن يحكموا ويتسيدوا، وهم يجهلون رح.

كان سلوك البشر قد توقف عن الإلتزام بما أمر به الله إلى (حين قدوم) جلالتي. عندئذ تريبعت بشبات على عروش رح، فوُعدت بسنوات لا حدود لها، عندما تسلمت مقاليد السلطة. لقد أقيمت بصفتي حورساً متفرداً مثل لهب يحرق أعدائي. وطردت ما كان مقيتاً في نظر الله العظيم. عندئذ ذهبت الأرض بنعالهم (أي نعال الهكسوس). تلك هي قاعدة أبي أبائي الذين ظهر كل منهم في زمنه. فلن يخالف أحد أوامري وقائمة ألقابى راسخة رسوخ الجبال. وعندما يتألق القرص الشمسى (أتون)، فإنه يبسط أشعته عليها (على القائمة). شامخ هو هورسى فوق السرخ، للزمن اللانهائى (١٣٨).

ما تقدم هو تعريف موغل في المصرية للنظام الملكى. فهل نهبت حتشپسوت إلى الظن بأنها طربت الهكسوس؟ هذا ما قد يستتجه الفكر العقلانى فى أيامنا هذه، الشديدي الإلتصاق بالمعنى الحرفى للنصوص. أما بالنسبة للمصريين، فإن عهد كل فرعون من الفراعنة، هو فى حد ذاته مجمل التاريخ، الموزع على سنوات عهده الشخصى. ومع تنصيب كل ملك من الملوك، وبالتزامن مع تسلمه التيجان والصوالج^(*)، فإنه يستأثر لحسابه بأعمال أسلافه. وإذا صح التعبير، فإنه يأخذها على عاتقه لتصبح من منجزاته. فلا وجود للملوك كفراد، ولكن لذرية شرعية واحدة، يمثلها كل ملك على امتداد سنوات حياته على الأرض. ولا يقصد بذلك الفرعون بمعناه المجرد، بل الفرعون الدائم الوجود، إلى أبد الآباد، قد تختلف وجوهه وأسماءه، ولكنه يظل بعيداً عن الزمن بفصوله ومختلف مواسمه. إنه الصورة الحية للعاهل الملكى. فيستمد النظام الملكى المصرى معظم مقوماته من فكرة، ومن عمل يتواصل عبر الزمان، أكثر مما يتجسد فى فرد. ويتولد تناغم هذا التاريخ الفريد وتناسقه فى المقام الأول من الألفاظ والسحر المؤثر والكلمة التى تخلق الرباط الذى لا غنى عنه، للتألف المتواصل للنظام الملكى.

ولذلك وكما ظهرت ثغرة فى هذه السلالة السليمة، سوف يتم ملاحقة ذكرى هذا المقتصب الباغى مثل حتشپسوت أو محطّم التقاليد المتواترة مثل أمنمحاتب الرابع. لذا كان لابد من تدمير اسميهما كعنصر من عناصر الحياة، ليسقط فى طى النسيان. كانت حتشپسوت تعرف ذلك حق المعرفة، عندما سعت بشتى الطرق إلى الارتباط بملوك مصر وتتابعهم، فى محاولة منها لتربير تربيعها على عرش البلاد. ويفضل النصوص التى أمرت بنقشها تحقيقاً لهذا الغرض، فإننا نقف بطريقة أفضل على أبعاد التصور المتسامى للنظام الملكى فى نظر المصريين فيستجيب، فى واقع الأمر للقواعد نفسها التى تعرف عالم الآلهة: شدة الاهتمام بالحقيقة والعدالة واحترامهما وحماية البشر والحفاظ على نظام العالم. فمنذ أمد بعيد، وعلى الدوام، ظل الملوك والآلهة مرتبطين ارتباطاً لصيقاً، سواء فى الاحتياجات اليومية أو فى

(*) جمع صولجان. المعجم الوسيط. (المترجم)

ضرورة تأمين التوازن الكونى. إن نصاً آخر فى سبوس أرتميدوس بالغ الدلالة. فتقول
حتشيسوت عند حديثها عن آمون:

إنى أرتقى بالحقيقة والعدالة اللتين يحبهما، لأننى أعرف أنه يحيا بفضلهما.
ولذا فهو خبزى أنا أيضاً، وارتوى من أندائه. وفى الحقيقة فلنا وهو جسد واحد. لقد
انجبني لأنشر قوته وهيبته فى هذا البلد، فلنا سيد كافة الملوك^(١٣٩).

لا شك أن حتشيسوت كانت شديدة الذكاء، أو أن كهنة آمون كانوا يعملون من
أجلها... لصالحهم؟

فى النوبة

كما سعت حتشيسوت إلى تأكيد وجودها فى أراضى الجنوب أيضاً.

وفى موقع بوهن على بعد خمسة كيلومترات جنوب وادى حلفا، وقد غمرت مياه
بعميرة ناهصر هذا الموقع فى الوقت الراهن، وعند ملتقى ولوات وبلاد كوش، كان
سنوسرت الأول قد أقام فى زمن سابق معبداً مكرساً للإله حورس فى بوهن. ومن
المحتمل أن تحوتمس الثانى كان قد شرع فى إقامة معبد آخر، إلى الجنوب قليلاً، وإن
كان يعتبر من انجاز حتشيسوت فى معظمه. لقد شُيد من الحجر الجبرى والحجر
الرملى وقُطعت أحجاره وسُويت بدقة فائقة. كان يتكون من بهو أساطين تحمل سقفه
ثلاثة صفوف من ستة أساطين، يليه القسم الخاص بقدس الأقداس، المقسم إلى خمس
حجرات وتكتنفه من الجانبين صفة مكونة من أساطين ذات أربعة وعشرين ضلعاً. كان
يحيط بالمعبد سور من الطوب. ومن هذه المجموعة كلها التى سيواصل تحوتمس
الثالث زخرفتها، لا يتبقى سوى بعض المداميك.

والى الشمال قليلاً عند موقع إبريم أمرت حتشيسوت بإقامة مقصورة محفورة
فى صخر الجبل على البر الشرقى من النهر. وقد فعل خلفاؤها الشيء نفسه. وكافة
هذه المقاصير التى أقامها تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى ورعمسيس الثانى، تتميز
بتمثال رسمها التخطيطى وبساطتها: فتكون الواجهة عند مستوى سفح التل من باب

ضيق يعلوه ساكف منحوت وتحدّه دعامتان تحمل بعض المدونات باستثناء مقصورة حتشپسوت، ثم يدخل الزائر إلى حجرة صغيرة إلى حدّ ما، محفورة في الصخر ومفتوحة في الجهة الغربية وتطلّ على النهر. وهي مستطيلة الشكل والجانب الأطول عمودي على المدخل وسقفها منخفض ومن المحتمل أنه كان ملوناً. وجدار الخلفية وهو الشرقي تشغله كوة تضم تماثيل تواجه المدخل^(١٤٠). وعلى الجدران نُقشت النصوص والمشاهد. هذه المقاصير قريبة الشبه من حيث تخطيطها وتشبيدها من مقابر جبل السلسلة التذكارية. والمقصورة التي أقامتها حتشپسوت مكرسة لكل من حورس وساتيس جزيرة الفنتين.

كما أمرت الملكة بإقامة مسلة صغيرة من الجرانيت في إبيريم.

مقبرتنا حتشپسوت^(١٤١)

أمرت الملكة بتشبيد مقبرتها الأولى في منحدر صخري يشرف على الوادي الغربي^(*) القائم بين وادي الملوك ووادي الملكات، وسوف يدفن فيه في زمن لاحق أمعنوت الثالث وأى. إنه أحد الوديان الصعراوية بالبر الغربي لمدينة طيبة. وتوصل كارتر Carter وماسيه Maco عام ١٩٠٣ إلى الكشف عن المقبرة. كانت محفورة على مسافة ٤٠ متراً من أعلى الجرف الصخري وعلى ارتفاع ٦٧ متراً من الوادي. ولأنها تتجه مباشرة ناحية الغرب، كانت أشعة الشمس القارية تدخل مباشرة في ممرّ المقبرة عند الاعتدال الخريفي^(**). كان منمطف يفضى بعد ذلك إلى القسم الأوزيري من المقبرة. وأخيراً كان ممر ثانٍ يؤدي إلى حجرة الدفن التي وضع فيها التابوت الأول المعدّ للملكة وهو من الكوارتزيت الأصفر. بل وشرع الحرفيون ينقشون مقتطفات من

(*) ونصل إليه من الطريق نفسه الذي يؤدي إلى وادي الملوك الرئيسي، ولكن يتفرع منه طريق آخر يقود الزائر إلى الوادي الغربي وقبل حوالي ٤٠٠ متر من وصوله إلى الوادي الرئيسي. (المترجم)

(**) أي عند تسامت الشمس على خط الاستواء أو يوم ٢٣ سبتمبر تقريباً. وهي ظاهرة مشابهة لما يحدث في معبد أبو سمبل الكبير، وإن في تاريخ لاحق. (المترجم)

كتاب الموتى. ثم هُجر كل شيء وترك في مكانه. وظلت المقبرة ناقصة لم تكتمل. وفي زمن لاحق سطى عليها اللصوص ونهبوها بأن تدلوا بواسطة حبل من أعلى الجرف الصخري، ولم يتبق سوى التابوت الذي تم انزاله بصعوبة بالغة إلى قاع الوهدة وهو من مقتنيات متحف القاهرة^(*) في الوقت الراهن.

واعتباراً من العام السابع، بدأ تشييد مقبرة ثانية وهي مقبرة ملكية. ووقع الاختيار على مكان في الوادي الذي كان يرقد فيه تحوتمس الأول ويقع على الجانب الآخر من الجرف الصخري^(**) الذي كان يستند إليه معبد الملكة الجنائزي. وأشرف هيوسنب على تشييد المقبرة التي استمر العمل فيها حتى العام ١٦، وحفرت في عمق صخر الجبل وتضم ممرات يبلغ طولها ١٥. ٢١٣ م. وتقع حجرة الدفن على عمق ٩٧ م ولا تضم أبار. ويعتقد هايز Hayes أن التخطيط الأولي كان يفترض وجود وسيلة اتصال بالمعبد^(١٤٢). وقد وضع في الحجرة تابوت الملكة المصري، ولكن سرعان ما تحول ليسجى فيه جثمان والدها تحوتمس الأول. لماذا هذا الاستبدال؟ لا ندري. فلم يُعَدَّ على مقبرة الملك ولم تقع فيها أعمال سلب ونهب. ولكن هذا الانتقال تم على جناح السرعة؛ بل إن التعديل الذي أدخل على التابوت الحجري جرى بطريقة خرقاء يعوزها الحذق والمهارة. كان تابوتا الملك الخشبيان كبيران ويصعب إدخالهما في التابوت الحجري. فتركا في مكانهما ووضعت المومياة مباشرة في التابوت المصري. وأعدَّ تابوت ثالث للملكة. هكذا ليرقد الأب وابنته، جنباً إلى جنب.

تعتبر هذه الواقعة بمثابة تبرير أخير من جانب الملكة، لما حدث في حياتها وإن جاء بعد وفاتها.

لا نعرف على وجه التحديد ظروف وفاة حتشپسوت، بعد أن اغتصبت عرش مصر، لمدة ستة عشر عاماً.

(*) في صحن الطابق الأرضي. (المترجم)

(**) هذا الجرف الصخري يفصل وادي الملوك عن النهر البحري ويحلو لبعض الهواء أن يتسلقوه

العبور من النهر البحري إلى وادي الملوك أو العكس. (المترجم)

الفصل الخامس

خوتمس الثالث

أو المجد الإمبراطوري

فى العام ٢٢، من «عهد»، أى عام ١٤٨٠ ق م تقريباً، تبوأ تحوتمس الثالث أخيراً بمفرده عرش مصر، ليحتفظ بعد ذلك بسلطاته لفترة ثلاثين سنة، ويصبح واحداً من ألمع ملوك تاريخ مصر وأكثرهم مهابة. وإذا تطّى بالشجاعة ونفاذ البصيرة، فسوف يبدأ بإعادة فتح الإمبراطورية الآسيوية التى كانت تحاصرها التهديدات من جراء انحسار نشاط حتشپسوت العسكرى، وأرسى القواعد الأساسية لإقامة الجهاز الإدارى الذى سيتولى الإشراف على مجمل البلدان الخاضعة لهيئنته وابتدع أيديولوجية إمبراطورية حقيقية وجديدة.

الإله الكامل، رب السعادة، سيد التجليات الوضّاءة الذى استحوذ على التاج الأبيض ووحدّ القوتين (الپشت)، حياة وقوة. إنه صورة رع وورث الإله الذى وهبه حكومة الشاطنين، وابن التاج الأبيض الذى أنجبه التاج الأحمر^(١)، والذى أقامت الساهرتان (الصلّان)، وبذرة أئوم المتألقة، وبيضة خبرى الفطنة، ومن أعيان ماعت، منذ أن كان فى بطن (أمه).

لقد مُنح الأسود والأحمر، كما أن مصر العليا ومصر السفلى فى قبضته. ومجده فى عنان السماء والتخوّف منه يفترق الأرض، والرعب الذى يثيره فى النفوس يجوب كل بلد من البلدان الأجنبية.

إنه ملك الملوك وأمير الأمراء والقرص الشمسى (أتون) لكافة البلدان،

إنه ابن رع: تحوتمس، صاحب الصيرورات الكاملة^(٢).

١- الملحمة البطولية:

حملات الفرعون السبع عشرة إلى آسيا

عندما وجد تحوتمس الثالث نفسه، سيد مصر الأوحده، كان الوضع فى الشمال خطيراً.

وبالفعل، فإذا كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل، قد هُزموا بقدر من السهولة، على ما يبدو، الأمراء الآسيويين، قلاتهم وجدوا أنفسهم يتعاملون على الدوام مع أعداء متفرقين لم يربطهم وفاق أو اتفاق. ولكن الممالك الهندوأوروبية الجديدة كانت قد زادت من قوتهم: ونذكر على وجه التحديد الميتاني الذى فرض سيادته على أعالي الفرات، فسعى بعد ذلك بالضرورة إلى التوسع حتى الشاطئ الشمالى من سوريا ليكتسب على هذا النحو، منافذ بحرية لا غنى عنها. كانت المنطقة الواقعة بين حلب وكركميش هى الطريق الطبيعى الذى يربط النهر العظيم بالبحر المتوسط، فمن استحوذ عليها فرض هيمنته المؤكدة على القسم الأمامى من آسيا الشمالية. وشأنها شأن سوريا، كانت هذه المنطقة مقسمة إلى عدد من المدن والإمارات. ويبدو إذن أن ملوك واشوجاني^(١) قد انتهزوا فرصة الضعف المؤقت الذى عانت منه مصر عندما كانت تحكمها ملكة لا تستطيع الخروج على رأس جيش لشن الحروب، فسعوا إلى تشكيل تحالف عريض معادٍ لها بقيادة أمير قادش من الناحية الرسمية. كانت قادش قلعة منيعة تقع على نهر العاصى فى سهل البقاع وسوف تظل حتى فى زمن رمسيس الثانى، مركز كل الحروب ضد مصر.

يُعيد تحوتمس الثالث إلى الأذهان هذه الأحداث على لوح حجرى نُقش فى العام ٤٥ من عهده، وأقيم فى جبل برقل. تقول المدونة:

لقد أناط (أمون - رع) بى حكم بلاد ويقتو، خلال الحملة الأولى. لقد تقدموا ليحاربوا جلالتى. كان الرجال بالملايين ويعشرات الآلاف، وزعماء كافة البلدان الأجنبية يمتطون جيادهم. كانوا ٢٣٠ أميراً ومع كل أمير من الأمراء جيشه^(٢).

(*) عاصمة الميتاني وهى تل الفخارية حالياً. (المترجم)

ولما كان تحوتمس الثالث ممرِكًا الخطر الذى يتهدده، قام بالحملة الأولى، منذ السنة الأولى من حكمه، وسوف يصل عدد هذه الحملات سبع عشرة، قادها الملك الشاب إذ كان عمره يناهز الثلاثين آنذاك. وقد تحلى برؤية سياسية وبراعة استراتيجية جديرتين بالملاحظة.

إننا نعرف هذه الحملات معرفة مؤكدة، على وجه التحديد، بفضل المدونة المسهبة التى أمر الملك المنتصر بنقشها على الجدارين الشمالى والغربى من الممر الملقب حول قدس أقداس معبد آمون- رع الكبير بالكرك. إنها عبارة عن ٢٢٥ سطرًا من النصوص يبلغ كل سطر ٢٥ مترًا طولًا. إنها أطول وأقدم رواية تاريخية، معروفة إلى يومنا هذا، ونطلق عليها إصطلاحًا *حوليات تحوتمس الثالث* ^(٥). احتاج الأمر من حرفى طيبة قدرًا كبيرًا من المهارة والصبر لإعداد هذا النص. ولكن بفضل مجهودهم هذا، كانوا ينجزون عملاً عظيمًا، ليس من الناحية المادية فحسب، بل من الناحية الروحية أيضاً، فكان مقدر له أن يخلد أمجاد مصر ويبقيها حية. كان الماضى فى نظر المصرى، وبمعنى آخر كان التاريخ، لا يتكون فقط من مجموعة وثائق تصنف فى المحفوظات، ولكنه يضم كبرى الروايات التى تعظم الأفعال والأحداث وتمجدها، من خلال الألفاظ، لتستعيد حياة فعلية، عندما يقرأ المرء هذا النص، ويفضل السحر الذى تنطوى عليه الكلمة.

قاد العمليات العسكرية ملكًا، فكان ضابطاً مرموقاً، استطاع إبان حملاته الأربع الأولى، أن يكسر شوكة تحالف الأمراء الآسيويين، فأحرز النصر فى معركة مجنّو وحافظ بعد ذلك على فتوحاته على أكمل وجه. وربما كانت الحملات الأربع التالية أهمها جميعاً، إذ أتاحت لمصر أن تصل إلى حدود نهر الفرات وتؤكد لمرتين متعاقبتين

(٥) يحتفظ متحف اللوفر بجزء من هذه المولىات وتروى وقائع ست حملات من الخامسة إلى العاشرة وارتفاعها خمسة أمتار تقريباً ويتجاوز عرضها المتر بقليل. وهى من مجموعة سالت Salt وحصل عليها المتحف عام ١٨٢٦ بناء على توصية من شامپوليون Champollion.

G. Andreu, M.-H. Rutschowskaya, Ch. Ziegler, L'Egypte Ancienne au Louvre, Hachette,

(المترجم) 1997, pp. 109-110.

سيطرتها التامة على الموانئ الفينيقية. كان الحملات اللاحقة مجرد قيمة شكلية غايتها تأمين الوجود المصري في آسيا. وجاءت الحملة السابع عشرة لتقرر بشكل قاطع في أعقاب عدد من المعارك، على تماسك الإمبراطورية برعاية الفرعون.

معركة الاستيلاء على مجتو والزحف نحو الشمال

من يرازا (مدينة في شمال غرب فلسطين) وحتى مستنقعات الأراض (الفرات) كان الجميع قد تمربوا ضد صاحب الجلالة^(٤).

ذهب تحوتمس الثالث لاستشارة أمون في معبده قبل أن يتجه ناحية الشمال: خرجت من معبد أبي أمون، ملك الآلهة الذي أمر بأن يكون النصر من نصيبى^(٥).

سيجرى العرف من الآن فصاعداً، استشارة إله طيبة قبل قيام كل حملة عسكرية. وفي عهد الرعامسة، سوف يستلمع پتاح إله منف أن يصدر أوامره بزحف القوات العسكرية أو يبلغ الملك برؤيا مطمئنة يراها في منامه.

تحرك الجيش في مطلع شهر يوليو. وبدأ الزحف الكبير للحملات الحربية وحاملى الأقواس والمشاة والجهاز الإدارى. سارت فرق التمرين فى أعقاب الجيش، أو بمعنى آخر قطعان الأبقار والماعز. إنه صف غاية فى الطول، كثير الضجيج والصخب يتقدمه الملك:

إن الملك ذاته، هو الذى يرشد جيشه على الطريق، إنه الباسل المقدام أمامه، وأشبه بومج لهب^(٦).

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الرابع، من فصل الإنبات (١٤ يوليو تقريباً)، من العام الثانى والعشرين من عهده، اجتاز صاحب الجلالة حصن ثارو (القنطرة)، إبان حملته الأولى المظفرة (التي شنها) لبحر المتمردين وطردهم وتوسيع حدود مصر فى بسالة وقوة وسلطان ونشوة النصر^(٧).

وفى التاسع عشر من يوليو تقريباً، وهو تاريخ رأس السنة المصرية المدنية، بدأ العام الثالث والعشرين من عهد الملك الشاب. وبعد انقضاء تسعة أيام على عبور الحدود وصل الجيش إلى غزة، ليرحل فى اليوم التالى، ويصل بعد أحد عشر يوماً إلى مدينة يحم الواقعة على بعد ١٧ كم تقريباً شمال غزة، ويعتقد أنها يما الحالية، عند السفح الجنوبى من جبال الخليل. بدأت سرعة تقدم الجيش تتباطأ، كلما ابتعد عن مصر، علماً بأنه لم يخض حتى الآن، أية معركة على ما يبدو. فقد كانت القوات المتحالفة تنتظر فرعون بعيداً إلى الشمال، ربما لإبعاده بقدر الإمكان عن قواعده. كان هدف تحوتمس الثالث موقع مجنؤ الحصين القائم عند منافذ ممرات جبال الخليل، شمال غرب فلسطين، حيث كان الأمراء الذين ناصبوه العداء قد تجمعوا.

عند هذه النقطة من تقدمه رأى فرعون من الضرورى إحاطة ضباطه علماً بحقيقة الموقف والتشاور معهم فى أفضل الطرق التى يجب أن يسلكها. كانت أمام الجيش ثلاثة طرق: الأول هو عبارة عن معر ضيق يتميز بإمكانية مفاجأة العدو ولكنه يتطلب مزيداً من الوقت لتجميع الجيش. أما الطريقان الآخران فكان يفضى الأول إلى الشمال من مجنؤ والآخر إلى الجنوب منها، ويفترض أن تتقدم القوات فى أرض مكشوفة، الأمر الذى قد يتيح للقوات المتحالفة إمكانية شن هجوم مفاجئ.

فى اليوم السادس عشر، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام الثالث والعشرين من عهده، وصل الجيش إلى مدينة يحم. وهناك أمر صاحب الجلالة بعقد مجلس حربى لجيشه المنتصر.

(يُوصف جيش فرعون على امتداد هذا النص بأنه جيش «متنصر» ويوصف أعداؤه بأنهم «أخساء». ولا يقصد بذلك لُغو ولغط بغير طائل، بل الفائدة المرجوة من القدرة الإبداعية للألفاظ والكلمات. هذا ليس حشواً أو كلاماً فى الهواء، بل هو بالأحرى سلوك ذهنى واع).

إنه يقول: «هذا العدو الخسيس من أبناء قناش، قد دخل إلى مجنؤ، إنه هنا فى هذه اللحظة، وقد جمع من حوله زعماء كافة البلدان الأجنبية الذين كانوا على صفحة ماء مصر (إنها استعارة نهريّة تؤكد على التبعية المتواصلة والوفاء والخضوع)

والنهارينا... والسوريين وأبناء قوها (كيليكية*) وجيادهم وجيوشهم وأقوامهم. بل إن
(هذا العدو الخسيس) قد قال: لقد نهضت لأحارب صاحب الجلالة، هنا فى مجنؤ.
فقولوا لى إنن مانا يدور فى خلدكم.

وينبرة مشوية بالحذر تحنث أفراد أركان حرب أرض المعركة معاً وبصوت
واحد قائلين:

كيف نسير عبر هذا الطريق الضيق؟ فيُروى أن العدو متواجد هناك، خارج
(قلعة مجنؤ) بأعداد لا حصر لها. ألا يقول الواقع (إننا إذا سلطنا هذا الممر) أن
الجواد سيضطر إلى السير فى إثر جواد (آخر) وبالمثل سيتقدم الجيش ومن معه من
رجال؟ فهل ستضطر مقدمتنا أن تحارب فى حين تظل مؤخرتنا متوقفة هنا فى عرونا
(وهى آخر محطة يتوقف عندها الجيش قبل مجنؤ عند منفذ الممر على بعد ستة أو
سبعة كليومترات من المكان) فلا تستطيع المشاركة فى المعركة؟ فى حين يوجد طريقان
(أخران).... ولكن فليتقدم سيدنا الجسور على الطريق الذى يبدو الأنسب إلى قلبه.
ليته يتصرف بحيث لا نضطر إلى السير فى هذا الطريق الصعب الوعر.

حمية الملك الشاب وبسالته:

أقسم، أن ما دام رع يحبنى، وما دام أبى آمون يكرمنى ويستعيد أنفى شبابيه
حياة وقوة، أقسم أن جلاتى سوف يتقدم عبر هذا الطريق (الضيق) المؤدى إلى
عارونا، فمن منكم يريد السير عبر هذين الطريقين اللذين تحدثتم عنهما فليذهب، ولكن
من منكم يريد أن يكون فى معية جلاتى فليتبمنى...

عندئذ قالوا فى حضرة الملك: «فليتصرف والدك آمون، رب عروش القطرين
القائم بالكرك وفقاً لرغبتك. أجل، سوف نبقى فى معية جلاتك، أيأ كان المكان الذى
ستتجه إليه، هكذا يتصرف الخادم فى إثر سيده».

عندئذ أصدر جلاته أوامره إلى الجيش بأسره: سوف يحمى سيدكم المقدام
خطاكم فى هذا الممر. انتبهوا! لقد أقسم جلاتى قائلاً: «إن أسمع لجيشى أن يخرج
من هذا المكان أمامى». كان العاهل الملكى قد عقد العزم فى قلبه، أن يتقدم على رأس

(*) جنوب شرقى الأناضول (الترجم)

جنوده. ونظّم كل شيء. بحيث يعرف كل فرد ترتيبه في هذه المسيرة، وجواد في إثر جواد، وكان صاحب الجلالة يتقدم الجيش^(٨).

قضى الجميع ثلاثة أيام في يحم. وعبروا المر في اليوم التاسع عشر، بعد رحيلهم من مصر. كان جنود المقدمة «قد ملؤوا بالفعل وهدة الوادي»، أمام مجنّو، بينما كانت تسعى المؤخرة إلى اللحاق بهم على مهل إنطلاقاً من عارونا.

ومع حلول المساء بدأت سهرة الإستعداد للمعركة، في ليل الصحراء الرطب.

عسكر صاحب الجلالة وصدرت الأوامر إلى الجيش بأسره: «استعدوا! اشحنوا أسلحتكم! فمع مطلع الفجر سوف نزهف لحاربة العدو الخسيس...» كان الملك يستريح في خيمته. وتم إمداد القادة بما يحتاجون إليه. وقُدّمت حصص أغذية للفرق الملازمة وتم نشر حراس الليل. عندئذ أخذوا يصيحون: «فليكن قلبكم ثابتاً! فليكن قلبكم ثابتاً! كونوا يقظين! كونوا يقظين!» كما كان الجميع ساهرين في خيمة صاحب الجلالة، وجاء من يقول لجلالته: «الصحراء هادئة وأيضاً مشاة الشمال ومشاة الجنوب^(٩)».

طوال سهرة الاستعداد للمعركة، ربما كان يدور بخلد الشاب تهوتمس، أن على شجاعته ورجاحة عقله، سوف يتوقف غداً مصير مصر.

وفي اليوم التالي، في اليوم الحادي والعشرين، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام الثالث والعشرين، من عهده (أي بعد يومين من الرحيل من يحم) وفي اليوم المحدد لعيد رؤية الهلال الجديد، نهض الملك مع تباشير الفجر، وصدرت الأوامر إلى الجيش بأسره بالانتشار^(١٠).

يبدو أن هذه الأوامر، كانت تقضى بتوزيع الجيش المصري إلى جنوب الحصن وشرقه، بل وربما إلى شماله، وحتى جانبه الشمالي الغربي^(١١). فقد نذهب إذن إلى القول، بأن قسماً من الجيش قد سلك على ما يظن أحد الطريقين العريضين، المؤدى إلى شمال القلعة. إنه سلوك حذر محسوب من جانب تهوتمس الثالث. هكذا كان العدو قد دُفع دفعاً إلى الممرات الجبلية لجبال الظليل مما اضطره إلى خوض المعركة وهو يواجه الشمس المشرقة.

ومع طلوع النهار، بدأ الاستعراض العظيم للأسلحة، وسط تطاير غبار الرمال والصراخ وصهيل الجياد. كان ذهب وفضة العجلات الحربية يتألقان على ضوء النهار. كان فرعون الشجاع أول من انقضَّ على العدو وهو في وسط المعركة، فالآلهة تؤازره. يتقدم صاحب الجلالة على متن مركبته المصنوعة من الذهب الخالص، وتزدان بعدة الحرب، مثل حورس صاحب الساعد القوي ورب القدرة، ومثل موتو مدينة طيبة، في حين يعضد آمون ساعده... وفي خضم المعركة تسرى قوة ست في مختلف أعضائه (١٧).

أما عن المعركة ذاتها، فالمؤرخ المتعطش إلى الوقائع يخرج خالي النفاذ، إن النص الذي يتسم بقيمة سحرية أكثر منها تاريخية، بالمعنى الحديث للكلمة، يشيد على الفور بانتصار الملك ويمجده دون إغفال لمسة فكاهية أحياناً:

عندئذ استحوذ صاحب الجلالة على الأعداء وهو على رأس جيشه، وعندما رأى هؤلاء أن صاحب الجلالة قد تأكد من تشديد قبضته عليهم، لأنوا بالفرار في اتجاه مجنؤ وقد تعثرت خطاهم وسقطوا على رؤوسهم والفزع يرتسم على وجوههم، لقد تركوا جيادهم ومركباتهم المصنوعة من الذهب والفضة. وتم سحبهم، ورمعوا على أسوار المدينة بشدهم من ملابسهم، لأن الجماهير كانت قد أغلقت أبوابها، بل تركوا أحياناً ملابسهم تتساقط لتسهيل رفعهم إلى أعلى السور. وأهلاً! لو أن جيش صاحب الجلالة «لم يشغل قلبه بالسلب والنهب»، لاستولى على مجنؤ على الفور! هكذا «سُحب» على جناح السرعة العدو قائلش الخسيس، وفي الوقت نفسه عدو مجنؤ الخسيس (أي الأمراء الممثلون للمدن)، لادخالهم إلى المدينة، لأن الفزع الذي يثيره صاحب الجلالة، تسرَّب إلى أبدانهم وظلت سواعدهم بلا قوة، كانت «نورانية» (الصل) الملك قد استحوذت عليهم.

عندئذ استولى جنود الملك على المركبات الحربية المصنوعة من الذهب والفضة، بعد أن أصبحت غنيمة لهم. وقتلوا المطروحين أرضاً الذين تناثروا هنا وهناك، وكانهم أسماك وقعت في سلة صيد. وبدأ الجيش المنتصر لصاحب الجلالة يُعد حصاراً بأمالك الأعداء. كما تم نهب خيمة هذا العدو الخسيس المكفنة بالفضة...

كان الجيش بأسره يطلق صيحات الفرح ويجزل من الدائع والتهاليل للإله
أمون بسبب النصر الذي وهب لابنه في ذلك اليوم. كان الجنود يكرّمون صاحب
الجلالة ويمتدحون قدراته. وقدموا له الفنائم التي جمعوها: من أيادٍ ومركبات من ذهب
وفضة وأشياء كثيرة رفيعة القيمة^(١٣).

يبدو أن هذه المعارك لم تكن شرسة. فقد ضُرب الحصار حول المكان، نون
مقاومة ظاهرة من جانب العدو. ومنذ أن قُهر للمرة الأولى، انصرف الجنود للهو
والفرح وأخذوا يسلبون وينهبون أرض المعركة. ولكن استطاع أمراء آسيا أن يلجؤوا
إلى القلعة الحصينة وإخراجهم منها، كان لابد من حصارها حصاراً مانعاً، استغرق
سبعة أشهر. وألقى تھوتمس الثالث في قواته خطبة عصماء ناشدهم فيها قائلاً:

إن جميع زعماء الشمال محتجزون الآن داخل هذا الموقع. فالاستيلاء على
مجنو يعني الإستيلاء على ألف مدينة. فاستولوا على المدينة بإقدام وبسالة!^(١٤)
بدء الحصار وترتيباته:

قدّروا طول وعرض المدينة التي أحيطت بخندق وسُورت بأشجار صغيرة تنتمي
إلى مختلف الخلاصات العطرية الطيبة. ووقف صاحب الجلالة ذاته فوق موقع محصن
شرقي المدينة، ساهراً عليها ليل نهار... (موقع) محاط بسور من تشييده... اسمه «من
خبر رع هو الذي حاصر الآسيويين». ووُزِعَ الرجال للسهر على خيمة صاحب الجلالة.
وقال لهم: «فليكن قلبكم ثابتاً! فليكن قلبكم ثابتاً! كونوا يقظين! كونوا يقظين!» ولم
يُسمح لكائن من كان منهم، أن ينتقل إلى الخارج، خلف هذا السور، إلا للقيام بأعمال
الحصاد عند باب الموقع الحصين^(١٥).

وعلى المسرح السابع بمعبد الكرنك، نشاهد صورة حية تعبيراً عن هذا السهر
الملكي. بالها من صورة تذكرنا بعصر لاحق، عصر الرعامسة:

جلس جلالتى أمام المدينة مثل أسد يتأهب للهجوم. كنت يخطأ ليل نهار، على
حدِّ سواه^(١٥مكد).

وعلى دعامة من دعامات معبد بوهن تم نحت النبا في الحال، مع تمجيد أبعاد
الانتصار وتعظيمه، لأن الكلمات تكتسب هنا قوة ردع لثني أبناء أراضى الجنوب عن

مجرد احتمال التفكير في التمرد:

تحتّمس هو: الملك الذي ينشط بسيفه. البطل الذي لا مثيل له، الذي يُجهز على الأجانب ويدوس بقدميه بلاد ريتنو ويقتاد زعمائهم أسرى أحياء ويستولى على مركباتهم المصنوعة من الذهب والفضة التي ما زالت جيادها مشدودة إليها.

وأبناء بلاد ثحثو ينحنون بسبب مجد صاحب الجلالة، وقد حُمّلت جزيّتهم على ظهورهم، ويمشون مشية الكلاب، حتى تُعطى لهم نسمة الحياة^(١٦).

إنه زهو وعُجب المنتصرين سواء كانوا من التهامسة أو الرعامسة.

إن نص لوح حجرى أقيم بمعبد يتّاح بالكركه، يعلّق على هذه الأحداث على النحو الآتى:

لقد منحنى أبى أمون كافة بلاد جاهى الأجنبية، بعد أن تجمّعوا واحتجزوا فى مدينة واحدة. عندئذٍ تسرّب إلى قلوبهم الخوف الذى أشيرده. كانوا يتساقطون وقد خارت قواهم بينما كنت أقترّب منهم. ومنّ ظل على قيد الحياة لم يستطع الهروب. لقد حاصرتهم فى مدينة واحدة. لقد شيدت أمامهم جداراً سميكاً حتى أحرمتهم من نسمة الحياة، بفضل أمجاد أبى أمون الذى يرشدنى إلى الطريق المستقيم ويفضل كافة النصائح المفيدة التى يفدّقها على^(١٧).

إن نص اللوح الحجرى المقام فى جبل برقل فى العام ٤٥، يقدم وصفاً لعملية الإستسلام التى تمت بعد سبعة أشهر بسبب المجاعة، فُكّر حيوية وأكثر طرافة من نص الهوايات الرسمى:

تساقطوا على وجوههم وانقلبوا، ثم ولجوا إلى داخل مجنّو. واحتجزهم جلالتى فيها لمدة سبعة أشهر. لم يكن فى استطاعتهم الخروج. عندئذٍ توسّلوا إلى جلالتى قائلين: «أعطنا النسومات، أيا سيدنا! فلن تتمرد أبداً بلاد ريتنو، مرة أخرى». عندئذٍ سُمح لهذا العدو الخسيس والزعماء الذين كانوا فى صحبته، بالخروج للمثول بين يدى جلالتى، وجاء معهم كافة أولادهم. كانوا محملين بجزية طائلة من ذهب وفضة، وجلبوا معهم كل ما يمتلكونه. جاؤا بجيادهم ومركباتهم الحربية المصنوعة من الذهب

والفضة، فضلاً عن المركبات المدهونة بمختلف الألوان وكافة زرودهم وأقواسهم وسهامهم وكل ما يمتلكون من أسلحة. فكل ما أتوا به لحاربة جلالتي، حملوه إلى الآن، بصفته جزيتهم. ومن وقفوا فوق الأسوار كانوا يهللون ويهتفون لي، كي أمنحهم نسمة الحياة. وسمحت بأن توزع عليهم الأطعمة. عندئذ أعلنوا قسماً قائلين: «إن نعود ثانية إلى اقتراف أفعال سيئة في حق سيدنا من خپر رع طوال زمن حياتنا، لأننا شاهدنا مجده وقدرته. ليته يعطينا النسمات، حسبما يرغب!» إن ما حدث هو من فعل أبى أمون - رع، رب عروش القطرين وليس من فعل بشر.

عندئذ أعاد إليهم جلالتي الطرق المؤدية إلى مدنهم ورحلوا جميعاً وقد امتلأوا الحمير.

(إنه وضع مشين في نظر المصري القديم، فالحصار وهو حيوان ينتسب إلى ست، كان مخصصاً تقليدياً لنقل الأحمال).

لأننى كنت قد استوليت على جيادهم. واقتنت أقوامهم إلى مصر بالإضافة إلى ما يمتلكون من خيرات^(١٨).

وإن كانت الحملات العسكرية، تؤمّن الدفاع عن القطر المصري واتساع رقعته، فإنها تعتبر فضلاً عن ذلك، مصدراً مهولاً لامتصاص ثروات مصر، ومن ثم الإزدهار الداخلى.

الشاهد على ذلك على وجه التحديد، الغنائم التى دخلت البلاد نقلاً عن أرض معركة مجدو التى وردت عنها قوائم تفصيلية أعدّها كتبة الجيش فى سياق نص الهوايات:

• بيان بالغنائم التى جلبها جيش صاحب الجلالة من مدينة مجدو: ٣٤٠ أسيراً حياً، ٨٣ يداً، ٢٤٠١ حصاناً، ١٩١ مهرأ، ٦ أحصنة للسفاد...

مركبة حربية مطعمة بالذهب، كان بدنّها من الذهب أيضاً، وتخص هذا العدو الخسيس. (الإشارة هنا، إلى أمير قاش، على ما يعتقد). ومركبة جميلة مطعمة بالذهب كانت تخص أمير مجدو، ٨٩٢ مركبة تابعة لجيشه، المجموع الكلى: ٩٢٤.

زرد واحد جميل للقتال من البرونز كان يخص هذا العدو الخسيس، زرد واحد جميل من البرونز للقتال يخص أمير مجنّو، ٢٠ زرد قتال (من البرونز) تخص جيشه الخسيس، ٥٠٢ قوساً، ٧ أوتاد وأساطين صغيرة مطعّمه بالفضة كانت جزءاً من خيمة هذا العدو الخسيس.

كما استولى صاحب الجلالة على ماشية هذه المدينة... ١٩٢٩ بقرة و ٢٠٠٠ عنزة و ٢٠٥٠٠ خروف.

(احتاج الأمر إلى جهاز إدارى ضخم. فياله من موكب طويل كثير الجلبة، كان يسير في أعقاب جنود الملك!)

• قائمة بما أحضره الملك بعد ذلك، ويعود إلى مقتنيات هذا العدو الخسيس في ينعم وفي نجس وفي هرنكرو (كلها مدن تقع إلى الشمال من مجنّو والتي حالت على ما يعتقد دون تقدم الملك في اتجاه مدينة هور وإن وصل إليها بعد ذلك). كما جلب في الوقت نفسه مقتنيات المدن التي وضعت نفسها على ميامه.

ما جلب لفخامة صاحب الجلالة:

نساء هذا العدو الخسيس والزعماء الذين كانوا معه [٤٧٤ شخصاً] و ٢٨ ماريانو تابعين لهم (أسماء المحاربين الآسيويين)، وأولاد هذا العدو الخسيس والأمراء الذين كانوا معه: ٨٧ شخصاً وماريانو تابعين لهم، ١٧٩٦ خادماً وخادمة بما في ذلك أولادهم، ١٠٣ من غير المحاربين الذين كانوا قد تخلّوا عن هذا العدو الخسيس بسبب الجوع، المجموع ٢٥٠٣ أشخاص.

ووجدت أيضاً أقذاح من الأحجار الكريمة ومن الذهب. وأنوات أكل متنوعة، وجرة ضخمة على الطراز السوري. وأواني وقصصات وأطباق وأحقاق للشرب وجرار وسكاكين، أو ما مجموعه: ١٧٨٤ بين (أكثر من ١٦٤ كجم).

حلقات ذهب عُثر عليها بينما كان جارى صياغتها ومعها فضة في هيئة حلقات عديدة، و ١٦٦ بين وقت واحدة (أو ما يعادل ٨٩ كجم تقريباً من الذهب الخام والفضة الخام).

تمثال واحد من الفضة كان جارى تشكيله... وتمثال لهذا العدو الخسيس كان رأسه من الذهب. ثلاث عصى برؤوس آدمية. ستة كراسى تحمل على الاكتاف مصنوعة من الأبنوس والعاج وخشب الصندل، كانت تخص هذا العدو الخسيس ومعها ستة مقاعد. ست موائد كبيرة من العاج وخشب الصندل، وسرير من خشب الصندل مغطى بالذهب وكافة أنواع الأحجار الكريمة، على طريقة الصولجان الخاص بهذا العدو الخسيس المغطى بالكامل بالذهب. تمثال لهذا العدو الخسيس من الأبنوس المغطى بالذهب رأسه من اللزورد. وأدوات أكل من البرونز، والعديد من الشيايب الخاصة بهذا العدو الخسيس.

● وبعد ذلك قُسمت الأراضي المزروعة إلى حقول، عُيّن عليها مراقبو القصر الملكى لجمع المحصول.

قائمة بالمحصول الذى أحضره معه صاحب الجلالة من حقول مجنّ: ٢٠٧٣٠٠ غرارة حنطة وشعير، بعد استبعاد ما حُصد وتم الإستيلاء عليه من أجل جيش صاحب الجلالة^(١٩).

إن المحتويات النفيسة فى مغارة على بابا، شىء لا يذكر مقارنة بهذه الثروة من الغنائم، ولكن الشرق الأدنى الذى تتقاطع عنده دروب التجارة التى تسمح بانتقال ثروات أفغانستان الأكثر بعداً وبابل والجزيرة العربية لتصل إلى البحر المتوسط، كان منطقة لتبادل ثروات الشرق على نطاق واسع. وكانت موانئ فينقيا مكاناً بالغ الأهمية لتجارة كل ما هو نادر ونفيس ومن هذا المنطلق نفهم ملموحات القوى العظمى التى احتلت الساحة الدولية آنذاك فسعت إلى بسط هيمنتها على هذه البلاد.

لم يكن جميع هذه المغانم مخصصة للخزائن الملكية. فقسم منها كان يصب فى خزائن أمون، سيد الإنتصار ومرشد العاهل الملكى. فمن مدونة الصرح السابع بالكركك نقرأ:

أتى جلالتي بالنساء اللواتي كنَّ ينتسبن إلى هذا العدو الخسيس مع الأولاد،
وأُتيَت في الوقت نفسه بنساء الزعماء الذين كانوا معه وكافة الأولاد. وقَدِّم جلالتي
هؤلاء النساء وهؤلاء الأولاد إلى مخازن أبيه آمون بصفتهم خدماً. وقدمت منتجاتهم
إلى معبد الإله بصفقتها الإسهام الأول لبلاد ريتنو^(٢٠).

ويعد انتصار مجنّو، واصل تحوُّمِ الثالث بما تحلى به من حذر وفطنة،
سيره شمالاً حتى مستوى مدينة صور تقريباً، محققاً النجاحات نفسها.

هكذا حطّم التحالف الذي قاده أمير قادش، وحشده على ما يظن سوتاتار ملك
الميتاني، وضمن السيطرة على بلاد ريتنو والتحكم في الموانئ الفينيقية. وبدأً من هذه
السنة ذاتها نظّم غزو ريتنو:

وعَيّن صاحب الجلالة مجدداً الزعماء لكل مدينة من المدن^(٢١).

ولما كان يسعى إلى عدم الإخلال بالتوازن التقليدي في آسيا - الأمر الذي ظل
على الدوام شغله الشاغل - فقد أبقي على الحكّام المحليين وأسرّات الأمراء الحاكمة،
ولكنه قام «بتعيينهم». وكما لاحظنا لقد تم تقسيم البلاد إلى مقاطعات خاضعة
للضريبة العقارية، كما فرض رسوماً على وجه التعميد على محاصيل العصاد.

سوف تصبح مسروح المعابد الأماكن المكرسة من الآن، لإعلان الإنتصارات
الملكية المرتبطة على هذا النحو بالآلهة التي تأمر بها ولعرضها على المشاهدين، كما
يثبّتها الحجر ويخلّدُها، إلى أبد الأبد.

ويحتفظ الصرح السابع من معبد آمون - رع بالكرك، بتكوين رائع يصور بأقل
قدر من التفاصيل السيئوليت الشامخة للملك تحوُّمِ الثالث، المهيمن بجسده المائل
في شموخ على «أكوام» الأسرى الراكعين أمامه، في حين يكرسهم للإله آمون بمقمعته
البيضاء التي رفعها إلى أعلى، تعبيراً تقليدياً، عن قدرة فرعون الممتدة إلى خارج
حدوده، وإن اتخذ هذا التعبير هنا، شكلاً حماسياً به قدر من المبالغة.

وفي هذا المقام، يستهل العامل الملكي عملاً سوف يصبح فيما بعد من الأعراف

الثابتة، فيأمر بنحت على الصرحين السادس والسابع قوائم بشعوب الشمال التي وقعت في الأسر^(٢٢)، ويشار إليهم بموطنهم الأصلي، سواء كان مدينة أو قطراً، أو باسم الشعب الذي ينتمون إليه، مع الإلتزام برسم العلامات المقطعية عند كتابة الأسماء الأجنبية، وذلك دون التقيد بأي ترتيب جغرافى محدد، ودون إمكانية التعرف على «خط سير» حملة الملك. وتأكيداً على هيمنته الإمبراطورية وإبرازاً لها بشكل أفضل، يحق بهذه القائمة بياناً بأسماء شعوب الجنوب التي تم إخضاعها^(٢٣).

وفى العام التالى وهو العام ٢٤، خرج تحوتمس الثالث، من جديد على رأس جيشه متجهاً إلى الشمال. ويبدو أن الأمر اقتصر على مجرد مناوشات محدودة. ولكن منذ ذلك الوقت، ظهرت ملامح السياسة البارعة التي اتبعتها العامل الملكى الشاب: فأراد من جهة، أن يتأكد بنفسه من الأوضاع القائمة فى البلدان التي تم فتحها، ومن جهة أخرى، فإن تواجده هو وجنوده، قمين بإجهاض أية محاولة تمرد أو عصيان.

هذا السلوك الفأب الشجاع من قبل فرعون، جعل الشرق القديم ينظر إليه نظرة كلها هيبة. وهكذا ترسل إليه أشور القصبة الجزية إكراماً له، فتقدم له على وجه التهديد «للأزورد فى هيئة كتلة واحدة»^(٢٤). وللأسف فإن هذا المقطع شديد التشوه. إنه تعبير عن سياسة صائبة، فلما كانت أشور تبحث عن حليف محتمل يقف إلى جانبها ضد الميتانى، وكانت لا تزال خاضعة له فى ذلك الزمان، سعى ملوك أشور على ما يعتقد، إلى التخلص من هذا الوضع بالإرتباط بحلفاء أقوىاء.

وقام فى العام ٢٥، بحملة جديدة لمراقبة الأحوال فى آسيا. ويتميز «التقرير» الرسمى، بسمة خاصة يشهد على ولع المصريين بالتعرف على البلدان الأجنبية والأشياء المجلوبة منها. فقد أمر تحوتمس الثالث بأن تحفر بالنقش البارز صور، هى أية فى الجمال «الفلورة»^(٢٥) التي التقى بها فى الريفقو الأعلى^(٢٥)، فضلاً عن بعض أنواع الحيوانات. وإذا لم يجد مكاناً كافياً على «جدار الحوليات»، صوّرت هذه المشاهد

(*) لفظ دخيل أقره مجمع اللغة العربية ويعنى: أنواع النبات فى مكان ما وفى زمن معين. مجمع اللغة العربية. المعجم الجغرافى. القاهرة. ١٩٧٤. ص ٧٥. (المترجم)

الرائعة فى الحجرات الواقعة، فى مؤخرة معبد الكرنك الكبير. ويعرف هذا المكان باسم «الحديقة النباتية». أحياناً كان قلة المكان هو السبب؟ أم كان اختياراً مقصوداً عن عمد للدلالة التى ينطوى عليها المكان؟ وبالفعل تتصل هذه الحجرات بقدر الأقداس الذى يشكل الحجرة المحورية الثالثة لمبنى آخ - منو^(٢٦) الذى شيده تحوتمس الثالث، على محور يتعامد على محور المعبد الكبير والقائم إلى الشرق منه. هكذا فإن الآخ - منو أو معبد «استعادة حياة (الملك) وتجديدها» كان يتصل اتصالاً مباشراً بالمشاهد التى تصور العالم الطبيعى لاسيما فلورة أسيا التى كانت تساهم على هذا النحو فى اكتمال ازدهار القوى الحية للفرعون - بفضل القدرة السحرية للمور والتماثل القائم منذ زمن سحيق بين الحياة الأبدية وتجديد الحياة النباتية. كانت الإمبراطورية تشارك فى استعادة حياة الملك وتجديدها، إبان الأعياد الطقسية التى تقام بهذه المناسبة.

وبعد ذلك، لا يرد ذكر سوى للعملة الخامسة التى خرجت فى العام ٢٩. ربما لم نعث على نص وصور العملة الرابعة، وعلى كل حال، فإن مدونة الحوليات الطويلة لا تنبس عنها بكلمة واحدة.

لم يصلنا سوى بعض الشواهد عن نشاط تحوتمس الثالث فى سيناء، حيث أوفد كباراء البلاط الملكى على رأس بعض الحملات. إن لوحاً حجرياً عثر عليه فى سراييط الخادم يشير إلى سا مونتو، خازن الملك والصديق الأود والمشرف العام على مصبات النيل، عندما خرج فى العام ٢٥...

...على رأس جنود الملك ليجلب لصاحب الجلالة، كل ما يتوق إليه من منتجات البلد الإلهى، من فيروز بكميات لا حدود لها. فسلك الطريق نفسه الذى سار فيه سيده وتجاوز ما كان قد أمر به... ومنحت هتهور العظيمة (كل نعمها) إلى قدرة صاحب الجلالة: فأصبحت الآبار أشبه ببحيرات فى زمن الفيضان والمنحدرات الصخرية تفضى (تلقائياً) إلى كنوزها المكتونة^(٢٧).

وعلى لوح حجرى آخر، عثر عليه فى سراييط الخادم أيضاً، ومؤرخ بالعام ٢٧، صور تحوتمس الثالث فى الجزء المقوس العلوى من اللوح، وهو يقدم قرابين فى هيئة

أنية إلى الإلهة حتحور سيدة هذه الأماكن. والنص المدون عبارة عن أمدوحة مسهبة تعظم الملك. فالصفات الحربية التي ينعت بها، تعتبر إرهاباً للشاعرية الغنائية لعصر الرعامسة:

إنه بطل لا مثيل له، الملك القادر الذي يفخر به البشر... واضعاً الرعب الذي يثيره وسط الأقواس المتسعة، إن الخوف منه قد كبل البلدان الأجنبية... إن قوة ابن نوت (ست) على ساعديه... إنه الثور صاحب القلب الصارم^(٢٨).

هكذا ولدت مع تحوتمس الثالث، أيديولوجية جديدة.

لقد أعاد العاهل الملكي الشاب فتح إمبراطورية آسيا، وانهار التحالف الذي تزعمه أمير قادش بتحريض من الميتاني وتقوض. وفي مرحلة لاحقة سوف يوفر تحوتمس الثالث كل التدابير التي تضمن الأمن لممتلكاته الآسيوية.

حمود نهر الفرات

إن الحملات الأربع التي قادها فرعون في آسيا من العام ٢٩ إلى العام ٣٣، من عهده كانت حاسمة وفاصلة في تأسيس الإمبراطورية. وبكل ما أوتى من حذر تكتيكي وفطنة سياسية نابهة، آمن تحوتمس الثالث سيطرته على الموانئ الفينيقية، لمرتين متتاليتين إذن، من خلال الحملتين الخامسة والسابعة، كما تصدى لأحد عدويه الرئيسيين الذين سوف يوقع بهما الهزيمة، وهما أمير قادش، إبان الحملة السادسة وملك الميتاني إبان الحملة الثامنة. إن هذه الهيمنة الوطيدة الراسخة على موانئ فينقيا، لم تكتسب هنا بعداً تجارياً فقط، بل عسكرياً بالإضافة إلى ذلك، الأمر الذي أتاح للعاهل الملكي أن ينقل قواته العسكرية والفرق الإدارية إلى المناطق السورية بطريقة أسهل مقارنة بالطريق البري. هكذا نشأ طريق بحري إمبراطوري سيعود الرعامسة إلى استخدامه.

إن الحملات العسكرية والمآثر البطولية، إلى جانب الانتصارات وأعمال السلب والنهب، هي لحمة وسداة نسيج ملحمة تحوتمس الثالث.

على غرار جنود هانيبال^(*) في كاپوا^(**)

في العام ٢٩، كان صاحب الجلالة في بلاد چاهي، يشحن تقنياً في البلدان المتمردة عليه، إبان حملته الخامسة المظفرة. وجرى سلب ونهب ميناء وارتت في الشمال، ثم مدينة تونيب وجلب منهما غنائم وفيرة: ١٠٠ دين من الفضة و ١٠٠ دين من الذهب ولازورد وفيروز وأواني الطعام من البرونز والنحاس. وبعد ذلك أبحر صاحب الجلالة ناحية الجنوب متجهاً إلى مصر، إلى أبيه آمون-رع، في سعادة القلب. (وفي طريق العودة إذن) استولى على مدينة أرواد ومحاصليها. (أرواد ميناء هام تمتد من خلفه سهول جوف سوريا الخصبة). واقتلعت كل أشجارها الجميلة. عندئذ اكتشف صاحب الجلالة بلاد چاهي، من أقصاها إلى أنهارها، فضلاً عن بساطينها الزاخرة بالفواكه، كما عثر على النبيذ وكان لا يزال في معاصره، غزيراً متدفقاً كميناء الأنهار، وحبوب القمح في الصوامع أكثر عدداً من حبات الرمال على الشطآن. غمر الجيش بهذه الثروات... وكان جنود صاحب الجلالة سكارى، ويمسحون بشهرتهم يومياً بالزيت، كما في أيام العيد في البلد المحبوب^(٢٩).

الرمائن من الأسر المحكمة

في العام ٣٠، تم الإستيلاء على قلعة قادش وقطعت أشجارها، وحُصدت غلالها، وهما عاملان رمزيان يعادلان الحكم بالإعدام: يعنيان تدمير القدرتين الحيويتين الكامنتين في النبات، فإشاعة الجوع^(***). ومن جديد كان المصير نفسه ينتظر مينائي سيميرا و أرواد.

عندئذ استعاد تحوتمس تقليداً حديثاً وعمل على تعميمه بعد أن كان والده تحوتمس الثاني قد استهله^(٣٠).

(*) هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق.م). قائد قرطاجي. حارب الرومان. وكاد يستولى على روما. (المترجم)

(**) كاپوا: مدينة في جنوب إيطاليا. احتلها هانيبال عام ٢١٥ ق.م. وأقام فيها معسكر إستراحة شتوية. استعادها الرومان عام ٢١١ ق.م. (المترجم)

(***) ألا تفعل قوات الاحتلال الإسرائيلية الشيء نفسه، في فلسطين المحتلة. (المترجم)

واصطحب أولاد الزعماء وإخوتهم إلى مصر ليقوا فيها بصفتهم رهائن. وعند وفاة زعيم من هؤلاء الزعماء، سيطلب صاحب الجلالة رحيل ابنه ليحل محله. كان مجموع الأولاد الذين تم اصطحابهم خلال هذه السنة: ٣٦ غلاماً^(٣١).

هكذا أصبحت نزية الأسرات الحاكمة من أبناء وإخوة، تحت سيطرة ملك مصر. وخصّص حيّ بعينه في الأقصر لاستقبالهم. فكانوا يتلقون في هذا المكان تنشئة وتعليماً مصريين. وأصبحوا في وسعهم، إذا آن الأوان، أن ينقلوا إلى بلادهم عادات مصر التليدة وثقافتها، وهكذا يصبح تمردهم أقل احتمالاً. وغدت هذه الفكرة مبدأً سياسياً دائماً.

تدفق الثروات

مع كل حملة كانت منتجات آسيا النفيسة والنادرة تتدفق على طيبة بكميات كبيرة. ولضخامة هذه الثروات، فإن سرد وقائع الأحداث العسكرية لكل حملة من الحملات، كان يلحق به بيان بأنواعها ومقاديرها، باستثناء حملة واحدة، هي السابعة التي تعود إلى العام ٣١ بالنظر إلى كمياتها الوفيرة:

كل ميناء يرسو عنده صاحب الجلالة، كان يُمدّه بكافة المؤن من خبز لذيذ ومختلف أنواع الأرغفة وزيت الزيتون وبخور ونبيد وعسل وكافة أنواع فواكه هذه المنطقة، كل ذلك بكميات كبيرة، لم يعهدها من قبل جيش صاحب الجلالة. هذه الحقيقة ليست إفكاً. فكل شيء مدون في سجل القصر الملكي. ولكن لا يُذكر على هذا المعلم الصرعى لتجنب الإكثار من الكلمات والألفاظ لتوفير المكان (اللازم لتوضيح) الظروف التي أحاطت بجمع هذه الغنائم. وبالتالي لن تذكر (أيضاً) محاصيل بلاد ريتو التي تضم كميات كبيرة من الحبوب والشعير والعلس والبخور وزيت الزيتون الطازج والنبيد والفواكه ومختلف طيبات هذا البلد. وسوف تُسجل في الخزينة كما تسجل منتجات النوبة^(٣٢).

عبور نهر الفرات

وفي العام ٣٣، جُنّد تحوتمس الثالث كل قواه لقهر الميثاني بعد أن كرّس جلّ اهتمامه استعداداً لهذه الحملة.

ويبدو أن قسماً من الجيش سلك الطريق البرى، لتأمين الإستقرار فى بلاد ريتنو، فى حين ركبت فرق أخرى البحر وصولاً إلى بيبلوس.

وفى المدينة أمر ببناء السفن:

وأمرتُ بالقيام بأعمال التجارة لبناء أعداد من السفن من خشب الأرز الوارد من جبال بلد الإله، عند مشارف سيدة بيبلوس (يوضع اسم الإلهة بعلت أو حتصور محل اسم المدينة). وحُكمت على عربات تجرها الأبقار^(٣٢).

إنه موكب عسكرى طويل وغريب يخترق صحراء أعالي سوريا: فيا له من مشهد مثير للدهشة يتكون من أبقار بخطواتها المتثاقلة فوق الرمال، تجر عربات شدت عليها السفن التى ستستخدم لعبور نهر الفرات وصولاً إلى البر الأخر فى بلاد الميثانى. لم يترك العاهل الملكى شيئاً للصدفة، ففكر ملياً قبل تنفيذ مشروعه، متحلياً بعبقرية تكتيكية لا تقبل الجدل.

من المؤكد أنه ملك يستحق كل مديح بالنظر إلى ما حققه من نجاح بقوة السلاح، هو الذى عبر المجرى العظيم أثناء مطاردته الذين هاجموه، فخرج على رأس جيشه بحثاً عن العدو الفسيح حتى بلاد الميثانى^(٣٣).

يبدو إذن بكل وضوح أن موقع الميثانى هو البر الأيسر من نهر الفرات ويتميز إذن عن نهائنا التى يميل البعض إلى الخلط بينهما إستناداً إلى النص الآتى:

عندئذ أقام صاحب الجلالة لوحاً حجرياً فوق تل نهائنا، بأن حفر هذا التل على يمين المجرى العظيم^(٣٤).

إن نص لوح جبل برقل يؤكد نص الحوايات:

قام صاحب الجلالة على رأس جيشه بعبور المجرى العظيم فى نهائنا حتى البر الأيسر من هذا النهر. ثم أقام لوحاً حجرياً آخر بجوار لوح «أبيه» عا خهر كارع^(٣٥)، ملك مصر العليا ومصر السفلى^(٣٦).

(*) لقب تحوتمس الأول وهو جد تحوتمس الثالث فى واقع الأمر. (المترجم)

لقد فرقت النصوص بكل وضوح بين اسمى الميثاني والنهارينا. ومن ثم، فمن المعتقد أن الأولى كانت قائمة على البر الأيسر من النهر، في حين كانت الثانية على البر الأيمن. وهو ما يؤكد أيضاً التاريخ. ففي زمن الرعامسة عندما سيقوم الخاتي بابتلاع الميثاني بالكامل أو تقريباً، سيظل ينظر إلى أمير نهارينا بصفته حليفاً مستقلاً عن الخاتي^(٣٧).

كل ما فعله إذن تحوتمس الثالث، هو مجرد الإغارة على الميثاني، دون أن يكون في نيته خوض معركة تقوده إلى أبعد من ذلك، ليندفع بعيداً جداً عن قواعده. هكذا يشكل نهر الفرات بالنسبة للمصريين «الحدود» الشمالية المثالية، ليظل هكذا.

ولكن هذه الإغارة كانت استعراض عضلات على قدر كبير من الأهمية، إذا اعتمدنا على ما تقوله المدونة المنحوتة على لوح حجري قائم في معبد هرمونتيس:

عبر (الملك) نهر المجرى العظيم وداس بقدميه أراضي الشاطئين اللذين أحرقهما اللهب، للزمن الأبدى...^(٣٨)

ولكن هذه الإغارة في الأراضي الميثانية توغلت لمسافة إيترو واحد إستناداً إلى ما جاء في العوليات، وهو ما يعادل عشرة كيلومترات:

ما من (عدو) كان ينظر خلفه، بل كانوا يفرون وقد أطلقوا سيقانهم للريح، وكأنهم قطعان من ماعز الجبل، في حين انطلقت جيادهم مسرعة^(٣٩).

بعد هذه الملحمة الحربية التي لا سابق لها، لم يرجع تحوتمس الثالث، هذا القائد المحنك، مباشرة إلى طيبة:

فلم يتوقف عن الترحال في بلاد جاهي ليقتل المتמרدين الذين لا زالوا موجودين، ويوزع الخيرات على الذين يقيمون على مائة^(٤٠).

ومن الجندل الرابع على نهر النيل وحتى نهر الفرات، عادت الأراضي الآسيوية والأراضي الإفريقية التي أخضعت بفضل هبة الفاتح العظيم فقط، لتصبح من جديد «في قبضة مصر»:

لا وجود للمتمردين فى بلاد الجنوب، وبلاد الشمال تأتى منحنية بسبب مجدى.
إن رع هو الذى أمر بذلك، من أجل. لقد طوّقت كل ما تحيط به العين النورانية. لقد
أعطانى البلد فى طوله وعرضه، لقد رُبّطت الأقواس التسعة وجزر وسط الشديدة
الإخضرار والحلّ - نبوت والبلدان الأجنبية المتمردة. وعندما عدت أدراجى إلى الجنوب
فى اتجاه البلد المحبوب، بعد أن وضعت خنجري (على) النهارينا، فإن هول الخوف
الذى أثّره، كان فى قم الساكنين - على - الرمال. كانوا قد أوهسوا أبوابهم على
أنفسهم ولم يتجاسروا على الخروج بسبب الخوف من الثور، الملك - البطل^(٤١).

إن ما يربط بلدان الإمبراطورية المصرية هو مجد السلاح والخوف من الفاتح
العظيم.

ولأول مرة أقيم فى الكرنك تمثال ضخّم «لطيبة المنتصرة»، فى هيئة إلهة تمسك
قوساً وسهماً.

مطالبة الأفيال وقنصها

يقف تحوتمس الثالث، على رأس سلسلة الفراغة المعروفين بالرياضيين^(٤٢).
فبين معركة وأخرى، كان يتفرغ لممارسة رياضة الصيد. ففي منطقة نبي وهى مدينة
هامة فى بلاد نهارينا، تصدى لقطيع مكون من ١٢٠ فيلاً. كانت هذه المأثرة، شأنها
شأن كل الأفعال البطولية، من صنع الآلهة ويأمر منها:

فعل آخر من أفعال القدرة التى كلفنى بها رع. لقد أتاح لى أن أبرهن من
جديد، على عظمة بسالتى فى مياه نبي (الفراة)، عندما أمر بأن التقى بقطيع من
الأفيال. صارح جلالتي ١٢٠ منها. لم يحدث أبداً، منذ زمن الإله، أن أقدم، على مثل
هذا العمل، ملك من هؤلاء الملوك الذين ارتنوا فى الماضى التاج الأبيض. إنى أقول ما
أقوله، بلا مبالغة أو كذب. لقد تصرفت على هذا النحو، طبقاً لما أمرنى به آمون - رع،
رب عروش القطرين^(٤٣).

يبدو من الواضح أن تحوتمس الثالث، بينما كان يمارس رياضة الصيد العظيم هذه، تعرض لخطر جسيم عندما هاجمه أحد هذه الحيوانات، وانتقذه من هذا الموقف أحد رفاقه الأوفياء، هو القائد المقدام أمن إم حب الذي روى هذا الحدث، في مدونة نحتها بمقبرته في طيبة:

وشهدتُ مأثرة أخرى موفقة، قام بها رب الأرضين في نعى. كان يطارد منة وعشرين فيلاً للحصول على أنيابها. وأمسكتُ بأضخم هذه الحيوانات الذي كان قد هاجم صاحب الجلالة. وبترت يده (أى خرطوم) عندما كان لا يزال حياً أمام الملك، وبينما كنت في الماء وسط صخرتين. كافأنى سيدى الملك فأعطانى ذهباً ومنحنى.... ثلاثة ثياب وخمسة أزواج (من النعال)^(١١).

حراسة الإمبراطورية

من العام ٣٤ وحتى العام ٤١، ظل العامل الملكى الفطن يُنظم سنوياً حملة عسكرية إلى أسيا لسحق بعض حركات التمرد التى قامت هنا أو هناك، ومن ثم فقد أمن الوجود الدائم لمصر فى هذه المناطق ليعود محملاً بغنائم وفيرة:

فى العام ٣٥:

كان صاحب الجلالة فى بلاد چامى إبان حملته العاشرة المظفرة. ووصل صاحب الجلالة إلى عارينا (وهى مدينة فى منطقة حلب). إن نهاريئا - هذا العدو الخسيس - كان قد حشد هناك الجياد والرجال.... (من المعتقد أن الميئانى لم يكن غائباً عن هذه الحشود. إن فجوة طويلة فى النص وفى غير محلها، تعترض سياق النص الذى يستأنف روايته عند عبارات «أطراف الأرض» التى قد تعضد ما ذهبنا إليه من تأويل). كانت أعدادهم أكثر من حبات رمال الشيطان، وفى حالة تأهب لخوض المعركة ضد صاحب الجلالة. عندئذ تقدم هذا الأخير، وقام جيشه بشن الهجوم دون توقف إلا «للإمساك والإصطحاب». واجتاح صاحب الجلالة هؤلاء الأجانب بفضل قدرة

أبيه أمون الذى وهبه البسالة والقوة.... ولانوا بالفرار وسقط الواحد فوق الآخر، من قدام الملك^(٤٥).

تلى ذلك قائمة بالغنائم ومنها ١٠ أسرى و٨٠ فرساً و٦٠ مركبة حربية.
وفى العام ٢٩ تمرد البدو شاسو فى القنب ولكن سرعان ما قام الجيش المصرى بسحق هذا العصيان.

الحملة الأخيرة

فى العام ٤٢، شغل ملك ميتانى وأميرا قادش وتونيب، تحالفاً أخيراً، ووصل تهوتمس الثالث إلى سيميرا عن طريق البحر، وسار على الطريق الساحلى واستولى على ميناء إيرقاتا المجاور والموالى للمتحالفين. ثم زحف صوب تونيب التى استولى عليها وسار مُصعداً فى نهر العاصى حتى وصل إلى قادش، وكان من المنتظر أن تدور هناك، رحى معركة فاصلة.

إن بعض الإيضاحات عن سير وقائع هذه المعركة يوفرها لنا إم حب رفيق الملك فى جميع مآثره الحربية:

أطلق أمير قادش أنشى فرس فاخرقت، وهى تعدو جيش الملك.

(يا للهياج الذى آثارته وسط سلاح مركبات فرعون).

وعذوت ورامها على قدمى شاهراً سيفى. فبقرتها وقطعت ذيلها الذى وضعته أمام العاهل الملكى. عندئذ تعبد الجميع للإله، من أجلى ومن أجل ذلك.

(كانت شعيرة التعبد للإله تؤدى أحياناً لصالح شخص يراد جلب البركات الإلهية عليه).

ومنحنى الملك الفرخ. ويعد أن عانقنى تسرب الإبتهاج والإغتباط إلى جسدى^(٤٥ أمكردا).

(توقف الملك هنا، عن الإنعام على جنديه العظيم بالذهب مكافأةً له، ليخصّ رفيق السلاح بعطفه الودود).

وبعد إحباط حيلهم، لجأ الأعداء إلى داخل قانش. ولا يبدو أن الحصار قد دام طويلاً. ويضيف أمن إم حب قانلاً:

وبعد ذلك اختار من وسط جيشه كافة الرجال البواسل لتحطيم الجدار الجديد الذي كانت قانش قد أقامته. أنا الذي حطّمته، فكنت أول البواسل أجمعين، فليس أمامي من يستطيع عمل ما فعلته. وعندما خرجت من المدينة اصطحبت أسيرين من الماريانو. ومن جديد كافأني سيدي الملك بكل الأشياء الطيبة التي ترضى القلب^(٤٦).

بعد هذه الحملة المظفرة الأخيرة، لم يعد أحد ينازع تحوتمس الثالث سلطته. أصبحت هيئته عظيمة القدر في الشرق وفي إفريقيا، على حدّ سواء. وتدفقت الثروات على طيبة: بدءاً من جباية الجزية، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض البلدان ولا سيما قهرص أو خاتى أو آشور، كعلامة من علامات التقدير لأمجاد الفاتح المغوار وإكراماً له.

ملحمة أسطورية

عن هذه السنوات المديدة التي شهدت كل هذه الحملات العسكرية، وعن مآثر الملك البطولية وقادته وجنوده، ومن أمثلتها حياة إم حب - تولّدت على وجه اليقين المسارد الأسطورية والحكايات. وعاشت إحداها من خلال حكاية الإستيلاء على يافا على يدي جهوتي، أحد قادة تحوتمس الثالث والذي وُجد وجوداً حقيقياً^(٤٧). ومع ذلك يصعب علينا ربط هذا الحدث، بهذه الحملة أو تلك، من الحملات التي نُظّمت على امتداد أكثر من سبع عشرة سنة.

وعلى كل حال فإن مخطوط الحكاية^(٤٨) يعود إلى منتهى سنة لاحقة على عهد تحوتمس الثالث. ولكن نهن البشر المولع بحبك القصص حول وقائع حقيقية، يحلو له أن ينسج الحكايات الخرافية التي تتناولها فيما بعد، الذاكرة من جيل إلى آخر.

لقد ضاع مطلع النص. كان چھوتى قد ضرب إذن الحصار حول يافا. ويبدو أن دفاعات المدينة كانت منيعة. ومن المحتمل أيضاً أن چھوتى قد خطر على باله أن يلجأ إلى الحيلة. وبالنسبة لنا تبدأ القصة فى اللحظة التى تشهد اجتماع القائد المصرى وأمير يافا فوق أرض محايدة بلا شك، وأقاما فى الطعام والشراب واللهو.

بعد انقضاء ساعة. ولما كان الشراب قد أخذ فيهما، تحدث چھوتى إلى [أمير يافا].... (فجوات متعاقبة فى النص).

فى هذه الأثناء (وصلت مقمعة) الملك من خير رع، وجاء من يخبر چھوتى بذلك. فقال له الأمير: «أتحرق شرقاً لرؤية مقمعة الملك من خير رع الكبيرة التى تسمى... الجميلة. أقسم وكا الملك من خير رع، فما دامت فى حوزتك الآن... أحضرها لأراها!» وهو ما فعله چھوتى: فأحضر مقمعة الملك... وتقدم ناحية الأمير قائلاً: «انظر إلى، أيا أمير يافا! ها هى [مقمعة] الملك من خير رع، الأسد المتوحش، ابن سفمت، لقد أعطاه آمون [قدرته]». عندئذ رفع يده وضرب أمير يافا على صدغه. فسقط هذا الأخير... أمامه. ثم وضعه چھوتى على وتد [وربطه بوثاق] من جلد و[أحضر] وزناً من نحاس... وربط هذا الوزن الذى يعادل أربعة نغم(?) فى قدمي الأمير.

عندئذ أمر چھوتى بإحضار مائتى سلة كان قد طلب صنعها وأنزل فيها مئتا جندي. وملئت سواعدهم بالحبال والأوتاد ووضعت الأختام (على السلال). كما أعطى الجنود نعالهم وعصيهم وأسلحتهم(?). ثم قام خمسمئة رجل أقوياء بعمل (السلاسل). كان قد قيل لهؤلاء الرجال: «عندما سيدخلون المدينة ستخلصون رفاقكم ثم تستولون على أفراد الشعب كله وتوثقونه فى الحال بالحبال».

وخرجوا وقالوا لقائد مركبة أمير يافا: انصت إلى ما قاله سيدك: ستذهب إلى أميرتك لتقول لها: «فليفرح قلبك لقد أعطانا سوتخ الآن چھوتى مع زوجته وأولاده. انظري لقد أخضعهم وقارى». وهذا ما ستظنه بشأن هذه السلال الملتوية (فى الحقيقة) برجال محملين بالأوتاد والحبال. عندئذ سار أمامهم، ظناً منه أنه يرضى قلب أميرته قائلاً: «لقد ألقينا القبض على چھوتى».

عندئذ فُتحت الأبواب أمام الجنود الذين نفقوا إلى داخل أسوار المدينة المنيعه. وانقنوا رفاقهم وقبضوا على شباب أهل المدينة وشيوخها. وفي الحال أوثقوهم بالحبال (وربطوهم إلى) الأوتاد. هكذا تسلط ساعد فرعون القوى على المدينة.

وأثناء الليل، أوفد جحوتى (رسولاً) إلى مصر، لدى سيده ملك مصر من خير رع ليقول له: «فليفرح قلبك! إن ريك الكامل آمون قد أعطاك أمير يافا، وكل شعبه ومدينته. ابعث إذن رجالاً ليتسلموا الأسرى. هكذا ستملأ بالخدم والخادما، أملاك أبيك آمون - رع، ملك الآلهة، لأنهم سسقطوا تحت نعليك للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى».

إننا أمام حيلة قديمة تذكرنا بغيرها من العيل، هى جزء من رصيد الحكايات وخرافات العصور العتيقة. فالجنود الذين ضربوا الحصار حول طرودة، دخلوا إلى المدينة وهم قابعين داخل حصان من خشب. الأكثر إثارة، وجه الشبه مع طى بابا فى الألف ليلة وليلة: فالسلال تذكرنا بالزلع التى استخدمها زعيم الأربعين حرامى لإخفاء ونقل القنلة المكلفين باغتيال طى بابا وعائلته. ومن الراجع أن المؤلف العربى، وكانت مصر بلا شك موطنه الأصلى، كان على دراية بهذه الحكاية القديمة التى تعود إلى عصر الفراعنة.

٢- مصر الإمبراطورية:

الشراء والروحانية

من أجل تعريف للإمبراطورية

إنه ثور قوى القلب. وتصل حدوده الجنوبية إلى بداية الأرض وحتى الحدود الأولى لهذا البلد. وتصل حدوده الشمالية إلى مستنقعات آسيا (الفرات) وحتى أعمدة نوت^(١٩) (أى الأعمدة التى ترفع السماء).

العالم فى طوله وعرضه ملك لفرعون.

وفي أزمنة الملاحم الآسيوية هذه، لم تشكل الإمبراطورية الإفريقية أى مشاكل للعامل الملكى. ويوجد مؤشر واحد على قيام حملة فى العام ٥٠ من عهده، استناداً إلى مدونة منحوتة على أحد صخور جزيرة سهيل. فقد خرج تحوتمس الثالث على رأس جيشه فى اتجاه الجنوب، بعد أن نمت إلى علمه بلا شك، نبأ تفجر تمرد سودانى. وتعطل تقدمه عند إلفنتين بعد أن وجد أن القناة التى أعدت فى عهد سنوسرت الأول قد غطتها الأحجار.

فى اليوم الثانى والعشرين، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام ٥٠، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى من خپر رع،

أمر صاحب الجلالة بتنظيف هذه القناة بعد أن وجدها ممتلئة بالأحجار، إلى حد كبير، حتى أن سفينة واحدة لا تستطيع الإبحار عبرها. وبعد أن اجتازها، أقطع فى اتجاه الجنوب، سعيد القلب ونجح الأعداء. ومن الآن سوف يُطلق على هذه القناة «تلك التى تفتح طريقاً مواتياً من أجل من خپر رع».

ومنذ الآن سيكتفل صيادو إلفنتين سنوياً بتنظيف هذه القناة (٥٠).

من الواضح أن تحوتمس الثالث قد بسط سيطرة مصر إلى ما وراء الجندل الرابع.

وبعد أن انتهى العامل الملكى من فتح أراضي الإمبراطورية، قام بتنظيمها تنظيمياً صارماً. كان تحوتمس الثالث قائداً عسكرياً مرموقاً، وكان فضلاً عن ذلك، إدارياً نافذ البصيرة ثاقب الفكر، إنه مؤسس حقيقى لإمبراطورية مترامية الأطراف. وعند اختيار وسائل ربط أجزائها بالسلطة المركزية فى طيبة، قسم أراضي الإمبراطورية إلى «شطرين» كبيرين وفرق بينهما.

كان حكام وموظفون مصريون يقومون بإدارة الأراضي الإفريقية وفقاً للمبادئ التى سبق أن طبقها أسلاف العامل الملكى. كان نائب الملك الذى اختار مدينة بوهن مقراً له، تابعاً تبعية مباشرة لفرعون، وتحت إمرته حكومة مستقلة بذاتها. وكان قائمقام ينوب عن نائب الملك فى الإدارة الخاصة لإقليمى ووات وكوش. وتم استثمار

هذه الأراضي استثماراً منظماً، تجسد في إرسال الجزية السنوية، وفضلاً عن ذلك، فقد تم تمصيرها وتشبيد المدن والمعابد^(٥١) مع وحدة الشعائر الدينية.

أما مبادئ إدارة الأقاليم الآسيوية فكانت تختلف إختلافاً جذرياً. فالأراضي التي تم فتحها من القنطرة وحتى الفرات، تغطي مساحة شاسعة وتشكل لمصر مصدراً متعاضداً من القوى والثروات. كان عدد سكان مصر يقدر آنذاك، على ما يرجح، بستة أو سبعة ملايين نسمة. ومن المحتمل أن عدد سكان الأقاليم السورية بما في ذلك فلسطين كان يتراوح ما بين ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة. كانت الزراعة مزدهرة وغنية بمحصولها من القمح. كان سهل مجنّو الذي يضم ١٥٠ كم من الحقول المزروعة يدر على وجه التقريب محصولاً قدره نحو خمس الثالث بحوالي ١٥٠٠٠ هكتولتر من الصوب أي ٢٠ هكتولتراً للهكتار^(٥٢) الواحد. وهو محصول يعادل مثيله في مصر. كما أن الواجهة المهيبة لشاطئ بحر فينقيا كانت تفتح أمام مصر كبرى الطرق التجارية الدولية.

ففي حين لم تعرف إفريقيا سوى حكومات قبائل، كانت آسيا تتمتع بماض قائم على حضارات عريقة، فكانت كنعان وفينقيا وريتنو وحصون الرمال المنيعه منظمة على هيئة عدد كبير من الدول والإمارات والجمهوريات الحضرية. إن القائمة التي نقبشها تحوتمس الثالث في معبد الكرنك تضم مائة وعشرة أسماء، فلم يكن في مقدور العامل الملكي أن يتجاهل كل هذا الماضي التاريخي، فيقوض ازدهار المدن السورية، فيفرض عليها حكومة مركزية، على طريقة ما فعله مع ممتلكاته الإفريقية. ومن ثمّ فلم يغير شيئاً من البنية السياسية للإمارات التي فتحها. إن «اللول» المئة وعشرة التي ضُمت إلى الإمبراطورية، أصبح بعضها بأسراتها الإمراتية الحاكمة، وبعضها الآخر بمؤسساتها الجمهورية، «في حماية» ملك مصر الذي فرض عليها أقل قدر من الأساليب القسرية. فترك لكل مدينة ولكل إمارة حق إدارة شؤونها إدارة مستقلة، واكتفى تحوتمس الثالث بتكوين «هيئة إدارية»، موزعة على مجموعة من المقاطعات

(*) الهكتولتر يساوي ١٠٠ لتر، و١٩٨ قرأ تساوي أردباً. أي أن الهكتولتر يساوي نصف أردب تقريباً. أما الهكتار فيساوي فدانين وثلاث. (المترجم)

الخاضعة لحكام مصريين. وفي واقع الأمر، لم يشكل هذا التقسيم سوى هيكل إداري يسهل جباية الضرائب. كان هذا النظام يمثل في الواقع أهمية كبيرة بالنسبة للإدارة المصرية، يفوق ما يعنيه بالنسبة لأمرء الإمبراطورية ومدنها. كان الحكام المصريون في الأساس موظفين إداريين مهمتهم تصريف الشؤون المالية، ومكلفين بجباية الجزية المفروضة على كل دولة، بما يتناسب وثروتها.

هكذا قامت بين طيبة ومدن آسيا علاقات قائمة على المنفعة وقانون الأعراف والعادات، كانت على قدر كبير من الأهمية لمستقبل العلاقات الشخصية: وكما سبق أن لاحظنا^(٥٦) كان الفرعون يقوم بتنشئة أبناء الأمراء تنشئة مصرية، في رفقة الأولاد الملكيين في البلاط الملكي وازدهرت العلاقات الإدارية إزدهاراً ملحوظاً. وقام المصريون بشق الطرق التي سار عليها الموفدون الملكيون متعجلين، في همة ونشاط. فكانت في واقع الأمر وسيلة اتصال سريعة. كان القادة العسكريون يقومون بجولات تفقدية، وينتقل فرعون سنوياً إلى هذه الأقاليم عملاً بسياسة تضمن إقامة علاقات ثابتة ووجود دائم. وأنشئت في طيبة دائرة حكومية خاصة، مهمتها الجمع في مركز واحد كافة المراسلات مع وكلاء الإدارة المصرية في المقاطعات المتبادلة مع مدن وأمرء الإمبراطورية، وحفظها بعناية فائقة في محفوظات هذه الدائرة الحكومية. لقد تم الكشف عن جانب كبير من هذه السجلات في تل العمارنة، وإن كانت تنسب في الحقيقة إلى عهدى أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع. ولما كانت الصيغ والديباجات المستخدمة في هذه الدائرة الحكومية قد استقرت على أكمل وجه، في هذا العصر؛ ففي وسعنا أن نستنتج أن القواعد الإدارية التي كانت سائدة في السابق في عهد تحوتمس الثالث، كانت مشابهة إلى أبعد حد.

ونشأت علاقات قانونية. كانت حكومات آسيا مطالبة أساساً بالقيام بالتزامات مالية بل وعسكرية كالمشاركة في بعض العمليات الحربية. فنقدم الأساطيل الفينيقية عوناً لا يستهان به في حماية الشواطئ، وكما لاحظنا كان إسهاماً عظيماً في نقل القوات المسلحة وتأمين تموينها. وذلك فضلاً عن الإلتزامات السياسية: فكان محظور على أية دولة من الدول أن تتعامل مباشرة مع بلد أجنبي آخر. ومقابل هذه الإلتزامات

كان لكل دولة حقوقها. فيتولى فرعون توفير ما تحتاجه من حماية وتأمين وحدة أراضيها.

هكذا نشأت وازدهرت أيديولوجية جديدة تهدف إلى تحويل العامل الملكي في طيبة إلى شخصية إلهية عظيمة، توحد أراضي الإمبراطورية في تضافر روجي رجب، فتأتي الأقوام من كل حذب وصوب، لتلتف حول شخص فرعون^(٥٢).

ولما كان تحوتمس الثالث حريصاً على تأمين ازدهار اقتصاد الأراضي التي «ربطها» وتنميتها تجارياً فقد كان أول من فكر في تزويد مصر بميناء يطل مباشرة على البحر. حتى الآن كان جميع موانئ مصر نهريّة. كانت منف على نحو خاص، تقوم بدور بارز في التجارة الدولية، وأخذت طيبة تنافسها، ولكن هذه المدينة كانت أكثر بعداً من البحر. كما ازدهرت أيضاً موانئ الدلتا ونذكر على رأسها سايس وبوياسثس^(٥٣). ولكن إنشاء ميناء كبير يطل على البحر، سيصبح ميناء عبور دولي، فيزيد من اجتذاب ثروات الشرق إلى مصر.

وعندما عقد تحوتمس الثالث العزم على إقامة هذا الميناء البحري وقع إختياره على موقع، كشف عن عبقرية العامل الملكي، إذا صح القول أو على أقل تقدير عن بعد نظر وبصيرة ثاقبة. فقد كان مقدر لهذا الموقع أن يقوم فيما بعد بدور بارز في وسائل مواصلات العصور القديمة عن طريق البحر: ونقصد بذلك الموقع، الجزيرة الملاصقة للساحل المصري والتي سيطلق عليها الإغريق في زمن لاحق جزيرة فاروس Pharos. فكان أول من أدرك أهمية موقعها. كانت قائمة غرب الدلتا وبالتالي مرسى هتمي للسفن المتاجرة مع مصر: فالسفن الشراعية القادمة من الجزر الإيونية^(٥٤) أو الإيجية^(٥٥) كانت تدفعها بطبيعة الحال الرياح الموسمية التي تهب من الشمال، خلال

(*) (وما صا الحجر وقل بسطا، حالياً. (المترجم)

(**) (نسبة إلى البحر الإيوني ويحد بلاد اليونان من جهة الغرب. (المترجم)

(***) (نسبة إلى بحر إيجه ويحد بلاد اليونان من جهة الشرق ويفصلها عن تركيا: (المترجم)

فصل الصيف. كما كانت في طريق السفن الفينيقية القادمة من صور أو صيدا أو بيلوس والمتجهة إلى موانئ قورينائية^(*) ثم إلى قرطاجنة فيما بعد. كما كانت الجزيرة محطة مراقبة فريدة في بابها، تسمح برصد، في آن واحد، أعالي البحار ومجمل شاطئ الدلتا، بدءاً من التخوم الليبية وصولاً إلى مصب الفرع الكانوبي من النيل، وقد تم الكشف إلى الشمال الغربي من جزيرة فاروس وإلى الجنوب منها، عن بقايا منشآت بحرية ضخمة غمرتها في الوقت الراهن مياه البحر، وقد بدأ تحوتمس الثالث في إنشائها واستكملها من بعده الملوك الرعامسة^(٥٤).

ضرائب الجزية والعظمة والوفرة

من العام ٢٢ وحتى العام ٤٢، ويعد تقرير كل حملة من الحملات، توفر لنا نصوص الحوليات، تفاصيل باللغة الدقة، حول ضرائب الجزية الطائلة التي تصب في مدينة طيبة العاصمة الإمبراطورية.

ويميز النص بكل وضوح بين عبارة إينو (أي «ما يتم جلبه») التي تشير إلى جزية بلاد آسيا وعبارة باكو (أي «حصيلة العمل») القادمة من البلاد الإفريقية. ونجد أن مفردات اللغة ذاتها تؤكد هنا على الفوارق الإدارية التي حددها تحوتمس الثالث.

وخلاف هذه الضرائب السنوية المفروضة على مختلف مناطق الإمبراطورية الشاسعة ونذكر منها جاهي وريتو في الشمال وواوات وكوش في الجنوب، كانت مصر تتلقى أيضاً الجزية التي تقدمها بلدان بعيدة إلى حد ما، تعبيراً عن ولائها وإن كانت خارج نطاق الهيمنة المصرية المباشرة، فتتشدد وُدّ فرعون ورضاه أو الرغبة في التحالف معه. كان هذا هو وضع قبرص الجزيرة القريبة الواقعة في البحر المتوسط، وأشور أيضاً وخاتي، ربما بقصد «التصدى» لدولة ميتاني وبابل القوية، فضلاً أيضاً عن بونت بحكم التقاليد المتوارثة.

(*) منطقة برقة في ليبيا. (المترجم)

وتخصصت آشور بالإضافة إلى بابل في إرسال اللازورد الجميل النقي، القادم من أفغانستان عبر وديان روافد نهر دجلة. وكانت قبروص ترسل النحاس وخاتى الأحجار الكريمة وبهنث البخور.

ولكن كانت الثروات متنوعة وكمياتها التي لا تحصى مذهلة:

منتجات الزراعة وقربية الماشية

كانت محاصيل كوش وولوات تملأ سنوياً الشؤون المصرية. وعند عرض كل قائمة من القوائم، ويعد ذكر المنتجات المقدمة حتى أدق تفاصيلها، تتكرر الجملة الآتية وكأنها لازمة ثابتة: «كل ذلك فضلاً عن السفن المحملة بكل منتجات البلد الطيبة، بالإضافة إلى محاصيل هذا المكان». وعلى امتداد أربع سنوات أيضاً ظلت جاهى ترسل قمحها.

وجاءت الفاكهة بمختلف أنواعها من آسيا: من جاهى في العام ٢٩ ومن ريتنو في العام ٣٣.

من هذه المناطق ذاتها، كان يُستورد العسل والنبيذ أيضاً بكميات كبيرة، لا سيما من ريتنو: ٦٠٨ زلعة في العام ٣٤ و٢٠٩٩ في العام ٢٥ و١٤٠٥ في العام ٢٩. كما كانت مصر تتسلم أيضاً الزيت من جاهى ومن ريتنو في المقام الأول.

كانت الأبقار والأغنام ترد سنوياً بكميات ضخمة من البلدان الشمالية والجنوبية نذكر منها على سبيل المثال:

العام ٢٤: ٤٥ بقرة وعجلاً، و٧٣٩ ثوراً و٥٧٠٣ رأس ماشية من خراف وماعز، مقدمة من ريتنو.

العام ٢٩: ٦١ رأس من الأبقار و٣٦٣٦ رأس ماشية، مقدمة من جاهى.

العام ٣١: ٣١ من ريتنو: ١٠٤ ثيران وأبقار و١٧٢ عجلاً وعجلة و٤٦٢٢ رأس ماشية. ومن كوش: ٣٤٣ رأساً من الأبقار. ومن ولوات: ٩٢.

العام ٢٢: من ريتنو: ٥٩٢ رأس من الأبقار و٥٣٢٢ غنزة، ومن كوش: ٤١٩ رأساً من الأبقار، ومن واوات ١٠٤ رؤوس من الأبقار.

يا لها من صفوف طويلة وصاخبة، كانت تعبّر، على طريقته، عن عظمة مصر وهيبة الإمبراطورية!

كما كانت الحمير تأتي من آسيا: ٧٠ من جاهي في العام ٢٤، و٤٦ من ريتنو في العام ٢٨.

كما لم تعرف مصر تربية الخيول التي أصبحت من الآن، حيواناً لا يمكن الاستغناء عنه، في سير المعارك الحربية، فكانت تأتي من آسيا. ويتم تربيتها وترويضها في بلاد نهر العاصي.

وفي العام ٢٤ أرسلت ريتنو ٢٤ جواداً.

وفي العام ٢٩ أرسلت جاهي ٣٢ جواداً.

وفي العام ٣٠ أرسلت ريتنو ١٨٨ جواداً.

وفي العام ٣٣ أرسلت ريتنو ٢٦٠ جواداً.

وفي العام ٣٥: ٢٢٦ جواداً.

وفي العام ٣٨: ٣٢٨ جواداً.

وفي العام ٣٩: ٢٢٩ جواداً.

وفي العام ٣٨ (!) أرسلت قبرص جوادين.

كما أن توفير ما تحتاجه مصر من جياد، كان يعتمد أساساً على ما يتم الإستيلاء عليه في أرض المعركة.

المواد النفيسة

كانت مصر بلد الذهب. وفضلاً عن مناجمها في سيناء كانت تتدفق من هذا المعدن النفيس كميات كبيرة، تأتي أساساً من إفريقيا. وإلى جانب جمال الذهب

المتألق، كانت له قيمة رمزية: فلا يصيبه تلف أو فساد، شأنه شأن لحم الآلهة، الذي يتكون منه. كانت توابيت الملوك تصنع من الذهب لضمان سلامتها ولتغالب الزمن، فهكذا تتحول إلى بيوت إلهية للأبدية، ومقدسة مثل أجساد الآلهة. وفي زمن لاحق، سوف تُصنع من أجل أجاممنون^(٥) الأثريدي^(٥٥) أقنعة ذهبية، ليكتسب وجهه التألق الأبدى للآلهة الثورانية والخلود الجسدى. هكذا تتقارب الأفكار.

فى العام ٢٢ أرسلت وريقتو ٤٥ بىن من الذهب (يعادل البىن ما يقارب ٩٢ جراماً) وأرسلت كوش: ١٥٥.

فى العام ٢٤ أرسلت وريقتو ٥٥ بىن وكوش ٣٠٠ بىن وواوات ٢٥٥٤ بىن.

فى العام ٣٧: ٧٠ بىن من كوش.

فى العام ٣٨: أرسلت واوات ٢٨٤٤ بىن (٢٦١ كيلو جراماً!) من الذهب.

فى العام ٣٩: أرسلت كوش ١٤٤ بىن.

فى العام ٤١: أرسلت كوش ١٩٥ بىن وواوات ٣١٤٤ بىن (٢٩٠ كجم).

فى العام ٤٢: أرسلت واوات ٢٣٧٤ بىن (٢١٨ كجم).

وكانت مناجم صحراء النوبة منتجة للذهب على نطاق واسع.

إلى جانب الذهب كانت الفضة متوفرة فى بلاد النهرين.

فى العام ٣٩: سلمت وريقتو إلى مصر ٤٩٥ بىن من الفضة.

كما كانت قبرص ترسل النحاس بكميات كبيرة. ولم يقتصر الأمر على قبرص، بل كان يرسل أيضاً عن طريق چاهى وريقتو. والأمر اللافت للانتباه فى نص العوايات أن النحاس والقصدير يذكران دائماً، جنباً إلى جنب، فى قوائم الجزية، الأمر الذى يحملنا على الاعتقاد بالنظر إلى القيمة التى كان المصرى يضمفها على الكلمات

(*) ملك يونانى أسطورى ابن لقرية، قام بضرب الحصار حول طروادة. (المترجم)

(**) نسبة إلى الملك الميكائى لقرية Aene. (المترجم)

ومنطوقها، أن بعض صناعات البرونز(*)، كانت قائمة منذ ذلك الزمان في مصر. وهكذا، ففي العام ٢٩، جاء النحاس والقصدير من جاهي، وفي العام ٢١ من ريتنو، وكذلك في السنوات ٢٤ و٢٨ و٤١ و٤٢.

كانت تصل إلى مصر من آشور وبابل وقبرص وخاتى أنواع مختلفة من اللازورد. ونذكر تحديداً، من بابل في العام ٢٢، في أعقاب الحملة الثامنة الذائعة الصيت التي شنها تحوتمس الثالث على الفرات.

أما الأحجار الكريمة فقد قدمتها خاتى في العام ٢٢ وريتنو في العام ٤٢.

كانت المستلزمات الإفريقية بطبيعة الحال، ولكن ريتنو أيضاً، ترسل العاج والأبنوس والخشب العطري ولا سيما خشب الصندل.

المواد المصنعة

ومن ريتنو أيضاً كانت ترد كل سنة في واقع الأمر، مواد مصنعة من الذهب، أو الفضة أو النحاس، نذكر منها أساساً، الأواني والكؤوس ولكن أيضاً المواد المصنوعة من خشب الصندل المطعم بالعاج.

كما ترد من ريتنو شحنات الأسلحة:

ففي العام ٢٨ كانت تضم ٤١ زردٍ ورماح من البرونز وتروس وأقواس ومختلف أنواع أسلحة القتال.

في العام ٤١: زرد واحد من البرونز وبلطات ورماح من البرونز.

في العام ٤٢: زرد واحد من البرونز وأسلحة قتال.

كما كانت هناك مركبات من معادن نفيسة:

في العام ٣١: وردت تسع عشرة مركبة من الفضة.

وفي العام ٣٢: مركبة واحدة من الفضة.

وفي العام ٣٤: وردت تسعون مركبة من الذهب والفضة أو من الخشب الملون.

(*) وهو سبيكة من النحاس والقصدير. (المترجم)

وفى العام ٢٥: مركبة واحدة من الذهب وأكثر من عشر مركبات من الفضة.
وفى العام ٢٨: تسع مركبات من الذهب والفضة و٦١ مركبة من الخشب الملون.
وفى العام ٢٩: مركبات من الفضة والذهب.

البخور

كان البخور والمر من منتجات پونت الرئيسية إلا أنهما كانا جزءاً من جزية
چاهى وريتتو. ففي العام ٢٢ أرسلت پونت ١٦٨٥ حقات أى ما يعادل ٧٤٨٢ لترًا، فى
حين سلّمت وريتتو فى السنة نفسها ٨٢٨ زلعة و٦٩٢١ زلعة فى السنة التالية....

الخدم والنساء

وأرسل الخدم والنساء من أفريقيا وريتتو. ومن هذه المنطقة الأخيرة، تلقى
فرعون كعلامة تقدير واحترام على ما يبدو، بنات الزعماء لينضموا إلى حريمه وجاءت
معهن «بائنات»^(٥) قيمة. ولا شك أن نساء وريتتو كنّ يوصفن بالجمال والعسن، فيمتعن
الفاطر إليهن.

ففى العام ٢٤ استقبل تحوتمس الثالث:

ابنة أحد الزعماء، محملة بذهب ولازورد بلدها. إن العرس والخدم والشغاليين
والخادمات المصاحبين لها، كان عددهم ثلاثين فرداً^(٥٥).

وإذا كانت النوبة والسودان تساهمان، على ما يبدو، فى جميع المجالات، ولا
سيما فى ازدهار مصر الإقتصادى، فإن أهم مواقع التجارة الدولية كانت چاهى
بمعنى الموانئ الفينيقية بطبيعة الحال، ولكن وريتتو أيضاً. إن مدن الرمال كانت مركز

(*) البائنة: ما تملكه العروس من بيت أبيها من مال أو جهاز عند زفافها. المنجد فى اللغة العربية
العاصرة، دار المشرق، بيروت، طبعة ثانية، ٢٠٠١. (المترجم)

هام لتجارة المنتجات النفيسة الواردة من بلاد النهرين أو الجزيرة العربية أو آسيا الصغرى. كانت محطات ضرورية لا مناص منها تتوقف عندها القوافل التي تقطع الدروب التجارية الطويلة عبر الصحارى. فكم من عمليات التبادل والصفقات، كانت تتم داخل أسوارها، حيث كان يتركز آنذاك جانب من ثروات الشرق. ومن هنا نفهم لماذا أراد تحوتمس الثالث، أن يضم إلى إمبراطورية، هذه الأماكن الإستراتيجية والوكالات المتخمة بالثروات.

كانت طيبة الإلهة المنتصرة، قد أصبحت المخزن الضخم الذي يحتوى على المنتجات الحيوية والنفيسة للعالمين الآسيوى والإفريقى. وعلاوة على كل ذلك لابد أن نضيف المنتجات الخاصة بمصر ذاتها من ذهب وفيروز ودهنج(*) ونحاس سينااء والغنائم الوفيرة التي يتم جمعها من أرض المعارك. كانت مصر أرض الكنوز الأسطورية، ووصلت إلى قمة الإزدهار، كما لم يحدث من قبل، بفضل بسالة وفطنة ملكها وبفضل مؤازرة الآلهة.

أعياد النصر

واعتراف الملك بجميل الآلهة

أقيمت الإحتفالات الخاصة احتفاءً بالانتصارات. أما برنامجها فيستعرضه نص الحوليات في الكرنك:

العام ٢٣. عاد جلاتى من أولى حملاته المظفرة... وعلى امتداد ثلاثة أشهر ظل يدعم فتوحاته... فى بلاد ويقتو. إن حصناً أمرتُ بتشبيده يخلد انتصاراتى وسط أمراء لبنان. سوف يحمل اسم «من خير روح هو الذى ربط الببوء».

والآن، لقد نزل إلى البر فى طيبة(*) (٥٦). إن أبى آمون فى فرح وسرور... لقد احتفل جلاتى إكراماً له، بعيد النصر، فكان أمراً مبتكراً، عند عودتى من الحملة

(*) أو الملائكة. (المترجم)

الأولى المظفرة، بعد أن أجهزت على الريقتو الخسيس ووسعت حدود مصر فى العام الثالث والعشرين من عهدى، فى زمن الانتصار الأول الذى خصنى به أمون.

وسوف يحتفل بأول أعياد النصر هذه، بمناسبة أول عيد يقام من أجل أمون. واستمر خمسة أيام.

ويحتفل بثنائى أعياد النصر هذه، يوم «دخول - الإله» بمناسبة ثانى عيد يقام من أجل أمون. واستمر خمسة أيام.

أما الإحتفال بعيد النصر الثالث فإنه يتزامن مع خامس أعياد أمون فى هنكت-منخ (معبد تحوتمس الثالث الجنازى) عندما يعود هذا الإله الجليل من عبده الجميل فى الوادى^(٥٧). واستمر خمسة أيام.

لقد حدد جلالتي قرباناً وفيراً من أجل أمون بمناسبة عيد النصر هذا، الذى ابتكرته مؤخراً. يضم (القربان) خبزاً وجعة وأبقاراً وعجولاً وشيراناً وطيوراً وطلباءً وغزلاناً وبخوراً ونبيداً وفاكهة وخبزاً أبيض، ومختلف ما لذ وطاب، وذلك على مدار السنة^(٥٨).

هذا الإعتراف بجميل أمون، بعد أن أصبح المرشد الهادى الذى يوجه المعارك يجد ترجمته أيضاً فى الثروات الضخمة التى كانت من نصيب طيبة، فتدفقت عليها بكميات وفيرة.

لقد أعطاه جلالتي كل الغنائم... التى جلبها ساعدى القدير، من الإنتصار الأول الذى خصنى به، ليمتلئ مخزنه. لقد وهبت الخدم لينسجوا من أجله الكتان الملوكى والكتان الأبيض وكافة أنواع الكتان (وهبت) الفلاحين ليعملوا فى حقوله ويحصدون محاصيله ويملأون شؤنه بالقربان الإلهية. قائمة بالآسيويين رجالاً ونساءً، وبالنوبيين والنوبيات الذين وهبهم جلالتي لأبى أمون، منذ العام ٢٢ وحتى وضع هذه الوثيقة فى المعبد: ١٥٨٨ سوريا... (وللاسف تمنعنا فجوة فى النص من تحديد عدد الإفريقيين).

وسلمه جلالتي بقرة طويلاً كانت تخص ماشية مصر العليا ومصر السفلى وبقرتين حلوبين تخص ماشية چاهى وبقرة حلوب تخص ماشية كوش فكان المجموع

أربع بقرات حلوب، ليتم حلب لبنها في أباريق من الذهب الخالص على مرّ الأيام،
وراحة تقديمه على هذا النحو إلى أبي آمون.

كما منحه جلالتي ثلاث مدن قائمة في ريتنو العليا: اسم إحداها نوجس
والثانية ينوعم والأخيرة هونكرو.

(كانت المدن الثلاثة جزءاً من التحالف الذي انعقد ضد تحوتمس الثالث).

والرسوم التي سيتم جبايتها بصفتها ضرائب سنوية، ستخصص للقرابين
الإلهية التي يحصل عليها أبي آمون.

كما يقدم له جلالتي، مختلف أنواع الثروات من ذهب وفضة ولازورد وفيروز
ونحاس أسود وبرونز ونحاس وقصدير وألوان بكميات كبيرة، من أجل تشييد مباني
ومعالم أبي آمون، وذلك من شدة حبي له الذي يفوق حبي (لغيره) من الآلهة.

وجمع جلالتي من أجله سرب إوز ملء البركة وكانت مخصصة للقرابين الإلهية
اليومية، ومنحته إوز سميئة، كل يوم من الأيام، إنه دخل ثابت للزمن الأبدى من أجل
أبي آمون^(٥٩).

قد يقال أنه حصر «لا يلتزم بأي ترتيب»، فيخلط بين الطعام الضروري والماشية
والمواد النفيسة والإيراد الوارد من ثلاث مدن أجنبية وينتهي بوصف حظيرة الطيور.
ولكنه حصر يجيد التعبير عن مدى اهتمام الملك بإرضاء آمون. إن نقوشاً منحوتة على
الحائط الجنوبي من الممر الواقع جنوب منطقة قدس أقداس المعبد الكبير، تستكمل
بصرياً هذا العرض المتنوع، وتؤكد بطريقة عينية على ضخامة الثروات التي كانت
تُسَلَّم لكهنة طيبة؛ ونشاهد تعديداً المسلتين الشامختين اللتين قدمهما الملك، وتوجد
إحداهما في إسطنبول في الوقت الراهن^(٦٠)، بالإضافة إلى ساريتين براياتهما، وقد
خصصتا لمرح المعبد وصنعتا من خشب الأرز وغُشِيَّ طرف كل منهما بالذهب
الخالص. كما صورت أشياء هامة نفيسة من ضروريات إقامة الطقوس الدينية: من
صناديق صغيرة إلى أنوات رقيقة وموائد قرابين وقلادات عريضة وأنوات زينة

للتماثيل الإلهية، فضلاً عن الذهب والفضة والبرونز والأحجار الكريمة. إن آمون يتربع على العرش ويسهر تحوتمس الثالث على «خدمته».

ولا تتوقف عند هذا الحد، مظاهر العرفان بالجميل، كما يفصح عنها العامل الملكى الذى يبدو أنه أشرف بنفسه بعد العام ٢٢، على التوسع فى أملاك الكرنك المقدسة وحسن إدارتها. أكانت لفنة سياسية؟ أم نظرة إرتياب نحو كهنة طيبة؟ أو على عكس ذلك نتيجة تفاهم، تعاهد عليه كل من الملك والكهنة فى أعقاب اختفاء هتشپسوت، وربما عجل من هذا التفاهم، تربع العامل الملكى الشاب على العرش؟ لا يسعنا فى هذا المقام سوى أن نعرب عن بعض التكهنات حول الحقائق التى أوهت بالوقائع التى تروىها الحوليات، من جديد:

لقد مسحتُ من أجله، الحقول والبساتين وأراضى الحرث الشاسعة، ووقع إختيارى على أفضلها فى مصر العليا ومصر السفلى، لأشكل منها الأراضى الصالحة للزراعة وتقديم ما تنتجه من قمح إلى القرابين الإلهية اليومية. لقد حدد جلالتي ذلك مؤخرًا، بالإضافة إلى ما كان قائمًا من قبل.

كما حدد جلالتي القرابين الإلهية المخصصة للمسلات الأربع الشامخة^(٦٦) التى أقمتها حديثًا، من أجل أبى آمون: وهى عبارة عن ١٠٠ رغيف خبز متنوعة و٤٠ أباريق جعة أى ما يعادل ٢٥ رغيفًا وإبريقًا واحدًا لكل مسئله (كان الكتبة المصريون مولعين بالحسابات الدقيقة...)

كما أعد جلالتي من أجله حديقة جديدة مزروعة بمختلف أنواع النباتات المفيدة لإنتاج الخضروات لإمداد القرابين الإلهية اليومية. وقد حدد جلالتي ذلك، بالإضافة إلى ما كان قائمًا من قبل.

والى حريم الإله جاء الملك....

... بالنساء الجميلات من أركان الأرض.

وقام بإدارة الكرنك:

انظروا، لقد أعدّ جلالتي كل أثر وكل قانون وكل قاعدة، من أجل أبى آمون، رب عروش القطرين الذى يقف على رأس الكرك، وذلك من شدة إدراكى لمجده وقدرته.

أنا حكيم بفضل (إرشاداته) المفعة بالبركة، فاستكين فى جسده... لم أهمل شيئاً مما أمرنى به، سواء بالنسبة للأشياء التى كان يتطلع إلى وجودها أو ما يحبه كآؤه. وأنجزت ذلك من أجله طبقاً لأوامره، مدفوعاً من قلبى، فاعلاً بساعدى من أجل أبى، فخالقى يسعى إلى انجاز كل ما هو مفيد له... وكشف جلالتي عن هذه الأشياء المفيدة: كتوسيع المبانى لتصبح فعالة للزمن الآتى، وتوضيح أعراف الطهارة ونظم الإدارة وتزويد هذا المعبد بالموثّن من أجل أبى آمون...

إنى لا أبالغ، ولا أقول كلاماً على سبيل المباهاة أو التفاخر قائلاً: «لقد فعلت كذا»، فى حين أن جلالتي لم يفعله. كما لم أنجز شيئاً من أجل سواد الشعب، يمكن أن يوصف بالمبالغة. لقد فعلت ما فعلته من أجل أبى سيد الآلهة... فإنه يعرف عندما يقول المرء أنه فعل شيئاً، فى حين لم يفعله فى واقع الأمر. فهو الذى يعرف السماء، وهو الذى يعرف الأرض، وهو الذى يشاهدها بالكامل، فى ظرف سامة. إنى أقسم، تملأ كما أن رع يحبنى، وأن أبى آمون يمتدحنى، وأن الشباب قد عاد إلى أنفى، حياة وقوة، أنى حقاً، فعلت كل ذلك.

ويوجه كلامه إلى الكهنة قائلاً:

اسهروا على القيام بواجباتكم، لا تهملوا أيّاً من تقاليدكم. كونوا أطهاراً، كونوا نزهاء، فى كل ما يتعلق بالشئون الإلهية، تجنبوا الأفعال المحرمة^(٦٦).

وفى الكرك لا تقدم «الخدمة» للإله آمون وحده دون غيره من الآلهة. ولكن تقدم أيضاً للإله پتاح المنفى^(٦٧) الذى أقيم له معبد داخل أسوار الكرك المقدسة^(٦٨). ولكن هذه «الخدمة الإلهية» كانت تلتى بعد «خدمة» آمون من حيث الترتيب. وعلى لوح حجرى أقيم فى معبد پتاح يُصدر تحوّمس أوامره الآتية:

(*) (نسبة إلى مدينة مقف. (المترجم)

(**) (وتحديداً فى القسم الشمالى. (المترجم)

أمر جلالتي، أن توضع من جديد قرايين وفيرة من أجل أبي آمون في الكرنك، عندما يستريح فيه: اثنتى عشرة كومة قرايين تضم كل شيء، وذلك في يوم «دخول الإله»، وفي كل عيد من أعياد آمون، بالإضافة إلى ما كان موجوداً من قبل.

وعندما يأخذ جلالة هذا الإله المعظم كفايته مما قُدّم له من أطعمة، سوف يتم رفع كومة واحدة من هذه الأكوام التي تضم كل شيء، لتسلم إلى كهنة الساعة، في معبد أبي آمون بالكرنك.

وبعد ذلك سيتم وضع كومة قرايين تضم كل شيء، وستة أرغفة سنو لترتفع أمام تمثال ملايين (السنين) لجلالتي الذي سوف يعدّ عندئذٍ يده في اتجاه هذا الإله المعظم وهذه القرايين...

وعندما يأخذ هذا التمثال كفايته مما قُدّم له من قرايين، يتم رفعها لصالح معبد پتاح، رب الحقيقة والعدالة، القائم إلى جنوب جداره، طبقاً لقاعدة القرايين الموضحة في هذا المعبد^(٦٣).

تأمين تبادل الخدمات:

أمر جلالتي بوضع قرايين جديدة لصالح أبي پتاح، القائم إلى جنوب جداره في طيبة: تضم ٦٠ رغيفاً من أصناف متنوعة وإبريقى جمّة وخضروات وأرغفة خبز، وذلك من أجل القرايين اليومية، بالإضافة إلى ما كان موجوداً من قبل. وعندما يأخذ الإله كفايته من هذه الأشياء، فلتوضع عندئذٍ أمام تمثال جلالتي^(٦٤).

• ثم تعود الأطعمة إلى كهنة الساعة في معبد پتاح.

يوضح تبادل «الأطعمة» على هذا النحو، الصلة الوثيقة التي تربط «الآلهة» الثلاثة: آمون وپتاح بصفتيهما إلهي عاصمتي المملكة القديمة والإمبراطورية الجديدة وثالثتهما الملك.

وبعد عودة فرعون من حملته الآسيوية الأولى «ملاً أيضاً معبد پتاح بكل ما لذّ وطاب، من مختلف الأنواع: من ثيران وطيور وبخور ونبيذ، بالإضافة إلى قرايين الفاكهة من كل صنف^(٦٥)».

وأحياناً بمناسبة بعض الأعياد الخاصة تحديداً، كانت هذه الأطعمة تحرق، على هيئة محارق ضخمة، فتقوى رائحتها وتنتشر صعوداً إلى عنان السماء، إذا أخذنا بعين الاعتبار كمياتها الضخمة والمتنوعة. وهكذا، فمن أجل بفتح:

وضع جلالتي من أجله: ثوراً وزلعة نبيذ وإوزتين سمينتين وأربع حمامات وفاكهة وأربعة مكابيل راتنج وبقيق وأربعة أرغفة خبز أبيض ونباتات وخضروات وعشرين إناء وعشرة أباريق جعة وخمس بجاجات للمائدة ومئتي رغيف خبز للقرابين المتنوعة، واردة من معبد آمون وأربعة مكابيل بخور وطوى وعشرين رغيف خبز، واردة من مخازن فرعون.

تحدد ذلك، بصفته حقاً يورد سنوياً، ويحرق يومياً في حضرة الإله^(٦٦).

كما أن رع - حور أختي إله هليوبوليس العتيق يتلقى أيضاً الأطعمة من الفرعون الهمام.

كما حدد جلالتي قرابين إلهية للقيام بالمدايح الشعائرية من أجل أبي رع - حور أختي عندما يسطع... وحدد جلالتي من أجله قرابين من البنود لضمان استمرارية الاحتفالات الشعائرية بمناسبة عيد رؤية الهلال الجديد وعيد الأيام الستة ويومياً، وفقاً لما هو متبع في هليوبوليس. لأن جلالتي قد اكتشف أن حرث البنود في حقول جاهي، أمر حسن^(٦٧).

إنها صورة فرعون في الحقول. إن القيمة الرمزية للبنود التي تعيد الحياة إلى النباتات، تشبه شمس الأفق التي تعيد الحياة إلى البشر.

أجل إن عرفان تحوُّمِ الثالث بالجميل يتجه إلى الآلهة جمعاء، وإن تميزت ثلاثة منها على وجه التحديد. وبعد انقضاء قرنين من الزمن، وفي عهد وهمسيس الثاني، سوف يصور آمون وبتاح و رع - حور أختي... وفرعون، جنباً إلى جنب، في قدس أقداس معبد أبو سمبل الكبير متحدين إتحاداً مقدساً، لخير البشرية.

إن منابع أيديولوجيا الرعامسة تنهل من معين التحامسة. فمع تأسيس الإمبراطورية نشأت حركة فكرية قوية وتجديد روحاني، سترتب عليها تحديداً، تصور جديد لشخص الملك ومصير مصر.

أيدولوجيا الإمبراطورية الأولى

صار الملك من الآن «بطلا» ضرورياً، لا مناص منه. إنه الأول في المعارك. والأعداء يسيرون في أعقاب «كما تسير الكلاب». إن قوته «تشبه قوة ابن فوت»^(٦٨). وفرعون «قلعة حصينة، عظيمة الفائدة لجيشه»^(٦٩)، فهو سور من نحاس ويتحد بالعالم في أشكاله الحيوانية «إنه الصقر ذو الساعد المقدام» و«الثور القدير القلب»^(٧٠) وفي أشكاله الكونية «إنه يتألق وسط الأقواس، مثل النجم الذي يعبر السماء»^(٧١)، إنه الابن المولود من هلب الآلهة.

سوف يعمل الرعامسة على تطوير هذه المواضيع^(٧٢) في سياق فكر شديد الثراء، مع تنوع تعبيراته المرموقة، في أغلب الأحوال، التي تبرهن على استقلاليتها الروحانية، وإن ارتبطت بتقليد إمبراطوري تواتر منذ ظهوره، إبان الأسرة الثامنة عشرة. لم يكن الأمر كما يقال أحياناً، مجرد نسخ كلمات وعبارات، يتم تصنيفها في محفوظات سرية، بل كان انتقال أيدولوجيا تأكدت بوضوح على امتداد مئات السنين، بعد أن نشأت في عهد تحوتمس الأول، لتصل إلى ذروة تطورها في عهد الملوك الرعامسة. إن الملوك الأجانب الذين سيحكمون مصر فيما بعد، هم الذين سيستخدمون هذه النصوص ليستقوا منها مجرد شرعية لفظية.

أدرك تحوتمس الثالث لأول مرة أبعاد الإمبراطورية، فتصورها من جانبه، على ما يبدو كمجموعة بلدان أعضاء في دولة إتحادية، في حالة البلدان الآسيوية، أما بالنسبة للبلدان الإفريقية، فكان يعتبرها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالبلد الأم، فتشكل معه امتداداً طبيعياً لا ينفصل. إن الرباط الذي يشد وثاق هذه الإمبراطورية الشاسعة المكونة أساساً من دول اتحادية، كان لابد أن يتجسد في شخص الملك، الإله ذاته، القادر على الاندماج في مختلف آلهة المدن والمناطق التي تم فتحها. هكذا لم تصبح الإمبراطورية من الآن، مجرد مجموعة سياسية مترابطة ومتماسكة ولكن كانت أيضاً، وربما منذ تلك الأزمنة القديمة تحديداً، وحدة روحية ضخمة.

إن تحليل نص منحوت على لوح كبير من حجر الجرانيت، يبلغ ارتفاعه ١٨٠ سم، كان قائماً في حجرة تقع إلى الشمال الغربي من قدس أقداس معبد الكرنك

الكبير، ومن مقتنيات متحف القاهرة، في الوقت الراهن، يكشف لنا الكثير عن هذا الموضوع. كما أنه ترنيمة تتغنى بانتصارات الفاتح العظيم. إنه نشيد إمبراطوري حقيقي، الأول في هذا المضمار، نشيد جَزَلٍ وغنائى ومزهو:

كلمات قيلت من قبل أمون - رع، رب عروش القطرين: مرحباً بك بجوارى، أنت الذى تفرح لرؤية جمالى، أيا ابنى، يا حامى، يا من خد رع، لبتك تحيا إلى أبد الأباد!

إنى أتلقى بسبب ما تكنه لى من حب، ويفرح قلبي عند قدومك الميمون إلى معبدى. إن ساعدى تتضمأن إلى جسدك، لتؤمنان حمايتك السعوية وحياتك. كم فى متعة رقتك بين أحضانى. سوف أبقيك فى مسكنك إلى الأبد. ومن أجلك سوف أصنع العجب العجائب.

إنى أعطيك القوة والنصر على كافة البلدان الأجنبية. وفى كافة الأراضى (٧٣)، أقيم مجدك والرعب الذى يثيره (٧٤). إن الفزع الذى تستشعره (النفوس) فى حضرتك يصل إلى حدود أعمة السماء الأربعة.

إنى أشيد بهيتك فى الأجساد جمعاء. وأنشر صيحة حرب جلالتك، على امتداد الأقواس التسعة، فأمرأ كافة البلدان الأجنبية قد تجمعوا فى قبضتك. إنى أبسط شخصياً الساعدين وأربطهم من أجلك.

إنى أقيّد النوبيين بعشرات الآلاف وبآلاف. لقد وقع أهل الشمال فى الأسر بمئات الآلاف. إنى أعمل ليسقط أعداؤك تحت نعليك، وتطلى الأعداء أصحاب القلوب الخسيسة، طبقاً لما أمرت به، من أجلك.

ومن الآن، فالأرض فى طولها وعرضها، وأهل الغرب وأهل الشرق، خاضعون لسلطانك. إنك تدوس بقدميك كافة البلدان الأجنبية وأنت سعيد القلب. ولا أحد من حاشيتك يستدير إلى الوراء، فأننا هانك ومرشدك، وسوف تتمكن من إلحاق بهم.

(*) من الأهمية بمكان أن يراجع القارئ الهامش ٧٢ فى آخر الكتاب، ضمن هوامش الفصل الخامس، لدلالته فى توضيح المصطلحات المستخدمة فى هذه الجملة. (المترجم)

لقد عبرت مياه ثنية فهارينا العظيمة، بقوة واقتدار كما أمرتك. وعندما يسمع
الأعداء صيحتك - صيحة الحرب - يدخلون في جحورهم. عندئذ أحرّمهم من نسمة
الحياة، لأننى أضع الخوف منك، فى ثنايا قلوبهم.

إن متوهمجتى (الصل) التى على جبينك تُحرقهم، إنها تبعد الفسقة والأثماء،
وتحرق سكان الجزر بلهيبها. إنها تقطع رؤوس الآسيويين. فلم يبق منهم أحد، وتم
القضاء على أولاد زعمائهم.

وجعلت (أنباء) إنتصاراتك تنتشر فى ربوع البلاد، بينما شعبان جبينى يفسئ
جسدك.

فلا وجود لإنسان واحد قد يتمرد عليك، على امتداد كل ما تحيط به السماء.
إنهم يأتون حاملين جزيئهم على ظهورهم وينحنون أمام جلالتك، بناء على أوامرى.
وأتصرف بحيث تخور قوى أعدائك عندما يحضرون إلى جوارك وقلوبهم محترقة
وأطرافهم مرتعدة.

لقد أتيت،

وحملتك على سحق أمراء فينقيا، وأمدّهم تحت أقدامك،

فى ربوع البلاد.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بصفتك رب النور،

وتتألق فى وجوههم مثل صورتى.

(كانت المدن الفينيقية تعبد شمس^(٥) إله الشمس العظيم فى الشرق الأدنى
القديم^(٥٥)). وكانت بعض المدن مثل بيبيلوس تعبد آمون - رع. وعندما يتجلى تهورتمس

٧

(٥) هكذا بالشين. ويمكن عقد مقارنة مع كلمة شمس العربية وشمش العبرية. (المترجم)

(٥٥) ويشمل بلاد بين النهرين وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس وسوريا وبلاد العرب. (المترجم)

الثالث بصفته الشمس الإلهية كان يصفى بلا منازع الشرعية، لسلطانه على هذه المناطق).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق شعوب آسيا وضرب زعماء آسيويين ويقتو.
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بعد أن ارتدى حلة (الحرب)،
بينما تمسك أسلحة المعركة، على متن مركبتك.

(في مواجهة الآسيويين الذين يجنحون إلى التمرد، كلما تغير الملك المتربع على
عرش مصر، يؤكد تحوُّلهم على قدرته وقوته، بالكشف عن استعداداته لخوض
المعركة).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الشرقية والسير فوق أبناء مناطق بلد الإله.
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك نجماً يُطلق ضياءه مثل لهب،
ويعطى أنداءه.

(إن استخدام مصطلح «سحق» بالنسبة لبلاد يهوت هو مجرد استخدام شكلي.
ويقدم النص وصفاً لانطلاق النيزك الذي يفتلح تألقه عند وصوله إلى الأرض مع تألق
الأنداء، فالفكر المصري هو في الغالب فكر إنطباعي، يترجم العواطف التي تتركها في
نفس المرء الصور الحسية. ويقوم النيزك بدور بارز في حكايات بلاد يهوت. راجع في
هذا الصدد قصة الغريق. فريما عرفت يهوت عبادة النجوم؟).

لقد أتيت،

لقد حملتك على سحق الأرض الغربية، قنتحني كريت وقبرص بسبب مجدك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، ثوراً دائم الشباب، قلبه ماضى العزيمة

وحاد القرنين، فيستحيل مهاجمته.

(كانت عبادة الثور الأبيض، وهو ثور شمسي إنز، منتشرة على نطاق واسع

في كريت)

لقد أتيت،

لقد حملتك على سحق سكان الجزر، وترتعد بلاد الميثاني

تحت وطأة التخوف منك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك تمساحاً، فهو رب الرعب وسط المياه،

يصعب الإقتراب منه.

(الإشارة هنا إلى عبور نهر الفرات واختراق الميثاني)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق جزر الوسط (السيكلاد^(١٠)) والشديدة الإخضرار

ترزح تحت وطأة صيحاتك، صيحات الحرب.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك منتقماً جباراً، فيظهر ممجداً،

على ظهر الثور الصريع.

(*) أرخبيل يوناني في جنوب بحر إيجه. موطن حضارة كانت مزدهرة في الألف الثالث قبل

الميلاد. (المترجم)

(يظهر الملك هنا مندمجاً في حورس المنتقم لأبيه أوزيريس. في حين أن الثور الصريع هو ست).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الليبيين ويلا. الأوينتيو رهن قوة مجدك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك أسداً متوحشاً،

بينما تحولهم إلى جثث على امتداد وديانهم.

(تظل المعارك شكلية، فإذا كان المقصود بالأوينتيو في واقع الأمر الدانيون^(*) Danaéens، يكتسب هذا المقطع أهمية بالغة لمعرفة التاريخ الدينى. وبالفعل فإن وادى نيميا Némée كان يقع في بلاد الدانيين^(**)). ويقال أن هيراكليس^(***) قد صرع الأسد الذائع الصيت في هذا الوادى، ومن ثم فإن الحكاية الخرافية المصرية تعود إلى زمن أقدم بكثير مقارنة بالكلاسيكية اليونانية).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأراضى الأكثر بعداً، وما تحيط به الدائرة الكبرى،

مربوط فى قبضتك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، صقراً بجناحين،

يستولى على ما يراه حسب رغبته.

(*) نسبة إلى دانيه Danaé وهى من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(**) فى منطقة كورينثوس الحالية ببلاد اليونان. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(الدائرة الكبرى هي المحيط الذي يحيط بالعالم المخلوق. ومن ثم فالكون بأكمله ملك لفرعون. فبصفته صقراً محلقاً في السماء، فإنه يشمل بنظراته أملاكه الشاسعة من أقصاها إلى أُنْهاها).

لقد أتيت،

وحملتك على سحوق النوبيين، وحتى بلاد شعاع في قبضتك،

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك مثلك مثل أخويك اللذين ضمنت

سواعدهم من أجلك، تعبيراً عن النصر.

(إن اتحاد هورس وست في شخص فرعون، خير ضمان لاستتباب السلام والتوازن في مصر. ومن ثم إن تتاح للنوبيين فرصة التمرد).

لقد وضعت أختيك (إيزيس ونفتيس) خلفك لتأمين حمايتك السحرية، بينما ساعدا جلالتي في السماء لطرد الشر.

إنني أقوم بحراستك يا بنى، يا محبوبى، أيا هورس «الثور القوى الذى يظهر فى طيبة»، الذى انجبت من صلبى، أيا تحوتمس الذى أنجز من أجلى كل ما كان يتطلع إليه كائى.

لقد شيدت معبدى، إنه إنجاز من إنجازات الزمن الأبدى. لقد جعلته أضخم وأكثر اتساعاً مما كان عليه فى السابق. إن روعة جمال بوابة من خيبر رع المزبوجة الكبيرة، كان لها وقع بهيج عند آمون-رع.

إن مبانيك أضخم من مباني أى ملك من الملوك الذين سبقوك إلى الوجود. لقد أمرتك بتشبيدها وأنا راخر عنها. ومن ثم، أقيمك على عرش هورس فتغالب الزمن، لملايين السنين، وتقود الأحياء للزمن اللانهائى (٧٤).

إن ملك الكون، الكيان الإلهي العظيم المتعدد الأشكال، هو الضامن الأسمى لتماماتك الإمبراطورية وترابطها، بعد أن كفل فتح أراضيها. وإذا ظلت بول آسيا تحتفظ كل واحدة منها، بحكمها الذاتي من الناحية السياسية وبيادرتها الخاصة، إلا أن كياناً روحياً واحداً شاملاً، يهيمن عليه الفرعون- الإله، يجمعها في أسرة واحدة مع مصر إلى جانب ممتلكاتها الإفريقية. ويستمد الملك شرعية سلطته الدنيوية من اندماجه الشخصي في كافة كبرى آلهة الشرق والبحر المتوسط.

كانت إمبراطورية التمامسة تتكون من بلدان تنتظم في مجموعها، في دولة إتحادية، تلتف حول شخصيتين مقدستين تتمثلان في الفرعون وإله الكرنك أمون- رع، اللذين أصبحت لإرادتهما السيادة على صعيد العالم.

وفي وقت لاحق وبعد انقضاء منتهي سنة، سوف يتطلع الرعامسة إلى جعل إمبراطورية مصر مجموعة مرتبطة أيضاً على الصعيد السياسي، وتتكون من إمبراطورية شاسعة موحدة خاضعة لسلطتهم التي ما زالت روحية ولكنها دنيوية أيضاً، وعاصمتها الجديدة پر- رعسيس، الواقعة في قلب أراضي الإمبراطورية، عند الحدود الفاصلة بين مصر وآسيا^(٧٥).

٣- الشؤون الداخلية

وكبار موظفي الإمبراطورية

كانت العائلة الملكية تقيم في قصر الأقصر. وثلاث زوجات كن بجوار الملك، اثنتان منهن حملتا لقباً مرموقاً، هو «الزوجة الملكية العظيمة». الأولى وهي حتشپسوت- مريت رع (أى «محبوبة رع»). من الراجح، أنها كانت ابنة تحوتمس الثاني وحتشپسوت، فيفضلها اكتسب الأمير الشاب تحوتمس المولود من تحوتمس الثاني وإحدى محظياته، شرعية إنتسابه إلى الأسرة المالكة. فكانت «تلك التي ترافق

أخاهما الإله الكامل. إنها الزوجة الملكية الأولى التي لا تبتعد أبداً من جوار رب القطرين^(٧٦)». أما الثانية وهي سات-إعع (أى «ابنة-القمر») فكانت والدتها «مرسعة الإله الكبرى». أما الثالثة وهي شبتو، فكانت زوجة «عادية». وسجلت الأسماء الثلاثة فى مقبرة الملك يواندى الملوك، على وجه التحديد.

جاءت ثمرة هذه الزيجات الثلاث ابنتين هما أمصوتب الذى خلف أباه وتحوتمس وثلاث بنات من نفرتارى (أى «جميلة») ومريت أمون (أى «محبوبة أمون») وبياكت.

إننا أبعد ما نكون عن «الكثرة» التى شاعت فى عصر الرعامسة، رغم وجود بيت الحريم الذى تعمّره فى المقام الأول، الأميرات الأجنبية اللواتى يُرسلن إلى فرعون لكسب وده. إنها بداية سياسة سوف يترتب عليها، عما قريب، ازدهار قصور طيبة أو پر-رمسيس بالجميلات القادمات من آسيا، فكنّ بلا شك، هدايا بقدرها الملك حق قدرها. وعلى الجدار الشمالى، من إحدى «حجرتى الحوليات» بالكرنك وهى الحجرة الشمالية تحديداً، يصور نقش تحوتمس الثالث ترافقه سيدات البلاط، وهن يحركن المصلصات بينما يقوم الملك بتكريس كميات ضخمة من الجزية من أجل الإله أمون وذلك فى أعقاب حملاته السورية.

وشأنه شأن ملوك وادى النيل، كان تحوتمس الثالث يوقّر ويجلّ السلالة التى انحدر منها والتى يؤمّن مستقبلها. فمنذ العام ٢٢ وهو عام بداية حكمه الفعلى للبلاد، قام بترميم وتزيين تمثال للملك أمصوتب الأول، أمام المرحح الثامن فى الكرنك، بالإضافة إلى تمثال لوالده تحوتمس الثانى. وفى العام ٤٢، وبعد أن وضع حداً لحملاته الآسيوية العسكرية «وبينما كان لا يزال فى الطريق نحو مدينة الجنوب» أصدر أوامره بترميم وتزيين تمثال آخر لأبيه تحوتمس الثانى «حتى يظل اسم أبيه الإله الكامل، عا خبير كما رع، ثابتاً يقاوم الزمان، فى معبد أمون، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى^(٧٧)». هكذا يُسجّل مدى اهتمامه بمشاركة الملوك الذين سبقوه وبانتمائه إلى سلالته، مشاركتهم فيما يشيده من معالم أثرية إبان عهده. لا شك أنه مظهر من مظاهر البرّ بالوالدين، ولكنه فضلاً عن ذلك، ضرورة أساسية من أجل وحدة الأسرة الحاكمة^(٧٨).

كما يتجلى ذلك بوضوح أكبر، في المقصورة المسماة آخ منو^(٧٩) المشيدة إلى الشرق من المعبد الكبير. فتعلن المدونة التذكارية المنحوتة في دهليز القسم الجنوبي:

أقام الملك من خيروع، بناية من أجل أبائه ملوك مصر العليا وملوك مصر السفلى. لقد شيد من أجلهم مجدداً، معبداً كبيراً لملايين السنين من الحجر الأبيض الجميل- الحجر الجيري المستخرج من طرة، وكان في روعة أفق السماء ومفعماً بالبركة، بقدر أى عمل أنجز ليفال بالأيام، على امتداد الزمن اللانهائى. وأمر صاحب الجلالة أن تُنَوَّن على سطحه أسماء أبائه، لتدوم على مرّ الزمان وتظل قرايبينهم مزدهرة^(٨٠).

وإذ أراد تھوتمس الثالث مشاركة أجداده، فقد صور نفسه في هذا المبنى في حجرة تقع عند الجانب المواجه للغرب من قاعة الأعياد، وهي القاعة الرئيسية من آخ منو- فنشاهده وهو يقدم القرابين لواحد وستين ملكاً من أبائه، بدءاً من سنفرؤ أول ملوك الأسرة الرابعة. وقد صُوِّر هؤلاء جالسين، أمام آخر الأبناء الذين من نسلهم. لقد قام پريس دافين *Prisse d'Avennes* بتفكيك جدران هذه الحجرة عام ١٨٤٢ ونقلها إلى باريس، لتصبح في الوقت الراهن من مقتنيات متحف اللوفر *Le Louvre* وتعرف تحت اسم «قائمة ملوك الكرنك»^(٨١).

كما كان البلاط يضم كبار موظفى الإمبراطورية. إنهم جميع رفقاء الملك المخلصين الذى اصطحبوه في معاركه وسهروا على حسن إدارة الأراضى المصرية والأجنبية. ونعرف هؤلاء الرجال، على وجه التحديد، من خلال الصور والنصوص التى نقشوها على جدران مقابرهم المحفورة بالشيخ عبدالقوة فى البئر الغربى من النهر. إنهم بعد وفاتهم الظاهرية على سطح الأرض، لا يبعدون كثيراً عن العامل الملكى الذى ظلوا يعيشون «على مياه».

يلتزم ترتيب النقوش والرسومات فى أغلب الأحيان ببعض الأعراف، فبجوار مدخل المقبرة يمكن أن نرى مشاهد تقديم القرابين للآلهة الشمسية، ثم مع الإبتعاد إلى غبش الداخل نرى الآلهة الجنازية. وعلى جانبى باب المدخل وفى اتجاه الحجرة

(٨٠) وقد حل محلها حالياً فى معبد الكرنك مستنسخ ردى. (المترجم)

الداخلية، يستعرض صاحب المقبرة واجبات منصبه، فيصورها في مشاهد نضرة تتبض بالحياة. وفي هذا المكان وإبان الأسرة الثامنة عشرة، كان يصور في الغالب الملك الجالس على العرش. أما بقية الزخارف فهي متنوعة وتساعد في بعض الأحيان، على فهم شخصية صاحب المقبرة ومعالم حياته.

الوزراء

ثم نتطرق إلى الحديث عن كبراء الدولة أو أعيانها الذين فوضهم العاهل الملكي جانباً من سلطاته.

ومن الآن، ونظراً إلى التطور الملحوظ الذي عرفتته مصر وتعاظم أهمية الشؤون المطلوب معالجتها وكثرة عددها أصبح منصب الوزير مزبجاً: فعُين وزير لمصر العليا ومقره طيبة، ووزير آخر لمصر السفلى يقيم في منف، في أغلب الأحوال، كانوا رجالاً اختارهم الملك ومن ثقاته الذين يعتمد عليهم.

وتشكلت عائلات كبيرة من الإداريين، أصبحوا من المقربين للملوك ونالوا حظوة عندهم. كانت هتشپسوت قد عيّنت أحمس وشهرته عامثو وزيراً^(٨١). وكما سبق أن ذكرنا، قام تحوتمس الثالث في العام الخامس من «عهده» بإسناد هذا المنصب إلى ابن عامثو، واسمه أوسر آمون الملقب أيضاً بأوسر. وفيما بين العام ٢٨ والعام ٣٢، أسند هذا المنصب إلى رخ مي رع حفيد عامثو وابن أخى أوسر. وقد اتخذ كلاهما من طيبة مقراً لهما. وربما كان نفر وين وزير الشمال أخا أوسر.

وخلف العم وابن الأخ وهما أوسر و رخ مي رع في مقبرتيهما، في طيبة، مدونة عظيمة الشأن في نظرنا، لأنها تحدد بوضوح أبعاد واجابات منصبهم.

أوسر

إن أوسر آمون الذى يعنى اسمه «آمون قدير»، استطاع أن يجمع بين كبرى الوظائف والألقاب الدينية. وقد ورث معظمها عن أبيه عامثو. ولما كان وزيراً، فمن

الطبيعى أنه كان أيضاً «خادم ماعت» وهذا الذى يملأ أننى حورس عدالةً وحقيقةً»
وهذا الذى يقضى سحابة يومه فى زراعة العدالة». وكان الخازن الأكبر «المشرف
العام على بيت الفضة وبيت الذهب» و«كاتب الأحجار الكريمة من مختلف الأنواع».
كما كان «المشرف العام على المعابد الستة الكبرى» و«الكاهن وعب فى خدمة آمون»
و«القائم فى بطانة الإله مين»^(٨٢).

وفى مقبرته رقم ١٢١ بالشيخ عبدالقرنة يروى أوسر الإحتفالات التى صاحبت
تنصيبه فى وظيفته:

عندئذ انعقدت جلسة ملكية فى قاعة المقابلات الرسمية الكبرى الغربية (فى
حضرة) من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. وسُمح بدخول كبار البلد
والأصدقاء وكبار الموظفين الملكيين وأعيان «المكان الأوحده» وشخصيات القصر المرموقة
والرفيعة الشأن وحاشية حورس، ليقدّموا تحياتهم للعاهل الملكى. ثم صدر الأمر
بدخول الوزير عامثو لبحث الوضع فى القطرين وإعلان... وقال صاحب الجلالة إلى
الأصدقاء المتواجدين هنا: «... إن الشيفوخة تحسب الآن حساب ساعاتها». عندئذ
أردف هؤلاء قائلين: «أيها العاهل الملكى، يا سيدنا، أنت تعرف أن الوزير قد تقدم فى
السن، وبدأ ظهره ينحنى، والنظم (التي يملئها) تتجاوز مدينته. ومن ثم ارتق بالرغبة
التي فى قلبك وأصدر قراراً عادلاً، مفعماً بالخير. امعن النظر فى هذه الحقيقة: «قد
يكون من المفيد للقطرين أن يقام شخص آخر، كمصى شيفوخته». وقال لهم صاحب
الجلالة: «حسناً، ولكن ابحثوا إذن من أجلى (عن شخص مناسب) لمعاليتكم، تكون
قراراته مرضية فى أفعال...». عندئذ انبسطوا على بطونهم، وسجدوا أمام صاحب
الجلالة. واستعرضوا عدداً من الأفعال المفيدة وأحيط هذا الأخير علماً بها: «إنك
تحمى القطرين، بصفتك مخلوق أبىك، إنك توفر الأمن لمصر... إنك تسن القوانين
للملايين وملايين السنين، لإرضاء الشعب، إنك تجلب الإزدهار على عامة الناس، إنك
تسوس القطرين بحيث تحتل الوظائف مكانها (الصحيح). إنك تدعم حدودك فيما وراء
الأقواس التسعة. إن رع يسطع وفقاً لما تقرره وترضى بميراث ابن إيزيس. إن أباك
هو الذى أجلسك على عرشه. وشديد هو الرعب الذى تثيره فى ربوع البلاد، أنت الذى
تتجلى ممجداً، مثل الفائق القفرة الذى فى السماء. اسمح إذن لابنه (أى ابن الوزير

عامشور) واسمه أوسر، وكان كاتب الخزينة الإلهية في معبد آمون منذ عهد أبيك
 عا خير كارع، الصادق القول... (اسمح بابلاغه) بتعيينه الصادر عن القصر، وأن
 يذاع النبأ. إنه نكى وماهر وحسن السجية وسيصبح عصا شيخوخة كاملاً. وفي
 أعقاب ذلك، وجه صاحب الجلالة كلامه إلى الوزير قائلاً: «يا لها من فائدة، أن تكون
 شعبيته قد استقرت، من قبل في القصر، حيث لم ترتكب فيه، أنت شخصياً خطأ
 واحداً، أو أي فعل يستوجب اللوم ولم يصلني أبداً بلاغ واحد ضدك. إنني أعرف حق
 المعرفة، أن ابنك أوسر، موات ومفيد في تصريف شئون البلاد. إنه شخص عادل
 (وفقاً) لتعاليمك، كما أن قلبه وعقله «قد تفتحا»، بفضل حكمتك. تصرف بحيث يستمد
 فاعليته منك. هكذا سيصبح لك عصاً للشيخوخة، وهو ما ينبغي أن يتم لشخص
 يستحق الإشادة بمناقبه، تعبيراً عن الإمتنان لذيوع صيته. فمن المفيد أن يعمل محل
 أي شخص، آخر مثيل له»...

(تزخر السطور المتبقية من النص بالعديد من الفجوات فتحول دون تقديم
 ترجمة ذات معنى)(٨٣).

يكشف النص عن خواطر حول توريث الوظائف، بشأن اختيار ربما سبق
 لفرعون أن قرره، ولكن انتقال المناصب من الأب إلى الابن، في بلد كانت العائلة هي
 الخلية الأساسية التي يتشكل منها المجتمع، كان على الدوام من الأمور المطلوبة(٨٤).
 فمنذ حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م، في عهد الملك إيسيسي من الأسرة الخامسة، كان الوزير
 پتاح هوتب، يطالب الملك بأن يصبح ابنه البكر «عصاً للشيخوخة»، ويخلفه في وظائفه
 المرموقة. ومن ثم برزت خطورة أن تظل كبرى مناصب الدولة بين أيدي عائلات
 واسعة النفوذ من أصحاب المول والطول. وفي ظل ملك قوى الشكيمة مثل
 تحوتمس الثالث، لم يكن الخطر ذا بال. ولكن ما أن يظهر ملك ضعيف حتى يتعرض
 النظام للمخاطر.

(*) مازال المثل الشعبي يقول: «ابن الوز عوام» و«ابن الفاره حقاره». (المترجم)

وكرجع الصدى لما تقدم، وصلتنا شهادة الوزير أوسر التي أعلنها منحوتة على لوح من حجر الجرانيت الرمادي المحفوظ في الوقت الراهن في متحف مدينة جرينوبل (*) Grenoble.

أنا من الأعيان المرموقين. كنت كاهناً طاهر اليدين، يتفد إلى داخل معبد آمون. لقد وضعت الأدهان على الأعضاء الإلهية. لقد زينت آمون - مين. لقد حملت آمون إيان عبيده، ورفعت مين على منصته. لم أرفع الكتف في بيت السيد الذي ينحني أمامه الجميع. لم أرفع الساعد في بيت «هذا الذي يرفع الساعد» (من صفات آمون - مين). لم أتحدث بصوت عالٍ في معبد سيد الصمت. لم أتقوه بالأكاذيب في بيت رب الحقيقة. لم أذنس الطهارة الإلهية. لم اقتطع شيئاً من قرابين الإله... أنا أوسر. لقد رُقيت إلى هذه الوظيفة المرموقة، عمدة للمدينة ووزيراً (٨٤).

لقد تم الكشف عن العديد من تماثيل هذا الشخص. ويمتلكه أحدهما راكمًا، وقد عثر عليه في الكرنك، وهو من مقتنيات متحف اللوفر حالياً. إن مقبرته التذكارية رقم ١٧ في جبل السلسلة، مدمرة تدميرًا بالغًا، في الوقت الراهن (٨٥).

رخ مصر

إن ابن أخيه الذي خلفه أصبح وزيراً «رفيع المقام والقدر». كان ابن نفروين أخى أوسر ووزير الشمال.

ويفصح اسمه عن ذلك، فقد كان «عالمًا مثل رخ» وتعرفه مدونات مقبرته المحفورة في الشيخ عبد القرنة على النحو الآتي:

إنه النبيل والأمير ورئيس رؤساء الإستقبال ورجل الأسرار، الذي يدخل في مقاصير قدس الأقداس، فلا يوجد باب بينه وبين الإله. لا يجهل شيئاً مما هو في السماء أو على سطح الأرض أو في أي جانب من الجوانب الخفية في اللوات. إنه

(*) مدينة في جنوب شرق فرنسا. (الترجم)

الكاهن سم فى پر - نسر وكبير الرائن فى پر - ور^(٨٦)... الأقوى بين «جميع من يرتبون النقبة» (أو جميع الرجال)... إنه الأوحـد المتفرد، المفعم بالبركة، المفعم بالبركة^(٨٧).

ويتفجر اللغو المصرى ممتدحاً سلطانه وقدرته، والشئ نفسه يكشف عنه^(٨٨) شموخ مقبرته رقم ١٠٠ التى حفرت فى الطرف الجنوبي من جبل القرنة وتخطيطها على هيئة حرف T الإفرنجى ويمتد رواقها الأوسط لمسافة ٢٠ متراً داخل الصخر، والحجرة التى نصل إليها ضيقة إلى حد كبير وتتميز بسقفها الموازى لمنحدر الجبل ويبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار. وإلى الغرب نجد أن الكوة ترتفع ستة أمتار فوق مستوى المقبرة. ويذهب نورمان دى جارس ديفيز N.de Garis Davies، إلى أن هذا التدرج اللافت للنظر، ربما كان مستمداً من عمارة الدير البحرى التى تستطيل شرفاتها المتراكبة.

كما يجدر بالملاحظة، أن أهمية هذه المقبرة تعود إلى ما تزدان به من نصوص ونقوش، إذ يشكل كلاهما مصدراً بالغ الثراء، بل وفريد فى بابـه، للتعرف على مقومات «وظيفة» الوزير.

● تنصيب رعى مى رع والتعليمات الملكية:

تم إدخال كبار موظفى المجلس فى بداية الأمر إلى قاعة الإستقبالات الرسمية لفرعون، ثم حضر الوزير رعى مى رع الذى رُقّي حديثاً (إلى هذا المنصب).

قال له صاحب الجلالة: «عليك أن تسهر من الآن، على حجرة استقبالات الوزير وتراقب كل ما يحدث فيها، لأنها ركيزة البلاد قاطبة. لاحظ، فأن يكون المرء وزيراً، ليس بالأمر الهين والسار، بل قد يكون ذلك أحياناً، مرّاً مرارة الصبر.

الوزير هو النحاس الذى يحمى ذهب بيت سيده.

(فالذهب هو مادة لحم الآلهة الذى يمثل فرعون ابن رع. أما النحاس الأقل

بريقاً ومادة النجوم، فإنه يمثل الوزير الذى يبدو أنه قد أصبح منذ حياته الأرضية مشاركاً فى الطبيعة الكونية لسيده).

فلا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة، ولا يختار تابعيه من بين كائن من كان، من الأفراد. وإذا أقام امرؤ فى كتف سيده، عليه أن يبذل كل ما فى وسعه، وهو يعمل من أجله، ولكن لا يصح أن يفعل الشيء نفسه مع شخص آخر.

سيأتى إليك أصحاب المظالم، من الجنوب والشمال، ومن أرجاء البلاد... عليك أنت، السهر على أن يتم كل شيء، طبقاً للقانون، وطبقاً أيضاً لحقهم، مع كفالة العدالة لكل امرئ. على القاضي أن (يحيا) سافر الوجه، لأن الماء والهواء ينقلان مختلف تصرفاته ولا يجهل أحد أفعاله. إذا حدث خطأ فيما يغطه قاضٍ آخر وإذا لم يعلن بغم المكلف بالتحقيق القضائى، فيسعرف الجميع من خلال كلمات الشخص المقدم للمحاكمة. وبالفعل فلما كان هذا الأخير يقف بجوار المكلف بالتحقيق القضائى فسوف يعلن قائلاً: «إن ما يحدث هنا، لا يُعَصَّد صوتى» (أى لا يُنصَفنى).

أجل، إن المائى المضمون لكل قاضٍ، هو أن يتصرف وفقاً للناموس، عند حكمه فيما يلتمسه الشاكى. وهكذا لن يستطيع من يحاكم أن يقول: «لم تقض بالعدل». أمعن النظر فى هذه الحكمة الواردة فى كتاب منف والقائلة: «الملك المبجل يقابله وزير يراعى القوانين ويحترمها...». [تجنب أيضاً] ما يقال عن الوزير خيتى، ومفاده أنه كان يهضم حقوق المقربين إليه لصالح الآخرين(*) (من شدة حرصه على توخى الحياد، حتى لا يظهر بمظهر من يحابى خلاصاه)... وإذا استأنف شخص (من المقربين إلى خيتى) حكماً كان يؤدِّه الوزير أن يصدره من أجله، وإذا أمعن هذا الأخير فى رفضه، فكان إسرافاً فى العدالة ومغالة فيها... ولكن المحاباة سلوك ممقوت فى نظر الله.

(*) (يقترب من هذا المفهوم المثل الشعبى: «ساقوا الزيون: مال لحمتك مشغته؟ قال: أصل الجزار معرفة». (المترجم)

واليك توصية عليك الإلتزام بها: انظر إلى من تعرفه، نظرتك إلى من لا تعرفه، ومن تربطك به أواصر القرابة نظرتك إلى البعيد عن بيتك. فالقاضى الذى سيتصرف على هذا النحو سوف يكون من الناجحين الفالحين فى وظيفتهم. لا تصرف أى شاك، قبل أن تنصت باهتمام إلى كلماته. وإذا جاءك من يرفع شكواه إليك، فلا ترفض ما يقوله باعتباره أمراً سبق قوله، من حقه إبعاده ولكن بعد أن تفهمه لماذا تبعده. لقد اعتاد الناس القول: يود الشاكي الإنصاف إلى ما يقوله فى رفق وإطف، أكثر من الإستجابة إلى شكواه^(٥).

لا تستشيط غضباً بلا حق على إنسان. اكتفِ فقط بإظهار سخطك على من يستحق ذلك. عليك أن تثير الخوف حتى يخشاك الناس. إنه قاضٍ (حقيقى) هذا الذى يتهيبه الناس.

أجل، سوف تحقق النجاح عند القيام بوظيفتك إذا توخيت العدل، فما يرغب الناس فى المقام الأول، ضمان العدالة والإنصاف فى تصرفات الوزير. إنه من يسهر على القوانين بكل ما أتى من دقة، منذ زمن الله (أى منذ اليوم الذى شهد خلق العالم)...

لاحظ أيضاً، أن المرء يظل يشغل وظيفته، طالما يعمل وفقاً للتعليمات الصادرة إليه. كل شئ يسير بالنسبة له، على أحسن وجه، إذا ظل يعمل طبقاً لما قيل له، لا تتوقف لحظة واحدة عن إقامة العدل الذى تعرف قوانينه. لا تنضم إلى الإنسان المتعجرف، لأن السيد الملكى يفضل الوجل على المعتد بنفسه. إعمل إذن طبقاً للتعليمات الصادرة إليك. أجل، لقد وُضع كل ذلك أمامك لكى تقوم بانجازه^(٨٩).

لم تقتصر واجبات الوزير على العدالة والتجرد والإنصاف، وإن كانت واجبات أخلاقية ضرورية فى الحقيقة، ولكن أعباء الوظيفة ومسئولياتها عديدة ومتنوعة.

(*) إن الكثير من الأمثلة الشعبية مازالت تعبر عن هذا المفهوم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: «لا تقينى ولا تقدينى» و«وش بشوش ولا جومر بملو الكف».. (المترجم)

• واجبات الوزير ومقتضيات آداب الرسميات:

القواعد المنظمة لجلسات عمدة اللجنة ووزير معينة الجنوب، في القاعة الكبرى لاستقبالات الوزير وما ينبغى أن ينجزه الوزير الشريف عند انعقاد الجلسات.

سوف يجلس على متكأ له ظهر، وتوضع حصيرة على الأرض، ويرتدى ملابس وظيفته. وتوضع وسادة خلف ظهره وأخرى تحت قدميه... ويقبض بيده على صولجان السلطة. وتُفرد أمامه أربعون لفافة من جلد (تضم نص القوانين). وكبراء الجنوب العشرة حاضرون متواجدين على الجهتين: المشرف العام على القصر على يمينه، ومراقب من له حق الدخول على يساره، أما الكتبة فهم الأقرب إليه.

وإذا خاض أحد المتظلمين، كائناً من كان، من القائمين بجواره، فسوف يصفى الجميع إلى أحدهم تلو الآخر. وإن يتم الإصغاء إلى آخر الحاضرين قبل أول الحاضرين. ولكن إذا قال أول الحاضرين: «لن نستمع إلى أى شخص من الذين بجواري (أى قبلى)». عندئذ سوف يحتجزه حجاب الوزير.

سوف يُقدم تقرير إلى الوزير عن إغلاق المواقع الحصينة في اللحظة المواتية وعن فتحها، عندما يحين ذلك. كما يقدم له تقرير حول حالة حصون الجنوب والشمال، وعن كل ما يخرج من القصر الملكي وما يرد إليه، على حد سواء، وكل ما يخرج أيضاً من أراضى المقر الملكي وما يرد إليها. ويقع على عاتق الموظفين التصريح بهذا الخروج أو هذا الوارد. كما يقدم له المشرف العام على الحجاب والحجاب والمشرفون على الأطيان، تقارير عن أنشطتهم.

كما يتعين استقبال الوزير يومياً، ليخى السيد الملكي ويقدم له في قصره، تقريراً عن أحوال القطرين. سوف يدخل إلى البيت الكبير، في حين يقف حامل الأختام بجوار أسطون الشمال. وعندما يستهل الوزير سيره ويظهر عند مدخل الباب العالي المزدوج، عندئذ يذهب حامل الأختام لاستقباله ويقدم له تقريراً قائلاً: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة. لقد حضر جميع المفتشين ليلغوني قائلين: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة والقصر الملكي سليم ومزدهر». عندئذ يقدم الوزير تقريراً إلى حامل الأختام قائلاً: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة إذن، وكل مواقع المقر الملكي سليمة ومزدهرة. كما

أخبرنى جميع المفتشين بناءً على جولاتهم، ففلق المواقع الحصينة وفتحها كانا يتمان فى الوقت المناسب». ويعد أن يتبادل هذان الموظفان من أصحاب الرتب الرفيعة التقارير، سوف يأمر الوزير بفتح كافة أبواب القصر الملكى، ليُسمح بدخول كل من يحق له الدخول وبالإخراج بالمثل. ويشير إلى ذلك كاتب الوزير كتابةً.

لن تمنح سلطة إقامة العدالة فى القاعة الكبرى المخصصة لاستقبالات الوزير لأى نبيل. وإذا صدر اتهام ضد أحد الكبراء المرتبطين بهذه القاعة، عندئذ سوف يُحال إلى مكان المحاكمة، ليتولى الوزير (شخصياً) معاقبته بما يتناسب مع ما ارتكب من ذنب. لن تمنح السلطة لأى نبيل لتوقيع عقوبة الضرب فى قاعة الوزير الكبرى، إذ سوف يُقدم لهذا الأخير التقرير المتعلق بكافة «الدوافع والبواعث» ثم ينتقل (شخصياً) إلى قاعة المحاكمة.

أما عن كل مبعوث مكلف بمهمة، يوفده الوزير إلى أحد الأعيان، سواء كان من أرقى الرتب أو من أحطها، فعليه ألا ينحني وألا يثلك بجواره بل يلتزم بإبلاغ رسالة الوزير، وهو واقف أمامه فيتحدث ثم يهيم بالإنصراف. فمبعوث الوزير هو الذى يصطحب حكام الأقاليم ومديرى القصور^(٩٠) إلى قاعة المحاكمة. ومبعوث الوزير هو الذى يضع القواعد... وإذا حدث عندما قُسم هذا المبعوث تقريره أن اشتكى قائلاً: «لقد أوفدت مكلفاً بمهمة إلى جوار أحد الأعيان ولكنه احتكم (إلى العدالة) وأمر بأن أصفعه سبعة مؤلة على قفائى^(٩١)». عندئذ سيقدم الشخص المعنى للمحاكمة... وفى قاعة الإستقبال الكبرى يتولى الوزير شخصياً توقيع القصاص الذى يتناسب مع الخصومة محل النزاع. إنه ليس مجرد جزاء، بل عقوبة قد تصل إلى حد بتر أحد الأعضاء...

أما عن كافة الوثائق المنسوخة التى يرسلها الوزير إلى كائن من كان، من العاملين بقاعة المحكمة - وهى وثائق غير سرية - فلا بد من إعادتها إليه، على أن

(*) ألا تزال هذه الممارسة شائعة فى بعض الظروف؟ بل هناك مثل شعبى يقول: «ضرب الحاكم شرف». وهو من الأمثال الدالة على ما كان فى نفوس المصريين فى العصور الخوالى من الخنوع للحكام المستبدين حتى كانوا يعنون الإمانة منهم شرفاً يفخرون به. راجع: أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص ٢٩٨. (المترجم)

ترفق بها السجلات الخاصة بها، ويختتمها القضاة والكتبة المنوط بهم متابعة هذه القضايا. ثم يقضها الوزير، وبعد أن يطلع عليها يعيدها إلى جهتها الأصلية، بعد أن يبعثها بختمة. ولكنه إذا طلب وثيقة سرية، فإن المسئولين عنها لا يستطيعون التصريح بتداولها. ومن جهة أخرى، فإن أى مبعوث أوفده الوزير بشأن هذا الموضوع، بناء على طلب المدعى، فمن حقه أن ينتقل بها.

أما فيما يتعلق بأى عريضة مرفوعة إلى الوزير، بشأن الأراضي الزراعية، فإنه ينظر فيها بنفسه، بالإضافة إلى الجلسات التى عقدها المشرف العام على الحقول ومحاكم السجل العقارى. وقد يحدد مهلة شهرين، لأراضيه فى مصر العليا ومصر السفلى. ولكن لن تتجاوز هذه المهلة ثلاثة أيام للأراضي الزراعية المتأخمة لمدينة الجنوب أو لقر إقامة الملك، وذلك طبقاً للقانون. وسوف يحدد جلسة لكل مدعى وفقاً للقانون الذى بين يديه.

ويناط به، استدعاء قضاة الإقليم ثم صرفهم، بعد أن يقدموا تقاريرهم عن أحوال المنطقة الخاضعة لسلطتهم القضائية. لابد أن يعرض عليه نص كل وصية، فمن إختصاصه وضع الختم عليها.

كما يناط به، منح الأراضي فى كل حوزة جنائزية(؟). أما بالنسبة للشاكي الذى سيقول: «إن حدودنا متحركة». فلا بد من النظر، إذا كانت هذه الحدود ثابتة بفضل ختم شخصية رسمية. وفى هذه الحالة سيقوم الوزير بسحب الأراضي الممنوحة من قبل المحكمة التى غيرت حدود (الحوزة).

أما المهاجر جميعها، فإذا جاء إليها، كائن من كان، للوقوف على ما تحتويه والذى سيقدم عريضة خطية، فلن يسمح له بالدخول إلى قاعة الجلسات. وكل مدعى سيقصد مباشرة السيد الملكى، بعد تحرير وثيقة خطية، سوف «يعاد» إلى الوزير.

ومن اختصاص الأخير، إرسال كافة مبعوثى القصر الملكى وإيفادهم إلى حكام الأقاليم ومديرى القصور.

ويناط به، إرسال خطابات القصر وكافة أوامره ومراسيمه.

ويناط به، اختيار كبار مصر العليا ومصر السفلى ورأس مصر العليا والأرض الشاسعة (إقليم أيديوس) لتعيينهم فى سلك القضاء. ويتعين عليهم تقديم تقرير، عن كل ما يجرى فى المنطقة الخاضعة لولايتهم القضائية، مع بداية كل فصل من الفصول الثلاثة (أى كل أربعة شهور)، على أن يصطحبوا معهم الكتب المعنية والقضاة التابعين لهم.

ويناط به، حشد الجنود الذاهبين والعائدين، لمرافقة السيد الملكى عند عبوطه نهر النيل أو صعوده.

ويناط به، تحديد موارد مدينة الجنوب والمقر الملكى (ذاته)، وفقاً للتعليمات الصادرة عن القصر الملكى.

ويمثل بين يديه، مسئولو طائفة مودى الأمير، لتعويض قاعة استقبلاته الخاصة، بالإضافة إلى قضاة الجيش لإعلامهم بالقانون العسكرى.

كما يسمح أيضاً بدخول كافة الموظفين، من أصحاب الرتب العليا والدنيا إلى قاعة الوزير الكبرى، حتى يتمكن كل واحد منهم أن يحى زميله.

ويناط به، إرسال (الرجال) لقطع الأشجار، وفقاً للتعليمات الصادرة من القصر الملكى.

ويناط به، إيفاد مستشارى الإقليم لشق قنوات الري فى ربوع البلاد.

ويناط به، إيفاد حكام الأقاليم ومديرى القصور لتأمين فلاحه الأرض مع حلول الفصل الجاف.

ويناط به، تعيين المشرف العام على الحجاب فى القاعة الكبرى بالقصر الملكى.

ويناط به، تعيين من سيستمع إلى حكام الأقاليم ومديرى القصور ومن يسافر إلى مصر العليا ومصر السفلى. وسيتم إبلاغه بجميع الكلمات وبأحوال القلاع الجنوبية وحبس أحد اللصوص، (على حد سواء). ولكن سيتولى شخصياً أمر السلاب النهاب، فى أى إقليم من الأقاليم ويتولى محاكمته.

ويناط به، إرسال الجنود وكتابة مسح الأراضي، استعداداً لرحلة السيد الملكي.
ولابد أن تبقى تقارير الإقليم المكتوبة، في قاعة استقبالاته للإستفادة منها في كل دعوى مرتبطة بالأراضي المزروعة.

ويناط به، ترسيم حدود كل إقليم وكافة الحقوق وتقدير كل القرابين الإلهية وإعداد العقود.

ويناط به، صياغة الأحكام وإمعان النظر في التظلمات، عندما يتشاجر شخص مع جاره.

ويناط به، تعيين كل من يتم تربيته في قاعة المحكمة.

وإليه تُسلم كافة التبليغات الصادرة عن القصر الملكي.

ويناط به، الاستماع إلى الأوامر.

ويناط به، إبداء الرأي في مسائل العجز في الإيرادات الإلهية.

ويناط به، فرض الضرائب على كل من يخضع لها، (فيحدد) كافة الرسوم الواجب سدادها له.

ويناط به، الفصل في كافة الدعاوى.

ويناط به، تحديد التخفيضات في إيرادات الأجهزة الإدارية....

ويناط به، فتح بيت الذهب بالمشاركة مع حامل الفتم.

ويناط به، إعداد حصر بكافة الثيران المطلوب حصرها.

ويناط به، التفتيش على المخزون من الماء كل عشرة أيام ويفعل الشيء نفسه مع المخزون من الطعام....

وينبغي أن يقدم له تقرير عن شروق النجم سيوريوس^(*) و...الفيل. كما ينبغي أن يقدم له تقرير عن أمطار السماء.

(*) الاسم اليوناني للنجم سيبت في المصرية القديمة والشعري اليمانية في العربية. (المترجم)

ويناط به، تجهيز الأسطول....(٩١)

(نهاية النص مشوهة تشويهاً بالغاً).

مما لا شك فيه أن الوزير شخص ذو حول وطول: إنه القاضى الذى يحكم فى كافة المنازعات، الكبيرة منها والصغيرة، على حدّ سواء. إنه سيد الأراضى التى يرسم حدودها مع تعيين زمن الحرث والفلاحة والإشراف على عمليات الرى والأمر بقطع الأشجار ومراقبة مخزون المياه والطعام، مراقبة منتظمة، والقيام بحصر قطعان الماشية إذا لزم الأمر. إنه على رأس الجهاز الإدارى: فيعين الموظفين ويرقيهم، ويشكل الصلة الأساسية التى تربط الحكومة المركزية بسلطات الأقاليم. إنه المدبر، المشرف على الخزينة وجابى الضرائب ومختلف الإيرادات ويتسلم جزية البلدان الأجنبية، إنه يدير الجيش بقواته البرية والبحرية، ويسهر على انتقالات العامل الملكى فى حلّه وترحاله. ويراقب الظواهر الطبيعية والكونية.

إن الرسومات البالغة الجمال الى تزدان بها مقبرة رخ مى رع وتبعث الحياة فى عالمه، بفضل أشكالها وألوانها النضرة، تكشف فى الوقت نفسه عن أنشطته بصفتها السيد العظيم الواسع الذراع. إن المتون التوضيحية التى ذيلت بها هذه الرسومات جليلة الفائدة.

كان رخ مى رع يستيقظ مبكراً ويتلقى عرائض الفقراء، لحظة خروجه من منزله عند مطلع الفجر:

إنه يفرج مع طلوع النهار لأداء الشعائر الدينية اليومية والإستماع إلى مظالم الشعب والإصغاء إلى عرائض مصر العليا ومصر السفلى. إنه لا يصدّ أحداً، أكان من سواد الشعب أم من كبارائه، ويُغيث التعمساء، ويساعد من يزدح تحت حمل ثقيل ويردّ الشر إلى من اقترفه(٩٢).

ربما كان أيضاً، شأنه شأن المصريين الذين عاشوا فى ذلك الزمن، قريباً من الأرض السمراء يعيش الحياة وسط الحقول، محباً للريف. فنشاهده من خلال هذا

النص وسط الفلاحين وعلى مقربة من طيور مطقة ويجوار قطعان من الماشية في المراعى:

«إنه يروّح عن نفسه وهو يشاهد الأبقار، والعمل في الحقول تسليته، فيتأمل الأعمال الموسمية في الفصل الجاف وفي فصل الإنبات»^(٩٢).

كان خبيراً في الشؤون المالية، له شأنه. فالعديد من المشاهد المصورة في مقبرته تشير إلى أن تسليم الضرائب والرسوم وإسهامات مختلف المنتجات، يتم على أفضل وجه^(٩٤). إن صوراً حية كلها نضارة، لا تخلو من بعض الدعايات، ترسم صورة خلافة للوزير رخ مى رع، وهو يتسلم نيابة عن الملك الجزية الواردة من الإمبراطورية. إنه يدخل إلى قاعة الاستقبال، يتقدمه الكتبة والخدم حتى...

... يتسلم جزية بلاد الجنوب، بالإضافة إلى جزية بلاد بهنت وريتنو وجزيرة كريت، إلى جانب غنائم كافة البلدان الأجنبية التي ما برحت تجلبها أمجاد صاحب الجلالة من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى^(٩٥).

وعلى امتداد أربعة صفوف، تسير المواكب التي لا تنتهي، لدافعى الجزية حاملين بمنتجاتهم ومواردهم النفيسة^(٩٦). إن مشاهد هزلية تساعد على تجنب رتابة المناظر التي تتتابع على وثيرة واحدة: إن قرداً واقفاً فوق قطعة خشب أبنوس يمسك نوبى، ويضع رجله فوق رأس هذا الأخير، فى حركة ترمى إلى محاكاة شعييره الصماية الطقسية. إن قرداً آخر، أخضر اللون يتسلق العنق الطويل لزرافة وردية اللون. وفى هذا الصدد نجد أن الألوان تبرز الجانب الفكاهي من اللوحة. وفى الغالب يتم مراعاة الأنماط العرقية. إن تنوع الأزياء المبرقشة، تُحوّل مشهد تقديم الجزية إلى عيد فولكلورى. أما الصف الخامس من هذه اللوحة الرائعة، فيصور تتابع الغنائم أى موكب الأسرى. ويُعرف المشهد على النحو الآتى:

استصحاب زعماء بلدان الجنوب، ومعهم فى آن واحد، أبناء زعماء بلدان الشمال وأفضل الغنائم التي أحضرها صاحب الجلالة من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، من كل البلدان الأجنبية لتملئ المخازن، وليعملوا خدماً للقرايين

الإلهية، لأبيه أمون، رب عروش القطرين، حسبما وضع هذا الأخير مجمل البلدان الأجنبية في قبضته، في حين يترنح الزعماء تحت نعليه^(٩٧).

كان رخ مى رع مسئولاً نشطاً عن إقتصاد مصر، وفضلاً عن ذلك، كان يتفقد المشاغل ويسهر على حسن إدارة حرفيَّي معبد أمون ويتسلم الهبات المخصصة لخزينة الإله^(٩٨).

وفي لحظات راحته، وهي نادرة ومحدودة بلا شك، كان يمارس رياضة القنص والصيد النهري، ويقضي أوقاته في لهو وبهجة، فيقيم الموائد العائلية أو الرسمية، وكان المصريون مفرمين على الدوام، بالاحتفال بالأعياد^(٩٩)، فيجلس رخ مى رع فوق أريكة، بجوار زوجته مريت أى «المحبوبة»، ويلامس المصلصلات التي تقدمها له بناته، في حين يحضر له ابنه الزهور والفواكه التي قطفها من حديقته:

خُذ زهور اللوتس هذه، الواردة من حديقتك، لا تحرم نفسك منها، ليت حديقتك تملك أيضاً، بمختلف أنواع الفاكهة والنباتات النضرة التي تنبت فيها، حتى تشبع من كل ما تقدمه لك من أطعمة وحتى تتدفق عليك قرايبها، فليتوحد قلبك بهذه الأزهار المتجددة، وعليك أن تتمتع بالجو المنعش الرطب في ظلال أشجارها. افعل فيها، كل ما يرغبه كاؤك للزمن اللانهائي والزمن الأبدي^(٩٩).

(الإنسان والحديقة متحدان، كما تتحد حياة الإنسان بحياة النبات. ويتجددان إلى أبد الأبد على الطريقة الأوزيرية).

ويوجد عازف على القيثارة خمرير وموسيقيون، احتفاءً بعيد الطبيعة هذا. ويتعالى شدى الأغاني.

● وينشد ثلاثة مغنين معاً بصوت واحد:

فلتكن نسمة الشمال العلية، من أجل أنفك. اتحد بالقرايين التي وهبها الملك

(٩٥) وما زالوا. (المترجم)

والتي ترتفع فوق مائدة سيد الكون. ليت كاط يرضى بها! أنت يا عمدة المدينة، يا من
يمتدحه آمون...

● العازف على القيثارة:

فلتتألق هذه السنوات التي اختصك بها الله. ليتك تتممها وقد ألفت الثناء
والمديح، وفي ازدهار وفرح. ليت صوتك يكون عادلاً، بينما تقع الهزيمة بأعدائك في
المكان الذي تتحد فيه، بالزمن الأبدي وبالزمن اللانهائي.

● العازف على العود:

ليتك تقضى يوماً سعيداً في المديح والثناء ليتك تقضى يوماً سعيداً! وبالمثل
يكافأ شخص مدح، بأن يمضى تمثاله (حرفياً: صنوه) أيضاً، يوماً سعيداً. أنت، يا
عمدة المدينة، الذي ستبقى ذكره عطرة حتى بعد انقضاء السنين^(١٠٠).

تنطوي هذه النصوص وهذه الصور على قيمة مزدوجة: إنها تقدم لنا مشاهد
من واقع الحياة. ولكن أصداها ودلالاتها أكثر عمقاً. لأن غايتها ضمان أبدية أعياد
الطبيعة هذه، في إطار العقول والعادات بفضل سحر الصورة والكلمة. ومن ثم وبعد
أن يحل الجسد المصنوع من الحجر محل الجسد الحقيقي من لحم ودم، ستبقى
سعادة الأيام كما هي دون تبديل بفضل السحر.

القادة العسكريون البواسل

آمن إم حبيب، صديق الصبا للملك

إن آمن إم حبيب هو من أكثر عناصر الجيش الملكي بسالةً، ومن الذين نعرفهم
أكثر من غيرهم. فقد نجح ذات يوم، في إنقاذ حياة العاهل الملكي في مستنقعات نهر
الفرات القصية، إبان رحلة صيد لقنص الأفيال^(١٠١). كان ضابطاً في الجيش وقائد
حملة الأقواس، ومن المعتقد أنه كان رفيق صبا لمن سيصبح تحوتمس الثالث. وبالفعل

فإنه يحمل لقب «ولد الكاكي». ويدل هذا اللفظ الأخير، على المؤسسة المسنولة عن تربية أمراء العائلة المالكة إلى جانب أولاد بعض أعيان البلد وأبناء أمراء البلدان الأجنبية^(١٠٦). وتأسيساً على ذلك نزداد فهماً للعلاقة الحميمة التي ربطت الرجلين والصفات المتميزة التي نُعت بها أمن إم حب:

النبيل الأمير، حامل أختام ملك مصر السطى، والصديق المحبوب وكاتم الأسرار المفعم بالبركة فى خدمة رب القطرين وأثير الإله الكامل، ورفيق الملك منذ أن كان فى عُشِّه وأثيره منذ طفولته والقائم على رأس الأصدقاء والأول فى حاشية العامل الملكى... فَمَ ملك مصر العليا وأزنا ملك مصر السطى والمقيم فى قلب حورس فى قصره... فيرافقه أثناء سيره على الماء وعلى الأرض وفى كافة البلدان الأجنبية... لا يهجر رب القطرين فى أرض المعركة، عندما ينور القتال ضد ملايين البشر... الذى يدخل بمفرده إلى جوار الملك... الرجل المقتدر الساهر على رب القطرين^(١٠٦).

هذه الصداقة المنيدة وهذه العلاقة الحميمة فى المعارك، ربما دعمهما أيضاً رباط شخصى آخر: فقد كانت باكى زوجة أمن إم حب «مرضعة» الأمير الطفل تحوتمس. وكما سبق أن لاحظنا، كان هذا اللقب شرفياً، فى بعض الأحيان:

إنها المرضعة العظيمة لسيد القطرين وأثيره الإله الكامل، صاحبة الرضاعة العظيمة الفائدة والثدى الرقيق والساعدين اللذين يحتضنان الإله الكامل^(١٠٦).
إنهما شخصان كانا يعيشان فى ظل الملك.

وكما رأينا كان أمن إم حب متواجداً، فى كافة حملات تحوتمس الثالث العسكرية. وعندما تربع ابن هذا الأخير أمنحوتب الثانى على العرش، ظل أمن إم حب، يخدم العامل الملكى الجديد ببسالة وإقدام.

كما تحتفظ مقبرته رقم ٨٥ فى الشيخ عبدالقونة بوصف لمشاهد هادئة، وهو يتناول قسطاً من الراحة فى حديقته ويمارس رياضة الصيد فى مستنقعات النيل وشعوره بالبهجة والسرور وهو يستقبل نور الشمس.

إنه يخرج من المدينة ويتأمل آمون ويستقبل النور المتألق الذي يهبه قرص الشمس (أتون) دون توقف. إنه يرقه عن نفسه في المستنقعات، إنه يدخل إلى حديقته ويخرج منها، ليرطب قلبه تحت أشجار الجميز. ويرتوى من ماء البحيرة ويستنشق عبير أزهار اللوتس الأبيض ويقطف أزهار اللوتس الأزرق^(١٠٤).

تلك هي الحياة التي كان يعشقها المصريون، وإن كانوا محاربين أشاوس مرهوبي الجانب.

القماد العسكريون

بالحيلة والدهاء استطاع هجوتي أن يستولى على يافا^(١٠٦). ومن خدعته هذه، نشأت حكاية خرافية. وتتقاسم متاحف أوروبا ما تبقى من مقبرته^(١٠٥)؛ كأس من ذهب وإناء من الألبستر في متحف اللوفر Le Louvre وأربعة أحفاق من الألبستر في فلورنسا وجعران القلب مطعم بالذهب في ليندن وخنجر في دارمشتات Darmstadt بألمانيا. فالأشياء التي كانت مخصصة لمساعدته على استمرار حياته في العالم الآخر تحولت إلى قطع معروضة في المتاحف، ليشاهدها الزائر. يا له من ضرر مادي بل وأخلاقي، أساساً في حق «الذي كان يحتل مكاناً في قلب رب القطرين» والذي كان يملأ المخازن باللازورد والفضة.

كان قائداً عسكرياً تقياً، فبالى جانب مناصبه العسكرية المرموقة، كان يشغل وظائف «الأب الإلهي» للإله أونوريس^(١٠٦) في مدينة ثني القريبة من أيبينوس والعاصمة

(*) ربما كانت هذه الظاهرة من سلبيات توزيع ثأرنا على متاحف العالم. فلا تسمح أن يلْم المشاهد من نظرة واحدة شاملة، بما عثر عليه الأثريون في مكان واحد، ومثال ذلك أن آثار توت عنخ آمون معروضة كلها في جناح واحد من المتحف المصري. فهل كانت تترك هذا التأثير بالإنبهار لو كانت موزعة على عدة متاحف. (المترجم)

(**) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم إنفوريت ومعناه «ذاك الذي أعاد القصية» (المترجم)

القديمة للوك مصر الأوائل. ولكن التمييز بين ما هو دنيوى وما هو روحانى ظاهرة حديثة.

أما ثانوى الذى حمل أيضاً لقب القائد العام، فقد كان أساساً «كاتب الجيش». كان من كبار الضباط الإداريين ومؤرخاً رسمياً وعن خلصاء الملك. وعلى لوح حجرى عثر عليه فى مقبرته رقم ٧٤ يقدم وصفاً لمسار حياته المهنية:

لقد اصطحبت الإله الكامل، القيم على الحقيقة والعدالة، ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خيبر رع... لقد تمكنت من مشاهدة مآثر الملك البطولية وكل ما أنجزه فى كافة البلدان الأجنبية. فاقناتد زعماء بلاد جاهى أسرى إلى البلد المحبوب، وسلب ونهب كل مدنها وقطع أشجارهم. لم يوجد بلد واحد يستطيع مقاومته. فأننا الذى جعلت الانتصارات التى حققها، تغالب الأيام، لأننى نوت الأحداث كما جرت. كنت رفيق الإله الكامل وكاتم أسرار، وهكذا ضمنت رعايته على مر الأيام... لقد كتبت من أجله (تقريباً) عن حملاته العسكرية العديدة... (١٠٧).

كان جوانفيل (٥) Johnville عصره بالنسبة لمصر. ولكنه اضطلع بالعديد من الأنشطة الأخرى:

حشد فرق المجندين. إحاطة كل رجل من رجال الجيش بواجباته... إعداد قوائم بالجنود والكهنة وعب وخدم الملك وكافة حرفى البلاد والثيران والطيور والماعز (١٠٨).

ولما كان مكلفاً بفرض رقابته على أملاك الجيش وحسن مظهر أفراد الفرق العسكرية، فقد صوّر فى مقبرته موكباً عسكرياً من «الفرق الأجنبية»: أربعة نوبيين يتقدمهم حامل العلم، وجميعهم بدناء، إبرازاً لقيمة العناية التى توفرها لهم الإدارة العسكرية. إن جواداً رائعاً وردى اللون، يرفع فى أباء رأسه بعرفه الأصهب، لأن سلاح المركبات كان عنصراً أساسياً فى ميادين القتال. ولما كان اللون الوردى قد

(*) جوانفيل: ١٢٢٤-١٢١٧. كاتب حوليات فرنسى. دون تاريخ حياة ملك فرنسا لويس التاسع الذى قاد إحدى الحملات الصليبية على مصر وأسره المصريون فى المنصورة. (الترجم)

دخل حديثاً ضمن الألوان التي تستعملها، فرشاة الرسام المصري، كان ينظر إليه كلون نفيس، تزدان به أيضاً بشرة النساء الجميلات وأبدان الفراشات. كان الرسام المصري رساماً إنطباعياً، من جميع الجوانب.

كان ثانوياً مكلفاً أيضاً باقتياد دافعي الجزية الأجانب ليمثلوا بين يدي الملك. وكان أيضاً:

عيني ملك مصر العليا وأننى ملك مصر السفلى... والذي يمعن النظر فى القرص (أتون) فى الألق (والمقصود به هنا الملك فى قصره)، فى كل لحظة من اللحظات، لفرط تأثيره على قلبه... والذي أشاد به الملك بسبب نصائحه السديدة وتطبيق القواعد (الصادرة) عن إرادة صاحب الجلالة^(١٠٩).

واعترافاً بجميل العامل الملكى الذى رقاّه إلى منصب رفيع، فإنه يشدو من أجله بترنيمة تذكرنا مضمونها وعباراتها بعصر الرعامسة، وكان أمراً غير مألوف فى ذلك الزمن:

تحية لله، أيا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة. إنه موثوق، وأكثر الأمراء بسالة، إنه من يربط البلدان الأجنبية، وسيد الجند الشجعان (الذين يضاهى عددهم) رمال الشيطان^(١١٠).

يظهر فى هذا النص لأول مرة لقب إضافي يلحق بلقب «ملك مصر»، إنه لقب إمبراطورى، فبُنعت الملك بعبارة «شمس الأقواس التسعة». إنه نتاج أيديولوجية القمامسة^(١١١)، وسيعود الرعامسة إلى استخدامهم فى إطار مادي وروحاني، أكثر شمولاً أيضاً.

المسكرون

كان أمن مس قائد حاملي الأقواس والمشرف العام على بلدان الشمال. وقد صوّر فى مقبرته رقم ٤٢ بالقرنة مشهداً، هو فى المعتاد جزءاً من الأيقونوغرافيا

الملكية^(١١٢): وهو استسلام قلعة محصنة، وينحني «زعيم لبثان» أمام «آمن مس». ومن خلفه يحضر بعض الرجال الهدايا إكراماً للمنتصر، وهي عبارة عن إناء مزخرف زخرفة فاخرة وقطعة قماش وبعض الأحجار الكريمة وثورين. وإذا كانت الهدايا تفتقر إلى الفزارة، إلا أنها تعكس تنوع موارد البلاد. ويخرج المهزومين من قلعة على النمط السوري الواضح، بأسوارها المسننة وأبراجها الصغيرة. وفي مقدمة المشهد يسير الجيش المصري بمشيته العسكرية ويمرّ الجنود حاملين البلطات والرماح والتروس، والغابات الباسقة تشكل خلفية المشهد. كوفي آمن مس على خدماته الجسورة بتعيينه في منصب المسئول عن أقاليم ريتو في الشمال، أي مهمة جباية الجزية لصالح الخزينة الملكية. ومما له دلالة أكيدة أن هذه المقبرة التي تخص عسكرياً، يغلب على رسوماتها اللون الأحمر، وهو لون القوة والقدرة، ولون الإله المحارب مونوتو^(١١٣).

وفي حياته في العالم الآخر، سيجد آمن مس، أن الآلهة توفر له كل ما يحتاج إليه طبقاً لأمانياته:

عسى رع، يمنحه أن يكون متأكفاً في السماء،

عسى جب، يمنحه القدرة على الأرض،

عسى هو، يمنحه كل الأطعمة،

عسى حهفي (النيل)، يمنحه ما بداخله فيشبع في جميع الفصول،

عسى أوزيريس، يتصرف ليصبح في مقر إقامته وفي حاشيته للزمن اللانهائي،

عسى هورس، يسمح بأن تعيش أنت، نون أن تبعد من جواره، إلى الأبد^(١١٤).

إن لوحاً حجرياً يحتفظ به متحف اللوفر (C 59) ولوحاً آخر في متحف تورينو يحتفظان بذكريات قائد مركبة الملك الذي يحمل اسماً رفيعاً هو رو إن حقاو أي «أسد- الأمراء»، كما يفخر بقلته «حامل علم الأسطول الحربي».

أما «زعماء المجلى»، قواد الفرق النوبية، فكانوا أيضاً شخصيات عظيمة الشأن. نذكر منهم على سبيل المثال ديمو ومقبرته فى القرنه(*) وكان «المشرف العام على البلدان الأجنبية فى غرب طيبة وقائد الفرق العسكرية لصاحب الجلالة وموفد العامل الملكى فى جميع البلدان الأجنبية، من فرط ما كان مؤثراً على قلب (الملك). لقد منح الذهب والمديح، بسبب ما أبداه من بسالة، لمرات عديدة»^(١١٥).

إن الطبقة العسكرية التى كان يُغدق عليها الملك أسمى المراتب والإنعامات، أخذ نجمها يعلو وتزداد أهميتها مع تعاظم الفتوحات. إن كوكبة من القواد البواسل كانت تعيش بكل تأكيد فى البلاط الملكى بالأقصر، بصفتهم رفاق العامل الملكى الأوفياء.

كبار الكهنة وغيرهم من رجال الدين

ومن أبرز الشخصيات الدينية فى عهد تحوتمس الثالث، نذكر تحديداً كبير كهنة آمون واسمه من خپر رع سنپ. لا شك أنه كان أيضاً أحد الخالصاء المقربين من العامل الملكى.

كان جده حابو ضابطاً فى الجيش وجدته ووالدته «مرضعتين ملكيتين». وإلى «قراية النسب بالرضاعة»، أضيفت إليها بلا شك رابطة الزمالة فى سن الطفولة بمدينة الأقصر. كان فى بداية الأمر «أباً إلهياً» ثم «الخادم الثانى للإله آمون»، فهكذا ارتقى تدريجياً فى اتجاه هذا المنصب المرموق فى سلم التراتبية الكهنوتية قبل أن يخلف حپوسنپ فى منصبه كبيراً للكهنة: كان من خپر رع سنپ يخدم سيدين، فأخلص لهما بكل ما أوتى من وفاء: أولهما إله الكرنك وثانيهما الفرعون. إن نص تمثال من تماثيله يحتفظ به متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يوضح واجباته:

سن القوانين وتحديد القواعد وجعل الحقيقة والعدالة مفعمين بالبركات، من أجل آمون- رع، وإقامة كرامته على امتداد الشاطئين وهيبته على مقربة من الآلهة (الأخرى).

(*) وفى الخوخة تحديداً وتحمل رقم ٢٠٠. (المترجم)

الثناء على جلالاته طوال النهار وإرضاء كانه يومياً، والتعبد لوجهه الجميل، وتعظيم مجده فى كل فصل من فصول السنة، لحساب ملك مصر العليا ومصر السفلى من خيبر رع، محبوب آمون.

إقامة كافة الشعائر الدينية حتى نهايتها، والعمل بحيث يعرف كل شخص ما ينبغى عمله فى معبد آمون الكرنك^(١١٦).

ومن جهة أخرى، فمن المحتمل أنه لم يطلق عليه اسم من خيبر رع سنپ أى «عسى من خيبر رع يكون مزدهراً» منذ ولادته، ولكن فى وقت لاحق إكراماً للعامل الملكى. كانت وظائفه المرموقة كهنوتية ودينية، فى أن واحد. ففى مقبرته رقم ٨٦ فى القرنة يمكن أن نقرأ النص الآتى:

النبيلى الأمير الصديق المحبوب إلى حد كبير، الذى سعى إليه رب القطرين بسبب خصاله وارتقى به إلى دائرة الأصدقاء واختاره من بين مئات الآلاف، ورفع من شأنه، منذ أن كان طفلاً وأقامه ليحتل مكان الصدارة فى القصر. إنه حامل الاختام الملكى ومدير الخدمات الإلهية اليومية فى مصر العليا وفى مصر السفلى... مدير (كافة) الوظائف المرموقة فى (فى معبد آمون) والمشرف العام على بيت الذهب المزوج وبيت الفضة المزوج والمشرف العام على أشغال معبد آمون (المسمى) «هذا الذى يرفع التيجان» ورئيس الأسرار المكنونة للإلهتين، أول خدام آمون، إنه من خيبر رع سنپ الذى أنجبت نبتو، شقيقة الملك (فى الرضاعة).

النبيلى الأمير محبوب الإله والصديق المرموق المرتبط بالقصر، فالإله امتد ساعد الملوك، إنه قلب الملك فى طول البلاد وعرضها، الذى يحمى كل ما هو كائن، ويُعدّ حصراً بكل ما هو موجود فى أرجاء مدن مصر العليا ومصر السفلى. إنه المشرف العام على شونة آمون المزوجة، والمشرف العام على النساجين الملكيين فى الجنوب والشمال، إنه الأثير المفضل عند الملك الكامل (أول خدام آمون)، إنه من خيبر رع سنپ. النبيلى الأمير وكاتم أسرار الملك، من أجل تشييد معاله الصرحية ورئيس الحرفيين والمشرف العام على أشغال (معبد) آمون. «هذا الذى يرفع التيجان». إنه من خيبر رع سنپ، أول خدام آمون^(١١٧).

إنه رجل من طراز حيوسنپ.

وتُصَوِّرُهُ رسومات مقبرته وهو يزاول مهام وظائفه ويقتاد أمام الملك خمسة صفوف من دافعي الجزية القادمين من مناطق الإمبراطورية^(١١٨).

القادمون من الشمال: أمير كريت ساجداً وأمير خاتى رافعاً يديه متعبداً، وأمير تونيب مصطحباً واده أمير قانش رافعاً فروض الولاء:

إنهم يحيون رب القطرين، ويسجنون أمام الإله الكامل، ويمجدون إنتصارات صاحب الجلالة. إنهم يتقدمون حاملين على ظهورهم كل منتجات بلاد الإله، من فضة وذهب ولازورد وفيروز وأحجار كريمة، من مختلف الأنواع، حتى يُمنحوا في المقابل نسمة الحياة^(١١٩).

ومن القادمين من الجنوب يتسلم الملك «ذهب صحراء كويتوس» ومعه في الوقت نفسه ذهب كوش الخسيس، بصفته ضريبة سنوية».

إن من خبر رع سنبل القائم على إدارة معبد آمون والمهندس المعماري، يتفقد قطعان الماشية ويشرف على عمل الحرفيين في معبد الإله^(١٢٠): من صوآخ ونجارين وعمال جلود ومعادن، بينما ينجزون أعمالهم تحت بصر النظرات الشاقبة للكتابة المشغولين.

إنه يتفقد ورشة أشغال معبد آمون وأعمال الحرفيين باللازورد النقي والفيروز النقي، التي أمر صاحب الجلالة بانجازها وفقاً لفكر قلبه، من أجل مباني أبيه آمون في الكرنك، لتظل راسخة ومزدهرة كما (ينبغي أن يكون) عمل (مقنر له أن يقاوم الأيام) للزمن الأبدى^(١٢١).

هكذا ستنبعث إلى الوجود المصروح وممرات الأساطين الفضة والمسلات من بين الأنامل البارة لعمال طيبة تحت إشراف كبير الكهنة.

إن كاهنا معمارياً وخادم آمون الثاني، اسمه هو إم رع، مارس أنشطة مماثلة. كان يشغل منصبه منذ عهد حتشپسوت. إن نقوش مقبرته رقم ٢٩ في

الخوخة^(*)، تصوره وهو يتسلّم هبات الإمبراطورية، من أجل معبد آمون: وهى الهبات الواردة من مستنقعات آسيا (من المناطق الواقعة قرب) دروب حورس وواحات الجنوب والشمال^(١٢٢). إنه يزن أكوام البخور الضخمة ويحصي «ثلاثة آلاف من النباتات الطيبة بأنواعها المختلفة. ويقوم بحصر الأسرى الأحياء الذين عاد بهم صاحب الجلالة من معاركه المظفرة».

ويصفته معمارياً، شارك على وجه التحديد سن موت و چحوتي، فى تجهيز وإقامة المسلتين الشامختين، فى بهو أساطين تحوتمس الأول.

أما أمنحوتب الذى خلف بوى إم رع فى منصب خادم آمون الثانى وارتبط ارتباطاً كاملاً بمعبد إله طيبة، فقد كان مشرفاً عاماً على خزائن آمون ومشرفاً عاماً على شونة آمون المزدوجة، كانت بناته الأربع «منشدات آمون». وكرّست هذه العائلة نفسها لخدمة معبد الكرنك، وصوّر أمنحوتب فى مقبرته بالقرنة وهو يقدم للملك قرباناً من الزهور:

إنه يتقدم فى سلام، حتى مكان وجود العامل الملكى، حاملاً باقة من زهور آمون، رب عروش القطرين فى الكرنك. «إن آمون يثنى عليك ويحبك ويحمالك على مغالبة الأيام، ليته يعطيك الحياة أيضاً والثبات والقوة والبسالة والنصر على شتى البلدان، وتكن صيحتك، صيحة الحرب، فى كافة البلدان الأجنبية، وفقاً لما يأمر به أبوك العظيم آمون، فتظل تحت نعليك^(١٢٣).

كما يصطحب أمنحوتب الملك لتفقد الأعمال الجارية فى المعبد. ولما كانت تستهويه مشاهدة لحظة الفجر الصادق المثقفة، كانت من أمنياته الجنائزية أن يتمكن من «الخروج من المقبرة ليشاهد آمون عندما يشرق فى «روحة الروائع»^(١٢٤) (معبد حتشپسوت الجنائزى).

(*) تل صغير يعترض الوادى، وجبلة الخوخة امتداد لجبلة القرنة، من جهة الشرق. (المترجم)

جدير بنا أن نلاحظ الارتباط الوثيق، القائم بين الإدارة الملكية وإدارة معبد آمون.

كان نخت مين رئيس هيئة موظفي آمون، والمشرف العام على مخزن الإله، بالإضافة إلى مناصب الكاتب الملكي والمشرف العام على الشونة المزدوجة لمصر العليا ومصر السفلى، والمشرف العام على موقع النبيذ والمشرف العام على جياذ رب القطرين.

ورث ابنه من خير الجانب الكبير، من مناصب أبيه، وفضلاً عن ذلك، أضيفت إليها وظائف المشرف العام على شؤون الإله والملك، كما كان من كهنة طيبة بصفته الكاهن صاحب اليدين الطاهرتين. ويرفع إلى الآلهة صلوات مؤثرة من أجل دوام حرثته إلى الأبد:

إنه يقول: أيتها الآلهة التي تقيم في السماء، والآلهة القائمة على الأرض والهة العالم السفلي، أيها الإلهان اللذان يجعلان سقينة رع تشق الماء بقوة دفع المجاديف ويقودان الإله العظيم إلى الأفق الغربي من السماء، ارفعى أقوالى إلى رب الزمن الأبدى، إنها صلاة خادم يثنى عليه سيده. كنت على الأرض، من المقربين المفضلين لدى العاهل الملكي. ليته يتصرف الآن، بحيث أرقد في مكانى في الأبدية واتحد بمقرى للزمن اللانهائى. ليته يهبني أن أكون متالقاً في السماء، قوياً على الأرض ومبرراً في العالم الآخر. ليته يسمح لى أن أدخل إلى المقبرة وأن أخرج منها، على حد سواء، حتى انتعش بفضل ظلك، وارتوى في بركتى، على مر الأيام، وأن يعود «الإخضرار» إلى جميع أعضائى، ليت همى يعطينى الأطعمة والقرايين والنباتات النضرة في موسمها. سوف انتزه في حديقتى يومياً، دون توقف، سوف يحط بأنى على أغصان الأشجار التى زرعته، وامتتع بالجو الرطب في ظل أشجار الجميز وأكل من مثارها. سوف يكون الفم الذى اتحدث به ملكى، مثلى مثل خدام حورس. سوف أصعد إلى السماء، ثم أمبط ثانية على الأرض وإن يعترض أحد طريقي، لن يُبعد كائى ولن يُسجن بأنى. سوف أبقي وسط المقربين المفضلين ووسط الأجلاء. سوف أحرث الأرض

فى حقول البوص، وانضم إلى حقول القرايين^(١٢٥) ليتهم يخصّوننى بإبريق من الجعة وأرغفة الخبز الواردة من قرايين رب الزمن الأبدى. ليتنى ألقى أيضاً وجبات وفيرة من اللحوم، على مائدة قرايين الإله العظيم^(١٢٦).

لا تكمن السعادة الأبدية فى الإقامة فى جنة قصية وخيالية، ولكن أن يعيش المتوفى من جديد، يوماً بعد يوم، اللحظات السعيدة التى عرفها على الأرض، وفقاً لحرية مطلقة وفائقة تتمتع بها حركاته. إن اللحظات السعيدة تعنى التنزه فى الحديقة والانتعاش فى ظلال الأشجار الباسقة والمشاركة فى أعمال الحقول الإلهية، وأن يأخذ من الأكل كفايته. إن جنات مصرىي الأزمنة القديمة تعنى حياة يتوفر لها رغد العيش وحرية الحركة والنشاط.

وكانت متع الدنيا وملذاتها، على القدر نفسه، من الواقعية.

الاستمتاع فى بيته القائم فى طيبة بجوار منزل سيد الآلهة، ثم الذهاب إلى البيت الكبير.... ويروج عن نفسه بالتطلع إلى كل ما هو جميل، وقضاء وقته فى أعمال إلهة الحقول. وعبور المستنقعات واستكشاف الأعشاش والترفيه عن نفسه بطعن الأسماك بالخطاف^(١٢٧).

كان من خير بن مين (أو نخت مين) رجلاً بسيطاً وحكيماً بطبيعة الحال. ولكن ملذاته ومسراته الطبيعية، تشبه مثيلتها عند عامة المصريين، فيعشق الجمال والإنسجام والوقائع الملموسة. كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً.

كان أمنهوتب أحد أبناء نخت مين الآخرين وأخا الآخرين وأخا من خير إذن، «الابن الملكى الأول للإله آمون». ويشير هذا اللقب إلى قائد الموكب الإلهى الإحتفالى^(١٢٨). كما كان ملحقاً بالشعائر الجنائزية الخاصة بالراحل تحوتمس الأول. كانت العائلة مستقرة تماماً فى طيبة، فتقدم خدماتها للإله والملك.

كما تميز بعض الشخصيات الدينية الأخرى، مع انتسابها إلى فئات أخرى من الكهنة، غير كهنة الإله آمون القوى.

كان مين من مدينة أبيدوس، أمير مدينة ثنى(*) والواحة ويشغل منصبى حامل أختام ملك مصر السفلى وكبير كهنة الإلهين أونوريوس وأوزيريس. كان ابنه خادم الإلهة - المقرب سرقت. ويلج موضوع ثابت فى جميع هذه المقابر الطيبية، فنلاحظ إصراراً على تكرار المشاهد نفسها التى تصور اللذات الإبيقورية(**). فيتأمل مين حديقته المزروعة نخيلاً وأشجار جميز، تتوسطها بركة فسيحة، تعطرها أزهار اللوتس وتسبح فيها الأسماك. إنه يتناول الأزهار التى يقدمها له ابنه، ويسعى إلى التمتع بالمسرات المفيدة نفسها، التى سعى إليها الآخرون:

الإستمتاع بقسط من الراحة فى حديقة الغرب ومشاهدة كافة النباتات النضرة... وعبر المستنقعات واستكشاف الأعشاش والترويح عن النفس بطعن الأسماك بالخطاف(١٢٩).

إن ما سبق لا يعتبر شيئاً جامزة تم نسخها، أو مشاهد أعيد نقلها، ونذكر على وجه التحديد التصاوير الكلاسيكية عند القيام بصيد العصافير بعصا الرماية وسط نباتات البردى أو الصيد النهري بواسطة الخطاف. ولكنه تعبير عام عن وجه من وجوه اللهو البدنى، والترويح عن النفس، كما يستشعرها كل فرد حتى الأعماق.

كان مين أحد الذين يشرفون على تعليم وتربية الأمير الشاب الذى سيصبح فيما بعد أمنموتب الثانى. وقد علمه تحديدًا رياضة الرمي بالقوس، وعلى سطح أحد جدران مقبرته رقم ١٠٩ فى القرنة، صُوِّر فى مشهد بعيداً عن أى تكلف وقد أجلس الطفل الملكى على ركبتيه.

أما سن نفر الهليوبوليتانى فقد كان كبير كهنة أتوم ومنسق أعياد أتوم، وإلى

(*) لم تحظ هذه المدينة بنى حمل من أعمال التنقيب، ويعتقد أنها تقع على مقربة من مدينة جرجا أو أسفله.

B. Midant - Reynes. Aux origines de l'Egypte. Fayard, 2003, p. 130. (المترجم)

(**) نسبة إلى الفيلسوف اليونانى إبيقور (٢٤١ - ٢٧٠ ق.م). دعا إلى الاستمتاع باللذات المعنوية. (المترجم)

جوار العاهل الملكى كان أيضاً «حامل الأختام والمشرف العام على الشونة المزبوجة
والمشرف العام على صحارى ذهب آمون».

كانت مغامرة حياته، فى الرحلة التى قادها إلى بيبيلوس، بناء على الأوامر
الصادرة من فرعون، لإحضار خشب الأرز المطلوب لإقامة الساريتين الباسقتين فى
معبد الكرنك. أما المدونة التى أمر بنحتها حول هذا الموضوع على جانبى باب من
أبواب مقبرته فى القرنة فقد أصابها للأسف تشويهاً شديداً^(*).

مدراء طيبة

آمن إم حات، الكاتب

كان آمن إم حات كاتباً مجداً، شغل مناصب «المشرف العام على بيت الوزير
(أوسر) ومدير كافة ممتلكاته». كما كان «الكاتب الذى يحصى غلال آمون فى شونة
الإله، ورئيس هيئة موظفى آمون».

كان مولعاً بالتعرف على أنسابه، فدوّن فى مقبرته أسماء والديه وجده وجدته
وزوجتيه. وبذل فى هذا العمل عناية ودقة تشهدان على مدى إرتباطه بأسرته، إن
مقبرته رقم ٨٢ فى القرنة، من المقابر النادرة فى الجبانة التى زُخرفت فيها حجرة
الدفن.

كان على ما يبدو، رجلاً قوياً مخلصاً لسيدته الوزير الذى يشيد به فى نص
هيبخ بأسلوب منمق، وهو أشبه بتمرير أدبى لكاتب موهوب. ففى نظر المصرى القديم،

(*) تحمل مقبرته فى الشيخ عبد القرنة رقم ٩٩. وهى خلاف مقبرة شخص آخر يحمل الاسم نفسه
ورقمها ٩٦، وتعرف بمقبرة العنب وعاش صاحبها فى عهد أمنموتب الثانى، وسيشار إليها
فيما بعد فى الفصل السادس. (المترجم)

كان جمال النص أو المشهد المصور، على حد سواء، يتألف في المقام الأول من التوازن الصارم لعناصره المكونة والتوافق والإنسجام التشكيليين والسمعيين للعبارات.

تحدث قائلا: أنا خادم ورفيق مخلص لسيدى، وصاحب قلب بارع ينفذ ما يقوله. لقد وضع بيته بأكمله في معيتى. إن صواب ختمه يعود إلى نصائحي. أنا إنسان فطن، عند إعداد حصص بممتلكاته، ساهر على حسن إدارة أشغاله.

وفي ثلاث فقرات منظومة يبدأ أمن إم حلت في استعراض الأنشطة المواتية للوزير أوسر في خدمة الملك والآلهة والبشر:

إن عمدة المدينة^(٥)، الوزير أوسر، يؤدى الطقوس الشعائرية، من أجل الكا الملكى الحى على مدار كل يوم من الأيام. إنه يرفع ماعت نحو سيده، (ماعت) التى ما برح صاحب الجلالة يحبها، فى كل لحظة من اللحظات. ففى كل ساعة من الساعات، يشار إلى أفعاله المباركة.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، يؤدى ما تنشده الآلهة جمعا. إنه يخلق القوانين التى تؤسس القاعدة ويشيد المعابد وينظم قرايينها ويورد أطعمتها ويقدم لها ماعت التى ما برحت تحبها.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، يؤدى كل ما يرغبه الشعب، ويستشير الرقيق الحال والمقتدر، على حد سواء، ويحمى الأرملة التى بلا عائلة ويلطف قلب العجوز الطاعن فى السن. ويقوم الصبية على مقعد الآباء، ويسمح أن تظل البلاد بأسرها فى سلام.

وبعد ذلك، تروى ست فقرات منظومة الأعمال البارعة والبناءة التى قام بها الوزير بمشاركة أمن إم حلت.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، قد أعد عدداً من الأشياء للقصر الملكى، ومى من فضة وذهب ولازورد وفيروز وأحجار كريمة من مختلف الأنواع، فضلاً عن أوانٍ

(٥) نبوت بالمصرية القديمة ومى من أسماء طيبة. (المترجم)

من فضة وذهب ونحاس وبرونز وأثاث من العاج والأبنوس وخشب الصندل. وعُبد الله من أجله، بسبب ذلك. أما أنا، فكنت مشرفاً على هذه الأعمال.

إن عمدة المدينة، الوزير ثوس، قد صنع عدداً من التماثيل للقصر الملكي، وهى من الفضة والذهب والنحاس والبرونز والأبنوس... ومن كل حجر صلد.... أما أنا فكنت مشرفاً على هذه الأعمال.

وفضلاً عن ذلك، فقد صنع هذا النبيل العظيم لنفسه، عدداً من التماثيل من النحاس والبرونز وكافة أشكال الخشب الثمين، لتقام فى معابد آلهة مصر العليا ومصر السفلى، وكنت أنا المشرف على هذه الأعمال.

وأعدّ هذا النبيل العظيم لنفسه، حديقة كبيرة هى آية من الجمال، تقع إلى الغرب من مدينة الجنوب^(١٠)، فيها أشجار رائعة حيث تنبت أطيب الخلاصات العطرية... أما أنا فكنت مشرفاً على هذه الأعمال.

وأعدّ هذا النبيل العظيم لنفسه مقبرة كبيرة، رائعة الجمال فوق التل الصخري بالأرض المقدسة وكانت جدرانها الخارجية الشامخة ملوّنة... أما أنا فكنت مشرفاً على هذه الأعمال^(١١).

أما نص الفقرة السادسة المنطوقة، فهو مشوه تشويهاً بالغاً.

كان يحلو للنبيل أمن إم حات أن يؤلف نصوحاً فى أسلوب منمق.

ويقدم لنا أمنياته عن الأبدية، فى هيئة قصيدة أيضاً:

سوف تدخل إلى الغرب وتخرج منه. وبخطوات واسعة، سوف تعبر باب النوات. سوف تعبد رع عندما يشرق فى تله وتقدم له الشكر والعرفان، عندما يغرب فى أفقه. سوف تتلقى القرايين وتأخذ كفايتك من الأطعمة (المكسنة)، فوق مائدة قرايين سيد الزمن اللانهائى.

سوف تتنزّه فى كل مكان تشتاق إليه، عند الأطراف السعيدة من حديقتك،

(*) نيرت رسيث بالمصرية القديمة وهى أيضاً من أسماء طيبة. (المترجم)

ويبتهج قلبك (لروية) أشجارك، وتنتعش في ظلال أشجارك، (أشجار) الجميز. سوف تكون نفسك في سلام، بينما ترتوى من ماء البئر التي أقمته. وذلك للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى. سوف تفتح تلال الجبانة وتشاهد من جديد بيتك، (بيت) الأحياء وتسمع الأصوات والأغاني والموسيقى القادمة من بابك الكائن على الأرض، وتؤمن حماية أولادك للزمن الأبدى والزمن اللانهائى (١٣١).

هذا التسكع الأبدى والسعيد عبر أرجاء الكون، وفي العالم العائلى على سطح الأرض، هذه الرحلة المفتوحة الخالية من أية قيود، المتجددة على الدوام، تنتقل من السماء إلى الأرض ثم إلى الجبانة، إن هذا العود الأبدى إلى أحضان أفراد العائلة، هو المستقبل الذى يتطلع إليه نخت مين أو مين أو أمن إم حات، فضلاً عن كافة المصريين الآخرين.

أنقف، الأمير والموفد العظيم

إن المقبرة رقم ١٥٥ فى جبانة براغ أبو النجا تخص «أنقف، أمير مدينة شى ورئيس كافة الواحات وكبير موفدى الملك وحامل أختام ملك مصر السفلى وكاتب الحسابات». وفى هذه العائلة، كانت وظيفة الكاتب يورثها الأب إلى ابنه أو إلى أخيه، ولكن كان أنقف على ما يبدو، مثلها الأكثر شهرة.

إننا نعرف الأنشطة الهامة التى كان يمارسها هذا الشخص بفضل لوح حجرى كبير، هو من مقتنيات متحف اللوفر (C26) فى الوقت الراهن، ويحيطنا نص أنقف علماً بمقامات منصب «موفد الملك». إنه عظيم الفائدة وفريد فى بابه تقريباً، ولكن هذه المعلومات أقل دقة ووضوحاً من نص الوزير رخ مى رخ الذى قدّم لنا وصفاً لأعباء منصبه.

إنه النبيل، الأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى والصديق الأوحى وكاتم أسرار الملك فى قيادة الجيش والذى يجمع القضاة والجنود ويحصر الأصدقاء ويتقدم النبلاء ويصطحبهم ويقيم كباراء البلاط الملكى فى أماكنهم. إنه أقوى الأقوياء ومرشد

ملايين البشر ورئيس أرقى الوظائف وأرفعها . إنه صاحب المقعد الأول والحائز المحك في حضرة (صاحب الجلالة) والذي يسجل كلمات سواد الشعب، ويبلغ عن أوضاع الشاطئين وأحوالهما ويتبادل أطراف الحديث في المكان السري، ويدخل حاملاً عدداً من النباتات ويخرج محاطاً بالمديح، ويقيم كل امرئ على مقعد أبيه، ويجعل القلب هادئاً وديعاً ويشي على المقربين المفضلين، وينفع الكبراء إلى النهوض عندما يتحدث، ويضمن حسن سير الأمور في قاعة المحكمة، ويحدد القاعدة في القصر الملكي ويخبر كل امرئ بواجباته ويوزع الهدايا في القصر... ويهدي الأصوات ويأتي بأسمى مراتب الشرف ويحمي القدم في مكان الصمت. إنه الخيط ذو الثقالة في ميزان الإله الكامل، والذي يرشد البشر إلى ما ينبغي إنجازه. عندما يقول ما يجب عمله، فإن ذلك يحدث على الفور، كما لو أن قم الله هو الذي تقوّ بهذه الكلمات. (إنه) يُصدر التوجيهات إلى سواد الشعب، حتى يمكن حصر ما تبقى من أعمال (مطلوب إنجازها)، من أجل الملك، كما يستدير ليوافق كل بلد أجنبي ويعين حكومة زعمائه. إن مشغوليّاته عظيمة الأهمية، عندما يُعدّ حساباته. (إنه) من يعرف ما في قلب العامل الملكي، وهو لسان حال المقيم في القصر وعينا الملك وقلب سيد المقر الرسمي ومصدر التعاليم للبلاد بأسرها. إنه من يكبل الأعداء ويهدي المتمرد... رجل قوى الساعد في مواجهة الصوص، فيطبق العنف على من يزعونه، وقوى ضد الأقوياء. ويخفّض ساعد المتكبر (حرفياً: «من كان ظهره عالياً»^(١٥)). ويحطّم في (كل) لحظة الإنسان صاحب القلب القاسي (حرفياً: الحاد). ويتصرفه يحمل الإنسان العنيف على تطبيق القاعدة والقوانين العادلة التي يمقتها قلبه. كما يتعاطم الرعب الذي يثيره في نفس المجرمين. إنه رب الخوف وسط أصحاب القلب السيئ، والذي «يقطع» الأعداء ويدهر المعتدين. (إنه) رخاء القصر ويسنّ القوانين ويسعد الجماهير من أجل سيده، إنه المؤيد الأول في قاعة المحاكمة^(١٦).

(٥) نذكر في هذا الصدد المثل المصري الذي يدور حول المعنى نفسه: «من له ظهر ما ينضربش على بطنه». ويراد بالظهر هنا الرجل الحامي لغيره. ويقولون فلان له ظهر، أي له من يعتمد ويستند عليه، أحمد تيمور باشا. الأمثلة العامة. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص ٥٦. (المترجم)

إن فيضاً من الكلمات والنعوت على الطريقة المصرية^(*)، يعرفنا بمهام موفد الملك، إنه في أن واحد، المشرف على الإحتفالات ومنظّمها وكاتم أسرار العاهل الملكي والناطق بلسانه لدى الجهاز الإداري، في مصر وأقطار الإمبراطورية، كما أنه يحشد أفراد الجيش ويستدعى المحاكم للإنعقاد. فمن الواضح أنه كان المبعوث الفطن من قبل فرعون.

بعد هذه المجاهرة بأبعاد وظيفته يعلن أنتف صفاته الشخصية وسجاياه ويروى بعض أحداث حياته المهنية:

أتاح لي قلبي إنجاز هذه المهام بفضل التوجيهات التي أملاها عليّ. كان بالنسبة لي شاهداً مفعماً بالبركة، ولم يحدث أبداً أن تجاهلت ما قاله. بل كنت أخشى الخروج على خطة العمل التي رسمها. وهكذا ولهذا السبب كنت في غاية الإزدهار. كنت مفيداً لأنه كان هو بعينه يوجه أفعالي. كنت فطناً حانقاً تحت قيادته.... فهاتف الوحي الإلهي يكمن في كل كائن. إن مستشاري هو الذي قادني على السراط المستقيم للعمل الناجز، أجل، هكذا كنت.

لقد اصطحبت ملك القطرين وتتبعته خطاه في بلاد الجنوب وبلاد الشمال. ووصلت إلى قمة الأرض والتحقت بها في أطرافها، بينما كنت «تحت قدمي» صاحب الجلالة. كنت باسلاً مقدماً ومن أرباب السيف. لقد غزوت باعتباري أكثر (جنوده) شجاعة.... كنت أسير في مقدمة الجيش، (فكنت) الأول. وعندما يصل سيدي في سلام على مقربة مني، كنت قد أعددت (المعسكر)، وجهزته بكل الأشياء الطيبة التي يشتهيها المرء في بلد أجنبي، وزينته، فصار أجمل من قصر مصر، وطهرته ونظفته وجعلته سريراً وزخرفت أجنحته وجهزت كل حجرة بما يلزمها. لقد تصرفت على هذا النحو، حتى يظل قلب الملك في سلام... وحصرت الجزية (المقدمة من) أمراء أركان البلاد وهي جزية من فضة وذهب وزيت ويخور ونبيذ^(١٣٣).

وفضلاً عن ذلك، كان الموفد الملكي يتولى توفير كل ما يحتاجه الجيش الزاحف من إمدادات وتموين. فكان الشخص الذي يوكل إليه العاهل الملكي بكل المهام المادية

(*) مازال المصري المعاصر يطو له ممارسة هذا اللون من الهويات. (المترجم)

التي تضمنت تصريف الشؤون الإدارية على أحسن وجه والسهر على راحة المحاربين أثناء الحملات العسكرية.

لقد ذاع صيت موفداً آخر، في خدمة فرعون وطبقت شهرته الأفاق حتى وصلت إلينا.

أمو - نجح. المهندس والموفد والحاجب

عُثر مؤخراً في حقول طيبة، وعلى بعد مئتي مترٍ إلى الشمال الشرقي من أطلال معبد تحوتمس الثالث الجنائزي، على تمثال مكعب من الجرانيت الأسود، يخص أمو- نجح^(١٢٤)، وكُنّا نعرف هذه الشخصية من خلال مدونات مقبرته رقم ٨٤ في القرنة. كان التمثال قد وضع في هذا المعبد، بإنعام خاص من الملك ليشارك سيوروات فرعون. والتمثال موجود حالياً في متحف القاهرة. أما صاحبه فتُعرفه النصوص على النحو الآتي:

رفيق الملك في تنقلاته، المرتبط بخطوات الإله الكامل والذي لا يبتعد عن رب القطرين، في ساحات القتال، في كافة بلدان الشمال والذي عبر التيار العظيم (نهر الفرات) في أعقاب صاحب الجلالة، لتحديد حدود مصر. إنه الموفد والحاجب الأول في خدمة الملك وحارس الباب والذي يرضى رب القطرين بفضل نصائحه. إنه موفد الملك وصاحبه: أمو- نجح.

في وسعنا أن نعيد صياغة سيرة حياته المهنية على وجه التقريب، وبالفعل فإن لوحاً حجرياً عثر عليه في مقبرته، يروى لمعطاتها البارزة. ومن الراجح أن الرجل قد ولد في عهد تحوتمس الثاني وحصل على أولى امتيازاته، في عهد تحوتمس الثالث:

إنه يقول: رُقيت لأول مرة إلى منصب مهندس في خدمة رب القطرين في العام ١٥ (وذلك) حتى العام... (فجوة يؤسف لها، نظراً لأهميتها!)... لقد تفقدت إقامة المستلن الشامختين التي صنعهما صاحب الجلالة، من أجل أبيه آمون، لقد تفقدت إقامة... (التي صنعها صاحب الجلالة) من أجل أبيه أتوم، رب هليوبوليس، عند مدخل الصرح المزدوج الكبير الذي قام صاحب الجلالة بترميمه وذلك عندما كنت مهندساً.

عندئذ رُقِيت إلى منصب الموفد والحاجب الأول في خدمة الملك، في حضرة البلاد قاطبة. وكلفت بالعديد من المهام. وأقمت العدالة من أجل رب العدالة، لأننى كنت أعرف أنها كانت محل رضا... لقد أنجزت ما كان يتطلع إليه البشر وما يثنى عليه الآلهة... لقد اصطحبت الإله الكامل في مختلف بلدان الشمال الأجنبية، ولم ابتعد عنه فى ساحات القتال^(١٣٥).

واشترك فى العام ٢٢ فى عملية عبور نهر الفرات. فصار عندئذ أحد المقربين من فرعون والمفضل لديه:

إنه قلب رب القطرين والصديق الذى يقارب من الجسد الإلهى وعينا الملك وأذناه... الذى لا يسأم أبداً من الأوامر الصادرة إليه، إنه الساهر ليلاً... الذى يؤتمن على الأفكار... داخلاً محملاً بالأشياء المفيدة إلى المكان الذى يتواجد فيه العامل الملكى... إنه إنسان مستور القم^(١٣٦)، فيما يتعلق بشئون الملك^(١٣٧).

وجمع بين عدد من الوظائف فعين أيضاً «المشرف العام على الشونة المزبوجة لمصر العليا ومصر السفلى». كما كان مكلفاً بتقديم حاملى جزية الشمال والجنوب إلى فرعون. كان رجلاً من رجال العامل الملكى.

كان أمو - نجع صياداً بارعاً يهوى القنص فى الصحارى. كان يعشق «أن تطئ قدماء التلال ويستكشف الوديان ويروح عن نفسه بتصيد السهام فى غزلان الصحارى^(١٣٧)». كما كان يحلو له ممارسة رياضته المفضلة فى مستنقعات الدلتا.

كان إنساناً تقياً ورعاً، يشدو إلى الشمس بترانيم آية فى الجمال. وقد احتفظ اللوح الحجرى الثانى الذى عثر عليه فى مقبرته على هذه النصوص الشعرية:

تمية لك، يا رع، يا سيد الزمن الأبدى، أيها الألوحد المقنود، القيم على الزمن اللانهائى، وأول من أتى إلى الوجود فلا ثانى لك أيضاً، أنت الذى رفع السماء وأقام

(*) نشير فى هذا الصدد إلى الأمثلة الشعبية التى تدور حول المعنى نفسه.

«اللسان عدو القفا» وهولوك يا لسانى ما انسكيت يا قفايا». أحمد تيمور. المرجع السابق.

ص. ص: ٤٢٢ و٤٢٩. (المترجم)

رواسى الأرض. أنت الصبى الجميل الذى أنبثق من نور الذى أخذ يعبر منذ يوم
مجيئه إلى الدنيا. أنت الصقر الرائع المتجلى فى تلكه فى الأفق فيحتفى به القطران
بسبب تومججه. يجوب مصر ويلتف حول الصحراء. إنه الطائر الجارح الذى أنجب
الأقواس التسعة. تحية لك بلا ومن، للملايين المرات فى ساعة واحدة. من أجلك، تتجمع
التهافتات والتهاليل، على قدر عظمتك. لقد جعلت المرء يحصل على المعرفة بلا حدود.
إنك تسهر فى سلام، والنور العظيم الذى جاء من تلقاء ذاته إلى الوجود ساهر،
ويسمح للإنسان أن يمضى مادناً سالماً، فى روحاته.

إنى قادم إلى جوارك، أيا سيدى رع، إنى أعبدك، إنى أثنى على مجدك، المديح
لك، أنت الذى ترضى بالبخور فى حضور نجم الليل، أيا رع، بجميع أسمائه، انصت
إلى، إنى أحدث إليك، حوّل قلبك بصلاتى، لا يوجد إله قط، ينسى مخلوقه. ونسبتك،
نسمة الحياة، يستطيعها أنفى. أجل، إبنى أقف مع الريح العلية (المفيدة) لشئون القلب
ومدائحي تظل فى القصر الملكى، طوال كل يوم من الأيام، لقد رافقت الأمير فى
روحاته وغنواته، ولم ارتكب فى أى حال من الأحوال عملاً خسيساً. ويظل قلبى بجوار
الله. أنا إنسان مزدهر القلب ومزدهر الفم ومزدهر اليد (١٣٨).

لقد ساهم غيرهم، والكثير غيرهم، فى الإرتقاء بالجهاز الإدارى فى طيبة،
واحتفظ الدهر عن هؤلاء الآخرين بذكرهم، فوصلت إلينا، بفضل الصور والنصوص
الواردة مثلاً فى مقبرة أصابها الدمار، إلى هذا الحد أو ذاك، أو على لوح حجرى أو
تمثال، فنذكر منهم، نب آمون (*) المشرف العام على أملاك الملكة نبتو ونفريرت
الساقى الملكى وبنو - ميرووت (أى «الرقيق حُباً»)، المشرف العام على بيتى الذهب
والفضة والمشرف العام على مواقع أشغال العامل الملكى والمتعبد لتمثال أبو الهول فى
الجيزة، بعد أن صار هورس - فى - الأفق....

(*) وهو صاحب المقبرة رقم ٢٤ فى دراع أبو النجا. (الترجم)

إن شخصاً آخر يحمل اسم نب آمون قد خلف وراءه المقبرة رقم ١٧ فى جبانة دراع أبوالنجا وهى على قدر كبير من الأهمية. كان طبيباً، سوف يواصل ممارسة عمله فى عهد أمنحوتب الثانى، ومن المحتمل أن شهرته كانت قد طبقت الأفاق، فباتى الناس من بعيد لاستشارته، وبالفعل صُوِّر على الجدار الشمالى الغربى من القاعة الكبيرة من مقبرته، وصول سورى ميسور، حضر بلا شك ملتصقاً إستشارته الطبية. كانت أتعابه عبارة عن سبيكة نحاس وأوانى ومصنوعات فخارية وجرار نبذ وأربع فتيات سوريات لخدمة نب آمون. وصُوِّرَت فى الصف الأدنى، سفينة سورية من المحتمل أن طالب الإستشارة، قد جاء على متنها، إلى جانب مركبة يجرها ثوران. فهل كانت مخصصة للإنتقال على الطرق البرية بعد أن تلقى السفينة مراسيها فى الميناء؟ أم كانت هدية أخرى؟ ويبدو أن شهرة الأطباء المصريين كانت قد ذاعت، فى أركان الأرض.

الأفارقة

عند نهاية عهد تحوتمس الأول كان سبنى المشرف العام على مدينة الجنوب والمشرف العام على الشئون - قد خلف تورى فى وظيفة «الابن الملكى ورئيس بلاد الجنوب» وهى الوظيفة التى ظل يشغلها فى عهد تحوتمس الثانى.

أما نعى فقد شغل بعد ذلك، منصب نائب الملك، ربما منذ عهد حتشپسوت، ولكن بكل تأكيد منذ عهد تحوتمس الثالث، واعتباراً من العام ٢٣ من عهد هذا الملك على ما يظن، أى منذ بداية تسلمه الفعلى لزام السلطة، وعندما أقام فى وادى حلفا مدونة النصر، ولا ندرى، كم من الزمن على وجه التحديد ظل يشغل هذا المنصب، ولكن لعدد كبير من السنوات، بالنظر إلى المدد الضخم إلى حد ما، من المعالم الصرحية التى تحمل اسمه^(١٣٩). كان نعى فى الأصل كاهناً مرتلاً فى خدمة آمون وهى الوظيفة التى شغلها أيضاً ابنه. وكان نواب الملك يُختارون من بين رجال الإدارة أو الكهنة، وفقاً للإرادة الملكية.

ومن أسوان وحتى جزيرة صاى وفى مصر ذاتها، على حد سواء، يشير العديد من المدونات إلى اسم نعى.

إن نصاً من صاى الواقعة بين الجندين الثانى والثالث لنهر النيل، يذكره على النحو الآتى:

الرجل القوى الفطن المنتسب إلى رب القطرين. لا أحد يستطيع أن يقف أمامه^(١٤٠).

كان موظفاً إمبراطورياً يحضر سنوياً إلى طيبة، ومعه الموارد النفيسة من أراضى الجنوب. ومن جديد هُوَّ موكب حاملى الجزية النوبيين والسودانيين فى المقصورة رقم ١ التى أمر نهي بتشبيدها فى قصر إبريم إلى الشمال من الجندل الثانى:

أنا الخادم المفيد لسيدته والذى يملأ بيته بالذهب ويضئ وجهه الحورس، بفضل منتجات بلاد الجنوب، (أنا) صاحب المدائح التى ترتفع فى حضور ربه^(١٤١).

كما أن مدونة فى معبد سمئة تكشف عن أمر ملكى صادر إلى نائب الملك:

يُصدر الملك أمره إلى الابن الملكى نهي، المشرف العام على بلاد الجنوب، بأن ينقل بالسفن حجر بلد شامت... على متن الصنادل، لإعادة تشييد معبد من أجل أبيه نبيون القائم على رأس النوبة - وكان هذا المعبد قد شيد فى السابق من الطوب وتهدم الآن^(١٤٢).

إن هذه الوحدة الروحية بين الآلهة المصرية والنوبية واضحة للعيان فى تصوير منحوت على الجدار الشمالى من مقصورة نهي فى قصر إبريم. فأمام آمون - رع المتربع على عرشه فى عظمة وجلال، يقف صف من سبعة آلهة «إقليمية»: «هورس رب ميعام، الإله العظيم سيد السماء» و«هورس رب بوهن، الإله العظيم سيد مصر العليا» و«هتخور سيدة إيبشك» (أو غرب فارس بشمال وادى حلغا) المقيمة فى إلفنتين و«هورس سيد باك» و«خنوم»^(٥) سيد الجندل^(٩) و«ساتيس»^(٥) سيدة إلفنتين و«أنوكيس»^(٥) القائمة على جزيرة سهيل، سيدة السماء وسيدة القطرين^(١٤٣).

(٥) (لزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. (الترجم)

وباختصار فإن هذه الآلهة يجمعها واقع الجوار وتوحد بينها رابطة إمبراطورية، يقف على رأسها ملك الآلهة، آمون-رع.

لم يُعثر على مقبرة نحى. ولكن عدداً من الشواهد يرجح وجودها فى طيبة: فقد عثر له على تمثال فى النهر البحرى^(١٤٤)، وتم الكشف عن تمثال أوشبتي^(١٤٥)، خلف الرامسيوم يحمل اسمه^(١٤٦).

كان تمصير بلاد النوبة قد قطع شوطاً كبيراً. وفى عام ١٩٥٥ وبناء على توجيهات جان فيركوتير Jean Vercoutter جرت أعمال التنقيب فى موقع غرب دبيرة على بعد عشرين كيلو متراً شمال وادى حلفا. وتم الكشف عن مقبرة منحوتة فى الصخر لصاحبها جهوتى - هوتب أمير بلدة سيرة^(١٤٧). وفيما نعلم، فإنها المقبرة الوحيدة المزخرفة فى النوبة وتعود إلى الأسرة الثامنة عشرة. ونعرف هذا الشخص من خلال قطع أثرية أخرى: إنه تمثال عثر عليه فى بوهن وجزءان من لوح حجرى. كما كان أبوه أمير سيرة. هل كان مصرياً ضابطاً يقيم فى الجنوب، وكان نوبياً متمصراً؟ إن الفرضية الثانية هى الأقرب إلى الصواب.

كان معاصراً للحكم المزدوج للملكة حتشپسوت وتحتمس الثالث. وبالفعل فقد كان «القائد المقدم لسيدة القطرين». ولكن من بين الأمنيات التى أبدأها، رغبتة فى الحصول على «العظوة والعب والشهرة، فى حضرة العاهل الملكى. وعلى الحياة المديدة بصفته رئيس الأجنحة الخاصة بالملك». ويبدو أن تحتمس الثالث كان يُنظر إليه منذ ذلك الزمن، بصفته الإله المتربع على العرش. ويطلق عليه عبارة «الإله العظيم فى بلدة سيرة». وهذا بفسر تقديم القرىان التقليدى فى هيئة باقة زهور، إلى العاهل الملكى، وهو الموضوع الثابت الذى يُصور أيضاً فى أغلب مقابر طيبة:

تقبّل باقة زهور حور أخشى هذه. ليت الإله يثنى عليك ويحبك ويمنحك طول الحياة... لبتة يعطيك البسالة والنصر على كافة البلدان.

(*) تبعد ٢٠ كم شمال وادى حلفا. (المترجم)

وقد تلتقى بمشاهد الحفلات الموسيقية والرقص ومشاهد الولائم، فى أية مقبرة من مقابر طيبة. فالمواضيع والألوان والأسلوب واحدة. أما مشهد الحديقة بمشتل النباتات ورى الأشجار، فهو فقط الذى يستحضر المنظر الطبيعي النوبى، وبنكرنا به.

كل ذلك يبرهن على أن رجال الجنوب، ومنذ عهد تحوتمس الثالث، وبعد أن اتخذوا لأنفسهم أسماءً مصرية، كانوا قد استوعبوا أعراف وعادات وتقاليد عاصمة البلاد، فاندمجوا إذاً صبح التعبير فى الإمبراطورية، ولكن هذه المقولة سليمة وصحيحة بالنسبة للنوبة^(*). أما كوش^(**) فقد ظلت أكثر معاندة وصعبة المراس.

٤- الفن والخلود

الفن فى مصر خط دفاع لمقاومة الموت. إنه زخرف مهيب وسحرى غايته البعث واستعادة الحياة. إن المعالم الأثرية الشامخة من معابد أو مقابر، هى بيوت للملايين السنين أو الأبدية، خصصت للآلهة أو البشر. إنها تحمى الحياة التى تولد من جديد إلى أبد الأبد. إن المنحوتات وفنون الرسم تقدم أغلفتها، وهى من حجر أو ألوان، لفائدة العناصر الحيوية للكانن المتطلع إلى استعادة الحياة، فيولد من جديد. فالتمثيل والنقوش والرسومات ليست أشياء ثابتة أو «لقطات فورية»، تصور لحظة بعينها، بل إنها مستودع عناصر كامنة، مهياة لاستقبال الحياة فتنتعش بالحياة، إستناداً إلى تصور روحانى للفن، له جذور متصلة وطى قدر كبير من التطور. كما أن الإسم الذى يطلق فى كثير من الأحوال على النحات، خير شاهد على ذلك: فهو سى «نخ أى «مذا/ الذى يعيد إلى الحياة». فمع كل حركة من حركات منحاته أو إزميله، يستعيد العمل الأصلى الذى قام به الإله الخالق.

(*) أو ولوات عند المصريين وهى النوبة السفلى. (المترجم)

(**) أو النوبة العليا وتمتد إلى الجنوب من الجندل الثانى. (المترجم)

في هذه الأزمنة التي شامت الفتوحات في البلدان القصية وعندما كانت المواد الأولية والأيدى العاملة متوفرة، كانت المباني الشامخة تُشيد بأعداد كبيرة وتقف شاهداً على عظمة آمون-رع والآلهة الملهمة التي أوحى بتحقيق توجيه هذه الانتصارات وكبرى مآثر العاهل الملكى وازدهار البشر. كان الفاتحون المصريون على الدوام بناة نشطين، سواء في مصر أو في الأراضى الإفريقية، التي كانت تعتبر امتداداً طبيعياً للوطن الأم، ناحية الجنوب.

معالم مصر الصرحية

من المعتقد أن الكرنك في عهد تحوتمس^(١٤٩)، كان يظهر للناظر إليه، في هيئة موقع عمل شاسع، فترتفع فيه المباني، ويعمل فيه عمال ينحدرون من أصول مختلفة، وينكبون على تشكيل المواد الأكثر قيمة. فأقيم صرحان جديدان عند المحور الشمالى الجنوبي للمعبد، هما الصرح السابع والصرح الثامن. ويتكون الصرح السابع من برجين من الحجر الرملى يكتنفان باباً من الجرانيت الوردى. إن سلماً داخلياً يفترق كتلة الصرح، ليرتفع من قاعدة الواجهة الشرقية من البرج الشرقى ليصل إلى أعلى الصرح. ومن المحتمل أن ارتفاع الباب كان يصل إلى ١٣ متراً. ويمكن أن نشاهد على الوجهتين الجنوبية والشمالية للبرجين تحوتمس الثالث في هيئة ممجدة وهو يذبح أعداءه^(١٤٩). وأمام دعامتى الباب أقيم تمثالان عملاقان ملكيان من الجرانيت الوردى، وعلى قاعدتى التمثالين صُورت أشكال بيضوية مسننة تضم أسماء الشعوب المهزومة بما يتلق والأيقونوغرافيا التقليدية. فدُون النوبيون في الجانب الشرقى والأسسيويون في الجانب الغربى. وأمام التمثالين الملكيين أقيمت مسلتان من الجرانيت الوردى أيضاً. إحداهما في إسطنبول في الوقت الراهن. أما الأخرى فقد تهشمت ويرقد حطامها على الأرض.

لا شك أن بناء الصرح الثامن قد بدأ في الفترة التي كانت فيها حتشپسوت «وصية» على العرش. ويعد وفاة الملكة قام تحوتمس الثالث بإزالة اسمها ليحل محله

اسم تحوتمس الثانى. وأقيمت ستة تماثيل ملكية عملاقة من الكوارتزيت الأحمر والحجر الجبرى أمام الواجهة. ومن الأمور الفريدة غير المألوفة، أن جداراً منخفضاً من الحجر الجبرى، مستدير القمة كان يحيط بالصرح عند قاعدته.

وكان جداران يربطان طرف جناحى الصرح الثامن بطرف جناحى الصرح السابع ليحددا مساحة فناء. ولم يحفظ لنا الدهر سوى جزء من الجدار الشرقى وفى حدود صفة^(*) الأدنى.

وعلى محور المعبد الغربى الشرقى شيد تحوتمس الثالث الصرح السادس فى الفناء الذى تكتنفه الصفات والذى أقامه تحوتمس الأول، وإلى الشرق من الصرحين الرابع والخامس. وقد شيد من الحجر الرملى. والنقوش التى يزدان بها الصرح تخلد انتصارات مجنؤ، على البرج الشمالى، والإبقاء على شعوب الجنوب خاضعة لمصر، على البرج الجنوبى.

وفى مدونة العام ٤٢، المنحوتة فى الحجرة القائمة جنوب قدس أقداس الكرنك، وعلى الواجهة الخارجية من الجدار الجنوبى قام تحوتمس الثالث شخصياً، باستعراض مجمل المبانى التى نفذها فى معبد آمون. إن هذا النص جزء متمم لنص إختيار الملك من قبل آمون. إن المقارنة بين النصين ليست محض صدفة.

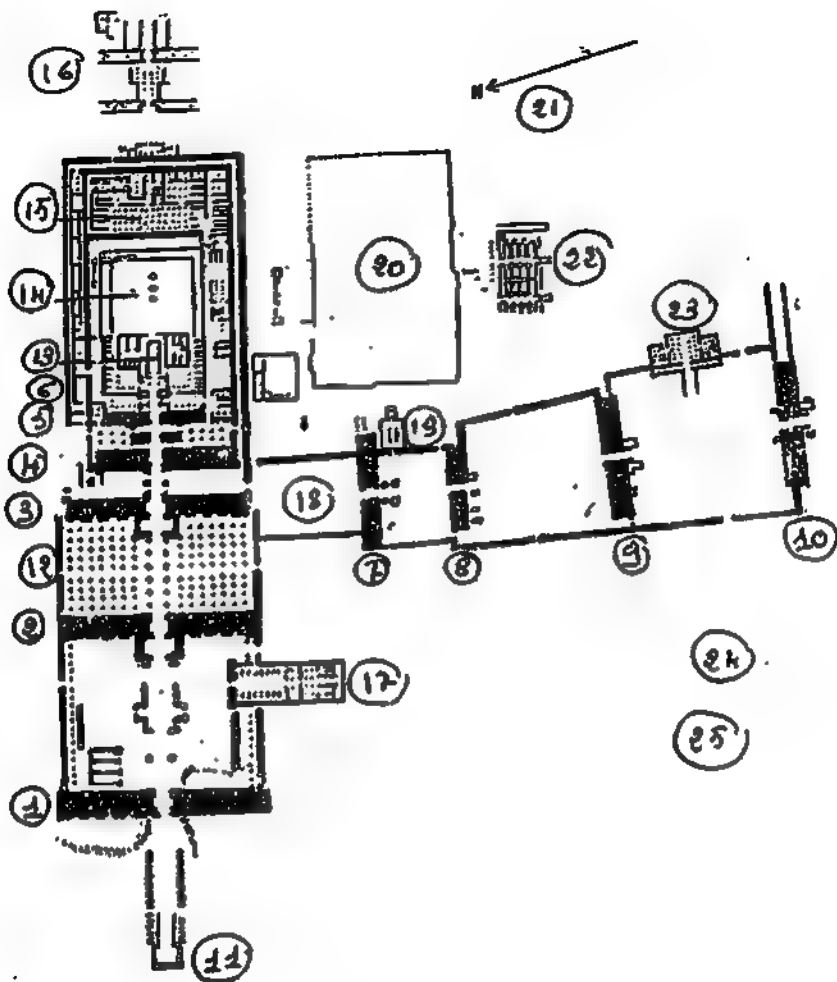
لقد أقام جلالتي معبدأ (اسمه) «مقر قلب آمون». إن عرشه العظيم يشبه أفق السماء، وقد بنى من الحجر الرملى الوارد من الجبل الأحمر، والداخل مكنت بالذهب الخالص...

لقد أقام جلالتي ثلاثة أبواب. (اسم الأول: «من خيبر رع وأمون يتمتعان بمكانة مقدسة». والثانى: «إن حظوة من خيبر رع ثابتة بجوار آمون». والثالث: «عظيم هو مجد من خيبر رع وأمون». كانت (الأبواب الثلاثة) مكنت بالذهب الخالص.

(*) (الصف registre: تقسيم أفقى فى الزخارف الجدارية المصرية، ينقسم بدوره إلى عدد من اللوحات. (الترجم)

بيانات معبد الكرنك

الصرح الأول	1
الصرح الثاني	2
الصرح الثالث	3
الصرح الرابع	4
الصرح الخامس	5
الصرح السادس	6
الصرح السابع	7
الصرح الثامن	8
الصرح التاسع	9
الصرح العاشر	10
المرسى	11
بهو الأساطين	12
مقصورة المركب المقدس	13
فناء النواة الوسطى	14
الآخ منو (تحوتمس الثالث)	15
معبد رععمسيس الثاني الشرقى	16
معبد رععمسيس الثالث	17
فناء الضيئة	18
معبد تحوتمس الثالث	19
البحيرة المقدسة	20
مساكن الكهنة	21
حظيرة الطيور	22
معبد أمنحوتب الثاني	23
معبد خونسو	24
معبد أوبت	25



مسقط أفقي لمعبد الكرك

(إن عناصر أية بناءة تحمل جميعها اسماً محدداً. وهكذا كلما ذكر هذا الاسم كان يعنى ذلك بث الحياة فى الأمجاد التى يعبر عنها. وهذه الأبواب الثلاثة هى أبواب حجرة الحوائيات بجوار منطقة قدس الأقداس).

ويفضلها كان يوسع ماعت أن تدخل... لتشيع أجواء العيد فى المبنى. كان (أمون) يبتهج بسبب العبادات التى تخصه. فافعل ما كان يحبه. كما يتخذ بصاحب الجلالة فى الحياة والقوة والسعادة للزمن اللانهائى.

كما أقام جلالتي صرحاً مقدساً كان جزءاً من داخل المعبد (وهو الصرح السادس). كان مكفناً بالذهب. وأقمت من أجله باباً شامخاً مشغولاً بخشب الأرز النضر ومكفئ بالذهب، ومفشى بالنحاس الأسود الصافى... (?) والبرونز. والاسم العظيم (الذى كان مدوناً) عليه كان من الذهب الخالص والذهب المزوج والنحاس الأسود...

كانت قواعد الأساطين من الذهب المزوج، كما صنعت، لتشبه أفق السماء. كان ذلك أجمل من كل ما وجد من قبل...

... ومقاصير من الحجر بأبواب من خشب الأرز النضر، لتضم تماثيل جلاتي فضلا عن تماثيل آبائي من ملوك مصر العليا ومصر السفلى.

تم توفير إحتياجات الأملاك المقدسة على نطاق واسع:

وأعدّ جلاتي من جديد حديقة لتقديم مختلف الأزهار والنباتات النضرة والجميلة للإله. كما وهب جلاتي الحقول: ١٨٠٠ أورو (حوالى ٥٠٠ هكتار) (*) لإنتاج القرايين الإلهية. كما وهبت فضلاً عن ذلك أملاكاً أخرى عديدة فى مصر العليا ومصر السفلى.

ووفرت لمعبده... وألحقت به الخدم والخادومات. وحشدت فيه أسرى من بلاد الجنوب والشمال: وهم أولاد زعماء ويقتو وأولاد زعماء خفت - إن نفر، وهو ما أمر به أبى أمون، رب عروش القطرين.

(*) لو ما يعادل ١١٩٠ فداناً. (المترجم)

كما وهبه جلالتي أيضاً بقرات حلوب لتوفير اللبن الطازج على مدار كل يوم من الأيام وخصّص (الماء) أباريق من الفضة والذهب والبرونز، أعاد جلالتي صنعها من أجله...

كما قدّم له جلالتي أشياءً متعددة عظيمة الأهمية:

- إناء كبير من الذهب الخالص ارتقاه سبعة أذرع....

- (مراكب)... من الفضة والذهب والبرونز والنحاس. كانت تتألق على صفحة الماء فيغمر لمعانها القطرين، وكأنها النجوم العالقة بجسد نوت.

- كان تمثالي ملازماً لمائدة قرابين من الذهب الخالص...

لقد صنعت ذلك من أجله، وكأنه إبداع من خلق قلبي، تنفيذاً لتوجيهات الإله ذاته، وكأنه عمل (خرج) من بين يدي هذا - الذي - يقيم - جنوب - جداره (پتاح، راعي الصوآغ والحرفيين). ولم يكن قد صنّع شئ مماثل من قبل، في هذا البلد، منذ زمن الأجداد.

كما قدّم له جلالتي زلعتين كبيرتين من الفضة.... وصنعت من أجله العديد من قطع الاثاث المكفّته بالفضة والنحاس الأسود.... وقيثارة نفيسة مطعمة بالفضة واللآزورد والفيروز وكافة أنواع الأحجار الكريمة الرائعة، حتى أتعبد لجمال جلالته إبان إشرافاته المتألقة وفي أسمائه (١٥٠)...

ما نشاهده اليوم في الكرنك، ليس سوى هيكل عظمي من الحجر للمعبد في زمن التحامسة الذي كان مهيباً وفضاً يتألق ذهبه ويتلألأ من غزارة بريق الفضة والبرونز والنحاس، وسطوع ألوان الأحجار الكريمة التي تغطي الصروح والأساطين ومقاصير قدس الأقداس والقطع المقدسة^(*). كان معبد الكرنك بأشكاله^(١٥١) وألوانه

(*) (الزائر الذي يتجول في أيامنا هذه، في أرجاء الكرنك، إذا أراد أن يشحذ خياله بهذه الرؤية، سوف يشهد معبداً جديداً، بُعث فيه الحياة، فصار أشبه بما كان عليه، في أوج ازدهاره. (المترجم)

مختصراً موجزاً للكون. كان «طريقاً» آخر تسلكه الشمس. وعلى الأساطين الأربعة التى أضافها تحوتمس الثالث إلى قاعة الأساطين^(٥)، أمر بتدوين الجملة الآتية: «الكرك ثابت ثبات السماء» على عُمدها الأربعة». كل شئ هنا قائم على علاقات التماثل والتوافق والروابط الأسطورية، فى إطار فكر يرى أن أعمال «البناء والتشييد» لا تختلف عن عمل الإله الخالق. فيقبل المصرى على محاكاة هذا الفعل الأخير، لتظل أيضاً المباني التى يشيدها أبدية تغالب الزمن، أسوة بعالم اليوم الأول.

كما تشهد أيضاً، على التوافق الذى ظل قائماً بين الآلهة والملوك. فيقدم آمون الشكر على كل هذه الروائع التى جعلت من الكرك، أحد الأماكن المقدسة الأكبر والأكثر ثراءً، على مستوى العالم:

مرحباً، مرحباً، فى سلام، يا بنى الذى من صلبى، أيا محبوبى من خهر رع، إن قلبى سعيد بسبب الحب الذى تكَنَّه نحرى. إنى أستريح فى هذا الأثر الذى شيدته من أجلى، لقد جعلت معبدى. إنى أمنحك ميراثى على امتداد حياتك وبالقوة، فتستحوذ على القطرين بفضل القدرة، بينما تتجلى متأنفاً مثل أبيك رع^(٥٢).

وإلى جوار معبد آمون - رع العظيم فى الكرك أقام تحوتمس الثالث معبداً أُملى تصميمه مفهوم له سماته الخاصة. وأسماء آخ - منو أى «البناء المتألق». تم افتتاحه «فى اليوم الأخير، من الشهر الثانى، من فصل هرت^(٥٣)، من العام ٢٤، يوم العيد العاشر من أعياد آمون فى الكرك»^(٥٤)، وذلك استناداً إلى النص الوارد على لوح حجرى تذكارى. ويرى پول برجيه Baul Bergue^(٥٥) أنه معبد مخصص لتجديد العاهل الملكى وإحيائه. فيتصل شخص الملك إتصلاً مباشراً ببنيه آمون - رع الذى

(٥) ومى بالطبع غير بهو الأساطين الزائع الشهرة الذى أقامه سبتي الأول وحمسيس الثانى بين الصرحين الثانى والثالث. أما قاعة الأساطين المقصودة هنا، فتقع بين الصرحين الرابع والخامس. راجع:

J.C. Golvin et J.C. Goyon. Les Batisseurs de Kamak. CNRS. 1987. PP. 63-

64(الترجم)

(٥٥) وهو فصل البذر أو الشتاء. (الترجم)

يمدّه بجوهره الإلهي، في مجرى الإحتفالات الدينية السرية التي تحدث إبان العيد سد، وهو العيد النيوبيلى الذى يمنح الملك بصفة ثورية، القدرة على تجديد حيويته وشبابه^(*). لقد أقيم هذا البناء إلى الشرق من المعبد الكبير، على المحور الشمالى الجنوبى، وهو إذا صح التعبير قلب القسم المخصص لأجنحة قدس أقداس الكرنك والذى تدور فيه الشعائر التى تقيم رابطة حميمة، بين الله والفرعون، وتسعى هذه المشاهد وهذه النصوص، إلى تخليد هذه العملية التى ترمى إلى إعادة النشاط إلى العامل الملكى وإنعاشه، فضلاً عن تخليد هذه المشاركة مع الإله.

وأمام مدخل هذا البناء الشامخ، أقيم أسطوانان من الحجر الرملى نوا ستة عشر ضلعاً، يطلق عليهما اصطلاحاً البروتودورىان^(*) Protodoriques. ومن الباب ذاته، لم يتبق سوى العتبة، وهى من الجرانيت الوردى. وعلى الجانبين كان تمثالان عملاقان يصوران الملك مرتدياً الملابس النيوبيلية. وبعد أن يعبر المرء الباب، يصل إلى دهليز يفضى إلى حجرتين واحدة فى الشمال والأخرى فى الشرق. وعلى اليمين، أى جهة الجنوب، كان دهليز طويل يؤدي إلى تسع حجرات مخازن تزدان بمشاهد المعبد والقرايين. ونُحت نص مسهب فوق واجهة الحجرات الست الأولى. فبعد أن ينتهى الإله تحوت، الكاتب الإلهي، من قراءة مرسوم أمون - رع لصالح تحوتمس الثالث، على مسامح آلهة مصر العليا ومصر السفلى، بدأت هذه الأخيرة تردّ على ما قيل:

لقد حضرنا إليك، يا [سيد كلمات] الآلهة، القائم فى حسرت (مكان عبادة تحوت)، لقد لحقنا بك بعد أن تحدثت إلينا، كما أننا سعداء الآن، لأنك استعنت بنا. لقد استمعنا إلى هذا المرسوم الذى أصدره أمون - رع لصالح ابنه من خهر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، محبوبه تحوتمس، الحاكم الإلهي وحاميه الذى أشرق فى طيبة وخليفته الملكى له الدوام، إنه ابنه، الإبن البكر (حرفياً: هذا الذى فتح بدنه) ووريثه الذى بلغ حد الكمال ورب القطرين من خهر رع. إننا نطهر مكان وجود صاحب

(*) مصطلح بروتودورى يعنى الطراز الفورى الأولى أو السابق عليه. والطراز الفورى من الطرز المعمارية اليونانية. (المترجم).

الجلالة، إننا نربط من خلفه حمايتنا السحرية، إننا نعبد جماله المتألق، إننا نجمع من أجله كافة القرابين، تنفيذاً لرسوم آمون لصالح ابنه من خير روح للزمن اللانهائي^(١٥٦).

الجدار الشمالي من الدهليز مزخرف بمشاهد تصور مختلف فقرات العيد اليوبيلي^(*) وهكذا فمئذ لحظة دخوله هذه المقصورة، تتم مراسم تنصيب الملك وإضفاء القداسة عليه، بفضل الشعائر الدينية ومن قبل الآلهة.

يتكون وسط أخ منو من بهو كبير طوله ٤٠ متراً، نطلق عليه "بهو الأعياد". وقد شُيّد بالكامل من الحجر الرملي. إن ٢٢ عموداً مربعاً تحيط به، لتشكل حدود صحن شاسع، يتكون من صفين من عشرة أساطين لكل صف، وترفع سواكف السقف، وتتخذ التيجان شكلاً مميزاً يحاكي أوتاد الخيمة^(**). إن مكعباً يفصل التاج عن الساكف. ولأن السقف صورة من السماء، فهو باللون الأزرق ومرصع بنجوم صفراء، فالنحاس هو المادة التي تتكون منها النجوم^(١٥٧). إن مجمل الأعمدة والأساطين تقسم البهو إلى خمسة أروقة، ويرتفع سقف الصحن قليلاً مقارنة بسقف الجناحين الجانبيين ليلتزم بالتخطيط البازيليكي الذي سيسود في عصر الملوك الرعامسة^(***)، وتعتمد الإدارة الداخلية على الكوات الجانبية التي فتحت قرب سقف الصحن.

تلتزم المشاهد المنحوتة باتجاه له وجاهته ودلالته. وبالفعل فإن المحور الغربي الشرقي للمعبد الكبير يقسم بهو الأعياد هذا، تقسيماً إفتراضياً إلى قسمين، يتجه أولهما ناحية الجنوب والآخر ناحية الشمال. إنهما الإتجاهان الرئيسيان للنظام الملكي المصري ويقومان بدور بارز في المشاهد المطلقة. إن أخ - منو ليس بناية مستقلة عن المعبد الكبير، إنه إضافة مادية وروحية مكمل له.

وعلى الأساطين نحتت نصوص بعلامات هيروغليفية هي أية في الجمال، وتذب

(*) أو العيد سه. (المترجم).

(**) يطلق على هذه الأساطين مصطلح أسطون الخيمة. ومن أمثلتها الأخرى أساطين مركب خوفو

في المتحف المخصص له خلف هرم فرعون مصر العظيم. (المترجم)

(***) لينتقل بعد ذلك إلى كتائس الغرب. (المترجم)

الحياة في مجمع الآلهة المصرية وتتأذى بعضها بعضاً، تنتظر بإعجاب إلى عمل
تحتضن الثالث:

كلمات قالها تحوت إلى التاسوع الإلهي:

تعال لمشاهدة هذا المعبد الجميل، المتين، الكبير، المفعم بالبركة الذي أقامه من
أجلك، ابنك المحبوب ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خير رع.

كلمات قالها ملك الآلهة آمون - رع إلى التاسوع المقيم في أخ - منو: تعال
لمشاهدة هذا الأثر الجميل الطاهر الذي أقامه من أجل ابنك الذي من صلبى، إنه
محبوبى من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الذى خلقته، منبتقاً من
أعضائى، المتفرد من بينكم، إنه ابن رع، تحتضن حاكم طيبة، الذى جعل هذا المكان
رائعاً، من أجل الآلهة، أعطوه الحياة والثبات والقوة، مثل رع، للزمن اللانهائى.

كلمات قالها التاسوع المقيم في أخ - منو إلى آمون - رع، أول الآلهة:

يا لجمال ما صنعه من أجلك، ابنك المحبوب «من خير رع - الذى - أنجبه -
رع». لقد جمل معبد أبى آمون - رع بفضل أحجار طرة الجميلة البيضاء. هكذا
صرت عظيماً، أجعله يتجدد ليظل شاباً على الدوام، حتى يستطيع العناية بمعبدك
والحفاظ عليه. أمنحه سنوات مديدة، مكافأة له، ليظل قلبه سعيداً على عرش هورس
مثل رع للزمن اللانهائى.

كلمات قالها آمون - رع ملك الآلهة (إلى العامل الملكى):

أيا بنى المحبوب، أيا «تحتضن - صاحب - الصيرورات - المتحدة»، الذى
شيد معبدى وجمل معبدى بواسطة بناية كاملة الكمال. إنك ابنى، حامى أبائك، الذى
يكرم الأجداد الذين خلقوك، إنى أعطيك المياة والثبات والقوة كلها، والإزدهار كله إلى
جوارى، مكافأة لك، مقابل هذا الأثر الذى سيدوم إلى الأبد والذى شيدته من أجلى.
ليتلك تظل تعمل وأنت على قيد الحياة، على امتداد الزمن اللانهائى (١٥٨).

إن مجموعتين من الحجرات الملحقه تكشف عن أيديولوجية راسخة الأركان:
فالحجرات الواقعة إلى الجنوب الشرقى مكرسة للإله سوكر، وكان فى الأصل الإله

الجنائزى لجبانة منف. إنها مرتبطة بالعالم السفلى. وقد صوّرت مشاهد تشير إلى إحياء الملك بعد وفاته الإفتراضية والعابرة. وفى الشمال الشرقى، كُرست الحجرات - الشمسية إلى آمون نى العضو الذكر المنتصب، كشاهد على استعادة الملك حياته وتجديدها، على غرار ما يحدث للشمس، على امتداد دورات لا نهاية لها.

إن نصاً مشوهاً للأسف تشويهاً بالغا، يؤكد على ما كان عليه هذا الأثر العظيم فى الأصل من روعة وبهاء. وما زال فى إمكاننا أن نقرأ أن الأبواب كانت من خشب الأرز والأعمدة والأساطين مغطاة بالذهب الخالص والفضة واللازورد والفيروز. حقاً لقد كان الكرنك «أفق السماء»، متألّفاً بما يشع من ضياء.

وخارج معبد آمون - رع ولكن على المحور شرق - غرب نفسه، ويرتبط به ارتباطاً لصيقاً، أمر تحوتمس الثالث بإقامة معبد آخر يفتح جهة الشرق، ويستند إلى جدار السور الذى شُيّد فى العام ٢٠. إنه معبد تحيط به الأساطين ويضم حجرة عند الواجهة وستة أعمدة أوزيرية تربطها الجدران، بالإضافة إلى ثلاث حجرات تطوق الناوس الذى قُطع قطعاً فى كتلة ضخمة من الألبستر ويظلّ تمثالين يجلسان جنباً إلى جنب ومتصلين عند الكتف. إنهما تحوتمس الثالث الذى نون اسمه على عروة الحزام وآمون الذى فقد أعلى جزعه. كانت مسلتان شامختان تكتنفان هذا المعبد وقد شيّدتها الملكة حتشپسوت واغتصبتها تحوتمس الثالث.

وفى الكرنك أيضاً، وفور عودته من الحملة العسكرية الأولى، أمر العاهل الملكى بترميم معبد مكرس للإله پتاح يقع إلى الشمال من فناء الدولة الوسطى، أما الأعمال التى تم تنفيذها فيرويهما لوح حجرى ضخم من الجرانيت الأسود ارتفاعه ١٥٠سم، عثر عليه فى المعبد ذاته ونقل إلى متحف القاهرة.

أمر جلالتي بإعادة بناء معبد پتاح - الذى - يوجد - جنوب - جداره والقائم فى طيبة، ويشكل «محطة» يتوقف عندها أبى آمون - رع، رب عروش القطرين، يوم «دخول الإله»، وإبان كافة الأعياد على مدار السنة، عندما يسير فى إتجاه كنوزه فى الجنوب.

لقد اكتشف جلالتي أن هذا المعبد الذى سبق أن شُيّد من الطوب وبأساطين

وأبواب من الخشب قد تهتَم. عندئذ أمر جلالتي بمدّ المظمار عليه^(٩) ليشيّد بحجر رملي أبيض جميل. أما السور المحيط به فهو من الطوب. إنه عمل صنم ليوم الزمن اللانهائي. ومن أجله، أقام جلالتي أبواب من خشب الأرز النضر، ومن أحسن الأنواع الواردة من موانئ البحر المتوسط، وقد غُشيت بنحاس آسيا. هكذا سيعاد تشييد معبد يتاح الجديد، على اسم جلالتي. لم يحدث أبداً من قبلي، أن أنجز مثل هذا العمل من أجله.

كما سمع جلالتي بأن يكون راسخاً متيناً. كما شيّدت ضخماً وأكبر مما كان عليه، من قبل. ومن أجله طهرت عرشه العظيم المصنوع من الذهب الخالص ومن أفضل ما أخرجته الصحارى. كانت جميع الأوعية (المقدسة) من الذهب والفضة والأحجار الكريمة المتنوعة والرائعة. كانت الأقمشة من أرق أنواع الكتان الأبيض والأدهان ضمن ممتلكات الآلهة وذلك من أجل إقامة الطقوس الشعائرية، إبان الأعياد (عند الإحتفال) بمطلع كل فصل من الفصول، والتي كانت تقام من قبل في هذا المعبد. هكذا أمر جلالتي بأن يُسمع (للإله يتاح) بأن يأتي ليستفيد راضياً بعرشه، وملأت معبده بكافة الأشياء الجميلة والطيبة بأنواعها^(١٠).

وعلى البر الغربي من مدينة طيبة وفي مدينة هابو تحديداً، وأصل تهوتمس الثالث بناء المعبد الذي بدأه جدّه تهوتمس الأول - بل ربما أمنهوتي الأول. وفي الوقت الراهن يتوارى المعبد جزئياً خلف المباني الشامخة التي أقامها الرعامسة في وقت لاحق^(١١). إنه جزء من مجموعة أطلال تضاهي مثيلاتها في الكرنك، بما لها من وقع حسن في النفس. إن تناسق البناية التي تحيط بها الأعمدة تناسق أنيق، وأبعد ما يكون عن الإبتذال. وتتكون أساساً من قدس أقداًس، محاط برواق خارجي، يستند من ناحية الشمال إلى كتلة مكونة من ست حجرات صغيرة تعلو فوق ركيزة ارتفاعها ٧٧سم. وللرواق حوائط نصفية توفر فتحات فسيحة يدخل منها النور. وينتهي

(٩) خيط يمدّ على البناء فيبنى عليه. المعجم الوسيط. (المترجم)

(١٠) وعلى رأسها معبد وعمسيس الثالث الجنائزية المعروف إصطلاحاً بمعبد مدينة هابو. (المترجم)

التخطيط بحجرتين جانبيتين إضافيتين. وقد قام الملك طهرقا السوداني من الأسرة الخامسة والعشرين، بإضافة الفناء والصرح اللذين يتقدمان، في الوقت الراهن، هذه البناية. كان للمعبد سوره الخارجى الخاص الذى ضمه فيما بعد السور الخارجى الكبير الذى أحاط بمباني وعمسيس الثالث والذى يعلو السور الأول جهة الجنوب. كما قام البطالمة والرومان بتوسيع بناية تحوتمس الثالث التى كانت تحمل اسم «أمون القائم على رأس المكان المقدس».

وفى مصر العليا وفى مصر السفلى على حد سواء، أكثر تحوتمس الثالث من المباني المقدسة والهبات النفيسة إكراماً للآلهة. وفى إلفنتين أقام مقصورة من أجل أمون والإلهتين المحليتين ساتيس^(٥) وأنوكيس^(٥٥). وأخرى من أجل الإلهة نخبث فى الكاب. أما فى أبيبوس فقد أكثر من القرايين المخصصة للإله أوزيريس، وزادها ثراءً. وفى هرمونتيس جنوب طيبة، فإن المعبد الذى كرّسه تحوتمس الثالث للإله المحارب موتو كان معبداً مهيباً وينظر إليه باعتباره أضخم مباني عصره، وذلك إستناداً إلى العدد الضخم من المذونات التى تحمل اسم الملك. كما صُوّر صرح المعبد فى إحدى مقابر طيبة. وفى كويطوس أقام معبداً من أجل حور - نيج - يت - أى حورس - المنتقم - لأبيه، ومعبد فى هليوبوليس «من أجل أبيه أتوم». وفى العام ٤٧، «أمر بإحاطة هذا المعبد بجدار سميك وعريض جداً وأن يكون بناءً متيناً وذلك من أجل أبيه رع - حور أختي»^(٦٠). هكذا كان الفاتحون المصريون يخدمون الآلهة ويكرمونها.

معالم النوبة الصرحية

تتجلى الروابط المادية والروحية الوثيقة القائمة بين مصر وأراضيها الإفريقية فى الجنوب، فى إنشاء العديد من المعابد بعيداً، فيما وراء الجندل الأول، من نهر النيل. وفى هذه المعابد كانت تقام الطقوس الدينية نفسها، من أجل الآلهة المصرية والنوبية.

(*) (التصحيح اليونانى للاسم المصرى القديم سثت. (المترجم)

(**) (التصحيح اليونانى للاسم المصرى القديم عثت. (المترجم)

وفى عمدا على البر الأيسر من نهر النيل، أمر تحوتمس الثالث بتشييد معبد «من أجل أبيه رع - حور أختي، الإله العظيم، رب السماء». وقد أكمله أمنحوتب الثانى. إن أبعاده محدودة نسبياً، إذ يبلغ ٢٢ متراً عمقا و٩ أمتار عرضاً و٤٢٨ سم ارتفاعاً. ويتقدم المعبد رواق من اثنتى عشر عموداً مربعاً موزعة على ثلاثة صفوف وينتهى بصف من أربعة أساطين بروتوبورية. بعد عبور المدخل، يصل المرء إلى قاعة تحتل عرض المعبد وفى مؤخرتها تفضى أبواب ثلاثة، إلى قدس الأقداس الذى تكتفه مقصورتان جانبيتان ألحقت بهما حجرتان أصغر حجماً.

إن معبد عمدا الذى كانت المياه ستغمره بعد تشييد السد العالى عام ١٩٦٠، قد تم نقله من مكانه ككتلة واحدة لمسافة ٢٦٠٠ متراً. لقد كانت مآثرة من العمل الباهر على الصعيد التقنى، أنجزه الفنيون الفرنسيون. إن هشاشة الرسومات والنقوش الشديدة الرقة التى كان يزدان بها المعبد قد وقفت حائلاً دون تفكيكه^(*). فتم تطويقه بحزام من الحديد الصلب والأسمنت المسلح لينقل على خط حديدى، من ثلاثة قضبان، أعد خصيصاً لهذا الغرض^(**).

وفى بوهن العاصمة الإدارية للممتلكات المصرية شيد التحامسة معبد الجنوب المكرس للإله حورس المحلى. أما معبد الشمال الذى أقامه أحمس فسيتولى أمنحوتب الثانى ترميمه، فى وقت لاحق. إن معبد الجنوب الذى بدأت حتشپسوت فى تشييده فى موقع سبق أن استخدمه سنوسرت الأول^(١٦١)، قد انتهى منه واستكملة تحوتمس الثالث الذى هشم خراطيش الملكة ووضع مكانها خراطيشه.

لقد شيد من أجل أبيه حورس، رب بوهن، بهو أعياد كبير يدخل الفرح والسرور على القطرين بفضل جماله... وأقام أساطين جديدة من الحجر^(١٦٢).

(*) كما حدث بالنسبة لبعض معابد النوبة الأخرى. (المترجم)

(**) بدأت الرحلة يوم ١٢/١٢/١٩٦٣ وسار المركب بسرعة ٢٥ متراً (هكذا: خمسة وعشرين متراً) فى الساعة ووصل إلى هدفه يوم ٢٦ مارس ١٩٦٤ على إرتفاع ٤٠ متراً من الموقع الأسمى.

(المترجم). (Guides Bleus. L'Egypte. Hachette. 2002. P. 444).

واهتم نائب الملك نحي بنحت على أحد أعمدة المعبد نص يمجّد النصر الذي تحقق في العام ٢٢، من عهد الملك، وأثناء عودته المظفرة من حملته العسكرية الأولى:

في العام ٢٢، من عهد جلالة هورس، الثور القوى الذي يتجلى متألّفاً في طيبة، ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خپر رع، محبوب أمون - رع، رب عروش القطرين الذي يسطع في وجه (البشر) مثلما يسطع القرص (أتون). ويُدخل نوره جواً من الأعياد على القطرين، كما يحدث عند شروق الشمس في أفق السماء، إنه الإله الكامل، رب الفرح والسرور، ابن رع: تهوتمس، صاحب الصيورات الكاملة، محبوب هورس سيد بوهن.

(من خلال التوزيع الفطن للكلمات يقف كل من أمون - رع وإله بوهن على خط متوازٍ توازياً مطلقاً) ويحدث بعد ذلك «تبادل» بين الإله النوبي والملك، من خلال خط مفردات الوصف والأحاديث.

لقد انضم إلى آلهة تاسومة حتى يُخلق الملك في أبدانها. فمن أجله «أعاد الإخضرار» إلى ميراثه، بينما كان لا يزال في بطن (أمه). كان يعرف ضرورة أن ينطق بنبوءة بشأنه، حتى يثبت تاجاه، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى، على عرش هورس الأحياء، ثباتاً راسخاً لصالحه. لقد وضع خوفه لدى سكان بلاد فينقيا وخلق رعبه فيهم.

- أنا الملك الذي أتى به إلى الوجود، أنا ابنه المحبوب الذي خلقه من أجله، ولذلك، فإنني أشيد معبده، وأبني معلمه الصرهي، تماماً كما أتاح لي أن أستحوذ على الشاطنين، فالابن يسمى إلى ما يفيد أباه، فيظل يقطاً منتبهاً إلى من انبثق منه، جاعلاً أسمائه تحيا، خالفاً قرابينه، جاعلاً أيضاً اسم كل إله يحيا، ومجدداً ولاداته بفضلهم...

والآن، فكل ما يضيئه القمر وكل ما يحيط به قرص الشمس (أتون)، عندهما يتألق، وكل ما يلتف من حوله جب وفوت، قد وضعها في دائرة ساعديه. ويقف صاحب الجلالة عند مدخل الأرض، على أهبة الإستعداد للقضاء على الأسيويين.

- أنا الثور القوى الذى يتجلى فى طيبة، أنا ابن أتوم، ومحبوب مونتو، أنا الذى يحارب بشخصه، فى مقدمة جيشه، حتى يشاهده القطران. إنى لا أقترف هنا كذباً، لقد خرجت من معبد أبى آمون ملك آلهة، الذى خصنى بالنصر.

لقد سلك الملك شخصياً هذا الطريق، وجيشه المقدام أمامه، مثل وهج الذهب. إنه ملك يحارب بساعده القوى، إنه بطل لا مثيل له، ذابحاً الأجانب، داهماً الوبتو بدميه، مصطحباً زعمائهم أسرى ومركباتهم الحربية المطعمة بالذهب المقيدة بجيادهم. يمكن حصر أبناء ثحنو الذين يأتون منحنين بسبب مجد صاحب الجلالة، حاملين جزيثهم على ظهورهم، إنهم كلاب تتصرف كالكلاب، لتعطى لهم نسمة الحياة. إنه الإله الكامل، الجسور اليقظ، رب الإشراقات المتألقة مثل هورس، فى الأفق والذى يشيع خوفاً شديداً وتبقى هيبتة فى قلب الأراضى الأجنبية، بعد أن أصبحت كافة البلدان خاضعة لسلطانه وتجمعت الأقواس القصعة تحت نعليه^(١٦٣).

هنا يصل اندماج الآلهة فيما بينها إلى أقصى درجاته. فالملك ابن آمون - رع وابن أتوم، هو أيضاً فى هذا المعبد ابن هورس المطى فى بوهن. وفى النصوص المنحوتة فى معابد القوة وأكثر من أى مكان آخر، يمكن أن ندرك هذا التسامح الدينى الطبيعى فى العصور القديمة، وهذه الحرية الدينية والروحية التى كان يمارسها البشر على نطاق واسع فى هذا الزمن. كما أن هذه المدونات كانت تهدف إلى صرف الأمالى عن القيام بأى تمرد سياسى محتمل. كان العامل الملكى ابن آلهة مصر والآلهة المحليين والقائد العسكرى المنتصر فى آسيا وليبيا، فأخذ يكشف عن نفسه، بصفته السيد الطبيعى للأراضى الجنوبية، بعد اضافة ما يثيره من خوف إلى ألوهيته، إضافة مفيدة. هكذا نلتقى بالأيديولوجية الإمبراطورية للتحامسة وقد أخذت تعبر عن نفسها بأشكال متنوعة وفى مختلف الأماكن^(١٦٤).

كما شُيِّد فى سمعة معبد بُنى بالحجر الرملى من أجل الإله النوبى «الوطنى» دينون. وسوف يسمّى تحوتمس الثالث بإبن الإله، ابنة «الذى من صلبه». وجنباً إلى جنب مع الشعائر التى كانت تقام من أجل دينون، أقيمت الشعائر من أجل سنوسرت

الثالث(*) الذى كانت أعماله فى النوبة على قدر كبير من الأهمية. وفى قمة على الجانب الآخر من النهر، أقام تھوتمس الثالث أيضاً معبداً فريداً فى بابيه. كان يتكون من مستطيل كبير من الطوب، ويزدان من الداخل بجدران من الحجر الرملى المزخرف. أما قدس الأقداس الذى يحتل الجانب الغربى من مؤخرة المبنى، فكان مزبوجاً ومكرساً للإله خنوم إلفنتين وسنوسرت الثالث.

مسلات العالم

إنها أربع مسلات أقامها تھوتمس الثالث، تنتصب فى الوقت الراهن بالمدن الرئيسية، فى أوروبا وأمريكا.

أقيمت أقدمها، بعد عبور الفرات فى العام ٢٢، بمناسبة الإحتفال باليوبيل الثالث للملك وتوجد حالياً فى إسطنبول، لتعلن لدى الأتراك عن أمجاد أمون وشرف منزلته، إنها مسلة من الجرانيت كان هريمها من الذهب الخالص، فكان يمتزج فى زمن ازدهار طيبة بتلقات الشمس وإشعاعاتها، «كامتداد» لها على سطح الأرض، امتداداً دائماً، يغالب الأيام. وعلى جوانب المسلة الشمالى والشرقى والغربى يلقب العاهل الملكى، على التوالي بالصفات الآتية:

● هذا الذى نشأه أقوم عندما كان طفلاً على ساعدى نيت، الأم الإلهية، ليصبح الملك الذى يستهوذ على كل الأراضى، للزمن المديد، إنه رب أعياد اليوبيل.

● سيد القوة الذى يربط البلاد جمعا، الذى يرسم حدوده عند بدايات الأرض وحتى مستنقعات نهاريثا.

● هذا الذى يعبر الثنية الكبرى فى نهاريثا، فى بسالة وقوة على رأس جيشه، لينزل المذابح الرهيبة بين أعداء هذه المنطقة الأجنبية(١٦).

أما المسلتان اللتان أقيمتا فى معبد هليوبوليس، بمناسبة الإحتفال باليوبيل الثالث للملك، فموجودتان فى الوقت الراهن، الأولى فى لندن والثانية فى نيويورك.

(*) من الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

وفى روما فى ميدان پيازا دى لاتيرانو Piazza di Laterano وقبالة كنيسة سان - جان Saint - Jean تقف شامخة وممشوقة المسلة الوحيدة التى أقامها تحوتمس الثالث قرب نهاية حياته أمام معبد آمون - رع الكبير، فى الكرنك وقام حفيده تحوتمس الرابع على كل حال بإكمالها. وفى هذا المكان وفى تجاور مستديم، تتجابه طيبة وروما اللتان كانتا ذات يوم، سيدتا العالم. الشرق فى مقابل الغرب، والديانة الوثنية فى مقابل ديانة سماوية منزلة. وفى النصوص المدونة تاكدت ألوهية الملك بشكل مطلق، ففرعون هو...

... ابن آمون الذى من صلبه؛ الذى ولدت من أجله الإلهة موت فى إيشيرو، ليشكل جسداً واحداً مع من أنجبته^(١٦٦).



أكمل الملك زمن حياته التى امتدت لسنوات عديدة وسعيدة (تميزت) بالبسالة والقوة والإنصارات - منذ السنة الأولى من عهده، وحتى العام الواحد والخمسين، فى عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خپر رع، الصادق القول^(٥). عندئذ ارتفع إلى السماء ليتحد بقرص الشمس (أتون)، واختلطت أعضاء الملك الإلهية بأعضاء خالقه.

عندما ابيضضت الأرض عند الفجر (من اليوم التالى)، وبزغ فجأة القرص المتوهج (أتون) وإذا كانت السماء ملساء متألقة كالزيت، عندئذ أقيم ملك مصر العليا ومصر السفلى: عاخبو رع، ابن رع : أمنهوتب، حاكم طيبة، على عرش أبيه مبتهجاً بألقابه الجديدة^(١٦٧).

هكذا تحدث القائد أمن إم حب، رفيق الملك الوفى، فى ثنايا مسرد سيرة حياته.

كان تحوتمس الثالث قد مجّد منصب الملك، وعظّم من شأنه، تاركاً لابنه إمبراطورية مترامية الأطراف.

(٥) فالتحدث هو أحد رفاق الملك. (المترجم)

المقبرة الملكية

نحن فى وادى الملوك، فى عمق تجويف بصدع الجبل، يضيق حتى لا يتجاوز عرضه المتر الواحد، وعلى ارتفاع حوالى عشرة أمتار، فوق مستوى سطح الوادى، هنا توجد مقبرة الفرعون الإمبراطورى، وهى المقبرة رقم ٢٤ من مقابر وادى الملوك. ويعد دهليز طويل هابط تعترضه بئر، حُفرت فى صخر الجبل قاعة كبيرة يستند سقفها على عمودين مربعين. وإن تقيب عن هذا المكان الحماية الإلهية اللازمة للعاهل الملكى فى العالم الآخر: فمن واقع الرسومات التى تزدان بها الجدران، أمكن إعداد قائمة تضم ٧٤٠ كياناً إلهياً. وفى أحد أركان القاعة، نصل من خلال فتحة عريضة إلى سلم يفضى إلى قاعة فسيحة (١٥×٩م)، يستند سقفها على عمودين مربعين، وأركان القاعة مستديرة، فيتخذ شكلها هيئة خرطوش ملكى ضخم. وتغطى الأعمدة والجدران رسومات تميل أحياناً إلى الأسلوب التقيطى وهى مشاهد تصور قيام الإلهة شجرة الجميز، بإرضاع الملك. إن علامات هيروغليفية مبتسرة تنسخ نص كتاب ما هو فى الدوات، وهو من الأسفار الملكية التى تروى رحلة العاهل الملكى فى العالم الآخر، فيتوقف نجاحها على الإرشادات القائمة على معرفة التعاويذ المقدسة، على أحسن وجه.

وفى مؤخرة القاعة يرقد فوق قاعدة من الألبستر تابوت من الحجر الرملى الأحمر ولكنه مفتوح وخارٍ. وعُثر على مومياء تهوتمس الثالث فى «خبئية» الدير البحرى^(١٦٨). حيث نقلت فى زمن الأسرتين العشرين والمادية والعشرين، بمعرفة كهنة أتقيا ورعين، تجنباً لأعمال النهب والسلب.

إن وجه المومياء مجرد جلد على عظم وأنفها ضخم مقوس، وتمتفظ بمسحة المشرحة، وزهو وإباء زمن الحياة.

الفصل السادس

أمنحوتب الثاني

نصير الإمبراطورية

الحورس: الثور القوى، صاحب البسالة المجيدة.
 السيدتان: نو(١٠) الطاقة الدافعة، الذي تُوَجَّ في طيبة.
 الحورس الذهبي: هذا الذي يستحوذ على كافة الأراضي بفضل قدرته.
 ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خيبرورع (أى «عظيمة هي صيرورات رع»)
 ابن رع: أمنحوتب (أى «ليت آمون يكون راضياً»)
 (نلتقى بعد ذلك بصفتين تتغيران حسب العصور^(١)): «الملك حاكم طيبة» و«الإله حاكم هليوبوليس».

أمنحوتب الثانى الذى تسلّم مقاليد السلطة الملكية عام ١٤٥٠ ق.م، على وجه التقريب، كان ابن تحوتمس الثالث والملكة حتشپسوت - مريت - رع^(٢).

عند وفاة أبيه، كان الأمير ولى العهد فى مدينة منف على ما يعتقد، فكان منصبه ككاهن سم، يقتضى ذلك، وربما ارتبط بهيئة كبار كهنة الإله پتاح(؟)، فكان وضعه مماثلاً لوضع الأمير جهوتى - مس^(٣) بن أمنحوتب الثالث فى زمن لاحق، أو لوضع خع إم واست ابن رمسيس الثانى، وهو أشهرهم، بالنظر إلى ما نعرفه عنه.

من المرجح، أن الأمير الشاب - وكان آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره على ما يعتقد - قد ساهم فى تصريف أمور حكومة إمبراطورية والده، بصفته شريكاً فى الحكم. واستمر هذا الوضع بلا شك، لأكثر من سنتين^(٤). وهو ما يؤكد على ما يبدو بعض الشواهد: فقد ظهر اسم الأب والإبن جنباً إلى جنب، لأكثر من مرة على

(*) الملك هو المقصود. (المترجم)

(**) أو حتشپسوت الثانية، ابنة تحوتمس الثانى وحتشپسوت - راجع مطلع الفصل الرابع.

(المترجم)

(***) اعتاد الإغريق أن يصحفوا هذا الاسم وأمثاله إلى تحوتمس. (المترجم)

الساكف نفسه، فوق بابين من أبواب معبد عمدا^(٣)، وعلى باب مقبرة الضابط أمن مس^(٤)، كما كان الحال بالنسبة لكل من حتشيسوت وتحوتمس الثالث. وفي مقبرة ديدى رقم ٢٠٠^(٥)، وكان المشرف العام على صحارى غرب طيبة، صُور الملكان وقد تربعا على العرش، جنباً إلى جنب، وهما يشاهدان إستعراضاً عسكرياً.

وفور إعلان وفاة تحوتمس الثالث، ابهر الوزير رخ مى رع، هابطاً النيل فى اتجاه منف فى حين همّ أمنحوتب بعد أن أحاطه الموفدون علماً بما حدث، صاعداً النهر على جناح السرعة، فى اتجاه العاصمة. والتقىا عند بلدة حت - سخم، على بعد ١٠٠ كم تقريباً شمال طيبة. ويقوم الوزير فى صحبة كبراء البلد وأعيانها، بتقديم «باقاة من أزهار آمون» إلى وريث العرش، تعبيراً رمزياً عن حيوية الأسرة الحاكمة التى تتجدد مثل النباتات^(٦)، ويرى منذ هذه اللحظة، بشرى إستقبال الملك الجديد، من جانب إله الكرنك. لقد نحتت المشاهد والنصوص فى مقبرة رخ مى رع: هيسقبل العاهل الملكى الجديد الوزير الذى يرتدى حلة الإحتفالات، وحول عنقه القلادة الذهبية العريضة، وهى من إنعامات الملك. وفى أعقابهِ يسير الخدم حاملين القرايين من طعام وأزهار^(٧).

وتظل طيبة فى عيد إكراماً للفرعون الشاب:

إن الفرح والسرور يملك خدام آمون. وتجمع سكان المدينة مقتبطين مهللين،
إنهم يقدمون التحية لملك القطرين ويهتفون له. ويذكرون نعمة حورس صاحب الساعد
القوى... ليت ماعت تتحد بابنه فى الحياة والقوة، (ابنه) ملك مصر العليا ومصر
السفلى عا خبىرو رع. ليتها تسمح بأن يتم ملايين السنين، مثل رع للزمن
اللانهاى^(٨).

(*) فى منطقة الخوخة بالبحر الغربى من الأقصر. (المترجم)

(**) ما زلنا تقدم باقات الأزهار والورود فى كثير من المناسبات السعيدة بل وفى حالات المرض والوفاة، وإن فقدت هذه العادات دلالتها الرمزية. (المترجم)

وفى البداية قدّم أمنحوتب الشكر لأبيه ذاكرًا نعمه، وهو ما تقتضيه مشاعر
البر بالوالدين. واحتفظ الدهر بالشواهد على ذلك.

إن كتاب الموتى الذى عثر عليه بجوار جسد تحوتمس الثالث، دُوّنت عليه
العبارات الآتية:

إن ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپرورع،

ابن رع: أمنحوتب،

قد أعدّ من أجل أبيه،

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپرورع،

ابن رع: تحوتمس،

(أعدّ له) كتابًا ليجعل يامه معجداً^(٧).

وطلب القائد أمن إم حب، بأن يصوّر فى مقبرته مشهد يبرز الملك الشاب وهو
يقدم الشكر لأبيه. وقد صوّر الابن الملكى فى هيئة أوزيريس جالساً على عرش. وخلف
الفرعون، يقدم أمن إم حب وزوجته الطعام وياقات الزهور، وهى القرابين الدائمة،
واهبة الطاقة الحيوية ورموز دوام الحياة، إلى الأبد.

وعلى امتداد سبعين يوماً، وهى الفترة التى تستغرقها عملية التحنيط لوقاية
الجسد من التحلل، كانت الحياة السياسية تتوقف، على ما يظن. ثم يقوم الابن بنقل
جثمان العاهل الملكى المتوفى إلى بيت الأبدية فى وادى الملوك وسط صراخ الندابات
ونواح الشعب الذى احتشد بهذه المناسبة. وبعد ذلك يتسلّم الفرعون مقاليد السلطة
على نحو فعلى، مع الإحتفاظ إلى جانبه، بعدد كبير من رفاق والده الأوفياء، فى
الجيش وفى الجهاز الإدارى، على حد سواء. ومن جديد يعمّ الفرح والسرور ربوع
العاصمة بمناسبة تتويجه.

١- ملك قدير، قوى الشكيمة أو الأسطورة التي لا تقهر

لقد انتقلنا مع الحمامسة، إلى عصر الفراغة الرياضيين المولعين بممارسة الألعاب الرياضية.

كان تحوتس الثالث ذاته، قد انجز مآثر بارزة تتمّ عن قوته الجسمانية. فلم يكن له مثيل في تصويب السهام أو في رحلات الصيد، على حدّ سواء. إن لوحاً ضخماً من الجرانيت الأحمر الذي كان قد أقيم على ما يعتقد أمام صرح معبد مونثو في هرمونتيس، وعثر عليه مهشماً إلى عدة أجزاء، في هذه الساحة المقدسة، يروى مآثره العظيمة. ويعود تاريخ هذا اللوح إلى اليوم العاشر، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات من العام ٢٢، من عهد الملك. ومن ثمّ يمكن القول أن الوقائع المشار إليها قد سبقت بشهرين ونصف قيام العامل الملكي بأولى حملاته العسكرية إلى آسيا؛

إذا أريد ذكر مآثره بالاسم، لكانت كثيرة جداً حتى يمكن تدوينها كتابةً بالكامل. هكذا فإنه يسدّد سهامه في لوحة تصويب من النحاس، بعد أن شق كل لوحة تصويب من الخشب، وكأنها بردية. ووضع صاحب الجلالة في معبد آمون نموذجاً، أي لوحة تصويب من النحاس المطروق سمكها ثلاثة أصابع (أي سبعة سنتيمترات)، بعد أن استقر فيها السهم الذي أطلقه، فاخترق بالفعل اللوحة بما يتجاوز ثلاث قبضات يد (أي ٢١ سم) من سطحها الخلفي. وذلك حتى يتعرف من سيأتون من بعده على بسالته وقدره ساعديه. إننى أقول بكل دقة ما فعل، بلا خداع أو كذب. لقد حدث ما حدث، بحضور جيشه بأسره. فلا يعتبر هذا الحديث إذن لغواً وثرثرة.

وإذا أراد أن يمضى وقته في الترويح عن نفسه، يخرج في رحلة صيد، في قسم من أقسام الصحراء، فيستحوذ على مغنم تفوق أعدادها، الأسلاب التي يعود بها جيشه بكامله. فقتل سبعة أسود عند الرماية بالقوس خلال لحظة. واستولى على اثنتى عشر ثوراً برياً، خلال ساعة من الزمن، وعندما حلّ ميعاد تناول الطعام، وضع أذيالها خلف (ثوبه). وقتل مئة وعشرين فيلاً في بلاد نبي، عند عوبته من نهارينا. وعبر المياه المتدفقة (الفرات) وسحق المدن القائمة على كل ضفة من الضفتين، وأتى عليها

بالنار للزمن الأبدى. ثم أقام لوحاً حجرياً للنصر على البر الغربى. ورمى بالقوس أيضاً واستولى على خرتيت فى صحراء النوبة الجنوبية^(٨).

كما نجد سردها لهذه المآثر فى مجال الصيد، على أحد جدران معبد هرمونتيس. بل طلب الملك أن يُصوّر الخرتيت الذى تم أسره فى النوبة. ولا شك أن هذا الحيوان كان على قدر كبير من الغرابة، فى نظر المصرى القديم، حتى رأى النحات أنه من المناسب توضيح بكل دقة حجمه بالأذرع والقبضات والبوصات، على الواجهة الشمالية من الجناح الشرقى من صرح المعبد^(٩).

هذا هو وجه آخر، من أوجه الأيديولوجيا الإمبراطورية التى نشأت مع الفتوحات القصية: تقصد بذلك أيديولوجيا البطل الشديد البأس الذى لا يُقهر، وهو ينجز مآثر تفوق قدرات البشر. وتلتقى بهذه الظاهرة، فى غيرها من أساطير العالم القديم... أو الوسيط، ففى هذه الحكايات تتداخل الأسطورة والحقيقة الواقعة وتمتزجان.

سوف يواصل أمنهوتب الثانى هذا التقليد المتواتر، إنه «الفهد نو القلب القوى ومحبوب موتو^(١٠)». كما كان قوأساً مرهوب الجانب. ووقع اختيار أبيه على مين، أمير مدينة ثنى والواحات، ليدربه على استخدام السلاح^(١١). كان الطفل الملكى «يلهو وهو يتعلم الرماية بالقوس فى ساحة القصر فى ثنى». وما زال فى وسعنا أن نقرأ بداية الدرس على جدران مقبرة مين^(١٢): «سوف تشد أقواسك حتى تصل إلى ارتفاع أنثيك...^(١٣)».

وفى عصر العشرين من شهر أكتوبر ١٩٣٦، كان عالم المصريات المصرى سليم حسن، يعمل هو وفريق عمله إلى الشمال الشرقى من تمثال أبو الهول بالجيزة، لإزاحة الرمال التى تراكت عليه، وإذ يظهر فجأة الجزء العلوى الأيمن، مما كان يبدو أنه لوح حجرى. ويعد أن تعمقوا فى الحفر... «امتزت مشاعرنا عندما أدرکنا أننا كشفنا فى حقيقة الأمر، عن لوح حجرى يضم سبعة وعشرين سطراً، لنص بالخط

(*) المقبرة رقم ١٠٩ فى غرب طيبة. (المترجم)

الهيروغليفى. كنّا متلهفين بالطبع، على التعرف على صاحب اللوح. هكذا قمنا بتنظيف الجزء العلوى تنظيماً أفقيّاً وسرعان ما استطعنا قراءة خرطوش أمحوتب الثانى^(١٢). كان ارتفاع هذا اللوح الحجرى ٤٢٥ سم وعرضه ٢٥٢ سم وسمكه ٥٢ سم. وفى قسمة العلوى المقوس، ينهض مشهذان مماثلان وجهاً لوجه. فنشاهد فرعون، وهو يقدم إناى نبىذ إلى تمثال أبو الهول الرابض فى الجيزة وقد أصبح الإله «حورس فى الأفق». ويمتد النص على النحو الآتى بدءاً من السطر الحادى عشر:

ظهر صاحب الجلالة، فى هيئة ملك، إنه صبىّ كامل وقد أصبح جسده على أفضل وجه^(*) بعد أن أتمّ العام الثامن عشر من عمره، (ثابتاً) على ساقيه وبأسلا. كان يعرف كل أعمال موثوق، ولم يوجد قط مثله على أرض المعركة. كان يعرف الجياد حق المعرفة، وليس له مثيل فى هذا الجيش الجرار. فلم يوجد من يستطيع الرماية بقوسه ولا يستطيع أحد، أن يلحق به أثناء عبوره.

ولأنه قوى الساعد، كان لا يعرف الكلل عندما يمسك بمجداف كوثل^(**) سفينته (المسماة) الصقر والمجهزة بطاقم يتكون من متنى رجل. فإذا ابتعدوا (عن الشاطئ) وقطعوا مسافة نصف إيتو (أى خمسة كيلومترات) وهم يجذفون، أصابهم الإنهاك وارتعدت أطرافهم واستحال عليهم استنشاق النسمة العلية. ولكن ظل صاحب الجلالة قوياً، رافعاً مجدافه البالغ عشرين ذراعاً طولاً (أى عشرة أمتار) وبعد مغادرة الشاطئ، كان يربط سفينته «الصقر»، إثر قيامه بالتجديف مسافة ثلاث إيترات (أى ٢٠ كيلو متراً)، دون توقف. كانت الدهشة على وجوه (البشر لحظة) مشاهدته.

وفعل ذلك (أيضاً). فشده ثلاثمئة قوس قوى، ليقارن بين عمل صنّاعها ويفرق بين الحرفى الأخرق والحرفى الماهر. بل وفعل ما سأعرضه عليكم. فبينما كان يهيم (ذات يوم) بالدخول إلى حديقته الشمالية، اكتشف أن أربع لوحات رماية قد نُبتت من أجله، وهى من نحاس أسيا وسمكها قبضة يد (أى ٧ سم) وكان عشرون ذراعاً (أى عشرة أمتار) تفصل كل عمود خشبى، عن الآخر. عندئذ ظهر صاحب الجلالة على متن

(*) حرفياً «الذى فى وسطه حصر جسده». (المؤلفة)

(**) مؤخرة السفينة. (المترجم)

مركبته التي يجرها فرسان، (ظهر) مثل موتو في قدرته. وأمسك بقوسه وقبض على سهام أربعة، دفعة واحدة، ورشقها في لوحة التصوير، مثل موتو مرتدياً حُلته (حُلّة القتال). خرجت سهامه من خلف اللوحة كما أصابت العمود التالي. حقاً، إنه عمل لم يُقدم عليه أحد من قبل، ولم يتطرق أبداً الحديث إليه من قبل، بمعنى أن يرمى المرء سهماً صوب لوحة نحاسية، فيخرج منها السهم (أى يخترقها) ليقع على الأرض، باستثناء (ما فعله) الملك نو القدرة المهيبة، لأن آمون قد جعل عا خپرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، (جعله) ممجداً، إنه البطل الشيب (بالإله) موتو.

منذ أن كان لا يزال صبيّاً، كان يحب الخيول ويسعد لوجوده وسطهم. كان قلبه ماهراً فيعلم كيف يسوسها ويعرف طبائعها، وعلى دراية بفن ترويضها متعمقاً في أحوالها. ولما بلغ ذلك، إلى مسامع والده في القصر الملكي، (والده) «الثور القوى الذي يتجلى في طيبة»، انشرح قلب صاحب الجلالة لسماعه. كان سعيداً لما يقال عن ابنه البكر وتحديث إلى قلبه قائلاً: «سوف يصبح رب البلاد قاطبة. لن يستطيع أحد مهاجمته، لأنه كرس قلبه للبرسالة ويتعمّس لأفعال القوة. ولكن لا يزال صبيّاً بشوشاً حسن المظهر، ولم يبلغ بعد السن التي تؤهله للقيام بأعمال موتو، فيجهل رغبات الجسد، إلا أنه يعشق القوة منذ الآن. فالله هو الذي وضع في قلبه (رغبة) العمل من أجل حماية مصر ليصبح على رأس البلاد». وقال صاحب الجلالة إلى الذين بجواره: «تصرفوا بحيث يُعطى له أجمل جواد في إسطنبول منف الخاص بجلالتي وقولوا له: كن يقظاً نحوه، ليتعلم كيف يهابك، اجعله يخبّ في سيره، وامسكه جيداً بيديك، عندما يجمع ويعصاك». وفيما بعد صدرت الأوامر إلى الابن الملكي برعاية خيول إسطنبول الملك، وفعل ما أمر به، عندئذ فرح (الإله) ريشيب (والإلهة) عشثروت^(١٤) بسببه، في حين كان ينجز كل ما يحبه قلبه. وقام بتربية خيول لا مثيل لها. كان لا يتعب عندما يمسك أعنتها، ولا يتصبّب عرقاً عندما ينطلق مسرعاً.

(وذاث يوم) أسرج جياده في صفه، ثم توقف لبعض الوقت عند معبد حورس - في - الأفق (أى تمثال أبو الهول الرابض في الجيزة). وقضى برهة هنا، وهو يدور من حوله ويمعن النظر في حسن نظام هذا المعبد الذي كان يخص خوفو

وخمفر، صادق القول. واشتاق قلبه أن يعيد الحياة إلى اسميهما. وكنتم هذه الرغبة في نفسه إلى أن يتم وعد رع (أى الملك).

بعد ذلك، ظهر صاحب الجلالة متألقاً بصفته ملكاً، وحطّ الصلّ على جبينه واستقرت صورة رع في مكانها. وكما فى السابق، كانت البلاد فى سلام فى (عهد) سيدها عاخيپروع. وحكم الأرضين، وكافة البلدان الأجنبية كانت «مربوطة فى هيئة حزم» تحت نعليه. وتذكر صاحب الجلالة المكان الذى كان قد رُوح فيه عن نفسه، على مقربة من الأهرام وبجوار حورس - فى - الألق. فأمر بأن يُشيد معبد فى هذا المكان وأن يقام لوح من الحجر الأبيض يحمل اسم عاخيپروع العظيم، محبوب حورس - فى - الألق^(١٥).

إن بطولة العاهل الملكى والعود إلى جوار الأجداد الأقدمين ولحظات التأمل على مقربة من أبو الهول الرابض فى الجزيرة وانتظار ما أمره به رع، قد جعلت من أمنهوتب الثانى ملك الأقدار، المرتبط بذرية الأسرة المالكة. إن مغامرة من مغامراته أو نزهة من نزهاته، فى إرماس لما سيحدث لابنه تهوتمس الرابع^(١٦). إن تقليداً ملكياً متواتراً يلزم صورة أبو الهول العظيم الذى قد يتولى اختيار الملوك وحمايتهم وسوف يستمر هذا التقليد حتى زمن القياصرة^(١٧).

ومنذ الآن نجد أن الآلهة الآسيوية، ونذكر منها هنا الإله ريشيب والإلهة عشتروت، أخذت تدخل مجمع الآلهة المصرية لتندمج فيه بعد مرور قرنين من الزمن. وتضرب جذور فكر الرعامسة فى تصورات التهامسة الذين استهلوا الحركة التلقينية الواسعة التى شملت آلهة الإمبراطورية، كموضوع هام وثابت فى أيديولوجيا الرعامسة.

فى سياق لوح حجرى كبير، بدء أمنهوتب الثانى تكوينه فى العام الثالث من عهده، وطلب وضعه فى القسم المخصص لقدس الأقداس فى معبد عمدا، وكان أبوه قد بدأ تشييده، ثم أكمله هو شخصياً، وفى سياق مدونة مماثلة أيضاً، نحتت على لوح حجرى آخر، جابت به جزيرة إلفنتين ومن مقتنيات متحف فيينا، فى الوقت الراهن - فى سياق هذين النصين يتم أيضاً الإشادة بقدرة الملك وسطوته على الصعيدين

الحربي والإمبراطوري. إن بعض الصور المشار إليها هنا، سوف يستعيدنا عصر الرعامسة، في إطار استمرارية فكرة العامل الملكي، الإله والبطل، خالق الإمبراطورية وسيدها.

الإله الكامل الذي خلقه رع، العامل الملكي المنبثق من بطن (أمه)، فكان قوياً مقتدراً، شبيه (بالإله) حورس على عرش أبيه. كانت قوته من الشموخ، حتى أن مثيله، لم يأت حتى الآن إلى الوجود، ولا يمكن العثور على من يشبهه. إنه ملك غليظ الساعد إلى أبعد حد. لا يوجد في جيشه من يستطيع أن يشد قوسه، ولا حتى من بين أمراء البلدان الأجنبية أو زعماء ريتو، بالنظر إلى عظمة سلطانه، الأعظم من سلطان، أي ملك آخر، سبقه إلى الوجود.

وعندما يطأ أرض المعركة، فإنه يزأر كالفهد، ويتوقف القتال من حوله. إنه قوأس باسل عند الواقعة، إنه السور الذي يحمي مصر، وصاحب القلب الحازم في الحلبة عندما يسدد ضرباته، فينوس بقدميه من تمرقوا عليه. ويستولى على كافة البلدان الأجنبية وشعوبها وجيادها، بينما يأتون ومعهم ملايين البشر وقد خفى عليهم أن أمون - رع حليف ملك مصر. وما أن يُرى حتى يهجم الجميع مسرعين، لأن الهيبة تتخلل جسده... والبلاد التي ترسم معه حدودها، لا وجود لها، لأنها لا تستطيع أن تحيا، إلا بفضل أنفاسه. إنه ملك الملوك، وأمير الأمراء الذي «يبعد هود» من يهاجمه. إنه أكثر الجميع بسالةً، فمجده يتعاضد، حتى يحاط رع الذي في السماء علماً، بينما يعود في يوم المعركة. إن أبناء سائر البلدان الأجنبية والأراضي التي اتحدت لا يرسمون له أي حدود. لأنها تتساقط في الحال، تحت تأثير لهيبه، الذي يعمل وكأنه نار ملتهمة. ولا أحد يخرج سالماً من المفجعة، مثل أعداء باستت، على درب من أنجبه أمون. وعلى العكس من ذلك، فسميدة هي أفعال جميع من يعرفون أنه الإبن الحق للإله، والمنبثق من جسده، وأنه واحد معه، ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس (أتون) ومجمل الأراضي وكافة البلدان التي يعرفها، بحيث يستحوذ عليها في لحظة واحدة منتصراً وقديراً^(١٨).

مكذا أخذت النزعة الأدبية الغنائية الحربية في الإنتشار والتعاظم.

ومن ناحية أخرى ووفقاً لأسلوب مغاير، فإن بطاقة صغيرة من اليشب الأخضر، ربما كانت فص خاتم، ومن مقتنيات متحف اللوفر، قد احتفظت بأسلوب طريف، بذكرى الملك القوى المقتدر: فيُصَوَّرُه نحت رقيق وهو يُشهر عصاً بيده اليسرى فوق أسد يرفعه بيده اليمنى من ذيله، بلا عناء، على ما يبدو. وصوِّرَ الخرطوش الملكي فوق رأس الحيوان، في حين أن الذيل بشعره المنتصب والمستدير استدارة متناغمة يحيط بكلمة واحدة: «الهاسل»^(١٩). إن فخامة عبارات أدب غنائي حماسي، تختلط أحياناً بنزعة إلى الدعابة، وهي من سمات شخصية المصري القديم^(٢٠).

٢- حملات آسيا العسكرية

إبان الحملتين العسكريتين اللتين شُنَّتَا في العامين ٧ و ٩ من عهده، ضمن أمنهوتي الثاني لمصر، لفترة طويلة، السيطرة على الإمبراطورية التي فتحها جده الأعلى وأبوه.

يساعدنا لوحان حجريان، في التعرف على وقائع ما حدث آنذاك. أحدهما، وهو أول ما ظهر إلى النور، إذ كشف عنه شامبوليون Champollion جنوب الصرح الثامن في الكرنك، إلا أنه مشوه للأسف تشويهاً بالغاً. عُقد أتلَف بداية، في عصر العمارة، ثم تم ترميمه، في ظل الأسرة التاسعة عشرة، إلا أن أحد أمراء الأسرة الثانية والعشرين أعاد استخدامه كسقف لصخرة الدفن في مقبرته. أما اللوح الآخر، ويحتفظ به متحف القاهرة، فقد عثر عليه مؤخراً عالم المصريات المصري أحمد بدوي في منف^(٢٠). ويقدم كلاهما وصفاً لهاتين الحملتين، في سياق نصين مختلفين، والنص الذي تقدمه فيما يلي يعتمد على نص لوح منف. ولكن كلما وقُر لنا لوح الكرنك بعض المعلومات الأخرى الهامة، فقد أضيفت، مع مراعاة مكانها في حيث التابع الزمني، ويبينط مايل صغير- بهدف صياغة تقرير كامل واضح، بقدر الإمكان.

(*) ومازالت. (المترجم)

حملة العام السابع

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام السابع، من عهد صاحب الجلالة... (تلى قائمة ألقاب الملك بالكامل) الإله الكامل، شبيه رع، وابن آمون على عرشه الذى «أسسه» الإله بقوة واقتدار، بخلاف ما كان موجوداً فى السابق، لقد ضريت مقعته البيضاء نهائياً، وسحق قوسه بلد النوبيين، إنه يغزو بفضل ما له، من قدرة وقوة، مثل مونتو الباهر بأسلحته. إن قلبه راضٍ بعد أن شاهدهم، وبعد أن قطع رؤوس أعدائه المفسدين.

تقدم صاحب الجلالة فى اتجاه ويقتو، عند قيامه بحملته الأولى المظفرة، بهدف توسيع حدود مصر وتوزيع الخيرات على الأوفياء المخلصين له. إن وجهه قدير مثل وجه سخمت ومثل وجه ست، لحظة عواصفه.

وصل صاحب الجلالة إلى شاماش أيتوم^(٣١). وهناك قام بعمل بطولى لقاتل شخصيا بلا حساب، وهدم المدينة فى لحظة وجيزة، وكأنه أسد متوحش يروح ويغدو فى الصحارى، على متن مركبته (المسماة) «آمون الباسل» هذا الذى يرشد إلى الخير، ولا يصم أذنيه (فى وجه من يتضرع إليه). قائمة بما أسره صاحب الجلالة فى ذلك اليوم: ٢٥ أسيراً حياً و٢٢ ثوراً.

بعد ذلك خاض صاحب الجلالة فى نهر العاصى وكان أشبه (بالإله) ريشيپ، وعندما استدار ليتابع مؤخرة جيشه، رأى مجموعة صغيرة من الأسيريين يتسللون خلسة، وقد تسلموا بكافة أسلحتهم، لينقضوا على جيش الملك. عندئذ، نشر الرعب فى ظهرهم، وكأنه الصقر الإلهى محلقاً فى السماء. وتوقفوا^(٣٢) وتكويهم خائفة (فتساقطوا) الواحد على الآخر، (كل واحد) بجوار رفيقه، ومعهم زعيمهم. لم يكن أحد فى صحبة صاحب الجلالة، كان بمفرده هو وساعده الباسل. عندئذ قتلهم مصوباً نحوهم سهامه. ثم قفل عائداً سعيد القلب مثل مونتو المقدام، بعد أن حقق النصر.

(٣١) أى الأسيريون. (المترجم)

قائمة بما أسره صاحب الجلالة في ذلك اليوم: أميران وستة ماويانو ومعهم مركباتهم الحربية وجيادهم وأسلحة قتالهم.

(لا شك أنه وصل إلى نهر الفرات، فقد كان الجيش إلى الشمال من مدينة نفي في نهارينا وهو ما توضحه الجملة التالية)

ثم عاد صاحب الجلالة إلى الهبوط في اتجاه الجنوب حتى بلغ نفي. فتقدم منتظماً صهوة جواده نحو المدينة. كان لسيوري هذه المدينة - رجالاً ونساءً - فوق أسوارهم يتعبدون إلى صاحب الجلالة. إن أمير نفي وسائر شعبه، كانوا في سلام مع العامل الملكي، وكانت وجوههم قد أسرها الإنبهار، بسبب الإله الكامل.

عندئذ سمع صاحب الجلالة من يقول أن بعض الآسيوريين الذين كانوا في مدينة أوفاريت يتآمرون، بل وضعوا خطة لطرد مشاة صاحب الجلالة خارج المدينة والإطاحة بالأمير الذي ظل ولعباً له. وعرف صاحب الجلالة ذلك في قلبه. وعلى الفور، وصل إلى أوفاريت وحاصر جميع أعدائه. وقتلهم ليصبحوا أشبه بمن لم يوجدوا قط، وقد طرحوا أرضاً على جانبيهم، رأساً على عقب. ثم عاد فرحاً مسروراً، بعد أن أصبح البلد بأسره ملكاً له. واستراح صاحب الجلالة في خيمته عند مشارف ثيرخ، إلى الشرق من شيشرم.

(لا نعرف على وجه التحديد مكان هاتين المدينتين والمدن التالية، وربما كانت تقع فيما بين الفرات والبحر المتوسط. ويحدد لوح الكرك الحجري تاريخ الوصول إلى ثيرخ باليوم العشرين، من الشهر الثاني، من فصل الجفاف، أي خمسة وعشرين يوماً بعد الرحيل. كان تقدم الجيش سريعاً. وإذا كان استرداد بعض المدن قد تم على جناح السرعة، بعد أن قاومت مقاومة بسيطة، فإن مجمل الأراضي حتى نهر الفرات، كانت خاضعة لفرعون).

ثم سلّبت معسكرات منفوت ونهبت، ووصل صاحب الجلالة إلى حتيرا، وخرج أمير المدينة، في سلام مع صاحب الجلالة، وقد أحضر أولاده وكل ثروته. كما خضعت يوقى لصاحب الجلالة الذي وصل هكذا إلى قلاش. وخرج أمير المدينة، في سلام مع صاحب الجلالة، وطُلب منه أن يقسم يمين الولاء والشئ نفسه فعلة جميع أولاده، (وروج) صاحب الجلالة (عن نفسه) برشق السهام في لوحته تصوير من النحاس

المطروق، إلى الجنوب من المدينة. وانتقلوا إلى غابة بلدة ربيى وأخذوا يطاردون الصيد ويحوشونه^(*) وعاموا بالغزلان والأرانب البرية والحمير البرية بأعداد لاحصر لها. وذهب صاحب الجلالة مع جوايه إلى خاشابو (حسبية إلى الغرب من جبل الشيخ، حالياً^(**)). وكان بمفرده بلا رفيق. وعاد بعد فترة وجيزة ومعه ٢٦ ماريانو^(***) أحياء، على جانبي مركبته و٢٠ يداً (تتدلى) أمام جوايه و٦٠ ثوراً تُساق أمامه. عندئذ خضعت هذه المدينة لصاحب الجلالة.

وبينما كان هذا الأخير يواصل سيره في اتجاه الجنوب، التقى داخل سهل شارون بموفد أمير نهارينا حاملاً رسالة من الصلصال معلقة حول رقبته. (إنها لوحة صغيرة من الصلصال دونت عليها رسالة بالحروف المسماوية باللغة الأكديّة وكانت لغة الدبلوماسية في هذا العصر^(٢٢)). واقتاده أسيراً بجوار مركبته. ثم رحل بجياده عبر مدق في اتجاه البلد المحبوب، يصطحبه مريانو واحداً أسيراً وممطياً سهوة فرسه (لاشك ليرشده عبر هذا الطريق).

ووصل صاحب الجلالة إلى منف سعيد القلب، مثل ثور مقتدر. قائمة الفنائم: ٥٥٠ مريانو و٢٤٠ من نسائهم و٦٤٠ كنعانياً و٢٢٢ من أبناء الأمراء و٣٢٢ من بنات الأمراء و٢٧٠ من المحظيات التابعات لأمراء كل بلد من البلاد، بحليهن المصنوعة من الفضة والذهب (المعلقة) على أكتافهن والغاية منها الترويح عن القلب. المجموع: ٢٢١٤^(****). فضلاً عن ٤٢٠ جواداً و٧٣٠ مركبة حربية بكافة أسلحة القتال.

عندئذ استطاعت الزوجة الإلهية والزوجة الملكية ابنة الملك... أن تتأمل قدرة صاحب الجلالة^(٢٣).

(*) أي يحاصرونه ويضيقون عليه سبل النجاة. (المترجم)

(**) عند منبع نهر الحسباتى. (المترجم)

(***) الاسم الآسيوى لقواد المركبات الحربية.

(المترجم) Pierre Grandet. Ramsès III, Pygmalion, Paris, 1993, p.70

(****) هكذا في الأصل الفرنسى. (المترجم)

ربما استغرقت الحملة العسكرية شهراً أو شهرين. لقد بدأت بسرعة متخذة أسلوب استعراض العضلات، فوصلت القوات إلى نهر الفرات فى غضون عشرين يوماً، على ما يبدو، ليتباطأ تقدمها، بعد ذلك. وفى أعقاب بعض المناوشات المحلية، خرج أمراء المدن من حصونهم لاستقبال فرعون وجيشه، بدءاً من نبي على نهر الفرات وحتى قاناش الغادرة، فى وادى العاصى. بل كان فى وسع العاهل الملكى أن يمارس هواياته المفضلة كالصيد والرمية بالقوس. كانت هيئة فرعون عظيمة، وتبدو أركان الإمبراطورية راسخة، وحازمة كانت أيضاً قبضة العاهل الملكى القوى الشكيمة. وفى نص اللوح الحجرى القائم فى معبد عمدا وهنوه فى إلفنتين نجد وصفاً للمصير الذى كان يدخره أمنحوتب الثانى للأمراء السبعة المتمرين فى إقليم تيخيسى بسوريا:

عندما عاد صاحب الجلالة إلى أبيه آمون، وقتل بمقمعته البيضاء ذاتها، الأمراء السبعة الذين كانوا فى إقليم تيخيسى، وضعت رؤوسهم إلى أسفل، عند قيادام مركب صاحب الجلالة الذى كان يسمى «عاهيپوررع»، هو مثبت القطرين». وطُلق ستة من هؤلاء الأعداء أمام أسوار طيبة وذلك فضلاً عن الأبدى. أما جسد العدو الأخير فقد نقل على متن سفينه إلى الجنوب حتى النوبة، ليعلق هناك عند أسوار نپاتا (أى الجندل الرابع) لتصبح إنتصارات صاحب الجلالة واضحة جلية للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى، فى كل الأراضى وفى كافة بلاد النوبيين. لأنه كان قد بسط سيطرته على شعوب الجنوب وربط شعوب الشمال وتخوم الأرض بأكملها التى يسطع عليها رع، ورسم حدوده كما يريه، دون أن يستطيع أحد صدّ ساعده، تماماً كما أمر به أبوه آمون - رع، رب عروش القطرين (٣٣ مكدا).

حملة العام التاسع

وبعد انقضاء سنتين، عاد أمنحوتب الثانى إلى أسيا. من المحتمل، أن بعض الأخبار عن محاولة تمرد أو دسياسة ميثاقية، قد وصلت إلى مسامع فرعون، ترتب عليها ضروره وجوده بصفة عاجلة، لأن الجيش قد تحرك فى فصل غير مألوف، نغنى

بذلك نهاية الشهر الثالث من فصل الفيضان^(*)، عندما يصبح وجود الرجال ضرورياً للعمل في الحقول. فقد كانت معظم الحملات العسكرية تتحرك إبان فصل الجفاف وبعد الحصاد. وتراعى أمون في الطم للملك ليرشده فيما ينويه. وحدثت من جديد إشتباكات محلية، في مدن سوريا الشمالية، أمكن تجاوزها بسرعة - ثم جاءت سهرة الإستعداد للمعركة المخيفة عند نهر العاصي:

في اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام التاسع، من سنوات الحكم، زحف صاحب الجلالة على بلاد ريتنو، إبان حملته الثانية المظفّرة. ووصل إلى مدينة أبهق (ربما رأس العين في فلسطين الحالية) التي خرج أميرها في سلام بسبب قدرة فرعون العظيمة. ثم رحل صاحب الجلالة بجياده وعدة حربه في اتجاه مدينة يجم (يما الحالية عند السفح الجنوبي لجلال الخليل^(٢٤)). وأغار على معسكرات ميبيسن وخيتثن، المكانين الواقعين غرب سوخو (وهي من مدن شمال سوريا). وهبّ الملك لينقض، وكأنه صقر إلهي، بينما تطير جياده وكأنها نجمة في السماء. ودخل صاحب الجلالة (في المدينة). عندئذ اقتاد أمراؤها وأولادها ونساءها أسرى، وفعل الشيء نفسه مع سكانها. (كما نُقلت) كافة ثرواتها بلا حدود وقطعائها وجيادها وأفضل مواشيها بالكامل.

ثم استراح صاحب الجلالة. عندئذ جاءه أمامه، في المنام جلالة هذا الإله العظيم أمون، رب عروش القطرين، ليشدّ من أزد ابنه هاخپورع، لأن أباه أمون - رع، يضمن الحماية السحرية لجسده ويحرس الملك.

ومع تباشير الفجر، انطلق صاحب الجلالة من جديد على متن مركبته ليتصدى لمدينتي إيتيرن ومجل - يونت. فاكتسحهما اكتساح سفحت، ومثل موئقو مدينة طيبة. فاقتاد ٣٤ من أمرائها و٧٥ ماريانو و٢٢١ أسيويا أحياء و٢٧٢ يداً و٤٥ جواداً و٥٤ مركبة، بكل أسلحة القتال وجميع رجال ريتنو الأقوياء وأولادهم ونسائهم وكل ثرواتهم. وعندما تأمل صاحب الجلالة هذه الغنائم الطائلة، شدّ الأسرى في الوثاق وحفر من حولهم خندقان ملأنا نارا. وظل صاحب الجلالة يحرسهما إلى أن ابيضت^(**)

(*) علما بأن كل فصل من فصول السنة المصرية يتكون من أربعة أشهر. (المترجم)

(**) ونقول حالياً عبارة شبيهة: «الخط الأبيض» أي «أول ضوء الفجر». (المترجم)

الأرض، وفي يمينه بلطة القتال. كان وحيداً، لا يرافقه كائن من كان، في حين ابتعد جيشه، على مسافة كبيرة، حتى يتمكن من سماع نداء فرعون.

عندما أبلغ فجر اليوم الثاني، رحل صاحب الجلالة، عند الإصباح، ومعه جياده مزدانة بحلي موفق، في يوم عيد تنويجه الملكي. وتم اكتساح مدينة أنهارث وسلبها.

قائمة بما أسره صاحب الجلالة بمفرده في هذا اليوم: ١٧ ماريانو أحياء و٦ من أولاد الأمراء و١٨ أسيرياً أحياء و١٢٣ يداً و٧ جياد مسرجة و٧ مركبات من الفضة والذهب، بكل أسلحة القتال و٤٤٣ ثوراً و٢٧٠ بقرة، وكل أنواع الماشية بأعداد كبيرة. كما قدم الجيش من جانبه كميات طائلة من الغنائم وبلا جنود.

ثم وصل صاحب الجلالة بعد ذلك إلى هومكتي. وأحضر أمير قباشيمونك، واسمه قاقا ومعه زوجته وأولاده وكافة سكان المدينة وعين أمير آخر بدلاً منه.

عندئذ وصل صاحب الجلالة إلى مدينة منف، بعد أن «غسل قلبه» (أي رُوح عن نفسه) في كافة البلدان الأجنبية، وأصبحت كافة الأراضي تحت نعليه.

قائمة الغنائم التي أحضرها صاحب الجلالة معه: ١٢٧ أميراً من ريتنو و١٧٩ من إخوة الأمراء و٢٦٠ هيرو^(٥) و١٥٢٠ شاسو أحياء و٣٦٣٠ سورياً

(٥) استخدمت كثير لالوت كلمة Hébreux التي تترجم بكلمة عبرانيين. ولأنها ترجمة مضللة لكلمة هيرو المصرية القديمة وأن قضية التقارب بين لفظي هيرو وهيرى غير محسومة، ففضلت كلمة هيرو، لا سيما وأن سليم حسن استخدم هذا اللفظ. كما أنه استناداً إلى مبدأ القلب المكناني métaphorique يمكن أن نستخدم كلمة هيرب بدلاً من هيرو، بعد إسقاط ولو الجمع، تماماً كما نقول على سبيل المثال أمبل بدلاً من أبلة. لمزيد من التفاصيل راجع:

● سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص ٦٦٦.

● Cl. Vandersteyen, L'Égypte 2, P.U.F. 1985, p.378

● M. Damiano-Appia, L'Égypte (Dict.Enc.), Gründ, 1999, p.52

● P. Grandot: Ramsès III. Pygmalion, 1983, p.70, p. 172

● ولا سيما: I. Finkelstein, N.A.Silberman: The Bible Unearthed, Free Press, USA

وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية: La Bible dévoilée. Folio histoire: Gallimard, 2004

وقد تتطوى هذه الكلمة على دلالة تحقيرية: راجع: أنيس كابرول، أنحوتب الثالث، ترجمة: ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، الباب الثاني، الفصل الثاني، الهامش ٧٧، (المترجم)

و١٥٠٧.٠ نخس أحياء (شعب من شمال سوريا) و٢٠٦٥٢ (فرداً) بعائلاتهم، فيصبح المجموع ٨٩٦٠٠ شخصاً بشرواتهم التي لا تحصى، فضلاً عن كافة ما يمتلكون من ماشية، وقطعانهم العديدة و٦٠ مركبة حربية من فضة ونهب و١٠٢٢ مركبة ملونة، بكل ما يلزمها من أسلحة قتال، بما يعادل ١٢٠٥٠. (وذلك) بفضل قدرة أبيه ومحبيه، أمون-سرع الذي يضمن حمايته السحرية ويُسند إليه البسالة^(٢٥).

كما حقق إنتصاراً ساحقاً على «تحالف» كان على قدر كبير من الخطورة، على ما يبدو. وجاء القمع رادعاً سريعاً: وإذا كان عيد التتويج الملكي يقع بالفعل في اليوم الأول، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان^(٢٦)، فمعنى ذلك أن العمليات العسكرية الهامة استغرقت ستة أيام. كما كانت بالغة القسوة، لأن هذه المحرقة البشرية، حدث فريد، لم يتكرر في تاريخ مصر. وفي قائمة الغنائم التي أحضرها الفرعون المنتصر يظهر اسم عيرو^(٢٧). وفيما نعلم، هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يذكر فيها اسم هذه القبيلة^(٢٨).

هكذا كانت أراضي الإمبراطورية قد فُتحت فتحةً مبيّناً، ليعم السلام لمدة قرن من الزمن.

٣- أمجاد مصر وشرف منزلتها

الشكر والحمد وأول حلف سياسي

تعلن نهاية نص لوح منف العجري الفقرة الآتية:

عندما نمت إلى علم أمير نهارينا وأمير خاتي وأمير بابلون، النصر العظيم الذي أحرزته، سابق بعضهم بعضاً، ليأتي كل واحد منهم، بتقديمته من كافة منتجات

(*) راجع الهامش السابق. (المترجم)

(**) بل ظهر منذ عهد تحوتمس الثالث. راجع:

(المترجم) M. Damiano-Appia. L'Egypte (Diction. Enc.). Gründ, 1999, p.52.

بلده. كانوا يتحدثون في قلوبهم، إلى أبى آبائهم، ليطالبوا السلام عند صاحب
الجلالة وينالوا نسمة الحياة: «إننا نحمل جزيتنا من أجل قصرك، أيا ابن رع، يا
أمهوتي - الإله - حاكم هليوبوليس، وأمير الأمراء والأسد الجامع، في كل بلد
أجنبي، وفي هذا البلد للزمن اللانهائي»^(٢٧).

كما قبل الميتاني هيمنة طيبة. فعلى أساطين قاعة مسلتى حتشپسوت بالكرتك،
تمتد المدونة الآتية:

جاء أمراء الميتاني، حاملين جزيتهم على ظهورهم، ليطالبوا السلام لدى صاحب
الجلالة وينالوا نسمة الحياة اللطيفة^(٢٨).

من البحر المتوسط وحتى إيران، ومن بحر إيجه وحتى الخليج الفارسي^(٢٩)،
اجتازت أمجاد مصر الأفاق واكتسبت شهرة منقطعة النظير.

وداخل مصر ذاتها، كان ملك أمهوتي الثاني يعكس انتصاراته الباهرة.
فتشهد كل «الأحجار» على حملاته المظفرة.

فعلى جناحي المرح الثامن في الكرتك، يقوم آمون باستقبال ابنه الملكي الذي
يصلح من أجله، مجموعة من الأسرى، كما يوجه إليه الحديث الآتي:

● الجناح الغربي:

أيا بُنى، يا محبوبى عا خپور رع، إنى أعطيك كل البلدان الأجنبية وكل
الأراضي، فيتساقط أمراقها بسبب المذابح التى أنزلتها بهم. عظيم هو مجدك أمام
أعدائك الذين أبيدهم بواسطة سيفك.

● الجناح الشرقى:

مرحباً، مرحباً بالإله الكامل، عا خپور رع، ابن آمون، (الجالس) على عرشى.
(إنه) حورس الذهبى الذى توج فى طيبة. أنا أبوك المهيّب، سيد الآلهة. لقد خصصتك

(*) أو الخليج العربى. (المترجم)

بكل البسالة وكل القوة ضد كل بلد من البلدان، حتى تجهز على الآسيويين وأماكن إقامتهم^(٢٩).

أما المدونة المنحوتة على أعمدة المعبد الذي شيّده أمنحوتب الثانى بين الصرحين التاسع والعاشر، فى الكرنك، وهى مدونة «رتبية» منظومة شعراً، فتعبّر عما يتركه النصر من تأثير ساحر وبعد عالمى. إنها ترنيمة حقيقية، تمجيداً للإنتصارات والفتوحات المظفرة:

كل الأراضى وكل البلدان الأجنبية والخفية منها، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل الذى تحبه الآلهة، على الدوام.

كل حياة وكل ثبات وكل قوة وكل ازدهار وكل سعادة وكل الأراضى وكل البلدان الأجنبية، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل الذى يعبدّه الشعب بأكمله والذى يُحييهم.

كل الأراضى الخفية وكل بلدان مستنقعات آسيا، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.

كل الأراضى، كل بلدان حاو-نبوت، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.
كل الحياة وكل الثبات وكل القوة وكل أراضى مستنقعات آسيا، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.

كل الأراضى الخفية، كل أراضى النوبيين، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.

كل أراضى الفينقيين وكل البلدان الخفية، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.
(من أجل) المحبوب، واهب الحياة والثبات والقوة والسعادة، الذى يقود الأحياء مثل رع^(٣٠).

كما أن القطع ذات الاستخدام اليومى التى عثر عليها فى مقبرته، تحتفظ أيضاً بذكرى رفعة الملك وعظمته. فعلى قوس، هو من مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يمكن أن نقرأ هذه المدونة:

الشعب يعبدّه بينما يظهر متألّفاً على عرش رع، إنه سور مصر العظيم(*)،
وحامى جيشها^(٣١).

ويصبح الإطراء إطراءً عالمياً، فى النص المدون على عصاً:

السماء تصيح. والأرض تغمرها السعادة. وكبراء هليوبوليس فى عيد. وأفراد
طاقم بتاح، يكترون من الفرح والسرور. وطيبة تهلل فرحاً - كل ذلك عندما يشاهدون
عاً خبيرو رع، يشرق متألّفاً على عرش أبيه، فكل الأراضي وكل البلدان، اندحرت تحت
نعليه^(٣٢).

ها هى ثلاثة أماكن مقدسة رئيسية وثالوث مقدس. ومن جديد، ومرة ثانية، نجد
أنفسنا أمام مصادر فكر الرعامسة^(٣٣) الذى تلمس إرهاباته منذ الأسرة الثامنة
عشرة.

وتأكيداً لسيطرت الإمبراطورية، وعملاً بتقليد شاع فى عصر تهوتمس
الثالث^(٣٤)، أمر أمنهوتب الثانى بنحت قائمة بالبلدان والشعوب الخاضعة للهيمنة
المصرية، على الصرح الخامس بالكرنك، للمناطق الشمالية، وقائمة أخرى على كتل
حجرية قام أمنهوتب الثالث بإعادة استخدامها فى معبد الأقصر، وتذكر المناطق
الشمالية والجنوبية، ولم يعثر منها، سوى على ست عشرة كتلة. ويبدو على كل حال،
أن هاتين القائمتين نسخة منقولة عن قوائم تهوتمس الثالث^(٣٥).

عندئذ عرفت سياسة الشرق الأدنى واقعاً جديداً. فمن الآن، نزعت الدول
الناشئة، إلى تكوين كتل مهيمنة، ترتب على وجودها ظهور لعبة الدسائس وضرورة
إيجاد أحلاف دفاعية. إن مصر والميتانى، وهما أعظم قوتين فى مطلع الأسرة الثامنة
عشرة، أسفر احتدام الصدام بينهما إلى فشل محاولات الميتانى. ولكن ظهر الآن
منافس جديد يهدد التطلعات التوسعية لكل من مصر والميتانى. إنه مملكة خاتى التى
استقرت فوق هضاب الأناضول الحالية وأخذت تبحث عن منافذ تطل على البحر
المتوسط، فضلاً عن منافذ أخرى على بحر إيجه، ولذلك فقد تعاطفت أهميتها وقوتها.

(*) هكذا ساد الاعتقاد، فلم تكن مصر فى حاجة آنذاك، إلى ما يشبه سور الصين العظيم، ولكن
ثبت بعد إنقضاء عدة قرون، أن هذا السور، غير كافٍ! (المترجم)

ويبدو أن اهتمام كل من المصريين والميتانيين بمصالحهما، وهو أمر مفهوم للغاية، قد دفعهما إلى اتباع سياسة التقارب بينهما. فمن غير المستبعد أن إتفاقية أولى قد وقعها كل من أمنحوتب الثاني وأرتاتاما الأول الذي تربع على العرش الميتاني قرب عام ١٤٢٠ ق.م، ولكن لا يوجد بين أيدينا، حتى الآن، برهان قاطع يؤكد ما ذهبنا إليه. والأمر المؤكد أن ابنة أرتاتاما، قد تزوجت من ابن أمنحوتب، وهو الأمير تحوتمس الذي سيعرف في وقت لاحق تحت اسم تحوتمس الرابع. وعندما سيتسلم هذا الأخير مقاليد الحكم لأول مرة، ستصبح أميرة هنوأوروية «زوجة ملكية عظيمة»، ووالدة الفرعون أمنحوتب الثالث. فالذي حدث، كان بكل تأكيد، بمثابة ثورة داخل الأسرة الحاكمة، وإبرازاً للأهمية المتعاطفة التي اكتسبتها الشئون الدولية، من منظور إمبراطوري، إن لم يكن إستعماريًا. وظلت آشور الخاضعة لبابل، لا تشارك حتى الآن في هذه «اللعبة»، وكان كاشمان - حري الأول، ملك بابل، يتهجئ آنذاك نهجاً مسالماً، إذ انصبَّ جُلُّ اهتمامه على تأمين الدروب التجارية.

وعلى كل حال، هكذا انتهى النزاع المصري الميتاني القديم. إن التحالف الذي عززته رابطة الدم، ساهم أيضاً في الحفاظ على السلام لمدة بضع وخمسين سنة.

روعة المباني الصرحية

كما يشهد عدد المباني المقدسة وثرواتها على ازدهار الإمبراطورية والورع العارف بالجميل للعامل الملكي.

إنه ملك، يروق له أن يبني من أجل الآلهة جمعاء، فيشيد لها المعابد ويشكل تماثيلها، فتوضع القرابين الإلهية من جديد: من خبز وجعة بكميات كبيرة، وطيور بأعداد لا تُعد ولا تحصى. إنها قرابين يومية (محددة)، للزمن الأبدي. فضلاً عن الماشية والأغنام، في كل فصل من فصول السنة، دون أن تنقص أبداً. ويعمل الملك حتى يزود بيت سيده الإلهي (أمون) بكل ما يحتاجه... ولكنه جدد مؤخراً من أجل آبائه الآلهة، هبات متميزة ليراهم الشعب وليعرفها الجميع^(٣٧).

ويظل الكرنك مركز نشاطه.

ويعمل صاحب الجلالة بيديه من أجل أبيه آمون - رع. إنه يباشر الأعمال فى
مبناه الشامخ^(٣٧).

إن السوارى والمسلات التى أقيمت مؤخراً، تكشف من بعيد، عن وجود المكان
المقدس. فعلى الجانب الجنوبي من الجناح الغربى من الصرح الثامن على المحور
الشمالى الجنوبى، «شيد عددٌ كبيراً من السوارى، عند مدخل معبد ملايين الأعياد
اليوبيلية^(٣٨)». وأمام باحة المعبد الكبير الذى كان يبدأ آنذاك عند الصرح الرابع، وقفت
من الآن مسلتان فى صحبة المسلتين اللتين أقامهما فى هذا المكان تحوتمس الأول
وتحوتمس الثالث.

وبين الصرحين الرابع والخامس وعلى المحور الغربى الشرقى، فإن قاعة
الأساطين التى بدأها تحوتمس الأول وطورها تحوتمس الثالث، ازدادت بأساطين
جديدة من ذهب:

لقد شيد قاعة كبيرة ذات أساطين رائعة، من الحجر الرملى الأبيض الجميل،
مشغولة بالذهب الخالص. كان ذلك أجمل مما أبدع، من قبل^(٣٩).

وعلى هذه الأساطين تمتد المدونة الآتية:

لقد أعد مقصورة مقدسة من ذهب، أرضيتها من فضة، وحدد لها قرابين لا
حصر لها. وهذا الأثر أجمل من أبدان النجوم، ويفضله امتلات خزانها بثروات جزية
كافة البلدان. وشونها تفيض بالحبوب الوضأة التى تنير الجدران^(٤٠).

وفى القسم الجنوبى من قاعة الأساطين، أقام أمنحوتب الثانى مقصورة
صغيرة من الحجر الرملى، تخليداً لانتصاراته على شعوب ويقتو. «يصور أحد النقوش
تصويراً غريباً، يمثل الملك وعرش آمون، يرتكزان على كتلة الأسرى المحركة للمشاعر
وقد التصقوا بعضهم ببعض، وانحنى أجسادهم إنحناء بسيطة للدلالة على تعرجات
المياه^(٤١)».

وشُيّدت مقصورة أخرى فيما بين الصرحين التاسع والعاشر.

وترك أمنحوتب الثانى «بصمة» بارزة فى الكرنك ومنطقة طيبة. ففى نقش

ضخم تقليدي صُور على جناحي الصرح الثامن، وهو يجهز على أعدائه بواسطة مقمقة بيضاء وقد رفعها إلى أعلى. كما تم الكشف عن عدد كبير إلى حد ما، لتمثال العامل الملكي، تمثله تحديداً، في حماية الآلهة. إن تمثالاً من الحجر الرملي، وهو آية في الجمال، يبلغ ارتفاعه ٢٢٥ سم، وعثر عليه ناقليل Naville عام ١٩٠٦، في الدير البحري، يكشف عن تكوين مكتمل. ويمزج بين النحت المجسم والنقوش. وتحت الخطم القوي للإلهة حتحور التي تتخذ هنا هيئة بقرة، يقف تمثال أمنهوتب الثاني في حماية الإلهة. وتحت ضرعها صور بالنقش البارز الطفل الملكي وهو يرضع، لأن اللبن الذي يمتصه سيساعده على الدخول إلى عالم الخالدين. إن الخطوط المقناة الطويلة التي تصور سيقان البردي العالية التي يبدو أن البقرة تبرز منها، تنحني على نحو متماثل ومتناغم فوق رأسها، لتلتف حول قرص الشمس المستقر على جبينها. يعتبر هذا التمثال آية من روائع فن نحت التماثيل^(*). أما التمثال المصنوع من الجرانيت الأسود ويستوحي التصور ذاته، فيصور الملك في حماية الإلهة - الثعبان واهت، حامية مملكة الشمال، أو هي بالأحرى مرت - سحر التي تُعبد في جبانة طيبة، وبصفته خادم الآلهة، يذشن أمنهوتب الثاني موضوعاً جديداً يصور الملك جاثياً، وهو يقدم مائدة قرايين. ويبلغ ارتفاع التمثال ١٢٠ سم^(**). هذان التمثالان من مقتنيات متحف القاهرة، في الوقت الراهن.

وإذ ظل يعمل من أجل «أبائه الآلهة»، واصل أمنهوتب الثاني، بناء المعبد الذي بدأه تحوتمس الثالث في مدينة الكاب والمكرس للإلهة المحلية نخبت، حامية مملكة الجنوب ولإله تحوت.

وفي الفنتين استكمل وانتهى من تشييد معبد، كان تحوتمس الثالث قد بدأه

(*) يمكن مشاهدة هذه التحفة في القاعة رقم ١٢ من الطابق الأرضي بالمتحف المصري في القاهرة. (المترجم)

(**) في القاعة رقم ١٢ بالطابق الأرضي من المتحف المصري في القاهرة. (المترجم)

ومكرس «لأبيه خنوم، رب الجندل ووالدته ساتيس سيدة إلفنتين وأنوكيس القائمة على رأس النوبة».

كان مشيداً من الحجر وسوره الخارجى من الطوب وأبوابه من خشب الأرز، من أفضل ما انتجته موانئ المشرق، وعقباته من الحجر الرملى، ليبقى اسم تحوتمس ابن رع العظيم، فى هذا المعبد، للزمن الأبدى والزمن اللانهائى.

عندئذ قام جلالة هذا الإله الكامل، هــلـخـپـرـو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، بمد خيط البناء وفُرد الحبل^(٤٢)، من أجل أبائه الآلهة لتشييد صرح شامخ من الحجر الرملى، سيتقدم قاعة أعياد ذات أساطين رائعة، محاطة بأساطين من الحجر الرملى، لقد صنع هذا العمل ليوم على امتداد الزمن الأبدى. (سوف يوجد فى المعبد موائد قرابين وأدوات أكل من الفضة والبرونز^(٤٣)).

وحتى القوارب اللازمة لرحلات التماثيل الإلهية لم يتم إغفالها:

طلب صاحب الجلالة بصنع الأشربة اللازمة للرحلات النهرية التى تقوم بها هذه الآلهة المقيمة فى إلفنتين، فكانت أشربة ضخمة، يبلغ كل واحد منها عشرة أذرع (أى خمسة أمتار)، بعد أن كانت فى السابق، صغيرة (يبلغ كل واحد منها) ثلاثة أذرع^(٤٤).

وفى النوبة، انتهى من تشييد معبد عمدا، ومن أجله قدمت له الشكر الآلهة رع - حور أختى (حامى هذه الأماكن وراعياها) وهورس وأمون - رع و تحوت، ورمم المعبد الشمالى فى بوهن الذى كان قد شيدته أحمس.

٤- فى خدمة الآلهة والملك

الوزير رعى مى رع، مساعد الملك المباشر، كان يشغل حالياً، منصبه فى بداية العهد. وخلفه أمن إم إيبى (أى: أمون - فى - الحريم). وكان على وجه التحديد...

...النبيل، الأمير، من وجهاء الملك، الذى يجمع البشر ويُزيّن السعدين (أى حورس و ست) ويُزيّن السيدتين ويُرضى ماعت على مرّ الأيام، ويُفصل فى الواقع بين المتشاجرين. إنه عمدة المدينة، إنه الوزير أمن إِم إبيت^(٤٥).

ووضعت أقاليم الجنوب تحت إمرة أوسير - ساتت (أى: ساتيس - قديرة). ويدل اسمه أن إلفتين عند حدود النوبة، فى بكل وضوح مسقط رأسه. إنه «حامل أختام ملك مصر السفلى، والابن الملكى، ورئيس بلدان الجنوب». كما كان من رفاق السلاح الذين صاحبوا فرعون إلى سوريا.

ودبرّ شئون الأقاليم الجنوبية، بقدر من النجاح على ما يبدو، إذا أخذنا بعين الاعتبار، ضخامة الجزية التى تم تسليمها. وبالفعل فقد صوّر أوسير - ساتت فى قبره التذكارى بقصر إپریم، تسليم الهبات الواردة من النوبة والسودان:

ظهر صاحب الجلالة متألّفاً فى طبيعة، فوق الدرج الكبير من أجل (تأمل) أعاجيب جيشه وروائعه، فضلاً عن الغنائم التى ظفر بها من النصر (الذى أحرزه) إبان حملته الأولى و(سلّمت) لسيد القطرين.

تقدم الجيش (ووضعت) جزية البلدان الأجنبية أمام هذا الإله الكامل. كان الجند يعبدون صاحب الجلالة قائلين: عظيم هو مجدك، أيها الإله الكامل الحازم. وفيرة فى جزية أراضى (الجنوب). فلم يرَ شىء مماثل، منذ زمن الأجداد، ولكن يحدث ذلك من أجلك، أيّا سيدنا!

قائمة بحاملى الجزية:

٢٠٠ رجل	حاملو ... [فجوة]
١٥٠ رجلاً	حاملو الذهب
٢٠٠ رجل	حاملو العقيق الأحمر (?)
٣٤٠ رجلاً	حاملو العاج
١٠٠٠ رجلاً	حاملو الأبانوس

حاملو مختلف أنواع الخلاصات العطرية

الواردة من بلدان الجنوب	٢٠٠ رجل
حاملو الأخشاب النفيسة	٢٤ رجلاً
رجال يقتادون القهود	١٠ رجال
رجال يقتادون الكلاب	٢٠ رجلاً
رجال يقتادون الأبقار والعجول	٤٠٠ رجل
مجموع حاملي هذه الجزية	٢٦٥٧ رجلاً (١٦)

لا ريب أنها «شحنة» مهولة، ستزيد الخزائن الملكية وخزائن أمون ثراءً.

والصدقة التي نشأت بين الملك و أوسير - ساتت دامت حتى غالبت الأيام: بل أرسل أمنهوتي خطاباً مكتوباً بخط يده، إلى نائب الملك، يوم الإحتفال بقتويجه، وحفظ لنا الدهر نصه، بفضل قيام المرسل إليه بطلب نسخه على لوح حجرى، يحتفظ به فى الوقت الراهن متحف بوسطن.

يوم عيد التتويج الملكى، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٢٢. نسخة منقولة عن الخطاب الذى دونه صاحب الجلالة بخط يده من أجل الابن الملكى أوسير - ساتت، فى حين كان صاحب الجلالة بمدينة الجنوب، فى حريم فرعون. كان منهكاً ويشرب ويقضى يوماً سعيداً.

انظر، سوف يُسلم إليك، خطاب الملك هذا، صاحب الحُسام الكبير، صاحب اليد القديرة والساعد المقدام، الذى ربط شموب الشمال ودهر الأسيريين فى محل إقامتهم، بحيث لن يوجد عو، فى أى بلد من البلدان.

اجلس... لقد كانت المعركة فى كل البلدان، معركة بطولية^(١٧).

كما أن عائلات كبيرة، وكبراء الدولة من المقربين، كانوا يعيشون فى الأقصر على مقربة من الملك.

كان سن نفر، أخا الوزير أمن إم إيبث، عمدة طيبة والمشرف العام على الحرم الملكي. كان إدارياً محنكاً، ويرتبط أيضاً بكهنة آمون ارتباطاً وثيقاً. كانت زوجته مريت تحمل لقب «المرضعة الملكية التي تربي الجسد الإلهي»، في حين كانت سفت - نفرت، «منشدة آمون»، أسوة بابتنتها موت نفرت. وفي مقبرة سن نفر (٥) رقم ٩٦ في الشيخ عبد القرنة، يستعرض نص، مسار حياته المهنية البارزة:

لقد بلغت مرتبة المبجل، ووصلت في الوقت نفسه، إلى سن الشيخوخة وأنا بجوار الملك. أنا كاتم أسرار رب القطرين. أنا مفعم بالبركة وهو ما يعرفه الملك، فيعرف أنني أنجزت أعمالاً مفيدة، من خلال المناصب التي أسندت إلي. وبعد أن بحث في كل الدروب، لم يجد فعلاً خسيئاً واحداً ينسبه إلي. لقد أمتدحت بسبب كل ما فعلته. لذلك فقد رفّاني إلى أعلى مراتب المدراء والرئيس الكبير في مدينة الجنوب والمشرف العام على شؤنة آمون المزدوجة، والمشرف العام على حقول آمون، والمشرف العام على حديقة آمون، وكبير كهنة آمون في هليوبوليس^(٤٨).

كل ذلك يبرهن على أن التعيينات في وظائف الإشراف الإداري، على ممتلكات آمون، كانت من اختصاص الملك والشئ نفسه، ينسحب على الترقيات داخل سلك الكهنة ذاته.

تضم مقبرة سن نفر زخرفاً متميزاً: ففي الردهة، وهي حجرة صغيرة منخفضة، يظهر مشهد رسم سور بلمسات سريعة، يمثل كرمة تبدأ من أرضية الحجرة، لترتفع على امتداد أحد الجدران وصولاً إلى السقف المقبي، لتنتشر في هيئة عريشة، من الأوراق الخضراء، ذات نتوءات حمراء وعناقيد عنب ضخمة سوداء. وتحت هذه القبة النباتية وعلى جدران الحجرة، نشاهد سن نفر وعائلته في مشاهد تقديم القرابين. هذه الصور الرمزية غير المألوفة في الغالب، ترتبط بأسطورة أوزيريس، «رب النبيذ» وحامي الحياة المتجددة.

(٥) والتي تعرف اصطلاحاً بمقبرة العشب. (المترجم)

كان قن آمون مشرفاً عاماً في خدمة أمنحوتب الثاني ومن المقربين للعاهل الملكى وشقيقه في الرضاعة. كان ابن مرضعة الملك، وقد «ولتته المرضعة العظيمة التي نشأت الإله»^(٤٩). كان سيداً عظيماً، حظى بأعلى مراتب الشرف والألقاب والنعوت التقريظية: أمكن حصر أعدادها لتصل إلى مائة وواحد وخمسين^(٥٠). وحديثاً، واستناداً إلى أوشبتي من متحف فلورنسا، أضيف إلى هذه «المجموعة» الهامة، لقب «الابن الملكى»، شاهداً على علاقته الحميمة بالعاهل الملكى^(٥١).

كان صديق الطفولة لفرعون، وتبعه في حملاته الآسيوية: إنه «رفيق العاهل الملكى على الماء وعلى الأرض وفي كافة البلدان الأجنبية»^(٥٢) «ومن لا يفارقه في أرض المعركة، ساعة دحر الملايين»^(٥٣). كان «حاكم الحصن» ولفترة قصيرة «المشرف العام على بلاد الشمال بأسرها». ولما كان الملك وفياً نحو أصدقائه، فقد عرف كيف يكافئه. فعين قن آمون قاضياً وكبير الماليين و«المشرف العام على أملاك پرو- نفر» التي كانت بلا ريب قصراً للترويع عن النفس، ويعيداً على ما يظن عن مدينة طيبة وله قدر من الأهمية. هناك كان يوجد حريم الملك. كان قن آمون يشرف على الحقول والقطعان والإسطبلات. والظاهرة التي تشهد أيضاً على علاقته الحميمة بفرعون أنه كان «حامل المروحة على يمين الملك».

إنه زمن استعادة السلام. إنه زمن الأعياد.

وفي مقبره قن آمون رقم ٩٣ في القرنه يُصور رسمٌ، الفرعون أمنحوتب في شبابه، وإن تحلى بزيئة الملوك، جالساً في حجر مرضعته، فهكذا تتشرف العائلة وتتفاخر. إن اثنين من حاملي المروحة وكان قن آمون أحدهما، يروحان على العاهل الملكى بالمروحة^(٥٤). إن فتيات رقيقات يلعبن على العود أو يحملن كؤوساً ذهبية، وينشدن من أجله في حداثق پرو- نفر:

فلندمن أنفسنا بالبخور. فالنقدم الزيت. فلنقض يوماً سعيداً. فلنمقد القلادات العريضة في حديقتك. ها هي زهرة لوتس من أجل أنفك، أيا أمنحوتب! ليتك تخلق من أجلنا الأبدية في السررات. كم هو جميل وجهك، أثناء التتويج الملكى، في حين تجلس على العرش العظيم... إن رع يفرح عندما يراه. فالحياة ملك له، فلن يموت أبداً.

كان قن آمون يقوم بتنظيم الأوقات التي يقضيها العامل الملكي في الترويع عن نفسه، ويشرف فضلاً عن ذلك، على الأعياد الرسمية. فعند الاحتفال بعيد رأس السنة، كان المسئول عن تقديم الهدايا المكرسة إلى الملك، المترويع على العرش: إنها عبارة عن «مركبات من ذهب وفضة وتماثيل ملكية من العاج والأبنوس وعقود من مختلف أنواع الأحجار الكريمة، وأسلحة قتال ومختلف ما صنعتها أنامل حرفيي مصر السفلى»^(٥٥). وقد تم حصرها بتفاصيلها وأعدادها في الصورة المرسومة، لتشهد على مدى ثراء مصر الخامسة^(٥٦).

ويتردد قن آمون على حديقته المنعشة، طلباً للاستجمام بعيداً عن وظائفه الرفيعة، إنها المديقة التي تتواجد فيها الآلهة، إنه يجلس أمام مائدة زاهرة بثمار التين، ويرى أمامه الإلهة نوت، خارجة من شجرة جميز باسقة، وهي تحمل الماء، رمز رطوبة الشجرة وتتحدث إليه قائلة:

أنا نوت، المرتفعة، العظيمة في الأفق. لقد حضرت إليك، (حاملة) هباتي، أيها المشرف العام على الماشية... هكذا سوف تتمتع بجو رطب في ظل أشجارى، سوف ترضى بتقدماتي، وتحيا من خبزي وترتوى من جعتي. سوف أجعلك تتغذى من لبنى حتى تعود إلى الحياة وتمسك بشديى في فمك، فبغضلهما ستنال فرحاً وازدهاراً، ينفذان إلى داخلك، عربون حياة وقوة، كما سبق أن فعلته مع ابنى البكر (أوزيريس). سوف أمنحك السرور (حرفياً: سوف أغسل وجهك) مع تباشير الفجر، بالإضافة إلى مختلف ضروب السعادة. وسوف يحضر هعبي إليك، محملاً بالقرايين المخصصة لكان صاحب - القلب - المتعب (أى: أوزيريس). سوف اتصرف بحيث يحضر الناس من أجلك، ثرواتهم فى بيتك، (بيت) الزمن الأبدى. إن والدك (أى: نوت ذاتها) سوف توفر لك الحياة. سوف تضعك فى بطنها التى تحمل فيه (اندماج مصير المتوفى بمصير رخ)... عندئذ ستحدث النجوم التى لا تكل^(٥٦) قائلة: «مرحباً فى سلام، أيها

(٥٥) على اعتبار أن معظم ملوك هذا العصر قد حملوا اسم تحوتمس، فنذكر هؤلاء الملوك بالترتيب. تحوتمس الأول. تحوتمس الثانى. حتشيسوت. تحوتمس الثالث. أمنحوتب الثانى. تحوتمس الرابع. وقد حكم هؤلاء لأكثر من قرن من الزمن. (المترجم)

النوراني المتميز، أيها الرجل الجدير بالثناء، السالم المعافى، بناء على أمر أمون، أيها الأوزيريس... أما أنا، فقدّم لك خبزى، وأقدم لك جعتى، وأقدم لك لبنى، وأقدم لك ثمار تينى، وأقدم لك وجباتى، وأقدم لك قرابينى، وأقدم لك أطعمتى، وأقدم لك نباتاتى النضرة، وأقدم لك كل الأشياء الطيبة الطاهرة التى تحيا منها وتتغذى عليها. خذها، حتى ينتعش قلبك بفضلها، للزمن اللانهائى^(٥٧).

إنه حديث عن الإنتعاش لزمن الحياة والضمانات المتوفرة للزمن الأبدى. هكذا فإن زمنى الحياة والبقاء على قيد الحياة بعد الوفاة، يتداخلان ويمتزجان فى هذه الصور، فى لحظة واحدة، تتواصل وفقاً للصيرورات الأوزيرية والشمسية. إن الحدائق - العامرة - بالآلهة، هى ينبع الحياة.

فبعد لحظة الوفاة العابرة، يتطلع المرء إلى الحرية الشاملة التى يسمى إليها الجميع. هذا هو حال قن أمون وزوجته:

الركون إلى الراحة فى مدينة الزمن اللانهائى، التمتع بالسعادة فى بلد الزمن اللانهائى، واكتمال التحولات (واستعادة الأشكال) لزمن الإقامة على الأرض ومدّ الساعدين لتلقى الثروات والإستحواز على ما يرتفع أمام الإله، بعد أن يأخذ منه كفايته^(٥٨).

الإشارة هنا إلى تماثيل قن أمون التى وضعت، كإنعام تفضل به الملك، فى معبد أمون بالكرنك، بالإضافة إلى غيرها من معابد الآلهة، وفى معبد المعاهل الملكى الجنائزى. وقد نقلت فى موكب، أثار الكثير من الضجيج، كما أن ثلاثة صفوف من الرسومات تقدم لها وصفاً دقيقاً:

نقلت تماثيل قن أمون المشرف العام على قطمان أمون، إلى معبد أمون بالكرنك وإلى جميع معابد آلهة مصر العليا ومصر السفلى. وفى سلام، وفى سلام (نقلت)، أيضاً إلى مقبرته فى الجبانة، كإنعام من الملك مقدّم إلى أحد المقربين إليه، وهو الخادم الموجود هنا، فى الوقت الراهن. إن أفراد العائلة المجتمعون هنا، يصيحبون أمامها، بصوت واحد. فصاحب الجلالة هو الذى أمر شخصياً بمرافقة هذه التماثيل حتى المعابد، كما حُذّت من أجلها، قرابين من الخبز واللحوم، على مدار الأيام^(٥٩).

ربما كانت مقبرة قن آمون أيضاً، إنعاماً تفضل به العامل الملكي، فهي من أكبر مقابر الجبانة، إذ تضم ردهة ذات عشرة أعمدة وحجرة جنازية ذات ثمانية أعمدة. ومن حيث زخارفها، فهي أيضاً من أكثر المقابر أصالة وأجملها. وإذا اعتبرت من إرماسات نوق عصر الرعامسة، تظهر رسوماتها على خلفية صفراء اللون وليست رمادية تميل إلى اللون الأزرق، كما كان مألوفاً. إن نفى الألوان ورقة الفرشاة وحلاوة الوجوه ورشاقة الأجساد، ترهص منذ ذلك العصر، بالفن البالغ الرقة الذي سيسود في عهد أمنمحاتب الثالث: وسواء تطلق الأمر بحاملي باقات الزهور المركبة، أم الصبية الذين يمسكون بالأزهار والأسماك، إلى جانب سهام سيدهم، أم الشابة الجميلة عازفة العود، أم رقص الكاهنات، أم مشاهد الصيد في الصحراء، فإن الإحياء بالمشاعر التي يهسّ بها المشاهد من خلال الخطوط المرسومة باقتدار، أكانت خطوطاً بسيطة أم تألفاً بين هذه الخطوط، إنما يكشف عن رقة مشاعر الفنان إلى أبعد الحدود، واهتمامه في المقام الأول بالأحاسيس التي ينقلها للمشاهد، بدلاً من تركيزه على تقديم وصف يلتزم بأنيق التفاصيل.

إن تذكراً، سواء كان تمثالاً أو لوحاً حجرياً أو قطعة عاجية، أو مقبرة مهدمة إلى حد ما، تعود إلى غيرهم من كبراء الدولة، لتظل إلى وقتنا هذا، تغالب الأيام، فنتعرف من خلالها ويفضلها، على وجود أصحابها ومشاعلهم. هكذا نتأكد من وجود...

.. بها سر (١٠) (أي الشريف السري)، رئيس قوأسى الملك وولد الحريم (١١) ورفيق الملك، إذن منذ نعومة أظفاره والذي... «تبع الملك في جميع تنقلاته، على الماء وعلى البر، وفي كل بلد من البلدان الأجنبية، الذي مُنح الإنعامات (المخصصة) للمقربين من الملك، فضلاً عن القلائد من الذهب الخالص» (١٢).

(*) من حقنا أن نعقد مقارنة بين كلمتي سر المصرية القديمة وسري العربية، فمعناها واحد: الشريف الكريم الأصل. (المترجم)

أما نخت (آي: القوى) فكان حامل البيرق ورئيس التوبيين، والتابع (الكتيبة المسماة): ثور-النوية». إن تمثلاً في حالة جيدة من الحفظ يصوره، في وضع المتعبد، خلف الإلهة - الثعبان رنن-وتت، من آلهة جبانة طيبة^(٦٢). وقد نُحت الخرطوش الملكي على صدر نخت وساعده الأيمن.

يخ سو خر^(٦٣) (آي: من - يهاجمه - يسقط)، نبيل وأمير، وقاشقام الملك وحامل المروحة. ربما كان يدين بجانب من الرعاية التي حظى بها، إلى زوجته التي كانت «مرضعة الملك». فقد صورت في مقبرة القرنة رقم ٨٨، في صحبة زوجها، وهي تقدم الزهور للعامل الملكي:

إنها تتقدم في سلام، حاملة باقة من زهور آمون، رب عروش القطرين، بعد أن أقامت المدايح الشعائرية اليومية لصالح حياة وازدهار وصحة، رب القطرين عاخبوروع، ملك مصر العليا مصر السفلى. إنها منشدة آمون، ومرضعة الملك العظيمة وأثيرة الإله الكامل، التي نشأت الإله، إنها صاحبة اللبن الطيب والتي تتحد نيت بصدرها وتتحدث الصادقة القول قائلة: «من أجل كائنك، أيها الملك الذي يغالب الأيام، الإله الكامل، ورب القطرين، الذي ما برح رع يحبه، (أقدم لك) هذه الباقة من زهور أوبيك آمون-رع الذي يمتدحك ويحبك ويبقيك للزمن الطويل، فيحدد (لك) ملايين السنين، حتى تبقى ثابتاً، على عرش حورس الأحياء»^(٦٤).

لم تكن للإيماءة في العصور القديمة، القيمة المبتذلة والمادية التي اكتسبتها في أيامنا هذه. بل كانت «التزاماً وعهداً» للحياة الأبدية.

(*) خر المصرية القديمة التي تعنى يسقط، من حقناً أن نعقد مقارنة بينها وبين كلمة خر العربية.
(الترجم)

وفى كويتوس^(*) عثر على تمثال أوسرسو (أى «إنه كبير») وكان «المشرف العام على بلاد ذهب آمون». إنه جالس إلى جوار زوجته سات رع (أى «ابنة - رع») ويطوق كل منهما الآخر بذراعه. ويأخذ حيطته ضد اغتصاب دفنته عن طريق سحر الكلمات.

إنه يقول: «أما كل من قد يعتدى على جثمانى فى الجبانة ويحطم تمثالى فى مقبرتى، سوف يصبح إنساناً مكروهاً من رع. فلن يستطيع الحصول على الماء على مائدة قرابين أوزيريس، لن يستطيع توريث ثرواته إلى أولاده - وذلك للزمن الأبدى»^(٦٤).

أما سو إم نيوت (أى: «إنه فى المدينة»). فكان من كبراء بطانة أمنحوتب الثانى. كان مشرفاً عاماً فى البحرية، وسيد إسطل الملك، والساقى الملكى، والمدير المشرف على عيد آمون، وابن إيمانفر (أى: «الجانبة السعيدة»)، وعمدة نفروس^(**) وكبير كهنة تحوت فى هرموبوليس. وفى مدونة بمقبرته رقم ٩٢ فى القرنة تحدثه زوجته قائلة:

إلى كائك، يا أبى^(***). اشرب حتى يأخذ فيك الشراب واقض يوماً سعيداً^(٦٥).

إنها لازمة ملحة للعيد فى العداوق، كشاهد عن زمن يعمه السلام والإزدهار. إن مقبرة سوم إم نيوت فى نظر مؤرخ الفن، حالة فريدة، وصلت إلينا بفضل العناية الإلهية. وبالفعل فإن عدداً كبيراً من المشاهد، إذا استثنينا المقصورة الداخلية، ظلت ناقصة لم تكتمل، وفقاً لمختلف مراحل العمل. إن تحليلاً دقيقاً قد يسمح لنا بكتابة تاريخ فعلى لتقنيات فنون الرسم المصرى.

كان مين حوتب (أى: «فليكن - مين - راضياً!»)، المدعو هوتوتو، كاتب الخزانة وكاتب المجندين الجدد. ربما كان ينحدر من الشمال. ونعرفه من خلال أثر عانى من

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم جيتيو ومدينة قفط حالياً). (الترجم)

(**) (قرب المنيا). (الترجم)

(***) هكذا فى الأصل الفرنسى. (الترجم)

مختلف الأحداث غير المتوقعة. ففي عام ١٩١٩ اشترى متحف القاهرة من أحد أهالى أبوصير قطعاً أثرية كان يحتفظ بها فى منزله منذ وقت بعيد، وهى عبارة عن اثنتين وعشرين كسفة من لوح ضخّم من الحجر الجيرى، جانت بها على ما يظن إحدى الجبانات القرية. ولم يعثر على جميع أجزاء هذا اللوح الذى يبلغ ارتفاعه فى الوقت الراهن ١٨٠ سم وعرضه ١١٢ سم، فقد بيعت الأجزاء الناقصة فى وقت سابق إلى أحد الأشخاص.

أما المقبرة رقم ٨ للمهندس خع فقد كشف عنها سكيلاپاريللى Schiaparelli عام ١٩٠٦ فى دير المدينة. وأعيد تشكيل حجرة الدفن فى متحف تورينو. ونقل إليها كل المتاع الجنائزى. وعلى لوحة من الذهب نقشَت ترنيمة جميلة من أجل الملك، تشهد أيضاً على الإنتشار التدريجى آنذاك، لأيدولوجية هليوبوليس^(٦٦).

فليحى الإله الكامل بقدر تاللق رع. إنه شبيهه، ويتخذ شكله. إنه يشيد فى الحقول، فى صحبته. إنه عا خپور رع رب القدرة. وتسعد قلوب البشر عندما تشاهده. وكل أمرى يتأمل حُبّه فى انبهار. إنه مقدم وبطل. إنه أمنحوتپ، الإله حاكم هليوبوليس، المقيم فى قلوب كل البشر، الذى يحب القدرة.

فليحى الحورس، الثور المقندر، العظيم القوة، الإله الكامل والباسل، الساهر، رب القطرين، عا خپور رع. الثور المقندر، لكافة البلدان الأجنبية التى تتجمع على جبل نهارينا، كما شكّت حركة رجال النوبة - إنه ابن رع، أمنحوتپ، الإله حاكم هليوبوليس، فاتح البلدان قاطبة.

فليحى الإله الكامل، الباسل فى حقيقة الأمر، (فليحى) عا خپور رع، رب القطرين. عاد صاحب الجلالة، سميد القلب، إلى بيت آمون، والده المعظم. إن جيشه أمامه، أشبه بالجراد. وتوقف صاحب الجلالة عند هرموبوليس، وشيد فى ظرف يومين، محل إقامة عا خپور رع المحصن^(٦٧).

كان الأحيار وكبار رجال الدين، من رجالات الملك أيضاً. فقد كان هذا الأخير بلا شك، على قدر كبير من الحزم ونفاذ البصيرة، حتى يحاول الكهنة اختلاس، جانباً من السلطة الملكية لصالحهم.

عند تتويج أمنحوتب الثانى ملكاً على عرش مصر، استمر من خيبر رع سنڤ، يشغل منصب كبير كهنة آمون، بعد أن ظل ينهض بأعبائه لفترة طويلة فى عهد تحوتمس الثالث. إن تمثال هذا الشخص الذى عثر عليه ليجران Legrain عام ١٩٠١، أمام الصرح السابع فى الكرنك، يحمل بالفعل خرطوش عا خيبر رع. وقد شُيّدت من أجله مقبرتان فى الشيخ عبدالقرنة. والأقدم وهى المقبرة رقم ١١٢ تم اغتصابها فيما بعد. أما الأحدث وهى المقبرة رقم ٨٦، فكانت بلا شك، مرقدته بعد وفاته الدنيوية، وقد دُمّرت جزئياً فى أعقاب الحريق الذى أتى على قسم منها. ولكن الجزء الذى بقى سالمًا، نشاهد فيه رسومات بالغة الجمال، فتكشف على وجه التحديد، وصفاً لتقديم باقة الزهور المقدمة للملك، وإحضار جزية الإمبراطورية الواردة من بلاد الشمال والجنوب والغرب، وقيام من خيبر رع سنڤ بجولاته التفتيشية على ورش حرفيي الجلود والأخشاب والمعادن، العاملين فى أملاك آمون، وعلى سير العمل فى المنشآت الجديدة.

من الواضح أن مير قد خلفه فى منصب كبير الكهنة^(٦٨). كان رجلاً ينحدر من كوهتوس، أما والده فقد شغل، فى هذه المدينة، منصب كبير كهنة الإله مين، وكانت والدته «المرضعة العنابية» للعاهل الملكى. ومن ثم فقد كان صديقاً حميماً للملك. وشأنه شأن، هيو سنڤ، فقد جمع بين كبرى المناصب الكهنوتية والعمانية. ويصفته «رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى»، شملت إختصاصاته كل رجال الدين فى طول البلاد وعرضها. كما عينه الملك فى منصب «حاكم الجنوب». ويبدو أنه اهتم إلى حد كبير بإدارة أملاك آمون الدنيوية التى تعاظمت إلى حد كبير، بعد الإنتصارات التى حققها ملوك مصر. وبالفعل، فقد حمل ألقاب المشرف العام على أملاك آمون وشؤونه وحقوقه وقطعان ماشيته وخزائنه.

كما خُصِّصَت له مقبرتان في الشيخ عبدالقونة. الأولى ورقمها ٨٤، اغتصبها من أحد موظفي تحوتمس الثالث، أما الأخرى ورقمها ٩٥، فقد أعدت خصيصاً من أجله وهي فسيحة جداً، وتتضم تحديداً، بهو أعمدة يتكون من اثني عشر عموداً.

أما أمن إِم حات الذي خلفه في منصبه، فقد كان رجل دين فقط. وربما كان في شبابه رفيق سلاح تحوتمس الثالث. كان والده جهوتي حوتي مجرد «كاهن من أصحاب الأيدي الطاهرة» ومدير ورشة صنّاع نعال معبد آمون. ونعرف حياته من خلال تمثاله الذي عثر عليه ناثيل Naville في الدير البحري ومن خلال مدونات مقبرته التذكارية رقم ٢٥، في جبل السلصلة^(٦٩) واللوح الحجري المخصص لسيرته الذاتية والذي عثر عليه عند الجانب الشرقي من الجدار الجنوبي من الحجرة الثانية في مقبرته رقم ٩٧ بالقرنة والتي تقع إلى الشمال قليلاً من مقبرة رخ مي رع^(٧٠). يبدأ مطلع النص بتعاليم موجهة إلى أولاده، وهو نوع أدبي تقليدي:

بداية التعاليم التي أعلنها النبيل الأمير والأب الإلهي المحبوب من الإله، رئيس الأسرار في الكرنك، كبير البلاد قاطبة، الذي تخلق كلمته الرضى في المعابد، الذي ينفذ في السماء ويتأمل ما بداخلها، الذي يعرف شتى أحوال العالم الآخر، المشرف العام على بيتي الذهب وبيتى الفضة، رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى، وكبير كهنة آمون، إنه أمن إِم حات.

لقد تحدث إلى أولاده بأسلوب التعاليم قائلاً:

إنى أتكلّم بالحق، حتى أسمعكم ما حدث لى منذ اليوم الأول، منذ يوم مولدى. كنت كاهناً طاهر اليدين، وعصا الشيخوخة إلى جوار أبيه، زمن أن كان على الأرض. كنت أصعد وأميط، محترماً قيادته، ولم أخالف أبداً، كلمة من كلماته. لم أتسبب فى الإضرار بما أمرنى به. لم أهمل شيئاً مما طُلب منى. لم «اخترقه» بنظراتى المتعددة، بل كنت أدير وجهى ناحية الأرض، عندما كان يحدثنى. لم آخذ على عاتقى أن أفعل

ما كان يجيله. لم أعرف^(*) خادمة في بيته، ولم ألهو وأنا أجامع إحدى خادmates. لم أسكر ساقيه. لم أدخل عنوة إلى جواره. ولذلك، فقد أثنى على ولم يكتشف أبداً خطأ ارتكبت. لقد بقيت أنعم بأفضاله إلى جوار كائه، حتى حان وقت «الرسو» (أى الوفاة).

لما بلغت الرابعة والخمسين من عمري، كنت كاهناً طاهراً (بجوار) نعلني الإله والمشرّف العام على المطبخ ومدير خدمه. كنت (إنساناً) حازماً عند أداء واجباته... كنت جدير بالإحترام. عندئذ، قام صاحب الجلالة رب القطرين بترقية اسمي، فقد عُرف عني، أننى شخص بارع فى قلب العامل الملكى. وقُضيت من أجلى المغاليق، لأسمع ما لا يصفى إليه، سوى كاهن واحد من الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة، فى حين كان أبى يضمن لى حمايته... وبعد أن توجّ عا خيبرورع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ورب القطرين وبعد ضمان استقراره للملايين السنين، وبعد أن أقامه أمون ذاته على عرش هورس الأحياء إقامةً ثابتة... عندئذ رُقّانى إلى منصب الأب الإلهى والفم الأول الأعظم فى الكرنك، فاستطعت دخول مقاصير قدس الأقداس... وجدد الملك من أجلى إنعاماته^(٧٠).... (بقية النص مهشم تهشيماً بالغاً).

ارتقت مسيرة حياته المهنية ببطل. فتبدأ فى حقيقة الأمر فى سن الرابعة والخمسين. وهى مسيرة رجل فضله الملك وأثره، فكان فى وسعه أن يعتمد على إخلاصه وأخلاقياته السامية.

واستعاد تھوتمس الثالث وأمنھوتپ الثانى سيطرتهما على كهنة أمون، بعد المصاعب التى سببتها هتشيپسوت.

أما فى أبيدوس فقد ظل نپ وائى، كبير كهنة أوزيريس، وكان تھوتمس الثالث قد عينه فى هذا المنصب، فى العام الخامس من عهده.

(*) هكذا فى الأصل. وسوف يستخدم العهد القديم، من الكتاب المقدس، هذه العبارة كمرادف لعبارة «بأمر الرجل امرأة». نذكر على سبيل المثال: وعرف الإنسان حواء امرأته فحملت. تكوين ١: ٤. (المترجم)

هكذا عاشت مصر فى سلام وازدهار. فالثروات التى تدفقت على طيبة، جعلت كبراء الوجهاء وكبار موظفى الدولة يحيون حياة ترف ويزخ، أما الطبقة الوسطى التى تضم الحرفيين والكتبة فكانوا فى بحبوحة من العيش وصارت حياة جماهير الفلاحين أكثر يسراً، من ذى قبل. لم تصلنا شواهد مباشرة عن ظروف حياة أفراد هذه الشريحة الأخيرة من المجتمع المصرى، ولكن من السهل افتراض أن التسهيلات التى خففت من صعوبة الحياة آنذاك ووفرة الأيدي العاملة الناتجة عن أسرى الحرب، قد جعلت عملهم أقل وطأة. كان طعامهم وفيراً ويشاركون فى أعياد الآلهة وكبرى المباحج الملكية وأصبحوا من العناصر الهامة فى الدولة. كانوا الجنود الذين شاركوا فى الفتوحات، ولم تولد الإمبراطورية من روحهم المحاربة، إذ كانوا يفتقرون إليها، بل من شجاعتهم وما بذلوه من بسالة على مر الأيام، وإن لم يشر أى نص إلى ذلك، إنهم «الجيش الجرار» الذى يتقدمه فرعون الذى يقوده إلى أبدية أمجاده. وربما (٩) أتاح لنا بعض الوثائق أن نتعمق فى فهم حقيقة ظروفهم. وعلينا أن نتجنب تصديق بعض كتابات الكتبة المزهوين دائماً بمهنتهم، فاحتقروا أعمال الحقل. لقد انصب أسلوبهم الفكاهى الهجائى على مصير العاملين فى الأرض. وربما كنّا أقرب إلى الواقع إذا نظرنا إلى المشاهد النضرة ذات الألوان الزاهية التى تظهرها جدران مقابر طيبة، رغم ما أصابها من دمار متفاوت، فتكشف عن سواد أفراد الشعب العاملين فى بهجة وسرور، يؤبون أعمالهم، مخلصين لسيدهم، محبين للحياة الأسرية، إنه عالم نشط فى إطار رقة المودة العائلية وانشراح الصدر، تختلط فيه الصيحات بالأغاني والأناشيد.

٥- باقة زهور آمون الأخيرة

بعد انقضاء خمس وعشرين سنة من حكم حازم، أى عام ١٤٢٥ ق.م تقريباً، جاء الدور على أمنحوتب الثانى «ليصعد إلى أفقه ويلتقى بئيبه الشمس»^(١٠).

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

ونقلت موميأوه إلى وادى الملوك، لترقد فى مقبرته التى يفتح بابها عند سفح صخرة عمودية. وتبدأ بمرّ طويل ينحدر إنحداراً شديداً، لتعترضه بئر لابد من اجتيازها، ثم نصل إلى حجرة ذات عمودين، سوف تسدّ بحائط بعد عودة من سبق أن دخلوا. ولكن سيقوم اللصوص النّهايون بهدمه، فيما بعد. وعبر سلّم يبدأ من زاوية الحجرة يصل المرء إلى ممر جديد وقاعة فسيحة تم سدّها أيضاً فى الماضى بجدار. يا لها من حماية واهية، من جشع البشر وأطماعهم. كان السقف يستند عند الوسط على صف يتكون من ستة أعمدة مستطيلة رُسعت عليها مشاهد تصور أمحوتب الثانى فى حضرة الآلهة. وعلى الجدران المغطاة بطبقة خشنة من الملاط، خضراء بلون نبات البردى، وهو لون تجديد النبات، نوّن بالخط الهيراطيقى^(٧) النص الجنائزى الملكى لكتاب ما هو موجود فى *الأوت*. وفيما وراء الأعمدة، وفى اتجاه الغرب، تبدأ أرضية القاعة فى الإنخفاض، وفى هذا المكان كشف علماء الآثار المعاصرون عن التابوت المصنوع من الحجر الرملى، كان سالماً ولوّن بطلاء أحمر وهو لون دم الحياة، وبداخله تابوت آخر، سُجّيت فيه مومياء الملك. وحول رقبة العاهل الملكى، كان يلتف طوق من الزهور، كانت لا تزال نظرة بعد مرور ثلاثة آلاف سنة. ووضعت على قلبه باقة من زهور السنط العنبرى، ربما كانت التعبير الأخير عن المودة والحنوّ، ولكنها كانت على نحو خاص عربون أبدية، مقدماً من آمون.

أما فى الوقت الراهن، فإن جسد الفرعون الذى لا يقهر، فى حالة جيدة من الحفظ ولكنه منفصل عن «بيته»^(٨) وأساليب السحر المنشطة الباعثة للحياة، فقد أصبح مجرد موضوع لفضول زوار متحف القاهرة. فلا نجد أن سحر القراءة المؤذى ولعناتهم، هى التى تلاحق علماء المصريين وتقتلهم، بل إن علماء المصريين «الكفرة» هم الذين يعتدون على أبدان الملوك ويحرمونها من عودة الحياة إليها، وإن نجحوا فى استمرار ذكراهم حية تغالب الأيام.

(*) أى مقبرته. (المترجم)

الفصل السابع

سنوات السلم والسلام:

ازدهار إمبراطورية التهامسة

وأولى التهديدات

١- فراعنة السلام

● خوتمس الرابع

حكم الظهيرة

خلف الأمير تھوتمس أباه، وهو ابن أمنحوتب الثانى والزوجة الملكية العظيمة قى - ها. وحكم مصر لفترة قصيرة نسبياً استمرت سبع عشرة سنة تقريباً. هل كان الابن البكر للملك أم لا؟ الأمر محتمل ولكنه ليس مؤكداً. وعلى كل حال، فقد جاء اختياره من قبل الإله «حورس - قى - الأفق»^(*). من خلال تمثال أبو الهول الشامخ فى الجيزة، وليس آمون. كان الأمير تھوتمس، شأنه شأن والده قبل إرتقائه العرش، يعيش فى الشمال، فى قصر مفق. وذات يوم، وبعد أن خرج للصيد فى الصحراء، أخذ قسطه من الراحة عند الظهيرة، مستظلاً بأبو الهول، فغشيه النعاس وتراعى له الإله فى المنام، وتوقع له أن يوهب الملك، إذا أزاح الرمال من على جسده الحجرى. واحتفظ لوح من الجرانيت بنص هذا الحلم التنبئى، وعُثر عليه بين كفى التمثال الإلهى!

... حدث ذات يوم عندما ذهب الابن الملكى تھوتمس للتنزه ساعة الظهيرة، أن استراح مستظلاً بهذا الإله العظيم. فدخل فى سبات عميق، فى اللحظة التى كانت الشمس فى كبد السماء. فلاحظ عندئذ، أن جلالة هذا الإله المعظم يتحدث إليه، بذات فمه، تماماً كما يتحدث الأب إلى ابنه، قائلاً: «انظر إلىّ، وتأملنى يا بنى تھوتمس. أنا أبوك حورس - قى - الأفق - خپوى - رع - آتوم (أى: الشمس فى مختلف لمحات دورتها)، سوف أعطيك الملك على الأرض، على رأس الأحياء، فترتدى التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش جب أمير (الآلهة). وتمتلك الأرض فى ملولها وعرضها، وكل ما تنيره العين المتألقة لسيد الكون. والأطعمة الواردة من القطرين ستكون لك، ولك

(*) بالمصرية القديمة: حر-إم-أخت وصحفه الإغريق إلى حرملخيس. (الترجم)

أيضاً عوائد الجزية الضخمة، لكل بلد من البلدان الأجنبية ولك حياة مديدة غنية بسنواتها. وأولى وجهى شطرك وقلبي شطرك، أنت حامى ومرشدى، أنت من يبقى فى المدار المختار لأعضائى (إشارة إلى مسار الشمس واندماج الجسد الإلهى فى الجسد الملكى). ها هى رمال الصحراء تؤلنى الآن وتعذبنى، تلك الرمال التى كُنت فوقها فيما مضى. هياً اقترب منى على عجل، حتى تتمكن من انجاز كل ما أتوق إليه. فأنا أعرف أنك ابنى وحامى. اقترب منى. أنظر، فأنا معك وسوف أكون مرشدك». بعد أن فرغ الإله من حديثه، استيقظ الابن الملكى. وفهم دلالة هذا (الحلم) ... وعلقت بذاكرته كلمات هذا الإله. ووضع الصمت فى قلبه وحدث نفسه قائلاً: «هياً فلنتجه على جناح السرعة إلى قصرنا فى المدينة، لتجهيز القرايين التى سنحملها إلى هذا الإله، ونضم الأغنام والخضروات والنباتات النضرة، من مختلف الأنواع.

ثم سنجزل المديح لمن وجدوا من قبل (الأسلاف) ونهل لهم»^(١).

إن توقيت حدوث الحلم، بينما الشمس^(٢) فى كبد السماء، ليس بالأمر عديم الأهمية. إنه^(٣) الإله فى ذروة قوته وقدراته، إنه فى «قعة» دورته، والإشارة هنا إلى الملك. وإذا فاق الأمير من حلمه ليصبح المصطفى المختار، فإقام الدائح الشعائرية من أجل سلالة الأسرة الحاكمة التى سىظل من الآن مرتبطاً بها. إن هذا التقليد المتواتر الذى يربط ربطاً رمزياً، بين إزاحة الرمال عن أبو الهول وتسلم ملك جديد مقاليد الحكم، تأكد استمرار العمل به حتى إبان العصر الرومانى. فتُخبرنا مدونة^(٤)، أن الإمبراطور نيرون^(٥) أمر بإزاحة الرمال التى كانت تغطى أبو الهول، ليكون أول عمل يقوم به.

مرة أخرى، نجد أن الله يقوم باختيار الملك، ولكن، إذ حدث ذلك فى منف، فإن إله هليوبوليس هو الذى يقوم بهذه المهمة. وبما ارتبط الأمر بأولى محاولات الإبتعاد

(٠) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكور فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) التزمنا بالذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

(***) حكم الإمبراطورية الرومانية من ٥٤ إلى ٦٨ ميلادية. (المترجم)

عن مدينة طيبة البالغة القوة وتطلعات كهنتها الطموحين. إنه بداية الصعود في اتجاه الشمال، كظاهرة ستصبح من كبرى المواضيع الثابتة لسياسة الرعامسة. فالفكر الملكي يتطور.

حورس : الثور القدير، صاحب التجليات الجميلة.

السيدتان : ملكك يوم دوا مأك أقيم.

حورس الذهبي : قدير هو حُسامه الذي يصدّ الأقواس التسعة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خيرو رع (إيت صيروتات رع تظل ثابتة).

ابن رع : تحوتمس، صاحب التجليات المتألقة.

الاسم الرابع قريب الشبه من اسم تحوتمس الثالث، وهو من خير (*) رع، هكذا يبدو أن العاهل الملكي الجديد قد أراد الارتباط بجده المرموق. وفي بعض الأحوال وإبرازاً للاختيار الشمسي، تلحق بهذا الاسم، صفة: «الذي اختاره رع».

الإبقاء على الإمبراطورية

كانت المعارك الحربية قليلة، فأركان الإمبراطورية راسخة. ربما وقعت بعضها في آسيا. أما الحملة التي شنت على الجنوب، فقد تحولت إلى مسيرة مظفرة.

إن بعض المؤشرات فقط، تسمح لنا باحتمال وجود حملة إلى الشمال. ولكن لم يصلنا تقرير حقيقي عن هذه الوقائع المفترضة. ففي سياق قائمة قرابين، يشار إلى «الفنيمة التي جلبها صاحب الجلالة من بلاد نهارينا الأخساء، إبان حملته الأولى المظفرة»^(*). وعلى لوح حجرى عثر عليه فى مقبرة أمنموتب الذى أصبح كبير كهنة أونوريس، بعد أن أنهى خدمته فى الجيش، يشار إلى هذا الشخص بصفته...

(*) الفارق هو أن لفظ خير (صيرورة) فى صيغة الجمع فهو (صيروتات). (المترجم)

رفيق المسيرات الملكية في بلدان الجنوب والشمال، هذا الذي يأتي بدءاً من
نهارينا وصولاً إلى كاروي (من بلدات السودان) خلف صاحب الجلالة، بينما يقف هذا
الأخير في أرض المعركة^(٤).

وعلى واجهة من خشب الأرز، تُكوّن أحد جوانب عرش عثر عليه في مقبرة
تحتومس الرابع، صُورَ الملك في هيئة أبو الهول بجسد أسد ورأس آدمي وجناحي
سقر وهو يدوس برجليه أحد الأعداء، فيما يغطي الآسيويون الأرض أمامه^(٥).

ظلت الغنائم تتدفق من ريتقو ونهارينا، بشهادة التصاوير المرسومة في
مقابر كبراء الدولة وأعيانها وما يصاحبها من نصوص، نذكر منهم خع إم حات
و هور إم هب وثانوني.

تأتي هذه الواقعة تأكيداً على الفرضية التي سبق طرحها^(٦)، ومفادها أن
اسمى نهارينا وميتاني اللذين تميز النصوص بينهما، مطابقين لحقيقتين جغرافيتين
مختلفتين، بمعنى دولتين، ربما تمتد كل واحدة على طول أحد شاطئَيْ نهر الفرات.
وبالفعل فقد تزوّج تحتومس الرابع ابنة ملك ميتاني، بينما نهارينا ترسل ضريبة
الجزية، كما تنعت على وجه الخصوص «بالخسيصة»، في أحد النصوص الذي سبق
ذكره، الأمر الذي لا يتفق مع عقد القران المذكور.

وفي آسيا أيضاً، استمر استغلال شبه جزيرة سيناء، أسوة بما سبق أن فعله
أسلاف العاهل الملكي، وقد وصلتنا الشواهد على إرسال حملتين إلى سراييط الخادم
تحديداً، في العام ٤ والعام ٧، من عهده^(٧).

وفي إفريقيا جنوباً، نعرف مجريات الأمور، على نحو أحسن، بفضل تقرير
مؤرخ في العام الثامن ومنحوت على صخور كتوسو قرب جزيرة فيلاي. كان النص
يتكون أصلاً من أربعين سطراً، ولكن المقروء منها في الوقت الراهن، ٢٣ سطراً فقط.

اليوم الثاني، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الثامن، كان
صاحب الجلالة في مدينة الجنوب، في حاضرة الكرنك. كانت يده طامرتين، طهارة

يدى إله. كان يُرضى والده آمون، بما يكفيه من قرابين، بقدر ما كان هذا الأخير، قد وهب ملكاً أبدياً وثباتاً لا نهاية له، على عرش حورس.

جاء من يقول لصاحب الجلالة: «النوى يأتى مابطاً من مشارف واوات، وينوى التمرد على مصر. لقد حشد من حوله جميع الأجانب والعصاة من المناطق الأخرى».

تقدم الملك فى سلام، فى اتجاه المعبد، عند الفجر، ليقدم قرباناً وغيلاً لأبيه الذى خلق كماله. ووقف صاحب الجلالة شخصياً فى حضرة أمير الآلهة، طالباً مشورته بشأن المشكلة التى بصدها، وأن يحيطه علماً بما سيحدث له، ويرشده أيضاً إلى الطريق القويم، لينجز ما يبتغيه كاهن، تماماً كما يتحدث الأب إلى ابنه الذى يقدم بفضله، على أفعال صائبة. وانصرف من أمامه، سعيد القلب.

وفى الحال، أصدر أمره بحشد جيشه وأرسله بكل بسالة وقوة. وفيما بعد، تقدم صاحب الجلالة للإجهاز، على من واجمه فى النوبة، (تقدم) جسوراً على متن سفينته الذهبية، مثل روع عندما يستقر فى مركب الليل، وقد نشر أشرعت المصنوعة من الكتان الأحمر والأخضر. كانت جياده تسير أمامه فى هيئة سرايا، وجيشه معه، والأشواوس على الخسفتين، والمجننون بجوارهم، فى حين يشكل وفاقه طاقم السفينة. هكذا أبحر الملك فى اتجاه الجنوب، مثل كوكبة نجوم الجوزاء^(*) Orion.

وبجماله أضواء مصر العليا. كانت صيحات الرجال تتعالى بسبب الحب الذى يحركه فى النفوس والنساء يرقصن عند مروره. كان مونتو فى هرمونتيس يؤمن لجسده الحماية السحرية، بينما كان الاله الإلهى أمامه، مرشداً له^(**). وكل إله من آلهة الجنوب، يقدم لأنفه باقة زهور. كانت نخب^(***) البيضاء، تثبت بقوة حلى

(*) ساح بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) تشبه هذه الظاهرة، ما حدث لهنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر، عندما كان يسير الرب أمامهم نهاراً، فى عمود من غمام ليهديهم الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضى لهم. سفر الخروج ١٣: ٢١-٢٢. (المترجم)

(***) إلهة بمدينة نخب - الكاب حالياً - وهى على هيئة نسر أبيض وحامية النظام الملكى فى الجنوب. (المترجم)

جلالتي^(٥)، وساعداها يؤازران قدرتي، وتربط من أجلى الأقواس التسعة، حزمًا وضمات. وقضيت^(٥) منبهة احتفاءً بعيد تطهير الصورة (٩) وتوقفت لبرهة في مدينة إدفو. وخرج الإله الجميل مثل مونتو بأشكاله المتنوعة. ظهر بعدة حربه، هائجًا مانجًا، مثل ست مدينة كوم أمبو^(١٠)...

لحق به جشيه وقام بمذبحة رهيبة بفضل ساعده المقدام، والرعب الذي كان يثيره في النفوس نفذ إلى كل جسد، لأن رع كان قد أشاع الخوف منه في الأراضي، مثل الخوف من سخمت في عام انتشار الوباء. كان رأسه اليقظ لا يأخذه نوم. وسبق له، أن داس بأقدامه تلال الشرق، ويفتح الآن الطرق مثل ابن أوى الجنوب، باحثًا عن ساعد من هاجمه: وتتوصل إلى أعداء القوة أجمعين (وحتى) في الوديان السرية التي لم يعلم أحد من قبل بوجودها...^(٨).

إن لوحًا مقطوعًا في صخر الجبل ذاته في كتومبو، يحيى ذكرى الانتصار الأفريقي. ويقوم الملك في صحبة يعرت «الزوجة الملكية العظيمة» الثانية، بضرب سجينين، ضربة شعائرية.

أما عن وقائع هذه الحملات العسكرية أو المعبرة عن مظاهر الهيبة والنفوذ، فلا نعرف عنها شيئًا، على وجه الدقة. لقد ورد بعض الأسماء في سياق مدونة محفورة على الوجه الداخلى لمركبة حربية عُثر عليها في مقبرة تحوتمس الرابع. فنقرأ على اليسار أسماء أماكن أسيوية: نهارينا وشنجار وتونيب وشاسو وقادش وتيخيسى. ونقرأ على اليمين أسماء أماكن إفريقية نذكر منها: كاروى وإيرم^(٩). أهو دليل شكلى بالهيمنة؟ أو استرجاع لمختلف الإشتباكات العسكرية؟ وعلى كل حال، فمن الفرات إلى قلب السودان، تظل الأراضي في يد فرعون. وعلى الوجه الخارجى من المركبة وعلى الجانبين وحتى عند العجلتين مَؤر الأسويين والأقارقة، وقد لانوا بالفرار أمام تحوتمس الرابع، فى هيئة إنسان أو أسد.

(٥) هكذا فى صيغة المتكلم، خلافاً لصيغة الغائب المستخدمة فى بقية النص. (المترجم)

(١٠) نوبت عند قدماء المصريين وأومبوس عند الإغريق. (المترجم)

في أعقاب هذه الأحداث، على كل حال، تشكلت مستوطنات من الأسرى السوريين والسودانيين، على أراضي طيبة. وبالفعل فقد عُثر على ألواح حجرية صغيرة في معبد تحوتمس الرابع الجنازى، توضح نصوصها هذه الوقائع.

فنقرأ في أحد الألواح:

مستوطنة (مقامة) من أجل حصن من خيروع، بواسطة السوريين الذين أسرههم صاحب الجلالة في مدينة جزير.

وعلى لوح آخر نقرأ:

مستوطنة بلاد كوش الخسيصة التي جاء بها صاحب الجلالة من حملات المظفرة^(١٠).

فعلى سطح المسلة التي بدأ جده العمل فيها، والقائمة حالياً في ميدان اللاتران بروما Piazza di Laterano، وربما توقف العمل فيها بوفاة تحوتمس الثالث، لينتقل تحوتمس الرابع استكمالها وإقامتها في الكوك، يعرف نفسه باعتباره:

هذا الذي يفتح البلدان بفضل إنتصاراته ويبيت الرعب في صفوف الآسيويين ويعلم صيحة العرب وسط النوبيين^(١١).

إن إمبراطورية القمامسة راسخة الأركان. فلم تكن نذر التهديدات، قد ظهرت في أفق الوضع الدولي. وهدأت الحرب ولم تعد سوى مجرد استعراض عضلات. وحلّ السلام ليوم حتى نهاية عهد أمنحوتب الثالث.

● أمنحوتب الثالث^(١٢)

عام ١٤٠٨ ق.م، تقريباً، عند وفاة أبيه تحوتمس الرابع، خلفه ابنه أمنحوتب الثالث، وامتدت سنوات حكمه المديدة لتصل إلى ٣٨ سنة^(١٣). كان ابن الأميرة الميتانية،

(*) راجع أيضاً الدراسة الوافية المستفيضة عن هذا الفرعون العظيم وتقع في ٨٣٦ صفحة: أنيس كابرول: أمنحوتب الثالث. ترجمة: ماهر جويجلى. المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٥. (المترجم)

ابنة الملك أورتاتاما الأول^(١٣)، فكان عريون مادي لقران سعيد. اتخذت الأميرة اسماً مصرياً فور وصولها إلى طيبة. وهو موت إم ويا أى «موت - فى - المركب - الشمسى». وكتعبير كامل بالصورة لهذا الاسم، نشاهد ما على لوح حجرى يحتفظ به المتحف البريطانى فى الوقت الراهن - نشاهد ما جالسة فى مركب، وقد اندمجت فى الإلهة موت، زوجة آمون. ومن واقع نصين متقابلين فإنها:

● السيدة النبيلة، صاحبة الإنعامات العظيمة، الرقيقة القلب، الرومة حباً، التى تملأ القصر بعطر أندائها، الزوجة الملكية العظيمة، محبوبة العامل الملكى، التى يقال لها كل ما يفعل من أجلها، المتسيدة على مصر العليا ومصر السفلى، الأم الإلهية... [موت إم ويا].

● السيدة النبيلة، صاحبة الإنعامات العظيمة، الزوجة الملكية العظيمة، محبوبة العامل الملكى، الأم الإلهية التى أنجبت الملك، أثيرة الإله الكامل، التى يقال لها كل ما يفعل من أجلها، إنها تركز إلى الراحة على عرشها فى قاربها... الأم الملكية، موت إم ويا^(١٤).

وبجوارها مَنُور ناووس يحمل الاسمين الرابع والخامس من أسماء أمنحوتب الثالث الذى اكتملت قائمة ألقابه على النحو الآتى:

حورس : الثور القدير، الذى يتجلى متآلفاً مع ماعت.

السيدتان : هذا الذى يحدّد القوانين ويهدئ القطرين.

حورس الذهبى : هذا الذى تتعاطف قدرته ويضرب الأسويين.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع (أى: «رع صاحب الحقيقة والعدالة»).

ابن رع : أمنحوتب، حاكم طيبة.

ابن آمون - رع

إذا كان أمْنُوتِپ الثالث يرتبط بثرية الأسرة الملكية الحاكمة، فقد كان أيضاً حفيد ملك الميتاشي. أيمكن القول بأن هذه الحقيقة هي التي دفعت العامل الملكي الجديد إلى تبرير شرعيته؟ فالعرض المسرحي الديني الشهير الذي صاغه المخلصون من أتباع حتشپسوت، استرجعه أمْنُوتِپ الثالث. فبناء على أوامره، نحتت مشاهد ونصوص مشابهة، في معبد الأقصر الذي طلب تشييده من أجل آمون، نحتت على جدران إحدى الحجرات القائمة شرق القسم المخصص لقدس الأقداس. الأحاديث مماثلة: فمشاهد العمل والولادة والإنتساب إلى دائرة الخالدين، واحدة. والإختلاف الوحيد، هو استبدال بعض الأبطال وإدخال بعض التغييرات الطفيفة أحياناً، على النصوص. ومع ذلك، يصعب علينا استخلاص الهدف من هذه الإختلافات.

ومن ثم فمن المعتقد أن آمون قد تجسّد في الملكة موت إم ويا، لخلق الطفل - الإله الملكي. وفي المساحة الفاصلة بين مشهد الولادة ومشهد تقديم المولود الجديد للإله آمون، يظهر قادمان جديدان: أحدهما، الإله بس وهو قزم دميم، له قدرات حماية سحرية، والآخر الإلهة فرس النهر تاورت^(*)، حامية النساء والقابلة الإلهية:

إننا قادمان من السماء مع رع.... ابنه الذي من صلبه، محبوبه، رب القطرين
[نب ماعت رع]...^(*)

هنا، نجد أن الإلهة موت ترافق حتحور عند تقديم الطفل. كما نجد أن حورس الإدفوي^(**) وليس رع - حور أختي، هو الذي يلزم المولود الجديد في صحبة آمون.

فهل ترمى إذن هذه النسخة المنقولة عن «لعبة» حتشپسوت الشهيرة، إلى تبرير ما حدث لأول مرة في تاريخ مصر، عندما تربّع على عرش البلاد ملك تجرى في عروقه

(*) وقد صحفه الإغريق إلى تاورس. (المترجم)

(**) نسبة إلى مدينة إدفو. (المترجم)

«بماء مختلطة»؟ أو كان الأمر تعبيراً على استعادة كهنة آمون قوتهم و«انطلاقة» لطموحاتهم التي كشفت عن نفسها، من خلال هذا التدخل الجديد، في تحديد وريث العرش الملكي؟ ربما كان هذان التفسيران مقبولين.

الوجود في النوبة

طوال سنوات حكم أمنحوتب الثالث، الثماني والثلاثين، لم تَقمْ فيما نعلم حملة عسكرية واحدة إلى أسيا. وثبت قيام حملة عسكرية واحدة إلى النوبة، في العام الخامس، والشواهد عليها متوفرة، بفضل نصوص عدد من المدونات:

ومن جديد نُحت لوح في صخور كتوسو لتخليد ذكرى هذا الحدث:

في العام الخامس، عاد صاحب الجلالة مظفراً، من حملته الأولى، بعد أن حالفه النصر على بلاد كوش البالغة الخسة. هكذا أعاد ترسيم حدوده، كما كان يرجوه، عند (تخوم) الأعمدة الأربعة التي تحمل السماء. لقد أقام لوح النصر (هذا)، ليعمّ سلام (حرفياً: نصارة) حورس^(١٦). لم يُقدم أى ملك من ملوك مصر، على عمل مماثل، إلا صاحب الجلالة المقدام، الذي يروى له النصر. إنه نب ماعت رع الذى يفتح الطريق، بالقوة والقدرة، على رأس جيشه. فأبوه آمون يقوده، لقد خصّه بالبسالة والقوة، في مواجهة البلدان الأجنبية قاطبة. لقد وهب بلدان الجنوب وبلدان الشمال، سواء بسواء، وأهل الغرب وأهل الشرق، ليقودهم. هكذا يقوم هؤلاء بتقديم أولادهم للعامل الملكي شخصياً، كي يمنحهم نسمة الحياة^(١٧).

إننا أمام بيان، على قدر كبير من الذاتية، تمجيداً للنصر، ولكنه يفتقر إلى تفاصيل عما دار من وقائع، يمكن إعادة صياغتها، بفضل غيرها من المدونات.

فبالرجوع إلى نص لوح نحت في صخر الجبل في الطريق الممتد من أسوان إلى فيلاى، يُعتقد أن تمرداً قد تفجّر في الجنوب، وأحيط العامل الملكي علماً بهذا الحدث. وهو أسلوب «أدبى»، إذا صحّ القول، سبق أن التقينا به، فيما يتعلق بالحملات النبوية التي قام بها تحوتمس الثانى وتحوتمس الرابع^(١٨).

اليوم الثاني، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان^(٩)، من العام الخامس، يوم الإحتفال بالتتويج... جاء من يقول لصاحب الجلالة: «العبو كوش الخسيس، قد دبر ضدك تمرداً». وقاد صاحب الجلالة (الجيش) نحو النصر، إبان حملته الأولى...^(١٨).

أما المدونة التي نحتها نائب الملك مري موزا، على لوح آخر، عُثر عليه في سمنة، فإنها تشير إلى تمرد في بلاد إيبهت. وللأسف، فإن تاريخ هذا الأثر، غير واضح على وجه الدقة، فمطلع النص مهشم.

... مع مرور الأيام، وبعد ذلك (هل حدث تمرد أول؟)، حل زمن العصاد لهؤلاء الأعداء في إيبهت. عندئذ، قام كل شخص بواجبه وحشد جيش فرعون، في أعقاب الابن الملكي (نائب الملك). ونُظمت القوات وكانت تحت إمرة القواد. وقد جُند كل فرد وفقاً للقبيلة (التي ينتمي إليها)، بدءاً من قلعة باكي وحتى قلعة تاورى، وهو ما يعادل (مسافة) ٣٢ إيتراً من الملاحة النهرية (أى حوالى ٢٤٠ كم).

إن قدرة نب ماعت رع، قد أخذت بالأعداء في يوم واحد، بل في ساعة واحدة، فأوقع بينهم مذبحه وهيبه. واستولى على أولادهم ونسائهم وماشييتهم، ولم يسلم أحد منهم... واقتادتهم قدرة أمنحوتب - حاكم - طيبة. ولم يُعزل الأجانب عنهم، فبقى الرجال مع النساء، تنفيذاً لأرشادات الحورس، رب القطرين، ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، الثور القدير، بقوة الباسلة.

كان الزهو والعُجب قد أصابا إيبهت، فسكن بعض المقاصد المتفطرسة في قلوبها. ولكن الأسد الوحش الضارى، الأمير، أثنهم نبجاً، تنفيذاً للأمر الصادر عن أبيه آمون - أتوم الذى أرشده ببسالة وقوة.

قائمة بالغنائم التي عاد بها صاحب الجلالة من بلاد إيبهت الخسيسة:

(*) أخت بالمصرية القديمة. والشهر الثالث هو شهر هاتور، في السنة القبطية. والأصوب أن نقول السنة المصرية: لأن كلمة قبطى لم يكن لها فى الأصل المدلول الدينى الذى اتخذته فيما بعد. وجاءت تسمية هاتور نسبة إلى الإلهة حتحور. (المترجم)

نوبيون أحياء	١٥٠ رأساً
حاملو الأقواس	١١٠ رؤوس
نوبيات	٢٥٠ رأساً
خدم النوبيين	٥٥ رأساً
أولادهم	١٧٥ رأساً
المجموع	٧٤٠ رأساً حياً
الأيدى	٣١٢

المجموع الكلى بالإضافة إلى الرؤوس الحية: ١٠٥٢

كان الكتبة المصريون يجدون متعة منقطعة النظير، في القيام بالعمليات الحسابية فيحلو لهم جمع الأعداد والأرقام! لقد مهر نائب الملك النص بتوقيعه:

الابن الملكى، الفطن من أجل سيده، كاتم أسرار الإله الكامل، المشرف العام على بلاد كوش بأكملها، الكاتب الملكى مرى موزا الذى يقول: «تحية لك، أيها الإله الكامل، إن مجدك عظيم فى مواجهة من يعتدى عليك إنك تحمل من يتمردون عليك إلى القول: «إن النار التى اشعلناها انقلبت علينا»^(٩). لقد نبهت كافة الأعداء المطروحين أرضاً تحت نعليك^(١٠).

(*) نذكر فى هذا الصدد ما ورد فى سفر الأمثال من العهد القديم من الكتاب المقدس: من يحفر حفرة يسقط فيها ومن يهجر حجراً يرجع عليه (٢٧: ٢٦). وعبارات مشابهة فى سفر الجامعة (٩: ١٠).

كما يقول المثل الشعبى: حَلْفَةٌ وَيَحَاشِرُ النَّارَ. الحلفة: نبات الحلفاء، ويحاشر أى يحضر نفسه ويزج بها. يضرب المثل لمن يلقى بنفسه فى التهلكة ويتعرض لما يعلم إضراره به. أحمد تيمور باشا. الأمثال العامية. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص ١٨٦. (المترجم)

وعلى مدونة منحوتة على الصرح الثالث من صروح الكرنك، الذى شيده أمنحوتب الثالث، ذكرت النقطة الأبعد(٩) لتقدم مصر ناحية الجنوب:

لقد جلب جلالتي الذهب من فوق تل كاروى، إيان حملته الأولى المظفرة وقام بتقتيل بلاد كوش الخسيسة، (كما جلبت معى) فى الوقت نفسه، المنتجات المسلمة من زعماء كافة البلدان(١٠).

ومن ثم فقد حدثت إشتباكات عسكرية بعيداً، إلى الجنوب من الجندل الثانى، على نهر النيل.

هكذا، ومن خلال مضاهاة الوثائق المبعثرة والمتنوعة، وبفضل عمل مديد مثابر وشغوف بما يفعله، يستعيد الباحث رويداً رويداً، تتابع سياق تاريخ مصر، بعيداً عن أى حبكة خيالية. وستقدم لنا نصوص وأثار أخرى، توضيحات إضافية لتستكمل هذه الوقائع. وعلى الباحث أن يعيد على النوام إعادة طرح كل ما توصل إليه على بساط البحث. إن علم المصريين ساحة فسيحة ورحبة للعمل الدؤوب المتواصل.

وأياً كان الأمر، يبدو أن هذه الحملة الوحيدة التى شنّها أمنحوتب الثالث، هى إلى حدّ ما حملة شكلية. وكان مرمى مؤزاً نائباً - ملكياً نشطاً(١١). لم يكن أمنحوتب الثالث ملكاً محارباً، فعاش على السمعة الطيبة والهيبة اللتين ورثهما عن أسلافه. وفى سياق الدبلوماسية الدولية النشطة المنتشرة فى ذلك الزمان، والتى ستزعم تدريجياً، أركان الإمبراطورية، من الملاحظ أن العامل الملكى قد عُرف عنه تراخيه. كان حفيد أمنحوتب الثانى لا يشبه جده فى شىء. فقد كانت دماء أجنبية تجرى فى عروقه(١٢).

(*) وإن كانت عائلة المصريين الفرنسية لنيس كايبول لا تتفق مع هذا الرأى، الذى تعتبره ظالماً وغير منصف. راجع مؤلفها الضخم السابق ذكره. (المترجم)

الأيديولوجيا الإمبراطورية:

التطورات الجديدة

فى هذه الأزمنة التى عمّ فيها السلام، انتعشت حركة أفكار نشطة واتسعت، فمنذ حتشيسوت ومفهوم النظام الملكى يتطور^(٢٣). فظهر لأول مرة مصطلح «ملك مصر وشمس الأقواس التسعة» فى مقبرة تانوفى من ضباط تحوتمس الثالث^(٢٤). فالملك هو الإله الشمسى الأوحد المتفرد الذى يشرق على الإمبراطورية، وسيصبح هذا المفهوم المقدس عن الإمبراطور، المفهوم الذى سيأخذ به الرعامسة، الذين سيشار إليهم على هذا النحو، فى كثير من الأحيان.

إن المدونة المنحوتة على الصرح الثالث من مروج الكرنك، تعبّر بأسلوب يتميز بنبرته الحماسية وصورة الأخاذة، عن دمج فرعون السلام فى الإله الشمسى، المعبود فى أرجاء الشرق، فنجد آمون أوزير أو آتون فى مصر وشمش فى آسيا، فضلاً عن السلطة العالمية والكونية للفرعون «الراعى الصالح»^(٢٥):

الإله الكامل الذى يمتزج بجمال (آمون - رع) كما (يمتزج) بجمال من خلقه. القلوب فى الأبدان تفرح عندما تتأمله.... لقد نصّب (آمون) على عرشه، ليحكم ما يحيط به آتون. إنه العين التى تخلق النور للبشر أجمعين. كما يعود إليهم الإخضرار لرؤيته، عندما تسطع ضياؤه! لقد وهب عرش جب ووظيفة أتوم وملك رع، للزمن اللانهائى.... إنه عداء عظيم مثل آتون، سريع المدار، والنجم من الذهب الخالص المتألق على مركبته، والقواس القدير، عندما يطلق سهامه فى اتجاه لوحة الرماية. إن ساعديه يشبهان ساعدى رب طيبة، الذى يأتى بكافة البلدان الأجنبية أسرى، فهو لا مثيل له، والراعى الصالح، الساهر من أجل الجميع...^(٢٥).

إن الإله والملك مندمجان إندماجاً كاملاً، من خلال «الإشراقات» ذاتها.

ومع ذلك، يصبح آمون- المعارك ركيزة الإمبراطورية الأساسية والمقدسة، الساهر عليها، فيبقىها فى «قبضة» ملك مصر. إن نشيداً إمبراطورياً آخر، هو نشيد

(*) كان السيد المسيح «الراعى الصالح» أيضاً. راجع إنجيل يوحنا ١٠: ١١. (المترجم)

للسلام، لا يحدثنا قط عن غزوات عنيفة، إنما يؤكد على خضوع الشعوب على الصعيد العالمى لفرعون. وقد نُقش هذا النيشد على لوح حجرى ضخّم، أقيم أصلاً فى معبد أمنحوتب الثالث الجانزى، وإن عثر عليه فى خرائب معبد الملك مرنپتاح. وشأنه شأن نشيد النصر للملك تحوتمس الثالث، سيصبح أيضاً مصدر إلهام للرعامة.

كلمات قالها آمون، ملك الآلهة: «أيا بُنى الذى من صلبى، يا محبوبى، نب ماعت رع، يا صورتى الحية، الذى خلقته أعضائى والذى ولدته من أجلى (الإلهة) مُوت، سيدة إيشرو فى طيبة، الذى يتسّد الأقواس التسعة. لقد نشأتك تنشئة السيد الأوجد للشعب، إن قلبى يسعد سعادة غامرة عندما أشاهد جمالك، ومن أجلك أحقق أشياء رائعة. سيتجدد شبابك إلى أبد الآباد، تماماً كما أقمتك بصفتك شمس الشاطئين.

فعندما أوّلَى وجهى شطر الجنوب، أحقق من أجلك أشياء رائعة. فافرض على زعماء بلاد كوش الأخصاء، أن يأتوا إليك، حاملين جزيّتهم على ظهورهم.

عندما أوّلَى وجهى شطر الشمال، أحقق من أجلك أشياء رائعة. فافرض أن يأتى إليك أبناء بلاد تخوم آسيا، وظهورهم محملة بالجزية، فى حين يقدمون لك أولادهم، حتى تمنح لهم نسمة الحياة.

عندما أوّلَى وجهى شطر الغرب، أحقق من أجلك أشياء رائعة. واجعلك تفتح بلاد ثعنو، بحيث لا يبقى منها شيئاً، وأشيّد هذه القلعة باسم جلالتى، والمحاطة بسور يرتفع إلى عنان السماء والدعّمة بأولاد زعماء النوبة.

عندما أوّلَى وجهى شطر المشرق، أحقق من أجلك أشياء رائعة. وافرض أن تأتى إليك بلدان بونت، حاملةً كافة النباتات الطيبة من (إنتاج) هذه المناطق، لتطلب منك السلام وتمنحهم نسمة الحياة»^(٣٦).

مكذا، فإن آمون المهيمن على الجهات الأربع، يجلب إلى الملك، بنظرة واحدة، مظاهر الشكر والحمد، من أركان الكون.

ففى هذه الأزمنة إذن، لم تعد مقومات السيادة والسيطرة تُستمدان من قوة السلاح وحده. فمئذ عصر تحوّل عصر الرابع، بصفة مؤكدة، وربما قبله بفترة قصيرة، شهد الشرق القديم، لعبة سياسية نشطة، قائمة على الدسائس والتحالفات، من أجل تحقيق وضع قائم على الهيمنة والسيطرة، لا يدوم طويلاً، فيبقى بلا انقطاع. عندئذ تشكلت دبلوماسية، سوف تصبح من العناصر البارزة التى تقوم عليها السياسة الإمبراطورية للدول العظمى، لا بل سياستها الإمبريالية.

٢- الدبلوماسية الدولية

بعد أن أصبحت مصر تتمتع بالسيادة، على منطقة شاسعة، تمتدّ من البحر المتوسط شمالاً والفرات ولبنان والأردن فى الشمال الشرقى وسيناء شرقاً والنوبة وقسم من السودان حتى الجندل الرابع جنوباً، توقفت إذن عن التوسع فى فتوحاتها. فلم تسع إلى الأخذ بسياسة إمبريالية حقة، كما كان حال دول أخرى، تهدف إلى الاستحواذ على إمبراطورية شاسعة. فبعد أن جرّبت مصر قرنين من الإحتلال الأجنبى، وضعت نصب عينها ضمان أمن الطرق الإستراتيجية والتجارية التى تربط أسيا بمصر، وتطوير قدراتها الإقتصادية من خلال السيطرة على شرق البحر المتوسط، وتدعيم سيطرتها على الثروات الأفريقية.

وبدا أن الوضع الدولى مستقر. فقد كانت مصر والميتانى حليفين، ولم يكن فى وسع خاتى أو آشور أن تتطلّعا إلى فرض سيطرتهم السياسية. كانت آشور على كل حال خاضعة للميتانى. أما إمبراطورية بابل فكانت قوتها الإقتصادية، شغلها الشاغل. وكان رجال الأعمال والمؤفدون السياسيون يقطعون طرق الشرق، فى حرية تامة، وفى مختلف الإتجاهات. ومع ذلك، أخضعتهم مصر لقدر من الرقابة، عند حدودها، حيث كان الحراس يسجلون يومياً، أسماء الأجانب الذين يدخلون البلاد ويخرجون منها، مع توضيح موطنهم الأصلى وعلاقة القرابة.

فى عام ١٨٨٧، وفى تل العمارنة، العاصمة العائرة للفرعون أمنموتب الرابع، الواقعة على مسافة ٢٢٠ كم شمال شرق طيبة، عُثِر على لوحات صغيرة من الطين،

دُونت عليها كتابات باللغة الآرامية والعلامات المسمارية، وهي عبارة عن المراسلات الإدارية والسياسية المتبادلة بين أممحوٲٲ الثالث، قرب نهاية عهده وعهد أممحوٲٲ الرابع، وبين كافة نول آسيا الكبرى وأمراء فينقيا وكثمان. وفي عام ١٩٠٦، وبينما كان الدكتور هوجو وينكلر Dr. Hugo Winckler، يقوم بأعمال التنقيب في بونغاز- كوي، البلدة الواقعة على مسافة ١٤٥ كم إلى الشرق من أنقرة، وهي موقع خاتوسا، العاصمة القديمة للمملكة الحيثيين، أخرج إلى النور عشرة آلاف لوحة صغيرة، مدونة أيضاً بالعلامات المسمارية وباللغة الآرامية أو الحيثية، وكانت عبارة عن محفوظات خاتو الملكية، بدءاً من النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وحتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.

إن عشرات آلاف الخطابات والوثائق الإدارية هذه، تشكل مصدراً رئيسياً لمعرفة العلاقات الدبلوماسية، المعقدة في أغلب الأحيان، والقائمة وفقاً لظروف الدسائس التي يمكن أن نستشفها أحياناً، من خلال هذه المراسلات، والتعرف باختصار على أشكال عالم السلك الدبلوماسي ووسائله.

الأحلاف والاتحادات والمعاهدات

بعد صراع طويل وإغارة تحوتمس الثالث على أراضي الميتاني، كان هذا الأخير قد وقّع مع أممحوٲٲ الثاني حلفاً دفاعياً^(٣٧). كانت هذه التحالفات، لا تعقد بين الدول ولكن بين ملوكه. فلما تسلم تحوتمس الرابع السلطة، جدد المعاهدة المبرمة مع المملكة القوية القائمة على ضفاف نهر الفرات. وبالمثل، فعندما ارتقى أممحوٲٲ الثالث العرش، أوفد السفراء إلى خاله شوتارنا الثاني، تأكيداً على الروابط القائمة بينهما.

وحول مصر، تجمعت كبرى نول الشرق، القلقة من «صمود نجم» الحيثيين وطموحات خاتوسالي الثاني وخلفائه.

كانت هذه الأحلاف الدفاعية تدعمها الزيجات السياسية. عندئذ أخذ حكام مصر وآسيا يمارسون سياسة نشطة، في عقد الزيجات، استهلها تحوتمس الرابع في مصر. وسيصبح الزواج الذي يربط العائلات الملكية الشغل الشاغل للعالم الدبلوماسي

على امتداد سنوات حكم أمنحوتب الثالث. وعندما تربع قورشاتا على عرش الميتاني، وهو ابن خال العامل الملكي المصري، طلب هذا الأخير من الأول. أن يتزوج أخته الأميرة جيلوخيبا التي سافرت إلى طيبة، وفي معيتها ٣١٧ فتاة. فقد كانت بيوت الحريم التابعة للملوك تضم أعداداً كبيرة من الفتيات.

كانت مصر تقيم مع بابل علاقات تجارية دائمة. وتدعيماً لها، تزوج أمنحوتب الثالث على التوالي، ابنة واخت الملك كادشمان خرب الأول. وفي المقابل، يبدو أن فرعون مصر، كان يجد غضاضة أن يُزوّج إحدى بناته لك أجنبي. والشاهد على ذلك أحد خطابات ملك بابل، وإن كان أسلوبه أبعد ما يكون عن الأساليب التي تشد انتباهنا:

كادشمان - إثيل من بابل إلى أمنحوتب (الثالث) من مصر...

(بيد) أنك يا أخی، إذ بعثت إليك برسالة طالباً يد ابنتك للزواج، فكيف تستطيع إذن أن ترأسني رافضاً طلبی بالعبارات الآتية: «منذ أزمنة موعلة في القدم، لم تُقدّم ابنة لك مصر، لكائن من كان ليتزوجها!» لماذا تتكلم على هذا النحو؟ أنت ملك وتتصرف كما يحلو لك. فإذا كنت تريد تقديم ابنتك للزواج، فمن يستطيع أن يلومك؟ فعندما أبلغوني هذا القرار، كتبت رسالة إلى أخی بالعبارات الآتية: «لا تنقصك البنات العظيمات، ولا النساء الجميلات. ابعث إلى امرأة جميلة باعتبارها ابنتك. فمن يجرؤ أن يقول: «هذه ليست ابنة ملك!» أما أنت، فقد تمسكت بعبداً عدم إرسال أحد، فلم تُرسل إلى أية امرأة. أما أنت، ألم تسع إلى إقامة علاقات أخوية وودية، عندما اقترحت على كتابي، عقد زواج بهدف إيجاد تقارب بيننا. فلماذا إذن لم يرسل إلى أخی امرأة؟... من الممكن أنك، لم ترسل إلى امرأة، أما أنا، فهل يمكنني مثلك، أن أرفض لك امرأة، ولا أرسلها لك؟ أما عن بناتي، فلن أرفض لك طلباً بهذا المعنى... ويشأن الذهب الذي طلبته، فأرسل لي الآن، على جناح السرعة، في بحر هذا الصيف... وقبل أن يصلني رسوأك، (أرسل) ذهباً بكميات كبيرة، ويقدر ما هو في متناول يدك! هكذا سأتمكن من إكمال العمل الذي أقوم به^(١٨). وإذا أرسلت إلى، الذهب الذي طلبته منك، في بحر هذا الصيف، فسوف أعطيك ابنتي زوجة لك. هكذا،

إرسل كميات من الذهب، برضائك، ويقدر استطاعتك! ولكن إذا لم ترسل إلى الذهب... بحيث لا أستطيع استكمال العمل الذي أقوم به، فلماذا إذن أرسلت إليّ، منه في السابق برضائك؟ فبعد أن أنفَذَ العمل الذي أقوم به، تُرى لماذا أطلب بالذهب؟ فلو أرسلت إليّ مثلاً، ٣٠٠٠ تالان^(٩) ذهب، فلن أقبلها، وسوف أعيدها إليك، ولن أعطيك ابنتي زوجة لك^(١٠)!

يا لها من حساسية مفرطة ومساومات لا تنتهي! وخطرة فرعون مصر الذي يرفض تعريض سمعة ابنته مع أجنبي. وسوف يتصرف الزعامسة أيضاً على هذا النحو.

هكذا فسياسة السلام التي برزت من خلال الزيجات الملكية، قد ترتب عليها من جانب مصر، سياسة مالية جديدة كل الجدة. فمصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هي القوة المالية الأولى في العالم، فيؤسس الذهب صداقات جليلة الفائدة، إن الأحلاف المبرمة التي عززتها الزيجات التي عقدت مع مملكتي الميثاني وبابل، كانت قائمة على إتفاق مالي حقيقي، يلتزم فرعون بموجبه أن يقدم لعلفائه هبات هامة.

ولكن بابل الموفورة الثراء، كانت المركز الكبير لتجارة هذه الأزمنة. ولا شك أن ثروتها، كانت في أيدي التجار وليس الملوك الذين رأوا أنه من الأسير الإقتراض من ملك مصر وفخسكوه على رجال المصارف في بلادهم. فكان من السهل عليهم، مقابل ذلك تقديم بناتهم للزواج!

وعلى كل حال، فإن طبيعة المقابل، لهذه الهبات أو القروض، متنوعة، فيكتب توشراتا إلى أمنحوتب الثالث:

فليرسل إليّ، أخي ذهباً، بلا حدود، ويكميات كبيرة. وكل ما يشتهي أخى لبيته،

(٩) تالان: مثقال يوناني قديم يساوي ٢٦ كيلو جراماً. المنجد في اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق. بيروت. ط٢، ٢٠٠١. (المترجم)

فليبلغني به. وسوف يتسلمه، لأننى سأعطيه كل هدية قد يشتاقي إليها أخى. لأن هذا البلد بلدك وهذا البيت بيتك(٣٠).

هذا الوضع المرموق الذى احتله ملك مصر، وقيامه بإمداد ملوك زمنه بالذهب، كان فى الوقت نفسه بالطبع من أساليب السيطرة السياسية.

كانت العلاقات الدبلوماسية مع مملكة الآسيا(٣١) وثيقة جداً، ولكنها تكشف عن سياسة متميزة. وبالفعل كانت الآسيا دولة تجارية، يتركز جل نشاطها فى المجال التجارى. فالسفراء الذين يوفدون إلى بلاط مصر من التجار. وعندما يقرأ الباحث المراسلات المتبادلة بين الطرفين يبدو على الأرجح، أن معاهدة تجارية كانت قد وقّعت بين الدولتين، بمبادرة من ملك الآسيا، على ما يظن. كانت هذه المعاهدة تعفى السفن والبضائع القبرصية من الرسوم الجمركية عند دخولها مصر، مقابل استيراد كمية محددة من النحاس والخشب. ويرجع أن كمية النحاس كانت تتجاوز من بعيد الثلاثين طنّاً. ومن ناحية أخرى، كان فرعون ملزماً بحماية الأفراد القادمين من الآسيا وممتلكات تجّارها عند قدومهم إلى مصر(٣٢).

ومن بين المراسلات المتبادلة نختار هذا الخطاب:

إلى أخى، ملك مصر، هكذا يتحدث أخوك ملك الآسيا. أما فيما يخصنى، فكل شيء على ما يرام؛ أما فيما يخصك، فأملئ، أن يكون كل شيء على ما يرام؛ وأن كل شيء على ما يرام بالنسبة لبيتك ونسائك وأولادك وجيادك ومركباتك وكافة شئون بلدك فى الداخل.

ومن جهة أخرى، فقد علمت أنك تربعت على عرش بيت والدك... لقد وصلتني تحيات أخى، فى حين نقلت إليك واحد... من منتنى تالان نحاس... مبعوثى يرحل بأسرع ما يمكن، بعد أن يضع لوحتى الصغيرة أمامك. واكتب لى إذن رسالة! لا ينبغي أن يستبقى أخى رجلى الذى تحدث معه. أتركه يرحل بأسرع ما يمكن! ليت

(*) ما زلنا نستخدم هذه العبارة للترحيب بالضيوف. (المترجم)

(**) قبرص حالياً. (المؤلفة)

مبعوثي يحضر سنوياً إلى جوارك. وفيما يخصني، فليت مبعوثك يحضر سنوياً إلى جوارى^(٢٢).

تشهد هذه الخطابات على وجود سفراء، يتم تبادلهم بصفة شبه منتظمة، وفي الوقت نفسه، على ظهور أولى القوانين الدولية.

السلك الدبلوماسي

لم يتوقف السفراء عن الترحال من بلاط ملكي إلى آخر، في طول الشرق الآسيوي وعرضه. ولكنهم لم يحملوا صفة السفراء المعتمدين، كما لم يكن لهم مقر ثابت: فيوفدون في كل مرة، في مهمة خاصة، ولا يقيمون في البلاط الأجنبي، إلا للفترة اللازمة، لانجازها على خير وجه. كانوا شخصيات رفيعة الشأن والمفدون الشخصيون للملك. وقد وصلت إلينا، ذكرى المصري: ماني، الذي كان لا يمتلك ناصية اللغات الأجنبية، فيصاحبه بالضرورة مترجم فوري، وأيضاً ذكرى الميثاني: هيليا الذي كان جميع أفراد أسرته منخرطين في السلك السياسي، وذكرى البابلي: سالمون. إنهم رجال لهم وزنهم، ويحسب لهم حساب، على صعيد الشؤون الدولية، ويستشيرهم الملوك شخصياً، في بعض الأحوال.

كانوا يكلفون بمهام متنوعة، وهي سياسية بطبيعة الأحوال: كمفاوضات الزيجات أو القروض أو الأحلاف أو معالجة بعض قضايا السياسة الدولية، من خلال مناقشات مسبقة لا تنتهي. كما تعددت على نحو خاص مهام المجاملات: فيوفد سفيرٌ محمّلٌ بالهدايا لتحية أحد الملوك، بمناسبة اعتلائه العرش، أو بمناسبة إقامة حفلات رائعة في بلد من البلدان، أو عند زواج الملك أو بمناسبة تنصيب ملكة. وفي مصر، كان هذا الحدث يذاع على رؤوس الأشهاد في هيئة نصوص مدونة على جدارين، وكان شكلها الشبيه بشكل إله الفجر^(٢٣)، يضاف على «النبأ» فاعلية سحرية تمهد لمصائر سعيدة. كانت تُنتج بأعداد كبيرة، ومنها على سبيل المثال، الجعران الذي يعلن زواج

(٢) خيري. (المترجم)

أمنحوتب الثالث من «الزوجة الملكية العظيمة» تتي^(٣٣)، ويقوم السفراء بتسليمها إلى كافة القصور الملكية في ذلك الزمان. وعند وفاة ملك، يقوم السفراء أيضاً، بتقديم واجب العزاء إلى وريثه. وإذا مرض أحد الملوك، توفد بعثة لزيارته للاستفسار عن صحته.

هكذا تشكلت مجموعة قواعد وأعراف رسمية. كان عدم الإلتزام بها يعتبر عملاً فظاً، بل معادياً. فكانت ذات قيمة دولية. وتكتب المراسلات في الغالب، باللغة الآكية، وفي لغة بلاد آكام، ومركزها بابل، منذ عهد حمورابي^(٣٤)، الفاتح والمشرع. كان الأسلوب الدبلوماسي قد تحدد حتى أدق تفاصيله، ومجموعة الصيغ والعبارات لا تتغير ولا تتبدل. وفي عهد أمنحوتب الرابع، احتج سوبيلوليم ملك خاني، بسبب عدم الإلتزام بمجموعة القواعد والأعراف الرسمية، إذ تغير الترتيب المعتاد لأسماء الملوك.

أولى عناصر القانون الدولي

ترتب على ضخامة حركة انتقال البشر والثروات، عبر طرق الشرق، ضرورة تحديد التدابير العامة لتوفير الحماية، ووضع قواعد ملزمة للجميع، هكذا بدأ يتشكل القانون الدولي الأول.

كان التأثير الدائم منذ أربعة قرون لمدونة حمورابي القانونية تأثير حاسم^(٣٥). ومن المرجح أن بابل كانت الأصل الذي جاءت منه أولى «القواعد» التي تسعى أساساً،

(*) حمورابي: دام حكمه ٤٢ سنة، ابتداءً من ١٧٣٠ ق.م، على ما يظن. (المترجم)

(**) قوانين حمورابي مدونة على لوح من حجر البازلت ارتفاعه ٢٢٥سم. من مقتنيات متحف اللوفر. عثرت عليه البعثة الفرنسية في مدينة سوس، في الموسم ١٩٠١-١٩٠٢. لمزيد من التفاصيل: Les collections du Louvre. Réunion des Musées Nationaux. 1999, p.41. أما قوانين حمورابي فقد ترجمها إلى العربية الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم في كتابه الموسوعي: مصر والشرق الأدنى القديم. المجلد السادس. دار المعارف. الطبعة الثانية - ١٩٦٧- ص ٥٢-٨١. ولا بأس إذا قام مشروع مكتبة الأسرة بإعادة طبع هذه الموسوعة الهامة. (المترجم)

إلى حماية الأشخاص والممتلكات المصاحبين للسفراء والتجار، أثناء ترحالهم في البلدان الأجنبية.

فإذا تعرض أحد السفراء، ومن في معيته، وهو في أرض مصر أو إقليم تابع لها، إلى هجوم أو حادث سطو، يصبح ملك مصر مسئولاً عن هذا الإعتداء أو السلب والنهب ويتعين على الفرعون أن يقدم تعويضاً للأشخاص، عما أصابهم من أضرار، ومن جهة أخرى، كان يحمل السفراء جواز مرور، يؤكد على الحماية التي يجب أن يوفرها لهم هذا العامل الملكي أو ذاك. والشئ نفسه يتمتع به التجار.

أما عن ممتلكات المسافر الذي يقضى نحبه في بلد أجنبي، وإذا تم الأعمال في بعض الأحوال بمبدأ حق وراثته الطارئ^(١٠) - أي أن تؤول ممتلكاته إلى ملك البلد الذي توفي فيه، فيمكن في أحوال أخرى، الطعن في هذا التصرف وإعادة الممتلكات إلى وطن المتوفى بالطرق الدبلوماسية.

● خطاب من ملك الآسيا إلى فرعون:

إن مواطناً من الآسيا توفي في مصر، وممتلكاته موجودة في بلدك، في حين أن ابنه وزوجته في الآسيا. فليتكرم أخى إنن، بجمع ممتلكات مواطن الآسيا ليضعها بين يديّ موفدى^(٣٤).

«يقصد بذلك، تطبيق نظرية تدور حول مسئولية الدولة، يبدو أنها مشتقة مباشرة من قوانين حمورابي التي تحدد، في واقع الأمر، في ماديتها ٢٣ و ٢٤، أنه يحق للعمدة كل مدينة، ردع أعمال قطاع الطرق وإلقاء القبض على مرتكبي الجرائم، في دائرة إختصاصه، وإحالتهم إلى القضاء، فضلاً عن ذلك، فإذا أفلت المجرمين من الملاحقة القضائية، فيحق لضحاياهم أن يعترضوا على العمدة وعلى المدينة ليطالبوهم بالتعويض^(٣٥)».

هذا التقليد المتواتر الذي يبدو أنه يجعل من بابل المصدر الذي جاء منه القانون، يفسر بلا شك السبب وراء اختيار اللغة الأكادية، لغة الدبلوماسية الدولية.

(*) الغريب. المعجم الوسيط. (الترجم)

هذا النظام القانوني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، فالآلهة هي الضامنة التي تكفل القانون برعايتها. وليس مجرد مصادفة أن يظهر هذا النظام في اللحظة التي أخذت الشعائر تتداخل، وظهرت كبرى المذاهب التوفيقية *syncretisme* الدينية: فجمعت بين آلهة الزراعة رمز البعث والإحياء، ومنها أوزيريس ويعل وأونيس، وبين الآلهات الأم مثل حتحور و عطت اللتين شاع الخلط بينهما، منذ زمن بعيد، ولكن أيضاً عشتار أو عشتروت^(*). إن اندماج العقائد خير ضامن للوحدة السياسية وشرعية العلاقات القانونية.

وتظل طيبة في قلب السياسة الدولية.

٣- بلاط طيبة

تقع طيبة على البر الشرقي من نهر النيل. والمدينة مناخها حار، وهوائها ملئ بالأتربة وطين الذباب. المدينة صاخبة، بمينائها الذي ترسو فيه السفن القادمة من كل حذب وصوب، من بلدان الشرق. المدينة جامعة لـ مختلف الأجناس، وفي وسع المرء، أن يسمع الناس يتحدثون فيها كل اللغات الأجنبية. المدينة هي العاصمة الفخمة لإمبراطورية شاسعة.

فيها ذهب المعابد وأبهة القصور و ثراء الديار وجوّ الحداثق العليل. وفيها أيضاً، الحواري الصغيرة المبلطة تبليطاً سيئاً، تحفها المنازل المنخفضة بشبابيكها الضيقة، والدكاكين المشيدة تشبيداً عشوائياً، ففيها يعيش جمهور من الصرفيين. أما سواد الشعب من أبناء طيبة، المتعاملون مع البلاط الملكي والمنتفعون من الثروات التي تتكدس في المدينة، والمساهمون في ازدهارها، هؤلاء الأفراد الذين لا نعرف عنهم شيئاً معرفة حقيقية، كان يحلو لهم الإختلاط بكبرى الأعياد، فيهللون فرحين مبتهجين.

(*) عن هاتين الإلهتين راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الاساطير المصرية. ترجمة: مامر جويجاتي. دار المستقبل العربي - ٢٠٠١ - ص ٢١٩-٢٢٠. (الترجم)

القصور والأعياد اليوبيلية

وبطبيعة الحال، كانت القصور قائمة في الأقصر. ولكن أصدر أمنهوتب الثالث أمره، في العام ٢٩ أو ٣٠ (٢) على ما يعتقد، بتشيد مدينة ملكية، على البر الغربي، لا تبعد كثيراً عن مدينة هابو^(*)، وربما امتدت لتلاصق حدود المعبد الجنائزي لهذا العامل الملكي، القائم خلف تماثلي ممنون. إن قصر ملقطة وملحقاته التي كانت تغطي أصلاً ٢٢٦٨٠٠ متراً مربعاً^(**)، شُيدت فوق أرضٍ بكرٍ تماماً. أما الآن، فإن دماراً شاملاً قد لحق بالقصور. كانت ملقطة تضم أربعة قصور ملكية خُصص أحدها للملكة تهي ومعبدٌ للإله آمون، به مقصورة للإله رع وقاعة للأعياد وديار فخمة. وإلى الجنوب الشرقي من هذه «المدينة»، حفر مرفأً صناعي فسيح، هو بركة هابو. وتلتزم زخارف القصر إلى حد كبير بجماليات المذهب الطبيعي، وتُرغص بزخارف قصر أمنهوتب الرابع، في تل العمارنة.

ذهب البعض إلى أن إقامة منطقة للقصور الملكية في البر الغربي الذي كان مخصصاً تقليدياً للجبانات، إنما يعتبر سلوكاً مناوئاً لكهنة الكرنك، ورغبة من أمنهوتب الثالث في الابتعاد عنهم. ومن المؤكد، أن نهاية عهد العامل الملكي، قد شهد قيام معارضة حادة بين رجال الدين والفرعون، فكانت إرهاباً مهدد لعصر العمارنة القصير.

إن بعضاً من أعياد اليوبيل الثلاثة التي احتفل بها أمنهوتب الثالث، بل وربما جميعها أقيمت في ملقطة. ولكن، لم تصلنا عن هذه الأعياد المكرسة لاستعادة حياة العامل الملكي وتجديدها، سوى معلومات غير مباشرة ومتفرقة، بل ومتناقضة أحياناً.

ففي مقبرة خرو إلف^(***) الكاتب الملكي ورئيس استقبال الملكة تهي وخازنها، في وسع المرء أن يقرأ النص الآتي:

(*) في نجع كوم لولج. (المترجم)

(**) أو ما يعادل ٥٤ فداناً، أو أقل قليلاً من مساحة معبد الكرنك (٦٣ فداناً). (المترجم)

(***) وهي المقبرة رقم ١٩٢ بالسلسيف. (المترجم)

اليوم... من الشهر الثالث، من فصل القيضان، من العام ٢٠... ظهور... (تلى مجموعة الألقاب الملكية) أمنهوتي، حاكم طيبة ورب القوة، ابن آمون، الذي سيتربع على عرشه، بينما يتواجد في قصر أعياد اليوبيل، الذي شيده إلى الغرب من المدينة^(٣٦)، (ملقطة).

وهناك إشارة غير مؤرخة إلى عيد اليوبيل الأول الذي احتفل به أمنهوتي الثالث، وقد وردت على تمثال يصور خع إم واست وزوجته، وقد جادت به مدينة بوياسستس. ويحمل الرجل ألقاب «قائد رماة السهام والمشرف العام على بلاد الشمال ومقدم المرائض إبان أول الأعياد سد^(٣٧)».

أما ما نعرفه عن اليوبيل الثاني في العام ٢٤، فينحصر فقط في التنبؤات الواردة على لصائق الجرار التي عثر عليها في أطلال قصر ملقطة. فمن بين ٤٠٤ لصيقة نجد أن ٢٨٠ منها، مؤرخه بالعام ٢٤، وتذكر الديباجة الآتية: «من أجل تجديد العيد سد لصاحب الجلالة». ومن المفترض أن هذا اليوبيل قد اكتسب أهمية ملحوظة. ولا يستبعد أن يكون معبد آمون القائم ضمن المجموعة الملكية بالبر الغربي، قد شيد بهذه المناسبة^(٣٨).

أما تاريخ ثالث أعياد اليوبيل فيختلف باختلاف المصادر.

فتعلن مدونة بسراييط الخادم في سيناء:

اليوم التاسع، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات، من العام ٢٦، في عهد صاحب الجلالة... أمنهوتي، حاكم طيبة، كان صاحب الجلالة في مدينة الجنوب، في قصره بالبر الغربي من مدينة طيبة. فصدر الأمر إلى الكاتب الملكي، المشرف العام على الخزينة: سويك حوتب، المدعو يانهسي، بجلب الفيروز، عندما كان صاحب الجلالة (يحتفل) بثالث أعياد اليوبيل^(٣٩).

ويتحدد التاريخ نفسه، في مدونة بمقبرة خروإف:

(*) أي عيد اليوبيل. (المترجم)

العام ٢٦. بخول الأصدقاء... إبان ثالث الأعياد سد، لصاحب الجلالة من قبل... خروإف(٤٠).

غير أن لصائق جرار ملقطة تحدد هذا التاريخ بالعام ٢٧ أو العام ٢٨. وتذكر ٢٢٥ لصيقة العام ٢٧، في حين تذكر لصيقتان فقط العام ٢٨. ولكن النص المدون صيغ على النحو الآتي: العام ٢٧. نبذ ثالث عيد سد لصاحب الجلالة^(٤١). وقد نذهب إلى الظن، بأن هذا النبذ الذي يحمل لصيقة مؤرخة بالعام ٢٧ أو العام ٢٨، يخص جنى العنب الذي تم لحظة العيد اليوبيلي في العام ٢٦، ولكن لم يُصَب في هذه الجرار ليُعتَق، إلا في تاريخ لاحق.

ويتضح من ذلك، أن الكثير من الحفلات الرسمية في هذا العهد كانت تقام في ملقطة.

الملكات والزوجات

في عهد تحوتمس الرابع، عاشت «زوجتان ملكيتان عظيمتان» في الأقصر: موت إم ويا الميتانية ويعرت، وشاركت كلاهما في حياة البلاط الملكي.

إن الملكة تبي الزوجة العظيمة للملك أمنموتب الثالث، كانت المحبوبة المفضلة وصاحبة فكر سياسي ثاقب. لقد احتفظت التماثيل والنقوش بصورة لوجه تميل تقاطيعه إلى البروز، وجنتاه ناتنتان وذقنه مدببة، وتتخذ في الغالب مظهرأ أبعد ما يكون عن السماحة والركة - إنها سيدة جليلة القدر.

إن واحدة من هذه الصور، وهي تمثال صغير من الحجر المطلي بالميينا الخضراء، ومن مقتنيات متحف اللوفر Le Louvre، في الوقت الراهن، قد مرّ بمغامرات لا تنتهى. ففي عام ١٨٢٦ حصل شامبوليون Champollion لصالح متحف اللوفر، على الجزء الأسفل من تمثال صغير من الحجر المطلي بالميينا الخضراء للملكة المذكورة. كان هذا التمثال الصغير يضم في الأصل صورة الملك التي كانت قد

اختفت. وكان عالم المصريات الفرنسي، قد حصل على هذه القطعة الأثرية ضمن غيرها من قطع مجموعة سالت(*) Salt. ثم قامت ثورة - ١٨٢٠ (**). وسُرق «نصف التمثال» من المتحف مع غيره من القطع، ثم بيعت بعد ذلك بطريقة غير مشروعة. ولكن استطاع متحف اللوفر استعادة هذه القطع، نظير تعويض دفعه للملاك الجدد. ثم نصل إلى ما يروييه چاك فاندييه(***) Jacques Vandier أمين متحف اللوفر: «أما بقية القصة فتعود إلى تاريخ قريب. ففي أغسطس ١٩٦٢، أحضر لنا أحد موزعي متحف اللوفر الجزء العلوي من تمثال للملكة تقي وهو من الحجر المطلي بالطين الخضراء. ومن السهل التكهّن بما حدث بعد ذلك. إنه الإنطباع الواضح الذي يتركه واقع سبق معرفته، فعلى الفور استعادت الذاكرة قطعة سالت الأثرية، وجرى البحث عنها، ومضاهاة القطعتين، لتحدث أخيراً «المعجزة» فقد بلغ تطابق الجزئين حدّاً من الكمال، حتى صار من الصعوبة بمكان، أن يلاحظ المرء أن التمثال الصغير كان يتكون أصلاً من عنصرين، ظلاً منفصلين لمدة ١٣٦ سنة، إلا إذا كان يعرف ذلك، من قبل، يا لها من سعادة، لا يشعر بها من يعمل أمين متحف، إلا في النادر القليل، وبصورة إستثنائية(****)... ولكن من البديهي، أن هذه السعادة لن تكتمل إلا بعد أن يكون قد الجمع بين الزوجين(٤٣)».

(*) هنري سالت Henry Salt: القنصل العام لبريطانيا العظمى في مصر في مطلع القرن التاسع عشر. (المترجم)

(**) الإشارة هنا إلى ثورة يوايو ١٨٢٠، في فرنسا، التي أثنى بالملك لويس - فيليب Louis-Philippe إلى العرش. (المترجم)

(***) من علماء المصريات الفرنسيين البارزين وصاحب الموسوعة الشهيرة:

Manuel d'Archeologie Égyptienne

وهي في ستة أجزاء موزعة على ثمانية مجلدات. وقد توالى صياغتها من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٨. وللأسف لم تكتمل هذه الموسوعة. (المترجم)

(****) يمكن تأمل الصورة الرائعة لهذا التمثال في:

G. Andreu, M.-H. Rutschowskaya, Ch. Ziegler: L'Égypte Ancienne au Louvre, Hachette, 1997, p.121. (المترجم)

ففى مجال علم المصريات، من الصعوبة بمكان التكهّن، بما يخفيه المستقبل من كشوفات، غير منتظرة. فأن يكون المرء عالم مصريات، يعنى توقع «المعجزات».

كانت تبنى تنتسب إلى عائلة تعود إلى أصول متوسطة الحال، وتنحدر على ما يعتقد من منطقة كويكوس، وقد أنعم عليها الملك بأعلى المراتب. ولا تنعت هى ووالديها، بأى لقب، فى النص الرسمى الذى أعلن زواجها، والمنحوت على الجعارين التى تم توزيعها فى بلاط كل ملك من ملوك البلدان الأجنبية:

فليعى... (مجموعة ألقاب الملك) والزوجة الملكية العظيمة تبنى. اسم والداه يويا. واسم والدتها تويا. إنها زوجة الملك القادر الذى تمتد حدوده الجنوبية حتى كاروى والشمالية حتى نهارينا^(٤٣).

أصبح يويا فيما بعد، خازن ملك مصر السفلى والأب الإلهى وخادم الإله مين والمشرف العام على قطعان مين والمشرف العام على المركبات وقائمقام صاحب الجلالة وأثير الحورس الذى فى القصر وأثير سيده آمون. كما أنعم عليه بألقاب شرفية أخرى، فى البلاط الملكى، فكان «مصر العليا وأذننى ملك مصر السفلى»^(٤٤).

أما تويا فقد أقرت بصفتها «زينة الملك». وصارت منشدة آمون والسيدة العظيمة فى حريم آمون والسيدة العظيمة فى حريم مين.

أما هانن أخو تبنى، فكان الخادم الثانى للإله آمون وكبير كهنة هليوبوليس والكاهن سم فى هرمونتيس^(٤٥) (مكدا).

تمّ الزواج فى بداية العهد، وقبل العام الثانى، وهو التاريخ الذى ظهر فيه اسم تبنى ضمن قائمة ألقاب الملك. فسرعان ما احتلت الملكة مكانة مرموقة فى الحياة السياسية. ولأول مرة، تضمنت قائمة ألقاب الملك، اسم الملكة على النحو الآتى:

العام... فى عهد الملك أمنحوتب. والزوجة الملكية العظيمة تبنى.

لقد استهلّت عرفاً، سيظل معمولاً به حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ليختفى بعد ذلك ولا يعود إلى الظهور.

إن الألقاب والنعوت التي تطّلت بها تقي، تشهد على ما نالته من حظوة مرموقة لدى العاهل الملكي:

السيدة النبيلة، الأثيرة الجلية القدر، سيدة الشاطئين، الرقيقة القلب، المتسيدة على مصر العليا ومصر السفلى، صاحبة الهيبة المرموقة والزينات المقدسة^(٤٥). سيدة السرور، التي تتولى أمر النسيمات^(٤٦).

العديد من هذه الألقاب، هي ألقاب فرعون المعتادة، وإن كانت في صيغة المؤنث. وفي زمن لاحق، سوف تتمتع نفرتاري بحظوة مشابهة، لدى وهمسيس الثاني^(٤٧).

وفيما يلي، هذه الجملة المنحوتة في مقبرة خروإفه، الخادم المخلص، والتي تكشف عن المكانة المرموقة التي تبوأتها الملكة تقي في بلاط الملك:

الزوجة الملكية العظيمة، محبوبته تقي. إنها تقيم في معية صاحب الجلالة، تماماً كما أن ماعت تصاحب رع^(٤٨).

إن أمنحوتب الثالث وتقي، وجهان للكيانين الإلهيين اللذين يضمنان وحدة العالم وتماسكه وترابطه. فلم يحدث أبداً من قبل، أن توحد الزوجان الملكي، على هذا النحو، مع النظام الكوني والإلهي.

ولا ريب، أن إنعامات الملك ورعايته لها، كانت من الأهمية بمكان، في هذا الصدد. فمن أجلها أمر «بإقامة» بحيرة شاسعة، للترويح عن نفسها، صالحة لسير القوارب، وكان افتتاحها مناسبة لإصدار سلسلة من الجعارين. وذهب الكثيرون إلى اعتبارها هي وپركة هابو، القائمة بجوار قصر ملقطة، شيئاً واحداً.

اليوم الأول، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام ١١، من عهد صاحب الجلالة... (قائمة ألقاب الملك) والزوجة الملكية العظيمة تقي، أمر صاحب الجلالة بإقامة بحيرة (أو: حوض) للزوجة الملكية العظيمة تقي بمدينة تقي في جعروخا. كان طولها ٣٧٠٠ نراع (١٩٢٤ متراً) وعرضها ٦٠٠ نراع (أو ٧٠٠ نراع في بعض القراءات، أي ما يعادل ٣٦٤ متراً). وفيما بعد، وفي اليوم السادس عشر، من الشهر

الثالث، من فصل الفيضان، وبمناسبة إحتفال صاحب الجلالة بعيد فتح - البحيرات (أو الأحواض)، شق الماء على متن القارب الملكي (المسمى) «آتون - المتألق»^(٤٩).

هل كانت بحيرة للترويح عن النفس؟ أو حوضاً لرى أراضى الملكة؟ وعلى كل حال فقد انتهى العمل فى ظرف خمسة عشر يوماً. ومؤخراً، أورد جان يويوت^(٥٠) Jean Yoyotte البراهين المؤيدة للفرضية الثانية^(٥٠)، إستناداً إلى العبارات المستخدمة، واحتمال تحديد موقع جعروخا، فى منطقة كويتوس، موطن تىي الأصلى.

ومن أجلها أيضاً، أمر العامل الملكى، بإقامة معبد فى هادنفة على بعد ٢١ كم، جنوب وادى حلفا (٥٠ كم).

ومن اقتران أمنحوتب الثالث «بالزوجة الملكية العظيمة»، رُزق بخمس بنات وابن واحد الذى سيمسح فيما بعد أمنحوتب الرابع.

وفى العام العاشر، وصلت إلى بلاط طيبة، «زوجة ملكية عظيمة» ثانية، هى جيلوخيا، شقيقة ملك الميتانى^(٥١).

وقام أمنحوتب الثالث بالاقتران بعدد من بناته، ممهداً السبيل لتجارب الرعامسة الزوجية. وقبل العام ٣١ من عهده، تزوج سات أمون واسمها يعنى «ابنة أمون» التى تحمل بالفعل لقب «الزوجة الملكية العظيمة»، فى آن واحد، مع والدتها تىي، وهذه الحقيقة معلنة بوضوح، على عدد من القطع الأثرية. نذكر على سبيل المثال، شريطاً من الأبنوس، جاء من صندوق صغير، وقد دوّنت عليه الألقاب الآتية:

الإله الكامل، رب القطرين، سيد إقامة الشعائر، ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب مامت رع، ابن رع: أمنحوتب، حاكم طيبة. ابنة الملكة، الزوجة الملكية سات أمون التى ولدتها الزوجة الملكية العظيمة تىي^(٥٢).

ويذهب بعض علماء المصريات إلى احتمال أن يكون ثوت عنخ أمون، ثمرة هذا الزواج، لأن أصوله ما زالت، غير مؤكدة^(٥٣)، ولكن هذا الرأى يحتاج إلى أدلة تبرهن عليه.

(*) عالم مصريات فرنسى. (المترجم)

(**) لم يتوّن الاسم داخل خرطوش. (المؤلفة)

ومن المحتمل أيضاً، أن أمنحوتب الثالث، قد تزوج إحدى بناته الأخريات، وهي إيزيس، وربما ابنة ثالثه، هي خنت - تا - نب (أي: تلك - التي - تقف - على - رأس البلد - بأسره) (٥٤).

أتعنى هذه الوقائع، في إطار الأيديولوجيا المصرية، حالة من حالات جماع المحارم؟ ففي الإمكان النظر إلى هذا الزواج على هذا النحو، إذا كان الأمر يتعلق بعائلة غير ملكية، لأن المصريين كانوا لا يميلون أبداً إلى الحرية الزائدة في مجال الأخلاق والآداب العامة (٥٥). ولكن، لما كان الأمر يتعلق بفرعون، يصبح الفكر مختلفاً. لقد رأينا مدى اهتمام الملوك باستمرارية نسل الأسرة الملكية الحاكمة ونقاء الدم الذي يجرى في عروق الملوك، ومن جهة أخرى، فالفرعون من جوهر إلهي. كان أمنحوتب الثالث ابن «أجنبية»، وهو ما كان يحدث لأول مرة في تاريخ مصر، فربما أراد بهذا السلوك أن يتجسد في ابنته من أجل «استرجاع» نقاء الدم أو الحفاظ عليه في المستقبل. وقد سبق له، أن أعلن انتماءه إلى عالم الآلهة بصفته «ابن آمون - رع»، عن طريق الولادة الإلهية (٥٥). وما كان يعتبر فعلاً مستهجناً ومداناً في العصور القديمة، كما في الوقت الراهن، بالنسبة لعائلة عادية، لم يكن على هذا النحو، في نظر العائلة المالكة التي ظلت إلى حد كبير، بعيدة عن المعايير المطبقة في المجتمع البشري.

كما شهد البلاط الملكي المحظيات المصريات، بلا شك، والأميرات الأجنبية اللواتي سكنن حريمًا رائعاً، وإن كان لا يداني سقاء عصر الرعامسة ويذخه، واللواتي أخذ أعدادهن يتعاظم مع التطور السلمي للعلاقات الدولية.

(*) وما زالوا. (الترجم)

(**) كما صورها في معبد الأقصر. (الترجم)

كبار المسؤولين

إلى جانب تحوتمس وحمو الوزيرين في عهد تحوتمس الرابع، بالتزامن مع وزير الشمال أمنحوتب، ومن بين كباراء البلد وأعيانها، فإن رع مس الذي شغل منصب الوزير في طيبة، قرب نهاية عهد أمنحوتب الثالث، نعرفه أكثر من غيره، كما كان أرفعهم شأنًا، وظل يباشر وظيفته في العام ٣٠، أثناء الإحتفال بعيد اليوبييل الأول للعامل الملكي. ومقبرته التي تم الكشف عنها في الشيخ عبد القرنة وتحمل رقم ٥٥، هي واحدة من أجمل مقابر الجبانة(*)، لقد انتهى العمل فيها في عهد أمنحوتب الرابع. وتعتمد معظم زخارفها على النقش البارز وليس الرسومات(**). وتبرز بوضوح الانتقال بين أسلوبين عصريين. إن أشكالها الرائعة الجمال الأكاديمي، ورقة ملامحها ومرونة أجسادها، وأناقة أزيائها وحليها، تعبر عن رغبة العيش وبذخه، بل إن سلسلة خطوطها وليونتها، إذا صحَّ القول، وكلها من سمات زمن أمنحوتب الثالث، تختلط إختلاطاً ملحوظاً بواقعية نقوش زمن أمنحوتب الرابع، وخطوطها القلقة المضطربة. أمّا زخارف المقبرة فتقتصر فقط، على الفناء ويهو الأساطين، حيث ظلت حجرة الدفن ناقصة لم يكتمل العمل فيها، ويرجع السبب في ذلك بلا شك، إلى القلاقل الخطيرة التي سادت هذا الزمان.

كان موظفًا ذا همة وحمية، مخلصاً للملك، فيعلن أنه أمضى حياته على الصدق والوفاء، وهو ما يقوله في سياق صلاة إلى أوزيريس، صاغها في صحبة زوجته مريت - بتاح منشدة آمون:

إنى أحضر الآن في سلام، بعد أن أتممت زمن الحياة وقد أغدق على الإله الكامل (الملك) العطاء. لقد انجزت ما كان يرجوه الناس، وما تبتهج له الآلهة، كما

(*) إلى جانب مقبرة رخ مى رع رقم ١٠٠ ومقبرة متتا رقم ٦٩ ومقبرة نخت رقم ٥٢ ومقبرة سن نفر رقم ٩٦، على سبيل المثال. (المترجم)

(**) من المناظر الشهيرة في هذه المقبرة، تلك التي تصوّر موكب الجنائز ومشهد ولولة النائحات، وقد رسما بالألوان على الجدار الجنوبي. (المترجم)

فعلت ما يمتدحه الملك، فى زمانى. لم أخالف أوامره ولم أرتكب شراً، فى حق الشعب، وأقمت العدالة على الأرض، لأننى أعلم حق المعرفة، أنك لا تكفّ عن الإطراء على صاحب القلب الصادق الذى لم يرتكب ما موريدى^(٥٥).

إن كبار أحبار آمون، ونذكر منهم على التوالى: أمن إم حات وباك إن خونسو و مر إن پتاح الذى كان يشغل منصبه فى العام ٢٠، من عهد أمنموتپ الثالث، كانوا أساساً من كبار الشخصيات الدينية فى طيبة. ولكن مع پتاح مس، عاد رجال الدين ليصبحوا رجال دولة، وأخذ كهنة آمون يستعيدون مؤقتاً قدرأ من نفوذهم، بعد أن ظلوا بعيداً إلى حد ما، عن الشئون الدنيوية. ولكن ماذا كانت أصول پتاح مس، على وجه التحديد. إننا نجهل ذلك. وعلى كل حال، فقد جمع بين منصبى كبير كهنة آمون ووزير الجنوب، على غرار هيوسنب و من خپر رع سنب، من قبله. وفضلاً عن ذلك، فقد كان «مدير كافة أشغال الملك»، بل وشخصية ذات نفوذ عظيم.

ويحتفظ متحف مدينة ليون Lyon بوسط فرنسا بلوح حجرى يحمل اسم هذا الشخص، ورقمه ٨٨. وقد صُوِّرَ فى الجزء المقوس فى أعلى اللوح، متعبداً للإله أوزيريس، ثم يمثل بعد ذلك فى صحبة زوجته إينى، رئيسة محظيات آمون، أمام مائدة قربابين، ويسير فى اتجاهها، ابناهما حاملين باقات زهور مركبة، ويناتهما الخمس، وجميعهن «منشدات آمون»، وهن يعركن المصلحلات: يقول النص على امتداد عشرة أسطر:

إغداق الثناء بالتهليل، على أوزيريس، الإله المحبوب، يا لها من متعة أن يُجزل لك الثناء، أنت الواحد المتفرد. وتظل الكائن الذى وُجد قبل أى وجود، الذى خلق السماء، الذى خلق الأرض، الذى ما فتى يُشبع البشر، لأن الأرض تحيا من خَلْقِكَ.

ليته، يعطى كل ما يرتفع على الدوام، فوق مائدة قربابينه، بعد أن يأخذ منه ما يكفيه. ليته، يعطى مع مطلع كل فصل (من فصول السنة) الآلاف من كل شيء طيب وطاهر ونضر، من النبيذ واللبن، من الموجود فى معبده - من أجل كا كبير كهنة آمون، وأمير مدينة الجنوب، الوزير پتاح مس.

الشكر والحمد لك،

- أيا رع - أتوم - پتاح، العظيم القائم جنوب جداره،
- أيا تحوت، يا سيد الكلمات الإلهية،
- أيا سخمت، العظيمة، محبوبة پتاح، التي تنصدر الآلهة جمعاء،
- أيا أوزيريس، يا أول أهل الغرب،
- أيا حورس، المنتقم لأبيه،
- أيا إيزيس، العظيمة والأم الإلهية، سيدة السماء التي خلقت كمالها،
- أيا حتحور، القائمة على رأس الجبانة،
- أيا أونوريس - حورس، رب (مدينة) ثنى،
- أيا معيت التي تقيم فى بحت،
- (أيا جميع هذه الآلهة) التي تحيا من الحقيقة والعدالة وتنذب الشر.

أجل، إنى قادم، إلى جوارك أنت، فنأنا طاهر، وقلبى طاهر. إنى نزيه تجاه رع وصادق - القول، إلى جوار أوزيريس. لقد انجزت ما برح البشر يشيدون به وما ترضى عنه الآلهة. لقد أعطيت الجوعان خبزاً وأطعمت الموعز حتى الشبع. لقد لازمت الحورس (الملك) فى قصره وفى إنعاماته وفى حبه. لم أرفع صوتى بجوار رجال البلاط، لم أتصرف بالسحر ضد (إنسان) أعظم منى شأنًا. لم أوسع بخطوات واسعة درجات العرش المهيّب. كان سلوكى مطابقاً للحقيقة والعدالة اللتين يحبهما الملك، عارفاً أنه يحيا بهما. لقد بقيت ساهراً فى مكانى (طوال الليل) لأشيد بمجده. كنت واقفاً عند الفجر لأتعبد إليه، على مدار الأيام. كان قلبى وفكرى يستبقان ما يقوله. لم أتجاهل شيئاً أمرنى به. واستطعت أن أفعل ما فعلته، بفضل مدونى ورباطة جأشى، وكان سيدى يمتدحنى لأن تثبىرى كان موافياً (طوال الفترة) التي بقيت فى معيته. لقد تفوقت بهذه الكلمات المطابقة للحقيقة، دون أن تمقرىها الأكاذيب.

ولذا، فليت الناس يعملون من أجلى، ليت الملك يقدم قرباناً (إلى) الإيماخو بجوار أوزيريس، إلى كبير كهنة آمون والوزير پتاح مس الذى ما برحت كلمته ترضى البلاد بأسرها.. إلى المشرف العام على كافة أشغال الملك، ورئيس كهنة الآلهة جمعاء.

(ليت الملك يمنحه أيضاً) بفتة، بصفتة صادق - القول حتى يمر في سلام بجوار
الآلهة في مقبرته بالجبانة، مقره في مدينة الزمن الأبدى، والمكان الذي سيقم فيه (من
الآن فصاعداً) (٥٦).

يستحق هذا النص أن يتركز عليه، جلّ إهتمامنا، لأنه يكشف عن فكر ديني،
أخذ في التطور. فمن الملاحظ أن اسم آمون لم يذكر في النص، رغم أن جميع هؤلاء
الأشخاص، بما فيهم كبير الكهنة ذاته، يعملون في خدمة إله الكرنك. بل تذكر أسماء
آلهة عواصم مصر القديمة السياسية والدينية مثل ثثي ومنف وهليوبوليس وأسماء آلهة
الدورة الأوزيرية، وغيرها من العناصر البارزة في مجمع الآلهة المصرية. فهل كان
يتاح مس، الموظف الأمين في خدمة الملك، والذي يتمتع بتكبر قدر من رعاية الملك
ورإنعاماته، والوزير المرموق، هل كان يلتزم، على هذا النحو، «بسياسة ملكية»؟ فحاول
فرعون في البداية تعجيم سلطة آمون المتعاطمة، فأعاد إلى شعائر الآلهة الأخرى ما
تستحقه من أهمية؛ الأمر الذي سينتهي في زمن لاحق إلى رد فعل معاكس، في شكل
تعصّب أمنهوتي الرابع وتشدّده.

ومن جهة أخرى، فالإبتهاال الوارد في مطلع النص، يلتزم عند التضرّع إلى
مختلف الشخصيات المقدسة، بالصيغة الآتية: «التحية لله»، وإن عاد النص فيما بعد،
وفي نهاية «قائمة الآلهة»، إلى استخدام صيغة الجمع عند الإشارة إليها، ربما كان
ذلك مثلاً عن هذه الحركة التلثيقية (٥٧) *syncretisme* المميّزة للأسرة الثامنة عشرة التي
كانت تنظر إلى الآلهة باعتبارها أقانيم لوجود إلهي، يشملها كلها. وإذا أقدم أمنهوتي
الرابع، فيما بعد على «اختزال» مجمع الآلهة، فإنه لم يقدم في الحقيقة، على عمل
مبدع.

(*) التلثيقية *syncretisme*: الجمع بين عناصر متميزة عن بعضها البعض مستمدة من أنساق
مختلفة ووضعها في نسق واحد وهو المقابل لذنب التلثيقية *eclectisme*: الجمع بين آراء أو
مذاهب مختلفة ومحاولة التلايف بينها لتكوّن مذهباً واحداً. (د. أحمد زكي بدوي. معجم العلوم
الاجتماعية. مكتبة لبنان. ١٩٨٦). (الترجم)

كما لعب كهنة پتاح فى منف دوراً هاماً. إن شخصاً آخر يدعى أيضاً پتاح مس الذى يحتفظ له، متحف مدينة فلورنسا الإيطالية بلوح حجرى، وهو ابن الوزير تحوتمس، قد شغل منصبه، قرب نهاية عهد أمنهوتب الثانى، ومع مطلع عهد تحوتمس الرابع، وكان كبير كهنة إله منف. كما أسند إليه أيضاً لقب «رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى»^(٥٧). وكان هذا المنصب من المناصب التى يستأثر بها كهنة آمون. أكان إمتيازاً شرفياً أم صراعات حول مناطق النفوذ؟

كما أن پتاح إبرى، وهو كبير كهنة آخر، فى خدمة الإله پتاح، كان «الإبن البكر الملكى للإله آمون»^(٥٨).

هكذا نستشرف بكل وضوح بزوغ حركة دينية واسعة.

كان نواب - الملك الذين أطلق عليهم فى عهد أحمس اسم «الأبناء الملكيين، رؤساء بلاد الجنوب»، قد أصبحوا منذ عهد تحوتمس الرابع، يحملون لقب «الإبن الملكى فى كوش»، وربما يعود أصل هذه التسمية إلى الرغبة فى التفرقة بين نائب - الملك أمنهوتب الذى كان يشغل هذا المنصب، والإبن الملكى الحقيقى، الأمير أمنهوتب الذى سيصبح أمنهوتب الثالث. وما لا شك فيه أيضاً، أنه كان وسيلة لفوية لضمان السيطرة المصرية على السودان. واعتباراً من تحوتمس الرابع أيضاً، شُرف نائب - الملك بإضافة لقب «حامل المروحة عن يمين الملك»، إبرازاً للروابط الشخصية والحميمة القائمة بين الفرعون والمسئولين عن إمبراطورية الجنوب.

إن أمنهوتب الذى ظل يشغل هذا المنصب فى السنوات الأولى من عهد أمنهوتب الثالث، يحمل إذن هذين اللقبين على تماثيل مهشم جادت به دير المدينة، ويصوره راجعاً مسكاً بلوح حجرى مائل^(٥٩). كما أنه «الكاتب الملكى والمشرف العام على قطمان آمون». ومن ثم، نجد أن بعض المناصب المرتبطة بأموال الكرنك، كان يُعهد بها إذن إلى كبار الموظفين، البعيدين فى الغالب عن العاصمة، ولكنهم من رجال الملك الأوفياء. أكانت ألقاباً شرفية أم نظرة إرتياب حيال كهنة طيبة؟ إن مرى مس، «الإبن الملكى فى كوش ورئيس بلاد الجنوب»، ظل يشغل منصبه خلال معظم سنوات

عهد أمنحوتب الثالث. إن ألقابه الأخرى المذكورة بمقصودته رقم ٢٦ فى جبل السلسلة، تتيج لنا أن نذهب إلى أنه قد أشرف على «تدريبات» أحد الأعياد اليوبيلية الخاصة بالفرعون أمنحوتب الثالث، الذى أقيم فى صواب بالسودان^(٦٠). ومقبرة مري مس، قائمة فى البر الغربى من مدينة طيبة، فى جبانة قرنة مري^(٦١). وبالفعل فإن موقع الشيخ عبد القرنة، قد حُفرت فيه أعداد كبيرة من المقابر حتى أن كبراء النولة وأعيانها فى العهود الأخيرة من الأسرة الثامنة عشرة «أُخذوا يهاجرون» إلى قرنة مري، وهى نتوء صخرى، يقع إلى الجنوب الغربى من الرامسيوم. وكان مري مس أول من دفن فيها. وربما أراد على هذا النحو، أن يقترب من المعبد الجنائزى لسيده الملكى. وللأسف فقد عانت مقبرته من دمار شديد. وتابوته الحجرى موجود فى المتحف البريطانى.

يبدو أن هذا العصر لم يشهد إثارة أى مشكلة هامة، حول إدارة أراضى الجنوب وذلك فى حدود علمنا، على الأقل.

المعماريون والنحاتون

فى هذه الأزمنة التى شهدت كبرى مشاريع البناء، كان الرجال الذين يقع على عاتقهم أعمال التشييد والنحت، يضطلعون بدور بارز فى البلاط الملكى فى طيبة. ومن هذه الأمثلة نذكر تحديداً، أمنحوتب بن حايو. أكان مستشاراً للفرعون ومحل ثقته؟ أم «رئيساً للوزراء» فى واقع الأمر؟ وأياً كان الأمر، فقد كان واحداً من أقوى رجال زمانه، ولأن شهرته طبقت الأفاق، وذاعت واستمرت، وعُرف عنه براعته وحكمته، فسوف يتم تأليهه فى وقت لاحق، ومنذ عهد بطليموس الثامن يوارجيتس^(٦٢) الثانى. بل كان يصنف ضمن الآلهة منذ عصر مانتون^(٦٣)(٦١).

(*) وهى المقبرة رقم ٢٨٢. (الترجم)

(**) لقب يونانى معناه الخير. (الترجم)

(***) عاش فى عهد أول وثانى الملوك البطالة. (الترجم)

كانت أصول هذا الرجل تعود إلى أترييس^(*) في الدلتا وينحدر من عائلة من حكام الأقاليم، وظلّ كبير كهنة حورس الذي كان يُعبد في هذه المدينة.

وعلى أحد تماثيله الذي عثر عليه مارييت Mariette في الكرك، يسرد أمنحوتب بن حابو مسيرة حياته لتحفظ الأجيال اللاحقة بذكراه:

يقول أمنحوتب كاتب الملك ومحبيه:

كنت كبيراً، قائماً على رأس الكبراء، صاحب فكر ثاقب في (معرفة) الكلمات الإلهية، وفقاً لمشورة القلب. فأنا من يلتزم بمقاصد الملك، أنا من قام العاهل الملكي بوضع كاه في المقدمة.

تفضل الإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، ابن حور أختي البكر - فأنجز لي، المنة والنعم، ورقيت إلى كاتب ملكي بصفتي رئيساً، وفُضِّت من أجلي مغاليق الكتاب الإلهي واستطعت مشاهدة أفعال تحوت المفعمة بالبركة، بعد أن أصبحت من الآن على علم بأسرارها. وتوهّجت إلى حلّ كل معضلاتها، وكان في استطاعة الجميع أن يجادلوني في جميع موادها.

عندئذ أنجز لي الملك منته ونعمه من جديد، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع. ومن أجلي، «رِيط» كافة البشر القائمين تحت سلطتي، بصفتي الكاتب الملكي، على رأس المبتدئين الجدد. وارتقيت «مراتب» سيدي، وقامت ريشتي بحصر أعدادهم بالملايين. وأقيمت الشبان محل القدماء، فالإبن البكر هو عصا الشيفوخة. وفرضت الضرائب على كل بيت من البيوت، حسب عدد (الأشخاص القاطنين فيه)، بعد أن وضعت العرفيين جانباً. وأحلّلتُ صفوة أسرى الحرب الذين أمسك بهم صاحب الجلالة في أرض المعركة، محلّ الخدم. وتفقدت كافة الفرق التي تشكلت، على هذا النحو، وحشدت إذن المجندين الجدد. ووضعت القوات عند أطراف الطرقات حول نخوم القباطنين، لردّ الأجانب إلى أماكن إقامتهم. في حين أخذت كتيبة

(*) (التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم حوت حري إيب أو حوت تاحري إيب، و تل إتريب، حالياً. (المترجم)

مراقبة تجوب بلاد السائرين - على - الرمال. وفعلت الشيء نفسه، عند سواحل
نصبات النهر، محاطاً بقواتي باستثناء فرق البحرية الملكية. كنت المرشد الذي يهديهم
عبر الدروب. وكانوا يرضخون لأوامري. كنت «الفم الأسمر» على رأس الأشاوس
الذين أُعْثُوا لصدّ النوبيين والاسيويين. كانت مقاصد سيدي ملائمة من خلفي، اعتصم
بها. وبينما كنت سائراً، فإن كلمته تطوقني. إن مخططاته تغطي كافة البلاد وكل
(منطقة) أجنبية قائمة بجواره. كما كنت من يحصر قائمة غنائم إنتصار صاحب
الجلالة، ومسئولاً أيضاً عنها. فاتصرف وفقاً لكلماته، والتزم بأوامره، مدركاً مدى
تأثيرها المواتي على المستقبل.

وللمرة الثالثة، أجزل لي سيدي النعم والمِنَّة، (سيدي) ابن رع، أمنحوتب، حاكم
طيبة. إنه رع. لقد وهب الزمن الأبدى، وأعياد يوبييل، لا تنتهي. ولذلك عيّني سيدي
مشرقاً عاماً على كافة الأشغال. هكذا نَوَّنت اسم الملك تدويناً راسخاً، للزمن
اللانهاثي. لم أكن أحاكى ما صنَّع من قبل. فمن أجله، شُكِّتَ جبلاً (حقيقياً) من
الحجر الجيري الأحمر (تمثالاً)، لأنه وريث أتوم^(١٣). إنني أتصرف وفقاً لرغبتى، فقلبي
هو الذى يهدينى، حتى يقام تمثاله فى معبده الكبير (فى معبد الكرنك، وبالفعل ما زال
تمثال من الحجر الرملى الأحمر لأمنحوتب الثالث، قائماً فى مكانه). (وهو مزدان) بكل
أنواع الأحجار الكريمة، الصلبة صلبة السماء. ولم يفعل أحد ذلك، منذ زمن تأسيس
القطرين.

وباشرت أعمال تمثاله الذى كان عريضاً إلى حد كبير، وأكثر ارتفاعاً من
عموده، و«أتى» جماله على جمال الصرح. وبلغ طوله ٤٠ ذراعاً. لقد جاء من التل
المقدس المكون من الحجر الرملى الأحمر، والقائم على مقربة من رع - أتوم. وشيدت
سفينة... وأبحرت مصعداً التيار (من هليوبوليس إلى طيبة)، لإقامته فى معبده الكبير،
ليوم دوام السماء.

إن شهود (عملى) يقفون بينكم، يا أيها القادمون من بعدنا.

إن الجيش بأسره، كان تحت إمرتى بمفردى. فیتصرف الجنود فرحين، سعداء
القلب، ويطلقون الصيحات شكراً وعرفاناً للإله الكامل. ونزلوا إلى برّ طيبة وسط

الغبطة والتهليل، إذ استقرت المعالم الصرحية في مكانها، للزمن الآتى وللزمن الأبدى^(٦٣).

يا لها من سيرة حياة، تبدأ بغض مغاليق الكتب الإلهية، لتتواصل من خلال تنظيم الجيش وحشد الفرق وتنتهى بالإشراف على إقامة المعالم الصرحية الملكية. كان أمنهوتي بن هابو، من رجال البلاط، والمقررين المفضلين لدى الملك، وامتد نشاطه إلى كافة مجالات حياة الدولة، كما كان حكيماً عارفاً بأسرار الآلهة.

واعترافاً له بالجميل، أصدر أمنهوتي الثالث، مرسوماً في اليوم السادس، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٣١، يمنحه بمقتضاه، حق إمتلاك المتاع الضروري لميانة معبده الجنائزى، وهو حدث إستثنائى وفريد فى بابه. فالملوك أو أفراد العائلة المالكة وحدهم، يمتلكون معابد جنائزية. كانت دلالة واضحة على مدى الخطوة التى نالها عند الملك، ليقام مثل هذا المبنى الفخم فى مدينة هابو، لواحد من أكبر أصحاب الخطوة، كان المبنى لا يبعد كثيراً عن معبد عامله الملكى^(٦٤). وعند صدور مرسوم التأسيس، انعقد مجلس فوق العادة، حضره وزير الشمال أمنهوتي و هو إنفتاح، المشرف العام على الخزينة، وكتبة الجيش، فضلاً عن المستفيد من هذه الهبة.

كُشف فى الكرتك عن سبعة تماثيل لهذا الشخص. تصوره أربعة منها جالساً متربعاً، وربما أتاحت لنا المدونات المنحوتة عليها أن تزيد من فهمنا لشخصية أمنهوتي بن هابو.

ففى هذه الأزمنة التى شهدت حركات دينية متنوعة، كان من الأوفياء المخلصين للإله آمون، فإليه وجه هذه الترنيمة:

إنى قادم إلى جوارك، يا سيد الآلهة، يا آمون، يا رب عروش القطرين، إنك رع الذى يشرق متألّفاً فى السماء، الذى ينير الأرض بفضل جمال عينه المتألّنة، (أنت الإله) المنبثق من نون، ليشرق متألّفاً خارج فيض الأمواج الأولية، الذى جاء إلى الدنيا

بكل ما هو موجود، وخلق التامسوع الإلهي العظيم، وعرف جسده ذاته وانجب ذاته
(بمختلف أشكاله)^(٦٥).

كما كان إنساناً واعياً كل الوعي بخصاله وأهميته. فيصف نفسه على النحو
الآتى:

أنا، حقاً، شخص مهيب، من بين سائر البشر، وعقل ثاقب الإدراك، عندما
يجوب قاعة المجلس. فالأشياء الغريبة مثل المأكوفة، ويدرك (حرفياً: يكتشف) الأحاديث
وإن كانت بالغة الصعوبة، والحكمة فى حوزته، ويملا قلب العاهل الملكى وينجز أفعاله
مفعمة بالبركة، من أجل هورس^(٦٦). فهو الذى يشيد ببراعة فائقة كل معاله الصرحية
حتى تترسخ ذكراه، فى المكان المقدس للزمن الأبدى. هو الذى يلطف القلب فى يوم
الفواجع. إنه خازن ملك مصر السفلى، فيستطيع الإقتراب من جسد الإله (الملك)، إنه
يخرج من القصر (تصاحبه) الدائع التى لا يكف رجال البلاط عن توجيهها إليه،
بالنظر إلى عظيم اقتداره، إلى جانب العاهل الملكى. فمع بزوغ كل يوم جديد، يتفرغ
مبكراً لشئونه، ويختلف الأعمال... فهو الذى يسن القانون ويقيم نظامه على نحو
صارم...^(٦٧)

يا لها من مسئوليات جسيمة يتحملها مدير أشغال الملك! ولكنه كان من
العارفين بالمغاليق، المحيط بأسرار الأسفار الإلهية والدلالة العميقة للطقوس السحرية.
فقد كان شخصاً مرهوب الجانب إلى حد ما، وقصارى القول، كان يفتخر أيضاً
بقيامه بدور شديد التميز، فيعتبر نفسه الوسيط بين الآلهة والملك والبشر.

وعلى قاعدة تمثال هذه المدونة المزهوة:

أنتم، أيا مصر العليا ومصر السفلى، أنتم، يا جميع من تستطيع أعينهم تأمل
أتون، أنتم، يا من تاتون إلى طيبة، هابطين أو صاعدين مجرى النهر، من أجل تقديم
إلتماس إلى سيد الآلهة، تعالوا إلّى، وسوف أنقل كلماتكم إلى آمون فى الكرنك. أنوا
من أجلى شعيرة القربان، صَبّوا من أجلى الماء الطهور، بما هو بين أيديكم. أنا
الحاجب الذى أقامه الملك لأستمع إلى الأحاديث، وأرفع (إليه) إحتياجات
الشاطنين^(٦٨).

وعلى قاعدة تمثال آخر، نقرأ على النحو ذاته:

أنتم، يا رجال الكرنك، الذين تريدون بلا انقطاع مشاهدة آمون، تعالوا إليّ.
سوف أنقل إلتماساتكم، لأنى حاجب هذا الإله. لقد أقامنى نب ماعت رع، لأنقل (له)
كلمات الأرضين. وهكذا، أنوا من أجلى شعبية القريان، انكروا اسمى، على مدار كل
يوم من الأيام، كما يتم من أجل أثر مفضل^(١٩).

تتجاوز وظائف أمنهوتب بن حايو وظائف «مهندس معمارى»، كما يوصف فى
بعض الأحيان. كان الشخصية الرئيسية فى عهد أمنهوتب الثالث، فيسن القوانين
ويدير شئون البلاد، جنباً إلى جنب، مع العاهل الملكى، مثل الوزير الذى كان يقوم
بدوره، إذا صحّ القول، كما كان يتدخل فى الكرنك، لدى آمون وكهنته. وربما كان
يستمد سلطاته من شهرته التى طبقت الأفاق بصفته حكيماً، عارفاً «بأسرار» الدين.

والمدونة المنحوتة على التمثال الذى عثر عليه عام ١٩٠٦، أمام الواجهة الشمالية
من الجناح الشرقى من الصرح السابع، والذى كان قائماً أصلاً فى معبد الكرنك ذاته،
تنقل لنا خطاباً أعلنه أمنهوتب بن حايو، بعد أن بلغ الثمانين من عمره، فيقدم لنا
تقييماً لحياته. إنه خطاب من أجل آمون:

أنا قادم إليك لأطعم كائك، وأقيم فى معبدك، أيا آمون، أيها الأقدم الأصلى فى
القطرين، أنت رب ما هو موجود تحت السماء، بصفتك إله الشعب. وما هو موجود فى
السماء يوقر جمالك، لأنك بكمالك، أعظم من أى إله آخر. إنصت لمن يناديك. أنت رع،
فلا وجود لأحد سواك.

لقد أقمتنى وسط الرجال المقرظين الذين يمارسون العدالة. أنا رجل بار، لا
أتصرف بتحيز ولا أعاشر أبداً من يفعل الشر. ولا أسمح لأحد ممن فى معبتي، مكلفاً
بالأشغال، أن يحيا فى عسر. لا يوجد أبداً، رجل عُين إلى جوارى، لا أستمع إلى
كلماته، بون أن أسمع له مع ذلك، أن يكون كثير الثروة. ولكننى لا أقترّب ممن
يتصرف ضدى. ولا أعير أى إهتمام لكثرة قيلت للإضرار بشخص آخر فى ممتلكاته.
هذه هى طبيعتى التى تبرهن على صواب، كل ما صنع من أجلى، بحضور الجميع.
من رأتى، سيسعى ليصبح مثلى، بالنظر إلى عظمة ما صنع من أجلى. والشيخوخة

شاهد على (حياة) بارة. لقد بلغت الآن الثمانين من عمري، وخطلوتى عظيمة فى نظر العامل الملكى. وسوف يمتد عمري إلى سن المئة وعشرة (٧٠).

إن أعمال حرفيى طيبة وكيفية قضائهم سحابة أيامهم. ما زالت تكشف عنها مقبرة معلّمين من معلّمي النحت. فالمقبرة رقم ١٨١، فى جبانة الخوخة، وهى الإمتداد ناحية الشرق لجبانة الشيخ عبدالقوتة، مقبرة مزبوجة، وملك عائلى تخصّ نب آمون، «وَأَلَدَ الْحَرِيمِ وَرِئِيسَ النَحَّاتِينَ» وصهره إيهوكي «نَحَّاتُ الْمَلِكِ». وقد ورث كل منهما منصبه عن والده. إننا أمام أثر فريد فى بابه. فلا تتكون المقبرة من قسمين. ففى كثير من الأحوال، صوّر الرجلان، وهما يشتركان فى الوجبة نفسها وفى تكريم الوالدين وفى عبادة الآلهة وأداء الشعائر الجنائزية. كما يحدث أحياناً أن تصبح المشاهد منفصلة. فيقوم كل واحد من النحاتين بالعمل نفسه، فى صورة مركبة أحياناً. وفى بعض الأحوال أيضاً، يتولى أحدهما أداء جانب من الطقس الدينى، فى حين يؤدى الآخر أعمالاً تكميلية. إنه مثال رائع على التعاون الأسرى. وأسلوب الرسومات فيه حياة وواقعية، لا تغيب عنه روح الفكاهة، ويوضح عدداً كبيراً من مشاهد الورش التى تصور الصوّاغ، وهم يزنون الذهب والنجارين وهم يعالجون الخشب بواسطة مثقاب، والصانع وهو يطعم صندوق صغير خاص بالملك، وفخّارياً وهو يثقب إناء من الألبستر، وعاملاً يصنع سدريّة من الورق المقوى لومسياء، ورسامين ونحاتين، أثناء عملهم ونجارين وحدّادين منكبّين على أعمالهم.

المشرفون على الأملاك

لا شك، أن أمنهوتيپ المدعو حوى كان ابن عم الوزير رع مس، فكان يشغل مناصب «المشرف العام على الأملاك الملكية فى منف» و«منظم أعياد بتاح - إلى - الجنوب - من جداره وكافة آلهة الجدار الأبيض»^(*) و«مدير الأشغال فى معبد بتاح»

(*) إنب حج بالمرصية القديمة، ومن أسماء مدينة منف. (الترجم)

«رئيس الكهنة فى معبد سخمت» وهالكاتب الملكى للمجندين الجدد»^(٧٦). ويستعرض مراحل حياته المهنية فى نص منحوت على تمثال من الكوارتزيت، عثر عليه فى منف، ويصوره فى هيئة كاتب جالس متربع. قد يفهم من النص، أنه كان مقاماً أصلاً فى معبد جنازى «إضافى»، مكرس للملك أمنحوتب الثالث. ونعرف أن المعبد الجنازى للعامل الملكى، كان قائماً فى طيبة خلف التمثالين المعروفين إصطلاحاً بتمثالى ممنون، وهما كل ما تبقى منه، وقد شيد إلى الشرق من مقبرته فى وادى الملوك الغربى. ولكن من المحتمل، أن معابد جنازية ملكية قد شيدت أيضاً فى مدن بعيدة عن العاصمة. فهل يعنى ذلك، افتراض وجود مقابر تذكارية؟ وعلى كل حال، لم يعثر حتى الوقت الراهن على شىء مماثل فى موقع منف العتيقة.

وعن هذه الأملاك الملكية التى كان أمنحوتب مشرفاً عاماً عليها، ويتولى تدبير شئونها، يقدم لنا إيضاحات على قدر كبير من الأهمية:

إنى أتحدث إليكم، يا «أصحاب الجلالة» الذين ستأتون إلى الوجود، (والى البشر) فى الزمن القادم، الذين (سيحيون) على سطح الأرض. كنت رفيق الإله الكامل، رب القطرين، أمير البسالة، نب ماعت رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، (كنت رفيق)، منذ أن كنت صبياً، وقبل أن أؤسس بيتاً. ومع تقدمى فى العمر، تكونت شخصيتى، واستطعت أن أدخل القصر، على إنفراد، لمشاهدة الحورس فى بيته، بينما كان كباراء الدولة يتقدمون خلفى. وامتدحنى بسبب مهارتى الفائقة وقام بترقيتى مشرفاً عاماً عظيماً. كانت عصاى (وهى شارة السلطة) فوق الشعب. وامتلكت أعداداً وفيرة من الخدم والمناشبة ومختلف الأشياء، بلا حدود... وأقمت المدالة من أجل سيد القطرين، ليل نهار، فكنت أعرف أنه يحيا بها. والكلمة الكاذبة، كانت فى نظرى شيئاً فظيهاً مقبوتاً.

عندئذ قام بترقيتى مراقباً عاماً على الأشغال فى معبده لملايين السنين، الذى كان قد أقامه حديثاً فى أرض مزروعة، إلى الغرب من منف، فى حى عنخ - تاوى^(٧٧).
 إن أبوه پتاح - هو - الذى - إلى - جنوب - جداره... (?) ...ومبنى شامخاً من أجل أبيه پتاح، وبناية مباركة (صالحة) للزمن اللانهائى، وهى من حجر طرة الأبيض

الجميل. كان جمالها في مثل (جمال) أفق السماء، وجميع أبوابها من خشب الأرز الوارد من موانئ شرق البحر المتوسط، ومكفّنة بالذهب الحقيقي (المستخرج) من الصحاري والذهب الخالص وكافة أنواع الأحجار الكريمة الجميلة... وحُفرت بحيرة وزرعت الأشجار (من حولها)، وصارت متألقة بفضل كل الخلاصات النفيسة المختارة من بين (خلاصات) بلد الإله^(٧٣).

وجُهِّز المعبد بالآثاث اللازم ومختلف الأواني من ذهب وفضة. كما سيطلق عليه اسم «بيت نب ماعت رع الذي اتحد (بالإله) پتاح».

وفي سياق بقية النص البالغ الطول، فيغطي التمثال بأكمله، عُقدت صفقة بين الملك ومشرفه العام. فسوف يقدم الملك إلى هذا الأخير، عطاءً يتكون من أراضٍ مجموعها ٥.٤٣٠ أكر^(٧٤) وعدد من الخدم: ليس فقط اعترافاً بجميل أمنهوتيپ لخدماته الصادقة المخلصة ولكن ليوفر أيضاً، لهذا الأخير خدمة تقديم القرابين اليومية التي ستوضع على مائدة قرابين پتاح «ليأخذ منها كفايته»، ثم تنقل أمام تمثال أمنهوتيپ الثالث في معبده الجديد، لتؤول في آخر المطاف إلى المشرف العام العظيم، هذا الضرب من الصفقات، لا يعتبر حالة فريدة في بابها^(٧٥)، فيجد فيها كل فرد منفعة خاصة. هكذا سوف تتكون هذه الخدمة اليومية من: «مئتي رغيف خبز من مختلف الأنواع، وعشر جرار جعة، وفخذه من كل ثور من الثيران التي نُبِحت في المعبد، وجرة نبيذ وإبريق لبن ورغيفين من الخبز الأبيض، وعدد كبير من الطيور، وست ضمّات من الخضروات^(٧٦)». هكذا يجد الإله والملك والمشرف العام، ما يكفي لإشباع شهيتهم النهماء!

سوف يشغل الإبن منصب أبيه عند وفاته. فعلى جرة نبيذ عُثِرَ عليها في ملقطة، يعود تاريخها إلى العام ٣١ من عهد الملك، نجد أن إيبني ابن أمنهوتيپ قد أصبح «المشرف العام في منف»^(٧٧). ويتجلى برّه بالوالدين وحبّه المرفه لهما، في مدونة اللوح الحجري الذي يحتفظ به متحف فلورنسا Florence، في الوقت الراهن:

(*) (الأكر الواحد يساوي ٤٠٤٦ متراً مربعاً. (الترجم)

فلتنتفتح السماء من أجلك، فلتنتفتح الأرض من أجلك، فلتنتفتح الطريق فى الجبابة، من أجلك. ليتك تخرج وتدخل مع رع، ليتك تسير بخطوات واسعة، مثلك مثل ملاك الزمن الأبدى، ليتك تستحوذ على أرغفة خبر القرايين الطاهرة التى يعطيك بتاح إياما، على المائدة. ليت ياك (تدوم) حياته و(تظل) عضلاتك قوية. وليكن وجهك منالفاً فى طريق الظلمات. سيهبك حصى الماء ونهرى^(٧٧) الخبز، وتعطيك حثحور الجعة والبقرة الإلهية اللبن. سوف تغسل قدميك على كتلة من الفضة، بجوار نبع من الفيروز. سوف تُعطى أربعة أرغفة فى بوزيريس^(*) وثمانية فى أبيبوس واثنى عشر فى بلدة بيكر^(٧٨) وجرة (جعة) فى معبد الشمس.

من أجل الأوزيريس، الكاتب الملكى، المشرف العام العظيم فى منف، أمنهوتب،
الصادق - القول.

من قبل ابنه، الذى يعبد الحياة إلى اسمه، الكاتب الملكى، المشرف العام العظيم فى إقليم الجدار - الأبيض، إيبى، الصادق - القول، بجوار الإله الكبير^(٧٩).

كان أمن إم حات المدعو سورارا، ينحدر من أسرة من أبناء طيبة. كان والده المشرف العام على قطمان آمون. أما هو فكان المشرف العام العظيم للملك، كما شغل عدداً من المناصب الدنيوية فى الكرنك. ومن ناحية أخرى، كان أول أخويه، الخادم الثانى للإلهة نيت أما أخوه الثانى فكان الخادم ذا اليدين الطاهرتين لذات الإلهة. وكانت والدته تتمتع برعاية البلاط وانعاماته، وتحمل لقباً شرفياً هو «زينة الملك».

ويبدو أن هذا الشخص كان مخلصاً وفياً للعاهل الملكى. إن التمثالين اللذين يصوران ممسكاً بلوح حجرى ويمتفظ متحف اللوفر بأحدهما والمتحف البريطانى بالآخر، دوتت عليهما صلوات لصالح الملك:

التحية لك، أيا آمون - رع، رب السماء وسيد الأرض وملك الآلهة. ليتك تُعطى

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم جنو، أبو صير بنا حالياً. فى وسط الدلتا. (المترجم)

زمن حياة رع وعرشه على الأرض، الملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع.
ليتك تمنح أعياداً يوبيلية عديدة وعظيمة إلى ابن رع: أمنحوتب، حاكم طيبة^(٨٠).

ومع ذلك، يبدو أنه فقد حظوته قرب نهاية عهد أمنحوتب الثالث، وحلّ محله في
منصب المشرف العام العظيم للملك، أمنحوتب الذي كان المشرف العام على أملاك
متف.

هكذا، فإن المقبرة التي أعدت من أجل أمن إم حات المدعو سورارا، وهي
المقبرة رقم ٤٨ في جبانة الخوخة، قد شوّهت مرتين متتاليتين: الأولى عندما فقد
حظوته والثانية في وقت لاحق، إبان الإضطهادات التي شهدها مصر، في عصر
أمنحوتب الرابع. ومع ذلك فقد كان تخطيطها الأصلي يوحى بالعظمة، إن ستة
وسبعين عموداً كانت ترفع السقف. وظلت بعض النقوش محتفظة برقتها وبقوتها، كما
كان حالها في الزمن الماضي. ويُصور أحدها رثن - وقت إلهة الحصاد، وقد جلس في
حجرها مولود تقوم بإرضاعه، كان يمثل في المعتاد إله القمح نهرى، ولكن في هذا
النقش الذي يعنينا، صُوّر أمنحوتب الثالث ذاته، وقد اندمج في الإله واهب الغذاء^(٨١).
هكذا أصبح فكر البشر، لا يفرق بين الملك وإله القمح. إن موضوع العامل الملكي
واهب الوفرة والخيرات، سلتقى به على نطاق واسع في أيديولوجية الرعامسة^(٨٢).

وفي المساسيف، وهو سهل مقطعه الوهاد، تحدّه ناحية الجنوب تلال الشيع
عبدالقوة، نتعرف على المقبرة رقم ١٩٢ الثاسعة لصاحبها خرو إف الذي كان
المشرف العام على أملاك الزوجة الملكية العظيمة تبي، وكانت أسرار الملك والصديق
الأوحد وعصا الشعب.

أكان ينحدر أصلاً من هرموبوليس؟ فقد نحتت على تمثاله الذي يحتفظ به
متحف برلين، غي الوقت الراهن، ترانيم إلى تحو، إله هذه المدينة.

ففي اتجاهين متولّذين، يلتزمان بأسلوب منمّق تقرأ على قاعدة التمثال:

• على اليمين:

الآلهة في السماء، تُجزل من التهليل. ويؤدى كل إله وكل إلهة، شعيرة العبادة من أجل تحوت، عند مشاهدته، على متن قاربه الكبير، بينما ماعت قائمة أمامه في سلام. وبالمثل يسعى الكاتب الملكى خرو إف إلى إرضائه قائلاً: «أنا قادم إليك، أيها الإله العظيم، أيا تحوت، يا حامى آبائه، إنى أعبد جلالتك. انصت إلى ندائى. إنك تسعد قلبى عندما أرى جبالك».

• على اليسار:

الشعب على الأرض، يُجزل من التهليل، عندما يرى تحوت، ملك الحقيقة والعدالة. وتطلق الآلهة والآلهات الصيحات وتفتبط، بعد أن حقق بفضلها واجبه نحو من يعبد، إنه المشرف العام خرو إف، الصادق - القول، الكاتب الملكى، المشرف العام خرو إف الذى يقول: «إنى قادم إليك، أيها الثور (القائم) فى النجوم، إن تألك النورانى على الأرض وأشعنتك تنير القطرين.

من قبل الكاتب الملكى خرو إف.

ونقرأ على اللوح الحجرى الذى يقدمه خرو إف:

يقوم الكاتب الملكى، المشرف العام، خرو إف بالتعبّد إلى تحوت، قائلاً: «التحية لك، يا سيد الكلمات الإلهية، المهيمن على الأسرار الموجودة فى السماء والأرض، الإله العظيم للأزمنة الأولى، أيها الأقدم الأصلي الذى يسمح بكتابة الكلمات، «ويعيد الإخضرار» إلى المنازل ويشيد القصور، ويسمح للآلهة بالوقوف على ما يخصها، (وأن تتعرف) جميع المهن على واجباتها، والبلاد على حدودها والمقول أيضاً».

من قبل الكاتب الملكى، المشرف العام، خرو إف، الصادق - القول^(٨٢).

كان من أبناء طيبة، وإن ظل مع ذلك مرتبطاً بإله طقوته.

لا نعرف سوى النذر القليل عن حياته. إنما تشهد نقوش مقبرته، بأسلوبها الكامل، على علاقته الويدة بالزوجين الملكيين. ففي القسم الجنوبي، من الجدار

الغربي، من الفناء الكبير صُوِّر داخل مقصورة، الملك أمنحوتب الثالث، في زى أعياد اليوبيل وإلى جانبه الإلهة حتحور والملكة تى التى صُوِّرت واقفة، بينما العامل الملكى والإلهة جالسين. ففي الأزمنة الغابرة، فى عهد من كلورع، حول عام ٢٥٠٠ ق.م، ولما كانت التماثيل الثلاثية حامية مصر، تدمج الملك فى الإله - الآب، فتجتمع بين صور العامل الملكى وحتحور، الإلهة - الأم، والكيان الإلهى للإقليم، فإن الملكة تى فى الحالة التى نحن بصدددها، تقوم إذا صَحَّ التعبير، بدور الإلهة - الإبنة، بجوار الزوجين الإلهيين. ونلاحظ التمجيد نفسه للملكة، فى النقوش المنحوتة فى القسم الشمالى، من هذا الجدار الغربى ذاته، من الفناء الكبير لمقبرة خرو إاف: فداخل مقصورة مماثلة، يتربع الزوجان الملكيان على العرش. ويقدم لهما المشرف العام للملكة، القلادات الفاخرة وكأساً منقوشة. إن مقعد تى مزدان على نحو بالغ الغرابة والرمزية: فعلى المتاكين صُوِّر أسد يدوس الأعداء. وتحت المقعد ربطت الأسيرات الآسيويات، ظهراً لظهر، ودوَّنت على القاعدة أسماء تسع مدن تم فتحها. إنه إنعكاس تصويرى بشكل أصغر وأبسط لانتصارات فرعون على الأقواس التسعة ولقائمة الأسرى. وتشارك تى على أكمل وجه، فى الأيديولوجيا الملكية، وقد صُوِّرت مدمجة فى الكيانات الإلهية ومنتصرة على الأعداء، شأنها شأن الملك. لقد كانت بكل تأكيد ملكة واسعة النفوذ، فأراد خرو إافه، والمشرف العام الأمين، القائم على خدمتها، أن يخصها بكل مظاهر الإجلال والتكريم.

إن مر إن پتاح، ابن الوزير تهوتمس، كان المشرف العام على أملاك معبد أمنحوتب الثالث الجنازى. إن لوحاً حجرياً يحتفظ به متحف مدينة لينن، يشهد على قرابته ويعلم الأمانى الجنازية المعتادة^(٨٤).

الحقول وشؤون الغلال

ازدهر الاقتصاد، فى هذه الأزمنة التى ساد فيها السلام. إن الفلاحة وتربية الحيوانات الداجنة، مصدران رئيسيان لثراء مصر.

وفى عهد تحوتمس الرابع استطاع الكاتب منفاً، أن يجمع بين وظيفتى المشرف العام على حقول العاهل الملكى والمشرف العام على حقول آمون. إنه يمتلك فى الوقت الراهن المقبرة رقم ٦٩ التى ما زالت فى حالة جيدة من الحفظ، تقوق من بعيد غيرها من مقابر الشيخ عبدالقوتة. وتقدم الرسومات وصفاً مختلف لحظات الأعمال الزراعية، بقدر كبير من البراعة والطرافة والفكاهة. فتتعاقب لوحات الحصاد وتحرير حسابات المحاصيل والحبوب ومسح الأراضى. وهيئة الفتيات جميلة أو مرحة، وتتفق مع النوق السائد فى هذا العصر، فالوجه له ملامح رقيقة، ويكاد يختفى من كثرة الحلى النفيسة، من عصابت رأس وأقراط من ذهب، كما يقدم محاصيل وفيرة من الزهور، ومن الآن نجد أن لوحات صغيرة تحتل الفراغات التى خلفتها التكوينات التصويرية الكبيرة، فتتشكل مشاهد عائلية، لأنها أكثر إنسانية: فنرى على سبيل المثال، زوجة عامل زراعى وقد حملت طفلها، ورياً على صدرها، بينما يداعب تقصيبات شعر والدته، كما تقدم لزوجها وجبة الغذاء، وهى عبارة عن عنقود من العنب المسكى. كما نرى حاصدة سنابل، تحاول استخراج شوكة من قدم إحدى زميلاتهما. إنها رسومات بسيطة ولكنها بارعة فى الحقيقة، فتعبر الخطوط بإيحاءاتها الثاقبة عن عاطفة عميقة: ففي ساعات النهار التى تشد أثناء حرارة الجو، يستريح فلاحان فى ظل شجرة جميل. وقد أسند أحدهما ظهره المستقيم على الجذع المستقيم لشجرة، وهو يعزف على الناي عزفاً بطيئاً. أما الآخر فقد أحنى ظهره، وغفا، واضعاً رأسه على ركبتيه، ويميل عليه غصن من أغصان الشجرة وكفنه يحميه. إن هذا التشابك البسيط للخطوط، يعبر تعبيراً صادقاً عن الرابطة التى تجمع هؤلاء البشر البسطاء بالطبيعة الصديقة. جميع هذه المشاهد بالألوان، والغلبة للأصفر الذهبى، تأكيداً بصرياً على الوجود الدافئ للجرم السماوى المنير.

ونعرف رجلاً آخر، كان يعمل فى مجال الحقول، إنه جسر كارع سنب، إن هذا الاسم ومعناه «ليت جسر كارع - أى أمنحوتب الأول - يكون مزدهراً»، يقف شاهداً على أنه كان بلا شك، من الأوفياء المخلصين للشعائر التى تقام من أجل الملك^(٨٥). كان كاتب الحبوب فى شونة قرايين الإله آمون والمعابد التابعة لها والمشرف العام على

الخدم الثاني للإله آمون. إن مقبرته رقم ٢٨ فى الشيخ عبدالقونة تلفت النظر برقبتها المرفهة وجمال ألوان رسوماتها. إن مشهداً يُصور وليمة ووقائع إحتفالية، يعتبر إنعكاساً صادقاً لنعموة العيش التى تمتع بها أبناء هذا الزمن^(٨٦)؛ وفى وسط هذا التكوين وعلى اليسار، نشاهد چسر كارع سنبه جالساً على مقعد بسيط، أمام مائدة زاخرة بما لذ وطاب، ويتلقى عقداً نفيساً من ابنتيه بقدهما المشوق، وقد تزينا بالحلى. وفى مكان الصدارة، أى فى الصف الأئنى إذن، يبادر الخدم بإحضار منتجات الأملاك، فى حين يجلس المدعوون على مقاعد منخفضة. إن أحدهم، وبمساعدة جاره الذى يسنده ويربّت على ظهره، يتقى جانب من وجبته التى كانت وافرة أكثر من اللازم، على ما يظن. فعالباً ما تختلط الواقعية بالفكاهة. وفى المستوى الثانى أى فى الصف الأوسط، تصدح الموسيقى وتتمايل الراقصات، إحياءً للعيد. إن راقصة صغيرة السن، عارية تماماً، ودون سن البلوغ، تحيط بها من جهة، فتاة تعزف بالجنك وأخرى بالعود، ومن جهة أخرى، فتاة تعزف بالزمار وأخرى بالكثارة. إن القوام الجامد المشوق للموسيقيتين المائلتين عند الطرفين يتعارض مع الخطوط المتموجة للراقصة والموسيقيتين الأخرين المجاورتين لها، فتبدوان كما لو أن إيقاع الرقص قد شدّهما شداً. إن ثلاث لهتيات ينظمن هذا الإيقاع، فيصفقن بأيديهن وينشدن قائلات:

أيها اليوم السعيد! إننا نحى نكرى جمال آمون، فى متعة القلب، ونقدم مدائح ترتفع إلى السماء نحو وجهه. ويعلن كل امرئ: «إننا نتطلع إلى رؤيته». الفعل إذن على هذا النحو، يا كيال حبوب آمون، على مرّ الأيام^(٨٧).

وفى المستوى الثالث، أى فى الصف العلوى، يقوم الخدم بوجوههم البشوشة على خدمة جميلات المأدبة. إن رقة ملابسهن الكتانية وجواهرهن النفيسة يتموج بريقها بألوانها المختلفة.

أما خع إم حات فكان من كبار الشخصيات فى عهد أمحتوت الثالث، وشغل منصب المشرف العام على الشونة المزوجة لمصر العليا ومصر السفلى، فكان وزيراً

للزراعة، بكل معنى الكلمة. وقد صَوَّرَ نفسه في مقبرته، وهو يرفع حساباته إلى العاهل الملكى، بينما أُتِيَ بالماشية.

إن مقبرته رقم ٥٧ فى الشيخ عبدالقوة، محفورة فى مؤخرة فناء يضم غيرها من الدفنات التى تعود إلى العصر نفسه. ففى هذا الزمن، كان الموقع المفضل على البر الغربى، مقتطاً بما يضمه من مقابر.

وفى الجدار الغربى من الحجرة الثانية، وهى الحجرة الطويلة حفرت كوة تضم ستة تماثيل، موزعة على ثلاث مجموعات، تضم كل واحدة منها تماثيل: تمثالى خع إم حات وزوجته تى، وتمثالى أبيها إيمحوتب، من كبار الموظفين والمشرف العام على بيت الذهب وبيت الفضة ووالدته، ثم تمثالى والديه. هكذا كان فى وسع الجميع أن يستفيدوا من الخدمة الجنائزية المقدمة له ويشاركوه الإقامة فى بيته، «بيت الأبدية».

كان خع إم حات رجلاً مثقفاً وعالمًا. وإذا كانت أولى حجرات مقبرته، وهى المقصورة الجنائزية، تزدان بمشاهد مألوفة من حياة المتوفى، وأن النصوص الدينية مطابقة للمدونات الشائعة، ومكتوبة فى لغة سلسلة جميلة، ففى الحجرة الثانية التى تليها، وهى الحجرة المستطيلة، أمر خع إم حات بنقش مشاهد صوفية سرية، يظل معناها العميق، خافياً على إدراكنا، إنها تُصوِّرُ طقوساً جنائزيةً ووصفاً للعالم الآخر. كما يُوْنُ نصاً غريباً بأسلوب مستغلق، يعتقد أنه كان يثير فضول زوار المقبرة ويختبر رجاحة عقولهم والمعتهم^(٨٨).

وعلى القسم الأيمن من الباب الذى يصل الحجرة الأولى بالحجرة الثانية، نحت على كل حال، نداءً موجهاً إلى هؤلاء الزوار:

النبيل والأمير، الكبير بوظيفته فى القصر الملكى، رئيس أسرار الشئون، فُطِمْئَن (حرفياً: يغسل) قلب العورس بفضل الحقيقة، المستشار السرى يوم تقدير الضرائب، الكاتب الملكى، أثير سيده، المشرف العام على الشؤون المزبوجة لسيد الأرضين، إنه خع إم حات، الصابق - القول، إنه يوجه كلامه إلى البشر الذين سيأتون إلى الدنيا، ويوجدون على سطح الأرض، كباراً أو صغاراً، على حدّ سواء.

أنتم، يا أيها الكتبة الذين «تفككون» اللغة المكتوبة، وتفهمون الكلمات الإلهية (الكتابة الهيروغليفية)، أنتم يا أصحاب القلوب التي تسعد عند النفاذ إلى المعرفة، وترضون بالأفعال المفيدة، فعندما تعبرون أمام هذا الأثر المهيّب الذي شيدته ليصبح مرقداً، من أجل الأبرار (أفراد العائلة التي صورت تماثيلهم في الكوة الغربية)، أنتم يا من ستشاهدون جدرانى وتنطقون بصوت عالٍ كلماتى (المدونة)، عندئذ سيمتدحكم ملك مصر العليا، ويحبكم ملك مصر السفلى، وتنقلون فى سلام إلى وضع المبجل، بلا خوف دون إحساس بالفرح. وعلى مدار كل يوم من الأيام، سوف تتحدون مع الفرح ومتعة القلب. وآلهة مدنكم، سوف تستجيب لكل طلباتكم، بقدر قيامكم بوضع ذكرائى إلى جانب (ذكرى) الحورس الكامل، وتنطقون اسمى بسبب ما فعلته.

تهجّوا أيضاً (علامات = حروف) تعويذة القرابين الملكية من أجل آمون وأتوم وحور أختى وبتاح - سوكر وأوزيريس وأنوبيس ومعبدى الشمال والجنوب، لصالح كا، كاتم أسرار الإله الكامل، والكاتب الملكى والمشرف العام على الشونة المزوجة لرب الأرضين، فى مصر العليا ومصر السفلى، إنه خع إم حات، الصديق - القول... الرجل البارع الماهر، القوى الشكيمة، الحكيم فى الحق، الفطن والكيس والمجامل، صانع الأفعال المفعمة بالبركات. كان (الشخص) الذى يشعل المجرمة، من أجل الآلهة جمعاء التى يعرف أسمائها (فكان يتمتع بالتالى بسلطان عظيم)، ليضع عليها القرابين المكونة من كل ما هو طيب وطاهر. كان يُطعم الأبرار ويؤدى شعيرة سكب الماء الطهور، من أجل القائمين فى العالم الآخر. كان فمه ممتلئاً (بعبارات): مرحباً! مرحباً! «الخبز والجمعة!»، من أجل البشر أجمعين. كان يقوم بتقديم ماعت إلى الملك وفروض الشكر والحمد للحورس، سيد القصر. إن الإشارة إلى اسمه فى أجنحة الإقامة الفاخرة، كان بمثابة (الإشارة إلى اسم) رجل مفيد، صاحب قلب مستقيم وعقل منصف.

عندما هبط الكاتب الملكى، المشرف العام على الشونة المزوجة - (عندما هبط) خع إم حات الذائع الصيت إلى الجبانة، كان ظافراً منتصراً على الأرض.. لم يحدث آنذاك، أن وجهت إليه إتهامات، ولم يُخاطب من جانب [الأصدقاء] الوحيديين بأحابيث تدينه. وعندما وصل إلى القاعة الكبرى - قاعة الحقيقتين (قاعة محكمة أوزيريس)،

وُجِدَتْ كل أفعاله مستقيمة (عند وضعها) على الميزان، في حضرة الآلهة القائمة فيها.
وأقرّ تحوت بأنه صادق - القول، في محكمة جميع الآلهة والالهات. فحيّوه إذن،
ومجّبوا شمانله.

النص مرصّع ببعض الكتابات الرمزية. يلي ذلك نداء إلى الشمس والقمر.

أيا آتون المجيد، يا سيد النور، أنت الذي يتألق في الأفق، أيها الشمس
الملكى^(٩) ليكن تظل متألّقا (أيضاً) في وجه الكاتب الملكى... خع إم هات. إنه يتعبّد
(إليك) منذ مطلع الفجر، ويرضيك أيضاً بحلول المساء. وهكذا، فليكن تمكّن كا الكاتب
الملكى... إن خع إم هات الذائع الصيت، يصعد معك إلى السماء. فليبحر على متن
سفينة المساء، ما أن يهبّط من سفينة النهار، وليختلط بالنجوم التي لا تكلّ وبالنجوم
الأخرى في السماء.

أيها القمر في هيئته بدرًا، ليتنى ألتقى ضياك، ليكن تنير وجه الكاتب الملكى...
خع إم هات. إنه يتأمل جمالك ويتهلل فرحاً بسبكك، إنه يبجل أشعك^(٨٩).

رجال تحت السلاح

تقلّص دور الجيش في عهد تحوتمس الرابع وعهد أمنحوتب الثالث، تحديداً.
واختفى كبار ضباط الإمبراطورية. ومع ذلك، يظهر بعض كبار الشخصيات، كشفت
عنهم الصدفة، أثناء أعمال التنقيب في الجبانات.

إن المقبرة رقم ٩٠ المهيبة، رأت النور في الشيخ عبدالقرنة. وتضمّ صفةً واثنى
عشر عموداً منحوتة في صخر الجبل ذاته. إنها مقبرة نب أمون، حامل البيرق وقائد
المركب «محبوب أمون»، ثم ضابط الشرطة في غرب طيبة. كانت له زوجتان، وتي هي
الأقدم. فهل اقترن من اثنتين في آن واحد، أو تزوج مرتين، على التوالي؟ وفي حالته
هذه، كما في غيرها من الحالات العديدة، من الصعوبة بمكان الوصول إلى قول فصل.

(*) لأن كلمة شمس لفظ مذكر في اللغة المصرية وليستقيم المعنى، أبقيت في المذكر كل الكلمات
التي تشير في هذه الفقرة إلى الشمس. (المترجم)

إذ تظهر الزوجتان، سواء كان قد تزوجهما في آن واحد، أو على التوالي، بلا أى تمييز بينهما فى مشاهد المقابر.

ظل نب آمون يقدم خدماته فى عهدى تحوتمس الرابع وأمنحوتب الثالث.

وما زالت جدران مقبرته، تحتفظ بنص المرسوم الملكى بترقيته:

العام السادس. مرسوم صابر، فى هذا اليوم، من جلالة هذا القصر^(٩٠)، من أجل الأمير، قائد سفن مصر العليا ومصر السفلى. يقول هذا المرسوم:

أمر جلالتي بإعداد شيخوخة سعيدة بالهبات المقدمة لأحد خلصاء الملك المقربين، تنويجاً للوضع الإجتماعى لحامل البيرق نب - آمون، الملحق بالركب الملكى «محبوب - آمون». وبالفعل فقد أصبح طاعناً فى السنّ، وهو فى معية فرعون، ملتزماً باستقامة قلبه. كانت سعادته تزداد كل يوم، فى انجاز الأوامر الصادرة إليه. لم يتهم أحداً، ولم أكتشف عن خطأ واحد ارتكبه، حتى إذا وشى به (٩) أحياناً. وإذا، فقد أمر جلالتي بأن يُسند إليه من الآن، منصب رئيس المهاجى فى غرب المدينة^(٩٠)... إلى أن يبلغ وضعه المبجل. وفى الوقت نفسه، فليتصرف الجميع لتوفير احتياجات أهل بيته وماشيته وحقوقه وخدمه وكل أملاكه على الماء وعلى الأرض، بون أى تدخل ضدهم، من جانب مراقب من مراقبى الملك، (أى أن أملاك نب آمون كانت معفاة من الضرائب). إنه حامل - بيرق المركب «محبوب - آمون»، المحارب القديم فى الجيش، نب آمون، صادق - القول^(٩٠).

وعلى جانب من جوانب المقبرة، يمكن أيضاً مشاهدة رسم يمثل بيته فى زمن الحياة^(٩١)، وقد صُوّر طبقاً لمبادئ الرسم المصرى، التى تُكثر من عدم التطابق الذى يساعد على رؤية كل شىء. ويستخدم فى هذا المقام تعديداً، عدم التطابق الرأسى. إن باباً بدعامتين من خشب، صُوّر على يسار المبنى، ومن خلاله، كان من الممكن الولوج، إلى قاعة الإستقبال التى تحمل سقفها أعمدة صغيرة ذات تيجان نباتية. كانت

(*) (كما نقول فى أيامنا هذه: البيت الأبيض أو الإليزيه... (الترجم)

(**) نيت بالمصرية القديمة وهى من أسماء طيبة. (الترجم)

إضاعتها تعتمد على شباكين، في وسط القاعة، وقد وزَّعا توزيعاً سليماً على الجدار السميك الذي يحمي من حرارة الجو. وعلى سطح البيت يلاحظ وجود منتجات مخروطية الشكل لإستقبال الريح وهو ما يعرف بالملقف. ومع تزايد عدم التطابق الرأسى، يلاحظ وجود الأشجار التى كانت قائمة فى واقع الأمر خلف البيت، ولكنها تبدو هنا، فى وضع غريب، وكأنها تطل علينا من فوق سطح البيت. وهى عبارة عن أشجار النخيل والتين.

إن جزءاً من رسم جدارى، وهو من مقتنيات المتحف البريطانى، فى الوقت الراهن، يشهد على نحو خاص، على جمال الأسلوب الكلاسيكى الذى تلتزم به هذه المقبرة^(٩٢) والحسّ المرفى الذى تمتع به الفنان المصرى. ويتعلق الأمر بعنصر من مشهد مزدوج، يواجه أحدهما الآخر، يصور صيداً برياً وصيداً نهرياً، وهو موضوع شائع: هنا، نجد نب آمون، على متن زورق مصنوع من مادة خفيفة، فى صحبة زوجته وأولاده، ويصوب عصا الرماية، فى اتجاه العصافير التى تعشش داخل تويجات أزهار نبات البردى. إن تعارض الخطوط المنمقة واضح كل الوضوح. فنجد من جهة، عالم البشر، بخطوط الصياد الرأسية العالية ويساعديه الممدودين أفقياً، بما تبذله من جهد، والخط المستقيم والموازى للمرأة وهى تحمل باقة زهور مركبة تركيباً بارعاً؛ إنه عالم منظم ومتوازن، يجد تعبيره فى هذه الخطوط الواضحة البسيطة. ونجد فى المقابل، أن عالمى الحيوان والنبات عالم برى، ويتميل سيقان نبات البردى، وكأنها تحت تأثير ربح عاتية، فتطير العصافير فى مختلف الإتجاهات، ونشاهد قطعاً برياً ضخماً، فى حركة إلتوائية غريبة وهو يحاول قضم جناح طائر. كما أن تصادم الألوان أكثر عنفاً؛ إنه عالم من الفوضى، مشوش ومضطرب يتعارض مع عالم البشر. ويستطيع الرسّام المصرى، بتلاعبه بالخطوط وتباين الألوان، أن يعبر عن تكوين العالم.

كما تروى رسومات المقبرة أعباء قائد الشرطة الرسمية والروتينية. هكذا نشاهد «تقرير المساء»: فيجلس نب آمون فى ظل شجرة جميعز، ممسكاً بيده اليمنى فرع شجرة، ويستقبل ثلاثة رجال. يحمل أولهم سهماً، أما الآخران فمسلحان بالعصى. ويعلن الرجل الأول: «النظام يعمّ منطقة الجنوب و[منطقة الشمال]». ويعلن الآخران: «الموقع (?) سليم وكل شىء فى نظام»^(٩٣).

إن تأمين حسن أداء شرطة مدينة طيبة العظيمة، كان يفترض الكثير من هذه الواجبات اليومية.

أما هور إم حب، النبيل والأمير، حامل المروحة عن يمين الملك وكاتب المجندين الجدد، ثم مدير كتبة الجيش أجمعين، والمشرف العام على الإسطبلات الملكية، والمشرف العام أيضاً على العقول والماشية وأشغال أمون، والمشرف العام على كهنة مصر العليا ومصر السفلى^(٩٤)، فكان من بين أفراد حاشية الملك الذين جمعوا بين العديد من المناصب الإدارية. وظل في خدمة ملكين، بدءاً من تحوتمس الرابع وحتى أمنحوتب الثالث، كان في الأساس من رجال الجيش، فرافق تحوتمس الرابع إبان حملته على النوبة. وتشهد على ذلك، المخريشات التي عُثر عليها في كونسو. وتحتفظ مقبرته رقم ٧٨، في الشيخ عبدالقرفة، برسومات توضح بالتفصيل عمليات التجنيد العسكري، على امتداد سلسلة من الصفوف. وهي على كل حال مقبرة تتميز بجمال زخارفها. ويبدو أن فنانين على الأقل، قد ساهموا في تنفيذ رسوماتها، فالفارق واضح بين نمطين مختلفين، والميل إلى الطبيعة بين جلي: سواء في طريقة المعالجة المحسوسة لتحليق الطيور بأجنحتها المفردة على اتساعها، فوق الأجمات أو في المعالجة المفعمة بالإنفعالات والطرافة، لهذه الجرادة الخضراء الرائعة، بعينيها الجاحظتين وقد تعلقت بتويج زهرة.

ويا لها من صلاة محرقة للمشاعر، تلك التي صاغها هور إم حب، حتى لا تتوقف الحياة، إنها اشتياق قوى إلى العيش في حرية:

حقاً، فأننا إنسان، يظل قلبه بجوار الله. إن قلبي مزدهر، إن فمي مزدهر، إن يديّ مزدهرتان. ليت قلوبكم تكون مزدهرة، أنتم يا مالكي الزمن الأبدى، أيتها الكائنات النورانية، المفعمة بالبركة في الجبابة. انظروا، أنا قادم من بلد الأحياء هذا، لأبقى معكم في الأرض المقدسة. أنا وحيد بينكم. ما أمقت الكذب عندي. لقد أتيت على الدرب الجميل للإنسان ذي القلب المستقيم، حتى أنشط وأنعش كل جسدي. ليت يائي

يعود إلى الحياة، ليتنى أكون إلهياً، عظيماً ونورانياً...

أيتها الآلهة القائمة فى السماء، والآلهة القائمة فى الأرض، والآلهة القائمة فى النوات، أيتها الآلهة، يا سادة الجولات والترحال، التى تسيّر سفينة ربح، وتقود الإله العظيم إلى أفقه، رتّبوا كلماتى إلى سيد الأبدية، بصفتها صلاة خادم إلى سيده. ليتنى يتبع لى الرقاد، فى مكان الزمن الأبدى، فى مفارقة الزمن اللانهائى^(٩٥).

وكرجع الصدى لصلاة الحياة هذه، تنشد الموسيقىتان هذه الأغاني:

من أجل كائنك. اقض يوماً سعيداً فى بيتك الجميل - بيت الزمن الأبدى، فى مكانك للزمن اللانهائى. فلتحتفظ فى يدك بألة جنك، جميلة للنظر إليها وكاملة. ضم باقات الزهور التى لا تذبل. امسح جسدك بأفضل الزيوت. لا تتوقف عن قضاء يوم سعيد، فيبقى قلبك فى متعة وصدرك فى فرح. سوف تشاهد آمون. وسوف يسمح بأن تبقى وسط البشر المبهجلين فى بلد الأحياء... سوف تشرب من كأس من ذهب^(٩٦).

وأغلب الظن، أن حور إم حب كان من خلصاء تحوتمس الرابع الحميمين. وقد صُوّر فى محبة والدته، السيدة إيزيس، وأقعد على ركبتيه «الإبنة الملكية أمن إم أويت». ومع ذلك، ليس فى وسعنا أن نقف على أصول وطبيعة العلاقات التى كانت تربطه بالعائلة المالكة.

عالم فلكى فى خدمة آمون

إذا كنّا نذكر فى هذا الصدد، نخت - أى: «القوى» - الذى عاش فى عهد تحوتمس الرابع، فليس لأنه يكشف أسرار فنه، ولكن بكل بساطة لأن مقبرته رقم ٥٢ فى جبانة طيبة، إلى جانب مقبرة منثا، هى الأفضل حفظاً من بين سائر مقابر الجبانة، وتقع عند أدنى المنحدرات الشرقية من الشيخ عبدالقوة. إن المجرة الأولى فقط مزخرفة. وقد احتفظت رسوماتها بدقتها المرمقة ونضارتها. وعولجت المواضيع المألوفة معالجة كلها طرافة ورقة الشاعر. فيجلس نخت داخل مقصورة مصنوعة من مواد خفيفة وغطاء نباتى، ليشاهد أعمال الحقول: ففى السهل الذى ترويه ترعة صغيرة، بفضل تعرجاتها، يدفع الفلاحون أمامهم محراثين تجرهما الأبقار. وعلى

مسافة قريبة، نشاهد فلاحين آخرين وهما يحطمان قشرة الطمي التي تصلبت بسبب حرارة الجو، حتى يستطيع البائر الذي يتبعهما أن ينثر حبيوه. وفيما وراء التربة أيضاً، يقوم الفلاحون بالمزق والبذر وقضب شجرة. وبعد ذلك، سيحل موسم الحصاد. ويوضح المتن: «الترويح عن القلب في أعمال الحقول».

إن نخت، شأته شأن العديد من كبراء الدولة، كان يمتلك أيضاً أراضى في الشمال، في الدلتا ولا سيما مزارع الكروم. كما أن «الترويح عن القلب عند رؤية إسهامات حقول مصر السفلى»، ينظر إليه كمشهد أبدي، ويقوم الكرامون بقطع العنب وسط الأغاني وتبادل المزاح.

فإلى أبد الآباد، تظل رحلات القنص والصيد النهري والولائم والأغاني والرقصات، تروح أيضاً عن قلب نخت وزوجته تالوي، منشدة أمون.

إن تمثالاً يصور نخت ممسكاً بلوح حجري، نُوتت عليه الترنيمة الشمسية المألوفة في هذا الطراز من المعالم الأثرية، كان في انتظاره مصير مؤسف. فقد تقرر نقله إلى متحف نيويورك عام ١٩٣٥، ولكن غرقت السفينة التي كانت تحمله، ومأ زال التمثال إلى وقتنا هذا، قابلاً في مكان ما. في أعماق المحيط الأطلنطي. إنه مصير غريب لم يخطر على بال عالم الفلك الذي كان في خدمة إله الكوكب.

٤- المجتمع:

الواجبات وشغل أوقات الفراغ

جمهور أصحاب المهن

كانت مصر في المقام الأول بلداً زراعياً، يُسهم فيها الفلاح، بالنصيب الأكبر في رفاهية الجميع. كانت الأراضي في مجملها ملكاً للبلاط الملكي والكهنة. ولكن الملكية الصغيرة كانت قائمة، فكان الفلاحون يعيشون، إلى حد ما، عيشة الكفاف، في

حدود ما تغلّه قطعة أرضهم الصغيرة. وفي هذا الصدد، يمكن الرجوع إلى قصة *الفلاح الفصيح* التي تروى مغامرات أحد هؤلاء الفلاحين، قبل سبعة قرون^(٩٧). ولزيادة دخلهم، كانوا يقومون بأعمال السخرة^(٩٨) لحساب الإدارة الملكية أو إدارة المعابد اللتين تقومان بمكافأتهن على مجهودهم وتعويضهم عنه. ويقفلحون الحقول والحدائق الشاسعة. كانت الحبوب من قمح وشعير، إلى جانب الكتان، من الزراعات الأساسية، ويترتب عليها وجود سلسلة طويلة من المهن الصغيرة من خبازين وصنّاع جعة ونسّاجين. وكانوا يقتلعون نبات البردى المنتشر على ضفاف النهر، ويعالجونه المعالجة المناسبة، ليصنعوا منه «الورق» المستخدم في هذا العصر، وذلك بدءاً من الأسرة السادسة أي حوالي ٢٤٠٠ ق.م. وفي الحدائق، كان الكروم ينمو على العريش والكرّامون المرحون يهرسون بتقديمهم الحافية، عناقيد العنب، ذات الحبات السوداء المائلة إلى الزرقاء، والشبيهة بعيني حورس، اللتين أتيا بها إلى الوجود، حسبما تقول الأسطورة، وكل ذلك على إيقاع أغاني الكرامين وتصفيق أياديهم وتصادم الصنوج. ومن خلال فتحة في الحوض كان العصير الغزير يتجمّع في سطل من الطين، ثم تعصر الرواسب الباقية، ويوضع السائل الإلهي^(٩٩) في دنان عالية، وتسدّ سداً محكماً، مع بصمها بختم يوضح جهة المنشأ، ويترك السائل لفترة قد تصل إلى قرنين من الزمن، ليقدّم ويطيب، فيصير خمرًا معتقة.

كما كانت فرق من الرفاق مكلفه بجنى البلح والجميز والرمان والزيتون، اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة، إلى جانب غيرها من الثمار التي كانت تنبت بوفرة وبغزارة.

(*) راجع هامش السفرة، الذي يذيل مقدمة الكتاب. يجدر بنا أن نضيف أن الأجازات في مصر القديمة بمناسبة الأعياد كانت تصل إلى أكثر من ١٠٥ يوماً، في السنة أي بنسبة ٢٩٪ من الأيام. وأغلب الظن أن العمال في مصر القديمة كانوا يتوقفون عن العمل خلال هذه الأيام، وإن كنا ننتقل إلى وثيقة تؤكد ذلك. فهل يظل يتحدث البعض عن سوء معاملة العامل في مصر القديمة وإن خضع لنظام العمل بالسخرة؟

Della Monica. La classe ouvrière sous les pharaons, Librairie d'Amérique et d'Orient, 1980, p.160. (المترجم)

(**) كان أوزيريس «رب النيذ» يتوحد بقوة الحياة ويندمج فيها. (المترجم)

كانت بساتين الخضر، محل عناية فائقة فتُقلّ خضروات جليلة الفائدة كالفول والعدس والحمص والحلبة والخيار والبصل والسلطة المعروفة بالرومانية. ومن أعمال الفلاحة، نذكر أيضاً رعاية بساتين الأزهار، وكان يتولى ربيها عمال البساتين الشديرو البأس، بواسطة دلوين معلقين عند طرفي عصا طويلة ممدودة على كتفي كل واحد منهم. إن الزهور التي تغلها هذه الزراعة نجدُها مرسومة وملونة على أرضية قصر ملقطة أو قصر العمارنة، ومنها المُرير bleuets والأقحوان chrysanthèmes واللفّاح man-dragores والجلبان pois de senteur وزهرة لوتس المستنقعات.

إن تربية الحيوانات في برك نهر النيل، كانت تضم قطعان الأبقار والخراف والماعز والحمير، ولكن أيضاً الظباء أو الضباع، بعد أن جلبت من الصحارى وكانت مصدراً للغذاء. إن رعاة نصف عرايا، كانوا يراقبونها، وهي ترتع في المروج. وفي الفصل الحار، يقتادون قطعان مصر العليا إلى الدلتا، طلباً للعشب.

عرفت المزارع تربية النحل. «كانت المناحل تتكون من أواني فخارية راقدة على بطنها، أو ربما استخدمت أنابيب من البوص جُمعت فيما بينها بواسطة الطين، وظلت هذه الطريقة شائعة في ريف مصر حتى وقت قريب^(٩٨)». كان جمع العسل يتم عن طريق طرد النحل بالدخان، لاستخراج العسل الذي كان يقوم بدور بارز في عملية التغذية^(٩٩)، حيث كان المصريون لا يعرفون السكر. وكانت حظائر الطيور تغمس بالطيور، ويتولى الفلاحون تسميتها بأيديهم: ومنها الأوز الذي كان يطبخ بدهنه ويحفظ، وذلك بخلاف البط والحمائم وأيضاً طائر الكركي وطائر الرهو^(١٠٠).

(*) كما كان يستخدم في صناعة بعض الأدوية والأدمان. راجع:

Della Monico. La classe ouvrière sous les pharaons. Librairie d'Amérique et d'Orient, 1980, p.119 (الترجم)

(**) طائر يشبه الكركي. (الترجم)

هذا العالم من العاملين النشطين، كان يعيش تحت رحمة فيضانات النيل ونظام سليم للرئ، تراقبه الدولة عن كثب بأكبر قدر من الدقة. وتطهير الترع أو توسيعها، يتم تجنيد الفلاحين وفقاً لنظام السخرة^(*).

كانت موارد الأراضي مثقلة بالضرائب، ومع ذلك، كان القانون يفرق بين الأراضي الزراعية وأراضي المراعي، وبين مختلف الحقول حسب مستوى خصوبتها، وبين الممتلكات القديمة وتلك الممتلكة حديثاً. كما أن «الكوارث الطبيعية»، أي الفيضانات المنخفضة، غير الكافية، يترتب عليها، تخفيض الضرائب^(**).

إن تحديد الضرائب وربطها، كان يتطلب القيام بعمليات حصر متكررة للحقول والماشية، كما كان الوضع معقداً، فيندر أن تكون الأراضي التي يمتلكها الشخص الواحد متاخمة، فمالك والمعابد - على حد سواء - ولا سيما معبد الكرنك أو النبلاء، كانوا يملكون، في آن واحد، أراضي في مصر العليا وفي الدلتا. أضف إلى ذلك مشكلة أخرى، لأن الضرائب كانت تُدفع عيناً في شكل حبوب أو مواشى أو أشياء مصنعة متنوعة، فكان لابد بداية من تخزينها في الشئون والحظائر والمخازن الملكية، ثم توزيعها على الجيش وموظفي الحكومة والقصر. فيقع على عاتق كتبة الخزينة مهمة شاقة ومعقدة.

إن قسماً آخر من السكان كان يعمل في المحاجر والمناجم: محاجر مصر ومناجم الذهب في النوبة ومناجم النحاس والفيروز في سيناء، تحديداً.

(*) بعد كل ما قيل عن السخرة في الهوامش السابقة، في المقدمة وفي سياق هذا الفصل، يمكن للقارئ أن ينظر إلى الأمر بموضوعية وحيادية، بعيداً عن التشنجات الفكرية الرافضة رفضاً قاطعاً لوجود هذا النظام في مصر الفرعونية، ويميداً عن الرأي الذي يصرّ على النظر إلى هذا النظام من العمل باعتباره نقطة سوداء في حضارة مصر الفرعونية، التي لم تعرف أبداً المجازر الجماعية التي ارتكبتها الغرب، ففي منتصف القرن العشرين، على سبيل المثال لا الحصر، أباد ٥ مليوناً، من البشر خلال خمس سنوات فقط، هي عمر الحرب العالمية الثانية، والأمثلة غيرها، كثيرة وكثيرة، والإستشهاد بها، يتجاوز حدود هذا الهامش. (المترجم)

(**) هذا النظام الضريبي، من السمات الإيجابية للعدالة الاجتماعية التي قام عليها نظام العمل الأبوى في مصر القديمة. (المترجم)

كما كان يقع الاختيار على فرق العمال لإلحاقهم بكبرى أشغال التشييد والبناء: نذكر منهم قاطعي الأحجار وصنّاع الطوب والبنّائين. فيعملون مقابل أجر ثابت أو يكافؤون أيضاً أحياناً عن فترة عملهم فى «السخرة»^(*).

كما شاعت المهن الصغيرة فى القرى أو البلاط الملكى: كالغسّالين والإسكافيين والحلاقين.

إن تصاوير المقابر ونصوصها - التى تعرّفنا بهذه الشرائع من أبناء مصر، تبين أن كافة المصريين، من سواد الشعب، كانوا يتطلعون إلى استمرار حياتهم بعد الوفاة، فيظلّوا يعملون بجوار سادتهم، فى عالم آخر يشبه الحياة الدنيوية. هذا المعتقد أيضاً، هو الأصل الذى جاءت منه التماثيل الصغيرة التى لا حصر لها، التى يطلق عليها اسم أوشبتي وتأخذ مكانها فى المقبرة، إلى جانب صاحبها، وهى تحمل معرقة ومنكاش، «لتجيب»، إذا نادى عليها السيد، وتواصل فلاحه أراضيه الأبدية، فلاحه سحرية.

وخلافاً لفكرة لم تجد أحياناً صعوبة فى الذبوع، لم يكن أبداً فلاحو مصر وعمالها عبيداً، إن أسرى الحرب فقط كانوا معرضين ليعاوا أو يوهبوا. ومع ذلك فقد كان فى وسعهم أن يتزوجوا وأن يمتكوا بصفتهم شهوداً فى ساحات المحاكم، بل كان فى وسع سادتهم إعتاقهم ليحصلوا على المواطنة المصرية^(**)(^{١١}).

الطبقة «الوسطى»

كان الحرفيون من فخّاريين ونحّاتين ورسمّين وصوّاغ وصنّاع الجواهر - ينهتون جميعاً أشكالا، كانت تعتبر بعضها أغلفة حية، تنتظر أن تثبت فيها الحياة.

(*) أعمال السخرة كانت إذن مدفوعة الأجر. (المترجم)

(**) مكذا يمكن اعتبار أن ملف السخرة والعبودية فى مصر الفرعونية، قد أغلق. (المترجم)

ومن ثم كانوا جديرين بكل الإحترام والإهتمام، ويشكلون طبقة تعيش فى يسر ورخاء. كانت هذه الوظائف وراثية فى الغالب. فتنتقل أسرار هذه المهن أباً عن جد، وخلفاً عن سلف. كان هؤلاء الحرفيون لا يحصلون فقط على أجورهم، بل كانت تعطى لهم قطعة أرض أو ما يلزمهم من متاع جنازى. إن جبانة دير المدينة تشهد منذ إقامتها على ذلك، وسوف تزداد اتساعاً فى عصر الرعامسة تحديداً.

الكتبة أيضاً، وهم موظفون فى خدمة الدولة أو الأشراف والنبلاء أو الكهنة، كانوا عناصر نشطة، يصعب الإستغناء عنهم ويشكلون جزءاً من الطبقة الوسطى. بل كان ينتمى بعضهم إلى الطبقة الحاكمة. ولا يوجد أى وجه شبه بينهم و«نساخ» أيامنا هذه. كانوا أشخاصاً يتمتعون باحترام الجميع، بل وصل إليهم الأمر إلى حد إعفائهم من الضرائب، كانوا فخورين مزهوين بأيديهم اللساء وثيابهم المصنوعة من الكتان الناصع، ويعتزون بما يتمتعون به من إمتيازات.

كان الجميع، بدءاً من الفلاحين العاملين فى الأرض وصولاً إلى الحرفيين والكتبة، شركاء يساهمون فى حياة العالم المصرى واستمراره على قيد الحياة فى العالم الآخر.

تشغل أوقات الفراغ ورحلات الصيد الملكية

لما كانت الطبقة الحاكمة التى تشكل بلاط الملك فى طيبة، مثقلة بمسؤوليات مرموقة وجسيمة، فمن الطبيعى أن تسعى إلى شغل أوقات فراغها بطريقة سليمة ومفيدة، على سبيل الإستجمام: كالترجيع عن النفس فى جو الحدائق العليل، وتأمل أعمال الحصاد وأعشاش الطيور، أو شغلها بممارسة قدر كبير من الرياضة، من خلال رحلات الصيد النهري والصيد البرى، وتحفظ المقابر بالعديد من التماوير التى تمثل هذه الأنشطة.

ولكن الصيد البرى والصيد النهري، لم يكن لهما فى مصر دلالة رياضية فحسب، بل كانا أفعالاً سحرية تهدف إلى قتل القوى العدائية الكامنة فى كل قنيسة.

كما كانت رياضة الصيد فى نظر الملك متأثرة، الهدف منها تأكيد قوته وتعذر قهره، إذ كانت الحيوانات البرية وأعداء الإمبراطورية شيئاً واحداً. ومن ثم كان الصيد نشاطاً مخلصاً، يسهم فى إقرار النظام فى العالم وتماسك البلاد وترباطها.

لقد أراد أمنخوتب الثالث أن يخلّد رحلات صيده العظيمة. فأصدر سلسلة من الجعارين. وفى العام الثانى من عهده، أراد ارحلة الصيد التى قادها ضد الثيران البرية، أن تحيا إلى أبد الآباد:

فى العام الثانى، من عهد صاحب الجلالة... (تذكر بعد ذلك القائمة الكاملة للألقاب الملكية)... أمنخوتب، حاكم طيبة و(جلالة) زوجته الملكية العظيمة تبي، جرت لصاحب الجلالة أحداث عجيبة. جاء من يقول له، أن قطعان من الثيران البرية موجودة فوق تل أرض شيثا(?) . عندئذ مبط صاحب الجلالة النهر، ليلاً متجهاً ناحية الشمال، على متن السفينة الملكية المسماة «من يظهر متلقاً مع ماعت». وإذا سلك الطريق المناسب، ووصل إلى شيثا فى سلام مع مطلع الفجر. عندئذ، ظهر على مركبته، فى حين كان جيشه بأكمله يسير فى أعقابهِ. فصدرت الأوامر إلى أفراد الحملة فى مجموعها، وإلى الأطفال أيضاً، الذين كانوا فى صحبتهم بمراقبة هذه القطعان البرية بأكبر قدر من اليقظة. ثم أمر صاحب الجلال بمحاصرة هذه القطعان بسور وخندق. وأمر أيضاً بإحصائها. فكانت أعدادها الحالية ١٧٠ ثوراً. وأعداد ما جاء به من رحلة الصيد، فى ذلك اليوم: ٥٦ ثوراً.

ثم قضى صاحب الجلالة أربعة أيام يشغل فراغه فى العنوب بجياده (هرفياً: يلهب الجياد). وظهر مرة ثانية على متن مركبته. ببيان بالثيران التى جاء بها صاحب الجلالة من رحلة الصيد: ٤٠. ومجموع الثيران ٩٤ (١٠٠)(٥).

وتكرس مجموعة أخرى من الجعارين انتصارات العامل الملكى فى رحلات صيد الأسود. وبعد القائمة المزدوجة لألقاب الملك والملكة يعطى النص: بيان بالأسود

(*) هكذا فى الأصل. (المترجم)

التي جاء بها صاحب الجلالة، بفضل قوسه، منذ العام الأول وحتى العام العاشر:
١٠٢ أسداً متوحشاً (١٠١).

الأسلوب مبتذل، ويتعد كل البعد عن أسلوب الملاحم العظيمة التي حققها تحوتمس الثالث، كان أمنحوتب الثالث ملكاً عاش حياة سهلة مترفة، بفضل فتوحات أبائه، ولم يهتم إلا في أضيق الحدود بالحفاظ مثلهم، على الإمبراطورية، بفضل سياسة حصيفة، تضمن وجوداً متواصلاً واستعراضاً للقوى العسكرية.

٥- الازدهار وكبرى الأبنية

● وأخذ الكرنك يتوسع

إن الكتل الحجرية التي استخدمت في مباني تحوتمس الرابع عثر على معظمها في المباني التي شيدها ابنه أمنحوتب الثالث. كان هذا الأخير بناءً عظيمًا ولكنه كان أيضًا في الواقع «هذلاً»، فإذا أراد أن يبنى بأقل التكاليف ويأسرع ما يمكن، فكذلك العديد من مباني أسلافه ليشيد مبانيه، وتعيداً الصرح الثالث من معبد الكرنك.

كان تحوتمس الرابع قد شيّد مقصورة من الألبستر لاستراحة المركب المقدس، بمدخل مزدوج اسمها «تحوتمس - نو - الإشراقات - المتألفة، هو الذي يتسلم تيجان أمون».

كان معبد أمون - رع يبدأ آنذاك، عند الصرح الرابع الذي شيده تحوتمس الأول، وفي باحة المبنى شيّد تحوتمس الرابع مبنىً من الحجر الرملي، له أهمية. ربما كان نهاية تحيط بها أعمدة أو فناء ذا رواق داخلي، يتكون من عشرين إلى ثلاثين عموداً مربعاً، مزخرفاً على كل وجه من وجوهه، بمشهد ذيّل بسمطرين من نصوص تشير إلى أعياد الملك اليوبيلية. وما زال بعض بقايا الأعمدة موجودة في مكانها، عند الزاوية الشمالية الغربية من البرج الشمالي من الصرح الرابع، ولكن عثر على

معظمها وسط أساسات الصرح الثالث الذى شيده أمفوتب الثالث^(٥). إن بعض أجزاء السواكف كانت تحمل مدونة، تقدم وصفاً للمبنى: «فناء أمامى، من الحجر الرملى الجيد، محاطاً بالأعمدة»^(١٠٦). لا شك، أنه كان فناءً للأعياد، يُحتفل فيه ببعض فقرات مراسم الأعياد اليوبيلية، وتحديدًا العنق الشعائرى والمواكب المقدسة. ويُعتقد أنه كان يسمح عندئذ للجمهور بالدخول إلى هذا الفناء لرؤية «الإله فى تجلياته». ويطلق أحياناً على هذه الألفية الامامية عبارة «ألفية الشعب». قام تھوتمس الرابع بزيادة حجم باب الصرح الرابع، فأضاف جزءاً أمامياً إلى الكتلة الأساسية للباب الأقدم الذى قد يعود تاريخه إلى تھوتمس الأول. الأمر الذى يفسر تغيير اسم المبنى، فأصبح اسمه بدءاً من عهد تھوتمس الرابع:

«الباب المقدس العظيم (المسمى): قوية - هى - مية - آمون».

وأمام بوابة الصرح الرابع هذه، أمر العاهل الملكى بتشييد مدخل مسقوف من الذهب^(١٠٧)، كانت ظلّته مرفوعة على أسطونين من الطراز الخيمى^(*)، وما زالت ركيزتيهما فى مكانهما بجانب قاعدتى المسلتين، وعلى الدعامة الشمالية العلوية، يمكن أن نقرأ:

لقد شيّد من أجل أبى آمون - رع بوابة شامخة... ليصبح ما سبق أن شيده أسلافه، أكثر اتساعاً وأكثر شموخاً. حتى وصل ارتفاعها إلى عنان السماء، وينير تألقها القطرين ويدخل الفرح والبهجة على الكرك، ويغتنب ملك الآلهة عند مشاهدتها^(١٠٨).

وفيما بعد سيتولى الملك السودانى شاباكا من الأسرة الخامسة والعشرين، ترميم الباب والمدخل المسقوف. وبعد ذلك، سينوّن الإسكندر الأكبر اسمه على الباب.

(*) هكذا كان وسمها عند كتابة هذه السطور، ولكن أعيد الآن تشييد ما تبقى من المقصورة، فى المتحف المفتوح بالكرك. (المترجم)

(**) campaniforme. تاج هذا الطراز من الأساطين، فى هيئة ناقوس فتحة من أسفل ومدور فى أعلاه ويشبه وتد الخيمة. ومن أمثلة هذا الطراز: أساطين بهو أعياد تھوتمس الثالث بالكرك (أخ منو) ومركب خوفو فى المتحف القائم جنوب هرم خوفو. (المترجم)

لقد وردت صورة المدخل المسقوف، في حالته الأصلية، ضمن رسومات المقبرة رقم ٧٥ بجبانة الشيخ عبدالقوة، في غرب طيبة لصاحبها أمنهوتب سا إسن، الخادم الثانى للإله آمون.

وهنا، لا ينظر إلى الذهب، باعتباره رمزاً يدل على الأبهة والرفعة والترف. فالذهب هو لحم الآلهة. والمدخل المسقوف المصنوع من الذهب، يستقبل إستقبالاً طبيعياً آمون - رع، عند أطراف بيته. إنه يحدد مدخل الطريق المقدس الذى يسوق الإله إلى معبده.

إن أعمال تحوتمس الرابع تضم أيضاً عدداً من المعالم المسرحية الأخرى الرفيعة الشأن، وإن اختفت في الوقت الراهن. ونعرفها من خلال النصوص. فيمكن أن نقرأ على الجانب الشرقى من مسلة اللاتران (١٠٠)(*) Latran، النص الآتى:

إن من خيرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد أكثر من المعالم المسرحية في الكرنك، (إنها معالم) من ذهب ولازورد وفيروز، وكافة أنواع الأحجار الكريمة. إن القارب الكبير للإله آمون على صفحة النهر، المسمى «ذا القيدام القوى» مصنوع من خشب الأرز الذى قطعه صاحب الجلالة من فوق جبل ريتنو. كان مغطى بالكامل بالذهب، وصنعت كافة زخارفه حديثاً، لاستقبال جمال أبى الملك آمون، عند ابصاره على صفحة النهر (١٠٦).

لقد اندثر العديد من أعمال الفراغة المقدسة، من جراء ما لحق بها من تدمير وسرقات وسلب ونهب.

وقام أمنهوتب الثالث بتوسيع الكرنك، إلى حد كبير في اتجاه الغرب والشمال والجنوب.

وأمام الصرح الرابع الذى شيده تحوتمس الأول، والفناء ذى الصُفّة وهو من أعمال تحوتمس الرابع، شيد صرحاً آخر، هو الثالث حسب تسميتنا في الوقت الراهن، ويقع شرق بهو الأساطين العظيم الذى شيده سبتى الأول ورعمسيس الثانى،

(*) في الفاتيكان. (المترجم)

أى أنه كان يقع بعد هذا البهو بالنسبة للقادم من جهة النهر. كان هذا الصرح يتكون من برجين مرتفعين من الحجر الرملى، يكتنفان باب من الحجر الرملى، وثبتت أربع سوارٍ على كل برج. ويعد ذلك، وأمام هذا الباب، أمر الملك بإقامة ردهة وياب أمامى، سوف يتقدمه فيما بعد صف أعمدة.

وعندما قامت هيئة الآثار المصرية(*) بالتنقيب فى أساسات هذا الصرح، كشفت عن ١٢٠٠ كتلة من الحجر المزخرفة، كانت جزءاً من ثلاثة عشر أثراً مختلفاً: فناء تحوتمس الرابع، ذى الأعمدة ومسلتا أمنهوتب الثانى اللتين كانتا قائمتين فى هذا المكان ويأقون المبانى التى شيدت على ما يظن فى هذا المكان، وهو نقطة تقاطع محورى الكرنك الرئيسيين، محور معبد آمون - رع الغربى الشرقى والمحور الشمالى الجنوبى الذى يربط معبد مونقو بمعبد موت ومعبد الأقصر. ومن بينها، مقصورتان أمكن ترميمهما بالكامل إنطلاقاً من الكتل المستخرجة من أساسات صرح أمنهوتب الثالث، بفضل جهود المهندس الفرنسى هنرى شيفرييه Henri Chevrier: فأعيد تشييد الأولى فيما بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨، وهى إستراحة للمركب المقدس من الحجر الجيرى الأبيض وكان سنوسرت الأول قد أقامها. أما الأخرى فقد أعيد تشييدها عام ١٩٤٧ وهى إستراحة للمركب المقدس من الألبستر وتعود إلى عهد أمنهوتب الأول(١٠٧)(١٠٠).

أما باب الصرح، فقد صار فى الوقت الراهن مجرد أنقاض، ولكن فى وسع المرء الواقف أمام أطلاله، أن يتصور بسهولة روعته الفابرة، لأن نصاً يقدم له وصفاً، على قدر كبير من الدقة. فقد حُفر هذا النص على لوح كبير من الجرانيت الأسود، كان مقاماً أصلاً فى المعبد الجنائزى للعامل الملكى بالبر الغربى، وعُثر عليه فى معبد

(*) (تغير اسمها فى الوقت الراهن إلى المجلس الأعلى للآثار. (المترجم)

(**) يمكن مشاهدة هاتين الرائعتين فى المتحف المفتوح، شمال الفناء الأول من معبد الكرنك. (المترجم)

الفرعون مر إن پتاح من الأسرة التاسعة عشرة^(*)، الذى أعاد استخدام عناصر مباني سلفه، فى مبانيه الخاصة.

يحدثنا نص أمنحوتب الثالث على النحو الآتى:

طلب الملك بتشييد باب شامخ أمام (معبد) آمون - رع، رب عروش القطرين، مغطى بالكامل بالذهب. إن صورة الإله، (فى هيئة) كبش، مطعمة باللزورد الحرّ ومغشاة بالذهب وعدد كبير من الأحجار الكريمة. ولم تُصنع مثلها أبداً. كانت الأرضية مزدانة بالفضة. وأقيم باب أمامى ولوح من اللزورد على كل جانب من جانبيه. كان صرحه يلامس السماء، مثله مثل الدعائم الأربع التى تحمل السماء. إن تالق السوارى ذات البيارق، المغشاة بالذهب الخالص، كانت ترتفع إلى أعالي السماء. ولهذا الغرض كان صاحب الجلالة، قد جلب الذهب من منطقة كاروى، إبان الحلة الأولى المظفرة الهادفة إلى تدمير بلاد كوش الشديدة الخسة^(١٠٨).

وما زلنا نقرأ أيضاً، مدونة أخرى منقوشة برشاقة فائقة، على الجناح الجنوبى من الصرح الثالث، إنه نص يمتدح الملك وأعماله من أجل إله الكرنك. ونلاحظ أن التعبير عن المقصود، من خلال لفظ حسن، يُرخص منذ ذلك الزمن، بطلاوة البيان فى عصر الرعامسة:

إنه أكثر الأذكىاء، الذى اصطفاه آمون من بين ملايين البشر، ليقود الشعب فى مواجهة الزمن الأبدى. لقد أقامه على عرشه ليسوس ما يمحيط به القرص (أتون)، إن عينه تخلق النور من أجل البشر أجمعين. كم هى محببة ومنمشة، رؤيته متجلباً فى تآلقه. لقد وهبه آمون عرش جب ووظيفة أقوم ومُلك رع، للزمن الأبدى. إن ساعديه يعملان العصا، ببسالة وقوة، لتتوجه إليه الأرض قاطبة محملة بمنتجاتها. إنه أسد

(*) وهو من مقتنيات متحف القاهرة حالياً. الرواق ١٣ من الطابق الأرضى. ومن السهولة يمكن، أن يدرك المشاهد الفارق الشاسع بين روعة نقوش وجه اللوح الذى يخص أمنحوتب الثالث، بمقارنتها بمستوى نقوش ظهر اللوح الذى يخص مر إن پتاح - والمعروف اصطلاحاً بلوح إسرائيل. (المترجم)

متوحش، عندما يشاهد أعداءه، وهم يطفئون طريقه، (الأعداء) الذين يذبحهم اسمه. ومن أتى به إلى الوجود، يأمر بأن يتحد بأشكاله، ليصبح السيد الأوحى المتفرد... مستمتعاً بقوته، مرشد جيشه، وزعيم ملايين البشر، إنه صاحب قلب يقاوم الزمن، وساعد بارع ويتمتع بالمعرفة... منجزاً مداره على غرار آتون، لأنه واسع الخُطى. إنه نجم من الذهب الخالص، على متن مركبته (الحربية) وقوَّاس قدير، عندما يصوب ناحية الهدف. إن ساعدتيه يشبهان ساعدتي رب طيبة، وهو يسوق أسرى البلدان الأجنبية قاطبة. فلا نظير له، إنه الراعى الصالح، السامر على البشر أجمعين الذين أخضعهم خالقهم لسلطانه. إنه سيّد الطعام... فهو من يحب أفعال ماعث، مفتبطاً بإرشاداتها، فاحصاً الأبدان وعارفاً بما فى القلب. إن بساتينه المجيدة تذهب بالشرير، وتحمى الخائف المذعور. إن كلماته نسمة الحياة، نشطة ورشيقة. إن البذرة الإلهية فى بدنه، إن تالقه بالكامل ينتسب إلى صيرورة جلالته ر... .

(كلمات الملك):

أنا ابنه البكر، الآتى إلى الوجود فى طيبة... إني أقود تحت إمرته، واتحد بقوته. إني أفتح (البلدان) بواسطة سلطانه. وأنجز فى معبده أعمالاً، من مختلف الأنواع....

أنا ابن، يحقق أشياء مفيدة للذى انجبه. إنه الله فى قلبي، فى كل لحظة من اللحظات (٩). وأقدم له نباتات نضرة... وأحضر له فضةً وذهباً ولازورد خالصاً وفيروزاً وعقيقاً أحمر ونحاساً أسود وبيرونزاً وقصديراً وألواناً وأحجاراً كريمة، من مختلف الأصناف، وكافة أنواع أدوات الأكل المقدسة وهى من الذهب - وبأعداد لا تحصى (١٠).

(*) وجه الشبه كبير مع ما سيقوله بعد عدة قرون، أبو المغيث الحلاج، المتوفى عام ٢٠٩هـ - ٩٢٢م. رأيت ربي بعين قلبي فقلت من أنت قال أنت. [ديوان أبى المغيث الحلاج، دار معد. ودار النميز. دمشق. ١٩٩٩. ص ٢٨]. (المترجم)

هكذا، فإن الأيديولوجيا التي رسّختها حتشپسوت وطوّرها تحوتمس الثالث، تكشف في نص أمنهوتب الثالث، المنحوت على الصرح الثالث بالكرك، عن جوانب جديدة. فيتضح «التبادل» التقليدي للخدمات الحميدة بين الملك والإله، والوحدة التي تجمعهما، تجعل منهما من الآن، كائناً واحداً بأشكاله المتداخلة المتشابهة. وتظهر صور جديدة تدمج الفرعون ممجاً لصيقاً بالكون، باعتباره كلاً منظماً متناغماً، بعيداً عن الخواء والفوضى، وإرهاصاً لميثولوجيا الرعامسة. ولا تهيمن على تاريخ الأسرة الثامنة عشرة، فكرة أحادية مرموقة - على غرار ما ساد في زمن الرعامسة - بل فكرة ما زالت تبحث عن مقوماتها فتتشكل ونكون تدريجياً، ويأتي كل ملك ليقدم بدوره إسهامه، حتى أصبحت المصدر المباشر لأيديولوجيا الرعامسة، التي لا تنفصل عنها.

والى الشمال من معبد آمون - رع، توجد منطقة أخرى مقدسة، وإن كانت أصغر منها بكثير، كانت قائمة قبل الأسرة الثامنة عشرة، بفترة طويلة، ومكرسة للإله مونتو، الراعى الحامى لمدينة هرمونتيس، إنه إله صقر محارب. إن معبد مونتو، كما نشاهده في الوقت الراهن، والذي يقع مدخله ناحية الشمال، هو من أعمال أمنهوتب الثالث. إنه مشيد فوق قاعدة بناء مستطيلة، طولها ٥٢ متراً ونصف وعرضها ٢٦ متراً وربع، ولها إفريز على ارتفاع ١١٥ سم فوق الأرض. أما جدران المبنى التي يعتقد أن واجهاتها الخارجية، كانت مزخرفة زخرفة معدودة، فكان يطوها، على ما يظن، إفريز مماثل لإفريز قاعدة البناء. إن باباً شامخاً، عتبه من الجرانيت الوردى، كان يفتح وسط الواجهة. وشأنه شأن جميع المباني القائمة حول محيط معبد آمون - رع في الكرك، أصاب معبد مونتو خراباً طائلاً، إذ استخدم محجراً لسكان المنطقة. ومع ذلك فإن الأجزاء المبعثرة المتبقية من البلاطات والمسلتين والجدران والأساطين وتيجانها والسواكف، تساعد على إعادة تخيل ما كان عليه المبنى^(١١٠).

كانت مسلتان من الجرانيت الوردى، قائمتين أمام المعبد، يصل ارتفاعهما إلى أكثر من ١٨ متراً. ويمكن افتراض أن مساحة المعبد في حد ذاته، كانت تتكون من

مربعين، يبلغ كل ضلع من أضلاعهما ٢٥ متراً طولاً. ويضم المربع الأول الفناء المحاط بأروقة، ويضم الثاني، القسم المسقوف من المبنى، ويصل إليه المراء من خلال خمسة أبواب.

كان الفناء الكبير يضم أربعة عشر أسطواناً على هيئة براعم نبات البردي، يتكون بدنها المقتنى من اثني عشر ضلعاً، الأمر الذي يذكرنا بشكل أساطين معبد الأقصر وترتيبها، وإن كانت أبعادها المقتناة لا تتكون سوى من ثمانية أضلاع. وأقيمت في هذا الفناء تماثيل لأبى الهول من الجرانيت الأسود، بجسم أسد ووجه أمنهوتب الثالث.

كانت أكثر أقسام المعبد انعزلاً، تضم تحديداً بهو أساطين تكتنفه حجرات ثانوية وسبع مقاصير لقدس الأقداس. كان بهو الأساطين يضم أربعة أساطين في هيئة براعم نبات البردي، من طراز يشبه أساطين الفناء، وإن كانت أقل ارتفاعاً، ومقامة فوق بلاطات تشكلت من أجزاء ضخمة، تعود أصلاً إلى سقف من الجرانيت الوردى، قبل أن يعاد استخدامها. كان الجزء الأسفل من جدران البهو مزخرفاً بمشهد يصور سيقان نباتية تنبت من المستنقعات، واتخذت مياهاها هيئة خطوط منكسرة. هنا، تبرز الدلالة الرمزية لبهو الأساطين^(١١). وفي إحدى الحجرات، عثر على تمثال ثنائى، من الجرانيت الأسود، هو آية فى الجمال، ويمثل أمون - رع متريماً على العرش واضعاً يده على عنق أمنهوتب الثالث من الخلف، وقد صور الملك جاثياً مرتدياً زى العيد اليوبيلى. كانت هذه المجموعة مغطاة بالكامل، برقائق من الذهب ما زالت بعضها فى مكانها. إن الدلالة الرمزية للذهب موجودة فى كل ركن من أركان الكرنك، أرض الشمس. كما كان الذهب عنصراً مهماً أيضاً، فى البناية الأصلية، انطلاقاً من الوصف الذى تحتفظ به مدونة منحوتة على الواجهة الجانبية الشرقية لقاعدة البناء:

ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، صورة (الإله) رع. إنه يتسجد القطرين، وأقام معلماً أثرياً من أجل أبيه [أمون - رع، رب عروش القطرين، فشيّد] معبداً جديداً، من حجر رملى أبيض جميل، فى المكان المبارك بطيبة، دون أن يلحق أى ضرر، بما كان مقاماً من قبل. (إنه معبد) وطيد الأركان، شيّد ليديم إلى أبد الآباد،

وبفضل إسهامات زعماء كافة البلدان الأجنبية والتي أتى بها صاحب الجلالة من إنتصاراته، وبفضل غنائم ساعده الجسور. جُعل (المعبد) طامراً مقدساً، في مجموعه، بفضل الذهب. كانت أبوابه من الذهب الخالص الحقيقي، ومزدانة أيضاً بمختلف أنواع الأحجار الكريمة، المقدمة من بلاد الجنوب. كانت كافة أرضياته مذهبة. ومصاريع الأبواب من خشب الأرز ومن نحاس آسيا، كإسهامات من بلاد الشمال. كان المعبد أشبه بأفق السماء يكملها، وأبواب الطعام من الفضة ومطعمة بكل أنواع الأحجار الكريمة. كان المكان الذي يستريح فيه سيد الآلهة، فجاء على صورة عرشه القائم في السماء. واسمه الكامل الصفات، كما تحدده المدونات «إن نب ماعت رع هو الذي يتجلى متألقاً مع الحقيقة - العدالة».

إجمالي ثروة المعبد حسب أوزانها:

الذهب الخالص :	٣١٤٨٥ دين	(٢٨٣٣٨ كجم)
الذهب :	٢٥١٨٢ دين	(٢٢٦٦٥ كجم)
النحاس الأسود :	٤٦٢٠ دين	(٤١٦ كجم)
اللازورد :	٦٤٠٦ دين	(٥٧٧٠ كجم)
العقيق الأحمر :	١٧٣١ دين	(١٥٦٠ كجم)
الفيروز :	١٠٧٥ دين	(٩٧٠ كجم)
البرونز :	١٤٣٤٢ دين	(١٢٩١٠ كجم)

وحُفرت بركة، وزُرعت حديقة متألقة بما فيها من أزهار، من كافة الأنواع. كما ألحقت بالمعبد، أعداد غفيرة من الخدم... وأبناء زعماء كافة البلدان الأجنبية القادمين، منمنية ظهورهم، بسبب مجد صاحب الجلالة^(١١٢).

إن الكنوز المكنونة لدولة جولاكوندا^(١٠) Golconde وذهب منطقة إلدورانو^(١١)

(١٠) جولاكوندا: مدينة محصنة في شبه جزيرة الهند، لم يبق منها سوى أطلال. بعد أن سلبت ودمرت في القرن السابع عشر. وقد اشتهرت بثرواتها الطائلة. (المترجم)

(١١) إلدورانو: كلمة إسبانية معناها: «بلد الذهب». وهي منطقة خرافية في أمريكا الجنوبية، ذهب الغزاة الأسبان الأوائل إلى الاعتقاد بأنها كانت تفيض ذهباً. (المترجم)

Eldorado، ليست سوى صُور حديثة شاحبة، لهذه الثروات التي تفوق الخيال. لم تعرف البشرية كاتدرائيةً أو مسجداً أو كنيسةً أو معبداً، بلغ ما بلغته الأماكن المقدسة في الكونك من روعة منقطعة النظير، وقد ظل شعب بكملة يعمل من أجله بورع وحماس على امتداد العصور. كان الحجيج، إذا ما أشرفوا على نهاية رحلتهم يشاهدون من على بعد، من الصحراء تَلَقُّ الذهب عند امتزاجه بالشمس التي كان هذا المعدن النفيس امتدادها على الأرض. هكذا كان آمون - رع ومونتو يستريحان في مكانهما المقدس.

والى الجنوب من معبد آمون - رع، وقرب الطريق المؤدى إلى معبد الأقصر، شيد أمنموتب الثالث معبداً مكرساً للإلهة موت، زوجة آمون. كان يتجه من الشمال إلى الجنوب، وهو مدمر تدميراً بالغاً، في الوقت الراهن، رغم قيام وعيسى الثالث بترميمه والبطانة بزخرفته بنقوش جديدة. ويمكن للمرء، أن يلاحظ، في الوقت الراهن، وجود فناء أول مع بقايا صُفة ذات أعمدة وفناء ثانٍ برواق يتميز بوجود أعمدة ذات تيجان حثورية، يليه بعض الحجرات وقدس الأقداس. كانت جميع القاعات تضم تماثيل من الجرانيت الأسود، للإلهة سَخمت برأس أسدة والمندمجة في موت، وقد صورت واقفة أو جالسة. وعثر على مئات من هذه التماثيل، والقلّة القليلة من متاحف أوروبا أو أمريكا لا تحتفظ ببعضها ضمن مقتناتها. وقد تم «الكشف» منذ وقت قريب، على إثنين منها في حديقة شاتسورث هاوس Chatsworth House، وهو قصر كبراء نوكية ديرفونشاير Devonshire القائمة بجوار مدينة باكويل Bakewell في ديرفونشاير Derbyshire (١١٣).

هذا الوجود الإلهي الملح الطافى بأعداده الكبيرة، تلتقى به أيضاً في معبد أمنموتب الثالث الجنائزى، في كوم الهيكل على البر الغربى لمدينة طيبة. ولما كان كل تمثال من هذه التماثيل، يحمل صفة من صفات الإله، تختلف عن غيرها، فقد أصبح مجموع هذه التماثيل أشبه بسرد رتيب من الحجر، أقيمت إكراماً لهذا الكيان الإلهي

(*) في بريطانيا العظمى. (الترجم)

الشمسى والحريى - الشديد القرب من حيث طبيعته، بالإله موتو. إن معبدى الكرنك الثانويين، يوازنان إذن على أكمل وجه، المعبد الأوسط الكبير المكرس للآلهة.

ويحيط بمعبد موت من جهاته الثلاث، بحيرة مقدسة، تتخذ شكلاً غريباً على هيئة حنوة حصان، يطوق طرفاها المعبد.

أما البحيرة المقدسة التابعة لمعبد آمون - رع فى الكرنك، فتقع إلى الجنوب منه، وتكاد تلامس نقطة تقاطع المحورين الرئيسيين للمبنى المقدس. ربما كانت من إنجازات تهوتمس الثالث. إنها تشكّل مستطيلاً شاسعاً، يبلغ ١٢٠ متراً طولاً و٧٧ متراً عرضاً. كانت ضرورية لوضوء الكهنة، حسبما تقتضيه ترتيبات الشعائر الدينية ولرحلات الإبحار الإلهية، حيث كان ينظر إليها باعتبارها انبثاقاً أسطورياً ثانياً، للمياه الأزلية الأولى التى سبقت خلق العالم. وأمكن إعادة تشييد الجدران والسلام، بعد أن عُثر على أجزائها القديمة المهتمة إلى حد ما، حول طول محيطها بالكامل.

وفيما بين الركن الشمالى الغربى من البحيرة المقدسة والركن الجنوبى الغربى لمبنى شيدته، فى زمن لاحق، الملك السودانى طهرقا، من الأسرة الخامسة والعشرين، يرتفع فوق قاعدة، تمثال لجعران ضخم، نُحت فى عهد أمنموتب الثالث، فى كتلة من الجرانيت الوردى. وأغلب الظن، أنه كان قائماً أصلاً فى كوم العيتان بالبر الغربى، فى المعبد الجنائزى لهذا العامل الملكى. ولا شك أنه نُقل إلى الكرنك فى عهد ملوك الأسرة السودانية. وبالفعل، تقول المدونة التى يحملها:

كلمات قالها خبرى الآنى إلى الوجود منبثقاً من أديم الأرض: «إنه ابنى نب ماعت رع. إنى أغدق الحياة على أنفك، والثبات والقوة، حتى تتَمَّ ملايين أعياد اليوبيل، لأنك سيد ما ينيه القرص الشمسى (أتون). لقد خرَّت الأقواس التسعة تحت قدميك، مكافأة على ما فعلته من أجلى. إنى راضٍ عن مملك، عن هذا المعبد القائم فى غرب طيبة...»^(١١٤).

وبطبيعة الحال، فإن هذا التمثال الشامخ المكرس للإله الشمسى خبرى، كان يلمح إلى انبثاق الجرم السماوى عند الفجر، رمزاً للحياة التى تتجدد دائماً وأبداً.

ويرى بول بارجيه Paul Barjue، أن موقعه الثانى، يربطه ارتباطاً مباشراً، مع مبنى طهرقا - البحيرة. فالإله «الخارج من الأرض»، كان ينبعث على ما يظن، من حجرات المبنى الواقعة تحت مستوى الأرض، عبر إرتقاء الدرج الذى بؤنت على جدرانه الترانيم إلى الشمس. ويظل المعنى العميق للأسطورة قائماً، ولكن فى وسعه أن يتكيف مع مختلف المواقف.

معبد الأقصر: مكان مقدس جديد

ملك مصر العليا ومصر السفلى.... نب ماعت رع. ابن رع: أمنحوتب... طاب له أن يُشيد من أجل أبيه، آمون - رع، رب عروش القطرين، فى الأقصر، معبداً من الحجر الرملى الأبيض الجميل. كان واسعاً وشاسعاً إلى حد كبير، ويزداد جماله، بلا انقطاع. كانت جدرانه من الذهب الخالص، وأرضياته من الفضة، وكافة أبوابه مغطاة... كانت صروحه تلامس السماء وتختلط بالنجوم الإلهية.

وعندما شاهد الشعب ذلك، هتف لصاحب الجلالة وهلل (قائلاً): «الملك نب ماعت رع، هو الذى أرضى (حرفياً: غسل) قلب أبيه آمون، رب عروش القطرين...»^(١١٥).

لم يكن الموقع جديداً. فقد سبق أن شُيد فى هذا المكان معبد من الحجر الرملى، يعود إلى الأسرة الثانية عشرة. وقام أمنحوتب الثالث بهدمه وأعاد استخدام مواده: كان معبد الأقصر ملحقاً تابعاً لمعبد الكرنك، بصفته «الحريم الجنوبي للإله»، ويستخدم تحديداً إبان الموكب الإحتفالى للإله آمون، عند خروجه بمناسبة عيد أوبت^(١١٦). ففي اليوم التاسع عشر، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان - أى النصف الأول من شهر أكتوبر - كان آمون الكرنك يهيم فى الحقيقة، بزيارة حريمه الجنوبي، لمدة أربعة وعشرين يوماً. كان عيداً مزيجاً للخصوبة، عيد الأرض التى يخصبها غرين النيل وعيد الإله الذى تعم إبانته الأفراح الشعبية ويقيم سواد الشعب

فى الطعام واللهور^(*). إن ممشىً مبلطاً، تحفه تماثيل أبو الهول، كان يربط معبد الكرنك بمعبد الأقصر، على امتداد ٢٥٠٠ متر. ولكن المواكب الإحتفالية، كانت تختار أحياناً الطريق النهري.

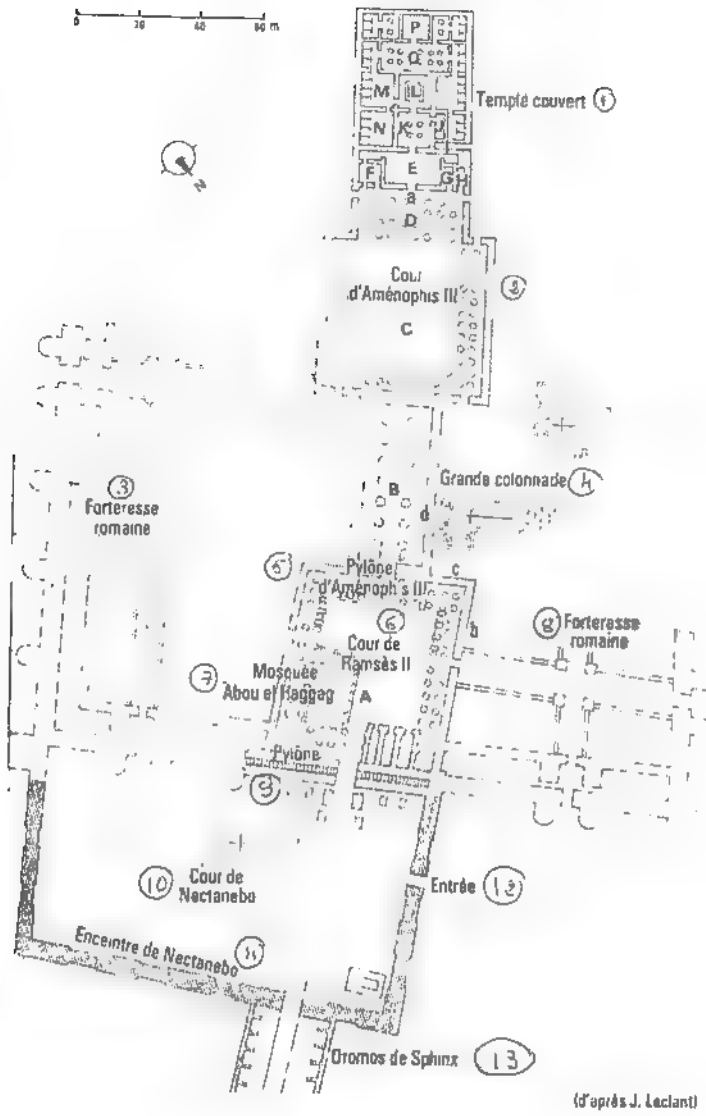
إن رفع أنقاض وريد معبد الأقصر، قام به ماسيرو Maspéro عام ١٨٨٢. وإن تكتمل هذه العملية، فى واقع الأمر، إلا بعد التوصل إلى حلّ المشكلة التى يثيرها مسجد أبو الحجاج القائم فوق كتلة كثيفة من الأنقاض والرديم، التى تحتل الركن الشمالى الشرقى من الفناء الأول من المعبد. وعلى غرار المعبدتين الملحقين بمعبد الكرنك، المكرسين على التوالى لكل من مونتو وموت، يتجه معبد الأقصر ناحية الشمال.

وعندما يتأمل المرء معبد الأقصر، من البر الغربى أو من النهر، تستولى عليه الدهشة فى الحال، لما يشاهده من رشاقة العناصر المعمارية ورهافتها وسلاستها. ويبدو أن أعمال التشييد قد تمت على مراحل ثلاث.

بعد اجتياز الصرح المشيد من الحجر الرملى وعرضه ٢٦ متراً، وعبر الفناء، يصل المرء إلى معر عظيم ذى أساطين، طوله ٥٢ متراً وعرضه ٢٠ متراً، ويتكون من صفيين من سبعة أساطين، أبدانها ملساء وتيجانها على هيئة زهرة بردى يافعة، وارتفاعها ١٥,٨٠ متراً ومحيط دائرتها ٩,٨٠ أمتار. إن هذا الدهليز الفخم الذى شُيد فى آخر الأمر، كان يحدد المحطة الأخيرة التى تتوقف عندها المواكب الإحتفالية، قبل دخول المكان المقدس. ويحتفظ بالسماوات المميزة لعمارة أمنحوتب الثالث، كما سنشاهدها فى صابنقة وصولب، فى النوبة^(١١٧). كما كان مثل هذا الدهليز، قائماً عند مدخل معبد موت، فى الكرنك.

يلى ذلك، الفناء الكبير بصفاته ذات الأساطين، وهو مرحلة التشييد الثانية. وتتميز هذه الصفات بجمالها الأسر الأخاذ، سواء بانسجام نسب أبعادها ودقتها، أو رقة رشاقة أساطينها والسطوع الوردى للحجر الرملى الذى نُحتت فيه، بأيدي بارعة، تمتلك ناصية فيها إمتلاكاً مطلقاً. إن هذا الفناء الذى يبلغ ٥٢ متراً طولاً و٤٨ متراً

(*) على غرار ما يحدث حالياً، فى الموالد. (المترجم)



مسقط أفقي لعبيد الأقصر

بيانات معبد الأقصر

- 1 المعبد المسقوف
- 2 فناء أمنحوتب الثالث
- 3 حصن روماني
- 4 الممر العظيم ذو الأساطين
- 5 صرح أمنحوتب الثالث
- 6 فناء رعمسيس الثاني
- 7 مسجد أبو الحجاج
- 8 حصن روماني
- 9 صرح
- 10 فناء نختمبو
- 11 سور نختمبو
- 12 المدخل
- 13 طريق تماثيل أبو الهول

عرضاً، يحفه إذن، من الداخل على جوانبه الشرقية والشمالية والغربية، صف مزدوج من ٦٤ أسطواناً تتكوّن تيجنها من حزم براعم زهرة اللوتس. ويعد ذلك، نصل إلى بهو الأساطين الذي يضم ٢٢ أسطواناً من الطراز نفسه، موزعة على أربعة صفوف، يضم كل صف ثمانية أساطين.

تكمن أصالة المعبد في إزدواج قدس الأقداس. فيصل المرء إلى الأول، من خلال بابين محوريين وعبور ردهة ذات ثمانية أساطين مقناة^(*)، وصولاً إلى مقصورة ذات أربعة أساطين، كانت تظلل مركب آمون. أما الثاني، وكان الدخول إليه من خلال بابين جانبيين وقاعة ذات ١٢ أسطواناً مقنّى، ويضم تمثالي آمون وأمونت زوجة إله الأقصر^(١١٨). وفي إحدى الحجرات القائمة شرق قدس الأقداس، نحتت نقوش الصور والنصوص التي تسجل الولادة الإلهية للملك أمنحوتب الثالث.

تكشف نصوص تكريس المعبد عن ثراء المواد المستخدمة، فتضارع مثيلتها في معبد الكرنك، ومنها خشب الأرز والنحاس، ولا سيما الذهب الخالص الذي كان يكسو العديد من عناصر البناء، وذلك فضلاً عن الأبواب. إن مدونات السواكف التي ما زالت في مكانها، تقدم لنا نصوصاً مسببة تمتدح الملك وإنجازاته.

هل كان معبد الأقصر في هذه الأزمنة الغابرة، من العجائب التي تسترعى إهتمام السياح؟ إن نصاً منحوتاً على باب من الأبواب، شمال الفناء الكبير، يحملنا على هذا الاعتقاد:

لقد صنع صاحب الجلالة ذلك، بقدر ما يخلل حبه لوالده آمون - رع، رب عروش القطرين، يتعاطف. ويقوم هذا الأخير بنشر مجده عبر البلدان الأجنبية والأقواس التسعة وكافة الأراضى. إن بعض الفينيقيين الذين كانوا يجهلون مصر، يأتون الآن، حاملين هداياهم على ظهورهم، لشاهدة المعلم الصرحى الخاص بسيد القطرين: نب ماعت رع...^(١١٩).

لقد غالب جمال الأقصر الأيام وقهر الدهور.

(*) (أزيلت هذه الأساطين في العصر الروماني. دسيد توفيق. الأقصر. دار النهضة العربية. ١٩٨٢. (المترجم))

طبيعة: البر الغربي

إنه البر الذي سيظل، وفقاً لأعراف ثابتة، يحتضن من الآن، مقابر وادي الملوك و«معابد ملايين السنين» المكرسة لأداء الشعائر، من أجل الملك والآلهة، بعد أن اندمجوا في طقوس واحدة. كما أصبحت في عهد أمنحوتب الثالث، منطقة اتخذها الملك مقراً رسمياً له، بعد أن أمر في العام ٣٠، بإنشاء قصر ملقطة^(١٢٠) الذي كان يضم عدداً من الملحقات. ومنذ عهد قريب أيضاً، أضاف موقع كوم العبد اللثام عن بناءة من الطوب اللبن، تعود إلى عصر أمنحوتب الثالث وعن عدد من المنازل المدمرة تدميراً بالغا. ويبعد الموقع ثلاثة كيلومترات ونصف، جنوب غرب ملقطة. وتولت أعمال التنقيب فيه، جمعية الكشوف الأثرية في لندن Egypt Exploration Fund^(١٢١).

عندما يقوم القادم من الكرنك، بعبور نهر النيل لينزل إلى البر الغربي وسط الحقول المزروعة، يشاهد التمثالين العملاقين، المعروفين إصطلاحاً بتمثالي ممنون Memnon اللذين ما زالا منتصبين، عند الحد الفاصل بين الحقول والصحراء. ويظل هذان التمثالان الشامخان اللذان يصوران أمنحوتب الثالث، يطلان على السهل المنبسط، بارتفاع يبلغ ١٩.٩٠ متراً. لقد نحت كل واحد منهما في كتلة واحدة من الكوارتزيت الأحمر، ويمثلان الملك جالساً على عرشه. كان التمثال العملاق الجنوبي - وهو «ملك الملوك» - تقام له الشعائر. ولكن الأكثر شهرة في العصور القديمة، كان التمثال الشمالي. ففي أعقاب زلزال عام ٢٧، تهدم جزئياً، ومنذ هذه اللحظة لوحظت ظاهرة غريبة: فعندما يسخن حجر التمثال، بفعل ملامسة أشعة الشمس المشرقة، كانت تصدر عنه أصوات موسيقية إلى حد ما، وذهب البعض إلى تفسيرها باعتبارها أنين ممنون الآثيوبي^(١٢٢)، الذي قتله أخيلوس في حقول طروادة، فيرسل أناته مع كل فجر جديد، في اتجاه والدته إيوس التي تجسد الفجر والتي تعيد أشعتها يومياً الحياة

(*) كما عمموا هذا الاسم، فطلقوا على البر الغربي ممونيا Memnonia وعلى معبد رمسيس

الثاني - الرامسيون - القريب: ممنونيوم Memnonium.

(المترجم) Maurizion Damiano-Appia. L'Egypte. Dict. Enc., Gründ, 1999, p.180

إلى ابنها^(٥). ولكن قام الإمبراطور الروماني سيبتيوس سيفيروس بترميم هذا الأثر عام ١٧٠م، ليضع حداً، في آن واحد، لموسيقى «الفجر» والأسطورة.

عندما شُيّد هذان التمثلان، كانا قائمين أمام معبد أمفوتب الثالث للمابين السنين. وقد دُمّر هذا المعبد، المبنى من الحجر الرملي، تدميرًا شاملاً، ربما من جراء زلزال عام ٢٧، حتى أصبح من الصعوبة بمكان تحديد تخطيطه. وكان علماء حملة بوناپرت Bonaparte قد قدرُوا طول المعبد بستمئة مترًا، في زمن كان لا يزال الموقع يحتفظ ببعض الأطلال، ولكنها اختفت بعد ذلك.

وعلى مسافة بضعة وثلاثين مترًا، كان يرقد على الأرض لوح من الحجر الرملي، يبلغ تسعة أمتار ارتفاعاً و٢٠م عرضاً ودُون عليه النص التكريسي للمعبد وتحديدًا ما يلي:

تعال، أيا أمون - رع، يا رب عروش القطرين، الواقف على رأس الكرنك،
(تعال) لمشاهدة المعبد الذي شيدته من أجلك في غرب طيبة، والذي يتحدّ جماله بأفق
مانو (منطقة في الغرب). وفيه، سوف تُعبرُ علياء السماء في سلام. وعندما تشرق (من
جديد) في أفق السماء، سوف يضيئ بذهب وجهك، لأنه يولّي طلعه شطر الشرق من
أجل تجليك المتألق. أما عند غروبك، فيبقى أفقك حيًا، على الدوام. إنك تسطع يوميًا مع
مطلع الفجر، ويظل كمالك باستمرار داخل هذا المعبد. لقد شيدته من الحجر الرملي
الأبيض الجميل، بفضل عمل مبارك.

لقد وفّر له جلالتي التمثالين، عن طريق الأحجار التي جلبتها من الجبل الأحمر
(الإشارة هنا، إلى تمثالي ممنون العملاقين، وهما من حجر الكوارتزيت). وعندما
شوهدا في موقعهما، عمّ الفرح والإبتهاج نظرًا لارتفاع قامتهما^(١٢٢).

في عام ١٩٠٢، فُتحت رسميًا المقبرة التي تحمل الرقم ٤٢، وكانت مقبرة
تحتوي على الرابع. إن تخطيطها تخطيطًا مألوفًا. ولكن مخريشة نوّنت على جدار الردهة

(٥) من الأساطير اليونانية. (الترجم)

الأولى، تشهد بقيام نفر من اللصوص بالتسلل إلى المقبرة قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة، حتى أصبح من الضروري في العام الثامن، من عهد حور إم حب إعادة تدوير المومياة الملكية، في أعقاب حملة تفتيشية، قام بها الضباط المصريون، بتكليف من العامل الملكي.

ثم إن أرضية القاعة الكبرى، كانت عند الكشف عن المقبرة، مغطاة بقطع القرابين والمتاع الجنائزي المحطم، كشاهد على حدوث عملية سلب ونهب ثانية، تمت في زمن الأسرة العشرين.

وعندما كشف علماء الآثار، في العصر الحديث، عن التابوت الكبير وهو من الحجر الرملي الأحمر، وطوله ثلاثة أمتار وارتفاعه مترين، كان غطاؤه لا يزال مرفوعاً في حدود ضيقة، وقد اختفت المومياة، حتى عثر عليها فيكتور لوريه Victor Loret، في مقبرة أمنحوتب الثاني^(٥).

أما مقبرة أمنحوتب الثالث وتحمل رقم ٢٢، فتوجد في الوادي الغربي، ويعرف اصطلاحاً بـ **وادي القروء**، لوجود جبانة للقروء المقدسة. ومن ثم فقد أقيمت مقبرته خارج الجبانة الملكية المقدسة. ورغم أن العمل قد بدأ فيها، منذ وقت مبكر من عهد الملك، إلا أنها لم تكتمل، وإذا أراد أمنحوتب الثالث أن يتميز، مقارنة بأسلافه، فقد خطط لتجهيز مقبرة أكبر، وأكثر تعقيداً من مثيلاتها، لتضم عدداً من القاعات ذات الأعمدة وعدداً من الحجرات. وتضم حجرة التابوت قسمين: الأول وهو أكثر ارتفاعاً وتحمل ستة أعمدة سقفه المزدان، بصور فلكية عظيمة الشأن. أما القسم الثاني، وهو أكثر انخفاضاً، فلم يتبق منه سوى حطام التابوت الحجري. ولا شك، أن ضخامة هذه المقبرة وثرائها، قد شددت إليها أيضاً، منذ وقت مبكر، إهتمام اللصوص. ومن السمات الأصلية التي تميزت بها هذه المقبرة، وجود حجرتين ملحقتين بحجرة التابوت وكانت مخصصة بلا شك لتدفن فيها الزوجتان الملكيتان: **تبي و سات آمون**.

(٥) وذلك عام ١٨٩٨. لمزيد من التفاصيل راجع: دسيد توفيق: آثار الأقصر الفرعونية. دار النهضة العربية. ١٩٨٢. ص ٢٢٤. (المترجم)

مقاصير مصر العليا

أما المعابد أو المقاصير التي شيدها أمنحوتب الثالث في مصر، خارج طيبة فلم يبق منها سوى مقصورتين.

مقصورة صغيرة في الكلب^(*). ويستند سقفها على أربعة أعمدة متعددة الأضلاع، وعلى واجهاتها الداخلية، تبرز صورة مصلصلة برأس حتحور^(١٢٣).

أما مقصورة استراحة المركب المقدس في إلفنتين، فهي مبنى تحيط به الأعمدة، كانت خطوطها أية في الرقة، ونسب أبعادها على قدر كبير من الانسجام والتناغم. لقد شُيِّدت في العام ٣٠ من عهد الملك، وكانت لا تزال قائمة، عندما شاهدها علماء الحملة الفرنسية على مصر. ولكنها دُمِّرت عام ١٨٢٢. كانت عناصرها مرتبة ترتيباً كلاسيكياً: فقاعدة البناء مرتفعة وذات إفريز، والصعود إليها، عن طريق سلم على الجانبين المتقابلين. وفي الوسط استراحة المركب، يحفها من الجانبين رواق من أربعة عشر عموداً مربعاً، وكل مدخل من المدخلين يكتنفه أسطوانان مقنيان. والأعمدة ترتبط فيما بينها بواسطة جدار منخفض بإفريز ذي كورنيش مصري^(١٢٤). إن طراز هذا المبنى المحاط بالأعمدة قديم جداً^(١٢٥).

في النوبة وفي السودان وفيما وراء الجندل الثالث

وفي النوبة أيضاً، كان نشاط أمنحوتب الثالث المعماري عظيماً.

ونذكر على وجه التحديد المعبد الذي شيده المعاهل الملكي في صواب، فيما بين الجندل الثاني والجندل الثالث. وهو من أجمل معابد السودان، ويذكرنا أحياناً بمعبد الأقصر. لقد شُيِّد من الحجر الرملي على البر الغربي لنهر النيل. إن اللوح الحجري

(*) شمال إدفو. (الترجم)

الذى تم الكشف عنه، فى معبد مر إن پتاح الجنائزى، يصفه على النحو الآتى، فى سياق حديث أمنهوتپ الثالث:

لقد شيدت معبد للملايين السفين، يرتبط ارتباطاً أصيقاً مع آمون - رع، رب عروش القطرين. (واسمه) «هذا الذى يتجلى متألّفاً مع ماعت» (كان فى وسع ماعت أن تندمج فى تمي (١٣٦)). إنه غنى بالذهب الخالص، ومكان راحة أبى، إبان كافة أعياده. (وإذ شُيّد) من الحجر الرملى الأبيض الجميل، فقد أقيم ليوم. وإذ غُشّي بكامله بالذهب، تزدان أرضيته بالقضة. وأقيمت مسلتان شامختان، واحدة على كل جانب. وعندما يتجلى أبى وسطهما وضاًء متألّفاً، أكون فى صحبته. لقد وهبته آلال الأبقار وقطعاً من أفضل أنواع اللحم (١٣٧).

وبدأً من ١٩٦٣، ومن خلال أعمال التنقيب المتتالية والمثمرة، فإن بعثة أثرية ممولة من قبل ميشيلا شيف - جيورجيني Michela Schiff-Giorgini وتضم تحديداً جان ليكلان Jean Leclant وكليمان روبيشون Clément Robichon، قامت بالتنقيب فى الموقع تنقيباً علمياً منظماً، مع ملاحظة أن الموقع كان قد شُغل قبل أمنهوتپ الثالث. وكما كان الحال بالنسبة لمعبد الأقصر، فقد أمكن التمييز بين عدد من المراحل، عند تشييد معبد هواب وإن كانت أربعاً. وعلى غرار معبد الأقصر فقد بدأ البناء هنا، على ما يبدو، من القسم المكتون، المخصص لقدس الأقداس - فى مؤخرة المعبد - ليمتد تدريجياً فى اتجاه الشرق وصولاً إلى صرح المدخل الأول.

فإذا بدأنا السير من رصيف المرسى على نهر النيل، نلتقى بادئ ذى بدء، بالصرح الشامخ، المقابل للمرحلة الرابعة والأخيرة من الأعمال، ويتقدمه طريق كباش طويل وهى المرحلة الثالثة، ويفضى إلى القسم الأمامى من باب، بأربعة أساطين نخيلية، تشكل ردهة المدخل. وكان صرح ثانٍ، يقع أمام فناء تحفه أروقة ذات أساطين، وهو المرحلة الثانية من عملية التشييد. وبعد ذلك، يصل المرء إلى فناء ثانٍ، تحفه أروقة تضم ستة وثلاثين أسطواناً مقنّى، ويتقدم بهو أساطين آخر، يضم أربعة وعشرين أسطواناً، وهو المرحلة الأولى. وبعد ذلك، كان يفترض أن يصل المرء إلى مقصورة المركب المقدس وقدس الأقداس والحجرات الملحقة. ولكن لم يتبق شيء من كل هذا القسم الغربى.

وإذا نظرنا إلى الغرض من إقامة هذا «المعبد للملايين السنين» الذي كانت تقام فيه، في آن واحد ومعاً، الشعائر من أجل كل من الملك و أمون - رع، يمكن أن نقارنه بالمعابد الجنائزية، بالبر الغربي لمدينة طيبة. ولكن هنا بالتحديد، تبرز بشكل واضح، أهمية الأعياد اليوبيلية، الماثلة من خلال نقوش مصورة على الصرح الثاني، وتصل إلى مستوى فريد من الروعة والجمال.

كانت تقلبات متنوعة تنتظر التمثالين الشامخين للملك الأسد في صوب، وهما من الجرانيت وطول كل واحد ٢١٤ سم. فقد نقلهما، بادئ ذي بدء، ملوك الأسرة السودانية إلى جبل بركل عند الجندل الرابع. ويوجدان الآن في المتحف البريطاني، وقد لحق بهما تدميراً بالغاً. إن صور الأسد الملكي هذه، بصفتها الأسد الحارس لمعبده، صور فريدة في بابها، إلى حد كبير وتلتزم بأسلوب شديد التأثير، وسيقول توت عنخ أمون، في إحدى مدونات^(١٢٨)، أنه قد عثر على أحد الأسدين في الحجر وكان غير مكتمل فأكمله، وإن أقيم في المعبد بمعرفة خليفته أي. وقد دمرت مدونات أمنهوتب الثالث التذكارية التكريسية بالطريقة في عهد أمنهوتب الرابع. ومع ذلك، ما زال في وسعنا قراءة النص الآتي، إبرازاً لجانب من جوانب الأيديولوجية الملكية التي ستشهد تطوراً ملحوظاً في عصر الرعامسة:

الإله الكامل، أسد الأسراء، الأسد المتوحش، عندما يشاهد الأعداء يطئون طريقه^(١٢٩).

يا له من تحذير بالغ للسودانيين الميالين إلى التمرد.

وإلى الشمال قليلاً، في صانقة، على بعد ٢٠٠ كم جنوب وادي حلفا، شيد أمنهوتب الثالث معبداً «توأماً»، إذا صح القول، لمعبد صوب، وكرسه للشعائر المقامة من أجل زوجته تمي. وللأسف فإنه مدمر تدميراً بالغاً.

إن وجود المعابد الجنائزية في النوبة، وتصوير الأعياد اليوبيلية، تظل وسيلة لغرس السلطة المصرية، من خلال التأكيد على هيمنة فرعون الأبدية على أراضي الجنوب.

وبعيداً في اتجاه الجنوب، وبعد تجاوز الجندل الثالث، وفي قابو قرب جزيرة أرجو، علماً بأن هذا الموقع كان قد شُغل، منذ نهاية الأسرة الثانية عشرة، على ما

يعتقد، جرت بعض الحفائر عام ١٩٦٥ بمعرفة جامعة چنيف، فظهرت إلى النور بقايا معبد من الطراز الكلاسيكي وكان من إنجازات ملوك الأسرة الثامنة عشرة ورعمسيس الثاني^(١٣٠). وقدم أمنحوتب الثالث من جانبه إسهامه في هذا التشييد. كان المعبد مبنياً من الحجر الرملي ومساحته كبيرة إلى حد ما. كان طوله الإجمالي ٧٥,٦٠ متراً وعرض الصرح الأول ٤٠ متراً، ويفضى إلى فناء محاط بأروقة ذات أساطين. ويعد ذلك، كان صرح ثانٍ يؤدي إلى بهو أساطين تليه ردة وقدرس الأقداس الذي تحفه حجرات جانبية. وكان مكرساً للإله آمون.

إن وجود هذا المعبد تأكيد على حركة تمصير نشطة، سادت بلاد كوش في هذا العصر. ولكن هذا المعبد صار في الوقت الراهن أثراً بعد عين، فلم تغالب الأيام سوى بقايا باللغة التميمير^(١٤).

هكذا ظل أمنحوتب الثالث يؤكد، في أن واحد، على وجوده وسؤده كملك، وعلى هيمنة الإله آمون وسلطانه، حتى الأراضي القصية من الإمبراطورية وأبعدها.

ولكن على هامش هذا الانتشار المتسبب لإله الكرنك، بدأ في الظهور تيار روحاني وديني له شأنه، تحركه على ما يظن النظر بارتياح إلى السلطان الديوي لكهنة طيبة، فأخذ يولى اهتماماً جديداً إلى آلهة هليوبوليس الطيدة. هكذا لاحت في الأفق حركة مزدوجة: نزعة تتطلع إلى إيجاد شكل من أشكال التوحيد لجميع الآلهة المصرية، وإلى التلقيقية التي تجمع، ربما لأسباب سياسية، بين مختلف الأشكال الشمسية في كيان إلهي واحد، وفي الوقت نفسه، أخذت منزلة رع وأتون ورفعة شأنهما، تتعاظمان.

(*) تقع محاجر الحجر الرملي في جنوب الصعيد، وتتفاوت جودة أنواعه. كانت منطقة جبل السلملة توفر حجراً رائعاً، استخدم عند تشييد أهم عناصر معبد الكرنك كبهو الأساطين. وأرداً أنواع هذا الحجر توجد في التوبة جنوب الجندل الأول واستخدم في بناء معبد جبل البركل وصواب، وهذا ما يفسر حالة الدمار التي لحقت بهذين المعبدتين.

(المترجم) C. Lalouette, *l'Art figuratif dans l'Égypte pharaonique*, Flammarion, 1992, p.19.

٦- السياسة والدين:

آلهة هليوبوليس تستعيد رفعة شأنها

شهدت مصر منذ عهد تحوتمس الثالث، تقدماً بطيئاً لعقائد هليوبوليس. وربما كان هذا الملك، قد لاحظ منذ سنين شبابه المضطربة، مخاطر التحرشات السياسية التي كان يقودها كهنة آمون الطموحون. وبدأً من عهده، ومن عهد ابنه أمنحوتب الثاني تحديداً، ظهرت «لغة» دينية جديدة، سواء في القائمة الرسمية لألقاب الملك أو في الترانيم الدينية، لتشهد على صعود نجم الإله أتون. وما اصطلاح على تسميته بشورة أمنحوتب الرابع، ابن أمنحوتب الثالث وخليفته، ليس في واقع الأمر سوى النهاية الطبيعية لتطور، بدأ قبل قرن من الزمن، على تربيته على عرش البلاد.

لم يكن أتون إلهاً جديداً. وتدل الكلمة على قرص الشمس، موئل الإله رع وسكناه، الذي كان يطلق عليه تقليدياً «هذا الذي يقيم في قرصه» (أتون). كان رع وأتون يشكلان كياناً إلهياً واحداً، منذ أقدم العصور. إن الصورة التي يراد لها، أن تكون صورة نموذجية، تتفرد بها مثل العمارة، نتيجة تجاهل مفردات الواقع التليد، فتُمثل الشمس بسواعد تنتهي بأيادٍ تمتد ناحية الأرض، إنما تلتقي بها قبل ذلك، بأكثر من ألف سنة، وقبل أمنحوتب الرابع، وفي مقون الأهرام، حيث ورد نص يقول عن الشمس (٥): «إنك (٥) تحيط بالأرض وكل شيء داخل ساعديك» (١٣١). فهذه الصورة أسطورة استقرت منذ أقدم العصور في الوعي المصري.

كما أن التقليد المتواتر يرى أن الملك «سيد كل ما يحيط به القرص أتون». بل ومنذ عهد تحوتمس الأول، كان مصطلح أتون في سياق هذه الصيغة ذاتها، لا يشير إلى بدن الجرم السماوي فقط، بل إلى الإله ذاته. وبالفعل فقد وردت الكلمة مقترنة بعلامة المخصص الدال على الإله (٥*)، والشمس فوق رأسه (١٣٢).

(*) مع ملاحظة أن لفظ شمس مذكور في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) راجع برناديت موني: المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي. الترجمة عن

الفرنسية: ماهر جويجاتي. دار الفكر. ١٩٩٩. ص ٦٠ وص ٢٢. (المترجم)

أما وحدانية الإله، فقد ذُكرت في كثير من الأحيان في نصوص الأسرة الثامنة عشرة^(١٣٣)، كما سبق أن أوضحنا ذلك بجلاء، في كل مرة التقينا بهذا التعبير. فكل مؤمن ينظر إلى إلهه، بصفته الأوجد المتفرد وخالق العالم. الأمر الذي لا يستبعد وجود معتقدات سحرية أخرى، ولا سيما الأوزيرية، التي لم يقدر أمنهوتب الرابع على المساس بها. ولا ينبغي الخلط بين تنوع العبادات، كما يؤمن البعض في أيامنا هذه، بالإله الواحد أو ييهوه^(*) أو ييوثا، وبين الإيمان الشخصي. كما لا ينبغي إدراج مفكرى العصور القديمة في مقولات أو تصنيفات دقيقة وحديثة.

ومن عهد إلى عهد، ومن عصر إلى عصر، يمكن ملاحظة، إعادة إنتاج فكر هليوبوليس القديم وعقيدته، بكل وضوح، مع تكيفهما بالواقع الجديد، وما وراءه من بواعث سياسية، في أغلب الأحوال.

كما أدخل أمنهوتب الثاني تعديلاً موحياً على قائمة ألقابه الرسمية. إن لقبه الخامس، لقب ابن رع، ينعته في بادئ الأمر، بصفته «الملك حاكم طيبة»، ثم تغير إلى «أمنهوتب، الإله الكامل حاكم هليوبوليس»^(**).

كما شيد معبدًا شمسيًا بجوار تماثيل أبو الهول، في الجيزة. وفي الجزء العلوى المقوس من لوح حجرى صغير - عثر عليه سليم حسن الذى عثر أيضاً على اللوح الحجرى الكبير^(١٣٤)، وكشف عنهما بجوار أبو الهول الذى كان قد أصبح إلهاً شمسيًا - نحتت صورة هورس مدينة أنفو، بجناحيه المنبسطتين. والجرم السماوى أياوى أدمية ممدودة فى اتجاه الأرض كما تحيط بالفرطوش. وحسب منطوق هذا اللوح الحجرى، فإن رع هو الذى اسند الملك للعاهل الملكى الشاب: فأصبح اسم رع يتخلل النصوص وزحف عليها زحفًا.

(*) إله بنى إسرائيل، حسب الكتاب المقدس اليهودى. (المترجم)

(**) «نثر حقا إيون» بالمصرية القديمة. (المترجم)

إن ترنيمة عظيمة للإله آمون - رع، مدونة على بردية يحتفظ بها متحف القاهرة ويعود تاريخها إلى عهد أمنحوتب الثاني، كان لها منذ ذلك الزمن، نبرات ذات نزعة طبيعية، تميل إلى البساطة وعدم التكلف، حتى يمكن القول أنها نزعة «عمارنة»^(*):

التعبد (لإله) آمون - رع، الثور المقيم في هليوبوليس، رئيس الآلهة جمعاء، الإله الكامل والمحبيب، الذى يعطى الحياة لكل لُهب ولكل ماشية.

تحية لك، أيا آمون - رع، يا رب عروش القطرين، المتسيد على الكرنك، يا ثور أمه، المتسيد على الحقول، (الإله) صاحب الخطوات الواسعة، المتسيد على مصر العليا، رب المهاو وأمير بونت، وإله السماء العظيم، أحد الأقدمين على الأرض، سيد كل الأشياء، إنه الواحد المتفرد، فلا يوجد أحد خالفه، إنه ثور التاسوع الكامل، ورئيس الآلهة جمعاء^(١٣٥)، مالك الحقيقة والعدالة، وأبو الآلهة، الذى يشكل البشر وخالق الأغنام، وسيد كل ما هو موجود، خالق نباتات الحياة والمراعى، الذى يُحى القطعان، إنه القدرة الإلهية التى خلقها پتاح، الفتى الجميل المحبوب، الذى لا تكف الآلهة عن التهليل له، فاطر العالم السفلى والعالم العلوى، الذى ينير القطرين، بينما يعبر السماء فى سلام، إنه رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى (الاسم داخل خرطوش)، الصادق القول، رئيس الأرضين، صاحب البسالة القديرة، سيد الهيبة إنه كائن مرموق، صانع الأرض بأكملها، وإرشاداته تتفوق على (إرشادات) الآلهة الأخرى، والآلهة فى فرح وابتهاج بسبب جماله، ولا تكف عن الإغبطاء من أجله فى پر-ور، بينما يظهر فى پر-نيسر^(١٣٦)، إنها مولعة بشذا عطره، عند عودته من بونت، إنه أمير الأريج، والهابط من بلاد المجاوى (إنه الإله) نو الوجه الجميل، القادم من البلد الإلهى، إنهم يندفعون عند قدميه، بعد أن اعترفوا بئنه صاحب الجلالة، سيدهم:

«أيا رب الرهبة، الذى يثير فرحاً بالغاً فى النفوس، يا صاحب المجد العظيم، (أيها الإله) نو الإشراقات القوية، فلنكن الغبطة من أجلك، أنت الذى خلقت الكيانات الإلهية، ورفعت السماء بعد أن أزحت الأرض، أيها الفطن اليقظ والناجح المزدهر، أيا

(*) نسبة إلى تل العمارنة، عاصمة أمنحوتب الرابع - نخناتون. (المترجم)

مين - أمون، يا سيد الزمن الأبدي، فاطر الزمن اللانهائي، ومالك المدائح والتهليلات،
المتسيد على الكرنك، صاحب القرون المتينة والوجوه الجميلة. يا مالك التاج العظيم،
بريشته العاليتين....»

تحية لك، أيا رع، يا مالك الحقيقة والعدالة، وصاحب المقصورة المستورة، يا
سيد الآلهة.

أيا خبيرى، القائم فى قاربه، الذى يأتى بالآلهة إلى الوجود، عند النطق
بالكلمات.

أيا أقوم، يا خالق البشر، الذى يختار أشكالهم ويجعلهم يحيا، ويفرق بشرة
أحدهم عن بشرة غيره.

(الإله) الذى يصفى إلى صلاة من يعرف المحن والضراء، (الإله) صاحب القلب
الرؤوف على من يتوسل إليه، الذى يخلص المذعور من الوقع المتناول، الذى يفصل
المكروب عن الفواجع. (إنه) مالك المعرفة، والطعام يولد من فمه. ويجئ النيل حسب
رغبته، إنه سيد الرقة والوداعة، والذى يلهم النفوس حباً عظيماً. إنه يمنح البشر
أجمعين الحرية فى روحاتهم وغدواتهم. وإذا ينشط فى الفنون^(١٠)، فقد أتى إلى الوجود
بنعم النور. والآلهة تفرح بجماله وتحيا عند رؤيته. أيا رع، المبجل فى الكرنك، (الإله
صاحب) الإشراقات المتألقة فى قصر بن بن^(١٢٧). الهليوبوليتانى^(١٠٠)، رب عيد ميلاد
الهلال، فمن أجله يحتفل بالأيام الستة، لعيد الربيع الأخير من القمر، أيها السيد العلى
على الآلهة جمعا، الذى يمكن النظر إليه ملياً فى قلب الأفق، يا رئيس البشر. إن
اسمه خفى، بما يفوق ولادته أيضاً، فاسمه أمون (أى: «الخفى»).

(*) (السائل الأولى الذى وجد قبل الخلق.

من الجدير بالذكر أن نقارن هذه الفكرة بالآية الأولى من الإصحاح الأول من سفر التكوين من
الكتاب المقدس:

«كانت الأرض خالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرفرف على وجه المياه، وقال الله
«فليكن نور»، فكان نور». (الترجم)

(**) نسبة إلى هليوبوليس. (الترجم)

تحية لك، أيها المتسيد في سلام، يا رب الفرح.. فعندما ينتشر حُبك (بضم الحاء) عبر الأرضين، وتنبير أشعتك العيون، إنها السعادة للبشر. وعندما تسطع، فالأغنام (ذاتها) تنتشى. وعندما تتلألأ، يصبح حُبك (بضم الحاء) في سماء الجنوب وعذوبتك في سماء الشمال. إن جمالك يفتن القلوب. وأن تُحَبَّ (بضم القاء) يجعل السواعد بلا قوة. وشكلك الكامل يصيب الأيدي بالشلل وتنسى الأنعام عندما تراك. أيها الشكل الأوحده المتفرد، الذي خلق كل ما يوجد، أيها الواحد المتفرد من بين المتفردين، الذي فطر كل ما هو موجود. لقد انبثق البشر من عينيه^(١٣٨) ومن كلمته جاءت الآلهة إلى الوجود. (أنت) يا خالق المراعى التى تحيا عليها الدواب، (يا خالق) نبات الحياة المخصص للبشر، (أنت) الذى يحافظ على حياة الأسماك فى الجداول، والطيور فى السماء، ويعطى النسمة لمن لا يزال فى البيضة، فيطعم الطيور والكائنات التى تطير والشعابين والحشرات ذاتها، ويوفر ما تحتاجه الفئران فى جحورها ويعطى الحياة للبراغيث...

تحية لك، أنت الذى فطرت كل ذلك، أنت الواحد المتفرد من بين المتفردين، الساهر على البشر أجمعين، فيقضى وقته فى السعى وراء كل ما يفيد قطيعه، أيا أمون، يا مثبت الأشياء كلها، أيا أتوم، أيا هور - أختي^(١٣٩). ويُجزل لك (البشر) المديح قائلين: «إننا نهلك لك فرحاً، لأنك تتعب بسببنا، إننا نسجد أمامك، لأنك خلقتنا».

التحية والشكر والحمد لك، من قبل قطيعك بأكمله. فالأفراح تعم من أجلك، كل بلد من البلدان الأجنبية، حتى عَنان السماء ويطول الأرض وعرضها، وحتى أغوار الشديدة الإخضرار. وتأتى الآلهة منحنية أمام جلالتك، مع الإشارة بمجد خالقها، مبتهجة عند اقترابها بمن أنجبها. وتقول لك: «مرحباً، مرحباً فى سلام، يا أبا آباء الآلهة جميعاً، الذى رفع السماء وأبعد الأرض، وفطر كل كائن وشكل كل موجود. أيها العاقل، يا رئيس الآلهة، إننا نعبد مجدك، لأنك خلقتنا، لقد عملت لتأتى بنا إلى الدنيا. إننا نجزل لك المديح والثناء، لأنك متعب بسببنا».

التحية لك، يا فاطر كل الأشياء، يا سيد الحقيقة والعدالة، يا أبا الآلهة، يا جابل البشر، يا خالق القطعان جميعاً، يا سيد البنور. كما تُحَيِّ حيوانات الصحراء، أيا

أمون، أيها الثور ذو الوجه الجميل، المحبوب في الكرتك، (الإله) صاحب الإشراقات المتألقة في قصر بن بن، الذي تتجدد تيجانه في هليوبوليس، أيها القاضي الذي يفصل بين العديين (حورس وست) في قاعة (المحكمة) الكبرى. (أنت) يا من يتسبد على التاسوع، أيها الواحد المتفرد من بين المتفرعين، الذي لا مثيل له والمتسبد في الكرتك... إله الأفقين، يا حورس الشرق. أنت الذي خلقت الصحراء والفضة والذهب واللازورد الخالص، فيمشييته...^(١٤٠).

هنا يظهر فكر متجدد وإيمان عميق بالنجم الشمسي، كشخصية إلهية متفردة، مع تعدد أسمائها وتنوعها. هكذا جاء إعلان وحدانية الله، في إطار من التسامع وسعة الصدر. وتتعالى مظاهر الإشادة بعالمية ملكه التي تفيض على خلانقه، وأكثرها بساطة وتواضعاً. إن ورع المؤمن ينقله إلى حالة من الوجد والنشوة الروحية. تلك هي مواضع وصور سوف يستعيدنها، بعد قرابة قرن من الزمن، أمنحوتب الرابع، ابن حفيد أمنحوتب الثاني. فلم يكن فكر تل العمارنة ثورة. وهو ما تدل عليه وثائق أخرى.

إن تحوتمس الرابع، هو الفرعون المصطفى الذي اختاره حور إم أخت، الذي تراعى للأمير في المنام، عندما أخذه النوم بجوار إله الجيزة^(١٤١). كان إختياره إختياراً شمسياً إذن، ولكنه هليوبوليتاني. وفي كثير من الأحوال ينعت العاهل الملكي الجديد بصفة «صورة رع، ابن أمون»^(١٤٢).

وعلى جعران، نقرأ مدونة موحية إلى حد كبير، فتشهد على صعود نجم أتون، ليحل تدريجياً محل أمون - رع. كما كان في وسعه، أن يشارك في المعارك المربية:

إن كبراء نهاريثا، وقد حملوا جزيثهم على ظهورهم، ينظرون مسلّياً إلى من خيرو رع، عندما يتقدم خارج قصره. وإذا نهض لخوض معركة، فإن أتون أمامه، عندئذ يمكنه أن يقوض الجبال ويخفسها، ويدوس بقدامه البلدان الأجنبية... فيصبح قاطنوها مثل شعب مصر، تحت قيادة أتون للزمن اللانهائي^(١٤٣).

تلك أول شهادة، تؤكد على الرغبة الأكيدة في تأسيس إمبراطورية موحدة، خاضعة للإله الشمسى.

وكثيراً ما نلتقى باسم أتون فى عهد أمنحوتب الثالث. إنه جزء من العبارات المركبة من أسماء آلهة، سواء كانت تشير إلى مركب العاهل الملكى أو واحدة من فرقته العسكرية^(١٤٤). بل يمكن الخلط أحياناً بين كهنة آمون ومؤمنى أتون. وهكذا، فإن شخصاً يدعى آمون إم إيبث، وهو قائمقام فى كوش، قد خُلف وراءه مغربشة فى النوبة، تطلق عليه صفة «خادم آمون الثانى» (هم - نثر). وهو لقب يؤكد أهمية الشخص فى التراتب الهرمى الكهنوتى، كما ينعت أيضاً بلقب «خادم أتون» (باك)^(١٤٥).

لم يصل تأثير عبادة أتون، فى حقيقة الأمر، إلى الديانة الرسمية فقط، ولكن أيضاً إلى ديانة سواد الناس. فنشاهد، منذ ذلك العهد، فى مقبرة رع موزا، التعريف الآتى للإله هور أختى، والذى ستستعيد نصوص قل العمارة. إنه «النور الذى هو أتون»^(١٤٦). والأمثلة من هذا القبيل كثيرة.

ففكر أمنحوتب الرابع ليس ثورة، بل جاء نتيجة طبيعية لما يشبه عملية اختصار روحية، ربما سببتها طموحات كهنة آمون، أو جاءت نتيجة ظروف سياسية جديدة: فكان الوضع يحتاج إلى إله واحد متفرد، يربط بلاد الإمبراطورية ربطاً، وكانت الشمس بأسمائها المختلفة، الإله^(*) المشترك لمجموع الأراضى الخاضعة للهيمنة المصرية. ولتزداد فهماً بهذه الحقيقة، ولتزيد من التأكيد على المشاعر الشعبية حول هذا الموضوع، يكفى أن نقرأ الترنيمة المنحوتة على لوح حجرى، يحتفظ به فى الوقت الراهن، المتحف البريطانى، والذى جاءت به، مقبرة سوتهى وهور الذين عاشا فى عهد أمنحوتب الثالث وشغل كل منهما منصب «المشرف العام على أشغال آمون» وكانا من الأصدقاء المقربين للعاهل الملكى:

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس، مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

تحية لك، يا جمال روع على مدار الأيام، الذي يسطع مع طلوع الفجر، دون توقف، أيا خبري القائم بأعمال مضيئة. إن أشعته في الوجوه، ولكن لا يستطيع المرء رؤيتها. إن الذهب الخالص (ذاته)، لا يمكن مقارنته بضوءك الخافت. وبصفتك بناءً، فقد صُغت من الذهب جسدك. أنت الذي شكلت كل شيء، لم يشكك أحد على الإطلاق، أيها الواحد المتفرد، الذي لا مثيل له، الذي يعبر الزمن الأبدي، مهيمناً على ملايين الدروب الخاضعة لك. إن نورك يشبه نور السماء العليا، ولكن إشعاعاتك أقوى من ألوانها. عندما تعبر السماء، يستطيع كل واحد أن يراك، ولكنك تسير أيضاً محتجباً من أنظارهم. وتتجلى مع مطلع فجر كل يوم من الأيام، وتزدهر الملائكة النهرية، بقيادة جلالتك. وعلى امتداد يوم واحد قصير، تجتاز طريقاً طوله ملايين وعشرات ملايين الفراسخ. ولكن كل يوم من أيامك يدوم برهة^(*). وبعد إتمام (مسيرتك)، تغرب لتتم على النحو ذاته، ساعات الليل. وتواصل هذه المسيرة، بأدلاً مجهوداتك، بلا انقطاع. إن جميع العيون تبصر بفضلك، ولكنها لا تفكر في ذلك، عندما يغرب جلالتك. إنك تدفع (العالم) إلى النهوض مع توهج الفجر. إن أشعته تفتح العيون التي تفتق عندئذ من نومها. ولكن عندما تغرب في أفق ماثو^(**)، فإنهم ينامون وكأنهم موتى.

التحية لك، يا آتون النهار الذي خلق البشر وأحياهم، أيها الصقر العظيم نور الريش الأرقش، الذي جاء إلى الوجود مرتفعاً بذات نفسه، فظهر وحيداً، دون أن يولد. أيا هورس البكر، القائم في قلب فوت السماوية، فإنه يُجزل الجميع صيحات الفرح والإبتهاج، سواء عند شروقه أو عند غرويه. إنه صانع منتجات الأرض، إنه خنوم، إنه آمون البشر، فاتح الأرضين، من الأكبر إلى الأصغر، والأم واهبة الخير للآلهة وللنفس،

(*) وحول المعنى نفسه، تدور إحدى آيات العهد الجديد من الكتاب المقدس:

«إن يوماً واحداً عند الرب بمقدار ألف سنة، وألف سنة بمقدار يوم واحد».

رسالة بطرس الثانية: ٨:٣. (المترجم)

(**) الجبل الغربي.

والحرفى الصبور، الذى يعتره التعب، بينما يشكلهم بأعداد لا حدود لها. إنه الراعى المقدام، حامى قطيعه، والملاذ الآمن الذى يسمح لها أن تحيا. ويهرع مسرعاً متعجلاً، (إنه) خبير، نو الولادة المرموقة، مرتقياً بجماله فى جسد نوت السماوية، ليسطع على الأرضين بفضل قرصه (أتون). إنه الأقدم الأسمى فى القطرين، الذى صنع نفسه بنفسه، ورأى أنه يصنع ذاته، إنه الرب الواحد المتفرد. ويصل يومياً إلى أطراف الأراضى، بينما يشاهده من يسيرون على سطحها، مضيئاً فى السماء صيرورات اليوم. إنه ينسّق فصول السنة بشهورها، ويجلب الجو الحار، كيفما يريد، والهواء المنعش وطراوته، كيفما يريد. ويتيح للأبدان أن تستريح، عندما يعانقها. والأرض من أقصاها إلى أدناها، يدب فيها النشاط فرحةً مسرورة، بشروقه اليومي وتتعب له^(١١٧).

إنه نشيد حب وقصيدة ورع، وتكشف الصور والكلمات، عن مشاعر المؤمن الحارة وعن العشق والهوى. لقد تعرّف سوتى و هور فى البلاط الملكى، على الأمير أمنهوتب الشاب الذى قضى نعومة أظفاره فى أجواء الترف والبلذخ اللذين سادا هذا البلاط، حيث يختلط الفينيقيون والسوريون بالمصريين. إنه عالم مؤلف من أجناس مختلفة، يوحدهم دين واحد، قائم على العقيدة الشمسية. كما كان عالماً، دفعه الإهمال والتقصير فى معالجة الأوضاع الخارجية وسهولة الحياة المادية - دفعه إلى جعل عالم الروح والفكر أكثر حيوية وأكثر تأججاً. إنه عالم أخذ يصوغ فكر إمبراطور المستقبل.

ولكن أصبحت الأوضاع الخارجية فى واقع الأمر، على قدر كبير من الخطورة، قرب نهاية عهد أمنهوتب الثالث، حول عام ١٢٨٠ ق.م. فقد حدث أن اختل فجأة التوازن السياسى فى آسيا. وكان أمنهوتب الثالث، بعد أن تقدمت به السن وهو يعيش وسط بلامه وثرواته الطائلة، يميل إلى المماطلة والتريث فى حسم الأمور، بعد أن فترت عزيمته بلا شك، وربما أيضاً بالإصرار، بعيداً عن الحنكة والفتنة، على الحفاظ على السلام بلى ثمن، ليعمل دون أن يدري، على تماظم المخاطر الجسيمة، المهددة لإمبراطورية أبيائه.

٧- التهديدات خاصر الإمبراطورية

فى عام ١٢٨٠ ق.م، كان أمنحوتب الثالث، لا يزال دون منازع، إمبراطور الشرق، وكانت طيبة أغنى مدن العالم. ولكن ستتبدل أوضاع دول آسيا تيدلاً ملحوظاً، لتقود فى البداية إلى إضعاف حلفاء مصر، والميتاني تحديداً. وعلى العكس من ذلك، فقد استطاعت خاتى أن تتجاوز الأزمة التى كانت تقضى على النظام الملكى، عندما تغلب عليها الأمير سويلوايوما، الذى سبق أن اختاره والده تودخاليش الثالث، شريكاً له فى الحكم. فعندما تربع سويلوايوما على العرش أعاد إلى خاتى هيمنتها على آسيا الصغرى. وأصبحت المؤسسة الملكية، بلا منازع سيدة البلاد، وبات الجيش الميثي(*) قوة عظيمة، بعد أن تم تدعيمه بقوات تابعه، فى الشرق وفى الشمال فى جبال هونت(**)، حيث كانت تدور معارك شرسة ضد شعوب جاسجا وفى الغرب فى أرزاوا. فكان الإنفتاح ناحية الجنوب، أمراً لا غنى عنه. الأمر الذى يوفر لبلاد خاتى الهيمنة على شمال سوريا، فضلاً عن الوصول إلى مياه البحر المتوسط. ولكن الصدام المباشر مع مصالىح الميتاني، كان من الصعب تجنبه.

وتحول سويلوايوما إلى الهجوم، وفتح بسهولة شمال سوريا بأكملها، دون أن يتمكن توشراتا، ملك الميتاني، من المقاومة مقاومة فعالة. وحاول هذا الأخير عبثاً، أن يشن هجوماً مضاداً، فى اتجاه ساحل البحر المتوسط. كان يرمى بلا شك إلى إعادة الإتصال بممتلكات مصر حليفته وبأمرء الميتاني فى سوريا. ومن الآن، كانت سلطة الميتاني، على هذه المناطق قد تقوّضت. وبدون أن يسمى سويلوايوما إلى تأمين سيطرته المباشرة عليها، عقد سلسلة من الإتفاقات مع الأمراء، يلتزمون بموجبها

(*) الميثيون هم سكان بلاد خاتى، لأن حرف الحاء فى أول الكلمة يقرأ خاء. وأطلق عليهم المصريون اسم خيتا.

M. Damiano - Appia. L'Egypte, dictionnaire encyclopédique, Gründ 1999, p.124.

(الترجم)

(**) مملكة فى آسيا الصغرى. ولا ينبغي الخلط بينها وبلاد هونت Pount، الواقعة على البحر الأحمر، جنوب مصر. (الترجم)

بالإعتراف بالسلطة الحيثية مقابل وعد بتقديم المساعدة العسكرية^(١٤٨). ولم تتدخل مصر لمساعدة الأمراء السوريين الخاضعين لوصايتها، عندما استنجدوا بها. واحترم الملك الحيثي حدودها، ويبدو من الواضح أنه لم يجد في مقهوره، أن يخوض الحرب ضدها. عندئذ دارت بعض المباحثات، لتنتهي إلى عقد معاهدة، كانت الأولى التي يتم إبرامها بين مصر والخاني، لتؤكد على الحدود التي سبق أن رُسمت في عهدي أمنحوتب الثاني وتحوتمس الرابع، الفصل بين الليتاني ومصر. كانت أوجاريت ترسم الحد الشمالي لممتلكات مصر. هكذا بقيت قادش ومملكة أمورو تابعتين لمصر.

إن ضعف أمنحوتب الثالث هذا، وسياسة الحياد الجديدة هذه، والتوقف عن أي نشاط، أبعدت عن مصر حلفاؤها القدامى. ولما كان تأمين سلامة تجارها، هو الشغل الشاغل لملك بابل، فقد سعى بدوره إلى التحالف مع سوبيلوايوها. ولم تتوقف التقارير التي تدق ناقوس الخطر، لتصل تباعاً إلى بلاط طيبة. وكان ريب - هادي، ملك بيبيلوس، من المخلصين لمصر، يحيط العامل الملكي علماء، بالدراسات التي كانت تعاكضه، في هذا العالم الشرقي والسوري الذي شاعت فيه الفوضى. وكانت تقاريره تتميز بأكبر قدر من الدقة والوضوح، ومنها دسائس أهل بابل والأموريين ودسائس أمير قادش. هكذا يمكن أن نقرأ الآن على إحدى لوحات العمارة الصغيرة:

من ريب - هادي إلى سيده، ملك البلاد، الملك العظيم، ملك المعارك. ليت بلغت (إلهة) مدينة بيبيلوس، تمنح القوة لسيدي الملك. وعند قدمي سيدي، وشمسي، أسجد سبع مرات وسبع مرات أيضاً. إنني أحيط سيدي الملك علماً، بأن أزيرو (زعيم الأمورو) يعاديني، وأنه ذهب باثني عشر من رجالي، وطالبني بقدية تبلغ خمسين وزناً من الفضة. ورجال كنت قد أوفدتهم إلى سيميرا، نُقلوا على متن سفن أبناء هور وبيروت وصيدا. الجميع في أمورو اتحدوا ضدي وأنا مضطهد. انظر أيضاً، إن يابا - هادي، التحالف مع أزيرو هو عوي... اهتم إذن بشئون خادمك^(١٤٩).

كما عُثر على عدد كبير من الخطابات الأخرى المماثلة. ولكن أمنحوتب الثالث سدّ أذنيه عن الاستجابة لهذه النداءات الملحة، الصادرة عن الأمراء المخلصين للإمبراطورية.

وحيكك العديد من الدساتر المعقدة، تستهدف فينقيا وسوريا. إن أمراء هاتين المنطقتين، أو بعضهم على الأقل، سعوا إلى الإستفادة من هذا الوضع لتوسيع أقاليمهم، رغم التظاهر بالخضوع لمصر، فيلعبون حسب الظروف لعبة مزدوجة بل وثلاثية أحيانا. والمنافس الرئيسي، فى هذه الشئون، للمخلص ريب- عادى كان عبرى - عشيرتا، زعيم الأمور ووالد أنيرو الذى كان شخصا مرييا، فرغم انحيازه لسلطان الحيثيين كتب لفرعون قائلا:

إلى الملك، إلى الشمس، إلى سيدى، هكذا يتحدث عبرى - عشيرتا، خادمك، وتراب قدميك. عند قدمى سيدى الملك، أسجد سبع مرات، وسبع مرات أيضا. أنظر، فأنا خادم للملك، وكلب فى منزله، فأحرس مجموع بلاد الأمور، من أجل سيدى الملك. كما تحدثت إلى المشرف العام فاناطا، قائلا: «جند الفرق العسكرية التى ستحرر بلاد الملك وتحميها...»... الملك، الشمس، كما حصلت محصول سيميرا (ميناء فى فينقيا) ومحاصيل كافة البلدان التى أحرسها من أجل الملك، شمسى وسيدى (١٥٠).

الشمس و شمسى، هكذا يمتزج الملك بالجرم السماوى الذى يظل، طبقا لفكر تهورمس الثالث، الرباط السياسى والروحى الذى بجمع بلدان إمبراطورية آسيا، فى نظام إتحادى سليم. كما يعتبر هذا الواقع السياسى المصدر الذى ترتبت عليه العظوة الجديدة التى كانت من نصيب آلهة هليوبوليس وتصور إله عالمى، بجمع تحت سلطانه العبادات المحلية التى ظلت تحظى بكل التبجيل والتوقير. ومن الآن أخذت مصر كقوة دولية عظمى تتطور روحيا بما يتمشى مع سياسة محددة.

وفى مواجهة كل هذه الدساتر، ظل أمنهوتب الثالث بقصره فى ملقطة، وسط البذخ والترف والثروات التى تحيط به، يعيش حياة تبدو خاملة بلا نشاط، فى إطار مظاهر الأبهة والفخامة لحياة البلاط الملكى. وترتب على قوة الحيثيين الجديدة وعلى ضعف الفرعون، إنتشار الفوضى فى سوريا، على نطاق واسع. كان أمنهوتب الثالث، يقوض من جراء خمولة، الإمبراطورية العظيمة التى أسسها أباه الفاتحون.

ويبدو أنه أراد أن يحتفظ بقدر من الحياد، ربما على أمل القيام بدور الحكم بين خاتى والميتانى. وقبل وفاته بفترة قصيرة، أرسل العاهل الملكى المسن موفداً إلى ابن

خاله توشراتا ملك الميتاني، ليطالب يد ابنته تالوخيبا، ليتخذها زوجة له. كان هذا القران الشخصى الجديد، يرمى بلا شك إلى إيجاد توازن مع الحلف السياسى الذى تم إبرامه مع خاتى. وقويل هذا العرض بترحاب بالغ، إذا أخذنا بما ورد فى خطاب توشراتا إلى الفرعون:

إلى نيموريا^(٥)، الملك العظيم، أخى^(١٥١)، ملك مصر وصهرى الذى أحبه ويحبنى - هكذا يتحدث توشراتا، الملك العظيم، أخوك، وحموك الذى يحبك. أنا فى صحة جيدة. عسى أن يكون أخى وصهرى فى صحة طيبة أيضاً! عسى أن تكون بيوتاتك وزوجاتك وأولادك ورجالك ومركباتك وجيادك وكل بلادك وكل ما هو ملكك، فى صحة طيبة ومزدهرة. إلى أخى الذى أحبه، سوف أقدم له، أختى زوجة له عسى شاماش^(٥٥) وعشتروت يسيران أمامها، وعساها يساعدان على تلبية رغبة أخى! وعسى أن يسعد أخى فى هذا اليوم! وعسى أن يمنح شاماش وعشتروت أخى، سعادة فامرة وفرحاً كاملاً. عسى أن يحيى أخى إلى أبد الآباد^(١٥٢)...

السعادة واضحة جلية، بل محرّكة للمشاعر، بعد آلاف السنين. ويعيد التحالف مع فرعون بعض الأمل للعامل الملكى الميتانى الذى تقع بوله تحت التهديد المباشر للخاتى.

وارتفعت الخطيبة الملكية متجهة إلى طيبة. كانت أميرة فى مقتبل العمر وعدت للزواج من عجوز. وحفظ لنا الأدمر ذكرها. إن صور وجهها الجميل، موجودة فى أيامنا هذه، لدى كل تجار العبايات. وعند وصولها إلى الأراضى المصرية، سُمّيت نفرتيتى^(٥٥٥) أى «الجميلة - أنت». تلك هى الفرضية القديمة حول أصول نفرتيتى، وإن لم يأت البرهان عليها، بشكل قاطع. وربما كانت أيضاً مختلفة عن تالوخيبا، واحتمال أن تكون ابنة أى من كبار موظفى البلاط الملكى، الذى سيصبح ملكاً عند نهاية هذه

(٥) تصحيف اسم نب ماخت رع. (المؤلفة)

(٥٥) إله شمسى أسيرى. (المؤلفة)

(٥٥٥) وقد حُرِّفَت كلمة تيتى فى العامية المصرية إلى تاتا. عندما نتحدث إلى الطفل الذى بدأ يمشى. (المترجم)

الأسرة. كما يُقال أنها كانت بكل بساطة ابنة أمنحوتب الثالث وتقي. وما زال الأمر يحتاج إلى إقامة الدليل على صحته^(١٥٢).

ظل هذا الزواج، من الناحية السياسية، لا طائل منه، وبلا جدوى. كانت الأوضاع قد بلغت حدًا شديد الخطورة، حتى يمكن إيجاد مخرج لها بوسائل دبلوماسية، من هذا القبيل. إن وفاة أمنحوتب الثالث وتريع ابنه الشاب على عرش البلاد، وطريقة إدارته لشئون البلاد، سوف تدفع الأمور إلى مزيد من التفكك للإمبراطورية وانفراط عقدتها.

الفصل الثامن
تشدد أمنحوتب الرابع التعصب
أو زمن الانحطاط الأول

١- أمير في زهرة شبابه

حول عام ١٣٧٠ ق.م، تربع على عرش مصر المهيّب، صبي في الخامسة عشرة من عمره تقريباً، لفترة حكم قصيرة امتدت لتسع عشرة سنة. وكان الابن الوحيد المولود من اقتران أمنحوتب الثالث بالملكة تىي.

وهكذا يتحدث عنه الوزير المخلص الأمين رع موزا:

أنت الأورح المتفرد، وهذا البلد خاضع لسلطانك. الجبال ومحتواها الخفى، تأتي إليك بكميات وفيرة، لأن زئيرك وصل إلى قلوبها، كما وصل إلى قلب الرجال. إنها تطيعك كما يطيعك الشعب^(١).

من المحتمل، أن الأمير الشاب، قد شارك والده أمنحوتب الثالث السلطة، منذ العام ٣٠، بعد أن تقدمت السن بهذا الأخير، مع إحتفاظ الملكة تىي بنفوذ سياسى أكيد.

وحضر سفراء من بابل ومن الميثاني ومن خاتى، لابلاغ ملك مصر الجديد، تحيات ملوكهم وتهانيهم، وتقديم شواهد مادية على علاقات الصداقة والأخوة اللتين تربطهم.

هكذا بدأت في مصر سنوات عهد قصير، سوف ينسج العلماء المحدثون من حولها تأويلات تشوه الحقائق، وتقع في الأوهام.

حتى العام الرابع: الجدة والاعتدال

وإذ سار أمنحوتب الرابع على هدى الحركة الدينية الأخذة في التطور، منذ أكثر من مئة سنة، لم يحتفل بمراسم تتويجه في طيبة، بل في هرموتيس، المسماة «هليوبوليس الجنوب»^(٢).

(*) ينو شمع بالمصرية القديمة، أرمنت حالياً. (الترجم)

كانت قائمة ألقابه على النحو الآتي:

الحورس: الثور القوى ذو الريشتين العاليتين.

السيبتان: عظيم هو ملكه في الكرنك.

حورس الذهبي: الذي يضع التيجان في هرموتيس.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: كاملة هي صيغرات رع. (إنه) الواحد المتفرد المنتسب إلى رع.

ابن رع: أمنهوتب، الإله، حاكم طيبة.

وإذا كانت المكانة التي يحتلها رع في سياق هذه النعوت، قد أخذت في التعاضل، إلا أن الفرعون الجديد، يظل رابع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذي يعلن إنتسابه إلى آمون^(*)، وإلى طيبة. وببساطة شديدة، لقد فعل ما فعله أسلافه من قبل، فأشرك آتون في الشعائر الشمسية. وعلى جزء من لوح حجرى جادت به بلدة همدا في النوبة، يعود تاريخه إلى السنوات الأولى من عهده، يطلق على الملك لقب: «هذا الذي يشرق متألّفاً على عرش أبيه آتون، مثل رع في السماء وعلى الأرض، على مرّ الأيام^(٢)».

وتكشف المباني التي أقامها في الكرنك عن هذه النزعة المزدوجة، المعتدلة والمجددة، في أن واحد، المندرجة في سياق تطور روحاني متواصل.

وفي الفترة التي كان مشاركاً في الحكم، ساهم إلى جانب والده، في تشييد الصرح الثالث من صروح معبد آمون - رع، ويصوّره نقش وهو يشارك أمنهوتب الثالث، في أعياد مدينة طيبة. وعند وفاة والده، أضاف إلى هذا الصرح «ردمة»، صوّر على جدارها المشهد التقليدي لنبيح الأسرى نبيحاً شعائرياً^(٣).

وشأنه شأن تحوتمس الثالث، سوف يعمل على توسيع مساحة الكرنك المقدسة في اتجاه الشرق. وسوف يشيّد معبداً شاسعاً، ولكن خارج أسوار معبد آمون - رع،

(*) من خلال اسمه. (المترجم)

وأسماء جم - آتون (أى: آتون - عثر - عليه). إن الحفائر التى باشرها هنرى شيفرييه Henri Chevrier، عام ١٩٢٠، سمحت بإخراج جزء فقط، إلى النور من الفناء الكبير للمدخل، وكان رواقه الداخلى يتكون من أعمدة أوزيرية للملك. ومنذ الآن، كانت هذه الأعمدة بمثابة بيان فنى ودينى. وأمام هذه الأعمدة، وهى من الحجر الرملى، وارتفاعها أربعة أمتار وعددها ٢٨ عموداً، صور الملك تصويراً كاريكاتورياً. ولكن عند دراسة المعالم الأثرية الملكية أو مقابر الأفراد بالبر الغربى، سبق أن لاحظنا، مراراً وتكراراً، الجمال الذى يكاد يدانى الكمال وحسن مظهر الأشكال المنحوتة أو المرسومة ورشاقتها، ففى مجال الفن، قبل غيره من المجالات، أظهر الملك الشاب، لأول مرة، رد فعل عنيف، وإن لم يغير شيئاً، على الإطلاق، من المبادئ الأساسية فى فن التصوير المصرى، وتكشف هذه الصور الشخصية، عن كائن وجهه نحيل، أشبه بوجه فرس، وعن عينين بالفتى الإستطالة وشفتين غليظتين وذقن بارزة. والجسد غير واضح التناسق: الكتفان ضيقان والصدر منتفخ والقامة نحيلة والوركان ضخمتان. أهو رجل أم امرأة؟ ربما كنّا أمام أحد الشواهد الأثرية التى تجسد التصور الذى يذهب إلى أن الشمس «أبو وأمّ البشر أجمعين»، أو أنه كما ورد فى ترنيمة سوتى وحور «الأم النافعة الخيرة للآلهة والبشر^(٤)». هل يمكن النظر إلى هذه التماثيل الفريدة فى بابها، باعتبارها رد فعل ضد أسلوب غارق فى الأكاديمية، مفتون فقط بالكمال؟ أم هى البيان الدينى رقم ١، الذى أعلنه ملك كان يريد أن يكون صنو إلهه، فهو وفقاً لصفة فريدة فى بابها، «الآتون الحى». الفرضيتان محتملتان. ولا يبدو أن الملك الشاب كان يعانى، فى حقيقة الأمر، من تشوهات خلقية. وطى كل حال، تعتبر هذه التماثيل، أول إشارة مناهضة للنظام القائم، فكانت «الثورة» الوحيدة الحقيقية التى شهدها هذا العهد.

كما يمكن ملاحظة استحداث بعض التقنيات الجديدة. فالجزء السفلى من الأعمدة الثمانية والعشرين التى أخرجت إلى النور «كانت تتكون من كتل من الحجر الرملى، صغيرة الحجم، أطلق عليها علماء العصور الحديثة اسم التلحات، وهى وحدات قياسية من الطوب، أبعادها ٥٥ فى ٢٤ فى ٢٠ سم، ومرصوصة رصاً متقاطعاً، عند استخدامها فى أعمال التشييد. ومن المعتقد، أن هذه التقنية الجديدة قد

استخدمت في مجمل المعبد، إذا أخذنا بعين الإعتبار عشرات آلاف الكتل الحجرية من هذا المقاس، التي أعاد خلفاء أمخوتب الرابع استخدامها في الأبنية التي شيدها في معبدى الكرنك والاقصر، وذلك في أعقاب تدمير معابد أتون. ونظراً إلى سهولة نقلها وتفكيكها من قبل العمال، كانت سبباً كافياً لاستخدام كتل حجرية صغيرة الحجم، وبالتالي فإن السرعة التي كانت تتم بها أعمال التشييد، قد أتاحت للملك أن يقيم عدداً من الأبنية، طوال فترة إقامته في طيبة... وإذا كان المعبد الثلاثي الذي شيده في بلدة سيسبي(*) في السودان، يلتزم بوضوح بالطراز الكلاسيكي، فإن المعابد المكرسة للإله أتون، في مصر ذاتها، في منف وهليوبوليس وأسيوط وهرموبوليس وأبينوس، مبنية بكتل من الحجر الجيري من طراز الثلاثات، وإن لم يعثر منها سوى على عناصر مبعثرة بعد أن أعيد استخدامها في معابد لاحقة^(*). أما في الكرنك، فقد عثر على الكثير من أحجار الثلاثات، داخل الصرح الثاني، القائم غرب الصرح الثالث، وأشرف على تشييده الملوك حور إم حب ورعمسيس الأول وسيتي الأول.

قطيعة العام الرابع

حتى الآن، وبينما كان الفرعون الجديد يرفع من شأن عبادة أتون، إلا أنه ظل يُجلّ الآلهة الأخرى ويُبجلُها. وعلى جدران معبد أتون ذاته، استمرّ يدوّن اسمه الذي يعنى «هذا الذي يرضى آمون».

ومن المحتمل ، على كل حال، أن كهنة آمون إذ استشعروا انحسار بعض من سلطانهم، ربما أصابهم الفزع من جراء بعض المظاهر الجديدة، واتخذوا موقفاً مناوئاً. ولكن كان لابد من وقوع أحداث، على قدر كبير من الأهمية، تهدد سلطان الفرعون ذاته، وتقوض ملكه، ليمقد العزم فجأة، على مغادرة طيبة، ويغير قسماً من قائمة ألقابه ويقضى على أسماء وصور إله الكرنك وغيره من الآلهة، فقام بتدميرها بالطريقة تعبيراً عن تعصب قضي على الموروثات الديني، الأمر الذي لم تعرفه أرض الكنانة، من قبل.

(*) شمال الجندل الثالث. (المترجم)

فلم يعد يُدعى أمنحوتب، بل أخناتون^(٥) أى «هذا الذى يكون مباركًا من أجل أتون». إنه يُجَلَّ وَيُجَلَّ «رع حور أختى باسمه النور القائم فى القرص» أو أتون القرص المنتصر.

وهجر عاصمة أبائه، وشيّد مدينة جديدة، لتصبح مركز الحكومة والمقر الرسمى للعائلة المالكة، وتبعد ٢٠ كم شمال طيبة وتقع على البر الشرقى لنهر النيل. وأطلق عليها اسم أخت - أتون أى «أفق أتون».

٢- التطور الدينى

والثورة فى الفن

الورع وعدم التسامح

لقد طبقت شهرة ترانيم عهد أخناتون الأفاق وكثر الحديث عنها، دون معرفة حق المعرفة، فى الغالب بالفكر الدينى الذى سبقها. فتحدّث البعض عن فكر توحيدى ملهم، لأن الكثير من المفكرين المحدثين مفتونون بمقولات فكرهم الخاص. وكما سبق أن لاحظنا، كان كل إله، هو الأوحد المتفرد، فى نظر أتباعه المؤمنين به^(٦). وهى حقيقة موهلة فى القدم، وبالفعل وكما لاحظنا من قبل، ترتبط ترانيم العمارنة بتيار أيديولوجى عام، ينتهى عندها، كما أنها ليست دائما على هذا القدر من الأصالة التى تُنعت بها، من جراء تجاهل ما سبقها عبر القرون.

كما تنسب فى الغالب، إلى الورع المحموم الذى كان يحرك الملك. وفى الحقيقة، فقد نحتت فى مقابر رجال بلاط تل العمارنة، الذين سعوا، وسط هذه السنوات المضطربة، إلى إرضاء مليكهم، ولا شك، أن الكلمات والصور، هى فى الغالب باللغة الجمال ومحركة للمشاعر، وتعبير عن إيمان صادق وحميم، شأنها شأن غيرها من الترانيم المنظومة فى مصر القديمة.

(٥) أخ - ن - إتن، بالمصرية القديمة. (المترجم)

والترنيمة التى تُعرف إصطلاحاً بالترنيمة الكبيرة إلى أتون، منحوتة فى
تل العمارة بمقبرة أى «الأب الإلهى، وحامل المروحة عن يمين الملك، والكاتب الملكى،
والمشرف العام على كافة جياد صاحب الجلالة ورئيس أصدقاء الملك».

التعبد إلى رع - حور - أختى الذى يسعد فى الأفق باسمه النور^(٥) الذى فى
القرص^(٦)، الحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى، وأتون العظيم الحى (الملك)، فى
أعياده اليوبيلية، وسيد كل ما يحيط به القرص، رب السماء ورب الأرض، وسيد معبد
أتون فى أخت - أتون، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الذى يحيا من ماعت، رب
الأرضين، جميلة فى سيرورات رع. (إنه) الواحد المتفرد المنتسب إلى رع، ابن رع
الذى يحيا من ماعت، سيد التجليات المتألقة (أخناتون) صاحب الحياة المديدة -
والزوجة الملكية العظيمة، محبوبته، سيدة القطرين نفرتيتى - فتان هو جمال أتون،
ليتها تحيا، وتزدهر وتظل فى شباب دائم للزمن اللانهائى والزمن الأبدى.

حامل المروحة عن يمين الملك، المشرف العام على كافة جياد صاحب الجلالة،
الذى يرضى البلاد بأسرها، الأثير المقرب من الإله الكامل، الأب الإلهى، أى^(٨) - إنه
يقول:

إنك تشرق برفق فى أفق السماء، أيها القرص الحى، الذى يتحكم فى الحياة.
وبينما تظهر فى الأفق الشرقى، وبعد أن تملأ البلاد قاطبة بكمالك، فأنت جميل وعظيم
وتسطع، وقائم فوق الأرض فى كامل امتدادها. إن أشعتك تغطى جميع البلدان وحتى
حدود كل ما خلقته. أنت رع، فتأتى بأطرافها، وتربطها من أجل ابنك المحبوب. أنت
قصى، ولكن أشعتك على الأرض. أنت فى الوجوه، ويمكن للمرء أن يتأمل رحلتك،
ولكن عندما تغيب فى الأفق الغربى، تفرق البلاد فى الظلمة، وكأنها ميتة. والرجال
ممددون فى حجراتهم، تسترهم الأغطية. وكل عين لم تعد ترى رفيقها. وإذا استولى
أحد على كل مقتنياتهم، وإن وضعت تحت رؤوسهم، لما لاحظوا ذلك. وكل أسد يخرج

(٥) شو. فى الأصل المصرى القديم. (المترجم)

من عرينه وكل الثعابين تلدغ، لأن الليل (بالنسبة لها) هو زمن النور. السكون يخيم على الأرض، لأن خالقها في أفقه.

وعندما تبيض الأرض (من جديد)، بينما تشرق في الأفق، فإنك (*) تتألقين، أيا أتون أثناء النهار. إنك تبعد الظلمات، وتهب أشعته، والقطران يهلان فرحاً. (النائمون) يستيقظون، وينتصبون على أقدامهم، لأنك تجعلهم ينهضون، ويغسلون أبدانهم، ويتناولون ثيابهم، بينما يسبحون ويهللون بأيديهم عند ظهورك المتألق، والبلاد قاطبة تنجز أعمالها. والحيوانات بمختلف أنواعها تركز إلى الراحة في مراعيها. ويعود الإخضرار إلى الأشجار والنباتات. والعصافير ترفرف في أعشاشها، بينما تسبح لكائنك وتهلل له، عند بسط أجنحتها. والأغنام تقفز على قوائمها. وكل ما يطير وينزل ويحط، يحيا عند ظهورك. (ومن جديد) تصعد السفن التيار وتهبطه أيضاً، لأن كافة الدروب تفتتح، عند ظهورك. والأسماك في الأنهار تقفز في اتجاه وجهك. كما تنفذ أشعته إلى داخل الشديدة الإخضرار. فأنت الذي تصنع خصوبة المرأة، فتخلق النطفة عند الرجال، وتعطي الحياة للإن في بطن أمه التي تهدي روعها وتجلف دموعها، فتد (الإن) بالفضاء في بطن (أمه)، وأهباً الهواء لتعيا المخلوقات جمعاء، وعند نزول (الطفل) من بطن (أمه)، يوم ولادته، فإنك تفتح فمه وتوفر له احتياجاته. والفرخ في العش، يزقزق في بيضته، لأنك من الآن، تعطيه من خلالها النسمات لتحبيه. إنك تسوي شكله بالكامل، ليتمكن من تحطيم قشرة البيضة. وعندما يخرج، يزقزق زقزقة مدوية ويسير على رجليه.

كم هي متعددة أفعالك! إنك تتواري (أحياناً) عن الأنظار، أيها الإله الواحد المتفرد، فبجانبك لا آلهة سواك. لقد جبلت الأرض وفقاً لرغبتك، بينما كنت وحيداً، كما (جبلت) البشر والدواب من ماشية وأغنام، وكل ما يسير على أرجل فوق الأرض وكل ما يخلق طائراً بجناحيه، و(جبلت) بلدان سوريا وبلاد كوش ومصر (أيضاً). إنك تحدد لكل امرئ مكانه، كما توفر احتياجاته، ليحصل كل واحد على قوته، كما أن زمن حياته محسوب.

(*) الضمير في صيغة المؤنث. (المؤلفة)

إن لغات (البشر) متنوعة وكذلك أشكالهم، وتختلف ألوان بشرتهم، والأجانب مختلفون^(*).

لقد صنعت نيلاً^(**) في العالم السفلى في الآخرة، وتثنى به كما ترغب، لتُحى رجال مصر، تماماً كما جبلتهم من أجلى. أنت سيدهم أجمعين، أنت متعب بسبيهم، أنت سيد البلاد، الذى يسطع من أجلهم، أيا أتون النهار، يا صاحب الهيبة المجلبة.

كما تجعل أقصى البلدان الأجنبية وأبعدها، تحيا، لأنك تعطى (ها) نيلاً يهبط إليهم من السماء^(***)، منتجاً الأمواج على الجبال، على غرار أمواج الشديدة الإخضرار، فتغمر حقولهم فى مدنهم. كم هى بارعة مقاصدك، إلى أبعد حد، أيا سيد الزمن الأبدى.

النيل فى السماء، هو من أجل الأجانب وكافة الحيوانات فى كل بلد من البلدان الأجنبية، (الحيوانات) التى تسير على أرجلها. إن النيل القادم من العالم السفلى، هو من أجل البلد المحبوب، ولكن أشعته تغذى كافة الحقول، فتستعيد الحياة، عندما تشرق، فهى خصبة بفضلك. لقد حددت فصول السنة، ضماناً لوجود كل ما خلقته: فصل الإنبات^(****) لترطيب الجو، وأوجدت الجو الحار حتى يستطيع المرء أن يستمتع بك. لقد جبلت السماء القصية لتسطع فيها ولرؤية الخلائق جمعاء. أنت وحيد متفرد، فى حين تتألق بأشكالك (المختلفة)، مثل أتون الحى، الذى يتجلى وضاًً فينير ويبتعد، ليقترّب بعد ذلك. إنك تبدع ملايين الأشكال النابعة منك أنت وحدك، (تبدع) المدن والقرى والحقول والدروب والأنهار. كل عين تراك أمامها. أنت أتون النهار، فأنت العلى، أنت دائم الترحال لتأكيد وجود كل كائن من الكائنات التى خلقتها، وأنت من فوقها، ولا تتوقف عن مشاهدة أفراحهم وابتهاجهم... أنت فى قلبى، ولا يعرفك أحد،

(*) ويبنى الزهو والتشامخ التليدان اللذين تحلى بهما المصرى. (المؤلفة)

(**) أى نهر النيل. (المترجم)

(***) الإشارة هنا إلى الأمطار التى تتساقط فى بلدان آسيا. (المؤلفة)

(****) أى الشتاء. (المؤلفة)

سوى ابنك «كاملة - هي - صيغرات - رع، إنه - الواحد - المتفرد - المنتسب - إلى رع»^(٩). لقد سمحت بأن يترك مقاصدك وسلطانك. والأرض أتت إلى الوجود على يدك، تماماً كما صنعت البشر. فما أن تشرق، حتى تعود إليهم الحياة. ويموتون عندما تغرب. وبسبب جسدك ذاته، فأتت النهار ومدته. ويحيا الناس بك. وتظل العيون تمنع النظر في جمالك إلى أن تغرب. ويهجر الناس أعمالهم عندما تستريح في الغرب. وجميع من يسعون على أقدامهم، منذ أن أسست الأرض، تقوم أنت بتربيتهم من أجل ابنك الذي من صلبك، (ابنك) ملك مصر العليا ومصر السفلى... ابن رع.. أخناتون، صاحب الحياة المديدة، و(من أجل) الزوجة الملكية العظيمة، محبوبته وسيدة القطين... نفرتي^(١٠).

ونلتقى بغيرها من الترنيمات في مقابر رجال آخرين ببلاط العمارنة، وهي تشبه إلى حد كبير الترنيمة السابقة. ونذكر منها على سبيل المثال، مقبرة توتي، المشرف العام على الأملاك الملكية. وتبدو مفردات اللغة والصور المستخدمة، أساليب شائعة وثابتة، وكأنها «الزى الرسمي» لديانة العمارنة، حتى أن وجود فجوة في ترنيمة من هذه الترنيمات، يمكن استكمالها اعتماداً على نص مماثل، منحوت في مقبرة مجاورة.

ولكن هذه المفردات اللغوية وهذه الصور، ليست جديدة كل الجدة، بل أبعد ما تكون عن وصفها بالثورية. فالمواضيع الرئيسية التي تعبر عنها هذه الترنيمة، كانت معروفة قبل قرن من الزمن، ومنذ عصر أمنموتب الثاني^(١١). فالتوحيد مع تعدد الأشكال، تصور موغل في القدم، في الفكر الدينى المصرى، عند معالجة موضوع الألوهية. وتأسيساً على ذلك، فإن كلمة نثر أى «الإله» أو «الله»، المستخدمة عند وصف الكيان الإلهى الأسمى، استعملت في أقدم النصوص المعروفة. ويكفيها قراءة حكم

(*) وبالمصرية القديمة: نفر - خپرو - رع - رع - إن - رع، وهو اسم العرش أو لقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

پتاح حوتب وهى تعاليم موجهة إلى ابنه وتعود إلى ٢٥٠٠ ق.م. ونكتفى بالتنويه ببعض الإقتباسات المحدودة اخترناها من بين الكثير غيرها:

لا تضع الخشية وسط البشر، وإلا عاقبك الله على النحو ذاته... لا تسمح بظهور الخوف من الناس. إذ لابد من ظهور إرادة الله.

إذا قمت بحراثة أرضك، فليكن حقلك مزدهراً وليجزل لك الله العطاء. لا تسرف فى التباهى بذلك، ولا تطالب من لا يملك شيئاً.

الله هو خالق الجودة والتميز.

لا تثق كثيراً فى ثرواك. فقد حصلت عليها هبةً من الله.

من ينصت ويطيع يحبه الله^(١١).

وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة، نجد أن الكاتب أنى «المنتسب إلى قصر الملكة (أحمس - نفرتارى)»، قد سار على هدى هذه التقاليد ذاتها، فيعلم ابنه المفاهيم نفسها:

الإنسان رفيق الله.

• من أجل الله. لابد أن يكون الإنسان محباً للآخرين:

لا تبعد الطعام عن كائن من كان، حتى إذا كان ضرورياً لك. فهذا السلوك يمقته الله.

• لابد أن يترك الله مهمة محاكمة الآخرين:

يمكن للإنسان أن يقدم طعاماً إلى من يكن له البغضاء، وإطعام من يأتى، دون أن يدعى إلى الحضور. لا تتسرع فى مهاجمة عدوك، اتركه وشأنه لله، حافظ عليه على مر الأيام من أجل الله. لأن غداً مماثل لليوم، وفى وسعك أن ترى ما يفعله الله عندما يجرح من جرحك.

• الله هو ضامن الترابط العائلي ولا سيما احترام الأم:

ضاعف الأطعمة التي منحك أمك إياها، احملها كما حملتك. كنت بالنسبة لها عباً ثقيلاً، ولكنها لم تتخلّ عنك... لا تتصرف نحوها بحيث تضطر إلى توجيه اللوم إليك، فترفع يديها إلى الله، لأنه سوف يستجيب لصرخاتها.

• الإنسان في خدمة الله:

قدّم قربانك إلى إلهك، تجنب الإساءة إليه، لا تطرح الأسئلة على صوره، لا تدنو منه بلا استئذان، بمجرد ظهوره في مجده، لا تقترب منه أكثر من اللازم لحمله، لا تعكّر صفو هاتف الوحي الإلهي، اسهر عليه لتتوفر له مزيد من الحماية. فلتنظر عينك بقطة لسورة غضبه، وقبّل الأرض باسمه. ففي وسعه أن يضع قمرته في ملايين الأشكال. ومن يُعلّى من شأنه، يُمجّد. إن نور السماء هو إله هذا البلد، ولكن صوره على الأرض. وعندما يُطلق البخور لغذائه اليومي، يصبح رب الفجر الوضّاء راضياً.

الرقص والغناء والبخور غذاؤه، واستقبال من يسجدون (أمامه)، ها هي ثروته. سوف يمجّد الله اسم من يتصرف على هذا النحو، ويصبح الإنسان أشبه بالشمل السكران^(١١) المكرد).

كان أمون يُعبد في طيبة، وأوزيريس في أيبوس، وبتاح في منف، وتحوت في هرموبوليس، وخنوم في إلفنتين... ولكن جميعها تجليات محلية للكيان الإلهي، إن كلمة نثر تشملها جميعاً. وكل شكل من أشكالها، كان الواحد المتفرد في قلوب المؤمنين به وفي عقولهم، وهو ما سبق أن لاحظناه عند قراءة النصوص المصرية^(١٢)، الأمر الذي لا يستبعد، إمكانية الاستعانة بغيره من الأشكال الإلهية، لتوفير أكبر قدر من الفاعلية السحرية. إن جوهرًا أسمى، يتجسد في أماكن مختلفة وفي أغلفة متنوعة، ويمثل كل غلاف منها فردية نسبية، تلك هي الوجدانية في إطار التسامح وسعة الصدر، هنا تكمن الدالة العميقة للديانة المصرية، عبر مختلف العصور. ولا يمكن إخضاع هذا التصور لأي من تعريفاتنا المعاصرة، السطحية في أغلب الأحوال، مقارنةً بفكر العالم

القديم. ومن هذه التعريفات نذكر الوجدانية *monotheisme* وتعدد الآلهة *polytheisme* ومذهب الاعتقاد بوجود إله فوق الآلهة *Hènothéisme*، وهو الأقرب عهداً^(*).

إن هذا المفهوم بالوجدانية الإلهية الكبرى، على الصعيد العالمي، وليس في مصر وحدها، هو الذى ساعد، منذ عهد تحوتمس الثالث، على تصور الوحدة الروحية للإمبراطورية. فأن تكون الشمس هي الإله الواحد المتفرد للجميع، يظهر بوضوح من خلال النصوص التي سبق التنويه بها^(١٣). وسوف يعمل الرعامسة على تعاظم أهمية هذه الفكرة، لتصبح الركيزة الأساسية لإمبراطوريتهم الكبرى، وتجميعاً أوحداً لكل الأراضي^(١٤).

ولكن كان التعصب وعدم التسامح هو الجديد الذى أتى به عهد أمنهوتب الرابع، وما جلبه من تدمير واضطهادات.

وبعد أن اتخذ الفرعون من تل العمارنة مقراً له، أرسل رجالاً يجوبون مصر من أقصاها إلى أدناها، ومن منف إلى النوبة، وقد أنيطت بهم مهمة تدمير كافة المعالم الدالة على المعتقدات القديمة. فأغلقت المعابد ودُمّرت الصور المقدسة وتم الإستيلاء على ثروات الأماكن المقدسة ونقلت إلى تل العمارنة. وانتشر طواغيت أختاتون في جبانة غرب طيبة، ودخلوا إلى المقابر، عاقدين العزم بصورة منظمة، على إزالة الأسماء الإلهية بالمطرقة، أينما وجدت، وعلى رأسها اسم آمون. كان هذا الإضطهاد الدينى، على نطاق واسع، ظاهرة غريبة غير مألوفة، وشاهداً على ما كان يكنه أختاتون من كراهية تجاه طيبة وكهنتها. ما سبب هذه البغضاء؟ لا علم لنا. ولكن من المحتمل جداً أنها تكشف عن بعض الدسائس التي حاكها كهنة الكرنك، وربما مؤامرة ضد النظام الملكى، كما سنشهد غيرها في أزمنة لاحقة.

(*) نضيف إلى ما سبق: وحدة الوجود *Panthéisme*، ومذهب الاكومية الطبيعية *déisme* الذى يعترف بأن الله خلق الكون ولكن ليس له صلة مباشرة بالعالم، والاعتقاد بالله وحده *théisme* الذى يقرر بوجود الله دون الاعتراف بالضرورة بالوحى، وأخيراً الإلحاد *athéisme*. (المترجم)

ويبدو، كما لو أن كل فرد قد التزم الهدوء، طوال هذه الفترة، تاركًا العاصفة تمرّ - فكانت قصيرة ولم تستمر طويلاً. فلا يمكن انتزاع إيمان البشر. وعلاوة على ذلك، فقد عُرف عن المصريين أنهم تقليدياً، شعب محافظ إلى حد كبير^(*). ولا يوجد بين أيدينا دليل واحد، على قيام مقاومة حقيقية. كان الشعب صامت. وانحنى رجال البلاط، وصوّروا أنفسهم وفقاً للقوانين الكاريكاتورية نفسها التي التزم بها الملك. ولكن تفاقمت المشاكل الإقتصادية.

وفي مدينة أخت آتون القصية، وبعيداً عن كل الوقائع، واهل الفرعون حلمه الصوفى وهو حلم الأمير. فكان الإله الحى على الأرض. ولم يفوت رجال البلاط فرصة إلا وأعلنوا هذه الحقيقة، جهاراً نهاراً، فكهذا يتحدث قوتو قاتلاً:

أيا واد آتون، يا روح الحى! عظيم هو الحب الذى تحركه فى النفوس، إن البلاد تحيا فى نظام. وعندما تفتح العيّن، تفيض البلاد بهذه الثروات التى نطقت أسماها. أنت الأم التى أنجبت البشرية وأنقذت ملايين البشر بفضل كائنك. إن قوتك سور من النحاس يبلغ ملايين الأذرع. إنك تموّط الأراضى بقدرتك، حتى حدود أشعة آتون.

(إن الإله والملك الذى يعتبر امتداده الدنيوى، يحتويان الكون بأكمله).

أيا ملك مصر العليا ومصر السفلى... أيتها الأمير المحبوب، يا صاحب الأعاجيب العظيمة، إن كمالك جميل (لن يشاهده). إن ألوان بشرتك شبيهة بألوان أبيك، عندما يبرز عند الفجر... وكما هو باقى، فأنت باقى للزمن الأبدى... أنت ابنه المحبوب، إن شكلك وطبيعتك هى شكله نفسه وطبيعته نفسها. وتُرفع لك التحية إلى أعالي السماء... لقد أقامك للزمن الأبدى وسوف تبقى للزمن اللانهائى. وتتمم أعياداً يوبيلية، أنت الذى ينجب آتون، فى كل مرة يتجلى مثاقفاً، فى سماء الفجر... [إن أبناء سوريا] وبلاد كوش، يتنون إليك فى أخت آتون وظهورهم منحنية. والقادمون من الجنوب والقادمون من الشمال، على حدّ سواء، يسجدون أمامك ويهللون لك... لقد

(*) يقول المثل الشعبى «إلى فى القلب فى القلب». (المترجم)

ولدت بفضل رع، إنه سيد المصائر والأقدار، وخالق مدة حياتك. السماء تحمل أتون الحى والنسمات التى فيه، تعطىها أنت إلى السماء وإلى أنف المقربين منك... (١٥).

الملك أقنوم الإله، إنه الشمس الحية على الأرض. هكذا فإن الفكرة الملكية التى ظلت تتطور منذ حتشيسوت، قد بلغت الآن ذروتها، وفى الوقت نفسه، ارتقى الفكر الدينى التقليدى، ليصل إلى أقصى درجاته. لم يكن أخناتون مبدعاً ولا مصلحاً، لقد واصل التطور القائم ومضى به إلى منتهاه.

الأمير والفن

أما فى مجال الفن، فيحق لنا أن نتحدث عن وجود تغيير، لا بل ثورة، ولكن باعتدال. وبالفعل، فإن القواعد الأساسية التى حددت مسار الفن المصرى القديم الذى كان يهدف فى المقام الأول، ومن خلال هزمة من الأساليب التى سبق صياغتها، منذ الألف الثالث ق.م، إلى التعبير تعبيراً كاملاً وشاملاً عن كائنات أو أشياء أو مشاهد، قائمة خارج الزمان والمكان، فلم تكن الغاية من هذه القواعد، أن تبدع تصويراً موضوعياً، بل تعبيراً واضحاً وفطناً عن الواقع، يبتعد عن النقل الأعمى للرؤية البصرية، ولكن يسعى إلى إيجاد تركيبات موحية إلى أبعد حد. ومن ثم لم يتطرق التغيير إلى هذه القواعد الأساسية.

ولكن نجد أن تماثيل ونقوش ورسومات مقابر مثل العمارة، رغبة منها بلا شك فى محاولة التودد إلى فرعون، قد جسدت «التشوهات» التى أراد هذا الأخير أن يفرضها على نفسه: ربما كرد فعل ضد الرشاقة والرقعة المكتملتين اللتين شاعتا فى الإنتاج الفنى للعصور السابقة أو تعبيراً عن أيديولوجية دينية بعينها^(١٦). فتمتد الجماجم إلى الخلف امتداداً غير سوى، ويستطيل الوجه ويضيق الصدر وينتفخ البطن فوق النقرة: إنها صور عابسة ورتيبة تفتقد الرشاقة ورقعة الخطوط، سادت فى عهد، فرضت فيه فلسفة الأمير نفسها، سواء على البلاط أم العائلة المالكة.

إن تركيز الإهتمام على تصوير الحياة الواقعية والحقيقية، فى أدق خصوصياتها، قد أدى أحياناً إلى بعض الألفة، قد يصعب احتمالها فى بعض الأحوال. ونذكر على سبيل المثال، التمثال الذى يسور الفرعون جاثياً وعارياً، وهو من الحجر الجيرى ويبلغ ارتفاعه ١٢ سم ومن مقتنيات متحف برلين، أو التمثال الذى يصوره وقد أجلس إحدى بناته فى حجره واضعاً قبلة على فمها، وهو من الحجر الجيرى، وارتفاعه ٤٢ سم، ومن مقتنيات متحف القاهرة^(*). وبالإضافة إلى ذلك، سوف يعلن فن النقش بكل وضوح خصوصيات العائلة المالكة: فنجد من الآن، أن الإحتفالات الرسمية والشعائرية، لا تشارك فيها الملكة نفرتيتى فقط، بل الأميرات الست أيضاً، ثمرة الزواج الملكى.

إن المضى قدماً بهذه الضرورة الطبيعية، إلى حدّها الأقصى، يفسّر أيضاً سبب العثور على عدد كبير من الدراسات فى تل العمارنة، فى هيئة أقنعة جصية أو قوالب.

إن بعض الأعمال عولجت بأسلوب أقل خشونة، لا سيما بعض تماثيل الملكة نفرتيتى: فالوجوه رائعة وجميلة ورقيقة الملامح فى عظمة وشموخ. إن تمثالاً من الحجر الجيرى، ارتفاعه ٤٠ سم ومن مقتنيات متحف برلين فى الوقت الراهن، يصور الملكة وقد تقدمت بها السن، وترتدى عباءة طويلة شفافة. الإرهاق بادٍ على الوجه الذى يحمل آثار بعض انتجاعيد ووجنتاه هزيلتان. والظهر مقوس بعض الشيء والصدر ضئيل ويحرك المشاعر، وقد بدأ يهبط قليلاً. والجزء الأسفل من الجسد مترهل ومنتفخ، فيكشف، على ما يبدو، عن تأثير مرات الحمل الست، على الملكة. إنه أية من آيات الواقعية والإحتشام مع ذلك، إنه تعبير صادق عن براعة النحات. إن تمثالاً من الحجر الرملى، ارتفاعه ١٥ سم، هاجر إلى لندن، يصور جسد أميرة، تكشف عنه شفافية عباءة، هو أية فى الجمال مع التزامه بالأسلوب الكلاسيكى. ولكن هذه الأمثلة، هى مجرد استثناءات.

(*) القاعة ٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

لم تدم «ثورة» العمارة طويلاً، في مجال الفن، ولكن تأثيرها غاب الأيام. فقد تجدد التقليد المتواتر، بفضل هذه السنوات التي تحررت فيها، إلى حد ما، قواعد التصوير. وستظل «أساليب العمارة وأشكالها» تؤثر على فن تحت التماثيل.

قد تساعدنا طفولة أمنهوتب الرابع، على تفسير هذا المزاج الصوفي، وردود فعله المناهضة للأساليب القديمة. لقد نشأ وتربى في بلاط مرهف الذوق، تجاوز فيه البذخ كل الحدود، وإلى جوار أم مؤثرة ومتسلطة، وسط السوريين والفينقيين وكافة شعوب الإمبراطورية الذين تجاوزوا في طيبة، بعد أن أصبحت مدينة عالمية، وقريباً من كهنة أقوياء يمتلكون ثروات أسطورية. فربما أراد الصبي أن يعود إلى حياة، أكثر رشداً وأقرب إلى الطبيعة، مع الابتعاد عن الدسائس السياسية، ليكرس نفسه كلياً للدين. كان أميراً يحكم حكماً فريداً مطلقاً، فأراد أن يكون الله على الأرض، وعاش في بلاط منفلق.

٣- العمارة

أو الحلم الصوفي

«أفق الشمس»

ولذلك اختار أمنهوتب الرابع لعاصمته الجديدة، مكاناً يقع على بعد ٣٢٠ كم شمال طيبة، على البر الشرقي لنهر النيل، في منطقة تبتمد فيها تلال الصحراء الشرقية عن النهر مسافة أربعة كيلومترات، لتلتقي به فيما بعد في اتجاه الجنوب، على مسافة سبعة كيلومترات، مُشكّلة دائرة شاسعة على هيئة نصف قمر، تشغلها في الوقت الراهن المدينة، بعد أن تم تسويتها تماماً بالأرض. استغرقت أعمال تشييدها خمس سنوات، وامتدت لأكثر من ١٢ كم طولاً. إن أربعة عشر لوحاً حجرياً ضخماً منحوتة في الصخر ترسم حدودها، وتبلغ بعضها ٧٨٠ سم ارتفاعاً. جزؤها العلوي مستدير، وهذا القسم المقوس مزخرف بمواضيع مماثلة، فقد صُوِّر فيه الملك والملكة

وأميرتان أو ثلاثة، أمام مائدة قرابين، وهم يتعبدون للإله أتون الذى تتجه أشعته المنتهية بالأيادي، نحوهم، وتمتد إليهم علامة الحياة. يضم كل لوح ثمانين سطرا أفقياً من المونيات. وعلى وجهى اللوح الحجرى نحتت، فى الغالب، موائد قرابين وتماثيل للملك وعائلته. وإذا صحَّ القول، كانت المدينة ملكاً خاصاً للعامل الملكى الذى كرسها للإله أتون.

إن نصى لوحين من هذه الألواح الحجرية، المقام أولهما شمال نصف الدائرة والآخر جنوبها، وفى المنطقة التى تقترب فيها التلال من النهر، على البر الشرقى، ويعود تاريخهما إلى العام الرابع، ويعد ذكر التاريخ وقائمة ألقاب الملك والملكة بتفاصيلها، يروى النصان قيام العامل الملكى بزيارة أخت أتون، وتقديم القرابين، فضلاً عن المدائح التى تخص الفرعون ومنح المدينة هبة إلى أتون وبورها الجديد كما صممة ووصف أعمال تشييد المعبد. وللأسف فقد أصاب العلامات الهيروغليفية تلفاً بالغاً - ومع ذلك ما زال فى وسعنا قراءة ما يلي:

رفع صاحب الجلالة ساعده إلى السماء، نحو من انجبه (حور - أختى - الذى - يسعد - فى - الأفق) - (باسمه - النور - الذى - فى - أتون) وتحدث قائلاً: ..لقد شيدت أخت - أتون من أجل أبى أتون، لتصبح هذه المدينة مكان إقامته. من أجله رُسمت حدود أخت - أتون، فى جنوبها وفى شمالها، وفى غربها وفى شرقها. لن أتجاوز اللوح الحجرى الجنوبى لمدينة أخت - أتون متجهاً جنوباً. ولن أتجاوز اللوح الحجرى الشمالى لمدينة أخت - أتون متجهاً شمالاً، حتى أشيد أخت - أتون فيما بينهما^(١٧).

أما الإثنا عشر لوحاً حجرياً الأخرى، فإنها تشغل ضفتى النهر، ثلاثة فى الغرب وتسعة فى الشرق. أما الألواح الحجرية الثلاثة القائمة على البر الأيسر من النهر، عند حدود سلسلة جبال الصحراء الغربية، فإنها ترسم الحدود الجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية للمدينة. ويعود تاريخها إلى العام السادس، مع إضافة، بُوت فى العام الثامن، بالنسبة لاثنتين منها. والنصوص التى تضمها تروى تأسيس المدينة، بالإضافة إلى ترانيم وابتهالات من أجل الإله والملك.

ظهر صاحب الجلالة متغلباً على مركبته المصنوعة من الذهب الخالص والمشبودة إلى فرسين فكان أشبه بآتون عندما يشرق في الأفق. والحب الذي يحركه في النفوس يملأ الأرضين. لقد اختار الطريق السليم (إلى موقع) أخت آتون، في هذه المرة الأولى التي اكتشفه، ليقيم مبنى شامخاً من أجل آتون، وفقاً لما أمر به والده (حور - أختي - الذي - يسعد - في - الأفق) - (باسمه - النور - الذي - في - آتون) - (يقيم) مبنى شامخاً داخل المدينة. وقُدِّمت قرايين وغيرة... في يوم تأسيس أخت - آتون، المكرسة للإله آتون، وتقبل البشر الدائع والحب، من أجل ملك مصر العليا ومصر السفلى... ابن رع... أخفاتون^(١٨).

إن الأطلال الرائنة المتبقية من هذه العاصمة العابرة، بعد أن هُجرت، ولم يمض على تأسيسها سوى خمس عشرة سنة تقريباً، وشُيّدت في موقع لم تشيد فيه أى بنايات أخرى، في زمن لاحق، تساعدنا على إعادة تصميم المدينة العتيقة؛ ومنها معابدها وقصورها ومنازلها ومساكن حرفييها وجبانته القريبة، المنحوتة في صخر جبل الصحراء الشرقية.

إن طرقاً، يسهل التعرف عليها، بفضل حرافها الحجرية، ما زالت تتجه بعضها ناحية الجبانة، والأخرى ناحية ألواح الحدود الحجرية التي كانت ترسم حدود أرض المدينة. إن مسار شوارع المدينة يقف شاهداً على وجود تنظيم حضري لهذه المدينة: إن ثلاثة شوارع متوازية تتجه من الجنوب إلى الشمال بمحاذاة النهر وتتقاطع، في كثير من الأحيان، بزاوية قائمة بشوارع مستعرضة ثانوية. وثلاثة وديان شرق - غرب، تقسم المدينة إلى ثلاث مناطق، لكل واحدة منها طابعها المميز.

كان وسط المدينة يضم المعابد والقصور والمباني الرسمية.

ومعبد آتون كان مفتوحاً جهة الغرب وقائماً داخل مساحة مستطيلة شاسعة يبلغ محيطها ١٥٠٠ متراً. ولأول وهلة، كان تخطيطه لا يختلف كثيراً عن تخطيط معابد طيبة الكلاسيكية. ولكن على غرار المعابد الشمسية التي شيدت إبان الأسرة الخامسة، كان غير مسقوف، لإتاحة الفرصة للنور الإلهي النفاذ إلى القسم الخاص بقدس الأقداس.

وحديثاً، لفت **بول بارجيه Paul Barguet** (١٩) الإنتباه إلى أن بعض عناصر هذا التخطيط كانت غير مألوفة، حتى يمكن القول أن معبد أتون ينفرد بتخطيطه الفريد في بابيه. وبالرجوع إلى الأوصاف المعتادة المتاحة، يلاحظ أن على المرء أن يخرج من كتلة المعبد الرئيسية، إذا أراد الوصول إلى القسم الخاص المعروف بقدس الأقداس، إلا أن أعمال التنقيب التي باشرها **پاندليبرى Pandlebury** قد أوضحت أن ما يعتقد أنه «القسم الخاص بقدس الأقداس»، وهو في حقيقة الأمر «قصر **البن بن**»، على ما يظن، قد شيد في تاريخ سابق على العام التاسع من عهد الملك، في حين أن بدء تشييد المعبد ذاته يعود إلى العام التاسع. فمن المعتقد إذن، أن القسم الخاص بقدس الأقداس، قد شيد أولاً، وكان معزولاً في نهاية ممر احتفالي طويل داخل الأسوار. ولكن من غير المرجح، أن يظل معزولاً، إن كان يشكل حقاً، القسم الخاص بقدس أقداس المعبد. فطبقاً للقواعد المعمول بها، فإن المعبد عند تشييده، لابد أن يكون ملاصقاً لواجهة هذا القسم، على أن يكون الوصول إليه مباشرة من خلال عدد من الأبواب المتعاقبة. لقد فعلت **حتشپسوت** الشيء نفسه في الكرنك، عندما أقامت حجراتها، فكانت ملاصقة لواجهة معبد الدولة الوسطى. وتأسيساً على ذلك، فما كان يظن لفترة طويلة، أنه القسم الخاص بقدس الأقداس، إنما هو في واقع الأمر، مقصورة مستقلة، لها وظيفتها الخاصة.

ومن المعتقد إذن، أن معبد أتون كان يتكون من مجموعتي مبانٍ متعاقبتين: فنجد من ناحية، المعبد المكرس للإله الشمسى، ومن ناحية أخرى، بناية أطلق عليها لفترة طويلة «القسم المخصص بقدس الأقداس» وإن كانت مخصصة للاحتفالات الملكية، كما سنوضح ذلك، استناداً إلى الفرضية الفاتكة البراعة، والأقرب إلى الصواب، والتي توصل إليها **بول بارجيه Paul Barguet**.

أما المعبد ذاته فيمتد في استطالة بالغة تصل إلى ٢١٠ أمتار طولاً و٢٢ متراً عرضاً فقط. ولا شك أنه كان يطلق عليه اسم **جم - أتون**، كالمعبد المائل في الكرنك والمعابد المقامة في النوبة. كما أن العديد من تصاوير المقابر تقدم معلومات حول تخطيطه. ويبدو أنه كان مكوناً من قسمين: فيتقدم صرح المنخل خمسة أزواج من السوراري ذات البيارق، يليه بهو أساطين يضم ثمانية أزواج أساطين مقناة، ثم فناء

برواق وأخيراً ثلاثة أفنية صغيرة. وربما كان آخرها يضم القسم الخاص بقدس الأقداس. وهكذا يمكن مقارنة هذا المعبد بمعبد آمون في الكرنك، كما كان في مطلع الأسرة الثامنة عشرة. إن وجه الشبه الأول قائم بين بهو أساطين مدخل معبد جم - أتون ويهو أساطين مدخل الصرح الرابع، بالكرنك، عندما كان أول صروح المعبد. أما وجه الشبه الثاني، فيخص القسم الثاني من جم - أتون، القريب مما يعتقد أنه كان معبد الدولة الوسطى بالكرنك: فنجد في كل مجموعة أبواب ثلاثة، يتقدم الأول، رصيف من خلفه رواق.

أما المبنى الثاني، وهو أصغر من السابق، ويقع إلى شرق المعبد، الذي عُرف لفترة طويلة باعتباره «القسم الخاص بقدس الأقداس»، فيتميز بسمتين بالفتى الأهمية: وجود تماثيل لوزيرية عملاقة للملك في رواق صرح المدخل ووجود ممر متعرج يؤدي إلى الفناء الذي يحتضن مائدة القربان. ولكن هناك حقيقة جديدة بالملاحظة تبرز، بلا شك، الغاية من إقامة هذا المبنى: فالتماثيل الوزيرية العملاقة الأربعة ترتدي على رؤوسها، تارة التاج الأبيض وتارة أخرى التاج الأحمر. ففي تصوير بمقبرة أحمس^(*) وكان «حامل المروحة على يمين الملك»، وفي أحد الجناحين اللذين يطران، بشكل غير مألوف، فناء المدخل إلى المبنى - نشاهد رسماً للعرش الملكي. أما الجناح الآخر فكان يصور الرسم نفسه، وإن اختفى في الوقت الراهن. ومن المحتمل إذن، أن الملك كان يجلس على التوالى، على هذا العرش ثم على الآخر، مرتدياً التاج الأبيض ثم التاج الأحمر، إبان بعض الإحتفالات المرتبطة بالوظيفة الملكية.

وكما توضحه النصوص^(٢٠)، كان أخناتون يعتبر نفسه أقنوم الإله على الأرض، والطقوس التي تقام من أجلهما لا تتفصلان. وكما هو حادث في المقابر، فإن الترانيم إلى الآلهة تصاحبها ترانيم إلى الملك، وأوجه الشبه بينها كبير، من حيث تعبيراتها وأفكارها، وعلى النحو ذاته، فإن تعاقب مبنيان داخل أسوار المعبد الإلهي، يرسّخان فكرة هذه الوحدة الأساسية. وقد يخطر على بالنا مبنى أخ مفر^(٢١) الذي شيده تحوتمس الثالث، شرق معبد آمون - رع الكبير، ولكن عمودياً على محوره. فقد كان

(*) من المقربين إلى أخناتون. لمزيد من التفاصيل راجع: سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الخامس. ص ٤١٢-٤١٥. هيئة الكتاب. ١٩٩٢. (المترجم)

معبدًا لاستعادة حيوية العامل الملكي وتجديدها، ففي إطاره ومن خلال إحتفالات سرية وصوفية، كان آمون - رع ينقل جوهره الإلهي إلى الملك. ولكن، دلالة تل العمارة، كانت تتجاوز أبعاده، كل ذلك: ولأن واقع الأمر، يكشف لنا أن أمام هذه البناية فقط، صُوِّرت فرقة العازفين على الجثك والموسيقيين والمنشدين، يحملنا على الإعتقاد، إلى النظر إليها باعتبارها أيضاً «قصر العين بن»، الذي تقف الفرقة في فناء مدخله، وتبرز هذا الإعتقاد الترانيم المتشابهة المدونة في مقابر قوتو ومرى رع ونفى وأبى، والموجهة إلى أتون:

تتساعد أصوات المنشدين والموسيقيين فرحين، في الفناء الكبير لقصر بن بن،
في معبدك في أخت - أتون، مكان الحق، الذي ينشرح فيه صدرك^(٢٢).

إن اندماج الإله في الملك اندماج كامل، حسب تعبيرات العمارة وعلى جميع الأصعدة، هو ما تكشف عنه، على حدّ سواء، الترانيم والمباني المشيدة.

أما المعبد الثانى وهو «قصر أتون» فكان أصغر من السابق، وغير مسقوف أيضاً، ويقع إلى الجنوب من القصر.

كان طول القصر الملكى الكبير ٢٧٠ متراً ويحيط به سور مزبوج من الطوب، كان يشتمل بدايةً، على فناء غير مسقوف يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ١٧٠ متراً، ومحاطاً بتمائيل عملاقة من الجرانيت والكوارتزيت، تمثل الملك والملكة نفرتيتى، وفي مؤخرة هذا الفناء، أقيمت مقصورة تضم اثنى عشر أسطواناً بتيجان نخيلية، ومن شرفتها، كان يستلمع الملك أن يُطلَّ على الجماهير، تحيط به أحياناً الملكة والأميرات الست، يلي ذلك عدد من الأفنية، كان يضم أحدها رواقاً ذا أساطين من الحجر الجيرى، قائمة على أرضية من الألبستر، إذ كان اللون الأبيض رمز شدة سطوع الشمس. وأخيراً يصل المرء إلى بهو أساطين كبير للإستقبال، يضم ٤٨ أسطواناً من الحجر الجيرى. إن زخارف مستوحاة من الطبيعة من أزهار وحقول قمح وعصافير وسط المستنقعات والحيوانات غير المقيدة، كانت مرسومة على الجدران والأرضيات. وقد عُثر على بعض هذه العناصر. إن أطلال القصر الذى شيده أمنموتب الثالث، فى

ملقطة، كان يحتفظ بعناصر زخرفية مماثلة. ولا نعرف شيئاً عن القصور التي شيدت في عهود سابقة، لأنه لم يبق منها شيء. فمواد البناء، وتتكون أساساً من الطوب، لم تستطع مقاومة صروف الدهر.

وخلف القصر، كان مبنى فسيح، يتكون من عدد من أبهاء الأساطين. وكان أحدها، وربما كان قاعة التتويج، يضم ٥٤٤ عموداً مربعاً، يستقر عليها سقف يحمل رسومات تصور أغصان من الكرمة، تحمل أوراقاً وعناقيد عنب، على خلفية باللون الأصفر: إنها رموز ملونة تمثل الحياة المتجددة إلى أبد الآباد، من نباتات وشمس. وكانت الجدران تزدان ببيانات من القاشاني.

إن جسراً يمر فوق الشارع الرئيسي، كان يربط القصر الرسمي بالمسكن العائلي للعامل الملكي؛ ويتكون من الأجنحة الملكية الخاصة والمخازن، وتحيط بها الحدائق. وعلى امتداد الشارع تصطف إستراحات أو بيوت الحريم، ورسمت على أرضيتها زخارف زهرية على أرضية من الجص الأبيض ويمكن مشاهدتها الآن في المتحف المصري بالقاهرة^(*).

والى شمال القصر وشرقه، تتكس المكاتب الإدارية دون التقيد بنظام معين واضح.

أما المدينة الجنوبية، فكانت تشغلها مساكن كبار الموظفين والورش ومنها ورشة النحات تھوتمس، والقصر الجنوبي أو القصر الصيفي: مارو - أثون.

كانت الأساطين من طراز فريد في بابيه: فقواعدها من الألبستر وتحمل نقوش لزخارف لوتسية. ويصور بدن الأسطون خُسمَةً من الغاب، باللون الأخضر، وتزدان قمته بعناقيد من العنب وتتدلى منه أبدان طيور البط، والتيجان من الألبستر ومزدانة بأوراق نبات اللوتس وزهوره، بالنقش البارز ومطعمة بعجينة زرقاء وخضراء^(٣٣).

هذا القصر هو النموذج ذاته، الذي عرفته عمارة الحدائق هذه، والتي ظل المصريون على امتداد تاريخهم مولعين بها. كان القصر يضم عدداً من البحيرات الصناعية، ومباني تميز بأصالتها الفريدة، ومنها ممشى طويل يحمل سقفه صف من

(*) في ضمن الطابق الأرضي. (المترجم)

١٢ عموداً، حفرت بينها، حَفراً محكماً، أحواض على هيئة حرف T، بينما رسمت من حولها زخارف تصور الزهور والحيوانات^(٢٤). ففي بلد تحاصره الصحراء من كل جانب، كان الميل إلى الطبيعة النضرة والمحيية، ظاهرة شاعت في مختلف العصور والأزمنة.

كانت منازل رجال البلاط فسيحة. ومسكن الوزير نخت كان مربعاً، ومساحته ٨٨٠ متراً مربعاً. ويتكون من حجرة إستقبال ذات ستة أساطين من الخشب الملون، ويتيجان نخيلية، ومن حجرة معيشة تتجه ناحية الشمال، ويبلغ كل ضلع من أضلاعها ثمانية أمتار، وذات أربعة أساطين وبأريكة ومن حجرة للتطهر ومجمرة مركزية ومن الأجنحة الخاصة وتضم حجرة النوم والحمام ويلاطه مسطحة للتوضؤ، بقنوات تصريف ومراحيض في مكان معزول، بقاعدة ثابتة أو متحركة. كانت الأرضيات تتكون من طوب مستقر، مغطى بزخارف تصور زهوراً ملونة. ومن حجرة المعيشة، كان سلّم يوصلنا إلى السطوح، المتجه، هو أيضاً ناحية الشمال. وفي بعض الأحوال، كانت الأجنحة الخاصة في الطابق الأول. أما المطبخ ومسكن الخدم والحظائر، فكانت في الخارج. والعدائق والعرائش وأحواض الماء، كانت تحيط بالمنزل. وفي حوض ماء واحد أو أكثر، كانت تطفو زهور اللوتس الزرقاء والبيضاء وتسبح البط الأزرق والأسماك المتعددة الألوان، وتظلل أو تظللها مختلف الأشجار. هكذا، كانت تحيط بالمنازل روضات من النضارة والنسيم العليل المنعش، فتشيع السكينة والجمال، وتجمع بين الأشكال والألوان، في تناغم وانسجام مبهين.

أما المدينة الشمالية، فكانت حىّ التجار وأصحاب العوانيت. كما كان بها قصر الشمال وهو قصر التنزه والترويح عن النفس، ويضم رحبة للحيوانات بها مكان لتربية الطيور والحظائر.

وبعيداً وفي مكان معزول، عُثر على أطلال مدينة عمال حقيقية، شبيهة بمدينة عمال دير المدينة على البر الغربي من مدينة طيبة. وداخل سور يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ٦٩ متراً، يتكس جنباً إلى جنب، وظهراً لظهر، أكثر من سبعين منزلاً، يضم كل واحد منها أربع حجرات، وتتظم المنازل في صف مستقيم، على امتداد خمس حارات.

إن تراتب الهرم الإجتماعى، واضح كل الوضوح، فى تل العمارنة، وكما كان الحال فى طيبة.

احتاج الأمر، إلى خمس سنوات من العمل الدؤوب، لترتفع فى الصحراء مدينة يبلغ طولها ١٣ كم، مدينة مكرسة للشمس، وكانت كل عناصرها التصويرية والزخرفية، نداءً مؤثراً جياشاً للحياة المتجددة. كانت تمهيداً وإرهاصاً، لأحد المبادئ المعمارية فى عصر الرعامسة، كما أن ألوان الأحجار وطريقة تجميعها، تقوم بدورها الرمزي.

خمس سنوات من العمل الدؤوب، وأربع عشرة سنة من حياة، مكرسة لحلم صوفى. ومن كل ذلك، من كل هذه الكنوز التى انبثقت من رمال الصحراء، بفضل إرادة أمير، لم يغالب الأيام سوى بقايا مبعثرة، على أرض المنطقة، ولكنها كافية على الأقل، بمساعدة علماء الآثار، على إعادة تشكيل البهاء التليد وروعته. ولكن الحلم توقف فجأة وتبخر.

غير أن «الهزيمة» الأولى التى منيت بها طيبة، كانت هزيمة عابرة، سرعان ما أصبحت فى خبر كان، وفى وقت لاحق، وبعد مرور قرن من الزمن، سوف ينتقل الرعامسة، بدورهم، بعيداً عن مدينة الجنوب المهيبة وبسانس الكرنك. كانت الإمبراطورية تستوجب قيام عاصمة أخرى. كانت تل العمارنة بمثابة المرحلة الأولى لهذه الحركة «المساعدة فى اتجاه الشمال»، التى سيواصلها خلفاء أمنهوتب الرابع، لأسباب متعددة. فكان التراجع الأول الذى لحق بمدينة التحامسة العظيمة.

وإلى الشرق من تل العمارنة، حفرت فى المنحدر الصخرى، مقابر الملك ومن تبعوه إلى المدينة الجديدة.

كانت مقبرة، قد أعدت للملك فى تل العمارنة فى أقصى وهدة متعرجة، عرفت عند العرب، تحت اسم هرب الملك، وتحمل المقبرة رقم ١٢٥. وتم الكشف عنها، عام ١٨٩٢، بمعرفة بارسانتى Barsanti. وقد أصاب المقبرة دماراً بالغاً، وتعرضت على ما يعتقد، عند وفاة الملك، لاضرار وتلفيات متعددة، ارتكبها من ناصبوا الملك العداء. فبعد

أن يعبر المرء العتبة ويهبط سلماً من عشرين درجة وممشى شديد الإنحدار، يصل إلى سلسلة من الحجرات والممرات غير المزخرفة، وصولاً إلى مسطح منبسط، عرضه متران، يفتح جهة اليمين، على حجرات مزخرفة بنقوش شديدة التدمير، تصور مشاهد قرابين ومشاهد طقسية، تقام «فى إطار عائلى»، وتسيطر من على صورة الجرم السماوى بسواعده الأدمية. وفى الحجرة الأولى، وعلى الجدار الشمالى تحديداً، يرى الناظر مشهداً جديراً بالملاحظة، يسير فى اتجاه السياسة الإمبراطورية التى تبنتها مصر منذ ما يقارب المئتين سنة، ويصور شعوب الأرض قاطبة متعبدة للشمس. كان حلم أخناتون، تضرب جنوده فى أعماق الماضى. أما حجرة الدفن فتوجد، عند مستوى أدنى، وللوصول إليها يهبط المرء سلماً بدرجاته الست عشرة، وتزدان هذه الحجرة أيضاً بنقوش تصور الطقوس المقامة من أجل الجرم السماوى، ولم يعثر فيها سوى على تماثيل جنازية صغيرة، تحمل اسم أخناتون وأجزاء توابيت مبعثرة. لقد اضطهد (بفتح الطاء) وهو على قيد الحياة فاضطهد (بضم الطاء) بعد وفاته، إن صاحب هذه المقبرة لم يشغلها، وإن كانت مخصصة له، فربما دفن سرّاً فى طيبة^(٢٥).

كانت مقابر الأفراد من طيبة وطران مقابر طيبة المنحوتة فى الصخر ذاته، وقد تم الكشف عن حوالى خمس وعشرين مقبرة.

لقد كان من الصعوبة بمكان أن تقوم تل العمارنة بإراحة طيبة والكركك لتحل محلها.

رفاق تل العمارنة

إن المقربين من أخناتون وبعض أتباعه المؤمنين به وأصدقائه المخلصين، قد رافقوه إلى عاصمته الجديدة.

والعائلة المالكة حاضرة حضوراً مطلقاً فى كافة التصاوير. فنشاهد نفرتيتى، الزوجة الملكية العظيمة والأميرات الست، ثمرة إقتران الملكة من الملك وهن:

مريت - أتون (أى: «محبوبة أتون») وميكت أتون (أى: «الحامية من أتون») وعنخ - إس - إن - پا - أتون (أى: «إنها تحيا من أجل أتون») ونفر - نفرو - رع (أى: «جميل هو كمال رع») وستپ - إن - رع (أى: «من اختيار رع»).

ومن غير المستبعد أن يكون الملك قد اقترن من ابنته الثالثة^(٩). فائشاء أعمال التنقيب التى باشرتھا البعثة الألمانية فى هرمهوليس - على البر الآخر من نهر النيل، قرب تل العمارنة، ظهرت إلى النور كتل حجرية تحمل مدونات، جادت بها عاصمة أخناتون^(١٠). وعلى كتلة من هذه الكتل يمكن قراءة النص الآتى:

محبوبت عنخ - إس - إن - پا - أتون، الابنة الملكية التى من صلبه، التى ولدتها عنخ - إس - إن - پا - أتون، الابنة الملكية التى من صلبه، (والتي انجبها ((نفر خهرو رع - واع إن رع^(١١)). وفقاً لصيغة البنوة التقليدية.

هكذا، فمن المعتقد أن أميرتين، الأم والابنة، وقد انجب أخناتون كليهما، قد حملتا الاسم نفسه. وهو ما يتضح أيضاً، على ما يبدو، من قراءة النص المدون على كتلة حجرية أخرى:

الابنة الملكية، عنخ - إس - إن - پا - أتون التى من صلبه، ليتها تحيا! والابنة الملكية، عنخ - إس - إن - پا - أتون الصغيرة، محبوبت التى من صلبه.

فى كثير من الأحيان، يستخدم لفظ «الصغيرة» لتمييز الأم عن الابنة، عندما يحملان الاسم نفسه. هكذا فإن نفر - نفرو - أتون التى تحمل هى ونفرتيتى الاسم الشخصى نفسه، تُدعى أحياناً «الصغيرة».

(*) يشكك البعض فى هذا الزواج ويعتبره أمراً مستحيلاً، راجع:

C. Vandersleyen. L'Égypte et la Vallée du Nil. Tome 2. P.U.F, 1995, p.414 et

n.3 (المترجم)

(**) لقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى أو التيسوت بيتى، راجع مطلع هذا

الفصل. (المترجم)

وإذا التزمنا بهذه الفرضية، الأقرب إلى الصواب، فمن من غير المستبعد أن تكون عنخ - إس - إن - پا - أتون الثانية هى التى تزوجها توت عنخ آمون، وليست أمها.

يجدر بنا، الإشارة إلى تواجد آخر فى تل العمارنة، كان مؤثراً وعلى قدر كبير من الأهمية، نقصد بذلك، الملكة تىي أرملة أمنحوتب الثالث ووالدة العاهل الملكى الشاب، كانت سيدة عظيمة، قامت بدور سياسى أكيد، فى طيبة، فى عهد زوجها، ويبدو أنها أكرت تأثيراً بالغاً على ابنها. وكما سنلاحظ، فإن توشراتا ملك الميتانى، قد وجّه إليها خطابه، لتقوم بدور الوسيط بينه وبين فرعون.

ويبدو أن عدداً من التصاوير، تبرهن على وجودها فى تل العمارنة. ففى المقبرة رقم ١ - مقبرة هويا - المشرف العام على قصرها، تظهر قبالة أخناتون ونفرتيتى، وهى تشاركهما الأطعمة الوفيرة المقدسة على مائدة^(٢٧). وقد صُوِّرت إلى جوارها ابنتها الصغرى باكت أتون (أى: «خادمة أتون») وإلى جوار نفرتيتى صُوِّرت ابنتها الكبيرتان، وفى المقبرة ذاتها، تظهر تىي وهى تشرب من كأس فى صحبة الزوجين الملكيين^(٢٨). والأقرب إلى الصواب، أنها عاشت فى المدينة، فى صحبة آخر بناتها، ثمرة زواجها من أمنحوتب الثالث والتى كانت مكرّسة للإله أتون، كما يتضح من اسمها. ومن المحتمل أن الملكة تىي القوية القديرة، الدساسة، لم تكن بعيدة عن قرار مغادرة طيبة وعن المغامرة التى أقدم عليها أخناتون. ولكن كل ذلك، يفترض تدامى أحداث لا حصر لها واجتماعات تأمرية سرية نجهلها، فلا ندرى عنها شيئاً.

خدّام أتون

كان مرى رع (أى: «محبوب رع»)، أحد أقرب المقربين إلى الملك الذى عينه كبير كهنة أتون، بالإضافة إلى المشرف العام على البيت المزيج للفضة والمشرف العام على الحريم الملكى.

توفر لنا النقوش والنصوص المنحوتة في مقبرته رقم ٤، يقل العمارنة أن نتعرف على مراسم تنصيبه حبراً أعظم جيداً. وفي لقطة أولى، يظهر أخناتون ونفرتيتي في شرفة القصر الملكي، وقد تجمعت جماهير الشعب بمناسبة العيد. ونشاهد مري رع، في صحبة المقربين، راكعاً على الأرض أمام العاهلين الملكيين. ويعد أن ينتهي الملك من إلقاء خطابه وتفويضه حق ممارسة منصبه، يهبُ أصدقاء مري رع مسرورين ويرفعونه على أيديهم^(٢٩).

● خطاب الملك:

الملك الذي يحيا بالحقيقة - العدالة، رب القطرين نفر - خپور رع - واع إن رع يتحدث إلى مري رع كبير كهنة أتون^(*) قائلاً: انظر، إني أنصّبك كبيراً لكهنة أتون بمعبد أتون في أخت أتون، لقد أقدمت على ذلك، بسبب حبى لك، قائلاً: أيا خادمي العظيم الذى يُصغى إلى تعاليمى، إن قلبى راضٍ (عن نتيجة) كل مهمة من مهامك، لذلك، أسند إليك هذا المنصب، قائلاً (أيضاً): سوف تتناول من طعام فرعون، سيدك، في معبد أتون.

● رد مري رع:

وفيرة هي الخيرات التى يسمح أتون، بمنحها لمن يرضيه.

● كلمات جماهير الشعب:

إنه يأتى إلى الوجود، بأجيال شابة فى أعقاب أجيال شابة أخرى، هو الأمير الكامل. وما دام أتون يشرق، سيبطل باقياً للزمن الأبدى^(٢٠).

اللقطة الثانية، من إحتفالات التنصيب: تقديم مري رع إلى كهنة المعبد، بينما جماهير الشعب حاضرة. وجدير بالملاحظة، أن الحرس العسكرى الذى يرافق الموكب الملكى من القصر إلى المعبد، يضم فى عداده سوريين وإيبين ونوبيين^(٢١). وتغل فكرة

(*) حرفياً: «كبير أولئك الذين يرون القرص». واللقب مستعار من ألقاب كهنة هليوبوليس. (المؤلفة)

الإمبراطورية قائمة، وإن كان أختاتون لا يبدو مهتماً فى واقع الأمر، بممتلكاته القصية.

وفى آخر المطاف، يقوم العامل الملكى بزيارة ثانية للمعبد، توفيراً لكبير الكهنة مرى رع الذى يستقبله داخل باب المعبد، هو والملكة والأميرتين، وقد رفع ساعديه تحية له.

ملك مصر العليا ومصر السفلى الذى يحيا بالحقيقة - العدالة، رب القطرين، نفر - خپرو رع - واع إن رع، وبعد أن طلب كبير الخزينة من مرى رع كبير كهنة أتون أن ينحني، تحدّث قائلاً: ضع الذهب حول عنقه، وإلى فوق، (ضع) الذهب أيضاً عند قدميه، لأنه أوصى إلى تعاليم فرعون، منجزاً كل ما أملى عليه، فى هذه الأماكن الجميلة التى أقامها فرعون فى قصر بن بن، فى معبد أتون، من أجل أتون، فى أخت أتون، (المعبد) الملى بكل ما لذ وطاب وبالشعير والعلس بكميات وفيرة، إنها قرابين أتون، من أجل أتون.

• رد مرى رع:

ليت واع إن رع، الصبى الجميل، يكون مزدهراً. مكّنه، أيا أتون، أن يتمم مدة حياتك، أقمه للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى^(٣٦).

إن صياغة هذه النصوص، تلتزم فى الغالب بإيقاع الترانيم، فيتكرر اسم الشكل الإلهى المطلوب تعظيمه، تكراراً لا يكل ولا يمل. وإذا وُجد كبير كهنة لتأدية الشعائر، فإن فرعون شخصياً، هو الذى يوجهه ويُلَقِّنه «التعاليم» المقدسة.

وتم تعديل التراتب الهرمى الكهنوتى. فإلى جانب كبير الكهنة، نجد «خادم»^(٣٧) أتون الأول. وهو المنصب الذى شغله پانهسى، الذى كان الجنوب، بلا شك، موطنه الأصلى، فاسمه يعنى «النوبى». كان متواضع المنبت، فقام الملك بترقيته، إذا أخذنا

(٣٦) بالك بالمصرية القديمة، وليس هم كما كان يسمّى فى المعتاد. (المؤلفة)

بالترنيمة المرفوعة إلى الملك، والمنقوشة في مقبرته رقم ٦ في تل العمارنة والتي استخدمت للأسف، فيما بعد، كنيسة صغيرة للأقباط:

التسبيح لك، يا إلهي، الذي شككتني واعطيتني السعادة، وأتيت بي إلى الوجود ووفرت لي الطعام، وكل احتياجاتي بواسطة كائن. أيها الأمير، الذي خلقتني وسط البشر، وحملتني على مخالطة المقربين المفضلين إليك، وجعل الجميع يعرفونني.

لقد ميّزتنى وأكرمتني مساعداً من أسفل. وجعلتني قديراً، بعد أن كنت متواضعاً... والآن تكرمني مدينتي على مدار الأيام. ورقيت بناء على أمر صادر من سيد الحقيقة - العدالة. ولذا تهلك يداي حتى أعالي السماء، عابداً أختاتون، سيد القطرين، والقمر الذي ما فتى يمنح الحياة، سيد الأوامر، أي نور الأرض قاطبة، في كل فصل (من فصول السنة) نحياء، ونهر النيل للبلد وللشعر، يا صاحب الكا الذي يُشبع، أيها الله الذي خلق العظماء وجبل الوجود، أنت النعمة لكافة الأنوف، فبفضلها يتنفس الناس (٣٣).

كان الأمير متصوفاً، ولكن ربما كان مصاباً أيضاً. بجنون العظمة (٩). فهذه الترانيم التي كان هو مصدر إلهامها، تدمجه في الله موزع الأقدار، وتوحد بينهما.

هكذا نجد أن رجالاً جدداً - يدينون للماهل الملكي، بما حصلوا عليه من امتيازات، إذ كان يسعى سعيًا حثيثًا، من أجل إيجاد أصدقاء وأفراد مخلصين يؤمنون، بعد القطيعة العنيفة مع طيبة والكونك، وما قام به من اضطهادات وملاحقات - قد شكّلوا سلك الكهنة الجديد.

(*) mégalomanie: تصرّف مريض يتميز بحسب التحليل النفسي. بإظهار رغبة مفرطة وشاذة في العظمة والمجد والقدرة. (المترجم)

موظفو الدولة

إن بعض كباراء البلد القدامى وأعيانه، ظلوا مخلصين أوفياء للنظام الملكي.

هكذا كان وضع الوزير وعموزا، الذي شغل منصبه منذ عهد أمنحوتب الثالث^(٢٤)، ثم صاحب ابنه أمنحوتب الرابع إلى تل العمارنة. فصور في مقبرته راکعاً أمام أخناتون الذي يقوم بمنحه قلادات من ذهب، وقائلاً له:

إنك تتألق، أيا نهر خيبرورع - واع إن رع، وتتجلى متلائماً مثل أبيك، أتون الحى. ليت يعطيك الزمن الأبدى، بصفتك ملكاً، والزمن اللانهائى، بصفتك أمير الفرح والحبور.

ثم يوجه حديثه إلى جماهير الشعب. كان شخصية مرموقة من النظام «البائد»، فربما أراد، على هذا النحو، أن يقدم فروض الطاعة والولاء للقادم الجديد:

ليت أتون يتألق من أجله. ليت أتون يجعل فرعون مزدهراً^(٢٥).

أما عن الوزير نخت، فلم يبق منه سوى أثر بعد عين. ونعرفه أساساً من خلال منزله بتل العمارنة^(٢٦)، وبعض القلة القليلة، من النصوص التى توضح لقبه.

ومن بين شاغلى منصب المشرف العام الملكى، نذكر أنى، الشخصية البارزة المتميزة، كما كان إلى جانب ذلك، كاتب مائدة الملك وكاتب مائدة أتون. وتقدم مقبرته رقم ٢٢، عناصر معمارية فريدة فى بابها. ونشير تحديداً، إلى رواق أقيم عند المدخل الخارجى عند الجرف الصخرى. وقد تم إنجاز أعمال المقصورة الداخلية على أكمل وجه. إن خطوطاً كبيرة من الألوان، تتعاقب زرقاء فخضراء فزرقاء فحمراء، محدثة وحدة منسجمة من النضارة المتألفة. وعندما لحق أنى بالفرعون أخناتون، كان بالفعل شيخاً طاعناً فى السن. ولا شك، أنه كان قد شغل منصب المشرف العام على أملاك

أمنحوتب الثانى، والد جدّ العامل الملكى الحالى^(٥)، أى قبل حوالى خمسين سنة. وربما اضطر أخناتون أن يلتمس العون من أقدم موظفى أبائه وأكثرهم إخلاصاً.

وفى عام ١٨٩١، كشف بارسانتى Barsanti فى مقبرة لنى، عن ستة ألواح حجرية نذرية، موضوعة فى كوات، ومهداة إلى لنى من قبل أفراد عائلته وأصدقائه. صيغة النصوص تقليدية إلى حدّ كبير، وتحديداً تلك المتعلقة بتقديم قربان باقة الزهور الكلاسيكية من قبل پاخا، المشرف العام على الأشغال:

من أجل كانك، باقة من لتون، ليتها تعطيك النسيم العليل، ليتها تربط أعضائك، ليتك ترى رع، فى كل مرة يظهر متألّقاً وتعبد، بينما ينصت إلى ما تقوله^(٣٧).

كما نذكر المشرف العام ماى، وهو محدث نعمة أيضاً، بفضل الملك، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان «رئيس كافة الأشغال».

انصتوا إلى ما أقوله، أنتم، يا جميع البشر، كباراً وصغاراً، سوف أروى على مسامعكم المنن التى أنعم بها علىّ، الأمير. عندئذ سوف تقولون: «كم هو عظيم كل ما تمّ من أفعال من أجل هذا الإنسان الرقيق الحال» وسوف تطالبون من أجله (أى من أجل الأمير)، بصفته رب القطرين، بأعياد يوبيلية أبدية، وبلا نهاية. عندئذ سوف يتصرف من أجلكم، تماماً، كما فعل من أجلى. (حيث أنه) الله مانع الحياة. كنت إنساناً رقيق المنشأ، سواء بانتسابى إلى أبى أم إلى أمى، لقد صنعنى الأمير، فساعدنى على «الرفقاء العرجات».... عندما كنت إنساناً ضيق الحال، وبفضله تعاظم أهل بيتى عدداً، وجعل عائلتى كثيرة العدد، وجعل جميع رجالى يعملون من أجلى. وعندما أصبحت سيد مدينة، جعلنى أخالط الكبراء والأصدقاء، فى حين كنت (أصلاً) من أبناء الطبقة الدنيا. وأعطانى يومياً طعاماً وغذاءً، أنا الذى كنت (فى سالف الزمان) استجدى الخبز^(٣٨).

(٥) أمنحوتب الرابع - أخناتون هو ابن أمنحوتب الثالث، ابن تحوتمس الرابع، ابن أمنحوتب الثانى. (المترجم)

هل تكشف هذه الترقية المفاجئة التى تُمنح لبعض الرجال المتواضعى المولد، عن رغبة فى الإبتعاد عن طليعة وكبرى عائلاتها القوية النفوذ؟ ولكن ماذا نقول عن حالة وعموزا؟ أم تعنى بالنسبة للعاهل الملكى المارق المتمرد، محاولة للخروج من عزلته والصعوبات التى صادفها فى سعيه إلى «تجنيد» معاونين جدد؟

إن مشاهد قيام الملك والمملكة بتوزيع الهدايا، من شرفة القصر، على قدر كبير من الروعة والنضارة.

فى مقبرة **پارن نفر** - (أى «الإسم الجميل») - فى تل العمارنة وتحمل رقم ٧، وكان ساقى الملك، نشاهده يرقص فرحاً، أمام العاملين الملكيين، وقد ازدان عنقه بخمس قلادات من ذهب، بينما تُعد له هدايا جديدة، ويقوم خادم بمسح عنقه بالادهان^(٣٩).

أما مقبرة **توتو** وكان «أول العاملين» فى خدمة الملك، فقد احتفلت بنص الضطبتين المتبادلتين، بمناسبة مراسم الإستقبالات الملكية هذه.

● الملك:

أنتم، أيها كباراء الجيش ورؤساءه، الواقفين فى حضرة فرعون، إننى أُرغب فى منح هدية غير عادية... لم يسمع أحد، أنها سلّمت من قبل، إلى غيره من الكبراء. هذا ما سأفعله من أجل توتو، كبير أمناء القصر، بسبب حبه لفرعون... إن فرعون، سيده الصالح، يحمل كباراء البلد قاطبة ورؤسائه، على إعطائه فضة وذهب... وثياب وأدوات أكل نحاسية...

● ثم يتحدث توتو شاكرًا:

أنت، أيها السيد الصالح، الأمير القوى الشكيمة، صاحب الشروات الطائلة والحياة المديدة والمعالم الصرحية الشامخة! إن كل تعليماتك تظهر ظهور تعليمات أتون، رب قرص الحياة، والذي يُصدر الأوامر فى السماء، على مدار الأيام. أنت

حياتى. أنا مزدهر عندما أشاهدك، (فانت) ملايين من أنهر النيل. كم هو حىّ نشط، من يضعه فى قلبه!... وفيرة هى الهدايا التى يقدمها فى صورة فضة وذهب، وأكثر مما يستطيع المرء أن يحملها على ساعديه. فمن أجلك، يسلم آتون الحى، ليطمئن قلبك، على مر الأيام، أيا واع إن رع، الجميل مثل آتون، يا صاحب الحياة المزدهرة... أهلك المتألق الذى جاء بك إلى الدنيا. إنه يعطيك بريقه، وكل من على الأرض يشاهدون أشعته، (جميع) البشر والحيوانات من كافة الأنواع، وكل من يسير على قدميه. فالجميع، يشاهدون آتون عند شروقه... وتبقى أنت ثابتاً فى منصبك، للزمن الأبدى، أيها^(٥) الشمس الذى^(٥) جاء به آتون إلى الدنيا، أيا نفر خپرورع - واع إن رع، الذى يأتى إلى الوجود بالأجيال بعشرات الآلاف... وتجدد شبابك مثل آتون الحى^(٥٠).

لا نلتقى فى تل العمارنة، سوى بالقليل من مقابر ضباط الجيش. ونذكر ماهو الذى كان يلقب «رئيس الهلوى (فى خدمة) أخناتون»، فهو قائد شرطة محلية إذن، وقد طلب تسجيل مشاهد فريدة فى بابها، فى مقبرته رقم ٩. فتصور قيام العاهل الملكى بالتفتيش على دفاعات المدينة ومشهد آخر يصور ماهو شخصياً فى جولة تفتيشية داخل المدينة. كان النحات عندما قام بتصوير أخناتون، على متن مركبته التى يقودها بنفسه، عند خروجه من المعبد، يعيل أسلوبه إلى شىء من الألفة والتبسُّط وقدّر من روح الدعابة. فتصاحبه نفرقتى التى تصرفه ثرثرتها، عن قيادة المركبة التى يزيد من صعوبتها، ما تفعله الأميرة الشابة مريت آتون من استئارة أحد الجياد بواسطة عصا. كل ذلك يبطل من سير المركبة الملكية وما يزيد من هذا التبساط، أن الحرس والرسميين، ومنهم الوزير الأكرش، يهرولون أمام المركبة^(٥١).

ومن الجدير بالملاحظة، أنه من بين مقابر جبانة تل العمارنة بأسرها، انتهى العمل من حجرة دفن مقبرة ماهو فقط، كما أنها الوحيدة، بلا شك التى استخدمت مدفنًا.

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكور فى المصرية القديمة. وليستقيم المعنى. كسرنا قواعد اللغة، وأبقينا كلمتى «أيها» و«الذى» فى المنكر. (الترجم)

ظلت ضرائب جزية الإمبراطورية تتدفق على تل العمارنة. كانت جزية الجنوب، تأتي بفضل جهود نائب الملك تحوتمس وفطنته. وفي مقبرة حويا، المشرف العام على الأملاك الملكية، لبیت الملكة الأم تهي، صُوِّرَ إحتفال تسليم ضرائب الجزية، في العام ١٢. فنشاهد الملك والملكة، عند خروجهما من القصر، وقد جلسا، جنباً إلى جنب، في محفة من ذهب، يحملها اثنا عشر رجلاً على أكتافهم. ويلتف ساعد نفرتيحي حول خصر الملك، إنه وضع آخر، يعطى ملمحاً مألوفاً ويكشف عن خصوصية حميمة، لمشهد يفترض على كل حال أن يكون رسمياً. إن أميرتين تسييران على أقدامهما خلف المحفة تصاحبان والديهما. إن ستة من حاملي المراوح، يحركون مراوح كبيرة. ويصاحب الموكب الرسميون وكبراء الدولة. وأمامه يسير حويا مسبقاً بستة جنود^(٤٢). إنه طابور طويل لدافعي جزية الجنوب والشمال.

اليوم الثامن، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات، من العام ١٢ ... يظهر ملك مصر العليا ومصر السفلى، نفر خپور رع - واع إن رع، متألقاً، إلى جانب الزوجة الملكية العظيمة نفر نفرو آتون - نفرتيحي، على المحفة الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص، لتسلّم جزية سوريا وبلاد كوش، من الغرب ومن الشرق، حيث اتحدت كافة البلدان، في بلد واحد. كما أن الجزر الواقعة في قلب الشديدة الأخضرار، تقدم الجزية للملك، (الجالس) على العرش العظيم في أخت آتون، ليتسلّم منتجات كل البلدان الأجنبية، وأهياً هذه الأخيرة نسبات الحياة^(٤٣).

ما زال تسليم الجزية مستمراً. ولكن الإمبراطورية الشاسعة التي أسسها أباء أخناتون الفاتحون الأشاوس، ماذا حلّ بها في عهد هذا الملك الشاب الذي ركّز جل اهتمامه، على ما يبدو، في المسائل الروحانية وعشيق السلام، فعاش عامل العمارنة في عالم مطلق، من الأحلام الصوفية.

٤- السياسة في حالة ضعف خطير

إن ما يبرز، باديئ ذي بدء، من المراسلات التي عُثِرَ عليها في تل العمارنة، هو الإستياء الشديد الذي أبدته البلدان الأجنبية الصديقة لمصر. كان كرم أخناتون في

تعامله مع حلفائه أقل بكثير، مقارنة بآبائه، فنضبت شحنات الذهب. الأمر الذي ترتب عليه تقلص الهيبة التي كانت تتمتع بها مصر حتى الآن.

فقد أرسل آشور - أويايت الأول، ملك آشور، خطاباً إلى فرعون يقول فيه:

إلى نيفوريا^(*)، إلى أخي، الملك العظيم، ملك مصر. هكذا يتحدث أخوك، آشور - أويايت، الملك العظيم، ملك آشور. من أجلك، من أجل بلدك، من أجل بيتك، فلتسر الأمور على ما يرام. لقد سررت جداً، عند استقبال موفديك. ومن شدة اهتمامي بهم، طلبت منهم الجلوس أمامي. وأرسلت لك كهديّة، مركبة ملكية جميلة، سبق أن قدتها أنا شخصياً، بالإضافة إلى ختم من لازورد الجبل.

أهذه هدية ملك عظيم؟ في بلدك، الذهب كالتراب: يكفي على المرء أن يجمعه. لماذا لا تستطيع أن تحول عنه عينيك؟ في نيتي تشييد قصر جديد. أبعث إلى ذهباً، بقدر ما يكفي لزعزاعه! عندما أرسل سلفي آشور - نادين - أهلي موفداً إلى مصر، عاد إليه محملاً بعشرين تالان^(**) ذهباً. وعندما أرسل ملك هاتيجابالت^(***) (بلاد الحوريين) إلى مصر، موفداً لمقابلة والدك، أرسل هذا الأخير في المقابل، عشرين تالان ذهباً. إلا أنني مثل ملك هاتيجابالت، ومساوياً له، والذهب الذي ترسله، لا يكفي لمجرد تغطية نفقات الموفدين الذين أبعثهم إليك، في ذهابهم وإيابهم.

إذا كانت تبتغي حقاً الصداقه، أرسل لي ذهباً بكميات وفيرة. هذا البيت بيتك: أرسل لي موفداً، وسوف أرسل لك ما تحتاج إليه^(٤٤).

ومقارنة بالمراسلات المتبادلة مع أمنحوتب الثالث، أصبحت اللهجة أكثر تحفظاً،

(*) الدلالة الصوتية بالخط المسماري للقب أخخاتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى:

نفر خيدورح. (المؤلفة)

(**) (التالان الواحد يساوي ٢٦ كيلو جراماً. (المترجم)

(***) الاسم الذي أطلقه الآشوريون على بلاد الحوريين.

M. Damiano - Appia. L'Egypte. Dictionnaire encyclopédique de l'Ancienne

Egypte, Gründ, 1999, p.188. (المترجم)

وأقل ودًا^(٤٥). وللأسباب نفسها، باتت العلاقات أكثر توترًا أيضًا مع يورثابورياش، ملك بابل، الذي كتب إلى أخناتون، متحدثًا بالعبارات الآتية:

إلى نيفوريا^(٤٦)، ملك مصر. هكذا يتحدث أخوك يورثابورياش، ملك بابل. أما عن نفسي، فكل شيء على ما يرام. من أجلك، ومن أجل بيتك ونسائك وأولادك وبلدك وكبرائك وجيادك ومركباتك، ليت يكون كل شيء على ما يرام!

منذ أن تبادل أسلافى وأسلافك عبارات ودية، وقدموا لبعضهم البعض، الهدايا الجميلة ولم يرفضوا طلبات الأشياء الجميلة التي تقدم بها أحدهم إلى الآخر، حدث أن أرسل أخى سبيكتي ذهب، هديةً حسنًا، فأرسل لي الآن، ذهبًا بكميات وغيره، بقدر ما كان أسلافك يرسلون. وإذا كان شحيحًا (في الوقت الراهن)، فأرسل لي نصف الكمية التي كان يرسلها أسلافك. كيف إذن، ترسل سبيكتي ذهب فقط؟ أما الآن، فتجري أعمال ضخمة في المعبد وأنا معنى الآن إلى حد كبير، بتنفيذها. ابعث لي ذهبًا بكميات وغيره! وأبلغني كتابًا، بكل ما تحتاجه من منقجات بلدي، لترسل إليك^(٤٧).

وفي خطاب آخر، يتبرم، ملك بابل نفسه، بأن الذهب المرسل إليه من نوعية رديئة.

منذ عصر كاريئداش^(٤٨)، ومنذ أن وصل بانتظام موفدو أسلافك لدى أسلافى، فحتى الآن كان الملكان تربطهما علاقات وطيدة. والآن تربطنا، أنا وأنت علاقات وطيدة. إلا أن موفدك قد جاءوا ثلاث مرات على التوالي، ولم ترسل إليّ، أى هدية جميلة، وأنا شخصيًا لم أرسل إليك أى هدية جميلة: فلا شيء من أجلى له قيمته، ولا شيء من أجلك له قيمته. إن سبائك الذهب العشرين التي أتى بها الموفد الذي أرسلته، لم تعطنى حقى وافيًا تامًا. فعندما وضعت في الفرن، لم يخرج منه سوى ما يعادل خمس سبائك... وما خرج، اتخذ هيئة خبث الذهب، بعد أن برد...^(٤٩).

(*) راجع مامش الخطاب السابق. (المترجم)

(**) ملك بابل في القرن الخامس عشر ق.م. (المؤلفة)

ترتب منذ الآن، على هذا الشح والإهمال والتقصير في التعامل مع البلدان الأخرى، أن فقدت مصر الكثير من هيبتها المعنوية التي كانت بحق مصدر فخر لها. كان الذهب من المقومات الهامة في السياسة الدولية، وأجاد أسلاف ملك العمارنة استخدامه استخداماً ناجحاً. ومن جهة أخرى، لم يشغل أخناقون باله كثيراً، على ما يبدو، في مراعاة الأعراف السائدة، فلم يتمسك بالرسميات المتعارف عليها، الأمر الذي كان يُنظر إليه في الشرق باعتباره إهانة خطيرة^(٤٨).

وفي رسالة من بورنابوريلاش نقرأ أيضاً:

منذ يوم وصول موفد أخى (إلى جوارى)، وأنا مثقل بالمرض، حتى أن موفدك لم يتناول طعاماً ولم يشرب ماءً، فى وجودى. سوف تسأل موفدك وسوف يخبرك كم كنت معتل الصحة، فما من عشب طبي واحد، عافانى. فلما كنت مريضاً ولم يقم أخى بمواساتى، استشعلت غضباً على أخى، وتبرمت قائلاً: «ألم يعلم أخى أننى كنت مريضاً؟...» وإذا بموفد أخى يتحدث على النحو التالى: «لا يتعلق الأمر ببلد مجاور بحيث يحاط أخوك علماً، فيدعوك بالصحة والعافية. إن ملك أخيك يمتد على بلد قصى... فهل يعقل أن يعلم أخوك بمرضك ولا يرسل إليك موفده؟... فالآن،... (ويعد أن علمت) بطول الرحلة، فقد تبدد غضبى على أخى وزال تبرمى^(٤٩).

يا لها من معاحكات ولجاجة فى غير محلها. ولكن تلك كانت الأعراف السائدة^(٥٠)، وغض الفرعون الجديد الطرف عنها ولم يتلزم بها.

ظل أمنحوتب الرابع عند موقفه، من توشراتا، ملك الميتانى، فلم يعره أى اهتمام. حتى أن الملك الميتانى قد طلب من تى التدخل لدى ابنها، بهدف استمرار العلاقات الودية بين الدولتين:

إلى تى ملكة مصر. هكذا يتكلم توشراتا، ملك الميتانى. ففيما يخصنى، كل شىء على ما يُرام. وفيما يخصك، فليكن كل شىء على ما يُرام، وبالمثل فيما يخص بيتك وابنتك وأبنوك^(٥١)، ابنتى وزوجة ابنتك، وفيما يخص بلدانك وجنودك وكل ما تمتلكين، فليكن كل شىء على ما يُرام، إلى أبعد الحدود! إنك تعرفين، أننى كنت

أحافظ على صداقة طيبة مع زوجك نيموريا، وأن زوجك نيموريا، كان يحافظ معى على صداقة طيبة. وما كنت أكتبه وأقوله إلى زوجك نيموريا والكلمات التى كان نيموريا يكتبها إلىّ ويحدثنى بها، كنت أنت وجيليا وملتى^(٥٢) تعرفونها. أما أنت، فتعرفين أكثر منهم جميعاً، كل الكلمات التى تبادلناها. ولا أحد يعرفها أفضل منك. لاحظى، فقد قلت (للموفد) جيليا: «قل لسيدك: إن زوجى نيموريا، قد أبرم مع والدك معاهدة صداقة، وقد حافظ على هذه الصداقة نحوك. إنه لم ينسَ الصداقة التى عقدها مع والدك، ولم يوقف السفراء الذين كان يوفدهم. ولا تنس، الآن صداقتك مع أخيك، نيموريا. أما فيما يتعلق (بالمالك) نيفوريا (أمنهوتب الرابع)، فليكن رأيك فيه حسناً وقدره أفضل تقدير. ولا توقف السفراء الذين توفدهم». كنت قد أقمت مع زوجك نيموريا علاقات صداقة، أهم من تلك التى كانت قائمة، من قبل. والآن سوف أبقى على هذه الصداقة مع ابنك نيفوريا، فتزيد عشرة أضعاف. إنك تعرفين كلمات زوجك نيموريا حق المعرفة، ولكن الهدايا التى كان يقوم زوجك بإرسالها، لم تقمى بتسليمها إلىّ، بأكملها.... كنت قد طلبت من زوجك، متحدثاً بالكلمات الآتية: «هل فى وسع أخى أن يعطينى تماثيل من الذهب ومن اللازورد الجميل؟» ولم أحصل عليها. وقام ابنك نيفوريا، بإرسال تماثيل من الخشب المذهب، ومع ذلك، ففى بلد ابنك، من الذهب بقدر التراب... ترى، أمكنا تكون الصداقة! (مكرد).

يبرهن هذا الخطاب، على أن الملكة تىي كانت متوقدة الذكاء، حادة الذهن، فى الشؤون السياسية، ملّمة من ناحية إلاماً تاماً بأحداث الدبلوماسية والحياة السرية فى قصور الملوك الآسيويين ومجالسهم وهاشيتهم. وأن أخناتون من ناحية أخرى، ظل بعيداً كل البعد عن الحقائق السياسية، رغم أن أحداثاً جسام وخطيرة، كانت على وشك الوقوع، ترتبط بصعود نجم قدرات الحيثيين وزوال الميثانى عن المسرح الدولى.

ويذهب پول جاريللى^(٥٣)، Paul Garolli، أنه كان من مصلحة مصر، فى مواجهة طموحات الحيثيين فى شمال سوريا، ومع الضعف والوهن الذى أصاب الميثانى، أن تعهد بمهمة الدفاع عن المناطق الساحلية والحدودية إلى زعيم محلى، يجد تحت تصرفه موارد شخصية. وهكذا، فإن ريب حداً، زعيم بيلوس، وتابع مصر الأمين، كان

مسئولاً مسئولية تامة عن إرسال القوات العسكرية والدعم المالى من قبل فرعون، فى حين كان عبيدو عشرتيا، ملك آمورو، فى وسعه فرض سيطرته على هذه المناطق، بوسائله الخاصة. واختار أخناتون التعاون مع هذا الزعيم المريب، لأنه لم يكن فى نيته، التدخل عسكرياً. كان هذا الموقف التسويفى، والإنحياز للسلام، ينطوى على مخاطر ومجازفات جسيمة.

ويبدو، أن تمرداً ضد هيمنة الحيثيين، قد وقع فى شمال سوريا. وقام سوبيلولايوما بقمع هذه الحركة قمعاً رادعاً وقورياً. ولوضع حد للدسائس التى كان يحيكها الميتانيون فى هذه المناطق، قام ملك الحيثيين باقتحام الميتاني ووصل إلى العاصمة واشوجامى وعاث فيها سلباً ونهباً. واضطر قوشراتا أن يهرب مؤقتاً. ومن خلال سلسلة من التحركات العسكرية، استولى سوبيلولايوما، بعد ذلك، على كل المناطق الواقعة بين لبنان ونهر الفرات. ولم يستجب أخناتون للإستغاثات الملحة الصادرة عن المدن الفينيقيّة التى بقيت على ولائها لمصر. وظل ينتهج سياسة ملتوية وانتهازية، متجنباً التورط أو التدخل. بينما كانت الإمبراطورية تتقوض وينفطر عقدها.

كان أزيرو قد خلف والده على عرش آمورو. كان شخصية عظيمة الأهمية، يقوم بدور حاسم فى معالجة الموقف القائم، بالنظر إلى تواجد قوات الحيثيين حتى شاطئ نهر العاصى، وهو الحد الفاصل بين منطقة النفوذ المصرى ونفوذ الهاتى. وسوف يواصل الملك الأمورى سياسة توازن بين أقوى دولتين فى ذلك العصر، كأسلوب أمثل للحفاظ على مصالحه. ودعم أزيرو سيطرته على شاطئ البحر المتوسط من بيبلوس وحتى أوجاريت. وإذ أمره فرعون منفراً، بضرورة الحضور إلى مصر لتقديم تقرير يوضح موقفه، رفض الحضور، زاعماً أنه يدافع عن الممتلكات المصرية ضد تحرشات الحيثيين، ومن ثم صعوبة مغادرة بلده فى هذه الظروف العصيبة، وفضلاً عن ذلك، كان له، فى شخص توتو، حليفاً مخلصاً، فى بلاط العمارة. وانتشرت الفوضى واجتاحت أرض كنعان وربما كان أزيرو المحرض عليها. وسمى الأمراء المحليون فى سيشم أو جيزر، إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب جيرانهم. وفى بيبلوس ذاتها تفجرت القلاقل، إذ حاول بعض الأعيان أن ينضموا إلى حزب أزيرو. ولما كان

ريب - حدًا، قد بلغ من السن أُرذله وأصابه المرض، قام أخوه بطرده من المدينة. فلجأ إلى بيروت، ثم استسلم. وسلّمه آزيرو إلى أهل صيدا الذين قتلوه. ولكن زعيم الأموريين، الذي كان له شركاء ضالعون معه، فى قتل العمارنة الذى توجه إليها، نجح فى تبرئة نفسه فى نظر أخناتون، فهل كان فرعون مخدوعاً أو بالغ الضعف؟ وعلى كل حال، فقد ظل يحجم دائماً عن التدخل.

وخلال هذه الفترة، ضمّ سويلوليوما شمال سوريا، إلى مملكة الحيثيين بروابط قوية. وقدم إلى أبنائه الممتلكات المصرية القديمة منحة لهم: ويذكر على سبيل المثال، حلب التى سلّمت إلى الأمير طيليبينو. واختفت نهائياً حدود الفرات. ومن الآن، استقرت مناطق نفوذ كل من الخاتى ومصر على جانبى نهر العاصى، وترتب على ضعف فرعون أن مواقع استراتيجيّة وتجارية، على أكبر قدر من الأهمية، أصبحت خاضعة للحيثيين.

كان سويلوليوما، ملكاً مامراً وباسلاً ومقدماً، فشجّع موقف الحياد الإجرامى الذى اتخذهُ أخناتون، وذكرهُ بالتحالف المجرم مع أُنبيه أمهوتب الثالث، فأبقاه فى خموله، بعيداً عن أى نشاط، فكان موقفاً خطيراً شكّل تهديداً على مستقبل مصر:

أجل، إنّنا نجدد الخطابات التى أرسلتها إلى أيبك والرغبات والأمانى التى أفصح عنها أبوك. أيها الملك، أنا لم أرفض شيئاً، كان أبوك قد طلبه. أجل، أيها الملك، لقد انجزت كل شىء، والرغبات والأمانى التى أفصحت عنها لأيبك، لم يتجاهل أبوك منها شيئاً، بل أعطانى كل شىء^(١٤).

كما التمس أيضاً قرضاً مالياً. وتجددت الصداقة السابق إبرامها.

وربما بدأ يساور أخناتون بعض القلق، فى هذا العالم الشرقى الذى يموج بالاضطرابات. كان ملك مصر قد حرّم من مساندة دولة الميثنى، بعد ما أصابها من وهن بالغ. ولما كان تحالف الحيثيين، قد أصبح، من جانب آخر، أمراً مشكوكاً فيه، أخذ فرعون مصر يسعى إلى إيجاد حليف فى الشمال، من أجل إعادة التوازن السياسى الذى يتوقف عليه أمن وسلامة أقاليمه الآسيوية. ولما كان نجم آشور قد أخذ

آنذاك، يعلو ويصعد، أرسل أختاتون موفدين إلى بلاط الملك آشور - أوباليت، يقترحون عليه إبرام تحالف. واستقبل الموفدون استقبالا حاراً وتم الترحيب بعروض الصداقة التي قدمها فرعون. وانتهز آشور - أوباليت الفرصة ليطالب من أختاتون عشرين تالان ذهب، ليستطيع الإنتهاء من إقامة القصر الجديد الذى شرع يشيده.

ولكن استشاط بورنابورياس الثانى، ملك بابل، غضباً، عندما علم باقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مباشرة بين بلاط كل من آشور ونل العمارة، فقد كان ينظر إلى الآشوريين باعتبارهم من «أتباعه». ففى الخطاب الذى أرسله إلى فرعون ليطالبه بإعطائه قدر من الذهب^(٥٥)، يكتب أيضاً، ليقول له:

لم أقدم أنا، على إرسال هؤلاء الآشوريين. فهم من أتباعى. ترى كيف حدث أن بادروا بالمجيء إلى بلدك، من تلقاء أنفسهم؟ فإذا كنت تحببى، لا تسمح لهم بأن يعتقدوا فيه، أى صفة، فاصرفهم صفر اليدين.

ولما كان أختاتون حريصاً على ضمان صداقة الآشوريين، إلا أنه كان لا يريد، مع ذلك، قطع علاقاته مع بابل، مهما كلفه ذلك، وإذا واصل سياسته الملتوية، البعيدة كل البعد، فى واقع الأمر، عن أى فكر ثاقب أو بمسيرة نافذة، فقد ارتبط مع بابل بعلاقات نسب جديدة: فلجأ، تفضلاً منه، إلى سلوك إستثنائى غير مألوف، عندما وهب أميرة مصرية لتقترن بأحد أبناء بورنابورياس الذى حضر ليقم فى بلاطه، كما طلب من جانبه، أن يتزوج من إحدى بنات ملك بابل. ولكن وقف هذا الأخير منه، موقفاً متعجباً متعالياً، فاشتراط عليه توفير موكب حراسة قوى، ليرافق ابنته إلى مصر.

فى هذه اللحظة، عقد بورنابورياس العزم على القيام بتقارب، على قدم المساواة، مع آشور، تدعيماً للسلام الذى لا غنى عنه لتأمين سلامة القوافل. ونلاحظ، إذن، تنسيقاً، فى جهود الحكومتين لردع إغارات قبائل السويثيين المهرومة الجانب، وما تقوم به من سلب ونهب، فكانت عصاباتهما تصيب الطرق التجارية بالشلل. وفى سوريا، حيث يتجمع المغيرون، قبل أن يرتكبوا أعمال السطو، كان الموفدون والتجار، الآشوريون والبابليون، على حد سواء، يتم القبض عليهم، فى أغلب الأحوال، ويذبحون

ذبحاً. ورفع كل من آشور - أوباليت وبورنابورياش شكواهما إلى أخناتون، واتهموه بالتخاذل والخمول. كانت مصر العمارنة - قد تخلت أيضاً عن واحد من أقدم الإمتيازات التي كانت تتمتع بها، منذ عصور موعلة في القدم، وهو القيام بدور شرطى الصحراء.

عندئذ عُقد قران، جَمَعَ بين ابن بورنابورياش ووريثه، وابنة آشور - أوباليت: ومن هذا الزواج وُلد ابن. ولما كان وريث بورنابورياش، قد وافقه المنية مبكراً، تدخل ملك آشور في بابل، عند وفاة بورنابورياش، لتأمين وراثة العرش للطفل الذى انجبت ابنته. هكذا خضعت حاضرة الفرات العظيمة للهيمنة الآشورية.

ومن الآن، صارت قوى ثلاث تتقاسم عالم الشرق: مصر التى أضعفها تخاذل الفرعون وخموله. والفاثى التى سرعان ما ستُنزل الهزيمة بالميتانى بشكل قاطع ونهائى وتخضعها لتبعيتها وأخيراً آشور مع بابل. هكذا تفتت الإمبراطورية المصرية، شيئاً فشيئاً وانفرط عقدها.

وفى الجنوب أيضاً، لا يبدو قيام حملات عسكرية، للإغارة سواء على النوبة أو على السودان.

وواصل أخناتون سياسة التشييد التى التزم بها أسلافه، فأقام المعابد التى أطلق عليها أيضاً اسم هم أتون، على غرار المعبد الذى شيده فى الكرنك فى السنوات الأولى من عهده. فأقامها فى كوة وسيسى، تحديداً. وعلى أرض هذا الموقع الأخير، الذى يبعد ٢٧٠ كم إلى الجنوب من وادى حلفا وإلى الشمال قليلاً، من الجندل الثالث، شيد أخناتون أيضاً، مدينة محصنة بجبانتها. إن أعمال التنقيب التى تمت بمعرفة الجمعية البريطانية لأعمال التنقيب فى مصر Egypt Exploration Society، قد سمحت بإعادة تصميم المبنى المقدس الذى ما زالت ثلاثة من أساطينه، واقفة فى مكانها.

وانطلاقاً من الأطلال المبعثرة على الأرض، يمكن للمرء أن يتصور أنه بعد عبور الصرح، يصل إلى فناء يكتنفه، من الناحية الشرقية على الأقل، رواق يستند سقفه

على أربعة أساطين، ويفضى الفناء إلى مساحة مربعة، كانت مخصصة على ما يعتقد،
لقدس الأقداس الذي كان غير مستقوف، بلا شك.

وعلى غرار كافة المدن القائمة في أراضي الجنوب، كان يحمي مدينة سيسبي
سور شاسع من الطوب، بأبراج بارزة مربعة. كان سُمك السور ٤٦٠ سم وطوله
٢٧٠ متراً وعرضه ٢٠٠ متر. كان تخطيطها على هيئة مربعات، يخرقها شارعان
رئيسيان، يتقاطعان بزاوية قائمة، ليكونا أربعة أحياء.

إن أخناتون المجدد المبدع في مجال الفن، عاش حُلماً روحياً، كان النهاية
الطبيعية لسلسلة طويلة من التطور، فأعمل شؤون السياسة الخارجية، إهمالاً تاماً
أو عاجها برعونة. كان شخصاً مثالياً، غنياً وغير متسامح، عاش بعيداً عن حقائق
زمنه والمصالح الجهورية لإمبراطورية مصر.

٥- العودة إلى طيبة بعد الوفاة

في عام ١٩١٠، بنينا كان تيولور ديفيز Theodore M.Davis نصير علم
المصريات وراعيه، يقوم بأعمال التنقيب في المقبرة رقم ٥٥ من مقابر وادي الملوك،
توصل إلى أن هذه المقبرة كانت تخص الملكة تهي، بالنظر إلى تكرار ذكر اسم الملكة،
في سياق المدونات^(٥٦). ولكن تبدد هذا الوهم، عندما قام إليوت سميث Elliot Smith
بفحص المومياة المسجاة داخل التابوت، ليكتشف أنها لرجل^(٥٧). عندئذ، اقتنع هو
وWeigall، بأن المومياة تخص أخناتون، إستناداً إلى أن الأشرطة الذهبية التي
كانت تحيط بالجسد، تحمل اسم ملك العمارنة. ودحض ديري Derry هذه
الفرضية^(٥٨). إذ لاحظ، عند فحص رأس المومياة، أنه عريض الرأس platycéphale
مثل رأس توت عنخ آمون، واستنتج من هذه الملاحظة أن المومياة هي مومياة سمنح
كارع، أخو هذا الأخير، وخليفة أمنحوتب الرابع؛ ولكن غياب مدونة تحمل اسمه، بدا
أمراً غريباً.

إن فرضية، تقدم بها سير آلان جاردنير^(٥٩) Sir Alan Gardiner تبدو، الأقرب إلى الصواب، فعند وفاة أختاتون، بعد حكم دام تسع عشرة سنة، فى ظروف نجهلها، كانت تجربة «مدينة - الشمس» قد باءت بالفشل. كان أعداء الملك، يقودهم أهل طيبة وعلى رأسهم المؤمنين بالإله آمون، كثيرين ويسعون إلى الأخذ بالثأر والإنتقام. ومن ثم، استحال دفنه فى المقبرة التى كان قد أعدها لنفسه، فى تل العمارنة. فدمّرت التوابيت والمتاع الجنائزى. ولم يشأ أصنقاؤه أن يتركوا جسده دون دفنه. ولا شك، أنهم وضعوا مومياء الملك فى تابوت حجرى قاموا بترميمه، وهكذا استطاعوا أن ينقلوا سرّاً الرفات الملكية إلى طيبة، بعد أن سُجِّيت فى تابوت، معدّ للملكة تى، عثروا عليه. ثم دفنوه فى مقبرة شاغرة فى وادى الملوك. وتفسّر هذه الفرضية الكثير من الوقائع.

إن طيبة، وهى المدينة التى هجرها أمنحوتب الرابع، أصبحت مأواه الأخير ومرقدّه بعد وفاته. هكذا لحق بأسلافه وأجداده وانضمّ إليهم.

وبالتدريج أهملت تل العمارنة. وربما بقيت فيها نفرتيتى أيضاً بمفردها، لفترة قصيرة، فى المقر الرسمى المسمى «قصر أتون»، الواقع شمال المدينة.

الفصل التاسع

ومن الملوك وضعفهم

عند وفاة أمنحوتب الرابع، حول عام ١٣٥٤، على وجه التقريب، تربّع سمنخ كارع على عرش مصر.

وما نعرفه عن سنوات حكم هذا الملك، القصيرة للغاية، شيئاً لا يذكر. تُرى من هو إذن؟ ساد الاعتقاد لفترة طويلة، أنه كان زوج أول بنات أخناتون، إذ تزوج مريت أتون، كبرى الأميرات، ومن ثم لم تكن تجرى في عروقه دماء ملكية.

إن فرضيات جديدة تنظر إليه الآن باعتباره، أحد أبناء أمنحوتب الثالث الذي انجبه في فترة متأخرة من حياته، أو ابناً للملك أخناتون، رزق به من إحدى محظياته، أو أيضاً أحد أبناء أي^(١)، من كبراء العمارنة، والذي كان على ما يعتقد والد نفرتيتي. يفترض كل ذلك، وجود علاقات عائلية بالغة التعقيد، يصعب علينا، في الوقت الراهن، استجلاهما، بكل وضوح، على أرض الواقع. واستناداً إلى مختلف الفرضيات هذه، ربما كان من الصواب القول بأن سمنخ كارع، كان أخا توت عنخ آمون، البكر.

ويبدو بوضوح أن أخناتون كان ميالاً إليه، ويكنّ له إهتماماً خاصاً وجعله قرب نهاية حياته، شريكاً في العرش. بل وربما أوفد الزوجين الشابين إلى طيبة للتفاوض مع كهنة آمون، للتوفيق بين الطرفين وإزالة ما بينهما من خلاف. وعند وفاة، أخناتون إختار كهنة طيبة المشارك الشاب في الحكم، ملكاً على البلاد، في حين يبدو أن نفرتيتي وزمرتها من التابعين المخلصين، قد نصبوا توت عنخ أتون، ملكاً في تل العمارنة. وبالفعل، فقد عثر في موقع «قصر أتون»، على عدد من القطع الأثرية تحمل أسماء توت عنخ أتون وزوجته، الأميرة عنخ إس إن پا أتون^(٢)، ثالث بنات أخناتون.

ولادة ثلاث سنوات، على ما يبدو، ظل توت عنخ أتون يقيم في العمارنة التي غادرها على ما يظن عند وفاة سمنخ كارع لينتقل إلى طيبة، بعد أن استنكر علناً إيمانه بالإله أتون. إن خاتمين عثر عليهما في العمارنة، كانا يحملان منذ ذلك الحين، اسم توت عنخ آمون، أي «صورة آمون الحية» وليس أتون. ومن الآن سوف تسمى زوجته عنخ إس إن پا آمون.

١- توت عنخ آمون وعودة الآلهة

كانت صدمة سنوات العمارنة عنيفة، فهزت مصر هزاً شديداً، ولكن الآلهة عادت، والمعابد والإزدهار استرعت حيوتها ونشاطها.

لقد تعددت الفرضيات حول أصل توت عنخ آمون ومنبته، ويُنظر بالفعل إلى بعضها باعتبارها الأقرب إلى الصواب^(٣).

ولكن الأمر المؤكد، أن توت عنخ آمون كان عمره تسع عشرة سنة، عندما وافته المنية، بعد أن حكم مصر تسع سنوات. كما تم الكشف عن مقبرته سالمة^(٤)، عام ١٩٢٢، بمعرفة هوارد كارتير Howard Carter الذي كان يعمل لحساب لورد كارنارفون Lord Carnarvon. ففي دياجير ماضى التاريخ، يسعد المرء أحياناً، عندما يتشبهت بوقائع محققة.

وتشهد قائمة ألقاب الملك الصبى على استعادة الدين الرشيد القويم لمكانته السابقة:

حورس: الثور القوى، نو النهضات الجميلة.

السيتان: هذا الذى (تبلغ) قوانينه (حد) الكمال ويهدئ القطرين.

حورس الذهبى: هذا الذى تُزمر تجلياته من جديد ويرضى الآلهة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: رع هو رب الصيורות (نب خپور رع).

ابن رع: توت عنخ آمون، أمير هرمونتييس^(٥).

ومن جديد، احتفلت الأقصر بالعيد الكبير وسط فرح وتهليل الجموع:

إنك تتألق رويداً رويداً، أيا آمون - رع، فى حين تستريح فى مركبك المقدس، الأرض وجموع البشر يهللون لك، والبلاد قاطبة فى عيد. إن ابنك البكر، هذا الذى فتح جسدك، يمسححك إلى الأقمصر. إنك تعطيه ملكاً أبدياً وسنوات لا نهاية لها. إنك تحميه بواسطة الحياة والثبات والقوة. إنك تساعد على الظهور متألقاً كأمير الحبور

(*) أو شبه سالمة، كما سيتضح من سياق هذا الفصل. (المترجم)

(**) حقاً إيون شمع: بالمصرية القديمة. (المترجم)

والفرح. إنك تكافئه بمنحه ملايين السنين وأعياد يوبيلية بمئات الآلاف... إنه ابنك، إنه محبوبك... أما هو، فقد صنع لك تمثالاً وأدخل الفرحة والتهليل إلى معبدك، كعادة من أتوا من قبله. إنك تعيد، من أجله، الإخضرار إلى بسالتك، في مواجهة الجنوب، والقوة في مواجهة الشمال (نلاحظ منذ ذلك الزمن ظهور صياغات سوف تسود في عصر الرعامسة). إنك تكشف النقاب لصالحه، عن الأسرار... على جميع الدروب. إنك تجعل مدة حياته أشبه بمدة السماء ويسطع فيها كما يسطع القرص (أتون)....

إن فرقة البحارة الذين يسحبون حبل قياد المركب المقدس يقولون صائحين: «أيا آمون المتألق في مركبه، مثل رع في السماء، الأرض قاطبة تجتمع لتحيتك عند رؤية... على صفحة النهر، والبلد فرح، من أقصاه إلى أناه، عندما تدخل السرور إلى الحرم المقدس، مكانك عند المرة الأولى»^(٤).

إن جماهير الشعب الفرحة المهللة، تستقبل عودة الآلهة وتجدد الأعياد التقليدية. وتستعيد طيبة مكانتها بصفتها العاصمة السياسية والمدينة المقدسة.

في البداية، سوف يؤدّ توت عنخ آمون أو مستشاروه إصلاح ما ألحقه سلفه من دمار، بالمباني المقدسة، فضلاً عن إعادة الشعائر الدينية إلى سابق عهدها. إن لوحاً حجرياً كبيراً يعود تاريخه، إلى العام الرابع من عهده، عثر عليه في معبد الكرنك، يقف شاهداً على هذا الإهتمام:

اليوم التاسع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام الرابع، من عهد صاحب الجلالة...

(تلى قائمة ألقاب توت عنخ آمون)

...محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين وسيد الكرنك و(محبوب) أتوم، الهليوبوليتاني^(٥) وسيد الأرضين و(محبوب) رع - هور أختي و(محبوب) پتاح - الذي - يوجد - جنوب - جداره، سيد حياة الأرضين و(محبوب) تحوت، صاحب الكلمات الإلهية - هذا الذي (توت عنخ آمون) يتجلى متألقاً على عرش هورس الأحياء، مثل أبيه رع - على مدار الأيام - إنه الإله الكامل، ابن آمون، صورة ثود -

(*) نسبة إلى هليوبوليس. (المترجم)

أمه، النطفة المتناقة، البيضاء المقدسة التي انجبها أمون ذاته، أبو القطرين، الذي يَفْطُر من فطره وينجب من أنجبه، فمن أجله تجتمع با وات^(٥) هليوبوليس، ليولد لاتمام ملك يغالب الأيام، إنه حورس، له الدوام، للزمن اللانهائي، الأمير الكامل الذي ينجز أفعاله خيرة لأبيه وللآلهة جمعاء. إنه يرمم ما كان قد تهدم ليحوّله إلى مبنًى، للزمن الأبدى، إنه يدحر الشر في ربوع القطرين، لتستقر محله الحقيقة - العدالة، استقراراً راسخاً، كما جعل الكذب ملعوناً، إذ أصبحت البلاد (من جديد) كما كانت عند المرة الأولى.

يحرك هذا النص في النفس مشاعر، تصاحب استرجاع الإيمان في إطار من الفرح والحبور. وينجح، من خلال فيض وفير من الكلمات، في مزج أسماء جميع الآلهة بعد أن استعادت مكانتها. هكذا استرد الإنسان حرية تصور واختيار شكل الله، - نشر - الأقرب إلى عقله وإلى قلبه.

عندما ظهر صاحب الجلالة بصفته ملكاً، كانت معابد الآلهة والآلهات، بدءاً من إلفنتين وحتى مستنقعات اللبثا... قد تهدمت وصارت خراباً. واكتسح الدمار المقاصير وصارت أماكن مُقفرة تنمو فيها الأعشاب. أصبحت الأقسام المخصصة لقدس الأقداس، كأنها لم توجد أبداً. (وما كان في الماضي) هوانطها، أصبح (الآن) درياً تدوسه الأقدام. كانت البلاد في بؤس وشقاء، لأن الآلهة هجرتها. فإذا أرسل جيش إلى فينقيا لتوسيع حدود مصر، لا يحقق أى نجاح. وإذا تضرع أحدهم إلى إله طالبا شيئاً ما، فلا يستجاب لطلبه، بنى حال من الأحوال. وإذا تضرع أحدهم على النحو ذاته إلى إلهة، فلا يستجاب لطلبه بنى حال من الأحوال. كانت قلوبهم وأجسادهم، في حزن شديد، وتلحق الضرر بكل ما سبق إبداعه.

وبعد أن انقضت أيام على ذلك، ظهر صاحب الجلالة متألّفاً على عرش أبيه، ليحكم مناطق حورس، بعد أن أصبحت مصر و الصحراء^(٥) خاضعتين لسلطانه. وتقدمت البلاد بأكملها منحنية بسبب قوته.

(٥) حرفياً السوداء والحمراء. (المؤلفة)

و ذات يوم، كان صاحب الجلالة فى قصره، القائم ضمن أملاك
عما خبير كما رع^(١٠)، مثل رع فى السماء. كان صاحب الجلالة مشغولاً بشئون البلاد
وتصريف الأعمال اليومية لحكومة الشاطئين. وتشاور عندئذ (مع نفسه)، ملتسماً
النصح من قلبه، ساعياً إلى تحقيق بعض الأعمال الخيرة، مهتماً بما قد يكون مفيداً
لأبيه آمون، فنحت (على سبيل المثال) صورته المقدسة من الذهب الخالص، (بغية) أن
يفعل أكثر مما أنجز من قبل.

وشكل إذن (تمثالاً) لأبيه آمون، محمولاً على ثلاثة عشر وتدًا. كان صورة رائعة
صنعت من الذهب الخالص واللآزورد والفيروز ومختلف أنواع الأحجار الكريمة. وفى
السابق، كان جلالة هذا الإله المقدس محمولاً على أحد عشر وتدًا. كما شكل (تمثالين
للإله) بتاح - الذى - يوجد - جنوب - جداره، سيد حياة الأرضين: كانت صورة
مقدسة صنعت من الذهب الخالص (محمولة) على أحد عشر وتدًا، صورة رائعة
صنعت من الذهب الخالص واللآزورد والفيروز ومختلف أنواع الأحجار الكريمة. وفى
السابق، كان جلالة هذا الإله محمولاً على سبعة أوتاد.

كما صنع صاحب الجلالة قطعاً رائعة للآلهة (الأخرى)، فشكل تماثيلها من
الذهب الخالص ومن أفضل ما جانت به الصحارى، فرمّم معابدها للزمن الأبدى،
ووفّر لها الخيرات للزمن اللانهائى. وحدّد لها قرابين يومية، ووفّر لها على الأرض
(مؤونتها) من الخبز. وما فعله تجاوز من بعيد ما سبق أن صنع، منذ زمن الأجداد.

ونصّب الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة وخدام الإله، (وتم اختيارهم) من بين
أولاد كبراء كل مدينة من المدن. كانوا أبناء رجال مشهود لهم بالعلم أو من الأسماء
المعروفة.

وأكثر من موائد القرابين المصنوعة من الذهب والفضة والبرونز والنحاس،
بغزارتها التى لا حدود لها. وملأ المخازن بالخدم والخادمت الذين جانت بهم ضرائب
الجزية التى تخص المغانم الملكية. وزاد من مخزون المعابد، إلى الضعفين أو الثلاثة أو

(*) أملاك تحوتس الأول، فى منف. (المؤلفة)

الأربعة أضعاف: وكان يضم الفضة والذهب واللازورد والفيروز والأحجار الكريمة من مختلف الأنواع والكتّان الملكي والثياب البيضاء والكتّان من أرق الأصناف والزيت والراتنج والأدهان... والبخور والمر. كانت جميع هذه الأشياء الجميلة والطيبة بأعداد لا نهاية لها. كما نجّر صاحب الجلالة مراكب الآلهة، لتتساب على صفحة النهر، وصنعها من خشب الأرز الناضر، من أفضل الأنواع الواردة من مرفئ المشرق، وأحسن ما جادت به نجلوا^(*). وغُشّي (هذا الخشب) بأفضل أنواع ذهب الصحراء. فكانت (المراكب) تضيئ النهر.

كما خصص صاحب الجلالة خدماً وخدامات ومنشدرات وراقصات ليلتحقوا بالقصر الملكي. وسوف تدفع مرتباتهم خصماً من حسابات القصر، من خزينة رب القطرين. سوف أعمل أنا على حمايتهم والمحافظة عليهم من أجل آبائي، جميع الآلهة، إرضاءً لها ولانجاز ما يبتغيه كازها على الدوام وتقوم بالتالي على حماية البلد المحبوب.

عندئذ تسعد قلوب الآلهة والآلهات المقيمة في هذا البلد. وأصحاب المقاصير يهللون فرحاً. والشاطئان يصيحان ويبتهجان. إن فرحاً صاحباً كان ينتشر في ربوع البلاد، إذ أصبح وضع البلاد فجأةً وضعاً يبعث على السرور. وكانت سواعد آلهة التاسوع في معبدها^(**). تُكثر من المدائح والتهليل بينما امتلأت أيديها بالأعياد اليوبيلية، للزمن الأبدى وللزمن اللانهائي. إن الحياة كلها والقوة كلها، اللتين كانتا لديها، هما من أجل أنف الملك، الحورس الابن المحبوب، الذي كان قد ولد من جديد، من أبيه آمون - رع، ملك الآلهة الذي أتى به إلى الدنيا، كي يولد أيضاً من جديد.

• ملك مصر العليا ومصر السفلى [نب خپورع]، الذي يحبه آمون، وابنه البكر بكل معنى الكلمة، ومحبيه، وحامى أبيه الذي أنجبه. إن ملكه هو ملك أبيه أوزيريس.

• ابن رع [توت عنخ آمون، أمير هرموتيس]، الابن المفعم بالخير من أجل من

(*) مرقع إلى الجنوب من بيلوس. (المؤلفة)

(**) هليوبوليس. (المؤلفة)

أنجبه، إنه صاحب العمائر العديدة، والروائع المتعددة، الذى شيد المعالم الأثرية من أجل أبيه آمون، وفقاً لاستقامة قلبه، (الملك) صاحب النهضة الجميلة، العامل الملكى الذى يعيد تشكيل مصر.

كانوا، فى ذلك اليوم، فى القصر الجميل، الواقع فى أملاك عا خبير كا رع^(٥)، الصادق القول. كان صاحب الجلالة فتى فى مقتبل العمر، وفاتحاً مغواراً، لا يعير جسده أى إهتمام. كان خنوم قد سواه. إن ساعده قدير وقوته عظيمة، تفوق قوة الباسل الصنديد. وشجاعته الجسورة مثل شجاعة ابن نوت. وساعده قدير مثل ساعد هورس. فلا نظير له بين صنائيد جميع البلدان مجتمعة. كان عالماً مثل رع، حُرْفياً (ماهرأ) مثل پتاح، حكيمأ مثل تحوت، فيرسى الأسس والقواعد. كانت أوامره ذات تأثير موات... وكلماته بارعة...

• ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين، سيد إقامة الشعائر، رب البسالة [نب خبيرو رع]، الذى يعيد السلام إلى البلاد.

• ابن رع الذى من صلبه، محبوبه وسيد كل بلد من البلدان الأجنبية، رب التجليات المتألقة [نوت عنخ آمون، أمير هرمونتيس]، الموفر الحياة والثبات والقوة، مثل رع للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى^(٦).

بادئ ذى بدء، يعتبر هذا النص شاهداً على تحرر روحانى. ولا يخامرنا أدنى شك، أن البعض قد أوحى به إلى الملك - الطفل، ابن الثلاث عشرة سنة. إنهم أهل طيبة بطبيعة الحال، ولكنهم ليسوا وحدهم. ولا شك، أن تحرير النص، قد تم فى منف، وليس فى طيبة.

ويبدو أن الإكراه وأساليب العنف التى عانت منها البلاد على امتداد أربع عشرة سنة، قد جعلت العبادات القديمة وكلها دون تمييز، تشد إليها، أكثر فاكثراً، من ظلوا على إيمانهم بها، لتصبح أكثر جانبية فى نظرهم. وبطيبة الحال، بقيت طيبة

(٥) من القاب تحوتمس الأول. (المترجم)

ومنق وهليوبوليس، كبرى الأماكن المقدسة. ولكن قراءة هذا النص، تترك إنطباعاً، بأن النظام الملكى اضطر أيضاً أن يطمئن رجال الدين الآخرين ويقدم لهم كافة الضمانات. فكل عبادة محلية، بعد أن وُقِر لها العامل الملكى، كل الخيرات وكل الثروات، انصهرت فى نزعة تلفيقية *syncretisme* شاملة، تدور حول شخص الملك لتضمن له من جديد، القوة والإستمرارية، مقابل المنافع والإنتعاعات التى مَنَ بها عليها. إن رد الفعل ضد التشدد والتعصب فضلاً عن العودة إلى المعتقدات التى تعود إلى آلاف السنين، اتخذت منهُ وجدانياً حماسياً.

إن الإسهاب اللفظى الذى ستميز به مدونات الرعامسة، ربما تعود أصوله إلى عصر «ما بعد العمارة». وعلى كل حال فإن مفردات لغة الفقرة الأخيرة، من هذا النص وصوره، تذكرنا بإلحاح بالترانيم التى نُظمت من أجل الرعامسة.

هكذا استعاد رجال الدين اختصاصاتهم. ولكننا نفتقر إلى الوثائق التى تعرفنا بتشكيلاتهم. بل إننا نجهل اسم كبير كهنة آمون.

هكذا عادت مصر «تتدفق من جديد كالنهر فى مجراه». وفى شتى المجالات، أُستأنفت الروابط مع التقاليد الموروثة، ولا سيما تلك التى تؤكد استحالة قهر الملك فى مواجهة الأعداء والحيوانات المتوحشة، على حدّ سواء.

كما لا يبدو أن الصبى توت عنخ آمون قد قاد حملات عسكرية، بالرغم من هذه المدونة المسجلة على كتلة حجرية جاءت من الكرنك، وتصور أسرى نوبيين وجنود مصريين:

إن زعماءهم يتساقطون بسبب المنبحة التى أنزلها بهم، بعد أن تعنّوا على حدود صاحب الجلالة^(٧).

ولا يخامرنا أدنى شك، أن هذه الجملة لا تروى حدثاً حقيقياً، ولكنها تصوغ مجموعة كلمات ذات فاعلية سحرية.

وإذ سار الملك - الشاب على هدى التحامسة، فقد صورَ نفسه صيَّاداً بارعاً، يقتنص الأسود والثيران البرية^(٨).

فعلى صندوق كبير جادت به مقبرة العامل الملكى^(*)، فإن الربط بين الأعداء والحيوانات الشرسة، يلتزم بتوازن واضح كل الوضوح.

وقد دَوَّنت فى وسط الغطاء، قائمة بالقاب الملك. وصُورَ صيد الأسود، على اليسار:

الإله الكامل، ذو القوة المقتدرة، العامل الملكى الذى يتم الإتحاد معه، الذى يصارع الأسود، فعزيمته وهمته، مما عزيمته وهمته، ابن نوت.

وعلى اليمين، صُورَ صيد حيوانات الصحارى:

الإله الكامل، ربوة الذهب، الذى يثير البلاد بالكوميته، الذى يتجلى متألِّفاً على مركبته مثل رع عند شروقه. لقد أمسك بسهام أبيه رع، بعد أن لاحظ وجود جمع من حيوانات الصحراء، عندئذ رَوْضها صاحب الجلالة فى لحظة قصيرة.

وعلى أحد جانبي الصندوق، نشاهد على اليسار مذبحة الزوج:

الإله الكامل، صورة رع، المتجلى متألِّفاً فوق البلدان الأجنبية، مثل رع عند شروقه، ذابحاً كوش، هذا البلد الفخسيس وموجهاً سهامه نحو أعدائه.

وعلى اليمين، نشاهد مذبحة الأسويين:

الإله الكامل، ابن أمون، البطل الذى لا مثيل له، رب القدرة، الذى يسحق مئات الآلاف، فيقعون من طولهم^(**).

وعلى الجانبين الأمامي والخلفي من الصندوق، صُورَ توت عنخ آمون فى هيئة أبو الهول وهو يدوس أجساد النوبيين والأجانب^(١).

تلك المشاهد التى تتطابق وتتقابل، وفقاً لمنظومة من التوازن، تعتبر سمة مصرية خالصة. إن المواضيع القديمة والصور الجديدة تتداخل. وبالفعل، فبعض

(*) يمكن مشاهدته فى الرواق رقم ٤٠، من الطابق العلوى من المتحف المصرى. (المترجم)

(**) كما نقول فى العامية المصرية. (المترجم)

النعوت التي تطلق هنا على الملك، سوف نلتقى بها، في كثير من الأحوال، عند الرعامسة.

إن عهد توت عنخ آمون عهد انتقالي، عند نهاية إمبراطورية التحامسة، وقبل إمبراطورية الرعامسة، على وجه التحديد، التي استشرعها حور إم حب ومهد لها.

ومن شخصيات عصر توت عنخ آمون، التي نعرفها أكثر من غيرها، نذكر حوى نائب الملك في النوبة، الذي يشار إليه أحياناً أيضاً، باسم أمنحوتب المدعو حوى، وإن كانت هذه التسمية نادرة نسبياً. وقد خلف حوى على ما يبدو مباشرة تھوتمس الذي شغل هذا المنصب إبان عهد أخناتون.

كان حوى يحمل الألقاب الآتية:

الابن الملكي في كوش، رئيس بلاد الجنوب، حامل المروحة على يمين الملك، المشرف العام على قطعان آمون في بلاد كوش، المشرف العام على صحارى ذهب آمون، صنديد صاحب الجلالة في سلاح المركبات.

ومن واقع مدونات مقبرته رقم ٤٠ في قرنة مرعى بغرب طيبة، كان أيضاً: «أباً إلهياً». وربما يرتبط هذا القرب بنشاطه في معبد بلدة فارس الواقعة في السودان إلى الجنوب قليلاً من وادى حلفا.

وقد طلب أن يُصوّر في مقبرته، الإحتفال بتتصيه في حضرة توت عنخ آمون وسفره على متن مركبه، إلى منطقة عمله الجديد، بعد أن رافقته والدته حتى رصيف المرسى، وقد صورت بشعرها الأبيض. وفي فارس كان الرسميون في استقباله، ومع إضطراره بواجبات منصبه، نقل إلى العامل الملكي مواد الجزية التي جباها من أراضي الجنوب. إنه موكب طويل، على قدر كبير من الطرافة والجاهلية، بسبب ميله إلى الواقعية، الموروثة على ما يعتقد من عصر العمارة.

إن زعماء النوبة، بعلامهم شبه الزنجيه الواضحة كل اللوضوح، قد حضروا بأشخاصهم، واضعين الريش على رؤوسهم والأقراط الذهبية العريضة في أذانهم. إن

أميرة على متن مركبة، يجرها ثوران مرقطان باللونين الأسود والأصهب، تسير خلف الموكب^(١٠). كما ترافق الموكب، نساء من أبناء البلد ومعهن أولادهن. وجئ بكميات ضخمة من الذهب في هيئة حلقات وأشياء مصنوعة من الذهب، بالإضافة إلى زرافة مربوطة في حبل يمسك به حارسان. إن أربع أبقار سمينة، من النوع المطلوب في مصر، كانت تسير بخطى متناقلة. كما أن أمراء كوش حاضرون وخطابهم إلى العامل الملكي الذي يقولون عنه أنه «ملك مصر وشمس الأقواس التسعة»^(١١)، كانت صياغته، منذ ذلك الزمن، ذات نبرة سوف تسود في عصر الرعامسة.

واستناداً إلى تصاوير مقبرته، فإن حوى أيضاً، هو الذي ينقل إلى الملك، جزية بلدان أسيا.

وإذا تركنا جانباً، المشاهد الفولكلورية التي تشهد على استمرار الإمبراطورية في حدود معينة، وإن أصابها قدر كبير من الضعف وكان وجودها غير مؤكد في الشمال، فالنصوص المنحوتة في مسكن الأبدية الذي يخص حوى، تؤكد على استعادة أفكار تقليدية. ونذكر في هذا المقام الترنيمة إلى أوزيريس، المحركة للمشاعر:

الابن الملكي في كوش، رئيس بلدان الجنوب، حوى الصادق القول، إنه يتحدث قائلاً: «التحية لك، أيها (الإله) العظيم، رب التجليات المتألقة، صاحب الانقلاب المهيبة والريش العالي وما لك التاج^(١٢) اتف^(١٣)، الإله الأوحده المتفرد، الذي أتى بذات نفسه إلى الوجود، الذي يثير الخوف في كافة البلدان. إنى قادم إلى جوارك لمشاهدة وجهك وتأمل جمالك. لقد بلغت (الآن) مرتبة المبجل السعيدة، بفضل ما أنعم به على، الإله الكامل، لقد أصابنى الشباخ وتقدمت بى السن. (فيما مضى) كان ساعداى شديدى القوة، عند إدارة شئون البلاد من أجل الملك. لم أتقوه (أبدأ) بالاكانيب ولم ارتكب شراً... ولا يمكن أن ينسب إلى، فعل شرير، ولم يوجد خطأ ارتكبته. فالذى يمتدحك سيكون مرتاح القلب فانا (دائما) من يهدئ المشاحنات. ولذلك، امنحنى طريقاً عظيماً

(*) لمزيد من التفاصيل حول مختلف التيجان، راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١، ص ٨٠-٨٥-٨٩. (المترجم)

فى الجبانة، أتح لى إمكانية الخروج والدخول من رو - ستا و^(١٣)، فيمكننى أن أرتوى عند شطآن النهر وأن أشبع».

من أجل كا الابن الملكى فى كوش، حوى، الصادق القول^(١٤).

كان حوى بناءً عظيمًا. فشيّد معبد فارس من أجل كا الملك توت عنخ أمون. وقد عُرف هذا الأثر تحت اسم «هذا الذى يُرضى الآلهة ونب خپرو رع». كانت زوجة حوى تشغل فيه منصب «رئيسة حريم نب خپرو رع».

كما شيّد معبدًا فى نهاات مكرسًا للإله أمون - رع. فكان الوكالة الأكثر تطرفًا، ناحية الجنوب، منذ عهد تحوتمس الأول، وعند مستوى الجندل الرابع، فى قلب السودان، عند سفح جبل بركل. وإلى الجنوب الشرقى منه، أقيم المعبد. كان ارتفاع جبل بركل - ومعناه «الجبل المقدس» - مئة متر فقط، فوق السهل، وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من البر الأيمن للنيل. ولما كان معزولاً، كان يشرف على المنظر الطبيعى للمنطقة، واكتسب منذ وقت مبكر جداً، توفيراً وتبجيلاً متميزين. والمعبد الذى شيده حوى، تولّى إثنان من ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وهما سبتى الأول ورعمسيس الثانى بتوسيعه. وقام الملكان السودانيان بى عنفى وطهرقا، من الأسرة الخامسة والعشرين، بإدخال تعديلات جوهرية عليه.

١- كنز وادى الملوك

كان البحث عن مقبرة توت عنخ أمون، يجرى على قدم وساق، وأثناء قيام ديفيز Davis، بأعمال التنقيب فى وادى الملوك، فيما بين ١٩٠٢ و ١٩٠٩، عثر على بعض القطع التى تحمل اسم الملك الشاب، كما استطاع الكشف عن ست عشرة مقبرة، لم تكن من بينها مقبرة هذا العامل الملكى.

كان هوارد كارتير Howard Carter، بفضل المساعدة السخية التى قدمها له لورد كارنارفون Lord Carnarvon، قد حاول على امتداد ستة مواسم متواصلة الكشف عن هذه المقبرة. إنه يروى شخصياً تجربته المثيرة^(١٥)، فيقول: «لم تكن قد

وجدنا شيئاً. والمنقب وحده يدرك إلى أى مدى يصبح هذا الفضل مثبطاً للهمم. كنا قباب قوسين والإعتراف بهزيمتنا، وبدأنا نقأهب لغابرة الواوى والبحت عن فرص مواتية فى مكان آخر. وما أن غرسنا معولنا، فى محاولة أخيرة، حتى حققنا كشفاً يتجاوز من بعيد أكثر أحلامنا إفراطاً فى التفاؤل».

فى الرابع من شهر نوفمبر ١٩٢٢، عندما وصل كارتر إلى موقع العمل، أستقبل فى جو من الصمت، كان له وقع فى النفوس. كان العاملون قد كشفوا عن درجة سلم، منحوتة فى الصخر، كبداية لغامرة باللغة الأهمية: «كان الأمر أكثر من رائع، حتى يصدق المرء. ولكن مع مواصلة التنظيف، اتضح بالفعل أننا أمام مدخل سلم». واصلنا العمل بحرارة معمومة حتى اليوم التالى، وتم إزالة الرديم والرمال من خمس عشرة درجة أخرى. كان السلم الذى يبلغ ١٦٠ سم عرضاً، وأربعة أمتار طولاً، يفضى إلى باب مستطيل، وضعت عليه أختام، وله ساكف من خشب، «وبهساس شديد، فحمت الأختام، على أمل التعرف على اسم صاحب المقبرة، ولكننى لم أعر على أى اسم». كانت الأختام تحمل الصور المألوفة لأختام الجبانة الملكية: أى الإله أنوبيس ومن تحت الأقواس التسعة. ثم أحدث كارتر فتحة صغيرة فى الباب، ليتمكن من إدخال بطارية، وعندئذ لاحظ وجود ممر خلف الباب، مملوء بالأحجار والأنقاض، الفرض منها إعاقة أى محاولة لدخول المقبرة. وفى الوقت نفسه، لاحظ أنها لم تتجع، بلا شك، فى الحيلولة دون دخول البعض: فقد بقيت آثار فتحتين، أعيد تغطيتهما بالجص، وما زالت مرئية، الأمر الذى يبرهن على أن البعض قد دخل إلى المقبرة بعد وضع الأختام. «كانت لحظة محركة للمشاعر بالنسبة للمنقب... فهناك ثمة شيء موجود، بكل تأكيد، خلف هذا الممر، واحتجت إلى كل رباطة جأشى حتى لا أندفع وأحطم الباب وأبحث عما وراءه».

وفى السادس من نوفمبر، وبدافع من الوفاء تجاه لورد كارنارفون Lord Car-narvon، أرسل إليه كارتر برقية يدعو فيه إلى الحضور. وجاء الرد على الفور «سوف أصل الإسكندرية فى اليوم العشرين». وفى انتظار وصوله نظف كارتر السلالم وأمام الباب. وفى الجانب السفلى، حالفه الحظ، عندما عثر على أختام تحمل اسم توت عنخ آمون.

وبعد أن صُورَت، قُضَت الاختتام يوم ٢٥ نوفمبر وهُدِم الباب. وتم إخلاء المر من الأحجار والرديم التي وضعت على امتداد ٧٦٠ سم. ومن الشواهد الأخرى، على أن البعض كان قد دخل سرّاً إلى المقبرة، وجود نفق ضيق جداً، كان قد حفر ليُملا بعد ذلك، ببقايا أحجار سوداء. وينتهي المر عند باب ثانٍ.

«كان اليوم التالي (٢٦ نوفمبر) يوماً مشهوداً، لم أعرف من قبل أروع منه، ولا لتوقع مثله ما حييت. وطوال صدر النهار، تواصلت أعمال التنظيف، كانت بطيئة بالضرورة، بسبب وجود بعض القطع الهشة وسط الرديم. ومع انتصاف فترة بعد الظهر، وعلى عمق ثلاثين قدماً أسفل الباب الخارجى، وجدنا أنفسنا أمام باب ثانٍ وضعت عليه الاختتام وكان مماثلًا، على وجه التقريب، للباب الأول. كانت بصمات الاختتام، فى هذه المرة، أقل وضوحاً، ومع ذلك، كان من السهل التعرف على اختتام توت هنغ آمون والجبانة الملكية. هنا أيضاً، كانت آثار وجود فتحة وسدها واضحة على الجص. حتى هذه اللحظة، كنّا على يقين، أننا اكتشفنا خبيئة وليس مقبرة.... كان تقدمنا بطيئاً، بشكل يدعو إلى اليأس، وبينما كنّا نتابع العمل الجارى، رفعنا بقايا رديم المر الذى كان يملأ الجانب الأسفل من الباب، ليظهر أمامنا الباب بأكمله، واضحاً جلياً، ودنونا من اللحظة الحاسمة. وببين ترتجفان، أحدثت فتحة ضيقة فى الزاوية اليسرى العلوية. وبقدر ما أمكن لقضيب حديدى أن يصل، كان الظلام والفراغ يدلان على أن الحجرة التالية خالية.... وأشعلت الشموع، لتجنب خطر إهمال وجود غازات، وبعد توسيع الفتح بعض الشيء، ادخلت من خلالها شمعة وألقيت نظرة على الداخل. كان لورد كارنارفون Lord Carnarvon وايدى إيفلين Lady Evelyn وكالندر Callender واقفين بجوارى متلهفين على سماع رأى. فى البداية، لم يكن فى وسمى أن أميز شيئاً. كانت شعلة الشمعة تتراقص، متأثرةً بالهواء الساخن المنبعث من الحجرة. وأخذت عينائى، تتكيفان مع الضوء المحدود ومن بين تفاصيل الحجرة انبثقت تدريجياً، من وسط غبش الحجرة، حيوانات غريبة وتماثيل وذئب، كان الذهب، يتالق فى كل مكان. وفى هذه اللحظة - التى بدت بلا نهاية بالنسبة لمن كانوا بجوارى، انعقد لسانى عن الكلام، من هول الإعجاب. ولما نفذ صبر لورد كارنارفون، من طول انتظاره، بادر إلى سؤالى بشغف: «تُرى، هل تشاهد شيئاً؟» وكل ما استطعت قوله هو

أننى تفوهت ببعض كلمات: «نعم، روائح ساحرة». وبعد توسيع الفتحة بعض الشيء،
لنتمكن معاً من مشاهدة هذه الروائع، ادخلنا مصباحاً كهربائياً... فلأول مرة، منذ
ثلاثة آلاف سنة، ينفذ الضوء إلى هذه الحجرة، مخترقاً ظلامها الدامس... واعترانا
الذهول، من شدة الدهشة.

وأول ما شاهده كارتر ولورد كارنارفون الأسرة الجنازية في هيئة حيوانات
خرافية. وعلى السرير الأوسط تكسدت صناديق صغيرة نفيسة وبعض المقاعد،
وشاهدا، ناحية اليمين تماثيل للملك، ويشيران، إذا صح القول، إلى حجرة الدفن،
كان الألبستر واللازورد والفيروز والعاج والفضة من مكونات الأواني والطلى والمذبات
والعُصي. وكانت مركبات مفككة تغطي الأرضية. والآلات الموسيقية، من أبواق
ومصلصات، تشارك، على ما يعتقد في الحفلة الموسيقية المقامة في العالم الآخر،
وعلى الأرض، كسف أواني فخارية، وزهور كانت أصلاً جزءاً من باقات، وسلال
مقلوبة، تشهد جميعها على مرور السلاطين النهابين. وفي هذه الردهة، الملتزمة بالإتجاه
الجنوبي الشمالي، وفي خط عمودي على ممر المدخل، وطولها ثمانية أمتار في
٣٦٠سم، عثر على ١٧١ قطعة، دون الأخذ بعين الاعتبار القطع التي كانت تزخر بها
الصناديق.

وعلى الجدار الشمالي من هذه الردهة، ووسط التماثيل السابق ذكرهما، كان
باب موصود يفضى إلى الحجرة الجنازية التي لم تُفتح، في الحال.

وبينما كان المنقبون يقومون بحصر محتوى الردهة، لاحظوا وجود ثغرة أحدثها
اللموص في القسم الجنوبي من الجدار وباب جديد وضعت عليه الأختام، فتسللوا
عبر الثغرة التي بقيت مفتوحة إذ لم يسدّها أحد. ودخلوا زاهفين إلى حجرة أصغر
من الردهة، أطلق عليها فيما بعد إصطلاحاً للالحق وكان يضم أعداداً أكبر من القطع،
مقارنة بالحجرة السابقة، ولكن في فوضى تامة.

«حتى الآن، كان يعترينا حماس شديد، لم يترك لنا مجرد فسحة من الوقت
لنتبصر الأمر، ولكن الآن، ولأول مرة، أصبحنا ندرك ضخامة المهمة الشاقة الملقاة على

عاتفنا وما يترتب عليها من مسئوليات. لم يكن هذا الكشف من الأمور المألوفة، وليس بالمهمة التي يمكن الإنتهاء منها في موسم عادي من العمل... وفضلاً عن ذلك، فقد فوجئنا بضخامة هذا الكشف ولم نكن مستعدين، على الإطلاق، للتعامل مع هذا العدد المهول من القطع الملقاة أمامنا على الأرض، في حالة سيئة من الحفظ، فكان من الضروري معالجتها أولاً، قبل مجرد لمسها».

كان خبر الكشف قد طبق الأفاق وانتشر حوله مختلف المعلومات. ويوم ٢٩ نوفمبر أقيم إحتفال «الإفتتاح» والزيارة الرسمية لبعض الشخصيات البارزة منهم بيير لافو Pierre Lacau مدير مصلحة الآثار المصرية وكبراء رجال المجتمع في مصر. ويوم ٦ ديسمبر أغلقت المقبرة ووضعت تحت حراسة كالفندر Callender، في حين انصرف كل من لورد كارنارفون وكارتر، لیتخذوا الإجراءات المناسبة، الأول في انجلترا والأخر في القاهرة. ويوم ٢٢ ديسمبر وصلت الصحافة عند الموقع. ويوم ٢٥ ديسمبر وصل ماسيه Mace وبدأت عملية تصوير القطع وإخراجها.

كان لا يزال أمامنا مهمة فتح الباب المختوم الذي يفضى إلى حجرة الدفن.

وتحدد يوم الجمعة ١٧ فبراير. وفي الثانية بعد الظهر ويحضر جمع غفير، يتكون معظمه من علماء المصريين، وصل عددهم إلى عشرين من الشخصيات العلمية المصرية والفرنسية والأمريكية والإنجليزية، احتشد هذا الجمع أمام المقبرة. وفي الثانية والربع، ولج لورد كارنارفون وكارتر إلى داخل المقبرة، ليصلا إلى الباب الذي كان لا يزال محتفظاً بأختمه. واستطاعا من خلال فتحة صغيرة أن يلاحظا وجود ما يشبه جداراً من الذهب. وبعد فتح الباب، أدركوا أن ما شاهدا كان عبارة عن مقصورة ضخمة من الخشب المذهب، ارتفاعها ٢٧٥سم وعرضها ٢٢٠سم وطولها خمسة أمتار. كانت تشغل تقريباً بالكامل حجرة الدفن ومساحتها أربعة أمتار في ٦٤٠سم. وفي حقيقة الأمر، كانت هناك أربع مقاصير تتداخل الواحدة داخل الأخرى، الغاية منها تغطية التابوت الملكي وحمايته.

ورفع الباب. «كان في وسعنا الآن، أن نشاهد المقصورة، من الردهة، على ضوء الكشافات. وكأما رفعت الأحجار، وبينما أخذ المسطح الذهبي يقرأى لنا، كان ما

يشبه التيار الكهربائي يسرى في أجسادنا، فارتجفنا من شدة الحماس الذي جعل المشاهدين الواقفين خلف الحاجز يرتعشون».

وعلى مقربة من المقصورة وضعت شارات جنازية، ويجوار الجدار الشمالي، المجاديف السحرية السبعة التي كانت تعين المتوفى على عبور مياه العالم الآخر. كانت جدران الحجرة مزدانة بالمشاهد المرسومة والمونيات. إنها مشاهد طقسية تصور توت عنخ آمون في حضرة الآلهة.

كانت المقصورة الأولى من الخشب المذهب المكثت بعجينة زجاجية لازوردية اللون، والمقصورة الثانية مغطاة بستر من الكتان الرقيق، يميل إلى الإصفرار، ومرصع بزهور أقحوان من ذهب. أما المقصورة الرابعة التي صنع إفريزها وسقفها من كتلة واحدة، فكانت تضم هوض التابوت الجنازى المصنوع من الحجر الرملى، وسجلت عليه ألقاب الملك.

كما أن ثلاثة توابيت على هيئة موميا، وضع الواحد داخل الآخر، كانت تحيط بجسد الملك - الشاب، لرقدة كانت تريد أن تكون رقدة أبدية. كان التابوت الأول من الخشب المذهب وملفوفاً بقمشة تذكرنا بالرداء المحبوك حول جسد أوزيريس، ويصور الملك ويدها متقاطعتان على صدره، وتمسكان الصولجان والمذبة. وهما من شارات الملك، وكانتا من عجينة زجاجية زرقاء وحمراء. كان الوجه واليدان مصفحة برقائق من ذهب غير لامع، كإشارة إلى التحول الشمسى للمتوفى ورحلته النجمية الأبدية. كان التابوت تحيط به الإلهتان إيزيس ونفتيس بجسدهما الرقيق النحيف وسواعدهما، وتيسط أجنحتها الممدودة وتساعدان على بعث أوزيريس حياً. كانت الأدمان قد أريقت أثناء المراسم الجنازية. ووضع إكليل من الزهور على الجبين.

وفى العاشر من أكتوبر ١٩٢٥، فتح التابوت الأول. كان الثانى مصنوعا من الخشب المصنّف بالذهب ومكثتاً بعجينة زجاجية متعددة الألوان. كان قد حشر حشراً فى التابوت الأول، حتى أنه كان من المستحيل إدخال خنصر اليد فيما بينهما. كانت تضمه الأجنحة المنبسطة للإلهتين نخب وواحت حاميتى النظام الملكى. وعلى الصدر،

وضعت قلادة كبيرة من أوراق الزيتون والصفصاف، مختلطة بازهار اللوتس الزرقاء،
لتضمن للعامل الملكي، استعادة نباتية للحياة وتجديدها.

عند فتح التابوت الثاني، شوهد التابوت الثالث، وهو من الذهب المصمت، وكان
ملفوفاً بنسيج كتانى أحمر اللون وأربع ألهاة تحميه بأجنحتها. وعلى الصدر، وضعت
قلادة من الزهور. كان هذا التابوت يزن ١١٠ كجم من الذهب الخالص.

وبدوره، فُتح فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٢٥. عندئذ، ظهر القناع
الذهبي. كانت صورة شخصية رائعة الجمال للعامل الملكي، وقد وضع على مومياء
شبه متفحمة، من جراء تراكم الأدهان التي أريقت عند إتمام شعائر التحنيط
الطقسية. وعلى الجسد المحبوك بالأشرطة، وزعت أكثر من ١٤٣ حلية من الذهب.

وفى الركن الشمالى الشرقى، من حجرة الدفن، كانت فتحة منخفضة جداً،
تصل هذه الحجرة بغرفة مساحتها أربعة أمتار فى ٢٥٠سم، تضم قطعاً نفيسة
مخصصة للشعائر. وأطلق عليها كارتر اصطلاحاً «حجرة الكنز».

إن الإبقاء على هذه الكنوز سليمة، وكلما تقدمت أعمال التنقيب، كان يثير
مشاكل عويصة مرتبطة بوسائل حفظها.

وتكشف التماثيل عن ملك شاب ممشوق القوام: والتمثالان المصنوعان من
الخشب، والمطليان بطلاء أسود لامع وكانا يحرسان مدخل حجرة الدفن، طولهما
١٧٠سم تقريباً. أما غطاء الرأس والصدريّة العريضة وأساور المعصدين والساعد والنقبة
والعصى الكبيرة والصولجان فيلون الذهب. إن الأسود والذهب لونا البعث واستعادة
الحياة: الأسود على غرار الإله أنوبيس الذى كان يعرف كيف يحافظ على أجساد
الموتى. والذهب على غرار جسم الشمس التي كانت تعرف دروب استعادة الحياة
وتجديدها، على مرّ الأيام. إن تمثالاً آخر، مذهب بالكامل، يصور العاهل الملكي،
بصفته حورس، وهو يقوم بأداء شعيرة دينية: إنه يقف فوق زورق خفيف من نبات
البردى، وهو من الخشب المطلى باللون الأخضر والمذهب، وقد شهر خطأً، ما زال

حبله، وهو عبارة عن خيط من البرونز، ملفوفاً، ولكن يتأهب الملك الشاب لتسديده في جسد فرس النهر - أى صت - عرو أبيه.

أما العصىَ الموضوعة تحت تصرف العامل الملكى، فهي جديدة بالملاحظة فى أغلب الأحوال، بسبب جمالها أو فاعليتها. وخارج المقصورة الأولى عُثر على عصا مزدانة بزهور اللوتس المكففة بالذهب والفضة وعجينة زجاجية، وعلى عصىَ من الفضة والذهب، أمام المقصورة الثانية، كان مقبضها يتخذ هيئة الملك الشاب، وبغية التأكيد تأكيداً سحرياً، على دور توت عنخ آمون، بصفته سيد الإمبراطورية، فإن الطرف الأسفل من عصا مخصصة للإحتفالات، يتكون من تجسيم لجسدى ووجهى أسيوى ونوى، وقد صوراً ظهرأ لظهر، وأقدامهما فقط تتلاصق. الأسيوى مقوس الأنف، غليظ الشفتين، وبلحية مدببة وعصابة رأس، ويرتدى رداءً لاصقاً له عباءة ذات ثنايا، ومثبتاً بواسطة زئار ذى صفوف أربعة. وقد نحت فى العاج المطعم بعجائن ملونة، أما الإفريقى فقد نحت فى خشب الأبنوس، وهو صورة نمطية تُبرز بوضوح ملامحه العرقية، وملبسه اللاصق من الخشب المذهب المزخرف زخرفةً جصية، والساعدان مربوطان بحبل. هكذا، فمع كل خطوة كان يخطوها الملك، كان أعداؤه يسقون التراب. هذا الموضوع الذى قد يتكون من شخص واحد أو اثنين، حسب الأحوال، يتكرر على غيرها من هذه القطع.

كما نلتقى بالمواضيع نفسها على سطح صناديق المركبات المذهبة التى عثر عليها فى الردمة وتشير إلى هيمنة الإمبراطورية: فنرى الأسيويين والنوبيين وقد قُتِنوا بالحبال. وتكشف وجوههم وأوضاعهم عن واقعية أخاذة ومؤثرة وتشهد ولو شكلياً على قوة مصر. واللافت للنظر، حركة الخطوط المنكسرة التى تشكلها أجساد الأسرى. كما يلاحظ فى أغلب الأحوال، أن سواعد الأقارعة مقيدة خلافاً للأسيويين. إن معاملة كلا فريقى الإمبراطورية، مختلفة أيضاً فى فن النحت.

إن متاعاً طائلاً كان يلبي إحتياجات العامل الملكى فى حياته الأبدية. وإذا ظل محتفظاً بوظيفته الملكية، كان فى وسعه التربع، فى قمة جلاله، على هذا العرش المصنوع من الخشب المصفتح برفائق من الذهب والمطعم بالأحجار الكريمة وعجائن من

الزجاج المتعدد الألوان، المغطى فى بعض الأماكن برقائق من الفضة. كان محمياً حماية شعائرية. وبالفعل فإن قاعدة المقعد من القش المجدول وتستند إلى قوائم أسد، تبرز ملامح رأسه المتوقعة فى القسم الأمامى. إن نراعى العرش يتكونان من الأجنحة المنبسطة لشعبانين، وضع على رأس كل منهما التاج پشنت(*)، وفى لفقة حانية وحامية شاملة، كانا يطوقان الخراطيش الملكية. إن الصورة المنحوتة على ظهر العرش، سوف تساعد الملك كى يحيا من جديد اللحظات السعيدة، التى عاشها فى هذه الدنيا: فتحت أشعة الشمس ذات السواعد المنتهية بآباد(**)، بينما تقوم الأميرة عنخ - إس - إن - پا - آمون، وقد تحلت بأقصر ما لديها، بمدّ يدها نحو زوجها الجالس على متكأ(***)، فى حركة كلها حنان ومودة. وما زالت أوضاع الأشخاص وملابسهم محتفظة ببيسمات تأثير فن العمارة، الذى غالب الأيام. فالأبدان متراخية والأطراف نحيلة، وثنايا الثياب طويلة، فضلاً عن ألفة مشاهد الحياة الخاصة الحميمة. وخلف الملكة، باقة زهور مركبة. كل ذلك، فى إطار تألق الألوان والمواد النفيسة.

ويصور كرسى من خشب الأرز والذهب مواضيع أكثر تقليدية: ففى أعلى ظهره، تبرز الصورة المذهبة لشمس إدفو بجناحيها المنبسطين. وعلى الظهر ذاته، صور الإله حيع ممسكاً بفحصن ملايين السنين، إشارة إلى أبدية الشمس التى يعبر عنها أيضاً القرص فوق رأس الإله والعلامة الهيروغليفية الدالة على الذهب التى يركع فوقها. إنهما عنصران متقابلان يؤطران إله الزمان الأبدى. والمقعد قاعدته مقوسة إلى أسفل ويرتكز على قوائم حيوان من السنوريات، تنتشى مخالبه على قواعد صغيرة من البرونز والذهب. إنه تصوير للرفقة الوطنية التى لا نهاية لها، بين الملك، المتوفى فى نظر الأرض، وبين الجرم السماوى. هذه الرفقة التى تبرزها أيضاً النصوص المدونة على المقاصير:

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم (پا) سخمتى أى القوتين. ويتكون هذا التاج من

تاجى مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) (ما زال موضوع العمارة الثابت معمولاً به. (المؤلفة)

(***) (ويقال له القوتيل. والمتكأ: كرسى منجد له نراعان وظهر. المعجم الوسيط. (المترجم)

أنت باقى فى السماء، بينما تبحر على متن القارب المقدس للملايين السنين، بعد أن دحرت أعداء الشمس. أنت معه^(٩) فى السماء على الدوام. إنك تتجز كل مهامك. إن أعضاءك هى أعضاؤه، لأنك ابنه^(١٠) الذى يحيا فى الحقيقة -العدالة^(١١).

والمواضيع الذى تزخرف الأثاث، ترتبط فى الغالب بالشعائر الدينية. لقد ظلت أشكالها تغالب الأيام. هكذا «فمن المتفق عليه أن ننظر إلى متكا^١ ما، باعتباره مقعد العاهل الملكى بمصفته كبير الكهنة، والمستخدم إبان المراسم الدينية، والذى سيصبح فيما بعد النموذج الأمثل لتكا^٢ أساقفة الكنيسة المسيحية. إن ظهوره مرتفع ومقوس بعض الشيء، ومثبت على مقعد تتقاطع أرجله. والخشب مصفح فى بعض أجزائه بالذهب ومطعم بقطع صغيرة من الأحجار الكريمة والعجائن الزجاجية والأبنوس والعاج^(١٧)».

وفى عداد أثاث قوت عنخ أمون نجد المقعد الذى يمكن طيه بأرجله المتقاطعة، التى تنتهى بأعناق الإوز، وسوف يعاد استخدام هذا النموذج فيما بعد... فكان مصدر إلهام فى فرنسا فى عصر الديريكتور^(١٨) Directoire المعروف بولعه بمصر.

ومن أجل راحة قوت عنخ أمون، صارت الأسرة ثمينة أيضاً، وتقدم حماية سحرية. نذكر على سبيل المثال، هذا السرير المصنوع من خشب الأبنوس، بقشرة من ذهب ومطعم بالعاج ومُلَّة من القُنب^(١٩) المجنول ويقوائم حيوان السنُوريات، وجانبى السرير مخرمة ونحتت عليهما صور للإله بس والإلهة تلوريس^(٢٠). الكيانين الإلهيين الراعيين للنوم الحاميين له، والمكلفين بإبعاد الشياطين الضارة والمؤثرات المؤذية.

(*) أى مع الشمس. ونذكر أن هذا اللفظ مذكر فى اللغة المصرية القديمة. ولذلك أبقينا ضمير

القائى فى المذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

(**) نظام سياسى حكم فرنسا بعد الثورة الفرنسية فى الفترة من ١٧٩٥ وحتى ١٧٩٩. ومارس

سياسة توسعية فى الخارج ومنها الحملة على مصر ١٧٩٨-١٨٠١. وعند سقوط هذا النظام

تسلَّم نابليون مقاليد الحكم. (المترجم)

(***) نبات حولى زراعى ليفى، تقتل لحاؤه حبالاً. المعجم الوسيط. (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى تلورث. (المترجم)

إن بعض الأسرة المخصصة، بلا شك، المراسم الجنائزية، كانت تنتهى برؤوس حيوانات، وصفها كلوتير بالحيوانات الخرافية، عندما شاهدها فى غبش المقبرة، فى بداية الأمر، من خلال الفتحة الصغيرة التى أحدثها فى باب الرخمة. ونتعرف فى هذه الرؤوس على تلوريس، وقد طليت بأكملها باللون الذهبى، وقمها فاغر، كاشفة عن أسنانها، أما أنيابها ولسانها فمنحوتة فى العاج. إن سريراً آخر، يصور رأس أسد ومقدمة جسده، وقد طليا أيضاً باللون الذهبى. والعينان من البلور وأحيطتا بعجينة زجاجية زرقاء، وكذلك طرف خطمه. والفاية من وجودها هنا، حماية المتوفى والقضاء على أعداء الملك المحتملين بعد وفاته، بفضل قدراتها الرهيبة.

إن أعداداً كبيرة من الصناديق الصغيرة وأخرى مخصصة للملابس على قدر كبير من الروعة من حيث أعمال النجارة والصياغة وترصيع الخشب بالجواهر وخلافه، كما ساهم فى صناعتها النحاتون والرسامون وكانت مبعثرة على الأرض. ونذكر منها على سبيل المثال، صندوق الصيد الذى سبق ترجمة نصوصه. إنه نحت دقيق، تذكرنا رفته بالمنمنمات الفارسية، فكل وجه من هذه القطعة، تبرز فى وسطه صورة شامخة للملك المعجّد، على متن مركبته، بينما يشبّ الفرسان، فى وضع مائل، له جلاله ومهابته، فبزهو وغطوسة، يضع حداً فاصلاً بين جانبي التكوين. وصوّر من خلف الملك، جنوده ورجاله، موزعين توزيعاً محكماً على صفوف ثلاثة. وتحت قوائم الفرسين، يهرول الأعداء أو حيوانات الصحراء، على حدّ سواء، تعبيراً رمزياً عن الغواء، يقابله على الجانب الآخر، النظام المصرى وفرعون الفائق القدرة، وقد تجسّداً تجسّيداً تشكلياً وتصويرياً، من خلال خطوط تبلغ حدّ الكمال. كما أن صناديق أخرى، من الألبستر النقى أو من خشب الأرز المطعم بالأبانوس والعاج بغطاء مسطح أو محدب مزخرفة بمواضيع دينية أو غير مزخرفة أو تحمل الألقاب الملكية. وقد نلتقى بمشاهد ممتعة أحياناً، تنقل وقائع من الحياة الخاصة، وتحذو حذو فن العمارة؛ فعلى غطاء أحد هذه الصناديق النفيسة، وهو على هيئة ما يشبه المنضدة المائلة، ومصنوع من العاج المنحوت واللون، نشاهد الشابة الرقيقة عنق إس إن يا أمون، وهى تقدم إلى الملك المستند على عصا طويلة، باقة كبيرة من الزهور المركبة، فى إطار من الزهور والحدائق. ومن الملاحظ أن الفن ما زال يحتفظ بلمسات المودة والحنو والأناقة وبعض «التشوهات» الموروثة عن عصر العمارة.

كما تصل أوعية العطور والكؤوس والأواني، إلى المستوى نفسه من الكمال الفني. سوف يقول البعض، أجل إنها جميلة، فالخطوط لا تشويها شائبة، والمواد نفيسة. ولكن في مصر، ينطوى الأمر، على المزيد. فكل شئ، يشد اهتمامنا بصفاته الجمالية، كان بالضرورة إسهاماً في الصيرورات الأبدية للعامل الملكي، وذلك بفضل شكله ذاته والمذونات المسجلة عليه. فهذه القطع بمثابة قواعد روحية بالغة التطور، ذات فكر ثاقب. إنه متاع سحري، وجب عليه أن يكون جميلاً، فالمصري المولع بالجمال، يعيش تنغم الخطوط وكمال الصور. فلننظر إلى هذه الكؤوس من الألبستر على هيئة زهرة اللوتس، وتحيط بها الكؤسيات(*) بالنقش البارز. والمقبضان على هيئة زهور متفتحة أو براعم، ويحملان صورة الإله هح، مع سيقان ملايين السنين. هكذا، نجد أن الأبدية الشمسية غير معنية، ولكن الإشارة هنا إلى أبدية عالم النبات الذي يظل يستعيد حيويته على الدوام ويجدها. وعلى بطن الكؤس، دونت أسماء العامل الملكي تعبيراً عن الرابطة اللصيقة القائمة بينه وبين قوى الحياة. وعلى الحافة العلوية، يمتد دائرياً المتن الآتي:

ليت كأك (يظل) حياً، ليتك تكمل ملايين السنين، أنت يا من لا تنقطع طيبة عن حبها لك، أنت الجالس، وجهك متجه ناحية رياح الشمال، وعيناك تتأمل الكمال^(١٨).

والحلي، وهي بكميات كبيرة، مبهرة. فهذه القلادة مكونة من عناصر نفيسة، ذات دلالة: في وسط التكوين نشاهد جمران الفجر المجنح، إنه الإله خپري. بدنه من العقيق الأبيض الشفاف والجناحان ينحنيان ناحية الداخل، يحددهما شريط ضيق من الذهب، كما أن ترصيعات من اللازورد والفيروز والعقيق الأحمر تشير إلى زغبه، ويحمل فوق مغليبه الأماميين قارباً مقدساً بضم العين وأجت وهي عين أوزيريس «السليمة» التي أعادها إليه ابنه حورس، حسب الشعائر الدينية. وفوقها مباشرة، قرص القمر باللون الرمادي، وهلال من الذهب، صُور على سطحه بالنقش البارز، أشخاص ثلاثة من الذهب أيضاً، يعتبرون ذروة هذا التصوير الرائع، ويمثلون الملك - الإله محامناً بالإلهين رع وتحوت. هكذا نجد الملك مشاركاً في كافة قدرات استعادة

(*) وريقات كنس الزهرة. (المترجم)

الحياة وتجديدها، على صعيد العالم الإلهي: من خلال حياة الأزهران: الشمس جرم النهار والقمر جرم الليل، وقيامه أوزيريس وبعثه حياً. و«يتفتح» الحلى جهة الأسفل، وكأنه تويج زهرة كبيرة مقلوبة. إنه عبارة عن مجموعة أزهار اللوتس بكؤوسها المتفتحة، وهى من الذهب واللآزورد والعقيق الأحمر. هكذا جادت أنامل الفنان المصرى بقطعة نفيسة، هى من أروع كنوز توت عنخ آمون وأقيمها^(*).

إن قلادة أخرى من الذهب واللآزورد والعقيق الأحمر والفيروز والفلسبار الأخضر، تصور قارب الشمس وهو من الذهب، وفى وسطه الجعران خبرى من اللآزورد، على رأسه قرص من العقيق الأحمر والذهب. وتكتفئ الإله مباشرة، ثلاث علامات هيروغليفية: تشير إلى «الثبات والحياة والجمال»، إلى جانب صلين يحملان أيضاً على رأسيهما المنتصبين، قرص الشمس. إن سلسلة طوق القلادة، طويلة وقد زخرف طرفاها بالخرز إلى جانب صور الجعران والثعبان - الشمس.

كما أن حلى الأذن تتدلى من قضيب سميك أجوف من الذهب، وهو ما يفترض وجود ثقب عريض فى شحمة الأذن، وفى أعلاها زخرف الجعران المجنح المنتشر إلى حد كبير. إن دائرة كبيرة من الذهب، تحفها خرزتان، كانت تضم صورة الملك فى هيئة أوزيريس، يحيط به ثعبانان منتصبان وعلى رأسيهما القرص أيضاً. إن ستة صفوف أفقية من الخرز المتعدد الألوان، وفى نهاية كل صف كرة كبيرة من معدن نفيس، تزيد من أناقة هذا الحلى ورشاقته. ومع كل حركة من حركات الرأس، كان يعتقد أن الذهب والعقيق الأحمر والأكبستر والكوارتز والمجائن الزجاجية الملونة، تتألق بجميع ألوانها.

وأخيراً فمن الصعوبة تقديم وصف تفصيلى لهذه الكنوز المبهرة، التى تخب الألباب وتفخر بها قاعات متحف القاهرة^(**).

(*) (ذلك إلى جانب آثار توت عنخ آمون الموزعة فى الطابق العلوى من المتحف المصرى بالقاهرة على امتداد الأروقة من ٤٥ إلى ٧. وإن يفوت زائر المتحف أن يبحث عن هذه القطعة الرائعة فى القاعة رقم ٢. ويبلغ ارتفاعها ١٤٩ سم وعرضها ١٤٥ سم. (الترجم))

(**) (راجع هامش المترجم السابق. (الترجم))

الفخامة والبذخ والأناقة والرشاقة والجمال، تلك هي الكلمات المستخدمة، الأكثر شيوعاً عند الحديث عن هذه الكنوز. كما يقال عنها أيضاً «الفذة، المنقطعة النظير». هذا مؤكد، في إطار ما نعرفه. ولكن فلننظر إلى حجم مقبرة توت عنخ آمون المحدودة نسبياً مقارنة بغيرها من مقابر وأبي الملوك. ولنتذكر أيضاً أن هذا العصر، لم يكن أكثر عصور الأسرة الثامنة عشرة إزدهاراً. وتأسيساً على ذلك، يمكن أن يتخيل المرء الثروات التي لا مثيل لها، التي كانت تضمها، بكل تأكيد، كبرى المقابر الملكية لمفاوير الفاتحين، في ذلك الزمن، ولكن الخيال قد يدفعنا إلى الشرود، وينقلنا إلى عالم الأحلام. ومن حق المرء، على كل حال، أن يتوقع لمغامرة علم المصريات العظيمة، مستقبل مليء بالوعود. فقد بدأت ذات يوم، بالكشف عن أولى درجات سلّم مطموّر في رمال الصحراء. فهل سنكتشف ذات يوم درجات أخرى؟^(*)

٣- ظلال التاريخ

بوفاة توت عنخ آمون، في ظروف ما زلنا لا نعرف عنها شيئاً، وبعد حكم دام تسع سنوات، كُرُس أساساً لترميم المعابد وإعادة الشعائر الدينية التي ظلت ملاحقة ومضطهدة إبان عهد أخناتون، نجد أن قضية وراثة العرش، قد طرحت بشكل حاد، على وجه التأكيد. إن اقتران الملك الشاب من عنخ إسن إن پا آمون، في إحتفال أقيم، وما زال في مقتبل العمر، لم يشر عنه، إنجاب وريث للعرش.

ولكن هناك شخص كان يقوم آنذاك، بدور بارز، في كل من بلاط العمارة وطبقة، على التوالي. إن أي، هو المقصود، وقد سبق ذكره ضمن أتباع أخناتون الأوفياء^(١٩). وربما كانت زوجته تي، مرضعة نفرتيتي، فكان ذلك سبب نفوذه الواضح. ويذهب بعض علماء المصريات^(٢٠) إلى أن توت عنخ آمون الذي كان أي قد صاحبه عند انتقاله إلى طبقة، بعد القطيعة مع العمارة، ربما اختاره (؟) شريكاً في الحكم.

(*) قد تقبونا إلى مقبرة أخرى أعظم من مقبرة توت عنخ آمون! (المترجم)

تستند هذه الفرضية على واقع وجود قائمة ألقاب الملوك، على سواكف فى الكرك. وبالفعل سىصبح أى فرعوناً عابراً.

وفى هذه اللحظة من لحظات التاريخ، وقع حدث فريد فى بابه. فقد قامت الأرملة عنخ إس إن پا آمون بارسال خطاب إلى سوبيلوايوما تطلب منه أن تتخذ من أحد أبنائه زوجاً لها. كان ملك الخاتى مشغولاً آنذاك فى الحصار المضروب حول موقع كركميش الحصين، آخر رأس جسر ميثانى على البر الأيمن من نهر الفرات. كان هذا العرض بمثابة تقديم عرش فرعون إلى الخاتى! ولا نعرف مدى التأثير الذى خضعت له الملكة الشابة، عندما أقدمت على هذا التصرف المحير. ولغرابة الأمر، فقد تردد سوبيلوايوما شخصياً، خشية تعرضه لخدعة أو مكيدة. ففضل أن يرسل موفداً إلى مصر للوقوف على مدى جدية هذا العرض. وخلال هذه المدة، شدد حصاره على كركميش فاستسلم الموقع بعد ثمانية أيام. وترتب على هزيمة توشراتا الجديدة، قلاقل داخلية، فقام أحد أبناء الملك باغتياله. عندئذ، ترجع أرتاتاما الثانى، العورى، على عرش واشوجانى، ولفترة قصيرة على كل حال، لأن ماتيوازا، ابن توشراتا، الذى لجأ فى بادئ الأمر إلى بابل التى استقبلته استقبالاً سيئاً، فطلب أخيراً اللجوء عند سوبيلوايوما، الذى استقبله استقبالاً ودياً، وقدم له ابنته زوجة. واسترد ماتيوازا ميراث والده. ولكن من الآن، أصبح غرب الميثانى خاضعاً للهيمنة الحيثية فى حين صار شرق الميثانى أو هانيجالبات^(*)، بزعامة شوتارنا تابعاً تبعية لصيقة للمساندة التى قدمها له آشور. وهكذا، قضى على قوة الميثانى قضاءً مبرماً. ومع مطلع العام التالى، كان الموفد الذى أرسله ملك خاتى إلى مصر، عائداً إلى وطنه حاملاً رسالة جديدة من الملكة عنخ إس إن پا آمون التى كانت مستامة من موقف سوبيلوايوما المتردد وعادت تكرر طلبها. عندئذ أرسل ملك الحيثيين ابنه زانانزا إلى طيبة. ولكن لم يصل الأمير الشاب أبداً إلى مقصده. فربما تم اغتياله وهو فى الطريق بتحريض من أى؟ أو من القائد هورمصب؟ عندئذ، خرج الأمير أرفوواندا على رأس القوات الحيثية، وزحف فى اتجاه نهر العاصى، للثأر من مقتل أخيه.

(*) حسب التسمية الآشورية. (المترجم)

ويبدو، أن عنخ إس إن پا أمون، قد تزوجت من آى، الموظف القديم فى خدمة أخناتون، وكان الآن طاعناً فى السن، فمنحته بالتالى أحقيته فى عرش مصر. وخمسَ آى نفسه بقائمة ألقاب كاملة، وردت مدونة تحديداً، على لوح حجرى يوضح هبات الأراضى وعثر عليه بجوار هرم خوفو. وكان آى قد اختار منف مقراً له.

الحورس: الثور القوى، صاحب الغدوات المتأنقة.

السيبتان: صاحب^(*) القوة الباسلة والمتسيد على آسيا.

الحورس الذهبى: أمير الحقيقة - العدالة، الذى أتى بالقطرين إلى الوجود.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: فلتأت إلى الوجود صيرورات رع، والذى يحقق الحقيقة - العدالة (خير خيبر رع إير ماعت).

ابن رع: الأب الإلهى آى، الإله حاكم طيبة^().**

إن لقب «الأب الإلهى» الوارد فى الخرطوش الثانى^(**)، قد قاد البعض إلى افتراض، أن آى ربما كان أباً نفرتمتى. ولكن هذا الاحتمال الذى لم يدعمه سند له وزنه، لا يأخذ به أحد تقريباً، فى الوقت الراهن.

وأن يكون قد تزوج عنخ إس إن پا أمون، ثابت، على ما يبدو، استناداً إلى وجود خاتم دُون على فصه، جنباً إلى جنب، اسما آى والأرملة الشابة، مطلقان بخرطوش. ومن المؤكد، أن آى قد خلف توت عنخ أمون: وبالفعل، فى مشاهد مقبرة العامل الملكى الشاب، التى تصور مراسم دفنه، يتولى آى إقامة الشعائر، ليقوم فى هذا الإطار بالنور الذى يكلف به، فى المعتاد، ابن المتوفى وخليفته.

(*) (إن آى هو المقصود. (المترجم)

(**) المرتبط بلقب ابن رع. (المترجم)

هذه الفترة من تاريخ مصر، القصيرة في حقيقة الأمر، إذ لم يدم عهد أى سوى أربع سنوات تقريباً، تبقى ظلالها كثيفة، إذ لم يصلنا عنها، سوى وثائق قليلة.

ودُفِنَ أى دفنة ملكية. إن مقبرته رقم ٢٢، القريبة من مقبرة أمنحوتب الثالث، توجد أيضاً فى وادى الملوك الغربى، المعروف إصطلاحاً بـ وادى القروص. والمشاهد المرسومة على الجدران شبيهة إلى حد كبير بمثلتها فى مقبرة توت عنخ آمون. ولكن ظلت المقبرة ناقصة لم تكتمل. والتابوت من حجر الجرانيت الوردى، فى هيئة ناووس موجود حالياً فى متحف القاهرة.

عندئذ، علا نجم أحد الأشخاص وأخذت أهميته فى التعاضم: إنه القائد العسكرى هور - إم - هب (ومعناه: حورس - فى - عيد). كان أيضاً من الأفراد القدامى فى بلاط العمارنة. وكان اسمه آنذاك، يا - آتون - إم - هب (ومعناه: آتون - فى - عيد). وربما كان هذا القائد، هو الذى أرسله أخناتون على رأس الجيش المصرى لقمع التمردات والقلال التى تفجرت فى كنعان. ومن المحتمل، أنه شرع، فى أعقاب هذه الحملة، فى بناء مقبرة فى سقارة، التزمت زخارفها بـ أسلوب العمارنة، ولم يتبق منها فى الوقت الراهن، سوى أجزاء مبعثرة فى مختلف المتاحف.

لقد تمتع، فى مصر، بشرف المنزلة تقديراً، لمآثره العسكرية. وبصفته القائد الأعلى للجيش، فقد كان الشخصية الوحيدة صاحبة النفوذ المسيطر. ولأول مرة، لا تُسلّم مقاليد السلطة إلى وزير أو إلى كبير كهنة آمون، ولكن إلى أحد أفراد القوات المسلحة.

٦ الفصل العاشر

حور - إم - حب، المختص

التمهيد للإمبراطورية الرعامسة

كان حور - إم - حب، ينتسب إلى عائلة أمراء هوت نسوت - وهي
الاباسترونبوليس Alabastronpolis العتيقة - الكوم الأحمر سالويرس(*) حالياً -
عاصمة الإقليم الثامن عشر، من أقاليم مصر العليا، حيث كان يُعبد الإله حورس.

وإذ عاد إلى طيبة، بعد أحداث العمارة العابرة، ظل في خدمة كل من
توت عنخ آمون و أمى.. وخطر أن يقدم لكهنة آمون، البرهان تلو البرهان، على
انحيازه لأصحاب الإيمان القويم، ولكنه ظل على الصعيد السياسى، ينظر على الدوام،
بقدر من الريبة، إلى تطلعات كهنة الكرنك ومخططاتهم الطموحة. والشاهد على ذلك،
اسمه «الجديد»: حور - إم - حب، الذى يربطه بإله المدينة التى انحدر منها، وليس
بإله طيبة العظيم، كما كان الحال فى الغالب، مع غيره من كبراء الدولة، بل مع الملك
الشاب ذاته. لقد كان رجلاً ذكياً، ثاقب الذهن.

وتزوج الأميرة مَوت - نَهمت (أمى مَوت - الرقيقة)، وهى الأميرة نفسها، على
ما يظن، المذكورة فى العمارة، والمقتربة بلقب «أخت الملكة»^(١). وذهب البعض إلى
القول أنها كانت، على ما يظن، أخت نفرتيتى. هكذا، ارتبط حور - إم - حب بالأسرة
الحاكمة.

١- نسلم مقاليد السلطة

حول عام ١٣٢٩ ق.م، تربع على عرش مصر، فى أعقاب هاتف أوحى به الإله
أمون لصالحه. ولكن إشارة إلى هذا الاختيار الإلهى، وردت فى سياق نص منقوش
فى معبد مونتو بالكرنك، على باب معبد أمنحوتب الثالث، يذكر على ما يبدو بوضوح،
إلى أن هذا الاختيار صدر عن مجموع الآلهة وتم إبلاغه إلى الكرنك، إبان أحد الأعياد
أوبت:

(*) جنوب مغاغة. (المترجم)

لقد أقمت ملكًا، وحتّى (الإله) رأسه، (وكنّا) وجهًا لوجه أمام الأرض قاطبة...
لقد صدر الأمر بذلك من السماء وسُمع في الكرنك. كان التأسوع مقتبلاً....

هـ (كلمات قالها آمون):

أنت ابني الذي أقمته على عرشي. (أنت) سيد وحاكم، كل ما يحيط به
القرص... أنت هور - إم - هب، محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين، المتسيد
على الكرنك^(٢).

وتأسيساً على ذلك، لا يقوم آمون بالدور الأول، إنه فقط عنصر، لا غنى عنه،
عند تكريس تتويج الملك.

وبالمثل، فإن مدونة منحوتة على دعامة الظهر لمجموعة تماثيل تصور
هور - إم - هب و موت - نيمت، ومن مقتنيات متحف تورينو، حالياً، نجد أن الإله
حورس لمدينة حوت نسوت، هو الذي يريد الإنعام بالملك على «ابنه هور - إم - هب»
ولهذا الغرض، يصطحبه إلى الأقصر، إبان العيد أوبت، ليتولى آمون - رع تكريسه.
ففي الحالتين، نجد أن آمون ليس الفاعل المنفذ الأوحد.

فليحى حورس: الثور القوى، صاحب المقاصد الذكية.

السيدتان: هذا الذي ينجز الروائع العظيمة في معبد الكرنك.

حورس الذهبي: هذا الذي يرضى الحقيقة - العدالة ويأتى بالقطرين إلى الوجود.

ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب الأرضين: بديعة هي سبهرورات رع، إنه
المصطفى من رع. (دچسر خپور رع ستنپ إن رع)

ابن رع، رب الغدوات المتألفة: هور - إم - هب محبوب آمون، محبوب حورس رب
حوت نسوت، له الحياة مثل رع للزمن اللانهائي.

الإله الكامل، ابن آمون، سليل كاموتف^(٣)، هذا الذي رفعه آمون ملك الآلهة،
وحورس بن إيزيس هو حارسه، ضامناً الحماية السحرية لجسده. لقد خرج من بطن
أمه، وقد تحلّى بالهيبة، مرتدياً اللون الإلهي... ومنذ أن كانت ساعده لا تزال تتدلى

كساعده الطفل، كان الكبراء والبسطاء، على حد سواء، يسجون، بعد أن زاده الطعام والغذاء قوّة. ومع ذلك، كان طفلاً غير راشد... الصورة الإلهية بلونها، فى نظر من يتأمل شكله. كما أنه يبيث الخوف. إن أباه حورس من خلفه، كما أن من أنجبه كان يضمن حمايته... كان يعرف اليوم المناسب لتسليمه الملك. (وفى غضبون ذلك)، كان هذا الإله يُعلى من شأن ابنه أمام شعب البلد بأسره. كان يؤدّ توسيع خطاه (أى تعظيم سلطانه) إلى أن يحلّ يوم تسلمه وظيفته (الملكية)، فكان يتجلى آنذاك بصفته محبوب الملك. كان قلب العاهل الملكى راضياً عن حاله، فرحاً باصطفاه. وأقامه حورس بصفته «القم الأسمى للبلد»، لتحديد قوانين الشاطئين وبصفته أمير هذا البلد بأسره.

كان الواحد المتفرد الذى لا مثيل له. كانت شئون الأرضين تستقر فى يده. وشعب البلد بأسره، يبتهج (لسماع) أحاديثه. وبالفعل، يُستدعى ليمثل فى حضرة العاهل الملكى، عندما يهدد القصر (=الملك) بأن يستشيط غضباً. عندئذ يفتح فمه، ويرد على الملك الذى يرضى بما يقوله من كلمات - هو، الواحد المتفرد القدير الذى لم يأت مثله إلى الوجود... كل مقاصده تسير على خطى أبى منجل (تحت)، وأفكاره صورة من أفكار رب حسيرت (تحت)، إنه يفرح بالحقيقة - العدالة مثل تحت الأقدم الأصلى، وقلب فى عيد بسببها (الحقيقة - العدالة) مثل پتاح. وعندما يستيقظ فى الصباح، يُعدّ قرباناً وهو يقدمها (إن تقديم ماعت قرباناً، فقرة من فقرات الطقس الدينى الصباحى)... سائراً فى طريق الإلهة التى ستضمن حمايته على الأرض لمدة الزمن اللانهائى.

هكذا، فإنه يدبر شئون القطرين على امتداد سنوات عديدة. ويُقدم له التقارير عن الأعمال الجارية فى الأرضين فى حكومة محصر العليا ومحصر السفلى، القضاة يتقدمون نحوه منحنيين، حتى الباب المزبوج للقصر الملكى. ويقترب منه أمراء الأقواس التسعة، من الجنوب ومن الشمال، على حدّ سواء، وقد بسطوا سواعدهم، لملاقاته. إنهم يجلبونه كإله. وتتم كافة الأعمال طبقاً لأوامره... وعندما يتقدم، فإن هيبتة عظيمة فى نظر الشعب، وتصاحبه تمنياتهم بالصحة والإزدهار - إنه بالطبع أبو الشاطئين، إنه الحكمة المتميزة التى أقامها الله لتثبيت القوانين.

وبعد انقضاء أيام عديدة، وبعد أن حصل ابن حورس البكر، على لقب «الفم
الأسمي» وأمير البلد بأسره، عندئذ تاق قلب هذا الإله العظيم، حورس، رب هوت
نسوت، إلى تنصيب ابنه على عرشه الأبدي... واتجه وسط الفرح العام إلى طيبة،
مدينة رب الأبدية، معانقاً ابنه، حتى وصل إلى الكرك، لتقديمه للإله آمون، كي تُنقل
إليه الوظيفة الملكية التي سيشغلها، على مدار زمن حياته. بيد أن آمون - رع كان قد
خرج مبتهجاً بمناسبة عيدهِ الجميل بصفته «رئيس حريم الجنوب». عندئذ شاهد جلالة
هذا الإله حورس، رب هوت نسوت، وكان ابنه في صحبته. كان الإله قد حضر ليقدم
له هذا الأخير لتسليمه وظيفته وعرشه... وفرح آمون - رع فرحاً عظيماً عندما
رأى... ثم اقترب من حور - إم - هب^(*)، هذه الشخصية المهيبة التي على رأس
القطرين، ثم سعى في اتجاه القصر الملكي، وأقام حور - إم - هب أمامه في
المقصورة بر ور^(**)، من أجل ابنته، السيدة النبيلة، صاحبة الإفتتان السحري (موت
نحمت)، وحركت الأميرة يديها في إيماءة تقدير واحترام. وعانقت جمال الأمير
بساعديها ووقفت أمامه. كان التاسوع الإلهي وسادة المقصورة بر نسر^(***) يتהלلون
ابتهاجاً، بمناسبة تنويجه. وكانت نخبت وواحت ونيت وإيزيس ونفتيس^(****) وست
والتاسوع الإلهي^(*****) بأسره المتصنر العرش العظيم، تسرف في المديح والثناء
الذين يرتفعان إلى أعالي السماء «انظروا إذن، لقد حضر آمون، يتقدمه ابنه، حتى
القصر، ليستقر تاجه على رأسه، وتعظيم مدة حياته بأكملها. لقد اجتمعنا لتثبيت
التاج المزدوج، من أجله، وحصر أعداد زينة رع، من أجله. سوف نمتدح آمون، من
أجله: لقد أتيت إلينا، براعينا وحامينا. اعطه أعياد يوبييل رع، وسنوات حورس، بصفته

(*) اسم داخل خرطوش. (المؤلفة)

(**) اسم معبد عتيق في مدينة الكلب بمصر العليا. (المترجم)

(***) اسم معبد عتيق في مدينة يوتو - تل الفراعين حالياً - بمصر السفلى. (المترجم)

(****) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم نبت هوت. (المترجم)

(*****) عن هذه الآلهة راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتي،

دار المستقبل العربي، ٢٠٠١. (المترجم)

ملكاً، لأنه هو الذى سيرضى قلبك فى الكرنك، وأيضاً فى هليوبوليس ومنف، فبفضله ستدوم (هذه السنوات)....».

إن جلالة هذا الإله العظيم، آمون ملك الآلهة، خرج من القصر، يتقدمه ابنه، بعد أن عانق جماله، (ابنه) المتوج بالخوذة الملكية، ليتجدد من أجله مدار القرص. كانت الأقواس التسعة تحت نعليه، والسماء فى عيد، والأرض تفيض فرحاً، وشعب مهتر بأسره راضٍ ويصيح حتى أعالي السماء. التهليل بهجةً، كان أشبه باللبس على الكبار والصغار، على حدٍ سواء. والغبطة والبهجة تسودان البلد بأكمله^(٤).

كان هذا الفرع العام فى الأقصر مقدمة تمهد لعهد امتد لخمس وعشرين سنة، بذل حور - إم - حب أثناءها قصارى جهده، لاستعادة النظام فى الداخل وإمساك الملك بزمام الجهاز الإدارى، من جهة، والتصدى من جهة أخرى، لمحاولات العيثيين، الهيمنة على الأقاليم الشمالية للإمبراطورية المصرية. فانقذ البلاد التى تدهورت أحوالها كثيراً، من جراء سنوات من الإهمال والجمود والخمول وعدم التسامح.

٢- الإصلاحات الداخلية

كانت إعادة تنظيم المملكة من الضروريات الأكثر إلحاحاً. فقد استغل موظفو الأقاليم، باختلاف رتبهم ومناصبهم، ضعف الملوك، ليفرضوا مختلف أنواع الضرائب غير القانونية ويقوموا بأعمال النصب. وعاش الشعب فى بؤس مدقع. أراد حور - إم - حب أن يدافع عن المستضعفين والفلاحين، فى مواجهة من يستنزفونهم بأساليب غير مشروعة حتى بالغوا فى ظلمهم.

أصدر مرسوماً، الهدف منه إشاعة العدل وتأمين حياة كريمة وهادئة لجماهير الشعب. وقد حفظ لنا الدهر نص هذا المرسوم على واجهة لوح حجرى كبير وجانبه، يبلغ خمسة أمتار ارتفاعاً وثلاثة أمتار عرضاً، على وجه التقريب، وقد عثر عليه قرب

صرح حور - إم - حب في الكرك، وهو الصرح العاشر حالياً. وللأسف فإن ثلث الأثر مكسور، كما يعاني النص بعدد كبير من التشوهات^(*).

..شاور صاحب الجلالة قلبه ليبسط حمايته على البلد بأسره... ويصد الشر ويقضى على الكذب. إن مشاريعه ملاذ فعال لطرد العنف... كان يسهر ليل نهار، متفحصاً ما يمكن أن يفيد البلد المحبوب، باحثاً عن الأفعال العظيمة الفائدة... وأحضر كاتب صاحب الجلالة. وأمسك لوحة كتابة ولفافة بردي وشرع يكتب، ناسخاً كل كلمات الملك، إذ قام هذا الأخير شخصياً بإملاء المرسوم... الذي تم ختمه بجوار صاحب الجلالة. لوضع حد لأعمال السلب والنهب التي (ترتكب في) البلد.

مطلع المرسوم الذي دمر نصه تدميراً بالغاً، مرتبط بالإجراءات القانونية المحددة التي تم اتخاذها لتسهيل تسليم الضرائب، وتجنب السرقات والمظالم، حماية لجماهير الشعب، وبالإجراءات المعتمدة لصالح الفلاحين، للحيلولة بون المصادرات التعسفية للفلال والخضروات وبعض النباتات وجلود الحيوانات، على وجه التحديد، فضلاً عن الإجراءات التي تم اتخاذها لتفادي الفساد المستشري في أجهزة حصر الموارد. فكانت توقع عقوبات مختلفة، نذكر منها على سبيل المثال، جرع أنف مرتكب الجريمة أو نفيه إلى أقاصى المناطق الآسيوية، وهلم جراً...

ثم يستعرض الملك إنجازاته:

لقد بحثت عن رجال، ولجأت إلى زعماء، من عاداتهم، (النطق) بكلمة موفقة (والتحلى) بخلق نابه وعلى براية بسرائر الناس، كما يلتزمون بأوامر القصر الملكي وأوامر الحاكم. لقد رقيتهم ليصبحوا قضاة القطرين، وعند حسن ظن المقيمين في القصر. لقد أقمتمهم في مدينتي الجنوب والشمال الكبيرتين^(**). وفي هاتين المدينتين، يستطيع كل شخص، وبلا استثناء، أن يلجأ إلى الحاكم. لقد وضعت أمامهم

(*) النص المصري القديم بالخط الهيروغليفي، وترجمة كاملة له، بالإضافة إلى دراسة وافية وتطبيقات توضيحية، ومقارنة بالقوانين الحديثة، نجدها في: تشريع حورمحب. ترجمة وتعليق:

د. جاور لبيب ودصوفى أبو طالب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢. (المترجم)

(**) طيبة ومنف. (المؤلفة)

الحسابات^(*) والقوانين في سجلاتهم اليومية. لقد أرشدتهم إلى طريق الحياة، لأننى أود السير بهم نحو العدالة. كانت تعليماتى إليهم على النحو الآتى: «لا تصادقوا الآخرين من بنى البشر. لا تقبلوا هدية من أحد. من منكم إنن هو الذى يعرض نفسه للشبهات على الآخرين أو يقترب جرمًا فى حق العدالة»... أما أن يقال عن أى موظف كبير أو أى كاهن: «إنه يتخذ مكانه فى الحكمة ليؤدى واجبه لإقامة العدالة بين الناس، ولكنه يرتكب جرمًا فى حق العدالة»، فسوف تحسب عليه جريمة، وكأنها ذنب خطير، يستوجب عقوبة الإعدام...

كما أقررت عرفًا (جديدًا)، لأن جلالتى يريد تأمين الحماية لكل إنسان. سوف «يلتفون» حول جلالتى، ثلاث مرات شهريًا، ليكون ذلك عيدًا، فى نظرهم. فيجلس كل شخص ومعه نصيب من كل ما هو طيب: خبز طازج ولحوم وفطائر، واردة من المؤن الملكية. إن رؤوسهم ممسوحة بالأدهان، وأصواتهم تصل إلى السماء، عندما يجلون أفضال السيد الملكى..

إن جسد الملك يضى أطراف الأرض مثل قرص الشمس، وسطوعه قوى، قوة رع، عندما يتجلى فى زمن فصل الفيضان^(**). ويتألق جماله تألقًا ملحوظًا. وتستقر قوته فى قلوب البشر.... حتى تنصرفوا، ملتزمين بهذه المراسيم التى جددتها جلالتى، ليسود النظام البلد بأسره، بعد أن يكون قد أمعن التفكير فى أعمال السطو والسلب التى سبق ارتكابها^{(***)(٥)}.

(*) يتعلق الأمر هنا، بالضرائب المطلوب جبايتها، على أن تكون على أكبر قدر ممكن من العدالة (المؤلفة)

(**) عندما تجتمع كافة قوى الحياة والفصوية. (المؤلفة)

(***) الترجمة الكاملة لهذا المرسوم فى:

نصوص مقدسة ونصوص دينوية من مصر القديمة. المجلد الأول. نقلًا عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى. دار الفكر، ١٩٩٦، ص ٩٨-١٠٠. ويمكن للقارئ المدقق أن يلاحظ الفارق بين هذه الترجمة وترجمة ديباور ليبب السابق الإشارة إليها. (الترجم)

لم يعد هذا البلد يعيش تحت رحمة موظفين طموحين، قائمين بذاتهم، لا يخضعون لسلطة مركزية بالغة الضعف، بل أصبح بلدًا يسوده النظام، استعداد استقراره، بلدًا تنكث فيه أيضًا، إقامة مختلف العبادات والشعائر.

إن نص لوح حجرى - من مقتنيات المتحف البريطانى فى الوقت الراهن، ويحمل اسم حور - إم - حب، القائد العسكرى - ومن ثم يعود إلى تاريخ سابق على تنويجه، يُعتبر فى هذا الصدد بمثابة بيان دينى رسمى. إذ صُوِّر حور - إم - حب فى الجزء العلوى المقوس من اللوح وهو يتعبد لآلهة ثلاثة:

رع - حور - أختى، الإله الأوحد المتفرد^(*)، ملك الآلهة الذى يشرق حياً.

تحتوت، صاحب الكلمات الإلهية، الواقف على رأس حسيرت، إنه الإله العظيم، المرشد فى العالم الآخر.

ماعت، ابنة رع. سيدة السماء، وسيدة الغرب.

فالآلهة الثلاثة هى شمس هليوبوليس وإله المعرفة والإلهة الحافظة على تماسك العالم وترابطه.

إن الصفات التى ينعت بها رع - حور - أختى وتحتوت من بعده، تبرهن على أن وحدانية، أحد الكيانات الإلهية، فى قلب بعض المؤمنين التابعين له، لا يعيشها صاحبها كمشاعر استثنائية، لا تعترف بإله سواه. إنه «ملك» الآلهة فقط، وكان هذا اللقب، على كل حال، ينفرد به أمون، فى المعتاد، حتى الآن. ولا شك، أن أمون ظل محتفظاً بمكانته متميزة فى مجمع الآلهة المصرية. وقد أعاد حور - إم - حب اسمه على الآثار التى هُشِمَ من على سطوحها، بأمر من أخناتون. ونقذ فى الكرتك مبانٍ عظيمة فى معبد أمون - رع. كان حور - إم - حب يحتاج إلى مساندة كهنة أمون تدعيماً لشرعيته التى كانت إلى حد كبير، محل جدال. ولكن الترنيمة المنقوشة على

(*) العبارة ذاتها التى كان ينعت بها أتون. (المترجم)

اللوح الحجرى تَوَجَّهَ إلى كافة أشكال الشمس، كما أن أساطير هليوبوليس متواجدة فى كل مكان:

إنى أعبد رع سواء فى غرويه أو فى شروقه... التحية لك، أيها الساطع النافذ القوى، أيا أتون - حور أختى. وبينما تظهر متألّفاً فى أفق السماء، فإن أفواه بنى البشر أجمعين، تهلل لك وتحببك. أنت، أيها الجميل، الشاب شاباً أبدياً فى القرص، إن ساعدى والدتك حتحور تعانقك... إنك تغمر الأرض بالفيروز. أيا رع - حور أختى، الفتى الإلهى، وريث الزمن اللانهائى، الذى ينبج نفسه بنفسه، ويأتى إلى الدنيا، بذات نفسه، يا ملك السماء والأرض، يا أمير العالم الآخر، المتسيد على صحراء الجبانة - المنبثق من الماء (الأصلى)، الذى خرج من تلقاء ذاته من نون، الذى ارتفع وقدس ولاداته. أيها الملك القدير الذى يخفى الأفق، بينما يحبى التاسوع شروقك ويقتبط البشر ويفرحون عندما تظهر من أجلهم... أيها الفتى الجميل، يا رب الحب والهوى، القوى قوة عظيمة، الذى لا يعرف التعب والإرهاق، أيها الراكض المسرع، الواسع الخطى... أيها الفتى الكامل، الذى انجبه پتاح، يا صاحب الأشكال المنتقاة، بدرجات تفوق أشكال غيره من الآلهة...

الحمد لك والثناء عليك، أيا تحوت، يا سيد هرموبوليس، الذى أتيت إلى الوجود من ذات نفسك، وبلا حبل، أيها الإله الأروحد المتفرد، المرشد فى اللوات، الذى يحدد قواعد أهل الغرب السائرين فى صحبة رع، الذين وقع اختيار لسانهم من قبل البلدان الأجنبية جمعاء...

الحمد لك والثناء عليك، أيا ماعه، يا سيدة نسمات الشمال، التى تفتح أنوف الأحياء، والتى لا تتوقف عن منح الأنفاس للقائم فى قاربه المقدس...^(١)

ومن جديد، تتداخل الآلهة وتختلط من أجل فاعلية سحرية إلهية وكاملة، لتكفل حماية البشر وسعادتهم. هكذا أخذت النزعة التفيقية syncretisme الدينية تنمو وتتطور.

ومن السمات البارزة لعهد حور - إم - حب تبجيل آمون - ربما لدوافع سياسية - والميل إلى عقائد هليوبوليس العتيقة، والشعور بالريبة نحو كهنة الكرنك، وعلى الصعيد الدينى، يعتبر عهد حور - إم - حب مقدمة تمهيدية لإهتمام الرعامسة بإيداع نوع من الروحانية العالمية، تتمركز حول عبادة الشمس بأشكالها المتنوعة. وستعمل هذه الوحدة الأيديولوجية، على تدعيم نظامهم السياسى. إن حور - إم - حب، هو المصدر الذى نشأت منه أيديولوجية إمبراطورية جديدة، وإن كانت تدبى بالكثير بلا شك للأيديولوجية السابقة عليها، والتى استشعرها تحوتمس الثالث^(٧)، ولكنها ستعمل أكثر فأكثر، على تنمية وحدة الشعوب ومعتقداتهم، فى حضن إمبراطورية شاسعة موحدة، يقف على رأسها الفرعون - الإله، بصفته الزعيم الأوحد، المطلق الصلاحية^(٨).

٢- حماية الإمبراطورية والحفاظ عليها

والأقرب إلى الصواب، أن حور - إم - حب، عندما كان لا يزال قائداً عسكرياً، قد قاد حملة عسكرية إلى آسيا. وكما لاحظنا من قبل^(٩)، فإن الأمير أرفنواندا الراغب فى الإنتقام لمقتل أخيه، كان يزحف على رأس جيش الحيتيين، فى اتجاه نهر العاصى، الحدود الشمالية لممتلكات مصر فى آسيا. كانت كنعان ثائرة، ربما بتحريض من أزيرو الذى أصبح حليف الخاتى أو من سويتلويوما ذاته، إلا إذا كانت قبائل هذا البلد قد تصرفت لحسابها الخاص. وعن هذه الأحداث ذاتها، لا نعرف سوى النذر اليسير، ولكن على جزء من نقش جاء من مقبرة حور - إم - حب فى منف، ومن مقتنيات متحف فيينا بالنمسا، فى الوقت الراهن، يذكر أن فرعون - وربما كان أخناتون المقصود - «قد أرسل رجلاً قوياً ومقدماً على رأس جيشه». وللأسف فالنص أصابه تلفاً بالغاً. ومع ذلك، وإلى جانب مشهد يصور آسيويين يتقدمون فى وضع ذليل وظهورهم منحنية أمام حور - إم - حب، يمكن قراءة الجملة الآتية: «كانت البلاد تنصور جوعاً، وتعيش عيشة ماعز الصحراء»^(١٠). بل ربما طلب البعض التصريح لهم بالإقامة فى مصر.

وبالطبع، فإنها كلمات مقتضبة بعض الشيء، ولكنها تكشف مع ذلك، استعادة أراضي أسيوية تابعة للإمبراطورية، بنساليب عسكرية. الأمر الذي تؤكد المدونات المنقوشة على الجدار الشرقي من الفناء الواقع بين الصرحين التاسع والعاشر، والتي توضح تسليم الجزية الواردة من رقتو وحو نيوت و يونت^(١١).

ويلقى «كبراء يونت» هذا الخطاب:

التحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة، فلديم كأوك زمناً طويلاً. فلم نكن نعرف مصر، وأبأؤنا لم يسبق لهم أن وطنوا أرضها. امنحنا النسعات التي تقدمها لنا في المعتاد، فكافة البلدان تحت نعليك^(١٢).

وتأكيداً واضحاً للإتجاه الجديد للحفاظ على الإمبراطورية، فإن الأسرى الأنارقة، المسجلة مسورهم في مقصورة حور - إم - حب الصغيرة، بجبل السلسلة يردون العبارات نفسها، تحية للبطل الذي أعاد توحيد الإمبراطورية، دون أن نعرف يقيناً، قيام حملة عسكرية ضد أراضي الجنوب:

التحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة، لقد ذاعت شهرتك في بلاد كوش وصيحتك، صيحة الحرب، في عقر ديارهم. إن قدرتك، أيها الأمير الجميل، تحول البلدان الأجنبية إلى أمرات (الجنث)^(١٣). أيها الفرعون، يا نور الشمس^(١٤).

هكذا، فإن اللقب الذي يُنعت به في المعتاد الأباطرة الرعامسة: «ملك مصر وشمس الأقواس التسعة» وسبق أن لاحظنا وجوده في عهد تحوتمس الثالث^(١٥)، وإن في أضيق الحدود، أصبح من الآن تسمية مألوفة تطلق على الإمبراطور، ليقرن هيمنة مصر العتيقة بالسيطرة الجديدة التي يفرضها على فتوحاته الجديدة، في أراضي آسيا وإفريقيا التي تجله وتجله في هيئة الشمس التي يعتبر الجميع شركاء فيها.

وعلى الصعيد السياسي أيضاً، يعتبر حور - إم - حب، النبع الحي الذي نهلت منه أيديولوجية الرعامسة.

٤- طيبة

استعانت طيبة، وإن لفترة قصيرة، مكانتها كعاصمة سياسية وإدارية. وسيظل الكرنك، بالنسبة للإمبراطورية، الموقع المقدس العظيم.

كما أن عصر الإنشاءات الشامخة لم يكن قد وصل إلى خواتيمه. فبدأ هور - إم - حب في تشييد الصرح الثاني، أمام صرح أمنحوتب الثالث، ليصبح المدخل المهيب الجديد لمعبد آمون - رع. كان طوله ٩٨ متراً وعرضه ١٤ متراً، وسيتولى رعسيس الأول، استكمالها.

وعلى المحور الشمالي الجنوبي للمعبد، انشئ طريق ليربط، من الآن، معبد موت بمعبد آمون - رع. كان درياً طويلاً للمواكب الإحتفالية طوله ٣١٠ أمتار ويحفه ١٢٠ تمثالاً لأبقو الهول برأس كبش، تحمل اسم هور - إم - حب.

كما أن الصرح العاشر الذي يشكل المدخل الجنوبي لحوزة آمون يحمل اسم هور - إم - حب. كان يتكون من برجين من الحجر الرملي، وقد أصابهما، في الوقت الراهن، دماراً شاملاً. كان يربطهما باب من الجرانيت الوردى، وحُشي الصرح بأحجار أمنحوتب الرابع، المعروفة إصطلاحاً بأحجار الثلاثات، التي جاءت من معبد جم آتون، بعد أن تم هدمه. وعلى كل حال، فربما كان هذا المدخل الجنوبي، يتكون من مجرد باب بسيط، الأمر الذي قد يفسر وجود تماثيل عملاقين، لهذا العاهل الملكي في هذا المكان.

بعد أن كانت طيبة، قرية فلاحين ومراكبية، أصبحت عاصمة العالمين الإفريقي والآسيوي، وأكثر المدن ثراءً في العالم وأكثرها روعة ومهابة. إنها الطريق الذي سلكه ألفا سنة. إنها قرون طويلة من التاريخ، ربما لن يجد فيها هواة جمع الأحداث الدقيقة والمحددة، ما يرضى فضولهم. ولكنها قرون حافلة بفكر في أوج تطوره، سواء كان دينياً أو سياسياً، ما زال يستشرف عناصره ويتشكل. ولكنه سيعرف أزمى إزدهاره في عصر الرعامسة.

وقرب نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد هذا، كان لا محالة من أن تنتهي المنافسة المحتدمة بين مصر والخابى، إلى قيام الحرب بينهما.

ولكن أصبح يحكم مصر، من الآن ملوك عسكريون تحلوا بذكاء نابه وشجاعة مقدامة، فعرفوا كيف يسيطرون على الموقف فى آسيا، فى حين ظلت المناطق الإفريقية الخاضعة للهيمنة المصرية خضوعاً تاماً، هادئة نسيياً.

إن نظرة حور - إم - حب السياسية الثاقبة، تتلخص بالفعل، فى أنه أدرك، فى الظروف القائمة آنذاك، أن زعيماً محارباً فقط، فى مقدوره الحفاظ على ما تبقى من الإمبراطورية المصرية والقضاء على طموحات الخابى. ولما لم يثمر زواجه من موت نهمت عن انجاب ولد، فقد قام شخصياً باختيار من يخلفه، دون أن يستطيع كهنة آمون التدخل، فاختص بهذا المنصب الوزير والقائد العسكرى پا رمسيس وكانت تانيس، فى شرق الدلتا، مسقط رأسه، وهى المدينة القريبة من مناطق الإمبراطورية الآسيوية الحدودية الحصينة.

وحول عام ١٣١٤ ق.م، تربع رمسيس الأول على العرش، ليصبح الأول من بين سلسلة طويلة من الفراعنة المحاربين الأشاوس المرهوبى الجانب^(٥).

(٥) وقد أفردت لهم المزاولة مجلداً مستقلاً، سوف تصدر ترجمته العربية قريباً. (المترجم)

الخاتمة

هكذا، فعلى امتداد خمسة قرون، عاشت طيبة، والإمبراطورية التي فتحها التحامسة وتصوروها. ومن خلال سيرنا عبر هذا الطريق الطويل، تبقى عدة مناطق مظلمة في نظرنا. وكما لاحظنا، فإن صياغة تاريخنا، هو عبارة عن لعبة ضخمة تحتاج منا إلى صبر أيوب، إذ تتلاصق فيها الوثائق التي جاءت، من كل حطب وصوب، وتنوع طبيعتها، وقد جاءت بها الصدفة البحث أثناء أعمال التنقيب أو الكشوفات غير المنتظرة، أو تحتفظ بها المتاحف، منذ زمن بعيد، ونجهل مصدرها.

وطوال هذه القرون الخمسة، ظلت طيبة المركز الأول لكل حياة، سواء حياة الآلهة أو حياة البشر: فكل شيء يتشكل، إنطلاقاً من هذا الموقع السامي، بدءاً من الكشوفات الفجائية المبهرة، نذكر منها، مقبرة توت عنخ آمون، وصولاً إلى كسفة بسيطة، هي كل ما تبقى من إناء من الفخار، تحمل اسم أو تاريخ يُلقيان النور على معلومة أخرى. وتظل جدران الكرنك الشامخة المقدسة وزخارف المقابر المنحوتة في الصخر، مصادرنا الرئيسية.

ومن ثم، فإن وثائقنا هي عبارة عن مشهد عالق بين السماء والأرض، أو مدفون في باطن الأرض. إنها مجموعة أدبية لا نظير لها، إنها مكتبة كاملة مدونة على مختلف الركائز، إنها عالم من النصوص، لا نلتقي بمثل ثرائها ووفرتها إلا في فكر العالم الكلاسيكي، عالم الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين، وريثى العقلية المصرية.

إن معنى التاريخ في مصر، كما يمكن أن نفهمه^(*)، في الوقت الراهن، يؤثر التصورات الذهنية والصيغ اللفظية ذات الدلالة السحرية وأبعادها الأبدية التي تغالب الأيام، على الوقائع والأحداث العابرة والعرضية.

ولكن هذا التاريخ المديد الذي ننهمك على دراسته، بكل ما أوتينا من ولع وشغف صانقين، لن يصل أبداً إلى نهايته. إن عالم المصريين أشبه بالعامل

(*) بالنسبة للمؤرخ الغربي. (المترجم)

بالمقطوعية، على مستوى الذهن والعقل، فيُجمَع يوماً بعد يوم، عناصر جديدة، تتبثق
دون توقف، من وسط الرمال.
إن علم المصريين، ما زال في مرحلة الشباب، إنه علم واعد يُرجى منه
الكثير.

الهوامش

هوامش المقدمة

- (١) أطلق الإغريق على الإلهيم الاسم اليونانى نوموس nomos ويقابله بالفرنسية nome وبالمصرية القديمة سبت.
- (٢) نقشت هذه النصوص على جدران الحجرات الجنائزية داخل هرم أوتاس آخر ملوك الأسرة الخامسة وأهرام ملوك الأسرة السادسة - وتعود إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد تقريباً.
- (٣) راجع فيما بعد: المقدمة. فقرة: آمون وتأسيس الكرنك.
- (٤) راجع الفصل الأول.
- (٥) يصور الـ «باء» فى هيئة طائر برأس آدمى برجلين تنتهيان بيدين. إنه العنصر العركى للكائن البشرى وفى وسعه أن يخرج من الجسد ويعود إليه، فيجلب للمتوفى نسمة الأرض العلية. إنه الرباط الممنوع الذى يربط المتوفى بعالم الأحياء.
- (٦) متون الأهرام. §1197.
- (٧) النحاس هو مادة النجوم.
- (٨) متون الأهرام § 2051.
- (٩) متون الأهرام § 538.
- (١٠) الإلهة نوت. فوقاً للموت هليوبوليس، تحمل هذه الإلهة أحياناً محل إيزيس، فى جمع أشلاء جسد أوزيريس المبعثرة.
- (١١) إنه أول تعبير عن عقيدة الملك الراعى الصالح الذى يسهر على شعبه ويحميه منذ وجوده فى الدنيا إلى أبد الأبد.
- (١٢) متون الأهرام 827-829 § .
- (١٣) متون الأهرام 1143-1144 §.
- (١٤) راجع فيما بعد: الفصل الرابع الولادة الإلهية والسياسة.

(١٥) راجع فيما سبق: مطلع المقدمة.

(١٦) راجع فيما بعد: الفصل الثاني: الكرتك: الفقرات الأخيرة.

(١٧) راجع فيما بعد: الفصل الأول: بلاد برونز.

(١٨) C. L. Textes pp. 196-197.

(١٩) إنهما صفتان أساسيتان في نظر المصري وتتجسدان في الإلهة ماعت التي كان الوزير كبير كهنتها.

(٢٠) C. L. Textes, p.238.

(٢١) المرجع السابق: p.241.

(٢٢) المرجع السابق: p.238.

(٢٣) المرجع السابق: p.244.

(٢٤) المرجع السابق: p.237.

(٢٥) المرجع السابق: p.243.

(٢٦) المرجع السابق: p.245.

(٢٧) المرجع السابق: p.163.

(٢٨) القلب هو مركز الحياة الوجدانية والتصورات الذهنية.

(٢٩) الترجمة الحرفية للتعبير المصري. والمقصود بذلك ابن پتاح حوتپ.

(٣٠) C. L. Textes, p.236.

(٣١) راجع فيما بعد: الفصل الأول: كلمان أرض البدو.

(٣٢) عن مصير مصر وقدرها، لم يتفق حتى خط التراب البسيط الذي يوجد أحياناً في الجزء العلوي من الظفر.

(٣٣) وصف حسى لبؤس وشقاء بلد غرق في أحداث الثورة. إن الواقع والأسطورة يختلطان ويندخالن كما شاع في التصوُّص المصرية، كلما أراد المرء أن يوحى إيحاً عميقاً، بوضع

- من الأوضاع أو ببعض المشاعر.
- (٢٤) C. L. Textes, pp.71-72.
- (٢٥) المرجع السابق: p.213-218.
- (٢٦) المرجع السابق: pp.224-225.
- (٢٧) راجع مطلع هذه المقدمة.
- (٢٨) C. L. Textes, p.54.
- (٢٩) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: تهوتس الأول: النص المدون على صخور طميس.
- (٤٠) C. L. Textes, p.51-56.
- (٤١) راجع فيما سبق: في زمن الأهرامات الأولى.
- (٤٢) C. L. Textes, pp.57-58.
- (٤٣) اسم تتويج سنوسرت الثالث ويعني «تظهر كائنات رع متألقة».
- (٤٤) إلهة - أسدة، ومحاربة مربعة.
- (٤٥) C. L. Textes, p.77.
- (٤٦) Empire des Ramsès, p. 388.
- (٤٧) راجع فيما بعد: الفصل الخامس. الفقرة ٢: الجزية...
- (٤٨) عن هذه القلاع راجع فيما بعد الفصل الأول. الفقرة: ١- النوبة والسودان. والفصل الثالث. الفقرة: ٢- الوزير ونواب الملك. والفصل الرابع الفقرة: ١- الملك المصطفى والملكة والملك والفصل الخامس الفقرة: ٤- معالم القوة الأثرية والفصل السابع. الفقرة: ١- التواجد في النوبة.
- (٤٩) راجع فيما بعد: الفصل الثاني. الفقرة ٢. طيبة المنتصرة.
- (٥٠) راجع فيما سبق: الثورة الإجتماعية.
- (٥١) راجع فيما بعد: الفصل الخامس. الفقرة: ٤ معالم مصر الأثرية.

Barguet: Temple d'Amon - Rê, p.2 (٥٢)

Seth: Amun (٥٣)

Petrie: Qurneh, pl. X. (٥٤)

(٥٥) ويمتزج الإله بعناصر الحياة في وحدة متكاملة لخير الإنسان.

Daumas, in BIFAO, 1967, vol.65, p.213 (٥٦)

Wildung, in MDAIK, 1969, vol. 25, p.212.

Kamak VI, p. 267, note 1.

Daumas, ibid, p. 214 (٥٧)

(٥٨) راجع فيما سبق: نشأة النظام الملكي.

(٥٩) ويات من الشائع منذ الآن أن ينعت ملوك مصر بهذه الصفة، لا سيما في عصر الرعامسة.

.cf, Empire des Ramsès, p.374

(٦٠) صورة أسطورية موزلة في القدم للصقر الشمسي. فإن إحدى عينيه هي الشمس والأخرى القمر. وهبارة «ما تثيره عينه». تشير إلى الكون.

Urk. VII (٦١)

(٦٢) إن الآلهة التي تصور وقد دثر جسدتها في رداء محبوب، هي في الغالب من الآلهة الخالقة الواهبة الحياة، وكان كل إله منها، سيد قوى الإنبات، ومنها على سبيل المثال أوزيريس وبتاح ومين. وربما كان هذا الرداء المحبوك المرادف للحاء الشجرة الذي يضم القوى النباتية المتجددة دائماً، لتعود إلى الحياة. ومن ثم فهو رمز لانطلاق الحياة وبورتها التي لا تتبدل. كما أن أولى تماثيل برياهوس^(*) Priape، قد قُضِبَتْ في لحاء شجرة.

(*) برياهوس: إله الخصوبة والإنجاب في الأساطير اليونانية. (المترجم)

Empire des Ramsès, pp.219 sq (٦٣)

(٦٤) راجع فيما سبق: في زمن الأهرامات الأولى.

.C. L. Textes, p.175 (٦٥)

(٦٦) إن كلمة فلان تحمل محل اسم الشخص الذي يتغير بتغيير التولييت.

(٦٧) متون التواييت التعويذة 790.

Empire des Ramsès, pp. 144 sq (٦٨)

(٦٩) وهو الاسم الذي كان يطلق على هذه المدارس، لأن كل علامة من علامات الكتابة سواء كانت محفورة أو مرسومة كان لها القدرة على التنشيط والإحياء بفضل تأثير السحر. وهكذا كان الكتبة يخلقون أغلفة يفترض لها أن تستوعب الحياة.

(٧٠) ترجمة القصة: C. L. Textes, pp.197 sq

(٧١) جوف منطقة سوريا - فلسطين الحالية.

(٧٢) الكا هو الاسم الذي أطلقه المصريون على الطاقة المحركة القائمة في كل كائن، وتبعث فيه الحياة والنشاط. ويعتقد إذن أن هذه الجزيرة الأسطورية كانت موطن مبدأ الحياة ذاته.

(٧٣) راجع فيما سبق: مطلع المقدمة.

(٧٤) راجع فيما سبق: المقدمة: أوزيريس في أيديوس.

هوامش الفصل الأول

(١) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

Posener, in Z.A.S, 1957, vol. 83, pp. 38-43 (٢)

Van seters, Hyksos, p.109

.Posaner, in Kush, 1958, vol. vi, pp. 39-65 (٣)

.Emery, in Kush, 1959, vol. vii, p. 7 sq (٤)

Herzog, in A.D.A.I.K., 1968, vol.6, p.9 sq (٥)

.Empire des Ramsès, p. 270 sq (٦)

.P. Montet, Byblos et L'Égypte (٧)

.Ibid, p. 273 (٨)

P. Montet, Le roi Sahourê et la princesse lointaine. In Mélanges syriens offerts (٩)

à M. Dussaud, I, 1939, pp. 191-195.

(١٠) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: ٢- مصر الإمبراطورية. من أجل تعريف الإمبراطورية (المقطع الأخير).

(١١) راجع لا سيما العملات الخامسة والتاسعة والسابعة عشرة. (Urk, IV, 732).

(١٢) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(١٣) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.

(١٤) راجع أساساً:

L'Égypte et le monde égéen préhellénique, Le Caire 1956.

Lexikon, Bd. II, col. 1053-1054 (١٥)

Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinai, p.1 sq (١٦)

- (١٧) .Lexikon, Bd. IV, col. 1156- 1158
- (١٨) .Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinai, pt.xviii, p.80
- (١٩) Enseignement de Kheti, III à son fils Merikarê
- (٢٠) P. Garelli, Proche - Orient asiatique, p. 85
- (٢١) راجع فيما سبق المقدمة: السياسة الجديدة.
- (٢٢) P. Garelli, Proche - Orient asiatique, p. 95-96
- (٢٣) المرجع السابق P.98.
- (٢٤) المرجع السابق P.128.
- (٢٥) راجع فيما بعد: الفصل السابع: أولى عناصر القانون الدولي.

هوامش الفصل الثاني

- (١) Newberry, in J.E.A., 1943, vol.29, pp. 74-75
- (٢) Hayes, in J.N.E.S., 1953, vol. xli, n° 1, pp. 32-39
- (٣) تقع هذه المدينة شمال طيبة.
- (٤) Wadell, Manetho, p.73
- (٥) من مدن الدلتا.
- (٦) Wadell, Manetho, p.44
- (٧) Montet, in Kémi, 1928, tome I, pp. 83-93
- (٨) Wadell, Manetho, p.79
- (٩) عن المناقشات العديد التي دارت حول إيمرو وعنفو راجع:
- J. von Bechereath, in J.N.E.S., 1958, vol. 17.
- (١٠) سفر الخروج. الاصحاح ١٢: ٤٠.
- (١١) Empire des Ramsès, p.259
- (١٢) Drioton - Vandier: Egypte, p.289
- (١٣) أو على أقل تقدير في المنطقة المجاورة.
- Montet, in Drame d'Avaris, p.47 sq.
- (١٤) Bietak, in Lexikon, vol. v, pp. 128-129
- (١٥) Kitchén, Pharaoh triumphant, p.122
- (١٦) راجع تحديداً:
- Save Söderbergh, in J.E.A., 1971, vol. 57, p.53-71.
- Van Seters: Hyksos, p.152 sq-CAH, p.54 sqq.

P.C. Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Agypten und ihr Sturz. (١٧)

Glückstadt - Hamburg, 1936, p.27.

(١٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: هيئتيا.

Empire des Ramsès, p. 147 sq (١٩)

(٢٠) راجع فيما بعد: الفصل الثاني: ثلاث سيدات في البلاط الملكي.

Stock, Studien zur und Archäologie der 13 bis 17 .Dynastie Aegyptens- (٢١)

Glückstadt- Hamburg, 1942.

(٢٢) المرجع السابق.

Garstang, in J.E.A., 1928, vol.14, p.46 sq., pl. 7 (٢٣)

Winlock, Rise and fall of the Middle kingdom, p.148 (٢٤)

CAH, p.61 (٢٥)

Winlock, in J.E.A., 1924, vol. 10, pp.217-277 (٢٦)

(٢٧) لقد حذف بيكرات J.von Beckerath راع حوتف من الأسرة السابعة عشرة.

(Lexikon, Bd. I, col. 301-302).

وضمه إلى الأسرة الحادية عشرة أسوة بـ

E. Brunner- Traut: ibid, Bd. I, col. 963-964.

أو ويلوك Winlock فإنه يضع هذا الملك في المرتبة الثانية

(Rise and Fall, p.121).

ولكن Stock (op. cit.) و Edwards (in CAH, p.65) يستمران في وضع عهده على رأس

الأسرة السابعة عشرة طبقاً لما ورد في بردية تورينو.

(٢٨) مجموعة الألقاب الملكية كانت تضم خمسة أسماء:

• الاسم الحوري وكان حورس حامى الملكية وراعيا منذ عهد نفرمر.

• اسم السيدتين: ويربط العامل الملكي بالإلهتين الحاميتين لمصر العليا ومصر السفلى. وهو

قديم جداً أيضاً. والإلهتان هما نخب الطائر الرخمة أو العقاب والشعبان واجت.

• اسم حورس الذهبى: (أى حورس الشمسى)

• اسم ملك مصر العليا ومصر السفلى: (حرفياً «الذى يتقرب إلى البوص والنخلة، وهما من الظواهر المميزة لقلورية وقوية مائتين المنطقتين).

• اسم ابن رع: وهو لقب الأسرة المالكة.

(٢٩) إن سيا وجو هما تكيه لصفتين أساسيتين من صفات الكائن البشرى. سيا هى المعرفة أما جو فهو النطق بالكلام أو الفعل الإرادى فى إصدار الأوامر.

(٢٠) نلتقى بتعبير الملك السامر على شئون رعاياه فى مرسوم حور - إم - حب. ونصوص مصر الرعامسة.

(٢١) Petrie, Koptos, pl. xli.

(٢٢) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(٢٣) نص أوستراكون فلورنسا.

Gardiner, Late Egyptians Stories, p.91, 1. 10-14.

(٢٤) Rise and Fall, p. 125

(٢٥) راجع فيما سبق: المقدمة: الثورة الاجتماعية.

(٢٦) ليسوا أسبويين. ولكن من المتفق عليه أن هؤلاء الأعداء هم صور سحرية محرمة استولى عليها تيتى ابن مهن حوتى وأدخلت إلى المعبد.

(٢٧) القرابين التى يستهلكها الكهنة وكبراء البلد، بعد أن يستهلكها الإله استهلاكاً سحرياً.

(٢٨) Petrie, Koptos, pl. viii

(٢٨مكرر) كان إيمصوتى وزير الملك چسر (حول ٢٧٠٠ ق.م) ومهندس. وكان جديف حور أحد أبناء الملك خوفو. وقد ألفا سفرين فى الحكمة لم نعتز أبداً على نصهما، وإن أشارت إليهما الكتابات اللاحقة.

(٢٩) بخور بلاد بونت.

Holwerda - Boeser: Leiden, Rijksmuseum van Oudheden. Beschreibung der (٤٠)
aegyptischen Sammlung- La Haye, 1905- 1932, vol. iv, pl.6.

(٤١) راجع فيما سبق: المقامة: الثورة الإجتماعية.

Vandersleyen, in lexikon, Bd.V, col. 847-848 (٤٢)

يذهب Edwards, in CAH, p.72-73 إلى احتمال وجود ملكين يحملان اسم سقن رع ناعا.
وأن تيتي شيبوي كانت زوجه الأول ووالدة الثاني.

(٤٣) أي ملك مصر.

(٤٤) مصر في حد ذاتها أي الجنوب آنذاك.

(٤٥) إن إعادة صياغة بعض الفقرات الناقصة والواردة بين معقوفين [...] هي من اقتراح
G.Lefebvre, Contes et romans pp.134-136.

Gardiner: Late Egyptians Stories, pp.85-89 (٤٦)

Maspero: Contes populaires, p. xrvl (٤٧)

Lefebvre: Contes et romans, p.132

(٤٨) عن هذين اللوحين الحجريين وظروف الكشف عنهما يمكن مراجعته على وجه التحديد:

Gunn et Gardiner in JEA, 1918, vol. 5, pp. 36-56.

Hammad, in C.E. 1955, vol. 30, pp. 198-206.

L. Habachi, in A.S.A.E., 1956, vol. 53, pp. 195-202.

L. Habachi: The second stela of Kamose. Glückstadt, 1972, p.67, pl.viii.

(٤٩) في نظر المصريين كانت النوبة والسودان تشكلان من الناحية الجغرافية الطبيعية جزءاً لا
يتجزأ من بلادهم.

(٥٠) القوصية وهرموبوليس من مدن مصر الوسطى، وتقعان عند منتصف الطريق تقريباً بين طيبة
ومنف.

(٥١) عن هذه الصورة الدائمة التي تشبه السلام بالجو الرطب وتوحد بينهما، والشعور الحسى بذلك
في بلد تسوده حرارة الجوراجع: Empire des Ramsès, p. 399.

(٥٢) مدينة هامة تقع إلى الشمال من هروموبوليس.

(٥٣) راجع فيما سبق: الفصل الأول: النوبة والسودان.

Empire des Ramsès, p. 379 sq (٥٤)

(٥٥) لوح من الحجر الجيري يبلغ ارتفاعه ٢٢٠سم وعرضه ١١٠سم وسمكه ٢٨سم. إن أبعاد اللوح الأول الذي لم يعثر سوى على أجزاء منه كانت مماثلة على ما يرجح.

(٥٦) منطقة غير معروفة.

(٥٧) إن كامس يعيد أهوى إلى وضعه كنسيوى.

(٥٨) منطقة غير معروفة أيضاً. ويرى لبيب حبشى أن هذا الاسم قد يعنى: «الزمن (اللازم) للهبوط مع التيار». ربما كانت ملتقى طرق تجارية بين مصر العليا ومصر السفلى.

(٥٩) ملاحظة إنطباعية: إن أنف النساء فقط هو الذى يظهر من خلال المزاغل الضيقة.

(٦٠) صيغة قُسم.

(٦١) إن عدداً من المدن كانت تحمل هذا الاسم الذى يعنى «بين الإلهة حثحور».

(٦٢) فريما النيل.

(٦٣) تعبير يؤكد على تبعية أمير كوش للامير أهوى.

(٦٤) تشبيهه ساخر يشير إلى القطرين اللذين يحكماهما الهكسوس وأبناء كوش - فى مقابل قطرى النظام الملكى التقليدى عند الفراعنة أى مصر العليا ومصر السفلى.

(٦٥) الاسم الذى كان يطلق على المناطق السودانية الواقعة إلى جنوب الجندل الثانى.

(٦٦) بلدان أفريقيا. كان الجنوب فى نظر المصريين هو الجهة الأصلية. حيث منابع النيل.

(٦٧) أى فى المنطقة التى كانت لا تزال من الناحية الإسمية خاضعة للاسيويين.

(٦٨) بلدة القيس حالياً.

(٦٩) أى الجماهير المحتشدة عند الشواطئ.

(٧٠) لقب تقليدى، ولا ينطوى هنا على أى دلالة سياسية.

(٧١) كان فرعون يكافئ أكثر ضباطه بـسالة بمنحهم قلاند من ذهب.

(٧٢) أسرى الحرب وغنائم الحملة العسكرية.

(٧٣) رابع أسماء الملك أحسس.

Urk. I., Isq (٧٤)

Vandersleyen, Guerres d'Amosis, p.34 sqq (٧٥)

(٧٦) نعرف أن الملك أحمسي الذي نُسخَت برديّة ويثد Rhind في العام ٢٢ من عهده، كان ما زال متربّعاً على العرش في عهد كامس، كما طالت سنوات حكمه حتى بلغت الأربعين سنة تقريباً. ومن ثم لا يمكن أن يكون عهد الملك المقصود بالعام ١١، سوى خليفته الملك خع مودي أو أحسس، ومن الراجح أنه هذا الأخير.

(٧٧) كان الملك يكافئ الجنود الأشاوس بقدر ما قتلوا من جنود الأعداء وعدد الأسرى، ولحصر عدد القتلى كانت تقطع يدهم اليمنى لإحضارها إلى فرعون.

(٧٨) كناية على امتداح قوة أحسس وشجاعته. فقد استطاع أن يعبر الماء وهو يحمل أسيراً دون عناء وكانّه يسير على طريق معبد.

(٧٩) راجع فيما سبق: الفصل الأول: فينقيا.

Urk. Iv, 35 (1, 16-17) (٨٠)

Urk. Iv, 24-25 (٨١)

(٨٢) الارتفاع: ٢٥٠سم والعرض ١١٥سم.

(٨٣) أحسس هو ملك الجنوب في يه أي تل الفراعين في الدلتا وهو ملك الشمال في البلد المحبوب، وكانت هذه التسمية تشير إلى طيبة ومنطقتها. الخلط المقصود بين المكانين يعتبر تعبيراً لغوياً عن استعادة وحدة مصر التي لا تنقسم.

(٨٤) من مدن الدلتا وفيها نشأت أليزيس ابنها حورس، في سرية تامة.

(٨٥) من مختلف طبقات المصريين.

(٨٦) سيشات هي إلهة الكتابة.

Urk. iv, 14-24 (٨٧)

(٨٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: سيناء.

(٨٩) راجع فيما سبق: الهكموس في مصر.

(٩٠) عن مختلف العبادات هذه، راجع:

P. Garelli, Proche - Orient asiatique, passim.

Vandersleyen: Guerres d'Amosis, Appendices (٩١)

Winlock, in Ancient Egypt, 1921, pp.14-16 (٩٢)

(٩٣) وهنا يظهر لأول مرة هذا القربى الشرقى الذى حملته ملكات مصر.

(٩٤) كافن بشارك فى إقامة الشعائر الجنائزية.

(٩٥) من كبرى الأعياد الدينية والزراعية.

(٩٦) من الراجع ليمكن من كتابة صيغة تقديم القرابين.

Urk. iv, 26-29 (٩٧)

Erman, in Z.A.S., 1900, vol. 38, p.150 (٩٨)

(٩٩) كان يناط بالكهنة وهب القيام تديداً ببعض الطقوس، ولا سيما زينة التمثال الإلهى فى ناووسه.

(١٠٠) من الراجع أنها زوجة انتف السابع. راجع فيما سبق: الفصل الثانى: طيبة الأبية المتردة.

(١٠١) كان «الكلمة»^(١) فدره خلافة. إن «تسمية» القرابين يترتب عليها انبعاثها كواقع حقيقى. تشير هذه الصيغة التقليدية إلى قربان مقدم إلى الآلهة لتقوم بدورها بتقديمه للشخص الذى وقع عليه اختيار مقدم القرابين: والمقصود به هنا الملكة مع حوتب. إن خدمة تقديم القرابين فى مصر، وكانت على قدر كبير من الأهمية، تنطوى أيضاً على «آلية» سحرية.

(*) «الكلمة» مؤنث لفظى ومذكر معنوى. ونذكر على سبيل المثال ما ورد فى مطلع إنجيل يوحنا ١: ١ «فى البدء كان الكلمة». راجع الكتاب المقدس. العهد الجديد. المطبعة الكاثوليكية. بيروت.

١٩٦٩. (المترجم)

Unk. Iv, 29-31 (١٠٢)

(١٠٣) راجع فيما بعد: الفصل الثالث. أهل طيبة.

Drioton, in B.S.F.E. 1953, vol. 12, p.11 (١٠٤)

(١٠٥) هذا المبرح من إنشاءات أمحتوتب الثالث الذي استخدم عند تشييده كتلاً حجرية من المباني التي أقامها أسلافه.

(١٠٦) يرى دريوتون Drioton أن وحدة العملة شفع تعادل سبعة جرامات ونصف من الذهب (art. cit., p.16)

Drioton, art. cit., pp.21-25 (١٠٧)

مراجع شاملة عن هذا الموضوع مذكورة في p.11.

Empire des Ramsès, p. 227 sqq (١٠٨)

(١٠٩) الإله «أين أوى» الذي يشرف على وقائع التحنيط.

(١١٠) إنها أوانٍ كانت تحفظ فيها أحشاء الموتى بعد تحنيطها.

(١١١) عن أي إيضاحات أخرى عن أحمس - نفرتاري راجع:

Michel Gilton, L'épouse du dieu, Ahmes - Nefertary. Besançon, 1975. p.108.

(١١٢) كان من المعتاد إلحاق هذه الصفة بكل كيان إلهي في مدينته.

Karnak, p.21 (١١٣)

(١١٤) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: أحمس ملكاً وإدارياً.

Karnak, p.18 (١١٥)

(١١٦) عن هذه الشعارات وكيفية إقامتها راجع:

Empire des Ramsès, p. 223 sq.

هوامش الفصل الثالث

(١) مملكة شمالية تقع على الشاطئ الأيمن من نهر الفول. راجع فيما بعد: الفصل الخامس:

الملحمة البطولية: عبور الفول والفصل السابع: فراعنة السلام: الإبقاء على الإمبراطورية.

(٢) بدأت مصر تستورد البرونز عند نهاية الأسرة الثانية عشرة.

Urk. iv, 44 (٣)

Urk. iv, 49 (٤)

Empire des Ramsès, p. 204 sqq (٥)

(٦) إيماء - كحك: موقع غير معروف ربما في النوبة أو في الواحة الليبية.

Urk. iv, 36, 1.1-4 (٧)

Urk. iv, 50, 1.12 (٨)

Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinai, p.149 (٩)

Urk, iv, 54 (1, 14-17) (١٠)

(١١) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: ٢: المعابد والآلهة.

Edgerton, The Thutmosid Succession, Chicago, 1933, p.41 (١٢)

(١٣) لا تحمل سن سنف لقب الزوجة الملكية. وهو ما يبعث على الاعتقاد بأنها كانت من محظيات أمنهوتب الأول.

Urk. iv, 79-81 (١٤)

(١٥) في تاسوع هليوبوليس كان جب حفيد أتم الذي كان على رأس الأسرة الحاكمة الإلهية. وفي أسطورة أوزيريس كان جب والد أوزيريس أول الملوك الذين حكموا الأرض.

(١٦) الصورة مزدوجة: إن تدفق الدم وكأته طلاء أحمر، ينساب من فم الأعداء، يُشبهه بالأمطار الجارفة من كثرة إراقة الدماء.

(١٧) ربما كان المقصود الملوك الأقدمين من مدينة هليوبوليس الذين ماتوا وألّهوا. كما أقيمت أيضاً الشعائر لباو العواصم القديمة مثل هرموبوليس (الأشمونين. م.) وهيركليوبوليس (إمناسيا المدينة. م.) ويوتو (تل الفراعين. م.) راجع:

Sethe, Urgeschichte, §§ 127, 165, 170.

(١٨) نهر الفرات. وقد أثار على الدوام دهشة المصريين لأن مجراه كان يتدفق من الشمال إلى الجنوب، عكس نهر النيل الذي كان في نظرهم النهر الأمثل.

(١٩) أسرات حاكمة أسطورية سبقت الأسرات الملكية.

Urk. iv, 79-86 (٢٠)

Urk. iv, 36 (1.5-8) (٢١)

(٢٢) ربما جاءت من واحات الصحراء الغربية. ومن جديد يُعتقد أنه كان تمرراً وقع بالتواطؤ بين كوش وهذه الواحات.

Urk. iv, 8-9 (٢٣)

(٢٤) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

Urk. iv, 89-90 (٢٥)

Urk. iv, 88 (٢٦)

Arkell, in J.E.A., 1953, vol. 39, pp.36-37 (٢٧)

Vercoutter, in Kush, 1956, vol.4, pp. 68 et 70.

(٢٨) حرفياً: «يفتسل القلب». صورت المغامرة وكنتها نزهة للاسترخاء وليست هدواً.

Urk. iv, 9-10 (٢٩)

Urk. iv, 36 (1.9-14) (٣٠)

Urk. iv, 103-104 (٣١)

Urk. iv, 58 (1.11-13) (٣٢) حياة إينيني

Ratié, Hatshepsout, p.24 (٣٣)

Urk. Iv, 108-110 (٢٤)

Gauthier, Livre des rois, tome II, p.226, note 2 (٢٥)

Urk. Iv, 154 (1.12) (٢٦)

Urk. Iv, 143 (1.12) (٢٧)

Urk. Iv, 144 (1.3) (٢٨)

(٢٩) تشير إزبواجية الألوان هذه، إلى مصر التي تعود خصوبة أرضها إلى الغرين الأسود الذي يجلبه النهر، وإلى الصحاري المحيطة بأرض الوادي بلونها القاني من شدة الشمس الساطعة.

Urk. Iv, 58-59 (٤٠)

(٤١) وقد اختار تحوتمس الثالث المصطلحات نفسها عندما أراد وصف إمبراطوريته، على لوح حجري عثر عليه في جبل بركل، ويعود تاريخه إلى العام ٤٧ من عهده. راجع فيما بعد: الفصل الخامس: مصر الإمبراطورية.

KRI, I, 26 (٤٢)

(٤٣) C. L. Textes, p.171. ربما حدث ذلك على مقربة من الجندل الثاني.

Urk. Iv, 137-141 (٤٤)

Edgerton: Thutmosid Succession, p.42 (٤٥)

Urk. Iv, 36 (1. 12-14) (٤٦)

Urk. Iv, 59 (1. 13-14) (حياة إيشيني) (٤٧)

(٤٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المتصمر.

Urk. Iv, 86-88 (٤٩)

C. Lalouette, Textes, p.50 (٥٠)

Urk. Iv, 108 (1. 11-14) (٥١)

(٥٢) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الأيببواجية الإمبراطورية الأولى.

Urk. iv, 76-77 (٥٢)

L. Habachi, in Kush, 1959, vol. vii, p.57 (٥٤)

Urk. iv, 78 (1. 8-12) (٥٥)

(٥٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تمتمس الأول المحارب المتصير.

L. Habachi, art. cil., p47, fig 2 (٥٧)

لقب « الإبن الملكي » لقب شرفي محض.

(٥٨) كان خنوم يحمل هذا الاسم في القوية.

Urk. iv, 142 (1. 1-16) (٥٩)

Urk. iv, 51 (1. 1-11) (٦٠)

Urk. iv, 10 (1. 5-9) (٦١)

Urk. iv, 34 (1. 5-10) (٦٢)

Urk. iv, 38-39 (٦٣)

Urk. iv, 34 (1. 11-17) (٦٤)

(٦٥) كما يقوم أحمس - بن - نخبث بحمصر منثره العريية على قاعدة تمثال يحتفظ به متحف

اللوافر في باريس (C 69).

Urk. iv, 35-36

(٦٦) إن الريشتين العاليتين القائمتين على قاعدة تاج تشكل خطأ رأس الإله. راجع: المقدمة: أمون

وتأسيس الكرنك.

(٦٧) اسم معبد في منف.

(٦٨) مدخل جبانة منف.

(٦٩) مياه النيل عند منابعه ذاتها، على حد اعتقاد القدماء.

(٧٠) في وسع ياحرى في واقع الأمر، أن يشترك في القرابين الإلهية ولا سيما إبان كبرى الأعياد

الدينية.

- (٧١) العنصر المتحرك في الكائن ويصور على هيئة طائر برأس آدمي.
(٧٢) ذكرى عن الصيغرات النجمية القديمة.
(٧٣) العالم الآخر القائم في العالم السفلي.
(٧٤) مكان محكمة أوزيريس.
(٧٥) حقل من حقول السماء الذي سيتعين على المتوفى أن يزرعه، من أجل إعاشته إلى الأبد.
(٧٦) إن حدود الحقول (؟) والممتلكات الملكية يرسمها يلهرى على نحو صارم، كما يتحدد مجرى النيل.

(٧٧) إلى الذين سيعملون نيابة عنه.

Urk. iv, 111-113 (٧٨)

Urk. iv, 68 (1, 8-12) (٧٩)

Urk. iv, 69 (1.4-5) (٨٠)

(٨١) حقل من حقول السماء.

(٨٢) من الراجح أن أسماء عدد من الأعياد كانت مدونة في هذه الفجوة.

Urk. iv, 54 (1. 1-12) (٨٣)

Urk. iv, 55 (1. 12-16) (٨٤)

Urk. iv, 57-58 (٨٥)

Urk. iv, 70, (1. 1-8) (٨٦)

(٨٧) الأتصر.

Urk. iv, 71 (1. 9-14) (٨٨)

Urk. iv, 59 (1. 5-12) (٨٩)

Lefebvre: Contes et romans, p. 80 sqq (٩٠)

Urk. iv, 72 (1. 14-16) (٩١)

Urk. iv, 73 (1. 7-10) (٩٢)

Urk. iv, 61-62 (٩٣)

(٩٤) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: ٢٠. المعابد والآلهة.

(٩٥) تختلف الآراء حول أصول الملكة مع حوتب هذه. يرى البعض أنها زوجة سقن رع تاعا والتي كانت لا تزال على قيد الحياة في العام العاشر من عهد حفيدها أمنحوتب الأول. راجع:

Breasted, A. R. pp. 21-22.

وكانت آنذاك متقدمة في السن. ويبدو الآن أن جمهور العلماء يُجمعون على أن هذه «الأم الملكية» هي في حقيقة الأمر مع حوتب الثانية:

Lexikon, I, p.99

راجع:

Edwards, in CAH, p.307

(٩٦) لوزييس.

(٩٧) هكذا يشارك كارس في طقوس الخدمة الإلهية.

Urk. iv, 45-47 (٩٨)

Urk. iv, 131-133 (٩٩)

Urk. iv, 134 (1.4 et 8-9) (١٠٠)

(١٠١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تعويذات الأول المحارب المنتصر.

Urk. iv, 43 (1. 3-6) (١٠٢)

Urk. iv, 55-56 (١٠٣)

Urk. iv, 93 (1. 5-6 et 11) (١٠٤)

Urk. iv, pp. 198-199 (١٠٥)

(١٠٦) أي خيرات الأرض وثرواتها.

(١٠٧) معنى هذا الاسم حرفياً: «الأرض التي ترتفع» وهو إشارة أخرى إلى الأرض التي تنبثق من الخواء السائل قبل خلق العالم، ويشير إلى إله موغل في القدم، من آلهة منف، يندمج في أغلب الأحوال في الإله پتاح.

(١٠٨) اسم بلدة على مقربة من أيبفوس حيث تقع مقبرة الإله. وإبان أحد الأعياد السنوية الكبيرة كان المصريون ينقلون إلى هذا المكان المركب الذي يضم تمثال أوزيريس.

(١٠٩) مدينة أنتينوى.

(١١٠) أحد أسماء هرموبوليس.

(١١١) الإله الذئب الذي كان يعبد في أسيوط وكان اسمه يعنى «هذا الذي يفتح الطرق». وفي المواكب الاحتفالية والأعياد كان يتقدم المواكب.

(١١٢) والمقصود العلمانيون الذين يعاونون الكهنة. كانوا يقدمون خدماتهم طوعاً، وعن طيب خاطر، فيقومون بالأعمال المادية في المعبد. واستناداً إلى الاسم الذي يحملونه، كانت خدماتهم لا تستغرق في الأصل أكثر من ساعة.

Urk. IV, 95-102 (١١٣)

Urk. IV, 53 (1. 15-17) (١١٤)

Glton, *Ahmes Nefertary*, p.19 (١١٥)

Howard Carter, in J.E.A., 1916, vol.3, pp. 147-154 راجع: (١١٦)

Urk. IV, 57 (1, 3-8) (١١٧)

Backman, in J.E.A., 1926, vol. 12, pp. 178-185 (١١٨)

(١١٩) مكبال يعادل حوالي ٤ أترات ونصف.

(١٢٠) الفار يعادل ٢٠ حقل.

(١٢١) وحدة وزن تعادل ٩٢ جراماً.

J. Gemy, in B.J.F.A.O. 1927, tome 27, pp. 159-203 (١٢٢)

H. H. Nelson, in J.N.E.S. 1949, vol. VIII, pp. 201-345 (١٢٣)

هوامش الفصل الرابع

(١) راجع فيما سبق. الفصل الثالث.

(٢) تُقارن الدولة بسفينة تتولى حشيشموت قيادتها. وتواجه السفينة الجنوب طبقاً للإتجاه التقليدى الذى كان يلتزم به المصريون ناحية منابع النيل.

(٣) Urk. iv, 59-60

(٤) Urk. iv, 180 (1. 8-12)

(٥) اسم حورس بن أوزيريس والذى خلف أباه على العرش ليحكم الأحياء حكماً شرعياً.

(٦) الاسم الذى أطلقه المصريون على القاعة التى نمر فيها فى الوقت الراهن تحت اسم بهو الأساطين، بسبب الرمزية النباتية التى تلازم الأساطين التى تحمل سقفها. المقصود هنا بهو الأساطين الذى كان تحوتمس الأول قد انتهى لتوّه من تشييده. راجع فيما سبق: الفصل الثالث: المعابد والآلهة.

(٧) حرفياً: «حورس الأقن» وهو أحد أشكال الشمس عند الفجر وأكثرها تألقاً فى هيون البشر الخارجين من الليل. ومن ثم يخرج موكب إحتفالى يجوب بتمثال الإله فى معبده.

(٨) حاملو التمثال ناحية مقدمته.

(٩) اسم يدل على محطة لاستراحة الملك فى المعبد.

(١٠) تأليه شمسي للأمير الشاب.

(١١) صورة لقصر العاهل الملكى على الطريقة المصرية، تطلوه الصورة العامية للإله حورس الملكى، وبات منذ عهد نمرور يفسم أول أسماء قائمة الألقاب الملكية.

(١٢) الإله تحوت الذى يتركب منه اسم تحوتمس.

(١٣) Urk. iv, 157- 162

(١٤) Urk. iv, 180-182

(١٥) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول. المحارب المنتصر.

- Urk. Iv, 193 (1.16) (١٦)
- (١٧) قرنا كبش لمون.
- Urk. Iv, 198-201 (١٨)
- Urk. Iv, 197-198 (١٩)
- Urk. Iv, 208-209 (٢٠)
- Urk. Iv, 1384 (1. 3-9) (٢٠ مكرر)
- Gardiner, Peet, Cerny: Sinai, p.150 (٢١)
- Urk. Iv, 270-273 (٢٢)
- Ratié, Hatshepsout, p.52 (٢٣)
- J. Yoyotte, in AEPHE, 1967-1968, vol. LXXXV, pp. 269-271 (٢٤)
- Ratié, hatshepsout, pp. 84-85
- C. L. Textes, pp. 27-30 (٢٥)
- Die Geburt des Königs. Wiesbaden, 1984 (٢٦)
- Dendara et le temple d'Hathor, Le Caire, 1969, pp. 105-110 (٢٧)
- (٢٨) هذه الفقرة بأكملها تشبه إلى حد كبير من حيث تعبيراتها الحكاية الخرافية التي تعود إلى الأسرة الخامسة.
- Urk. Iv, 217-218 (٢٩)
- Urk. Iv, 218-219 (٣٠)
- Urk. Iv, 219-222 (٣١)
- Urk. Iv, 222-224 (٣٢)
- (٣٣) إشارة إلى العلاقة الحميمة التي تربط الملكة بزوجها.
- Urk. Iv, 224-225 (٣٤)

- Urk. Iv, 227 (1. 4-14) (٢٥)
- Urk. Iv, 228-230 (٢٦)
- J. Leclant, in J.N.E.S. 1951, vol x, n°2, pp. 123-127 (٢٧)
- Urk. Iv, 230-231 (٢٨)
- (٢٩) إشارات إلى الأماكن المرتفعة الواردة في أسطورة أوزيريس وطفولة حورس.
- Urk. Iv, 235-240 (٤٠)
- Urk. Iv, 242 (1. 6-17) (٤١)
- Urk. Iv, 243-245 (٤٢)
- Urk. Iv, 245-249 (٤٣)
- (٤٤) راجع فيما سبق: الهامش ١٧ من الفصل الثالث.
- WB, I, 73 (8) (٤٥)
- (٤٦) شعائر ملكية مرتبطة بمراسم التتويج.
- Urk. Iv, 255-261 (٤٧) كل هذه الفقرة:
- (٤٨) اسم معبد التطهر في مصر العليا.
- Urk. Iv, 263 (1. 4-6) (٤٩)
- Urk. Iv, 264 (1. 2-4) (٥٠)
- Urk. Iv, 264 (1. 16-17) (٥١)
- Urk. Iv, 280 (1.5) (٥٢)
- Urk. Iv, 280 (1.17) (٥٣)
- Urk. Iv, 362 (1. 16-17) (٥٤)
- Urk. Iv, 391 (٥٥)

- Urk. Iv, 385 (1. 1-3) (٥٦)
- (٥٧) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الرضاة الإلهية.
- Urk. Iv, 378-380 (٥٨)
- (٥٩) راجع فيما بعد: الفصل الرابع: في التوبة.
- Urk. Iv, 213-214 (٦٠)
- Urk. Iv, 201-202 (٦١)
- Urk. Iv, 212-213 (٦٢)
- Urk. Iv, 355 (٦٣)
- Urk. Iv, 375-376 (٦٤)
- Urk. Iv, 464 (1. 7-11) (٦٥)
- Urk. Iv, 393-394 (٦٦)
- (٦٧) متحف باراكو Barracco.
- (٦٨) متحف المتروبوليتان للفنون n°31.3.91.
- Urk. Iv, 470 (1.5 et 9) (٦٩)
- Lefebvre: Grands prêtres, p.78 (٧٠)
- Hayes, in JEA, 1961, vol.47, p.20 (٧١)
- Urk. Iv, 472-473 (٧٢)
- Urk. Iv, 483-484 (٧٣)
- Urk. Iv, 473-476 (٧٤)
- Nina M.Davies, in J.E.A., 1961, vol. 47, p.19 (٧٥)
- Gaminos, Gebel Silsileh, pp. 42-52 (٧٦)

Urk. Iv, 398, 402-403, 411-412 (٧٧)

Schulman, in J.A.R.C.E., 1969-1970, vol. viii, pp. 33-34 et 47-48 (٧٨)

Helck, Zur Verwaltung, pp. 356-357

Urk. Iv, 414-415 (٧٩)

(٨٠) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: أمراء الكلب.

(٨١) مكان مقدس في طيبة مكرس للإلهة موت.

Urk. Iv, 408 (l. 12-13) (٨٢)

Urk. Iv, 404-405 (٨٣)

Urk. Iv, 409-410 (٨٤)

Urk. Iv, 410-412 (٨٥)

Urk. Iv, 398-397 (٨٦)

Camino: Gebel Silsileh, pp. 53-56 (٨٧)

Rathé: Hatshepsout, p.89 (٨٨)

(٨٩) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الفقرات الأخيرة من الملك المصطفى.

Urk. 490-491 (٩٠)

(٩١) راجع فيما بعد: الفصل الرابع: عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخالصة.

(٩٢) وحدة مكيال.

Urk. Iv, 428-429 (٩٣)

Urk. Iv, 513-514 (٩٤)

Urk. Iv, 494-495 (٩٥)

(٩٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: أمراء الكلب.

Urk. Iv, 517-518 (٩٧)

(٩٨) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الملك المصطفى.

Urk. Iv, 208 (1. 3-4) (٩٩)

(١٠٠) شخص رفيع الشأن.

Urk. Iv, 150-151 (١٠١)

(١٠٢) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الملك الأرضي.

In J.N.E.S., 1957, vol. xvi, pp. 99-104 (١٠٣)

Urk. Iv, 341-342 (١٠٤)

(١٠٥) الآلية هي أيضاً لآلية إلهية مستعارة.

Urk. Iv, 342-347 (١٠٦)

(١٠٧) تاج إلهي ويخص أنوبيس تحديداً وتاج ملكي أيضاً.

Urk. Iv, 349-352 (١٠٨)

Rathé: Hatshepsout, p.148 (١٠٩)

Urk. Iv, 319-320 (١١٠)

Urk. Iv, 323-324 (١١١)

Urk. Iv, 325-326 (١١٢)

Rathé, Hatshepsout, p.154 (١١٣)

Urk. Iv, 327-328 (١١٤)

Urk. Iv, 328-329 (١١٥)

Urk. Iv, 320 (1. 6-11) (١١٦)

(١١٧) من الأقوام النوبية.

(١١٨) يقع هذا البلد في السودان الحالي. وكانت الآبار تحتل فيه مكانة بارزة. راجع:

Empire des Ramsès, p. 97.

- Urk. iv, 332-333 (١١٩)
- Urk. iv, 334-337 (١٢٠)
- (١٢١) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين...
- Urk. iv, 339-340 (١٢٢)
- In Kemi, 1952, vol. xii, p.17 (١٢٣)
- Urk. iv, 364-367 (١٢٣ مكرر)
- Urk. iv, 358 (1. 8-9) (١٢٤)
- (١٢٥) إله جعفران. وهو شكل الشمس عند الفجر.
- Urk. iv, 361-362 (١٢٦)
- Urk. iv, 362 (1. 10-16) (١٢٧)
- Urk. iv, 367-368 (١٢٨)
- Urk. iv, 364 (1. 1-6) (١٢٩)
- (١٣٠) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.
- Urk. iv, 297-298 (١٣١)
- Lacau-Chevrier, Une Chapelle d'Hatchepsout à Karnak.- Le Caire, 1977 (١٣٢)
- P. Barguet, Archeologia, 1967, vol.15, p.61 (١٣٣)
- (١٣٤) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الولادة الإلهية والسياسة.
- Urk. iv, 387-388 (١٣٥)
- Urk. iv, 386-387 (١٣٦)
- Urk. iv, 383-384 (١٣٧)
- Urk. iv, 380-391 (١٣٨)

Urk. IV, 384-385 (١٢٩)

Camino, Ibrim, pp. 24-25 (١٤٠)

Rath, Hatshepsut, pp. 62-63 et 90-91: راجع (١٤١)

Hayes, Royal Sarcophagi, pp. 17-18, et fig.4 (١٤٢)

هوامش الفصل الخامس

(١) جميع الشعارات والرموز الملكية، قد تُبَيِّنَ فيها الحياة بفضل السحر، مؤكدةً على اتحادها اللصيق بالعامل للملكى.

Urk. Iv, 886-887 (٢)

اللوح الحجري الذى عثر عليه فى سراييط الخادم يشبه جزيرة سيناء ويمود إلى العام ٢٥.

Urk. Iv, 1234 (1. 8-12) (٣)

Urk. Iv, 648 (1. 6-7) (٤)

Urk. Iv, 808 (1. 14) (٥)

Urk. Iv, 808 (1. 15-17) (٦)

Urk. Iv, 647-648 (٧)

Urk. Iv, 649-652 (٨)

Urk. Iv, 655-656 (٩)

Urk. Iv, 657 (1. 2-4) (١٠)

Urk. Iv, 657 (1.12) (١١)

Urk. Iv, 657 (1. 6-9 et 15) (١٢)

Urk. Iv, 657-659 (١٣)

Urk. Iv, 660 (1. 7-9) (١٤)

Urk. Iv, 660-661 (١٥)

Urk. Iv, 184-185 (١٥ مكرر)

Urk. Iv, 809 (1. 1-11) (١٦)

Urk. Iv, 767 (1. 5-14) (١٧)

- Urk. Iv, 1235-1236 (١٨)
- Urk. Iv, 663-667 (١٩)
- Urk. Iv, 185-186 (٢٠)
- Urk. Iv, 663 (1.2) (٢١)
- Urk. Iv, 781-794 (٢٢)
- Urk. Iv, 796-806 (٢٣)
- Urk. Iv, 671 (1.9) (٢٤)
- Urk. Iv, 777 (1. 2-3) (٢٥)
- (٢٦) راجع فيما بعد الفصل الخامس: معالم مصر الأثرية.
- Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, I, pl. LXIV (1. 10-13) (٢٧)
- Ibid, pl. LXIV (1. 2-10) (٢٨)
- Urk. Iv, 687-688 (٢٩)
- (٣٠) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحتمس الثاني والحفاظ على الإمبراطورية.
- Urk. Iv, 690 (1. 2-6) (٣١)
- Urk. Iv, 693-694 (٣٢)
- Urk. Iv, 1232 (1. 2-4) (لوح جبل برقال) (٣٣)
- Urk. Iv, 1232 (1. 7-9) (٣٤)
- Urk. Iv, 1232 (1. 11-12) (٣٥)
- Urk. Iv, 697 (1. 3-5) (٣٦)
- Empire des Ramsès, p. 115 (٣٧)
- Urk. Iv, 1254-1246 (٣٨)

Urk. Iv, 697 (1. 12-16) (٢٩)

Urk. Iv, 1246 (1. 6-8) (٤٠)

Urk. Iv, 1232-1233 (لوح جبل بركل) (٤١)

(٤٢) راجع فيما بعد: الفصل السادس: ملك قدير قوى الشكيمة.

Urk. Iv, 1233-1234 (٤٣)

Urk. Iv, 893-894 (٤٤)

Urk. Iv, 710-711 (٤٥)

Urk. Iv, 894 (1. 5-15) (٤٥ مكرر)

Urk. Iv, 894-895 (٤٦)

(٤٧) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٤٨) ظهر بردية هاريس ٥٠٠ P. Harris 500.

نُسخ النص بالكتابة الهيروغليفية في:

Gardiner, Late Egyptian Stories, pp. 82-85.

يتخلل مطلع النص عدداً كبيراً من الفجوات الطويلة. وقد أُعيد صياغتها نقلاً عن:

G. Lefebvre: Contes et romans, pp. 127-130.

Urk. Iv, 1230 (1. 16-18) (٤٩)

Urk. Iv, 814-815 (٥٠)

(٥١) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: معالم النوبة الأثرية.

(٥٢) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الثاني والحفاظ على الإمبراطورية.

(٥٣) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى.

Empire des Ramsés, 157 (٥٤)

Urk. Iv, 669 (1. 1-3) (٥٥)

(٥٦) لقد شاع في النصوص المصرية القديمة تغيير ضمير الفاعل من الغائب إلى المتكلم والعكس، واستبدال صيغة المباشر بغير المباشر والعكس.

Empire des Ramsés, pp. 247-249 (٥٧)

Urk. iv, 740-741 (٥٨)

Urk. iv, 742-744 (٥٩)

(٦٠) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: مسلات العالم.

(٦١) لما كانت المسلات، من رموز النور الإلهي في اليوم الأول من أيام الخليقة، فقد تقام لها الشعائر. والمسلات الأربع المشار إليها، موجودة في الوقت الراهن: في إسطنبول وروما، وتحتفظ في سان - جان - دي - لاقران Saint-Jean-de-Latran وفي لندن ونيويورك.

Urk. iv, 748-752 (٦٢)

Urk. iv, 768-769 (٦٣)

Urk. iv, 769 (1. 7-16) (٦٤)

Urk. iv, 767 (1. 1-4) (٦٥)

Urk. iv, 770-771 (٦٦)

Urk. iv, 747 (1. 1-10) (٦٧)

(٦٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: معركة مجنق.

Urk. iv, 1230 (1.12) (٦٩)

Urk. iv, 1230 (1. 11-16) (٧٠)

Urk. iv, 1229 (1.20) (٧١)

(٧٢) عن جميع هذه المواضع راجع: Empire des Ramsés, p.367, sqq.

(٧٣) مفردات اللغة المستخدمة تميز بوضوح تام بين آسيا وإفريقيا في الفكر التاريخي لذلك الزمن: كانت النصوص آنذاك تفرق كما هو الحال في هذا السياق بين لفظ خاسوت - أي البلدان الأجنبية كإشارة إلى بلدان آسيا التي فتحت عنوةً ولفظ تلو(*) أي الأراضي كإشارة إلى

الممتلكات الإفريقية وهو اللفظ نفسه تا (**) أى الأرض، كإشارة إلى مصر. ودلالة ذلك أن التسمية الطبيعية لهذه المناطق لم تكن ثمرة إنتصار عسكري ولكن نتيجة الرعب الذى يثيره مجد فرعون فى نفوس سكان هذه المناطق.

(*) الواو علامة الجمع فى اللغة المصرية القديمة. (الترجم)

(**) فى صيغة المفرد. (الترجم)

Urk. Iv, 611-619 (٧٤)

Empire des Ramsès, p. 141 sqq (٧٥)

Urk. Iv, 603 (1. 4, 9 et 10) (٧٦)

Urk. Iv, 606 (1. 4-8) (٧٧)

(٧٨) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: فى مصر. بعيداً عن الكرنك.

(٧٩) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: معالم مصر الأثرية.

Urk. Iv, 607 (1. 3-9) (٨٠)

(٨١) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان القولة الآخرين.

Urk. Iv, 1039-1041 (٨٢) عن الألقاب والصفات المتعددة والمتنوعة راجع:

Urk. Iv, 1380-1383 (٨٣) راجع أيضاً:

Helck, Agyptologische Studien, pp. 107-117

Urk. Iv, 1030-1031 (٨٤)

Camino: Gebel Silsileh, pp. 57-63 (٨٥)

(٨٦) راجع فيما سبق: الهامش ٤٨ من الفصل الرابع.

Urk. Iv, 1071 (1. 6-16) (٨٧)

Garies - Davies: Tomb of Rekhmirê (٨٨)

Urk. Iv, 1086-1093 (٨٩)

(٩٠) مبيدو الأراضي الملكية.

Urk. Iv, 1103-1117 (٩١)

Urk. Iv, 1139-1140 (٩٢)

Davies: Rekihmiré, pl. LXXII.

Urk. Iv, 1161 (1. 3-5) (٩٣)

Davies: Rekihmiré, pl. XXXIX.

Davies: Rekihmiré, pl. XXIX-XXXV (٩٤)

Urk. Iv, 1094 (1. 6-11) (٩٥)

(٩٦) توجد الرسوم في الحجرة الأولى من المقبرة، في القسم الجنوبي من الجدار الغربي.

Davies: Rekihmiré, pl. XVII-XX

Urk. Iv, 1102 (1. 11-17) (٩٧)

Davies: Rekihmiré, pl. XXI-XXIII.

Davies: Rekihmiré, pp. 48-59 (٩٨)

Urk. Iv, 1165 (1. 10-17) (٩٩)

Urk. Iv, 1166-1167 (١٠٠)

(١٠١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: هيد الأقيال.

ZIVIE, IN R.E, 1979, VOL. 31, p. 149 (١٠٢)

Urk. Iv, 898-904 (١٠٣)

Urk. Iv, 920-921 (١٠٤)

Urk. Iv, 918 (1. 3-12) (١٠٥)

(١٠٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: مثيرة أسطورية.

Urk. Iv, 1004-1005 (١٠٧)

Urk. Iv, 1006-1007 (١٠٨)

Urk. Iv, 1015 à 1017 (١٠٩)

Urk. Iv, 1013 (1. 10-14) (١١٠)

(١١١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأينيولوجيا الإمبراطورية الأولى.

Davies: Tomb of Amenmose, pl. xxxvi (١١٢)

Empire des Ramsès, p. 377 (١١٢)

- Davies: Tomb of Amenmose, pl. XLVI,B (١١٤)

Urk. Iv, 995 (1. 10-15) (١١٥)

Urk. Iv, 936 (1. 5-13) (١١٦)

Urk. Iv, 926-928 (١١٧)

Davies: Tomb of Menkheperreseneb p. IV à VII (١١٨)

Urk. Iv, 929 (1. 8-14) (١١٩)

Davies: Tomb of Menkheperreseneb pl.XI à XIII (١٢٠)

Urk. Iv, 932-933 (١٢١)

Urk. Iv, 523 (1. 5-6) (١٢٢)

Urk. Iv, 1210 (1. 12-17) (١٢٣)

Urk. Iv, 1216 (1. 5-6) (١٢٤)

(١٢٥) راجع فيما سبق: الهامش ٧ من الفصل الثالث.

Urk. Iv, 1192-1194 (١٢٦)

Urk. Iv, 1202-1203 (١٢٧)

Kees, in Z.A.S., 1960, vol. 85, pp. 45-46

(١٢٨)

Dewachter, in R.E. 1964, t.33, pp.84-86

Urk. Iv, 980 (1. 6-7 et 13-14) (١٢٩)

Urk. Iv, 1044-1048 (١٣٠)

Urk. Iv, 1063-1064 (١٣١)

Urk. Iv, 966-969 (١٣٢)

Urk. Iv, 974-975 (١٣٣)

W. C. Hayes, in J.E.A., 1961, vol. 47, p. 6-16 (١٣٤)

Urk. Iv, 940-941 (١٣٥)

Urk. Iv, 958 à 962 (١٣٦)

Urk. Iv, 955 (1. 14-16) (١٣٧)

Urk. Iv, 942-944 (١٣٨)

Dewachter, in R.E. 1976, tome 28, pp. 151-153 (١٣٩)

Urk. Iv, 989 (1. 9-10) (١٤٠)

Urk. Iv, 984 (1. 8-11) (١٤١)

عن تحديد موقع هذا النص في بلدة الئيسية بفضل زيتة Sethe، راجع:

Caminos, Ibrim, p. 43. (والمراجع)

Urk. Iv, 986 (1. 5-10) (١٤٢)

Caminos, Ibrim, pp. 38-39 (١٤٣)

Neville: Deir el Bahari, pl. xl A, p.3 (١٤٤)

(١٤٥) صورة مصغرة تشبه المومياء، وتعود إليها الحياة على نمو سحري، لتقوم بالأعمال التي تكلف بها في حقول العالم الآخر، بدلاً من المتوفى.

L. Habachi, Sixteen Studies, p.87, note 6 (١٤٦)

* T. Save- Söderbergh, in Kush, 1960, vol.8, pp. 25-44 (١٤٧)

(١٤٨) الدراسة الأم هي دراسة:

P. Bargout: Temple d'Amon-Ré

(١٤٩) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجنق...

Urk. Iv, 166-174 (١٥٠)

(١٥١) راجع فيما سبق الفصل الثاني: الكرنك.

Urk. Iv, 854 (1. 6-13) (١٥٢)

Urk. Iv, 836 (1. 2-3) (١٥٣)

Temple d'Amon-Ré, pp. 157-217 (١٥٤)

Empire des Ramsès, p. 25 (١٥٥)

Urk. Iv, 566-567 (١٥٦)

C.Lalouette, in B.I.F.A.O., 1979, tome 79, pp. 333, 353 (١٥٧)

Urk. Iv, 862-864 (١٥٨)

Urk. Iv, 765-767 (١٥٩)

Urk. Iv, 832 (1. 12-14) (١٦٠)

(١٦١) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

Urk. Iv, 819 (1. 1-7) (١٦٢)

Urk. Iv, 807-809 (١٦٣)

(١٦٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: من أجل تعريف الإمبراطورية.

Urk. Iv, 590-591 (١٦٥)

Urk. Iv, 585 (1. 6-7) (١٦٦) الواجهة الشمالية

Urk. Iv, 895-896 (١٦٧)

(١٦٨) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: ثلاث سيدات في البلاط الملكي.

هوامش الفصل السادس

- (١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين.
- (٢) D.B. Redford, in J.E.A., 1965, vol. 51, pp. 107-122
- (٣) A. H. Gardiner, in J.E.A., 1945, vol. 31, p.27
- (٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون.
- (٥) Davies: Tomb of Amenmose, pl. LXX
- (٦) Urk. Iv, 1160 (1. 6-14)
- (٧) Breasted: AR, p. 318, § 807
- (٨) Urk. Iv, 1245-1246
- (٩) Urk. Iv, 1248-1249
- B. Van de Walle, in C.E., 1938, vol. XXVI, p.243.
- (١٠) Urk. Iv, 1364 (1.10)
- (١١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: كبار الكهنة.
- (١٢) Urk. Iv, 976 (1.13) et 977 (1.2)
- (١٣) In A.S.A.E., 1937, vol. 37, pp.129-134
- C.E., Juillet 1938, vol. XXVI, p. 244
- (١٤) إله وإلهة من ألهة العرب الآسيوية.
- (١٥) Urk. Iv, 1279-1283
- (١٦) راجع فيما بعد: الفصل السابع: تموتس الرابع: حلم الظهيرة.
- (١٧) راجع فيما بعد: الفصل السابع: تموتس الرابع: حلم الظهيرة.
- (١٨) Urk. Iv, 1289-1293

C. Desroches-Noblecourt, in R.E. 1950, vol. 7, pp. 37-41 (١٩)

In A.S.A.E. 1943, vol. XLII, pp. 1-23 (٢٠)

(٢١) مدينة في شمال فلسطين الحالية.

(٢٢) راجع فيما بعد: الفصل السابع: الدبلوماسية الدولية.

Urk. IV, 1301-1305 (٢٣) لوح منقح الحجري:

Urk. IV, 1310-1314 (٢٤) لوح الكرنك الحجري:

Urk. IV, 1297-1298 (٢٥) (مكرر)

(٢٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجنؤ.

Urk. IV, 1305-1309 (٢٧) لوح منقح الحجري:

Gardiner, in JEA, 1946, vol. XXI, p.27 (٢٨)

Urk. IV, 1309 (1. 13-20) (٢٩)

Urk. IV, 1326 (1.1 et 4) (٣٠)

Urk. IV, 1333-1334 (٣١)

Urk. IV, 1358 (1. 11-18) (٣٢)

Urk. IV, 1363 (1. 11-14) (٣٣)

Urk. IV, 1362-1363 (٣٤)

Empire des Ramsès, p. 144 (٣٥)

(٣٦) راجع فيما سبق الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجنؤ.

Urk. IV, 1537-1540 (٣٧)

Urk. IV, 1293-1294 (٣٨)

Urk. IV, 1333 (1.3) (٣٩)

- Urk. Iv, 1332 (1. 19) (٢٨)
- Urk. Iv, 1331 (1. 11-12) (٢٩)
- Urk. Iv, 1329-1330 (٤٠)
- P. Barguet, Temple d'Amon-Rê, p. 105 et note 3 (٤١)
- (٤٢) من شعائر تأسيس العيد.
- Urk. Iv, 1295-1296 (٤٣)
- Urk. Iv, 1299 (1. 3-5) (٤٤)
- Urk. Iv, 1439 (1. 4-9) (٤٥)
- Urk. Iv, 1345-1246 (٤٦)
- لا شك أن هذا الرقم الإجمالي، كان يأخذ في العسبان، وجود مرافقين آخرين، لا تذكرهم القائمة الموضحة أعلاه.
- Urk. Iv, 1343-1344 (٤٧)
- Urk. Iv, 1425-1426 (٤٨)
- Urk. Iv, 1397, 1.7 (٤٩)
- Wild, in B.I.F.A.O., 1956, vol. 56, pp. 233-237 (٥٠)
- Dewachter, in R.E., 1960, vol. 32, pp.68-73 (٥١)
- Davies: Kenamun, pl. LIV, C (٥٢)
- Ibid., pl. XLIX, (1.5) (٥٣)
- Ibid., pl. IX (٥٤)
- Urk. Iv, 1390-1391 (٥٥)
- (٥٦) النجوم الخُسنان (*) circumpolaires
- (*) النجوم التي لا تقرب (المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة - ١٩٦٠).

وهي النجوم التي يمكن مشاهدتها كل ليلة من ليالى السنة، من أى خط عرض، وتظهر كأنها تحيط بالقطب السماوى. (معجم المصطلحات العلمية والتقنية. أكاديميا. بيروت. ١٩٩٣). (المترجم)

Davies: Kenamun, pl. XLV, B (٥٧)

الجانب الأيسر col. 2-16

Ibid., pl. LVI, B (٥٨)

الجانب الأيسر col. 1-6

Urk. Iv, 1398 (1. 1-8) (٥٩)

Davies: Kenamun, pl. XXXIX.

(٦٠) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: أمن إم حب، صديق الصبا الملك.

Urk. Iv, 1458, (1. 11-12) (٦١)

Faulkner, in J.E.A., 1934, vol. 20, p.154 (٦٢)

Urk. Iv, 1480 (1. 6-16) (٦٣)

Urk. Iv, 1491 (1. 1-6) (٦٤)

Urk. Iv, 1450 (1. 18-20) (٦٥)

(٦٦) راجع فيما بعد: الفصل السابع: السياسة والدين.

Urk. Iv, 1509-1510 (٦٧)

Lefebvre: Grands prêtres, pp. 92-93 (٦٨)

Camino: Gebel Silsileh, pp. 79-85 (٦٩)

Urk. Iv, 1408-1411 (٧٠)

Gardiner, in Z.A.S., 1910, vol. 47, pp. 87-89.

(٧١) الخط المبتسر للكتابة الهيروغليفية.

هوامش الفصل السابع

- (١) Urk. Iv, 1542-1544
- (٢) Dittenberger, OGIS, n°666
- (٣) Urk. Iv, 1554 (1. 17-18)
- (٤) Urk. Iv, 1617 (1. 16-18)
- (٥) Davis: Tomb of Thutmosis IV, pl. VI
- (٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: عبور النوات.
- (٧) Gardiner, Pest, Cerny: Sinai, pp. 81-82 et pl. dx-xx
- (٨) Urk. Iv, 1545-1548
- (٩) Urk. Iv, 1560 (1. 15-16)
- الأسماء الإفريقية: *ibid* (1. 18-19)
- (١٠) Urk. Iv, 1556 (1. 10-15)
- (١١) Urk. Iv, 1551 (1. 14-18)
- (١٢) Gemy, in J.E.A., 1964, vol. 50, pp. 37-38
- (١٣) Vandier, in Journal des Savants, 1967, p.66
- (١٤) Urk. Iv, 1771
- (١٥) Urk. Iv, 1718 (1. 10-11)
- (١٦) عن هذه المصطلحات المحسوسة راجع: Empire des Ramsès, p. 399.
- (١٧) Urk. Iv, 1662-1663
- (١٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحتمس الثاني...

الفصل السابع: تموتس الرابع.

Breasted: AR, vol. 2 § 844 (١٩)

Urk. Iv, 1659-1661 (٢٠)

Urk. Iv, 1731 (1. 9-11) (٢١)

(٢٢) راجع فيما بعد: الفصل السابع: رجال البلاط.

(٢٣) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.

(٢٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٢٥) (الواجهة الشرقية من الجناح الجنوبي) Urk. Iv, 1722-1723

Urk. Iv, 1656-1657 (٢٦)

(٢٧) راجع فيما سبق: الفصل السادس: الشكر والحمد وأول حلف سياسي.

(٢٨) تشييد معبد.

EA 4-n°3. Traduction de Gilbert Lafforgue (٢٩)

Pirenne: Civilisation, II, p.238 (٣٠)

Pirenne: ibid, II, p.238 (٣١)

EA 33-n°1. Traduction de Gilbert Lafforgue (٣٢)

(٣٣) راجع فيما بعد: الفصل السابع: الملكات والزوجات.

Pirenne: ibid, p. 246 (٣٤)

ibid., p. 245 (٣٥)

Urk. Iv, 1869 (1, 1-7) (٣٦)

Urk. Iv, 1932 (1, 8-19) (٣٧)

Habachi: Tell Basta, pp. 104-107, pfl. 28-29.

Hayes, in JNES, 1951, vol.x, pp. 82-85 (٣٨)

Urk. iv, 1891 (1. 4-9) (٣٩)

Urk. iv, 1860 (1.1) (٤٠)

Urk. iv, 1954 (1. 12-13) (٤١)

Vandier, in Monuments Piot, 1966. tome 54, pp. 7-10 (٤٢)

Urk. iv, 1741 (1. 8-15) (٤٣)

Davis: Tomb of Iouya, pp. xv-xvi (٤٤)

Gauthier: Livre des rois, p. 335 (مكرر ٤٤)

Urk. iv, 1770 (1. 6-9) (٤٥)

Urk. iv, 1770 (1. 14) (٤٦)

Empire des Ramsès, p. 168 sqq (٤٧)

Urk. iv, 1866 (1. 9-10) (٤٨)

Urk. iv, 1737 (1. 8-16) (٤٩)

in Kemi, 1959, vol. 15, pp. 23-33 (٥٠)

(٥٠ مكرر) راجع فيما بعد:

الفصل السابع: في النوبة وفي السودان.

(٥١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الأحلاف والإتمادات والمعاهدات.

Varille, in A.S.A.E., 1940, vol. XL, pp.651-657 (٥٢)

(٥٣) راجع فيما بعد: الفصل التاسع: ومن الملوك وضعفهم.

Van de Walle, in C.E., 1968, vol. 85, pp. 36-54 (٥٤)

Heick, in C.E., 1969, vol. 87, pp. 22-25

Urk. iv, 1776, (1. 8-16) (٥٥)

Varille, in B.I.F.A.O., 1930, vol. 30, pp. 497-507 (٥٦)

Urk. Iv, 1913, 1.20 (٥٧)

(٥٨) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: كبار الكهنة.

Urk. Iv, 1635 (1. 16 et 18) (٥٩)

C. Vandersleyen, in C.E. 1968, n°86, pp. 234-258 (٦٠)

Josephos, Contra Apion, I, 26 (٦١)

(٦٢) قد يعنى ذلك، ان الحجر الرملى جاء من الجبل الأحمر، قرب هليوبوليس، المكان المقدس للإله أتم.

Urk. Iv, 1820-1823 (٦٣)

(٦٤) تم دراسة المعبد والتنقيب فيه بمعرفة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO. راجع: Robichon et Varille, Le temple du scribe royal Amenhotep, fils de Hapou. Le Caire, 1936.

Varille: Inscriptions d'Amenhotep, p.15 (٦٥)
(Statue n°103 du British Museum).

(٦٦) الإلتباس متعمد بلاشك. فهل المقصود الحورس الملكى أو حورس أتريبس؟

(٦٧) Varille: Inscriptions d'Amenhotep, p.35 (1. 1-8). متحف القاهرة.

(٦٨) (متحف القاهرة) Ibid. p.31

(٦٩) (متحف القاهرة) Ibid. p. 24

Urk. Iv, 1827-1828 (٧٠)

كان رقم "١١٠"، هو السن المثالى فى نظر المصريين.

Urk. Iv, 1811-1812 (٧١)

(على هريم فى متحف لينن)

(٧٢) منطقة منف. قرب سرايهم سقارة.

- Urk. Iv, 1794-1795 (٧٣)
- (٧٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: أعياد النصر.
- Urk. Iv, 1798 (1. 2-10) (٧٥)
- Urk. Iv, 2024, 1.2 (٧٦)
- (٧٧) إله القمح.
- (٧٨) بلدة، قرب أبيبوس، حيث توجد مقبرة لوزيريس.
- Bagnani, in *Aegyptus*, 1934, vol. 14, pp. 33-47 et Urk. Iv, 1807-1808 (٧٩)
- Urk. Iv, 1901 (1. 1-3) (٨٠)
- Säve - Söderberg: *Private tombs*, 1, pl. XLII. (٨١)
- Empire des Ramsès*, p. 164 (٨٢)
- Urk. Iv, 1874-1875 (٨٣)
- Urk. Iv, 1910 - 1912 (٨٤)
- Kate Bosse - Griffiths. in *JEA*, 1955, vol. 41, pp. 56-63
- (٨٥) راجع فيما سبق: الصفحات الأخيرة من الفصل الثالث.
- Davies, *Private tombs*, IV, cf. VI (٨٦)
- Urk. Iv, 1639 (1. 7-11) (٨٧)
- Drioton, in *R.E.*, 1933, vol.1, pp. 1-14 (٨٨)
- Varille, in *A.S.A.E.*, 1940, vol. XL, pp. 601-606.
- Urk. Iv, 1845-1848 (٨٩)
- Urk. Iv, 1618-1619 (٩٠)
- Davies: *Two officials*, pl. XXXIV (٩١)
- Yoyotte: *Les trésors des Pharaons*, Genève, 1968; p.81 (٩٢)

- Davies: Two officials, pl. XXI (٩٢)
- Urk. Iv, 1595-1596 (٩٤)
- Urk. Iv, 1589-1590 (٩٥)
- Urk. Iv, 1591 (1. 10-20) (٩٦)
- (٩٧) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.
- Posener, Sauneron, Yoyotte: Dictionnaire, p.173 (٩٨)
- Abdel Mohsen Bakir: Slavery in Pharaonic Egypt, Le Caire, 1942 (٩٩)
- Urk. Iv, 1739-1740 (١٠٠)
- Urk. Iv, 1740 (1. 12-13) (١٠١)
- Barguet: Temple d'Amon-Ré, p. 96 (١٠٢)
- J. Yoyotte, in C.E., 1953, n°56, pp. 28-38 (١٠٣)
- J. Leclant, in R.E., 1951, tome 8, pl. IV (١٠٤)
- (١٠٥) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: مسائل العالم.
- Urk. Iv, 1552 (1. 3-9) (١٠٦)
- (١٠٧) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: المعابد والآلهة.
- Urk. Iv, 1654 (1. 3-15) (١٠٨)
- Urk. Iv, 1722-1724; 1726 (1. 7-13); 1728 (1. 8-16) (١٠٩)
- (١١٠) هذا الوصف والوصف التالي، قائم على أعمال:
- A. Varille: Kamak I. Le Caire, 1943, pp. 1-8.
- (١١١) راجع فيما سبق: الصفحات الأخيرة من الفصل الثاني.
- Varille: Kamak I, pII. XXII-XXIX (١١٢)
- J. -J. Clère, in R.E., 1963, vol. 15, pp. 121-123 (١١٣)

Urk. Iv, 1754, (1. 2-8) (١١٤)

Urk. Iv, 1650-1651 (١١٥)

تم الكشف عن هذا اللوح الحجرى فى معبد الملك مر إن پتاح.

Empire des Ramsès, pp. 238 sqq (١١٦)

(١١٧) راجع فيما سبق: الفصل السابع: فى النوبة وفى السودان.

Barguet: Empire des conquérants, pp 24-25 (١١٨)

Urk. IV, 1709 (1. 10-13) (١١٩)

(١٢٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: بلاط طيبة.

B. J. Kemp. in JEA, 1977, vol. 63, pp. 71-82 (١٢١)

Urk. Iv, 1672 (1. 7-19) (١٢٢)

Barguet: Empire des conquérants (١٢٣)

ibid (١٢٤)

(١٢٥) راجع فيما سبق: المقدمة: أمون وتنسيس الكرنك.

(١٢٦) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الملكات والزوجات.

Urk. Iv, 1655 (1. 1-13) (١٢٧)

(١٢٨) راجع فيما بعد: الفصل التاسع: ثوت حنغ أمون وعودة الآلهة.

(أعمال الترميم التى قام بها ثوت حنغ أمون).

Urk. Iv, 1745 (1. 14-15) (١٢٩)

C. Maystre, in B.S.F.E., 1969, n°53-54, p.5 sqq (١٣٠)

T. P. § 782 D (p. 63) (١٣١)

Urk. Iv, 82 (1. 13) (١٣٢)

(١٣٣) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين...

الفصل السابع: رجال البلاط

الفصل السابع: المعماريون والنحاتون...

(١٣٤) راجع فيما سبق: الفصل السادس: ملك قدير، قوى الشكيمة.

(١٣٥) الوجدانية في ذهن المؤمن، لا تستبعد وجود عقائد أخرى.

(١٣٦) اسم معبد التطهير في مصر السفلى.

(١٣٧) راجع فيما بعد: الفصل الثامن: العمارة.

(١٣٨) تجانس صوتي بين كلمتي رعتي (أى: البشر) ورعت (أى: الدموع).

(١٣٩) ثلاثة أشكال للإله الأرحم المتفرد.

Grébaut: Hymne à Ammon - Ra, Paris, 1874 (١٤٠)

(١٤١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: تهوتمس الرابع وما بعده.

Urk. iv, 1612 (1.5) (١٤٢)

Shorter, in J.E.A. 1931, vol. 17, pp. 2-3 (١٤٣)

(١٤٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: وأخذ الكرنك يتوسع.

Urk. iv, 1935 (1. 17-18) (١٤٥)

Urk. iv, 1780 (1. 17) (١٤٦)

Urk. iv, 1943-1946 (١٤٧)

P. Garelli: Proche - Orient, pp. 163-164 (١٤٨)

Knudtson: El Amarna Tafeln, pp. 497-501 (١٤٩)

ibid., pp. 347-349 (١٥٠)

(١٥١) سبق لأمنهوتب الثالث، أن تزوج أخت توشراتا. راجع فيما سبق: الفصل السابع:

الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

ويضفي هذا الرباط العائلي قيمة مزبوجة على لفظ «أخي»، وهي تسمية تقليدية فيما بين الملوك.

Knudtzon: El Amarna Tafeln, pp. 153-155 (١٥٢)

(١٥٣) نجد ملخصاً لجميع الفرضيات في:

J. Vandier, in Journal des savants, 1967, pp. 65-91.

هوامش الفصل الثامن

- (١) Urk. Iv, 1783 (1. 11-15)
- (٢) Urk. Iv, 1963, 1.8
- (٣) Ramadan Saad, in Kemi, 1970, vol. xx, pp. 187-193
- (٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأخيرة.
- (٥) Barguet: Empire des conquérants, p.21
- (٦) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأولى.
- (٧) داخل خرطوش: أسماء ملكية جديدة.
- (٨) هذه الفقرة مهشمة تهشيماً بالغاً. وقد أعاد صياغتها:
- Davies, Amarna, vi, p.29.
- (٩) Davies, Amarna, vi, pl.XXVII
- Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 93-96.
- (١٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأولى.
- (١١) C. L. Textes, pp. 236-250
- (١١ مكرر) Ibid., p. 250-260
- (١٢) راجع فيما سبق: الهامش ١٢٢ من الفصل السابع.
- (١٣) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون: الفقرات الأخيرة.
- (١٤) Empire des Ramsès, pp. 141-143
- (١٥) Davies: Amarna, vi, pl. xdi
- Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 84-85
- (١٦) الشمس هي «أم» البشر، (هكذا).

(مع مراعاة مع ذلك أن الشمس اسم مذكر في اللغة المصرية القديمة. المترجم)

Urk. IV, 1971 et 1972 (١٧)

Urk. IV, 1982-1983 (١٨)

In R.E., 1976, vol. 28, pp. 148-151 (١٩)

(٢٠) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: المقاطع الأخيرة من «الورع وعدم التسامح».

راجع فيما بعد: الفصل الثامن: المقاطع الأخيرة من «خدم آتون».

(٢١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: «معالم مصر الأثرية».

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 13-14 (٢٢)

Barguet: Empire des conquérants, p. 64 (٢٣)

Ibid (٢٤)

(٢٥) راجع فيما بعد: الفصل الثامن: العودة إلى طيبة بعد الوفاة.

H. Brunner, in Z.A.S., 1938, vol. LXXIV, pp. 104-108 (٢٦)

Davies: Amarna, III, pl. IV (٢٧)

Ibid., pl. VI (٢٨)

Davies: Amarna, I, pl. VI (٢٩)

Urk. IV, 2003-2004 (٣٠)

Davies: Amarna, I, pl. XV (٣١)

Urk. IV, 2004-2005 (٣٢)

Sandman: Texts from the Time of Akhenaten, p.24 (1. 1-7) (٣٣)

(٣٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: رجال البلاط.

Urk. IV, 1782 (1. 2-4 et 11-12) (٣٥)

(٣٦) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: ٣. تل العمارة.

Davies: Amarna, V, p.9 (٣٧)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, p. 61 (1. 8-16) (٣٨)

Davies: Amarna, VI, pl. IV (٣٩)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 79-80 (٤٠)

Davies: Amarna, IV, pl.XX (٤١)

Ibid, III, pl. XIII sqq (٤٢)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 36-37 (٤٣)

EA 16D- Traduction Gilbert Lafforgue (٤٤)

(٤٥) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الألف والإتحدات والمعاهدات.

EA 10, n°3 - Traduction Gilbert Lafforgue (٤٦)

EA 10, n°4 - Traduction Gilbert Lafforgue (٤٧)

(٤٨) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الفقرات الأخيرة من: الألف والإتحدات والمعاهدات.

EA 7 - Traduction Gilbert Lafforgue (٤٩)

(٥٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الفقرات الأخيرة من: الألف والإتحدات والمعاهدات. والفقرات الأولى من: أولى عناصر القانون الدولي.

(٥١) الأميرة الميتانية التي طلب أمنهوتي الثالث الزواج منها. راجع: الفصل السابع: التهديدات تحاصر الإمبراطورية. ولكن تزوجها أمنهوتي الرابع. وذهب البعض إلى الخط بينها وبين نفرتيتي.

(٥٢) الموقد الميتاني والموقد المصري وكانا متخصصين في العلاقات بين البلدين. راجع فيما سبق: الفصل السابع: السلك الدبلوماسي.

Knudtson: El Amarna Tafeln, pp. 223-227 (٥٢ مكرر)

Garelli, Proche - Orient, p. 165 (٥٢)

Pirenne: Civilisation, II, pp. 321-322 (٥٤)

(٥٥) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: السياسة في حالة ضعف خطير.

Davies (Théodore M.): The Tomb of Queen Tiye, Londres 1910 (٥٦)

The Royal Mummies, Le Caire, 1912, p. 51 sqq (٥٧)

in A.S.A.E. 1931, vol. 31, pp. 115-122 (٥٨)

in JEA. 1957, vol. 43, pp. 10-26 (٥٩)

هوامش الفصل التاسع

- (١) W. Helck, in *Lexikon*, Bd. I, col. 838
- (٢) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: رفاق تل العمارنة.
- (٣) راجع:
- J. Vandier, in *Journal des Savants*, art. Cit. pp. 65-91
- (٤) Urk. Iv, 2038-2040
- (٥) الملوك القدامى المتوفون أو المزلّون (?).
- (٦) Urk. Iv, 2025-2032
- (٧) Urk. Iv, 2048 (1. 5-6)
- (٨) Urk. Iv, 2046-2047
- (٩) Urk. Iv, 2049-2050
- (١٠) Davies: *Tomb of Huy*, pl. XXVII-XXVIII
- (١١) Urk. Iv, 2071 (1.4)
- (١٢) تاج خاص بالإله أوزيريس.
- (١٣) مدخل جبانة منف.
- (١٤) Davies: *Tomb of Huy*, pl. XXI
- (١٥) Carter et Mace: *The Tomb of Tut-ankh-amen*, 3 vol
- C. Desroches-Noblecourt: *Toutankhamon*
- (١٦) C. L. Textes, p.152
- (١٧) Desroches-Noblecourt: *Toutankhamon*, pl. IV
- (١٨) Carter et Mace: *The Tomb of Tutankhamen*, pl. XLVI

(١٩) راجع فيما سبق: الفصل السابع: التهديدات تحاصر الإمبراطورية.

Keith C. Seele, in JNES 1955, vol. XIV, pp. 166-180 (٢٠)

Urk. IV, 2109 (1. 9-11) (٢١)

هوامش الفصل العاشر

- (١) Lexikon, Bd. IV, col. 252
- (٢) Barguet, Leclant: Kamak-Nord, IV, p. 55-56
- (٣) حرفياً: «ثور أمه» - أحد أشكال الشمس.
- (٤) Urk. IV, 2113-2119
C. L. Textes, pp. 44-47
- (٥) Urk. IV, 2142-2161
C. L. Textes, pp. 81-84
- (٦) Urk. IV, 2094-2098
- (٧) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.
- (٨) Empire des Ramsès, p. 141, sqq
- (٩) راجع فيما سبق: الفصل التاسع: ظلال التاريخ.
- (١٠) Urk. IV, 2085 (1. 17-21)
- (١١) Urk. IV, 2126-2128
- (١٢) Urk. IV, 2128 (1. 3-8)
- (١٣) عن هذا الموضوع في عصر الرعامسة راجع:
Empire des Ramsès, p. 395.
- (١٤) Urk. IV, 2138-2139
- (١٥) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: العسكريون.

لا تعتبر قائمة المراجع التالية شاملة ومستفيضة.

تضم القائمة الأولى المراجع التي ذكرت أكثر من مرة بين دفتي هذا الكتاب. أما المراجع التي لم تذكر سوى مرة واحدة فقد وردت في هوامش الكتاب.

تلى ذلك قائمة بأهم النوريات.

أ. المراجع:

تحل هذه العبارة محل العبارة الفرنسية:

A. Ouvrages cités en abrégé

ب. النوريات واختصارها

تحل هذه العبارة محل العبارة الفرنسية

B. Revues citées

(أ) المراجع

BARGUET : *Empire des conquérants.*

Le monde égyptien. Les Pharaons. Vol. II. L'Empire des conquérants. Paris, Gallimard, 1979. (L'architecture, par Paul Barguet, pp. 9-65.)

BARGUET : *Temple d'Amon-Ré,* /

BARGUET (Paul) : *Le temple d'Amon-Ré à Karnak. Essai d'exégèse.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1962 ; XIX, 368 pp., XLII pl. (Recherches d'archéologie, de philologie et d'histoire, tome XXI.)

BARGUET-LECLAN-ROBICHON : *Karnak-Nord.*

Karnak-Nord. IV. (1949-1951). Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1954, fasc. 1 : 196 pp., fasc. 2 : CXLVIII pl. (Fouilles de l'IFAO, tome XXV.)

BREASTED : *Ancient Records.*

BREASTED (J. H.) : *Ancient Records of Egypt.* Chicago, 1906-1907, 5 vol. Vol. 2 : *The Eighteenth Dynasty.*

The Cambridge Ancient History. Vol. II. Part I : History of the Middle East and the Aegean Region (1800-1380 B.C.). Cambridge, Cambridge University Press, 2^e éd. 1978. XXI + 868 pp.

CAMINOS : *Gebel Silsileh.*

CAMINOS (Ricardo A.) : *Gebel es-Silsilah. 1. The Shrines.* London, Egypt Exploration Society. 1963 : 105 pp., 75 pl.

CAMINOS : *Ibrim.*

CAMINOS (Ricardo A.) : *The Shrines and rock-inscriptions of Ibrim.* London, Egypt Exploration Society. 1968 : 113 pp., 42 pl., 4 figg.

CARTER (H.) ET MACE :

The Tomb of Tut-ankh-Amen. London, 1923-1933, 3 vol.

C.L. TEXTES :

LALOUETTE (Claire) : *Textes sacrés et textes profanes de l'ancienne Égypte.* Paris, Gallimard. 1984 : 345 pp. (Collection UNESCO d'œuvres représentatives.)

DAVIES : *Amarna.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Rock-Tombs of El Amarna.* Londres, Egypt Exploration Fund. 1903-1908 : 6 vol.

DAVIES : *Kenamun.*

DAVIES (N. de Garis) : *Tomb of Ken-Amûn at Thebes.* New-York, Metropolitan Museum of Art. 1930, 2 vol.

DAVIES : *Private tombs.*

DAVIES (N. de Garis) : *Scenes from some Theban tombs.* Oxford, University Press, 1963 : 22 pp., XXIV pl.

DAVIES : *Rekhmirê.*

DAVIES (N. de Garis) : *Tomb of Rekh-mi-rê at Thebes.* New-York, Metropolitan Museum of Art. 1943, 2 vol.

DAVIES : *Tomb of Amenmose.*

Voir DAVIES : *Tomb of Menkheperreseneb.*

DAVIES : *Tomb of Huy.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tomb of Huy, Viceroy of Nubia in the Reign of Tutankhamun (n° 40).* Londres, Egypt Exploration Fund, 1926.

DAVIES : *Tomb of Menkheperreseneb.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tomb of Menkheperreseneb, Amenmose and another (n° 86, 112, 42 and 226).* Londres, Egypt Exploration Fund, 1932.

DAVIES : *Two Officials.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tombs of two Officials of Thutmosis the Fourth (n° 75 and 90).* London, Egypt Exploration Fund, 1923.

DAVIS : *Tomb of Iouiya.*

DAVIS (Théodore M.) : *The Tomb of Iouya and Touiyou.* London, A. Constable & Co., 1907 ; XXX + 48 pp., 10 pll., figg.

DAVIS : *Tomb of Tuthmosis IV.*

CARTER, NEWBERRY : *The Tomb of Tuthmosis IV.* Westminster, Constable & Co., 1904 ; XLVI + 150 pp., XXVII, 21 pll., figg.

DESROCHES-NOBLECÔURT : *Toutankhamon.*

DESROCHES-NOBLECÔURT (Christiane) : *Toutankhamon.* Paris, Hachette, 1963 ; 214 pp., 32 ill.

DITTENBERGER : *O.G.I.S.*

DITTENBERGER (W.) : *Orientalis Graeci inscriptiones selectae.* Leipzig, 1903-1905, 2 vol. ; 2^e éd., 1960.

EDGERTON : *Tuthmosid Succession.*

EDGERTON (William F.) : *The Tuthmosid Succession.* Chicago, University of Chicago Press, 1933 ; X + 43 pp.

Empire des Ramsès.

LALOUETTE (Claire) : *L'Empire des Ramsès.* Paris, Fayard, 1985 ; 539 pp., ill.

Enseignement de Kheti III.

VOLTEN (Aksel) : *Zwei altägyptische Politische Schriften.* Copenhagen, Einar Munksgaard, 1945 ; pp. 3-103. (= *Analecta Aegyptiaca*, vol. IV.)

GARDINER : *Late Egyptian Stories.*

GARDINER (Alan H.) : *Late Egyptian Stories.* Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1932. (*Bibliotheca Aegyptiaca*, vol. 1.)

GARDINER, PEET, ČERNÝ : *Sinai.*

GARDINER (Alan), PEET (Eric), ČERNÝ (Jaroslav) : *The Inscriptions of Sinai.* Londres, Egypt Exploration Society, 1955 ; 2 vol.

GARELLI : *Proche-Orient asiatique.*

GARELLI (Paul) : *Le Proche-Orient asiatique. Des origines aux invasions des Peuples de la mer.* Paris, P.U.F., 1969 ; 377 pp. (Coll. nouvelle Clio, 2.)

GAUTHIER : *Livre des rois.*

GAUTHIER (H.) : *Le livre des rois d'Égypte.* Le Caire, 1912. (Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, vol. 18.) Tome II.

GITTON : *Ahmes-Nefertary.*

GITTON (Michel) : *L'épouse du dieu Ahmes Nefertary.* Paris, Les Belles Lettres, 1975 ; 108 pp. (= *Annales de l'Université de Besançon*, n° 172.)

HABACHI : *Sixteen Studies*.

HABACHI (Labib) : *Sixteen Studies on Lower Nubia*. Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1981 : 282 pp., 5 pl. (Supplément aux Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Cahier n° 23.)

HABACHI : *Tell Basta*.

HABACHI (Labib) : *Tell Basta*. Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1957 : XVI + 144 pp. 43 pl., figg.

HAYES : *Royal Sarcophagi*.

HAYES (William C.) : *Royal Sarcophagi of the XVIII th. dynasty*. Princeton, Princeton University Press. 1935 : 211 pp., XXV pl.

HELCK : *Ägyptologische Studien*.

HELCK (W.) : *Die Berufung des Veziers Ouser*. Berlin, Akademie Verlag, 1955. (Ägyptologische Studien, n° 29.)

HELCK : *Zur Verwaltung*.

HELCK (H.W.) : *Zur Verwaltung des mittleren und neuen Reichs*. Leiden Brill, 1958 : VIII + 550 pp. (= Probleme der ägyptologie, Bd. 3).

Karnak :

TRAUNECKER (Claude), GOLVIN (Jean-Claude) : *Karnak. Résurrection d'un site*. Paris, Payot, 1984 : 238 pp., 197 ill.

Karnak I :

VARILLE (A.) : *Karnak*. Le Caire, I.F.A.O., 1943 : 50 pp. CV pl.

Karnak VI :

Karnak VI. 1973-1977. Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1980.

KITCHEN : *Pharaoh triumphant*.

KITCHEN (Kenneth A.) : *Pharaoh triumphant. The life and times of Ramses II*. Warminster, Aris and Phillips, 1982 : 272 pp., figg.

KNUDTZON : *El Amarna Tafeln*.

KNUDTZON (J.A.) : *Die El Amarna Tafeln*. Leipzig, 1908 et 1915, 2 vol.

KRI :

KITCHEN (Kenneth A.) : *Ramesside Inscriptions*. Oxford, Blackwell, publication en cours depuis 1969.

LEFEBVRE : *Contes et romans*.

LEFEBVRE (Gustave) : *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*. Paris, Maisonneuve, 1949 : XXVII + 232 pp.

LEFEBVRE : *Grands prêtres*.

LEFEBVRE (Gustave) : *Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak jusqu'à la XXI^e dynastie*. Paris, Geuthner, 1929 : 303 pp., 5 pl.

Lexikon.

Lexikon der Ägyptologie. Wiesbaden. Harrassowitz : depuis 1975, 5^e volume en cours de parution.

MASPERO : *Contes populaires.*

MASPERO (Gaston) : *Les contes populaires de l'Égypte ancienne.* Paris, Maisonneuve, 1882 : LXXX + 227 pp.

MONTET : *Byblos et l'Égypte.*

MONTET (Pierre) : *Byblos et l'Égypte. Quatre campagnes de fouilles à Gebail.* Paris. Geuthner, 1928-1929 : 3 vol.

NAVILLE : *Deir el Bahari.*

NAVILLE : *The temples of Deir el Bahari.* London. Egypt Exploration Fund, 1895-1908 : 6 vol.

PETRIE : *Qoptos.*

PETRIE (Sir Flinders) : *Koptos.* Londres, B. Quaritch, 1896 : 38 pp., XXVIII pll.

PETRIE : *Gurneh.*

PETRIE (Sir Flinders) : *Gurneh.* London. Quaritch, 1909 : VIII + 22 pp., 56 pll.

PIRENNE : *Civilisation.*

PIRENNE (Jacques) : *Histoire de la civilisation de l'Égypte ancienne.* Tome II. Neuchâtel-Paris, 1963. 554 pp.

POSENER, SAUNERON, YOYOTTE : *Dictionnaire.*

POSENER (Georges), SAUNERON (Serge), YOYOTTE (Jean) : *Dictionnaire de la civilisation égyptienne.* Paris, Hazan, 2^e éd., 1970 : 324 pp.

RATIÉ : *Hatshepsout.*

RATIÉ : *La reine Hatshepsout. Sources et problèmes.* Leyde. Brill, 1979 : 372 pp., 8 pll. (Université de Montpellier. Orientalia. I.)

SANDMAN : *Texts from the time of Akhenaten.*

SANDMAN (R.) : *Texts from the time of Akhenaten.* Bruxelles, Fondation égyptologique. Reine Elisabeth, 1938 : (Bibliotheca Aegyptiaca, vol. VIII.)

SÄVE-SÖDERBERGH : *Private Tombs.*

SÄVE-SÖDERBERGH (T.) : *Private tombs at Thebes I. Four Eighteenth Dynasty Tombs.* Oxford, 1957.

SETHE : *Amun.*

SETHE (Kurt) : *Amun und die acht Urgötter von Hermopolis. Eine Untersuchung über Ursprung und Wesen des ägyptischen Götterkönigs.* Berlin, Akademie der Wissenschaften, 1929 : 130 pp., 5 pll.

SETHE : *Urgeschichte.*

SETHE (Kurt) : *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter.* Leipzig, 1930 : 2^e éd., 1966 : 196 pp., 3 cartes.

Textes des Sarcophages.

BARGUET (Paul) : *Textes des sarcophages égyptiens du Moyen Empire*. Paris, Éditions du Cerf, 1986 : 725 pp.

T.P.

SETHE (Kurt) : *Die altägyptischen Pyramidendekreten*. Leipzig, J.C. Hinrich's, 1908 ; 4 vol.

Urk.

Urkunden des ägyptischen Altertums. Leipzig, J.C. Hinrich'sche Buchhandlung, 1932-1961 ; 8 vol. Vol. IV : *Urkunden der 18. Dynastie*.

VANDERSLEYEN : *Guerres d'Amosis*.

VANDERSLEYEN (Claude) : *Les guerres d'Amosis, fondateur de la XVIII^e dynastie*. Bruxelles, FERE 1971 : 248 pp., 4 pll.

VAN SETERS : *Hyksos*.

VAN SETERS (John) : *The Hyksos. A new Investigation*. New-haven et Londres, Yale University Press. 2^e éd. 1966 : 220 pp.

VARILLE : *Inscriptions d'Amenhotep*.

VARILLE (Alexandre) : *Inscriptions concernant l'architecte Amenhotep fils de Hapou*. Le Caire, IFAO, 1968 : 164 pp. XIV pll. (= Bibl. d'études, tome XLIV.)

WADDELL : *Manetho*.

Manetho, Ptolemy, Tetrabyblos. Traduction W.G. Waddell et S.E. Roubins. Londres, 1940. (Loeb Classical Library.)

W.B.

Wörterbuch der ägyptischen Sprache. Leipzig, J.C. Hinrich'sche Buchhandlung, 1925-1931 : 5 vol.

WINLOCK : *Rise and fall*.

WINLOCK (H.E.) : *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes*. New-York, Mac Millan Company, 1947 : IX + 174 pp., 48 pll.

(ب) الدوريات واختصاراتها

AEGYPTUS.

Aegyptus. Rivista italiana di egittologia e di papirologia. Milano. Università Cattolica.

AEPHE.

Annuaire de l'École pratique des hautes études. 1^{re} section. Sciences religieuses. Paris.

ANCIENT EGYPT.

Ancient Egypt and the East. London and New York, Mac Millan & Co.

ARCHAEOLOGIA.

ASAE.

Annales du Service des Antiquités de l'Égypte. Le Caire.
Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale.

BIFAO.

Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale. Le Caire.

BSFE.

Bulletin de la Société française d'égyptologie. Paris.

CE.

Chronique d'Égypte. Bruxelles. Musées royaux d'art et d'histoire.

JARCE.

Journal of the American Research Center in Egypt. Le Caire.

JEÄ.

Journal of Egyptian Archaeology. London. Egypt Exploration Fund.

JNES.

Journal of Near Eastern Studies. Chicago. University of Chicago Press.

JOURNAL DES SAVANTS.

Journal des Savants. Paris. Institut de France.

KÉMI.

Kémi. Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes. Paris. Geuthner.

KUSH.

Kush. Journal of the Sudan Antiquities Service. Khartoum. Sudan Antiquities Service.

MDAIK.

Mitteilungen des deutschen Archäologische Instituts Abteilung Kairo. Wiesbaden. Harrassowitz.

MONUMENTS PIOT.

Monuments Piot. Paris. Institut de France.

RÉ.

Revue d'égyptologie. Paris et Louvain.

ZÄS.

Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde. Leipzig. J.C. Hinrichs.

المؤلفة

كلير لالويت

Claire Lalouette

- من كبار علماء المصريات الفرنسيين.
- شغلت منصب أستاذة علم المصريات بجامعة السوربون.
- كانت أيضا من الأعضاء البارزين في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO.
- متخصصة في الأدب المصري القديم.
- سبق للمترجم أن نقل لها، إلى العربية بعض أشهر ما ألفته في هذا الموضوع: «الأدب المصري القديم»، دار الفكر، ١٩٩٢.
- «نصوص مقدسة ونصوص دينية من مصر القديمة» في مجلدين، دار الفكر، ١٩٩٦.

المترجم

ماهر فؤاد جويجاتى

- من مواليد ١٩٢٢. حاصل على ليسانس فى الأدب الفرنسى. جامعة القاهرة، عام ١٩٥٤.
- ترجم ١٨ كتاباً من الفرنسية إلى العربية فى مجال علم المصريات.
- من أهم ترجماته المنشورة:
- الناس والحياة. ١٩٨٩.
- المومياءات المصرية، فى مجلدين، ١٩٩٧-١٩٩٩.
- حضارة مصر الفرعونية. ١٩٩٨.
- المعجم الوجيز فى اللغة المصرية القديمة بالخط الهيروغليفى. ١٩٩٩.
- عصور ما قبل التاريخ فى مصر ٢٠٠١.
- (وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).
- معجم الأساطير المصرية ٢٠٠١.
- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة ٢٠٠٥.
- (وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).
- أمنحوتب الثالث ٢٠٠٥.

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	له. مانهو بانتيكار	أحمد فؤاد بايع
٣- التراث المصري	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كارينتيكوف	أحمد المفسري
٥- شربا في غيوبة	إسماعيل نصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث الفلسفي	ميلكا إيفيتش	سعد مملوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	يوسف الأنطكي
٨- مشاعر العرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التفخيرات البيئية	أنطوني. س. جودي	محمود محمد ماشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد منعم وعبد الجليل الأزدي وعمر علي
١١- مفقارات شعرية	فيسولفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق العرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميت	عبد الوهاب طوب
١٤- التحليل النفسي للكذب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- المركبات اللغوية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسي سميت	أشرف رفيق مافيني
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	إيفرافد لعد متان
١٧- مفقارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج ستيريس	نهم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوتز	يعني طريف الخولي وبدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وآف خوخة وقصص أخرى	محمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات وحالة من المصريين	جون لنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣- تجلي الجميل	هالنز جيورج جولدمر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارفتر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر المأم	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الفائق	مجموعة من المؤلفين	إيفرافد: جابر مصفور
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	مفي أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	له. مانهو بانتيكار	أحمد فؤاد بايع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سولفاجيه - كلود كايين	عبد الستار الطوبجي وعبد الوهاب طوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روي	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- لتاريخ الاقتصادي لأفريقيا القارية	أ. ج. هويكنز	أحمد فؤاد بايع
٣٤- الرواية العربية	رهجو ألن	حصية إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. فيكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٢٧-	واحة سيوة ومسقطها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	آئن تورين	أنور مغيث
٢٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آئن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	مالك مالك	بنجامين باوير	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	لوكتافيو بات	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	أندوس هكسلي	مارلين تانوس
٤٥-	التراث المنثور	روبرت دين و جون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بيلار نيروبا	محمود السيد علي
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حصارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاني
٤٩-	الإسلام في البلقان	ه . ه . توريس	عبد الوهاب طوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد بريدة وشعالي الخلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بياتوريا وخ . م . بيناليستي	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التكاملي	ب . نيكلسون . روجينز وروجريل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدوام والتطعيم	أ . ب . أكتون	مرسي سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايركل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غوسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غوسية لوركا	محمود السيد و ماهر الخطوطي
٥٨-	مسرحيات	فديريكو غوسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المهجرة (مسرحية)	كارلوس مونيت	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتجن	صبري محمد عبد الفتى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميت	بلشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير الوقامي
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان ويه	رمسيس عيسى
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عيسى
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الطليم
٦٧-	مفردات شعرية	فرتاندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نكتات العجوز وقصص أخرى	فالتين واسيوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	النظم الإنساني في لؤلؤ القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمي
٧٠-	ثقافة وحصارة أمريكا اللاتينية	أرخينيو تشانج وديرجت	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلي
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين ب . تومبكنز	حسن تانم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوا	حسن بيومي

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أنثوية مورو	أحمد درويش
٧٦-	چاك لانك وإغواء القليل النفس	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العروة : النظرية الاجتماعية ونقطة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التكليف	يوريس لوسينسكي	سعيد الفانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بينشكين عند مناقرة العمود	للكسندر بينشكين	مكارم الفمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بنكت أنورسن	محمد طارق الشوقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسومة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيمعة
٨٥-	منصور للعلاج (مسرحية)	صلاح زكي إقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صانقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالخراب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جينتز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	رسم السيف وقصص أخرى	برخيس وأخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والخراب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	اساليب شعرية المسرح الحديث	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العمارة	مايك فينوستون وسكوت لاش	عبد الوهاب طوب
٩٤-	مسرحنا الحب الأول والمحببة	صمويل بيكيت	فوزية للشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو بايخو	سرى محمد عبد الطيف
٩٦-	ثلاث زينات زبدة وقصص أخرى	نخبة	إيوان الفراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	لورنان برونل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز المسيحي	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ميليدي رونسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مسافة العروة	جول هيرست وجراهام تيمسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناج	بيونار فاليت	رشيد بحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيب	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه نياه (شعر)	عبد الوهاب اللبيب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهر جني (مسرحية)	برنوات بروشت	عبد الفطار مكارى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينييه	عبد العزيز شبيب
١٠٦-	الأدب الاندلسي	ماريا خيسوس روبيرامتي	أشرف علي دميري
١٠٧-	مير: الشعر في الشعر العربي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجمري
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون براونك وحامل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	التساء في العالم القديم	حسنه بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	رويام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أوليف علوي ماكليود	إكرام يوسف

- ١١٣- راية التمرد سادى يالنت
١١٤- مسرحية حمراء كوتيجي وسكن السنتق رول شوينكا
١١٥- غرفة تخفى للرء وحده فرجينيا رولف
١١٦- امرأة مختلفة (مربة شفيق) سينثيا تلسون
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ايلى لىحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بى يارون
١١٩- النساء بالاسرة وقرنين الحاضر فى التاريخ الاجتماعى اميرة الأزهرى سنبيل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ايلى أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة للفرجة فاطمة موسى
١٢٢- نظم العبيدة القدم والتبذير فى القرن التاسع عشر جوزيف فرجت
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية أنيئل ألكسندرو فناسولينا
١٢٤- النهر الكاتب: نوماى الفرنسية المالية جون جولى
١٢٥- التحليل الموسيقى سيدرك ثورب ديفى
١٢٦- فعل القراءة فولفانج إيهر
١٢٧- إرهاب (مسرحية) صلاء فتحي
١٢٨- الأدب المقارن سوزان باسنيك
١٢٩- الرواية الإنسانية المعاصرة ماريا دواورس أسيس جاريو
١٣٠- الشرق يصعد ثنائية أندريه جوتكر فرائك
١٣١- مصر القديمة التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العزلة مايك فينرستون
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) طارق على
١٣٤- تشريح حضارة باري ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كينو
١٣٧- ملكه ضابط فى الصلة الفرنسية فى مصر جوزيف مازى مواريه
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف أندريه جاكوسمان
١٣٩- باريسفيل (مسرحية) ريتشارد فاچنر
١٤٠- حيث تلقى الأتاهار هيربرت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التطير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) كارل جولدوني
١٤٥- موت أرتيميو كريت (رواية) كارلوس فونتش
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميجيل دي ليس
١٤٧- مسرحيتان تانكريد مورست
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكي أندرسون إمبرت
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
- أحمد حسان
تسيم مجلى
سمية رمضان
فهاد أحمد سالم
منى إبراهيم ومالكة كمال
ليس النقاش
بشرافه روف عباس
مجموعة من المترجمين
محمد الجندي وإيزابيل كمال
منيرة كروان
أنور محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بليح
سمحة الخولى
عبد الوهاب طوب
بشير السباعي
أميرة حسن نويرة
محمد أبو العطا وأخرون
شوقي جلال
لويس بقطر
عبد الوهاب طوب
طلعت الشايب
أحمد محمود
ماهر شفيق فريد
سحر توفيق
كاميليا حبيبي
وجيه سمعان عبد المسيح
مصطفى ماهر
أمل الجبوري
نميم عطية
حسن بيومي
هدى السمرى
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
على عبدالرحمن البيبي
عبدالغفار مكارى
على إبراهيم متوفى
أسامة إسدير
منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برونيل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطايب
١٥٣-	غرام المرافعة	فيولن فانويك	فاطمة هبدالله محمود
١٥٤-	مفرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلن وألويت شيرو	مى القسسانى
١٥٧-	خسرو وشيرون	الانظامى الكتجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برونيل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	قلة الطبيعة	بول إيرايش	حسن بيومى
١٦١-	مسرحين من المسرح الإسباني	ألفاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محبوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الطفل (قصص أطفال)	آ. ن. أفاناسييفا	سوير المصادقة
١٦٦-	الفلان بين الكتين والفلان في إسرائيل	يشياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طافور	رابنورتاك طاغور	شكري محمد عواد
١٦٨-	مراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عواد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عواد
١٧٠-	الطريق (رواية)	موجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسن
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطايب
١٧٣-	معنى الجمال	واثر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	رجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم نيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ثروايا	حمزة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سلام عبد الأمير حمدان
١٨١-	في الحب الأمريكي من التجديد إلى التجديد	فستنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والفنومة (شعر)	و.ب. بيش	ياسين كح حافظ
١٨٣-	جان كوكرو على شاشة السينما	ريتبه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة حالة لا تنام	هانز ليندورفر	نصطفى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب طرب
١٨٦-	معجم مصطلحات فيجل	ميفائيل إتنود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرض (رواية)	بُردج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألين كورنان	بدر الديب

سعيد الفانسي	بول دى مان	١٨٩-	السي والبسمة مثلك في ليلة القدر للناصر
محسن سيد فوجاني	كونفوشيوس	١٩٠-	محاورات كونفوشيوس
مصطفى حجازي السيد	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	١٩١-	الكلام وأسمال وقصص أخرى
محمود علوي	زين العابدين المولاي	١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)
محمد عبد الواحد محمد	يوتز أبراهامز	١٩٣-	عامل المنجم (رواية)
ماهر شفيق فريد	مجموعة من النقاد	١٩٤-	مختارات من النقد الأجلو-أمريكي الحديث
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل قصيح	١٩٥-	شقاء ٨٤ (رواية)
أشرف الصباغ	فالنتين واسيوتين	١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)
جلال السيد الحفناوي	شمس الطماء شيلي النعماني	١٩٧-	سيرة الفاروق
إبراهيم سلامة إبراهيم	إدوين إمري وآخرون	١٩٨-	الاتصال الجماهيري
جمال أحمد الزقاني وأحمد عبد الحليم هادي	يعقوب لاندو	١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية
فخرى لبيب	جيرمي سيبروك	٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة واليهود
أحمد الانصاري	جوزيا رويس	٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة
مجاهد عبد النعم مجاهد	رونيه ويليك	٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)
جلال السيد الحفناوي	الطاف حسين حالي	٢٠٣-	الشعر والشاعرية
أحمد هويدى	زالمان شازار	٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم
أحمد مستجير	أويجس أوقا كلفالي-سفورزا	٢٠٥-	الدينات والضمير واللغات
علي يوسف علي	جيمس جاكوب	٢٠٦-	الهيروية تصنع ملكاً جديداً
محمد أبو العطا	رامون خوتاسنفيد	٢٠٧-	لؤلؤ أفريقي (رواية)
محمد أحمد صالح	دان أوريان	٢٠٨-	شخصية العربي في السرد الإسرائيلي
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	٢٠٩-	السرد والسر
يوسف عبد الفتاح فرج	سنانى الفزنى	٢١٠-	مثنويات حكم سناني (شعر)
محمود حمدي عبد النبي	جوناثان كلار	٢١١-	فريدنان موسوسهر
يوسف عبد الفتاح فرج	موزيان بن رستم بن شروين	٢١٢-	قصص الأمير موزيان على لسان الصبيان
سيد أحمد علي الناصري	ريموون فلادو	٢١٣-	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل محمد علي
محمد محيي الدين	لنتوني جيفنز	٢١٤-	قواعد جديدة المنهج في علم الاجتماع
محمود علوي	زين العابدين المولاي	٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم
نادية البنهاوي	مسويل بيكيت وهارولد بينتر	٢١٧-	مسرحيتان ظليمتان
علي إبراهيم منولى	خوليد كويتلان	٢١٨-	لعبة الهجلة (رواية)
طلعت الشايب	كلود إيشجورد	٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)
علي يوسف علي	باري پاركر	٢٢٠-	الهيروية في الكون
رفعت سلام	جريجوري جوزدانيس	٢٢١-	شعرية كفاي
نسيم مجلي	رونالد جراي	٢٢٢-	فرانز كافكا
السيد محمد تقي	باول فريدلند	٢٢٣-	العلم في مجتمع حر
منى عبدالظاهر إبراهيم	برانكا ماجاس	٢٢٤-	دمار بيرسلافيا
السيد عبدالظاهر السيد	جابريل جارتيا ماركيت	٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)
طاهر محمد علي البربري	ديفيد هريت لورانس	٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى

السيد عبدالظاهر عبدالله	الشرح التيسري في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركي	٢٢٧-
ماوي تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت رولف	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	ملوك البطل الوحيد	تورمان كيچان	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	من الباب والفتحة والبشر	فرانسواز چاكوب	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	الشرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	ما بعد المعلومات	توم ستوتير	٢٣٢-
طلعت الشايب	فكرة التضامحل في التاريخ الغربي	أوتو هيرمان	٢٣٣-
فؤاد محمد حكيد	الإسلام في السودان	ج. سينسر ترومنجهام	٢٣٤-
إبراهيم السنوسي شتا	ديوان شمس تبريزي (ج١)	مولانا جلال الدين الرومي	٢٣٥-
أحمد الطيب	الولاية	ميشيل شونكليفيتش	٢٣٦-
حنانيات حسين طلعت	مصر أرض الروابي	روين فيدين	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربي مديولي أحمد	العولمة والتحرير	تقرير منظمة الأكتاد	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	العربي في الأدب الإسرائيلي	جولا راماز - رايوخ	٢٣٩-
صلاح محبوب إفرس	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	٢٤٠-
ابتهسام عبدالله	في انتظار البرابرة (رواية)	ج. م. كوتزي	٢٤١-
صبري محمد حسن	سبعة أنماط من الفوضى	وليام إميسون	٢٤٢-
يوسف: صلاح فضل	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفي بروفنسال	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	الغليان (رواية)	لورا إسكيبيل	٢٤٤-
توفيق علي منصور	نساء ملائكة	إليزابيثا انيس وآخرون	٢٤٥-
علي إبراهيم منوفي	مختارات قصصية	جابريل جارتيا ماركوت	٢٤٦-
محمد طارق الشراوي	الثقافة الإسبانية والحداثة في مصر	والتر أرمبرست	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالحليم	حقول مدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	٢٤٨-
وفعت سلام	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوله	٢٤٩-
ماجدة محسن أباظة	علم اجتماع العلوم	ميمنكه فيك	٢٥٠-
يوسف: محمد الجوهري	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جورجون مارشال	٢٥١-
علي بدران	واثبات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	٢٥٢-
حسن بيومي	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوتا	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: الفلسفة	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: أفلاطون	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: ديكارت	ديف روينسون وكروس جارات	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	٢٥٧-
عبادة كميلا	الفجر	سير أنجوس فريزر	٢٥٨-
فلوجان كازانجيان	مختارات من الشعر الأرميني عبر العصور	تخبة	٢٥٩-
يوسف: محمد الجوهري	موسوعة علم الاجتماع (ج٣)	جورجون مارشال	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	٢٦١-
محمد أمير الصفا	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوتا	٢٦٢-
علي يوسف علي	الكشف من حافة الزمن	جون جرين	٢٦٣-
لؤيس عوض	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	٢٦٤-

روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	أويس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر العيين عروكي	٢٦٧-
ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم السوقي شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وايم جيفورد بالجريف	صبري محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وايم جيفورد بالجريف	صبري محمد حسن	٢٧٠-
الحضارة القريبة: الفكرة والتاريخ	توماس سي. ياترسون	شوقي جلال	٢٧١-
الأبيرة الأثرية في مصر	سي. سي. وايتز	إبراهيم سلامة إبراهيم	٢٧٢-
الأصل الاجتماعي والثقافي لشركة ماري في مصر	جوان كولي	عثمان الشهلاوي	٢٧٣-
السيدة بارهارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود علي مكي	٢٧٤-
ه. س. إلييه شاعر، يالفا وكاتبا مسرحيا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	٢٧٥-
فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمساني	٢٧٦-
الخيانات والصراع من أجل الحياة	برايان فورد	أحمد فوزي	٢٧٧-
البداهات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله	٢٧٨-
الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوتيرز	طلعت الشايب	٢٧٩-
الأم والنصيب وقصص أخرى	بريوم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم	٢٨٠-
الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الطليم شرود	جلال الطفلاوي	٢٨١-
طبيعة العلم غير الطبيعية	أويس وولبرت	سمير حنا صادق	٢٨٢-
السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	علي عبد الرزاق البعبي	٢٨٣-
عزق مجنوناً (مسرحية)	يوزيبوديس	أحمد عثمان	٢٨٤-
رحلة خواجه حسن نظامي الغلوي	حسن نظامي الغلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٥-
سباهت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المولفي	محمود علاوي	٢٨٦-
الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون	٢٨٧-
الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي	٢٨٨-
ديوان ملوچهرى الهاماني	أبو نهم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم	٢٨٩-
علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم	٢٩٠-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانثسكو رويس وامون	السيد عبد الظاهر	٢٩١-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانثسكو رويس وامون	السيد عبد الظاهر	٢٩٢-
مقدمة للأدب العربي	روجر لئن	مجدى توفيق وآخرون	٢٩٣-
فن الشعر	برالو	رجاء ياقوت	٢٩٤-
سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر العيب	٢٩٥-
مكث (مسرحية)	وايم شكسبير	محمد مصطفى بدوي	٢٩٦-
فن النمر بين اليهودية والسريانية	ميونيسيس ثراكس وويسف الألوازي	ماجدة محمد أنور	٢٩٧-
مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد	٢٩٨-
ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جيم ماركس	هاشم أحمد محمد	٢٩٩-
السطح وبيتشور في ١٩٨٢ (ج١) السطح وبيتشور في ١٩٨٢ (ج٢)	أويس عوض	جمال الجزيري وجماء جامين وإيزابيل كمال	٣٠٠-
السطح وبيتشور في ١٩٨٢ (ج٣)	أويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي	٣٠١-
أقدم لك: فنجشتين	جون هيتون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام	٣٠٢-

٢٠٢- أقيم لك: بونزا	جين هوب وويرن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤- أقيم لك: ماركس	ديوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥- الجدة (رواية)	كوزيو مالبيارو	صلاح عبد الصبور
٢٠٦- العماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فوانسوا ايوتار	نبيل سعد
٢٠٧- أقيم لك: الشعور	ديفيد باييتو وهوارد سفيانا	محمود مكي
٢٠٨- أقيم لك: علم الترات	ستيف جوتز وويرين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٢٠٩- أقيم لك: الزمن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاروت	جمال الجزيري
٢١٠- أقيم لك: بونج	ماجي هايد ومايكل ماكجونس	محيي الدين مزيد
٢١١- مقال في المنهج الفلسفي	روج كوانجورد	فاطمة إسماعيل
٢١٢- روح الشعب الأسود	وايم ديديوس	أسعد حليم
٢١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خاثير بيان	محمد عبداللّه الجميدى
٢١٤- مارسيل موساسب: الفن كعدم	چاتيس مينيك	هويدا السباعي
٢١٥- جرامشي في العالم العربي	موشول برونيتو والطاهر لبيب	كاميليا صبيح
٢١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٢١٧- بلا غد	س. شير لايمولفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨- الأدب الفرنسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩- صور مودا	جايتري سبيلان وكريستوفر نوريس	حسام نابل
٢٢٠- لغة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	إيفي برو فنسمال	إبراهيم صلاح فضل
٢٢٢- وجهاء نظر حية في تاريخ الفن الغربي	ديابر بوجين كلينيارد	خالد مطح حمزة
٢٢٣- فن الساتورا	تراث بيناني قديم	هانم محمد فوزي
٢٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علوي
٢٢٥- عالم الآثار (رواية)	فوليب يوسان	كرستين يوسف
٢٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن حنقر
٢٢٧- مفتاحات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٢٢٨- يوسف وزليفا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجلسي	عبد العزيز بقوش
٢٢٩- رسائل عبد الحليم (شعر)	ند هيوز	محمد عبد إبراهيم
٢٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامي صلاح
٢٣١- عندما جاء السويديين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دباب
٢٣٢- شهر الفصل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منولي
٢٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٦٨٥-١٥٥٨	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	تاتالي ساروت	فتحي العشري
٢٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الطغفاري
٢٣٩- تاريخ الأدب في إيران (ج ٢)	إدوارد براون	محمد ملاء الدين منصور
٢٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	يورش بيريروجلو	فخري لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	واينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٢٤٢-	سلامان وابسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائف (رواية)	نادين جوريمير	سمير عيد ريه
٢٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر يالاجير	سمير عيد ريه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه تانسي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	محر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٢٤٧-	الصبية الطاشون (رواية)	چان كوكو	يكر الطو
٢٤٨-	التصولة الارمن في الالب التري (ج١)	محمد قزاد كويرلي	عبدالله احمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الهادة	أرثر واليمورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياسية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ الخط	چوزايا روس	أحمد الانتصاري
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	اسطفطن كفافيس	نميم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامي في الخط: الزخرفة الهندسية	باسيليو بايون مالفونادو	علي إبراهيم منوفي
٢٥٤-	الفن الإسلامي في الخط: الزخرفة النباتية	باسيليو بايون مالفونادو	علي إبراهيم منوفي
٢٥٥-	الثقافة السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتضى	محمود هادي
٢٥٦-	المهرات المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك ويوتر فاندي	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا الألمانية	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٥٩-	محاورة بارمنفيس	أثلاطون	حبيب الشاروني
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چانكوب وفولا باركان	ليلى الشربيني
٢٦١-	التصحر: التهديد والحاجة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شايد
٢٦٢-	علمية بانينبرج (رواية)	هاينرش شيوول	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحوير الأفريقية	روشاره جيسون	صبري محمد حسن
٢٦٤-	حدائق شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سئم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع القناب	كلاروسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القيم الجهرية	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٢٦٨-	المصطلح السري: معجم مصطلحات	جبرالد پرنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية المشعلوي	فوزية المشعلوي
٢٧٠-	الفن والحياة في مصر اللامعوية	كلير لا نويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	التصولة الارمن في الالب التري (ج٢)	محمد فؤاد كويرلي	عبدالله احمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالصمد
٢٧٣-	كيف تم رسالة مكتوءه	أومبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شفيد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونتير	خالد أبو النيزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام السنن (مسرحيات)	چان أنوي وآخرون	إدوار الفارط
٢٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل بلث	٢٧٩- ملك في الحقيقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٢٨٠- حديث عن الضسارة
وانيا ابراهيم يوسف	و. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد خدي	بهاء الدين محمد اسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد ابراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥- مشقري للمشق (رواية)
ريهام حسين ابراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	جون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٢٨٨- مواظ سعدى الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد ابراهيم	نخبة	٢٨٩- تقاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدرووي	مايف بينتشي	٢٩١- الماطلة المايكية (رواية)
عبداللطيف عبدالعليم	فرناندو دي لاگرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زويث محمود الضصيري	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- الام سيواش (رواية)
محمود علوي	تقي نجاري راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيني شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودي وهوارد ويد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ميفيد ميروفتشس وان كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامس
باهر الجوهري	ميشائيل إندو	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المصم	زياد بن ساردر وأخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفري وأوسكار زاروت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تومور شتورم وجوتفرد كوار	٤٠٣- ربة المطر والافس تصنع الناس (رواية)
غنية خميس	ميفيد ابرام	٤٠٤- تعويذة الشمس
حمادة ابراهيم	أنثوية جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناروس	٤٠٦- المستعمرون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر باقلام كتابه
حنان الشهبوي	جوان فونشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهام صارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السمادة
الزواوي بغودة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينيفر أكرمان	٤١١- خمس من الماضي
إشراف: صلاح فضل	ليلي برونسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج. ٢، ج. ٢)
محمد البخاري	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازنتوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبد الرحيم	فريدريش دورينجات	٤١٥- صورة كركب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوي	أ. أ. وتشارمز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالنعم مجاهد
٤١٨-	سلسله الزبر العاكسة في عصر الشافعية	چين هاتوئى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإنسكتورية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيامه في المجتمع الإسلامي الأول	روى متعددة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراعات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوائح العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجاسي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طابوس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود مالى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد المظيت يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	بائى إنكلان	ثريا طبلى
٤٢٨-	الغزاة الخفية	محمد هوتك بن دلود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هوجل	لهود سينسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كلنت	كريستوفر ولت وأندزجى كايومفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكي	كريس هوروكس وفردان جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافلي	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلتت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجويدى بورهام	مصام حجازى
٤٣٥-	ترجمهات ما بعد العداة	فيكولاس زدرج	تاجى وشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوپلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحلة هندى في بلاد الشرق العربى	شبللى انيماني	جلال العفتارى
٤٣٨-	بطلات وخساي	إيمان خيما الكوين بيورس	حايده سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صمد الدين عيسى	محمد علاء الدين منصور وعبد المظيت يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرفاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروناتى روى	فخرى لييب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاني
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها وتطورها وتأثيرها	كيس فوستيخ	محمد طارق الشرفاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز نائل خلطوى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الاسود	ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيد	تولد شمبى إسباني	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	اللاحون (ميراث الترجمة)	الاب عيروط	مضى الدين القبان ويلىم دلود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الوزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رليت	جمال الوزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزدوفت وورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينازى وأوسكار زاريت	محضى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وغزاد الدعان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريمال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى (رواية)	مروم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان موالر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المويسكيون الأتلسيون	موتيفيس غارثيا أرمبال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاتتصديك الوارد الطبيعية	توم تيتتبيرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وايتزا جاتستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكفر	داريان ليفر وجوى جروفرز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	له حسين من الأزهر إلى السوريين	هيدالرشيد الصانق محمودى	عبدالرشيد الصانق محمودى
٤٦٣-	الديرة المارقة	روايلام باوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للغة	مايكل بارتنى	حصه إبراهيم الخنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاهى
٤٦٦-	حكايات حب وحوارات فرعونية	شواين فانوك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسي والنظرة السياسية	ستيفن دجار	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا روس	أحمد الانصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	تصووس حضية لديمه	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضي والعودة البيئية	جارى م. بيرزيسكى وأخرون	محمد السيد الفنا
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد للرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيشوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيشوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الألب والتسوية	بلم موريس	سهاوم عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ثرجينيا دانيلسون	عادل ملال عنانى
٤٧٦-	أرض المصائب بعيد: بيم الانيسى	ماريلين بوث	سمير ثوابقى
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيادا هوخام	أشرف كيوانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دنجج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	اللقهى (مسرحية)	لوى شه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو رفا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	برودة اللبى	روى مقعدة	رشوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك شيو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	التسوية وما بعد التسوية	سارو جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية الظنى	هانتسن روبرت يابوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نظير أحمد الدملوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يلان أسمن	عبداللطيم عبدالقنى وجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبابى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	العب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	مُسْرَل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند مُسْرَل	محمود وجب
٤٩٠-	أسرار اليفشاء	محمد قافرى	عبد الوهاب غلوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب العربى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى قارچيت	محمد رفعت عواد

- ٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات هارولد پالر
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج في النهار نصوص مصرية قديمة
٤٩٥- اللوى إدوارد تيفان
٤٩٦- الحكم والسياسة في إفريقيا (ج١) إيكادو بانولى
٤٩٧- العثمانية والنوع والفولة في الشرق الأوسط نادية الطلى
٤٩٨- النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث جويث تلكر ومارجريت مريوهر
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع مجموعة من المؤلفين
٥٠٠- في طيات: دراسة في السيرة الذاتية العربية توفيق زويكى
٥٠١- تاريخ النساء في الغرب (ج١) آرثر جوك هاسر
٥٠٢- أصوات بعيدة مجموعة من المؤلفين
٥٠٣- مقاربات من الشعر الفارسي الحديث نخبة من الشعراء
٥٠٤- كتابات أساسية (ج١) مارتن هاندرجر
٥٠٥- كتابات أساسية (ج٢) مارتن هاندرجر
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية) أن تيلر
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية) بيتر شيفر
٥٠٨- الحداثة بعد جلال الدين الرومى عبدالباقى جليبارلى
٥٠٩- الفكر والإحسان في عصر سلطان المالك آدم صبرة
٥١٠- الأرملة المأكورة (مسرحية) كاراو جوادوفى
٥١١- كركب مرقع (رواية) أن تيلر
٥١٢- كتابة النقد السينمائى فيومى كوريجان
٥١٣- العلم الجسور تيد أنتون
٥١٤- مخيل إلى النظرية الأدبية جونثان كراى
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد العداثة فوى مالطى موجلانس
٥١٦- إرادة الإنسان في علاج الإيمان أرنولد واشنطن ورونا باوندى
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى نخبة
٥١٨- استكشاف الأرض والكون إسحق عظيموف
٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة جوزايا رويس
٥٢٠- الراح الفرنسي بمر من العلم إلى الفيزياء أحمد يوسف
٥٢١- قاموس تراجم مصر القديمة توفى جوك سموت
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها أميركو كلسترو
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمحدث باسيليور يابون مافونادو
٥٢٤- الملك لير (مسرحية) وليم شكسبير
٥٢٥- موسم حيد في بيروت وقصص أخرى دنيس جونسون
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية ستيفن كروى ووليم رانكين
٥٢٧- أقدم لك: كافكا ويشيد زين ميروفتس وروبرت كرمب
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية طارق على وبل إيفانز
٥٢٩- يدان العلامة إقبال في شعره الأردى محمد إقبال
٥٣٠- مخيل عام إلى فهم التغيرات التراثية ريتيه جينو
- محمد صالح الضالع
شريف الصيغى
حسن عبد ربه المصرى
مجموعة من المترجمين
مصطفى رياضى
أحمد على بدوى
فيصل بن خضراء
طلعت الشايب
سحر فرج
فاة كمال
محمد نور الدين عبدالمتم
إسماعيل المصدق
إسماعيل المصدق
عبدالصمد فهمى الجمال
شوقى فهمى
عبدالله أحمد إبراهيم
قاسم عبده قاسم
عبدالرازق عيد
عبدالصمد فهمى الجمال
جمال عبد الناصر
مصطفى إبراهيم فهمى
مصطفى بيومى عبد السلام
فوى مالطى موجلانس
صبرى محمد حسن
سمير عبد الحميد إبراهيم
هاشم أحمد محمد
أحمد الاتصارى
أمل الصبان
عبدالوهاب بكر
على إبراهيم منوفى
على إبراهيم منوفى
محمد مصطفى بوى
نادية رفعت
محمى الدين مزيد
جمال الجزيرى
جمال الجزيرى
حازم محفوظ
عمر القاروق عمر

٥٣١-	ما الذي حدث في محبته ١١ سبتير؟	جاء نريدا	صفاء قنص
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هتري اورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعليم اللغة اللثنية	سوزان جاس	محمد طارق الشراوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريين	سيفرين لينا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مؤرخ الأسوار (شعر)	نظامي الكتجوي	عبدالمعز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	مسمويل مستجتيين وأورانس مارينون	شوقي جلال
٥٣٧-	الحب والعوية (شعر)	نخبة	عبدالقار مكاوي
٥٣٨-	النس والأخر في قصص يوسف الشاروني	كوت دانيال	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كارول تشارشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السهر رونالد ستورس	رحوف عباس
٥٤١-	في تنخيل وهالوس أخرى	خوان غوسيه مياس	مروة رنق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب الهنائي الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروچان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاكين	روبرت هفشل وأخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباتي محوم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايتمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب توهي وأن كورس	جمال الجبزي
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن وودون فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم الاتصالات	بول كويلي وإيتاجانز	جمال الجبزي
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم ويبرد	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والمعرفة	سايمون ماندي	سمحة القرلي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرحوف أليبي
٥٥٣-	مدخل لشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالمسيح عمر زين الدين
٥٥٥-	إستراتيجية الأبريكية للفن الهادي والمشرق	لناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بويديار	كريس هوروكس وزودان جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كروبي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: التفراسات الثقافية	زويدن سارماروودوين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	المانس الزائف (رواية)	نشا تشاجي	عبدالصي أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلدين وبلدين	كارل ساچان	عزت عامر
٥٦٣-	رود الخريف (مسرحية)	خاشيتو بينابيتتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤-	عش الغرب (مسرحية)	خاشيتو بينابيتتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديورا ج. جيزنر	أحمد عبدالصمد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأموالي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بيا	ثائر ديب
٥٧٠-	حول الخليج القلبي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوايتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الفراغة	برونو تليورا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فريود	ريتشارد أليجانتس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عين الإيرانيين	حسن بيرتيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للموت	تجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثويانيس	أمريكو كاسترو	تاهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكير	كارلو كواودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كرس ومنت	أهومي مينوكوشي	محمد إبراهيم ومسام عبد الرزاق
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محيي الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الموسوية (مج ١)	جون فيزير ديول سيترجز	بإشراف: محمد فتحي عبد الهادي
٥٨١-	القصي يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الهيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سار (رواية)	محمود دوات أبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير أحجاب (رواية)	هوشك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزييث مالكموس وروى أرمز	مهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبد العزيز حمدي
٥٨٨-	أمنوت الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	شبكة العجوبة	فيلكس ديروا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروث الشعبي الفنتازي	خفي	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والفكر	هوراثيوس	علي عبدالتراب علي وصالح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبري السوربوني	مجدى عبدالماظ وعلي كوكبان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الطار
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	موزلنا تاملور	أمانى فوزي
٥٩٥-	الحكم والسياسة في إفريقيا (ج ٢)	إكولو بانواي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت ديجارتيه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلم غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكثمان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي علي قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرولد ميريون	محمود ملاوي
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لوي	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فويت	أنيس بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوناردو: نص لفلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافي	آرثر نيزليوچر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوي
٦٠٤-	الكرارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبيت	توفيق علي منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زينروسكي (المصنف)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦-	قصة البردي الميزناتي في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب النظامى	أنجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة للمجنة	رفائيل لويس جوثمان	على إبراهيم منولى
٦١١-	النقد والأيدى لوجية	تيرى إيچلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسبى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كوان مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	معرض الامم المتحدة فى بغداد من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٩	أليس بستيرينى	محمد رفعت هواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت بانج	أحمد محمود
٦١٧-	للزلازل والبحر	هراس بوك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم المقدس	ريموين استانيولى	هايدة الياجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماس ماسنتاك	بشير السبامى
٦٢١-	رباعيات الفخام (مراثى الترجمة)	عمر الفخام	محمد السبامى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصبح	أبي تشينغ	أمير نبيه وعبد الرحمن هجazy
٦٢٣-	نوابر جما الإيرانية	سعيد قاتنى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الطوانى
٦٢٥-	الدرج السرى	جان جينيه	محمد براءة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب طوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمد الملهجى
٦٢٩-	لبن آخر من الهممة الأمريكية	نيقولاى جويكات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بلور	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفرقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دواورس برامون	رائيا محمد
٦٣٣-	العرب ولبنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ملكوفه وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنسارى
٦٣٥-	التثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الفتاح	سمير كريم
٦٣٦-	هج يرلندة	جنتاب شهاب الدين	سلمية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الفخيرية	ف. روبرت هتتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	قزاة عبد المطلب
٦٣٩-	لنلق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسباد	الأميرة أنلكوميتيا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جونانگن ميلر ويورين فان لون	ممدوح عيد الأنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عيد الماجد الدويلىادى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٦٤٤-	الطوبم عند المسلمين	هولود د خيرثر	فتح الله الشينغ

٦٤٥-	السبلة للفارسية اللاتينية ومصادرها التاريخية	تشارلز كجالي ويوجين وينكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سمير زبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون شيفيه	فتحى العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف والمصنع خرافية أخرى	جى دى موياسان	سمير يوسف
٦٥٠-	البرق والسطوة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر لوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبى الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبيان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفلة (مسرحية)	إيريش كستلر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الضميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيلا فرانكو	طليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خيز الشعب والأرض للصراع (مسرحيات)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاني
٦٥٧-	محاكم التفتيش والمويسكيين	مرونديس غارثيا أريئال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامي
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسر سالديبار	صبرى التهامي
٦٦٣-	امراة عادية	أنيسول كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	روالنجك اتش كليرن	جمال عبد الناصر ودمج الجبار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لعدم الاجتماع العربى	ألن جوانغر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات القوة	فريدريك جيمسون ومايكل ميوشى	لبنى العجالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	رول شويكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولفوين	على عبد الأمير صالح
٦٧٢-	مقتل من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إيتغال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ليوان الإمام الضميين	أية الله العظمى الضميين	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج١، ج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعني
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج٣)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعني
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	الديانة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غريال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستاتلى فاش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن لوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٢-	سكین واحد لكل رجل (رواية)	تی. م. ألوكر	صبری محمد حسن
٦٨٤-	الاسمال القصصية الكاملة (١٥ كتاباً) (ج١)	أوراشیر كیروجا	رزق أحمد یهنسی
٦٨٥-	الاسمال القصصية الكاملة (المصرد) (ج٢)	أوراشیر كیروجا	رزق أحمد یهنسی
٦٨٦-	امراة محاربة (رواية)	ماكسین هونج كچستون	سحر توفیق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	لقانة حاج سید جوادى	ماجدة العناني
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فیلیپ م. مورر وریشارد آ. موار	فتح الله الشیخ وأحمد السماهی
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تامووش روجیفیتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتیش فی فرنسا	(مختارات)	رمسیس عوض
٦٩١-	ألبرت اینشتین: حیاتة وغرامیاتة	(مختارات)	رمسیس عوض
٦٩٢-	أقدم لله: الفرجودية	ریشارد أبیجانسی وأوسكار زاریت	حمدي الجابری
٦٩٣-	أقدم لله: القتل الجماعي (المحرقة)	حائیم برشیت وآخرون	جمال الجزیری
٦٩٤-	أقدم لله: مریدا	جیف کولینز وپیل مایبلین	حمدي الجابری
٦٩٥-	أقدم لله: رسل	دیف روینسین وچودی جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لله: روسو	دیف روینسین وأوسكار زاریت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لله: أرمسطر	روبرت ولغین وچودی جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لله: عصر التنوير	لیود سینسر وأندریجی کروژ	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لله: التحليل النفسي	إیفان وأرد وانسكار زاریت	جمال الجزیری
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس یوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والملائكة	ولیم روه شیفیان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جریستیان لی الله الیهانی (بیرده الترجمة)	چوستینیان	عبد العزيز فهمی
٧٠٣-	تاریخ الأدب فی ایران (ج٢)	إدوارد جرانتیل برلون	أمین الشواربی
٧٠٤-	فیہ ما فیہ	مولانا جلال الدین الرومی	محمد علاء الدین منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأکام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالی	عبدالمعید مذكور
٧٠٦-	الشطرة الروائية وكتاب التحولات	چونسون ف. یان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لله: قاتل بنیامین	هوارد کالیجیل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراغتة من؟	دونالد مالکرام رود	روح عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	آلفرید أدلر	عادل نجیب بشری
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	ایان هانشبای وجوموران - ایلس	هناء عبد الفتاح
٧١١-	مرة الناج	میرزا محمد هادی رسوا	سلیمان البستانی
٧١٢-	الإلياذة (ج١) (میراث الترجمة)	هومیروس	سلیمان البستانی
٧١٣-	الإلياذة (ج٢) (میراث الترجمة)	هومیروس	حنا صلاوه
٧١٤-	حديث اللرب (میراث الترجمة)	لامتیة	أحمد قحی زغلزل
٧١٥-	مر تدم الإنکیز السکستین (بیرده الترجمة)	إسمون دیمولان	نخبة من المترجمین
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفین	نخبة من المترجمین
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٣)	مجموعة من المؤلفین	نخبة من المترجمین
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٤)	مجموعة من المؤلفین	نخبة من المترجمین
٧١٩-	مسرح الأطفال فلسفة وطريقة	م. جولفیرج	جميلة کامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فی نظم اللغة الثنائية	دونام جونسون	علی شهبان وأحمد الخطیب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج ١)	هـ. أ. وإفسون	مصطفى إتيب عبد الفتى
٧٢٢-	السلطنة وتقصص أخرى	يشار كمال	المصطفى أحمد الطورى
٧٢٣-	تجديدات ما بعد الصهيونية	إلرايم تيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار القرويى	بول رويستون	عبد الرئيس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مفد
٧٢٦-	لوريسكيون في المغرب	غيرمو فوناليس بوسفر	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولة: تكمير العمالة والنمو	موريس تاليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية في إيران	صانق زيبكلام	مويها عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأتروقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الفكر والفن بين التنوع والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى صارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجر شولتس	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وايم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	يونانيرت في الشرق الإسلامي	أحمد يوسف	أسل الصبيان
٧٣٥-	فن السيرة في القروية	مايكل كويرسون	محمود محمد مكي
٧٣٦-	التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (مج ١)	هوارد زن	شعبان مكافى
٧٣٧-	التكاثر الطبيعية (مج ٢)	هاتريك ل. أبوت	توفيق طي منصور
٧٣٨-	مدخل من مصر ما قبل التاريخ إلى الحقبة الحديثة	جيرارد دى جوردج	محمد عواد
٧٣٩-	مدخل من الإسكندرية الحديثة إلى الحقبة الحديثة	جيرارد دى جوردج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	باري هندس	مروت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	يونارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لانكروما	ريثق بوشى
٧٤٣-	الثقافة: منظور ماريونى	روبرت لونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسوار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الحنبل	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج ١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن التميمي
٧٤٧-	الاستعمارة في لغة السياسة	توفيق وأيتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تعمير النظام العالمى	فرانسيس بول	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كلفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بشرافة أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج في تراجم الشعر العربى	نخبة	علاء السباعي
٧٥٢-	ألمانيا بين حقبة النخب والظوف	جمال قارصلى	نمر هاروى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شميل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإيبى خلال القرن العشرين	اندرو ب. ديكس	طلح إبراهيم مغولى
٧٥٦-	ذات العين الساحرة	إنريكي خارمبيل بونشيللا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	أمال الربيعي
٧٥٨-	الإحساس بالعولة	بروس رويتر	عاطف عبد الحميد

٧٥٩-	النثر الأردني	مواوي سيد محمد	جلال الأحفاني
٧٦٠-	الدين والتصوير الشعبي للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالمجازة (رواية)	فيرجينيا وولف	فاطمة ناموت
٧٦٢-	المسلم غداً وحينئذ	ماريا سوايداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة في مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب النعلوي (شعر غزل)	غالب النعلوي	حازم محفوظ
٧٦٥-	ميران خواجه للنعلوي (شعر تصوف)	خواجه مير درد النعلوي	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتفعل	تيري هنتش	غازي برو خليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتفعل	نسيب سمير الحسيني	غازي برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمي حجازي	محمود فهمي حجازي
٧٦٩-	أبناء أجيال	فرينريك هتمان	ريدا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بوليفكتا	بينيتو بيروث جالديس	صبري التهامي
٧٧١-	السيد سيجونزو سوميرا	ريكارديو جويا لاجيس	صبري التهامي
٧٧٢-	بريغت ما بعد العداة	إليزابيث رايت	محسن مصباحي
٧٧٣-	دائرة المعارف النواوية (ج٢)	جون فيزر ديول ستيرجوز	إبراهيم: محمد فتحي عبدالهادي
٧٧٤-	الديمقراطية الأمريكية والترويج والتركيز	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصري
٧٧٥-	مرآة العروس	غدير أحمد النعلوي	جلال الأحفاني
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (ج١)	نريد الدين المطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. لندسي	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المصباح	مولانا محمد أحمد وريشا القادري	حازم محفوظ
٧٧٩-	خريطة المكتوبات وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالصمد إبراهيم وسارة تاجاهاشي
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الصمد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	عدى بدران	ثبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كلارسون	جمال عبد القصور
٧٨٣-	العولة والرعاية الإنسانية	أليك جودج ديول ويلدنج	طلعت السروجي
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات من تطور ذكاء الإنسان	كلود ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المنذرية (رواية)	مارجريت أثير	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فونز	خالد أبو الهيثم البقلاحي
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	عليه	منى الرومي
٧٩٠-	الاركانونية العربية	مونيكا بونتو	جيهان العيسوي
٧٩١-	المطير وحامل المطير في مصر القديمة	محمد الشيمي	ماهر جويجاني
٧٩٢-	برلاند حول القصص القديمة لآيريس وسنوية	منى ميقاتيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريشيس	وحي وحنى
٧٩٤-	التاريخ القديم للآيات المقدسة (ج٢)	هوارد زن	شعيلان مكاي
٧٩٥-	مقارنات من الشعر الإسباني (ج١)	نخبة	علي عبد الرحمن البمبي
٧٩٦-	لغات جديدة في دراسة اللغة والفن	نعوم تشومسكي	حمزة المزيني

طلعت شامعين	نخبة	الروية في ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كلترين جيلارد وبافيد جيلارد	الإرشاد النفسي للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمي الجمال	أن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماركاشي	قضايا في علم اللغة التطبيقي	٨٠٠-
يأثراف: محسن يوسف	تقريب دواي	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شربن محمود الرفاعي	ماريا سواباد	مسلمو غرناطة في الأدب الأوروبي	٨٠٢-
عزة الخميسي	توماس باترسون	التفسير والتنمية في القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الطوجي	دانيل هيرفيه-لجيه وجان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر البيري	كانزو إيشوجورو	من لا هزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المتوسطة	٨٠٦-
خبري دومة	ميريام كوك	يحي حق: تشريح مفكر مصري	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابليو آيش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن التميمي	جوزيف آشومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج٢)	٨١١-
فرید الزامي	عوشول مالفيزولي	نقل العالم السيرة والشعب في الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	أنى إيزو	لم أخرج من ليلى (رواية)	٨١٣-
أمال الروبي	نافثال لويس	الحياة اليومية في مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفىليب عبدالمكي	ه. أ. والسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عروكي	أولوب روجيه	العنق الأروكي	٨١٦-
محمد لطفي جمعة	أفلاطون	مائدة أفلاطون: كلام في الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وباتسي جمال الدين	أندريه ريمون	العربون والتجار في القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وباتسي جمال الدين	أندريه ريمون	العربون والتجار في القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طائيس الفندي	وايم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجاسمي	هملت بيكو (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعي (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعي	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برنثي	لغة القراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	يالكوب بوكهارت	مسرح النخبة في إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	يالكوب بوكهارت	مسرح النخبة في إيطاليا (ج٢) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد علي فرج	موتالد بوكول وثريا توكي	اندلجرح هم رهنجند رهنجند رهنجند	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت آينشتين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدي عبد المافظ	إرنست رينان وجمال الدين الأفغاني	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بود	رقى المشق	٨٣٠-
محمد التادى وعطية عاشور	ألبرت آينشتين وألبريود إنكلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن التميمي	جوزيف آشومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (ج٢)	٨٣٢-
محسن النمرdash	فرنر شميدوس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	فيبيج الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

علاء عزمي	بيتر أوربان	تشخيص حياة في صور	٨٣٥-
ممدوح البستاني	مرثيس غارشيا	بين الإسلام والغرب	٨٣٦-
علي فهمي عبد السلام	ناتاليا فيكو	عناكب في الحصيد	٨٣٧-
ابني صبري	نعوم تشومسكي	في ناسور منعب يوش ومقالات أخرى	٨٣٨-
جمال الجزيري	ستيوارت سين ويورين فان اوين	أقدم لغة: النظرية النقدية	٨٣٩-
فوزية حسن	جوتيهارد ليبينج	الخوازم الثالث	٨٤٠-
محمد مصطفى بدرى	وليم شكسبير	هملكت: أمير الدانمارك	٨٤١-
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	منظومة مصيبت نامه (مج٢)	٨٤٢-
محمد علاء الدين منصور	نخبة	من روائع القصيد الفارسي	٨٤٣-
سمير كريم	كريمة كريم	دراسات في الفكر والصراة	٨٤٤-
طلعت الشايب	توكلاس جويات	غياث السلام	٨٤٥-
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	الطبعة البشرية	٨٤٦-
أحمد محمود	مايكل ألبرت	الحياة بعد الترأسالية	٨٤٧-
عبد الهادي أبو ريدة	يوايوس فلهاوزن	تاريخ الدولة العبرية (ميراث الترجمة)	٨٤٨-
بدر توفيق	وليم شكسبير	سونيات شكسبير	٨٤٩-
جابر مصفر	مقالات مختارة	الخيال الأسلوبية للحوالة	٨٥٠-
يوسف مراد	كلود برنار	الطب التجريبي (ميراث الترجمة)	٨٥١-
مصطفى إبراهيم فهمي	رونشارد دوكلز	العلم والعقيدة	٨٥٢-
علي إبراهيم مغولي	باسيليو يارون مالدونادو	الأسارة في الفلسفة: سارة للين والسين (ج١)	٨٥٣-
علي إبراهيم مغولي	باسيليو يارون مالدونادو	الأسارة في الفلسفة: سارة للين والسين (ج٢)	٨٥٤-
محمد أحمد حمد	جيرارد سنتيم	فهم الاستعارة في الأدب	٨٥٥-
حاشية مويوم	فرانثيسكو ماركيث يانو بيلاندوا	القضية الموسيكية من وجهة نظر أخرى	٨٥٦-
كامل حويد الغامري	ألفريد برونين	نابها (رواية)	٨٥٧-
يويوس قنديل	ثيو غريمانز	جوهرة الترجمة: عبور العمود التكلانية	٨٥٨-
مصطفى ماهر	إيف شيميل	السياسة في الشرق القديم	٨٥٩-
عادل صبحي تكللا	فان بلمان	مصر وأوروبا	٨٦٠-
محمد الفواي	چين سميت	الإسلام والمسلمون في أمريكا	٨٦١-
محسن النمريلاش	أرتور شتيتسلر	ببغاء التكاكادو	٨٦٢-
محمد علاء الدين منصور	علي أكبر داني	لقاء بالشمراء	٨٦٣-
عبد الرحيم الرفاعي	تورين إنجرامز	أوراق فلسطينية	٨٦٤-
شوقي جلال	تيري إيلفون	فكرة القتل	٨٦٥-
محمد علاء الدين منصور	مجموعة من المؤلفين	رسائل خمس في الأفاق والأفئس	٨٦٦-
صبري محمد حسن	فيليد مايلز	الهمة الاستوائية (رواية)	٨٦٧-
محمد علاء الدين منصور	ساعد بالقرى ومحمد رضا محمدي	الشعر الفارسي المعاصر	٨٦٨-
شوقي جلال	دوين موتيلر وآخرون	تطور الثقافة	٨٦٩-
حمادة إبراهيم	نخبة	عشر مسرحيات (ج١)	٨٧٠-
حمادة إبراهيم	نخبة	عشر مسرحيات (ج٢)	٨٧١-
محسن فرجاني	لوتسو	كتاب الطائر	٨٧٢-

٨٧٣-	معلومات لغز المسجل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شامع
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج ٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج ١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينشيدر	صلاح محبوب
٨٧٨-	ترحال في سمراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في سمراء الجزيرة العربية (ج ٢، مج ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حصفن بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستعيرين : خيانة وخيانة	جلال آل أحمد	سوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (ج ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (ج ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيرز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإلهام	جان بواتريار	بدر عروكي
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سمعى (شعر)	سمعى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وايم فوكتر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	مكتوبات أشتار فرامى	مخيمطفى فرامى	الصفصافى أحمد الططوى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أنتوه	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سورغال عطية	إسماعيل عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الممر	برتراند راسل	محمد قبرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادي الفرفس (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الصفاط الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جودج هوجاوث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	بريوز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاطمة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	قيارات نقية معدة	مقالات مختارة	جابر مصطفى
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عيد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة القلى
٩٠٣-	أفلام ومناجى (مج ١)	بيل نيكواز	حسن بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناجى (مج ٢)	بيل نيكواز	حسن بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ه. جاراج	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	آرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيبو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الطقة الثقافية	ديفيد كوزنز هوى	خالد حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جويست سمانيز	طلعت الشايب
٩١٠-	برومبشوس بلا قيود	بالتيد س. ليتنس	مى رفعت سلطان

عزت عامر	جون جريسين	٩١١- غبار التجريم
يحيى حقي	روايات مختارة	٩١٢- ترجمات يحيى حقي (ج١) (ميراث الترجمة)
يحيى حقي	مسرحيات مختارة	٩١٣- ترجمات يحيى حقي (ج٢) (ميراث الترجمة)
يحيى حقي	ديزموئيد ستيفارت	٩١٤- ترجمات يحيى حقي (ج٣) (ميراث الترجمة)
مشفرة كروان	روجر چست	٩١٥- المرأة في أثينا: الواقع والتأويل
سلمية الجندي وعبدالمعظم حماد	أنور عبد الملك	٩١٦- الجدلية الاجتماعية
إشراف: أحمد عثمان	نخبة	٩١٧- موسوعة كمبيريدج (ج١)
إشراف: فاطمة موسى	نخبة	٩١٨- موسوعة كمبيريدج (ج٢)
إشراف: رشوى هاشور	نخبة	٩١٩- موسوعة كمبيريدج (ج٣)
فاطمة قنديل	چين جيران و خليل جبران	٩٢٠- خليل جبران: حياته وعمله
ثريا إقبال	أحمد كروما	٩٢١- الله الأمر (رواية)
جمال عبد الرحمن	ميكيل دي إيباكتا	٩٢٢- الفريسيون في إسبانيا وفي المنفى
محمد حرب	ناظم حكمت	٩٢٣- ملحمة حرب الاستقلال (شعر)
فاطمة عبد الله	كريستيان دي روش فويلكورد	٩٢٤- حثيسود: عظمة وسم وسم
فاطمة عبد الله	كريستيان دي روش فويلكورد	٩٢٥- رمسيس الثاني: فروع المعجزات
صبرى محمد حسن	تشارلز فوتي	٩٢٦- ثمال في سمراء البرية البرية (ج١، ج٢)
صبرى محمد حسن	تشارلز فوتي	٩٢٧- ثمال في سمراء البرية البرية (ج١، ج٢)
عزت عامر	كيتي فرجسون	٩٢٨- سجون الضوء
مجدي اللججي	تشارلز داروين	٩٢٩- نشأة الإنسان (مج١)
مجدي اللججي	تشارلز داروين	٩٣٠- نشأة الإنسان (مج٢)
مجدي اللججي	تشارلز داروين	٩٣١- نشأة الإنسان (مج٣)
إبراهيم الشواربي	رشيد الدين العمري	٩٣٢- حقائق الشعر في فلك الشعر (ميراث الترجمة)
علي منوفي	كارلوس بوسونيد	٩٣٣- اللاعقلانية الشعرية
طلعت الشايب	تشارلز لارسون	٩٣٤- محنة الكاتب الأمريكي
علا عادل	فولكو جيبيهارث	٩٣٥- تاريخ الفن الألمانى
أحمد فوزى عبد الحميد	إد ريجيس	٩٣٦- بيولوجيا الجحيم
عبدالحى سالم	أحمد ندال	٩٣٧- هيا نحكي (قصص أطفال)
سعيد الطيمي	بيير بورديو	٩٣٨- التأملات السياسية عند مارتين ميديو
أحمد مستجير	ستيفن چونسون	٩٣٩- سجن العقل
علاء على زين العابدين	مجموعة مقالات	٩٤٠- اليابان الحديثة: قضايا وآراء
صبرى محمد حسن	أى كوينز أرماء	٩٤١- الخصاليات لم يولفن يمد
وجيه سمعان عبد المسيح	إريك هوسبيوم	٩٤٢- القرن الجديد
محمد عبد الواحد	مختارات من القصص الأفريقية	٩٤٣- لقاء في الظلام
سمير جريس	باتريك زيكين	٩٤٤- الكونتراياص
ثريا توفيق	جان چاك روسو	٩٤٥- أحمق يفتن جولان سفره (ميراث الترجمة)
محمد مهدي قنارى	ميشيل ليريس	٩٤٦- الزار ومظاهرة المسرحية في إثيوبيا
محمد قنارى صارة	برتراند راسل	٩٤٧- عاروا المعنى والعقلية
فريد چورج بورى	رونالد أوليفر وأنتوني أتمور	٩٤٨- أفريقيا منذ عام ١٨٠٠

٩٤٩-	مقبرة الممدأ	أندريه فيش	تافع مولا
٩٥٠-	فى علم الكتابة	چاك ديريدا	منى طلبة وأنور مخيت
٩٥١-	الانتهام (رواية)	فريدريش دوريشمات	عماد حسن بكر
٩٥٢-	العبد ومسرحيات أخرى	أميرى بركة	نعيمة عبد الجواد
٩٥٣-	مختارات من الشعر الإسباني (ج٢)	نخبة من الشعراء	على عبد الوهف البمبى
٩٥٤-	الأسول الاجتماعية لفلسفة التسمية فى عهد محمد طر	فرد لويسون	عنان الشهاري
٩٥٥-	الطب والأشياء	سيلفيا شيفولو	ماجدة أباطلة
٩٥٦-	نعم، ليست لدينا نيوترونات	ا. ك. بيننى	سمير حنا صادق
٩٥٧-	الحركات الاجتماعية (١٧٨٨-١٩٠٤)	تشارلز تلى	ربيع وهبة
٩٥٨-	أصوات على هامش الحرب	مريام كوك	صلاح حزين
٩٥٩-	المويسكيون فى الفكر التاريخي	ميفيل أنقول بينيس	وسام محمد جزد
٩٦٠-	محمد على الكبير	الأمير مشان إيراميم وكارولين وعلى كورغان	هدى كشورود
٩٦١-	شعر الرعاة (ميراث الترجمة)	مختارات من الأدب اليوناني	محمد صقر خفاجة
٩٦٢-	مخيل إلى الفلسفة	وليام جيمس إيرل	عادل مصطفى
٩٦٣-	منتخبات شعرية	حسن رضا خان الهندي	فاطمة سيد عبد المجيد
٩٦٤-	أصول النطرف	كيمبرلى بليكر	هبة روف وثامر عبد الوهاب
٩٦٥-	روح مصر القديمة	أنا وريز	إكرام يوسف
٩٦٦-	ما وراء الطبيعة فى إيران (ميراث الترجمة)	محمد إقبال	حسين مجيب المصري
٩٦٧-	فن الحرب (مج ١)	سون تزي	هشام المالكى
٩٦٨-	عالم الخوارق	ج. كوير	كمال الدين حسم
٩٦٩-	التلفزيون خطر على الديمقراطية	كارل بوير وچون كوندري	مجدى عبد الحافظ
٩٧٠-	ريما فى حب ذات يوم وقصص أخرى	نخبة	أحمد الشيمى
٩٧١-	الأدب اللاتسي القديم (ميراث الترجمة)	بول هوذن	حسين مجيب المصري
٩٧٢-	الإسهامات الإيطالية فى عهد محمد على باشا	مقالات مختارة	عماد البندادى
٩٧٣-	تطور فن المعادن الإسلامى	أولكر أرفين صوى	الصفصافى أحمد القطورى
٩٧٤-	فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام	مجدى عبد الحافظ	هدى كشورود
٩٧٥-	وقائع انتحار مولف عمومى	ميشيل بيوس	حسن عبد ربه المصري
٩٧٦-	تفهم ذهنية مدمن المسكرات	أرنولد لوبفج	صبرى محمد حسن
٩٧٧-	التعبير عن الانتماء فى الإنسان والحيراث	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٧٨-	الإسلام خوارق وسوانح (ميراث الترجمة)	الكوت هفوى دى كاسترى	أحمد قتمى زغلول باشا
٩٧٩-	الأدب والالتزام من باكال إلى حارث	بونوا فونى	محمد يرادة
٩٨٠-	الكلمات المقاتية	رايموند ويليامز	نديمان عثمان
٩٨١-	الكلمة للبيت	فيرنانديث موراثين	السود عبد الغنم مصوبه
٩٨٢-	اللغة والإنترنت	ديفيد كريسفال	أحمد شليق الخطيب
٩٨٣-	روح الاجتماع (ميراث الترجمة)	جوستاف لويون	أحمد قتمى زغلول باشا
٩٨٤-	التلفزيون ونمو الطفل	جوديث فان إفرا	عز الدين جميل عطية
٩٨٥-	طبية ونشأة إمبراطورية	كلير لالويت	هاجر جويجاتى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٣٨١٥ / ٢٠٠٥



يروى هذا الكتاب - بمجلداته الثلاثة - تاريخ مصر القديمة، من خلال النصوص، بدءاً من الدولة القديمة حتى الدولة الحديثة. وقد راعت المؤلفة أن يكون كل مجلد كتاباً مستقلاً.

إن مجلد «طيبة» هو المجلد الثاني، مكرس للأسرة الثامنة عشرة، وهي من أزهى عصور مصر القديمة؛ ففي زمانها تأسست الإمبراطورية المصرية... وقد حرصت المؤلفة على ترجمة هذه النصوص مباشرة عن أصلها المصري، واستطاعت تحليلها تحليلاً موضوعياً، دون عزلها عن سياقها العام، ومن خلال رؤية شاملة، تأخذ بعين الاعتبار، التطور الطبيعي للعقل المصري ومعتقداته. فضربت عرض الحائط بالأفكار المسبقة أو المقبولة أو النظرة الانتقائية، التي شوهت أحياناً التاريخ المصري، بإسقاطها الحاضر على الماضي، دون مراعاة للمفارقات التاريخية.

إنه كتاب جدير بالقراءة، لما يحتويه من نصوص، ربما ينشر بعضها للمرة الأولى، أو من خلال ترجمة جديدة، فتبعث الحياة في واقع، كدنا نظن أنه مات واندثر.

